سلسلة شرح متون الاعتقاد عند أئمة السلف

شرح وصية بمجمل اعتقاد السلف

للإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله

أ.د. محمد بن خليفة التميمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله نحمده، ونَستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَن يَهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحْده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: الآية: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: الآية: 1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: الآيتان: 70 – 71].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وأحسنَ الهَدْي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشرَّ الأُمُور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

فهذا شرح لوصية الإمام الشافعي-رحمه الله-وقع اختياري عليها ضمن مشروع شرعت فيه لشرح متون الاعتقاد، فقد سبق-بحمد الله-انتهيت من شرح المتون الآتية:

١-أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).

٢-رسالة الإمام أحمد بن حنبل إلى مسدد بن مسرهد.

٣- أصول أهل السنة لعبد الله بن الزبير لحميدي (ت: ٢١٩ هـ).

٤- شرح السنة للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (ت: ٣٢٩ هـ).

٥-اعتقاد أهل السنة أهل الحديث لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (ت: ٤٤٩ هـ).

٦-اعتقاد سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (ت: ١٦١ هـ).

٧- اعتقاد عبد الله بن المبارك بن وضاح المروزي (ت: ١٨١ هـ).

٨- اعتقاد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (ت: ١٩٨ هـ).

-رحمهم الله جميعًا-، والعمل جار على شرح متون أخرى للمتقدمين من سلف هذه الأمة.

ويهدف هذا المشروع إلى التعريف بتلك المتون، وشرح مضامينها وما حوته من مسائل تتعلق بأصول الاعتقاد، وربط طلاب العلم بها، وحثهم على التفقه فيها، والنهل من معينها الصافي الذي لم تشوبه أو تكدره الأهواء والبدع، فهذه الرسائل تحمل الميراث المتوارث الذي حمله أولئك العلماء الأفذاذ لهذه الأمة، فهو جدير بالاهتمام والعناية.

وقد كان عملي في هذا الشرح وفق الأمور الآتية:

قسمت العمل إلى قسمين:

القسم الأول: القسم الدراسي.

وتضمن الأمور الآتية:

أولًا: ترجمة موجزة للإمام الشافعي.

ثانيًا: المؤلفات التي اعتنت بجمع عقيدة الإمام الشافعي-رحمه الله-.

ثالثًا: إثبات صحة نسبة الوصية للإمام الشافعي-رحمه الله-.

وأما القسم الثاني: شرح متن الوصية.

وقد سلكت في هذه الشروح مسلك البسط والتوسع في بيان المسائل، وليس مسلك التعليق المختصر لقناعتي بأن غالب من يطلع على هذه الشروح هم من المبتدئين من الطلبة، وهذا الصنف لديه الرغبة والهمة في معرفة ما يتعلق بهذه المسائل من تفاصيل وتفريعات، كما أن للتعليق بابه الذي يصلح له، فهو يصلح لمن يسلك مسلك قراءة بعض الكتب على بعض العلماء ومن ثم التعليق المختصر على مواطن من تلك الكتب، وأما شرح الكتب فله بابه الذي يتميز به، وللأسف الشديد أن البعض لا يفرق بين الأمرين.

وقد اجتهدت وبذلت ما في وسعي في شرح هذا المتن، يبقى مع ذلك أن عملي هذا جهد البشر يعتريه النقص والخلل، فأرجو أن أكون قد أصبت بما كتبت، وإن كان الأمر على خلاف ذلك فأرجو على المطلع على ذلك الخلل والنقص أن يرشدني لذلك لعلي أستدركه، قال ابن

رجب الحنبلي-رحمه الله-: "يَأبى اللَّهُ العِصمةَ لكِتابٍ غَيرِ كِتابِه، والمنصِفُ مِنِ اغتَفَرَ قَليلَ خَطَأِ المرءِ في كَثيرِ صَوابِه". [1]

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ويبارك فيه ويجعله خالصًا لله تعالى، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1 تقرير القواعد وتحرير الفوائد (1/ 56).

القسم الأول: قسم الدراسة

أولًا: ترجمة موجزة للإمام الشافعي-رحمه الله-. .

ثانيًا: المؤلفات التي اعتنت بجمع عقيدة الشافعي-رحمه الله-.

ثالثًا: إثبات صحة نسبة الوصية للإمام الشافعي-رحمه الله-.

أولًا: ترجمة موجزة للإمام الشافعي-رحمه الله-.

اسمه ونسبه:

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي، الغزي المولد، نسيب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وابن عمه، فالمطلب هو أخو هاشم والد عبد المطلب". [1]

فأما جدهم السائب المطلبي، فكان من كبراء من حضر بدرًا مع الجاهلية، فأُسر يومئذ، وكان يُشَبَّهُ بالنبي-صلى الله عليه وسلم-، ووالدته هي الشفاء بنت أرقم بن نضلة، ونضلة هو أخو عبد المطلب جد النبي-صلى الله عليه وسلم-، فيقال: إنه بعد أن فدى نفسه، أسلم". [2]

---

1 "سير أعلام النبلاء" (10/ 5).

2 "تاريخ بغداد" (2/ 58).

وابنه شافع له رؤية، وهو معدود في صغار الصحابة. [1]

وولده عثمان تابعي، لا يعلم أن له كبير رواية.

وكان أخوال الشافعي من الأزد.

مولده ونشأته:

ولد بغزة ، سنة (150 هـ) وهي مدينة باسلة معروفة تقع في جنوب فلسطين، على حدود مصر، قريبة من عسقلان، وفيها مات هاشم بن عبد مناف جد رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وبها قبره، ولذلك يقال لها: غزة هاشم.

قال ابن عبد الحكم: لما حملت والدة الشافعي به، رأت كأن المشتري خرج من فرجها، حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلدة منه شظية، فتأوله المعبرون أنها تلد عالمًا، يخص علمه أهل مصر، ثم يتفرق في البلدان.

قال الذهبي في : "السير" عقب هذه الرواية : "هذه رواية منقطعة".

---

1 "أُسد الغابة " (2/ 501).

قلت : والشافعي-رحمه الله-ملأ علمه الأرض وليس مصر فحسب.

قال الشافعي: وُلِدتُ باليمن-يعني القبيلة، فإن أُمَّهُ أزدية-قال: فخافت أمي علي الضيعة، وقالت: الحق بأهلك، فتكون مثلهم، فإني أخاف عليك أن تُغلَب على نسبك، فجهزتني إلى مكة، فقدمتها يومئذ وأنا ابن عشر سنين، فصرت إلى نسيب لي، وجعلت أطلب العلم، فيقول لي: لا تشتغل بهذا، وأقبل على ما ينفعك، فجعلت لذتي في العلم. [1]

قال الحافظ ابن حجر: قال الحافظ شمس الدين الذهبي شيخ شيوخنا: هذا القول غلط إلا أن يريد باليمن قبيلة.

قال ابن أبي حاتم: سمعت عمرو بن سواد: قال لي الشافعي: ولدت بعسقلان، فلما أتى علي سنتان، حملتني أمي إلى مكة.

وقال ابن عبد الحكم: قال لي الشافعي: ولدت بغزة سنة خمسين ومئة، وحملت إلى مكة ابن سنتين.

---

1 "آداب الشافعي" لابن أبي حاتم (ص: 21، 22)، و "مناقب الشافعي" للبيهقي (1/ 73، 74).

قال الربيع بن سليمان: وُلِدَ الشافعي يوم مات أبو حنيفة.

قلت: سبحان من أقام على الناس حجته: مات إمام ، ووُلِد إمام.

توفي أبوه شابًا، فنشأ الإمام يتيمًا. وحُبِبَ اليه الرمي والعلم في سن مبكر.

قال عمرو بن سواد: قال لي الشافعي: كانت نهمتي في الرمي وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وسكت عن العلم، فقلت: أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي. [1]

طلبه للعلم:

طلب الإمامُ العلمَ في وقت مبكر، وساعده على ذلك انتقاله إلى مكة في وقت مبكر.

قال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه.

---

1 "تاريخ بغداد" (2/ 59-60).

وعن الشافعي قال: كنت أكتب في الأكتاف والعظام، وكنت أذهب إلى الديوان، فأستوهب الظهور، فأكتب فيها.

وعن الشافعي قال: أتيت مالكًا وأنا ابن ثلاث عشرة سنة – كذا قال، والظاهر أنه كان ابن ثلاث وعشرين سنة–قال: فأتيت ابن عم لي والي المدينة، فكلم مالكًا، فقال: اطلب من يقرأ لك.

قلت: أنا أقرأ، فقرأت عليه، فكان ربما قال لي لشيء قد مر: أعده، فأعيده حفظًا، فكأنه أعجبه، ثم سألته عن مسألة، فأجابني، ثم أخرى، فقال: أنت تحب أن تكون قاضيًا.

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت على مالك، وقد حفظت "الموطأ" ظاهرًا، فقلت: أريد سماعه، قال: اطلب من يقرأ لك.

فقلت: لا عليك أن تسمع قراءتي، فإن سهل عليك قرأت لنفسي.

قال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قرأت القرآن على إسماعيل بن قسطنطين، وقال: قرأت على شبل، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير، وقرأ على مجاهد، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس.

قال أبو عبيد: رأيت الشافعي عند محمد بن الحسن، وقد دفع إليه خمسين دينارًا، وقد كان قبل ذلك دفع إليه خمسين درهما، وقال: إن اشتهيت العلم، فالزم.

قال أبو عبيد: فسمعت الشافعي يقول: كتبت عن محمد وقر بعير، ولما أعطاه محمد، قال له: لا تحتشم.

قال: لو كنت عندي ممن أحشمك ما قبلت برك.

قلت: أحشمك: يعني أستحيي منك.

قال أحمد بن أبي سريج: سمعت الشافعي يقول: قد أنفقت على كتب محمد ستين دينارًا، ثم تدبرتها، فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثًا، يعني: رد عليه.

قال هارون بن سعيد: قال لي الشافعي: أخذت اللبان سنة للحفظ، فأعقبني صب الدم سنة.

قلت: اللبان: نبت صمغي ويسمى الكندر.

قال الحميدي: سمعت مسلم بن خالد الزنجي يقول للشافعي: أفت يا أبا عبد الله، فقد والله آن لك أن تفتي-وهو ابن خمس عشرة سنة-.

شيوخه :

تلقى الشافعي العلم عن جماعة كبيرة من الأشياخ أخص بالذكر منهم:

1- مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة (ت: ١٧٩ أو ١٨٠ هـ).

2- داود بن عبد الرحمن العطار (ت: ١٧٤ أو ١٧٥ هـ).

3- عمه محمد بن علي بن شافع، فهو ابن عم العباس جد الشافعي.

4- سفيان بن عيينة (ت: ١٩٨ هـ).

5- عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي.

6- سعيد بن سالم (ت: ٢٠٠ هـ).

7- فضيل بن عياض (ت: ١٨٦ أو ١٨٧ هـ).

8- عبد العزيز الدراوردي (ت: ١٨٦ هـ).

9- عطاف بن خالد (بين ١٧١ هـ و ١٨٠ هـ).

10- إسماعيل بن جعفر (ت: ١٨٠ هـ).

11- إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ١٨٢ هـ).

12- الإمام مالك بن أنس فقيه المدينة (ت: ١٧٩ هـ).

13- محمد بن الحسن، فقيه العراق (ت: ١٨٩ هـ).

14- اسماعيل بن إبراهيم بن علية (ت: ١٩٣ هـ).

15- هشام بن يوسف القاضي (ت: ١٩٧ هـ).

تلاميذه:

للشافعي مجموعة كبيرة من التلاميذ، وبعضهم كانوا من أقرانه-رحمه الله-، وقد أفرد الدارقطني كتاب "من له رواية عن الشافعي" في جزأين. فمنهم:

1- عبد الله بن الزبير الحميدي (ت: ٢١٩ هـ).

2- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤ هـ).

3- الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ).

4- سليمان بن داود الهاشمي (ت: ٢١٩ هـ).

5- أبو يعقوب يوسف البويطي (ت: ٢٣١ هـ).

6- أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت: ٢٤٦ هـ).

7- حرملة بن يحيى (ت: ٢٤٣ هـ).

8- موسى بن أبي الجارود المكي (لم تعرف سنة وفاته).

9- عبد العزيز المكي صاحب " الحيدة" (ت: ٢٤٠ هـ).

10- حسين بن علي الكرابيسي (ت: ٢٤٥ أو ٢٤٨ هـ).

11- إبراهيم بن المنذر الحزامي (ت: ٢٣٥ أو ٢٣٦ هـ).

12- الحسن بن محمد الزعفراني (ت: ٢٦٠ هـ).

13- أحمد بن محمد الأزرقي ت: ٢٢٢ هـ).

14- أحمد بن سعيد الهمداني (ت: ٢٥٣ هـ).

15- أحمد بن أبي شريح الرازي (ت: ٢٣٠ هـ).

16- أحمد بن يحيى بن وزير المصري (ت: ٢٥١ هـ).

17- أحمد بن عبد الرحمن الوهبي (ت: ٢٦٤ هـ).

18- ابن عمه إبراهيم بن محمد الشافعي (ت: ٢٣٧ أو ٢٣٨ هـ).

19- إسحاق بن راهويه (ت: ٢٣٨ هـ).

20- إسحاق بن بهلول (ت: ٢٥٢ هـ).

21- أبو عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعي المتكلم (ت: ٢٣٠ هـ).

22- الحارث بن سريج النقال (ت: ٢٣٦ هـ).

23- حامد بن يحيى البلخي (ت: ٢٤٢ أو ٢٤٣ هـ).

24- سليمان بن داود المهري (ت: ٢٥٣ هـ).

25- عبد العزيز بن عمران بن مقلاص (ت: ٢٣٤ هـ).

26- علي بن معبد الرقي (ت: ٢١٨ هـ).

27- محمد بن يحيى العدني (ت: ٢٤٣ هـ).

28- يونس بن عبد الأعلى (ت: ٢٦٤ هـ).

29- الربيع بن سليمان المرادي (ت: ٢٧٠ هـ).

30- الربيع بن سليمان الجيزي (ت: ٢٥٦ هـ).

رحلته:

ذكر أبو اسماعيل الهروي في "ذم الكلام" بسنده عن المزني سمعت الشافعي قال: "إني كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد". [1]

ويمكن أن نلخص الكلام في رحلات الإمام على الوجه الآتي:

---

1 توالي التأسيس (ص: 59).

المرحلة الأولى من عمره: وفيها سني الطلب الأولى وقد كانت في مكة-شرفها الله-، وفيها أخذ تلقى العلوم على شيوخها مثل: الزنجي فقيه مكة، وسفيان بن عيينة شيخ الحديث فيها.

الرحلة الأولى: خرج من مكة إلى هذيل ليتعلم العربية والشعر وأخبار الناس.

الرحلة الثانية: يَمّمَ نحو المدينة النبوية ليسمع من أعلامها مثل الإمام مالك فقيه المدينة وشيخ الحديث فيها، وغيره من الأئمة، فقصدها وقد كان اجتاز العشرين من عمره، وبقي فيها إلى أن وافت المنيةُ شيخَ المدينة (سنة 179هـ)، وقد قرأ في هذه الرحلة "الموطأ" على الإمام مالك وحصّل فيها علمًا غزيرًا. وفي المدينة بدأت ملامح العلم تترسم بشكل واضح في شخصيته، وظهرت خطوطها.

ولما توفي الإمام مالك رجع الشافعي إلى بلده التي فيها نشأ، وعلى أرضها ترعرع.

الرحلة الثالثة: قدّر الله له أن يسافر إلى اليمن، وهناك تقلّد عملًا له علاقة بالديوان، ثم علا صيتُه، وَرُقّي في عمله، فنصحه شيوخه أن يترك الخدمة في اليمن، وأن يرجع الى العلم، فقد كانوا يرون له شأنًا عظيمًا.

وقبل أن يتخذ قراره بترك العمل، دقّتِ المحنةُ بابَه، وأبى الله له إلا أن يكون كما كان، الإمام العلم المشهور الذي ملأ الأرض علما. فقد حسده بعض الحساد، فقد خافوا من منافسته لهم في الدنيا، فكتب أحد الولاة إلى هارون الرشيد أن جماعة من العلوية ظهرت عندنا، وإني أخاف أن يخرجوا عليك، وذكر الشافعي فيهم ، فطلب الرشيد أن يُحملوا إليه، وكان فيهم الإمام الشافعي.

الرحلة الرابعة: كانت هذه الرحلة من غير اختيار من الشافعي، ليتم الله أمرا كان مفعولا فكانت رحلته الأولى إلى بغداد، رحلةً رغم أنفه، فقد وُضع رهن الاعتقال في بغداد ريثما يُبَتُّ في أمره، فكان يَتردّدُ على محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة، ثم كانت محاكمته، ونجا منها بفضل الله تعالى، وأكرمه الرشيد، ووصله ببعض المال.

ومكث ببغداد ما شاء الله له أن يمكث، ولازم محمد بن الحسن، حتى أخذ عنه معظم علومه، وأخذ العلم من شيوخ بغداد، وكانت بغداد آنذاك عاصمة الخلافة، ومنارة العلم، ومقصد الطلبة من كل أنحاء الأرض، ثم رجع الإمام إلى مكة.

وفي مكة صار الشافعي شيخها الذي لا يُزاحم، وانتشر أمره ، وبَعُدَ صيتُه، وصار الناس يقصدونه من خارج مكة.

الرحلة الخامسة: رجع إلى بغداد، ولكنه في هذه المرة ذهب باختياره، وذهب مُعلمًا ومتعلمًا، فقد تكاملت شخصيته العلمية، وصار له خطه الواضح في العلم، وارتقى منبر الإمامة، فَعُقِدت له حلقة العلم، وأقبل أهل العلم على مجالسه، وصارت حلقته من أكبر الحلقات، واستطاع الشافعي أن يترك أثرًا كبيرًا في نفوس أهل العلم، واستطاع أن يجمع أهل الحديث والفقه إليه، وصار شيخ بغداد بلا منازع، ومكث في بغداد سنتين.

ثم رجع إلى مكة .

الرحلة السادسة: رجع مرة ثالثة إلى بغداد (سنة: 198 هـ)، وبقي فيها أشهرًا.

الرحلة السابعة: بدا له أن يسافر إلى مصر، فقصدها في أواخر (سنة: 199 هـ)، ونشر مذهبه فيها، وأعاد النظر في بعض المسائل وهو في مصر، فَوُلِد المذهب الجديد، وكانت حلقة العلم التي يعقدها في مصر لا تُضاهى، وكان يُدَرِّس مختلف العلوم-رحمه الله-، وخلَّف الشافعي في مصر أربعة من تلاميذه، وهم الذين نشروا علمه، وهم : الربيع بن سليمان، وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، واسماعيل بن يحيى المزني، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم.

مصنفاته:

كان الشافعي مكثرًا من التصنيف، وقد ساق ابن حجر في توالي التأسيس جملة طيبة منها، فمنها:

١-الرسالة القديمة. 2- ثم الجديدة. 3- اختلاف الحديث. 4- جماع العلم. 5- ابطال الاستحسان. 6- أحكام القرآن. 7- صفة الأمر والنهي. 8- بيان الفرض. 9- اختلاف مالك والشافعي. 10-اختلاف العراقيين. 11- اختلافه مع محمد بن الحسن. 12-كتاب علي وعبد الله. 13- فضائل قريش. 14-كتاب الأم. 15- الحجة.

وفاته:

كان الشافعي-رحمه الله-رجلًا مسقامًا كثير الأمراض، وكان يشكو البواسير، وفي آخر أيامه كانت الحمى أخذت منه مأخذًا عظيمًا.

قال المزني: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف أصبحت ؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، ولاخواني مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها،أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى.

وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي***جعلت رجائي دون عفوك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته *** بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل *** تجود وتعفو منة وتكرما

فإن تنتقم مني فلست بآيس *** ولو دخلت نفسي بجرمي جهنما

ولولاك لم يغوى بإبليس عابد***فكيف وقد أغوى صفيك آدما

وإني لآتي الذنب أعرف قدره ***وأعلم أن الله يعفو ترحما [1]

وبعد حياة حافلة مليئة بالعلم والتعليم، حضرته الوفاة في بعد العصر من يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين .

وقد عقد الحافظ ابن حجر فصلا في كتابه "توالي التأسيس" في وفاة الامام الشافعي .

---

1 طبقات الشافعية للسبكي (1/ 156).

من خصائص شخصية الإمام:

لقد تميزت شخصية الإمام الشافعي بكثير من الخصائص لكني هنا سأقتصر على بعضها بما يتناسب مع هذا البحث المختصر، وسأذكر مثالًا واحدا مبينا لِلخِصِّيصة التي أذكرها، فمنها:

١-النسب الشريف:

ذكرنا فيما تقدم في نسبه الشريف أنه قرشي مطلبي، وبيّنا هناك صلته بالنبي-صلى الله عليه وسلم-.

قال الإمام أحمد بن حنبل: "إذا سُئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرًا، قلت فيها بقول الشافعي، لأنه إمام قرشي، وقد روي عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: "عالم قريش يملأ الأرض علما" إلى أن قال أحمد: وإني لأدعو للشافعي منذ أربعين سنة في صلاتي". [1]

٢-مجدد هذه الأمة على رأس المائة الثانية:

---

1 الحلية (9/ 65).

تقدم قول الإمام أحمد من طرق عنه: "إن الله يقيض للناس في رأس كل مئة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الكذب، قال: فنظرنا، فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي".

٣-الذاكرة القوية:

قال المزني: سمعت الشافعي يقول : "حفظت القرآن وأنا ابن سبع ، وحفظت "الموطأ" وأنا ابن عشر". [1]

وقال مصعب الزبيري: "قرأ الشافعي أشعار هذيل حفظًا، ثم قال لي: لا تخبر أحدًا". [2]

٤-حسن الفهم:

---

1 توالي التأسيس (ص: 54).

2 توالي التأسيس (ص: 54).

قال حرملة: سُئل الشافعي عن رجل في فمه تمرة، فقال: إن أكلتها، فامرأتي طالق، وإن طرحتها، فامرأتي طالق، قال: يأكل نصفا، ويطرح النصف. [1]

قال المزني: قال لي الشافعي : "حضرت مالك بن أنس، وأنا أسمع منه الحديث، ولي دون الأربع عشرة سنة، فجاءه رجل فوقف عليه، ثم قال له: إني رجل أبيع القمّاري فبعت قُمّريا على هذه، فرده إلي فقال: ما له صوت، فحلفت بالطلاق أنه لا يسكت، فقال: أوسكت ؟ قلت: نعم قال: أنت حانث.

قال الشافعي: فتبعته فقلت له: يا رجل كيف حلفت؟

قال: حلفت بما سمعت.

قال: فقلت له: صياحُه أكثرُ أم سكوته ؟

فقال: صياحه.

فقلت: مر فإن امرأتك لك حلال.

---

1 الحلية (9/ 143).

قال: فماذا أصنع وقد أفتاني مالك بما أفتى ؟

فقال: عُد إليه فقل له: إن في مجلسك من أفتاني بأنّ امرأتي هي لي حلال وأَومئ إليّ ، ودعني وإياه، فرجعَ ورجعتُ وجلستُ فيما بين الناس.

فقال له: إني رأيت أن تنظر في يميني.

قال: أليس قد أفتيناك بأنك حانث.

فقال: في مجلسك من أفتاني بأن امرأتي هي لي حلال.

قال: أفي مجلسي؟

قال: نعم.

قال: ومن هو ؟

فأومأ إليّ فقال لي مالك : أنت أفتيته بذلك ؟

قلت: نعم .

قال: ولماذا أفتيته بذلك .

قلت له: سمعتك تروي عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال لفاطمة بنت قيس : "إذا حللت فإذنيني" فلما حلّت، قالت له: قد خطبني معاوية وأبو جهم فقال: "أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه" وعلم رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أن أبا جهم يضع عصاه عن عاتقه ويتصرف في أموره، فإنما نُسب إلى ضرب النساء فذكر أنه لا يضع عصاه عن عاتقه وحَمَلَه على الأغلب من أمره، وإني سألته وقلت: سكوته أكثر أم صياحه؟ فقال : صياحه، فأفتيته بذلك.

قال: فتبسم مالك، وقال: القول قولك". [1]

5– موسوعية المعرفة:

قال الإمام أحمد بن حنبل: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه. [2]

---

1 تاريخ دمشق (51/ 305).

2 مناقب الشافعي (2/ 41).

ومن العلوم التي برع فيها بالإضافة إلى ما اشتهر فيه في الفقه وأصوله:

اللغة:

قال عبد الملك بن هشام اللغوي: طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعت منه لحنة قط.

قلت(الذهبي): أنى يكون ذلك، وبمثله في الفصاحة يضرب المثل، كان أفصح قريش في زمانه، وكان مما يؤخذ عنه اللغة. [1]

الطب:

من أقواله في الطب :

"عجبا لمن يحتجم ثم يأكل من ساعته كيف يعيش ".

"من أكل الاترج، ثم نام، لم آمن أن تصيبه ذبحة".

---

1 السير (10/ 49).

"ثلاثة أشياء دواء من لا دواء له وأعيت الأطباء مداواته: العنب، ولبن اللقاح، وقصب السكر، لولا قصب السكر ما أقمت ببلدكم".

قال حرملة: "كان غلامي أعشى، لم يكن يبصر باب الدار، فأخذت له زيادة الكبد، فكحلته بها فأبصر". [1]

السير:

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: "ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعي". [2]

قال يونس الصدفي: "كان الشافعي إذا أخذ في أيام الناس قلت: هذه صناعته". [3]

الأنساب:

---

1 السير (10/ 56).

2 مناقب الشافعي (1/ 488).

3 السير (10/ 75).

نقل الإمام ابن سريج عن بعض النسابين قال: "كان الشافعي من أعلم الناس بالأنساب، لقد اجتمعوا معه ليلة، فذاكرهم بأنساب النساء إلى الصباح، وقال: أنساب الرجال يعرفها كل أحد". [1]

الشعر: وله في ذلك قصائد مشهورة.

6- كمال العقل:

قال أبو عبيد: "ما رأيت أحدًا أعقل من الشافعي"، وكذا قال يونس بن عبد الأعلى، حتى إنه قال: "لو جمعت أمة لوسعهم عقله ". [2]

وقال معمر بن شبيب: "سمعت المأمون يقول: قد امتحنت محمد بن إدريس في كل شئ، فوجدته كاملًا".

7- حسن التصنيف:

---

1 مناقب الشافعي (1/ 488).

2 مناقب البيهقي (2/ 185).

قال يحي بن أكثم في الإمام الشافعي لما سأله الضاغاني عن أبي عبيد والشافعي، أيهما أعلم ؟

قال: " أبو عبيد كان يأتينا هاهنا كثيرًا، وكان رجلًا إذا ساعدته الكتب، كان حسن التصنيف من الكتب، وكان يرتبها بحسن ألفاظه لاقتداره على العربية، وأما الشافعي، فقد كنا عند محمد بن الحسن كثيرًا في المناظرة، وكان رجلًا قرشي العقل والفهم والذهن، صافي العقل والفهم والدماغ، سريع الإصابة-أو كلمة نحوها-ولو كان أكثر سماعًا للحديث، لاستغنى أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-به عن غيره من الفقهاء".

وقال الإمام أحمد: "ما أحد مس محبرة ولا قلمًا، إلا وللشافعي في عنقه منة".

8- قوة الحجة في المناظرة:

قال ابن عبد الحكم: "ما رأيت الشافعي يناظر أحدًا إلا رحمته ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك، وهو الذي علم الناس الحجج". [1]

---

1 السير (10/ 50).

قال هارون بن سعيد الأيلي: "لو أن الشافعي ناظر على أن هذا العمود الحجر خشب لغلب، لاقتداره على المناظرة". [1]

وفي الجزء السابع من "كتاب الأم" بعض هذه المناظرات.

9- صاحب فراسة :

قال الربيع: "كنت أنا والمزني والبويطي عند الشافعي، فنظر إلينا، فقال لي: أنت تموت في الحديث، وقال للمزني: هذا لو ناظره الشيطان، قطعه وجدله، وقال للبويطي: أنت تموت في الحديد".

قال: فدخلت على البويطي أيام المحنة، فرأيته مقيدًا مغلولًا". [2]

---

1 حلية الأولياء (9/ 103).

2 مناقب الشافعي (2/ 136) .

وجاءه رجل مرة، فسأله-يعني الشافعي-عن مسألة، فقال: أنت نساج ؟ قال: عندي أجراء. [1]

قال الحميدي : "قال الشافعي: خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها". [2]

قال الربيع: "مرَّ أخي، فرآه الشافعي، فقال: هذا أخوك ؟

ولم يكن رآه. قلت: نعم. [3]

وقال المزني: "كنت أمشي مع الشافعي في الجامع إذ دخل رجل يدور على النيام، فقال الشافعي للربيع: قم فقل له: ذهب لك غلام أسود مصاب بأحدى عينيه؟

---

1 السير (1/ 40).

2 مناقب البيهقي (2/ 136).

3 مناقب الشافعي (2/ 130).

قال الربيع: فقمت اليه، فقلت له: فقال: نعم. فقلت: تعال، فجاء إلى الشافعي، فقال أين عبدي؟

فقال: مرّ تجده في السجن".

وأختم ترجمته بقول الذهبي:

"لا نُلام والله على حُبِّ هذا الإمام، لأنه من رجال الكمال في زمانه-رحمه الله-". [1] [2]

---

1 مراجع ترجمته:

التاريخ الكبير 1 / 42، التاريخ الصغير 2 / 302، الجرح والتعديل 7 / 201، حلية الاولياء 9 / 63 - 161، الفهرست 263، مناقب الشافعي للبيهقي، الانتقاء: 65 - 121، تاريخ بغداد 2 / 56 - 73، طبقات الفقهاء للشيرازي: 48 - 50، طبقات الحنابلة 1 / 280، ترتيب المدارك 2 / 382، الانساب 7 / 251 - 254، تاريخ ابن عساكر 14 / 395 - 418 و 15 / 1 - 25، صفة الصفوة 2 / 95، مناقب الشافعي للرازي، معجم الادباء 17 / 281 - 327، تهذيب الاسماء واللغات 1 / 44 - 67، وفيات الاعيان 4 / 163 - 169، المختصر في أخبار البشر 2 / 28 - 29، تهذيب الكمال لوحة 1160، تذهيب التهذيب 3 / لوحة 180 / 2، تاريخ الاسلام 11 / 29 ب - 39 أ، تذكرة الحفاظ 1 / 361 - 363، الكاشف 3 / 17، عيون التواريخ 7 / لوحة 172 - 183، الوافي بالوفيات 2 / 171 - 181، مرآة الجنان 2 / 13 - 28، طبقات الشافعية للسبكي: انظر الجزء الاول، البداية والنهاية 10 / 251 - 254، الديباج المذهب 2 / 156 - 161، غاية النهاية 2 / 95، طبقات النحاة لابن قاضي شهبة 1 / 21، تهذيب التهذيب 9 / 25، توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس، النجوم الزاهرة 2 / 176، 177، طبقات الحفاظ: 152، حسن المحاضرة 1 / 303 - 304، خلاصة تذهيب الكمال: 326، طبقات المفسرين 2 / 98، مفتاح السعادة 2 / 88 - 94، تاريخ الخميس 2

ثانيًا: المؤلفات التي اعتنت بجمع عقيدة الشافعي–رحمه الله–.

عقيدة الإمام الشافعي وجدت متفرقة في العديد من الكتب التي تحدثت عن الإمام الشافعي –رحمه الله–وبالأخص الكتب التي اعتنت بجمع مناقبه، وحديثي هنا ينصب على المؤلفات التي أفردت بجمع عقيدة الشافعي على وجه الاستقلال، ومن أقدم ما وقفت عليه في ذكر من ألف مؤلفًا مستقلًا في عقيدة الإمام الشافعي –رحمه الله–قول الذهبي–رحمه الله–: "جمع شيخ الإسلام

/ 335، طبقات الشافعية لابن هداية الله: 11 – 14، شذرات الذهب 2 / 9 – 11، شرح إحياء علوم الدين 1 / 191 – 201، الرسالة المستطرفة: 17.محمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

1 "السير" (10/ 99).

2 مصدر الترجمة منتدى الملتقى الفقهي مقال لأحمد بن فخري الرفاعي. ٢٩/ يناير / ٢٠٠٨م .

أبو الحسن الهكاري، والحافظ أبو محمد عبد الغني [1]، وأبو الحسن بن شكر[2]، وغير واحد أقوال الشافعي في أصول الاعتقاد، وذلك موجود بأيدي الناس". [3]

المؤلف الأول: كتاب اعتقاد الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي،

الذي جمعه علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري-رحمه الله-(ت: ٤٨٦ هـ). وهذا الكتاب حوى مجموعة من الرسائل والمسائل ولكل رسالة منه لها إسنادها المستقل بلغ عددها (١٣) رسالة ومجموع الأسانيد فيها (٤٠) حسب ما وقفت عليه في الطبعة التي حققها الدكتور عبد

---

1 عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، الإمام العالم العابد، صاحب عمدة الأحكام، ولد سنة (٥٤٤ هـ)، وتوفي سنة (٦٠٠ هـ) بالقاهرة، وكان لا يضيع شيئًا من زمانه بلا فائدة [سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٢)].

2 اعتقاد الشافعي لابن شكر، جمعه الشيخ أبو الحسن علي بن شكر بن أحمد بن شكر، جمال الدين المصري الشافعي، القاضي ابن القاضي ابن القاضي، تلميذ الحافظ عبد الغني المقدسي، كان محدِّثًا فقيهًا، جمع في السنة والصفات وفي الرقائق، وتوفي في رجب سنة (٦١٦ هـ) بالقاهرة. [تكملة الإكمال لابن الصابوني (ص: ٧٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١٣/ ٤٨٠)، ونهاية الأرب في فنون الأدب (٢٩/ ١٠٠).

3 العرش للذهبي (٢/ ٢٩٤).

الله بن صالح البراك وذكر في مقدمة تحقيقه للكتاب ما نصه: "موضوعه: جمع المؤلف فيه أقوال الإمام الشافعي-رحمه الله-في أصول الدين ونحوه كما تراه في فهرس موضوعات الرسالة، وقد استفاد ممن سبقه ممن ألف في مناقب الشافعي، فذكر جملة من الأقوال عن طريقهم، كما تراه في أسانيد المؤلف".

المؤلف الثاني: عقيدة الإمام الشافعي

للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، وقد جمع الحافظ في هذا الكتاب متفرِّقات كلمات الشافعي في مسائل الاعتقاد، يروي ذلك بأسانيده إلى الشافعي، وهذا الاعتقاد ورد ذكره في كتاب الأمم لإيقاظ الهمم لبرهان بن حسن الكوراني، وطبع بتحقيق محمد بركات ط: دار اللباب وبالنظر إلى كون هذا الكتاب مفقود أنقل ما ذكره الكوراني من نص الكتاب حيث قال: ١٠ - ((كتاب اعتقاد الشافعي)) للحافظ عبد الغنيّ بن عبد الواحد المقدسي [(ت: ٦٠٠ هـ)].

بالإسناد إلى الفخرِ ابن البخاري، عن الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، وبه إلى الحافظ عبد الغني، قال في (باب اتباعِه صالح سلفِ الأُمة ومجانبتِه التأويلَ، وتَرْك التشبيهِ والتَّعطيلِ): أخبرنا أبو موسى هو محمد بن عمر المدني الحافظ، ثنا أبو العز أحمد بن عبيد الله

بن كادِش فيما كتب إليَّ من بغداد، أنا أبو طالب محمد بن علي بن الفتح الحربي العُشاري، أنبأنا علي بن عبد العزيز بن مَرْدك، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي حاتم الرَّازي، ثنا يونس بن عبد الأعلى المصري قال: سمعتُ أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سُئل عن صفاتِ الله-عز وجل-وما يَنْبغِي أن يُؤمن به، فقال: للهِ تعالى أسماءٌ وصفاتٌ جاء بها كتابُه، وأَخبر بها رسولُه وَاي لا يَسعُ أحداً مِن خَلْقِ الله قامت عليه الحُجَّةُ إلا الإيمانُ بها، إذ القرآنُ نَزلَ به، وصح عنده بقول الرسولِ-صلى الله عليه وسلم-فيما رَوَى عنه العدلُ، فإنْ خالفَ ذلك بعد ثبوتِ الحُجَّة عليهِ فهو باللهِ كافرٌ، فأمَّا قبل ثبوتِ الحُجَّةِ عليه مِن جهة الخَبرِ فمعذورٌ بالجهلِ، لأنَّ عِلْمَ ذلك لا يُدركُ بالعقلِ، ولا بالرَّوية وبالفِكر.

ونحو ذلك إخْبارُ الله سبحانه إيَّانا أنه سميعٌ بصيرٌ، وأنَّ له يَدَيْنِ، بقوله سبحانه: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: الآية: ٦٤]، وأن له يميناً بقوله سبحانه: {وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتُ بِيَمِينِهِ} [الزمر: الآية: ٦٧]، وأنَّ له وَجْهاً بقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: الآية: ٨٨]، وقوله عزَّ وجلَّ: {وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ} [الرحمن: الآية: ٢٧]، وأنَّ له قَدَماً بقوله-صلى الله عليه وسلم-: ((حتى يضعَ الجبَّارُ فيها قَدَمه)) [1]، يعني: في جهنَّم، وأنَّه

1 أخرجه مسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة.

يضحكُ مِن عبدِه المؤمن، يقول-صلى الله عليه وسلم-للذي قُتِلَ في سبيلِ الله: ((أنَّه لَقِيَ اللهَ وهو يضحكُ إليه)) [1]، وأنَّه ((يَهْبِط كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدنيا)) لخبر رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بذلك [2]، وأنه ((ليس بأعور)) لقول النبي-صلى الله عليه وسلم-إذ ذَكَر الدَّجَّال قال: ((إنه أَعْور، وإن ربَّكم ليس بأعورَ)) [3]، وأنَّ المؤمنين يَرون ربَّهم يومَ القيامةِ بأبصارِهم كما يَرونَ القَمر ليلةَ البدرِ [4]، وأنَّ للهِ إصْبِعاً لقول النبيِّ-صلى الله عليه وسلم-: ((ما مِن قلبٍ إلا وهو بين إصْبِعينِ من أصابعِ الرحمنِ-عزَّ وجلَّ-)). [5]

فإنَّ هذهِ المعانى التى وَصفَ الله بها نفسَه ووَصفَه بها رسولُ الله تلقي مما لا يُدْرِكُ حقيقةُ ذلك بالفكرِ والرؤية، ولا يَكْفُر بالجهلِ بها أحدٌ، إلا بعدَ انتهاءِ الخبرِ إليهِ بها، فإنَّه كان الواردُ بذلكِ

---

1 أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة.

2 أخرجه أحمد (٣٦٧٣) من حديث ابن مسعود، والبخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة.

3 أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس.

4 أخرجه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير.

5 أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، والنسائي في (الكبرى)) (٧٦٩١) من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً، وهو حديث صحيح.

يقومُ في الفَهْمِ مقامَ المشاهدةِ في السَّماع، وَجَب الدَّيْنُونةُ على سامِعِها بحقيقته والشهادةِ عليه كَما عايَنَ وسَمِع من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-

ونحن نُثبِتُ هذه الصفاتِ، ونَنْفي التشبيهَ كما نَفَى ذلك عن نفسِه تعالى ذِكْرُهُ، فقال {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: الآية: ١١].

قال الحافظُ عبد الغني: وهذا من الإمامِ الشافعيِّ دليلٌ على أنَّ كلَّ ما جاء عن الله-عز وجل- ورسوله مما نَطَق بهِ الكتابُ العزيزُ، وصحَّ النقلُ عن الرسولِ المصطفى الأمينِ-صلى الله عليه وسلم- أنه قائلٌ به، مُعتقدٌ له، غيرُ رادٍّ له. انتهى". [1]

وقد نقل عنه بعض أهل العلم. [2]

ونقل السيوطي عبارات من هذه العقيدة حيث قال: "وروى الشيخ الحافظ أبو محمد عبد الغني عبد الواحد بن علي المقدسي عن أبي منصور محمد بن علي بن صباح البلدني، قال: هذه وصية الإمام الشافعي-رضي الله عنه-أوصى بها إلى أصحابه: أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده

---

1 الأمم لإيقاظ الهمم (ص: ٣٣١-٣٣٣).

2 انظر: العرش للذهبي (٢/ ٢٨٩، ٢٩٢)، والعلو له (ص: ١٦٥)، والأمر بالاتباع للسيوطي (ص: ٣١٢).

لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، لا نفرق بين أحد من رسله، وأن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الجنة حق والنار حق، وأن عذاب النار حق، وأن الحساب حق والميزان والصراط حق، والله عز وجل يجزي العباد بأعمالهم، عليه أحيا وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله تعالى، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله تعالى يرى في الآخرة ينظر إليه المؤمنون عيانا جهارا ويسمعون كلامه، وأنه فوق عرشه، وأن القدر خيره وشره من الله عز وجل لا يكون إلا ما أراد الله وقضاه وقدره، وأن خير الناس بعد رسول الله: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم. وأتولاهم، وأستغفر لهم، ولأهل الجمل وصفين القاتلين والمقتولين، وجميع أصحاب النبي (، والسمع لأولي الأمر ما داموا يصلون والموالاة لهم، ولا يخرج عليهم بالسيف والخلافة في قريش، وأن كل ما أسكر كثيرة فقليله حرام، والمتعة حرام، وأوصي بتقوى الله عز وجل ولزوم السنة والآثار عن رسول الله (وأصحابه وترك البدع والأهواء واجتنابها؛ فاتقوا الله ما استطعتم، وعليكم بالجمعة والجماعة ولزوم السنة والإيمان والتفقه في الدين، من حضرني منكم فليلقني لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وتعاهدوا الأظفار والشارب،

وإذا احتضرت فإن كانت عندي حائض فلتقم، وأن تطيبوا وتدهنوا. هذه وصية الإمام الشافعي رضي الله عنه". [1]

المؤلف الثالث: اعتقاد الشافعي.

جمعه الشيخ أبو الحسن علي بن شكر بن أحمد بن شكر، جمال الدين المصري الشافعي، وكتابه مفقود، ولا توجد نقول عنه، ولا يعرف من ذكره غير الذهبي. [2]

المؤلف الرابع: معتقد الإمام الشافعي للياسوفي.

جمعه الشيخ سليمان بن يوسف بن مفلح صدر الدين الياسوفي الشافعي، كان متصفًا بالدين المتين والفهم القوي، مشهورًا بالذكاء وسرعة الحفظ، ولد سنة ٧٣٦، وتوفي سنة (٧٨٩ هـ) بالقاهرة.

---

1 الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع (ص: ٢٠٧-٢٠٨)، وكذا عزاها الذهبي في كتابه العرش لعبد الغني المقدسي (٢/ ٢٩١-٢٩٢).

2 العرش للذهبي (٢/ ٢٩٤).

وكتابه مشتمل على فصلين: الأول هو الكلام الذي رواه العشاري عن الشافعي، والثاني فيه صفة اعتقاد الشافعي على حسب فهم الياسوفي، وليس نصوصاً منقولة عن الشافعي، وهو مطبوع ضمن كتاب الرسائل والمسائل العقدية المنسوبة إلى الإمام الشافعي (ص: ٦٤١-٦٥٦).

وطبع كذلك بتحقيق الدكتور طارق بن سعيد بن عبد الله القحطاني، ويقع في مجلد واحد، ونشره دار الإمام مسلم

المؤلف الخامس: عقيدة الإمام الشافعي للبرزنجي.

جمعه الشافعي محمد بن عبد الرسول بن عبد السيد البرزنجي الشافعي، ولد في العراق سنة (١٠٤٠ هـ)، وتوفي سنة (١١٠٣ هـ) بالمدينة النبوية، وصف بالتحرير والتدقيق، والتميز علمًا وعملًا. [1]

---

1 سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٤/ ٦٥).

والكتاب فيه جملة من مسائل الاعتقاد التي رواها عن الشافعي أصحابه، جمعها البرزنجي من مظانّها، ولخَّص بعضها بعباراته، وهو مطبوع.

المؤلف السادس: الرسائل والمسائل العقدية المنسوبة للإمام الشافعي–رحمه الله–، تأليف مهنا سالم سعيد مرعي.

أصله رسالة علمية في جامعة أم القرى، وهو مطبوع، وفيه أكبر جمع لكلِّ ما نُسب إلى الإمام الشافعي من كتاب أو مناظرة أو شعر أو مسألة، مع استيعاب الكلام على ما كُتب في عقيدة الشافعي.

المؤلف السابع: عقيدة الإمام الشافعي من نصوص كلامه وإيضاح أصحابه، للشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري.

وهو خاصٌّ بمسائل توحيد العبادة، وقد أخذه من كتابه النافع المسمى ((جهود الشافعية في تقرير توحيد العبادة))، ولم يكتف في هذا الجزءِ بنقل كلام الشافعي، بل شرحه بكلام أصحابه.

المؤلف الثامن: عقيدة الإمام الشافعي كما دوَّنها في كتبه أو رواها عنه تلاميذه، للشيخ نعمان الوتر.

جمع فيه بعض أقوال الإمام الشافعي في العقيدة مما ذكره في كتبه أو صحَ سنده على حسب قواعد المحدِّثين، وهذا ما تحصل به غاية.

المؤلف التاسع: تقريب عقيدة الشافعي من خلال مصنفاته والمرويات عنه بالأسانيد، تأليف حسن معلم داود حاج محمد.

ويقع في (١٩٤ صفحة، وقال عنه مؤلفه (ص: ٢٠) أنه جمع محتواه من كلام الشافعي في كتبه التي صنفها بنفسه، ثم من كتب العلماء من بعده الذين رووا عنه بالأسانيد، وذكر أنه قصد به الاستيعاب. [1]

المؤلف العاشر: منهج الإمام الشافعي في تقرير العقيدة للدكتور محمد بن عبد الوهاب العقيل.

وقد جمع فيه ما ورد عن الإمام الشافعي من كلام في أمور الاعتقاد.

---

1 المصدر: تقريب عقيدة الشافعي من خلال مصنفاته والمرويات عنه بالأسانيد (ص: ١٥-١٨).

المؤلف الحادي عشر: بحث بعنوان بيان عقيدة الشافعي تأليف: أ.د جابر زايد السميري وحسن نصر بظاظو،

وهو بحث منشور ضمن أبحاث مؤتمر الإمام الشافعي، ويقع في ثلاث وعشرين صفحة.

ثالثًا: إثبات صحة نسبة الوصية للإمام الشافعي–رحمه الله–[1].

١–اسم الرسالة:

وصية الشافعي–رضي الله عنه–عند وفاته.

٢–مصادرها:

النوع الأول: من أوردها بنصها كاملة.

ورودها بحسب التسلسل التاريخيّ على النحو الآتي:

- وردت هذه الوصية في كتاب اعتقاد الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الذي جمعه علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري–رحمه الله–(ت: ٤٨٦ هـ). وهذا الكتاب حوى مجموعة من الرسائل والمسائل ولكل رسالة منه لها إسنادها المستقل بلغ عددها (١٣) رسالة ومجموع الأسانيد فيها (٤٠) حسب ما وقفت عليه في الطبعة التي حققها الدكتور عبد الله بن صالح البراك وذكر في مقدمة تحقيقه للكتاب ما نصه: "موضوعه: جمع المؤلف فيه أقوال الإمام الشافعي–رحمه الله–في أصول الدين

---

1 للشافعي–رحمه الله–وصية أخرى وردت في كتاب الأم (٥/ ٢٦٦)، ط: دار الوفاء، من رواية الربيع بن سليمان، ورواهاالبيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٢٨٨)، وذكرها في الاعتقاد (ص: ١٨٨).

ونحوه كما تراه في فهرس موضوعات الرسالة، وقد استفاد ممن سبقه ممن ألف في مناقب الشافعي، فذكر جملة من الأقوال عن طريقهم، كما تراه في أسانيد المؤلف.

والرسالة التي نحن بصدد الكلام عنها "وصية الإمام الشافعي" تحمل الرقم (٢)حيث ذكر الوصية كاملة (ص: ١٤-١٦).

ولهذه الوصية طبعة أخرى بتحقيق: سعد الدين بن محمد الكبي، تم طباعتها من طرف المكتب الإسلامي، (سنة: ١٤١٤ هـ)

- وأوردها السيوطي في كتب الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع (ص: ٢٠٧-٢٠٨)، وقال: وروى الشيخ الحافظ عبد الغني عبد الواحد بن علي المقدسي (ت: ٦٠٠ هـ) عن أبي منصور محمد بن علي بن صباح البلدني[1]، وساق نص الوصية بأكملها.

ويبدو أن السيوطي اختصر السند ولم يذكره كاملًا كما هو الحال عند الهكاري.

---

1 أبو منصور محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن سهل بن خليفة بن الصياح البلدي، حدث عن جده، روى عنه أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري القرشي (انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي مادة بلد، ١/ ٤٨١). (توفي بعد سنة 400 هجري)

- أخرجها ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠)، بإسناده في كتاب إثبات صفة العلو (ص: ١٧٥–١٧٧، برقم: ٩١)، وفيه قال: أخبرنا الشيخ الزكي أبو علي الحسن بن سلامة بن محمد الحراني[1]، قال: أنبأ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن نبهان الغنوي الرقي[2]، قال: أخبرنا: شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري[3]، قال: أخبرنا الزاهد أحمد بن عاصم الموصلي[4]، (ثنا) أبو القاسم علي بن القاسم المقري [5] بالموصل، قال: كتبت من كتاب ابن هشام البلدي[6] وساق الوصية بكامل نصها.

---

1 أبو علي الحراني الدار، المصري المولد. انظر ترجمته في بغية الطلب، لابن العديم (٥/ ٢٢٣٨٨).

2 شيخ صالح. انظر: ترجمته في إكمال الإكمال، لابن نقطة (١/ ٤٧٨) (٤/ ٤٣٤)، وبغية الطلب لابن العديم (٩/ ٤٠٠٣)، والمعين في طبقات المحدثين، للذهبي (ص: ١٦١).

3 ستأتي ترجمته.

4 لم أقف على ترجمته.

5 ستأتي ترجمته.

6 ستأتي ترجمته.

النوع الثاني: من أورد مقتطفات منها.

- أوردها الذهبي في كتاب العلو (ص: ١٢٠)، ولم يذكرها بكاملها وإنما ذكر منه النص الآتي: "هذه وصية الشافعي أنه يشهد أن لا إله إلا الله فذكر الوصية بطولها وفيها القرآن غير مخلوق وأن الله يرى في الآخرة عياناً ويسمعون كلامه وأنه تعالى فوق العرش".
- وأوردها الذهبي في كتاب العرش (٢/ ٢٩١-٢٩٢)، وقال: "وروى الحسن بن هشام البلدي قال: "هذه وصية محمد بن إدريس الشافعي، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له" -وذكر الوصية- إلى أن قال فيها "والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة عيانا، ينظر إليه المؤمنون، ويسمعون كلامه، وأنه تعالى فوق العرش" وذكر سائر الوصية". رواها الهكاري، والحافظ. عبد الغني في العقيدة له.

وأشار إليها في كتابه الأربعين في صفات رب العالمين (ص: ٤٢) برقم (١٥)، فقال: "وقال الشافعي في عقيدته وفي وصيته: القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أهل الحديث عليها: أن الله على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء".

وهذا النص لم يرد في الوصية.

وأورده ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/. ٢١٢-٢١٣)، وقال ذكره الحاكم والبيهقي في مناقب الشافعي.

٣-إسانيدها

ذكرها الهكاري في ((اعتقاد الإمام الشافعي)، وابن قدامة-رحمه الله-في (إثبات صفة العلو)) إسنادين لهذه الوصية:

الإسناد الأول:

ما ورد في كتاب اعتقاد الشافعي للهكاري[1] ، قال: أخبرنا الزاهد أحمد بن عاصم الموصلي[2]، حدثنا أبو القاسم علي بن القاسم المقرئ [1] بالموصل، قال: كتبت من كتاب ابن هشام البلدي- رحمه الله-: [2]

---

1 أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر السفياني، الهكاري؛ الشيخ، العالم، الزاهد، شيخ الإسلام، قال السمعاني: تفرد بطاعة الله في الجبال، وابتنى أربطة ومواضع يأوي إليها الفقراء والمنقطعون، وكان كثير العبادة، حسن الزهادة، مقبولًا، وقورًا. رحل وسمع بمصر من: أبي عبد الله بن نظيف الفراء، وببغداد من: عبد الملك بن بشران، وبالرملة من: ابن الترجمان، وبمكة من: أبي الحسن بن صخر. وقال عبد الغفار الكرجي: ما رأيت مثل شيخ الإسلام الهكاري زهدًا وفضلًا، وقال يحيى بن منده: قدم علينا، وكان صاحب صلاة، وعبادة، واجتهاد، من كبراء الصوفية، مات في أول المحرم، سنة ست وثمانين وأربع مائة بالهكارية، وهي جبال فوق الموصل. قال الذهبي: عاش سبعا وسبعين سنة، وله تواليف، وعناية بالأثر-رحمه الله-".

[سير أعلام النبلاء (١٩/ ٦٩)] [شذرات الذهب (٣/ ٣٧٨)].

2 لم أقف على ترجمته.

1 علي بن القاسم بن إبراهيم بن موسى بن يوسف بن شنبويه أبو الحسن الأصبهاني الخياط "مقرئ ضابط"، سمع عبيد الله بن إسحاق بن جميل، وأبا بكر بن المقرئ، وأبا عبد الله بن منده الحافظ، وأبا الحسين بن فارس اللغوي، روى عنه سعيد بن أبي الرجاء الصيرفي الدلّال في مشيخته، وعبد الله بن محمد النيلي، والحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم، وهادي بن إسماعيل العلوي، وغيرهم. قال يحيى بن منده: مات في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة. انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (1/ 561، برقم: 2292)، وإكمال الإكمال لابن نقطة (3/ 271، برقم: 3188) وتاريخ الإسلام للذهبي (9/ 712، برقم: 280).

2 وهو الحسن بن هشام بن عمرو وقيل الحسين، أبو علي البلدي، ذكره ابن العديم في من روى عن أبي جعفر أحمد بن النضر بن بحر السكري، العسكري، المقرئ. وقد ذكروه في كتب التراجم بغير جرح ولا تعديل، وممن ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٤١٣)، وابن عساكر في تاريخه (٦/ ٥٦)، والحازمي

الإسناد الثاني:

في الفيصل في مشتبه النسبة (١/ ٣٠٤)، وكمال ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (٣/ ١١٨٤-١١٨٦).

ما ورد في كتاب اعتقاد الشافعي للهكاري حيث قال: "وأخبرنا أبو منصور محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن سهل بن خليفة بن الصباح البلدي[1]، حدثني جدي محمد الحسن بن خليفة[2]، نا أبو علي الحسين بن هشام بن عمر البلدي [1] قال: وذكر الوصية..

---

1 أبو منصور محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن سهل بن خليفة بن الصياح البلدي، حدث عن جده، روى عنه أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري القرشي (انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي مادة بلد، ١/ ٤٨١). (توفي بعد سنة 400 هجري)

2 أبو منصور محمد بن الحسين ابن سهل بن خليفة بن محمد يعرف بابن الصياح البلدي، حدث عن أحمد بن إبراهيم أبي العباس الإمام وسمع أبا علي الحسن بن هشام البلدي في سنة ٣٤٦، روى عنه أبو القاسم علي بن محمد المصيصي. (انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي مادة بلد، ١/ ٤٨١)

٤-ثبوت الوصية

قال الذهبي كتاب العلو: "وبإسناد لا أعرفه عن الحسين بن هشام البلدي قال هذه وصية الشافعي (أنه يشهد أن لا إله إلا الله فذكر الوصية بطولها وفيها القرآن غير مخلوق وأن الله يرى في الآخرة عيانا ويسمعون كلامه وأنه تعالى فوق العرش) إسنادهما واه".. [2]

---

1 وهو الحسن بن هشام بن عمرو وقيل الحسين، أبو علي البلدي، ذكره ابن العديم في من روى عن أبي جعفر أحمد بن النضر بن بحر السكري، العسكري، المقرئ. وقد ذكروه في كتب التراجم بغير جرح ولا تعديل، وممن ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٤١٣)، وابن عساكر في تاريخه (٦/ ٥٦)، والحازمي في الفيصل في مشتبه النسبة (١/ ٣٠٤)، وكمال ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (٣/ ١١٨٤-١١٨٦).

2 العلو للذهبي (ص: ١٠٥٧) بتحقيق: عبدالله البراك .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "وكذا وصية الشافعي من رواية الحسين بن هشام البلدي غير صحيحة". [1]

بينما سكت عن ذلك في كتاب العرش، وقال ما نصه: "رواها الهكاري، والحافظ عبد الغني في العقيدة له". [2]

ومع ضعف سند الوصية حسب ما ذكره الذهبي إلا أن طائفة من العلماء والباحثين نسبوها إلى الإمام الشافعي-رحمه الله-، واستظهر بعضهم صحتها عنه، منهم:

- الإمام ابن القي-رحمه الله-كما في"مختصر الصواعق المرسلة".
- الإمام السيوطي-رحمه الله-في كتابه "الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع"، قال بعد إيرادها: "هذه وصية الإمام الشافعي-رضي الله عنه-".
- الحسين بن عبد الرحمن الأهدل اليمني في كتابه "كشف الغطاء عن حقائق التوحيد"، قال بعد أن أوردها: "ونسب إلى الشافعي-رضي الله عنه-عقيدة أطول من هذه

---

1 "سير أعلام النبلاء" (٨/ ٢٧٠).

2 العرش للذهبي (٢/ ٢٩١-٢٩٢).

مشتملة على الأدلة فاكتفينا بهذه عنها وبالله التوفيق".[1]وهي كما ذكر ، فقد رويت الوصية عنه مختصرة [2]ومطولة بالأدلة في بعض المسائل. [3]

- واستظهر صحتها كارل بروكلمان في "تاريخ الأدب العرب" فقال: "وعلى خلاف ذلك تبدوا صحة نسبة العقيدة المختصرة، التي رواها ابن عبدل عن علي بن الحسن بن هاشم بن عمر البلدي". [4]
- وأكد محقق الوصية سعد الدين الكبي ثبوتها عن الإمام-رحمه الله-، واعتمد على أمور لا ترتقي إلى درجة تصحيح الرواية. [5]

---

1 كشف الغطاء (ص:.

2 ينظر الوصية المروية في اعتقاد الشافعي ضمن مجموع فيه ثلاث رسائل.

3 وصية الإمام الشافعي، تحقيق الكبي .

4 تاريخ الأدب العربي ، القسم الثاني (٣/ ٣٢١) .

5 مقدمة الوصية (ص: ٩) وما بعدها.

قال الباحث مهنا سالم سعيد مرعي: "والذي تطمئن إليه النفس ثبوت هذه الوصية عن الإمام الشافعي-رحمه الله-، ومما يشهد على ذلك الأمور الآتية:

١-أن رواية حسين البلدي وإن كانت ضعيفة- كما قال الذهبي-إلا أنه يشهد لها الوجادات الثلاث التي رواها البيهقي:

الأولى: قال: أخبرنا أحمد بن محمد الماليني [1] قال: أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنه قرأها على قبر الشافعي.

---

1 وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن حفص بن الخليل أبو سعد الأنصاري الصوفي الماليني، كان ثقةً صدوقًا متقنًا خيرًا صالحًا، (ت: ٤١٢ هـ).

انظر: تاريخ بغداد، للخطيب (٦/ ٢٤)، تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥/ ١٩٢)، الفيصل، للحازمي (٢/ ٥٥٠).

الثانية: قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ [1] قال: سمعت أبا الفضل بن. أبي نصر. [2] أنه قرأها على قبر الشافعي.

الثالثة: قال: قرأت في كتاب أبي الحسن محمد بن الحسين العاصمي. [3] أنه رآها على قبر الشافعي، وذكر نص الوصية.

---

1 هو: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع، أبو عبد الله الحافظ، كان من أهل الفضل والعلم والمعرفة والحفظ، وله في علوم الحديث مصنفات عدة.

انظر: تاريخ بغداد، للخطيب (٣/ ٥٠٩) رقم (١٠٤٤)، إكمال الإكمال، لابن نقطة (٢/ ٢٨٥)، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، لابن نقطة، (ص: ٧٣)، تاريخ إربل، لابن المستوفي (٢/ ١٥)، وفيات الأعيان، لابن خلكان (٤/ ٢٨٠).

2 هو: عبد الله بن أحمد الطوسي، أبو الفضل ابن أبي نصر الخطيب. أدخلت عليه في روايته ما لم يسمعه، فحدث بقطعةٍ من ذلك حتى تفطن به بعض الطلبة فعرف الشيخ بذلك، فترك الشيخ رواية ذلك القدر بعد أن نقل عنه، وهو في نفسه ثقة. ((ت: ٥٧٨ هـ).

انظر : تاريخ بغداد وذيوله (٢١/ ١٠٢)، الوافي بالوفيات، للصفدي (١٧/ ٢٢)، ذيل تاريخ بغداد، لابن الدبيثي (٣/ ٤٣٦/٣).

3 هو: أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم الآبري السجستاني العاصمي، الحافظ، الرحالة.

انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٢/ ٣٤٠)، الإكمال، لابن ماكولا (١/ ١٢)، تذكرة الحافظ، للذهبي (٣/ ١١٠).

٢-أن الوجادة من صيغ التحمل الصحيحة المعمول بها عند أهل العلم، بالأخص أنه نُقل عن الشافعي جواز العمل بها. [1]

٣-موافقة ما في هذه الوصية لعقيدة الإمام الشافعي-رحمه الله-المنصوص عليها في كتبه، وكتب من سطر عقيدته، أو من ترجم له .

٤-تتابع العلماء على النقل عن هذه الوصية، والاستشهاد بما فيها من عقيدة، ومن هؤلاء: البيهقي [2]، وابن عبد البر [3]، والخطيب البغدادي [4]، وموفق الدين بن عبد الرحمن الشارعي

---

1 انظر : معرفة أنواع علوم الحديث، لابن الصلاح، (ص: ٢٩١)، التقريب والتيسير، للنووي، (ص: ٦٦)، فتح المغيث، للسخاوي (٣/ ٢).

2 انظر : مناقب الشافعي (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

3 انظر : الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، (ص: ١٠٣).

4 انظر : تاريخ بغداد (٢/ ٤٠٤).

الشافعي [1]، وابن قدامة [2]، وابن منظور [3]، وابن تيمية [4]، وابن القيم [5]، وابن كثير [6]، والسيوطي [7]

٥-أن حكم الذهبي عليها إنما كان على طريق معينة، وهي طريق هشام البلدي، وليس على جميع الطرق.

---

1 انظر : مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (١/ ٤٩٢).

2 انظر : إثبات صفة العلو، (ص: ١٧٦).

3 انظر: مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور (٢١/ ٤١٢)، تاريخ بغداد وذيوله (٢/ ٦٨).

4 انظر : مجموع الفتاوى (٤/ ١٨١).

5 انظر: مختصر الصواعق المرسلة، للموصلي، (ص: ٤٣٧).

6 انظر : طبقات الشافعيين، (ص: ٤٦).

7 انظر: الاتباع والنهي عن الاتباع، (ص: ٢٠٧-٢٠٨).

٦-ومما يؤكد ذلك أن الذهبي نفسه قد نقل عن هذه الوصية واستشهد به [1]". [2]

ويضاف إلى ما ذكره:

أولًا: أن ألفاظ هذه الوصية متوافقة في عباراتها ومضمونها مع ما ورد في عبارات من سبق الشافعي ومن عاصره ومن جاء بعده ممن سار على منهج السلف الصالح، فهي على نفس النسق وتحمل المعتقد ذاته، ولذلك لم يرد عن أحد من العلماء المشهود لهم أن تكلم على صحة المحتوى لهذه الوصية، وبإمكان طالب العلم أن يعقد مقارنة بين ما جاء في نص هذه الوصية وبين ما روي في الاعتقاد عن شيوخ الشافعي أو تلاميذه ليتبين له صحة مضمون هذه الوصية وسلامة محتواها.

ثانيًا: أن رجال الأسانيد على قسمَيْن:

قسم لهم تراجمُ يذكرها أهلُ الحديث والتاريخ في مؤلفاتهم.

قسم إنما هم رواة كتب، فتجد أنَّ بعضَ الطرق لرواية كتابٍ ما، تلتقي في راوٍ ما، ولا نعرف عنه إلا اسمه ونسبه كاملًا، وروايته عن مؤلف الكتاب، أو دون ذلك، فهو اكتفى بتسميع

---

1 انظر : كتاب العرش (٢/ ٢٩١).

2 انظر: الرسائل والمسائل العقدية المنسوبة للإمام الشافعي-رحمه الله-، تأليف مهنا سالم سعيد مرعي (ص: ١١٨-١٢٠).

الكتاب، ولم يرحلْ من بلده؛ ولذا فلا تجد له ترجمة؛ لفَقْد كثير من كتب علماء المشْرق المؤلَّفة في تواريخ البلدان، فلا يمكن أن يقال: إن هذا الإسناد ضعيف، أو منكر، مع ما يُذكر من توثيق نسْبة الكتاب، وتتابع العلماء على النقْل من الكتاب، ما لم يأتِ أمرٌ خارج عن ذلك؛ كأن يكون في الإسناد سقطٌ، أو يُذكَر عن الراوي عبث في الكتاب، ونحو ذلك. [1]

ثالثًا: أن. يجب التفريق بين فنين فن الحديث وفن التاريخ. فلكل واحد منهما قواعد وضوابط تخصه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "فعلماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما نقل عن النبي-صلى الله عليه وسلم-لأنه واجب القبول أو فيما ينقل عن الصحابة، وأما الاسرائليات ونحوها فهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلها". [2]

---

1 المصدر: بحث بعنوان توثيق أسانيد كتب العقيدة الإسلامية تأليف: أ.د عبد الله بن صالح البراك [مجلة الدرعية العددان (٣٩-٤٠)، رمضان-ذو الحجة ١٤٢٨ هـ.

2 الرد على البكري (ص: ٢٠).

بل حتى في فن الحديث يفرق بين الأحاديث المتعلقة بالعقائد والأحكام والحلال والحرام والسنن والأحاديث المتعلقة بفضائل الأعمال والترغيب والترهيب والدعوات، فيتساهل في أسانيد هذه ويتشدد في أسانيد تلك.

قال الحاكم قال عبد الرحمن بن مهدي: إذا روينا عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحث والدعوات تساهلنا في الأسانيد". [1]

روى الخطيب البغدادي عن الإمام أحمد قوله: "إذا روينا عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد, وإذا روينا عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد ". [2]

---

1 المستدرك كتاب الدعاء (١/ ٤٩٠).

2 الكفاية للخطيب البغدادي (ص: ٢١٣).

قال ابن عبد البر: " أهل العلم بجماعتهم يتساهلون في الفضائل فيروونها عن كل, وإنما يتشددون في أحاديث الأحكام". [1]

قال شيخنا الشيخ حماد بن محمد الأنصاري: "إن الحديث إذا لم يتضمن عقيدة لا حلالًا ولا حرامًا جاز العمل به في الفضائل، لأن باب الفضائل لا يشدد فيه هذا التشديد إذا كان لهذه الفضيلة أصل في الشرع". [2]

وقد ذكر البيهقي أقسام الخبر وقال: "وضرب لا يكون راويه متهما بالوضع غير أنه عرف بسوء الحفظ وكثرة الغلط في رواياته ويكون مجهولًا لم يتثبت من عدالته وشرائط قبوله ما يوجب القبول، فهذا الضرب من الأحاديث لا يكون مستعملًا في الأحكام كما لا تكون شهادة من

1 جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر:(1/ 22).

2 رفع الإشتباه عن حديث من صلى في مسجدي أربعين صلاة (ص: ٣٦).

هذه صفته مقبولة عند الحكام، وقد يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب والتفسير والمغازي فيما لا يتعلق به حكم". [1]

فإذا كان يفرق بمثل هذا التفريق داخل فن الحديث، فهذا يدل على أن التسوية في الحكم بين أسانيد الحديث وغيرها من العلوم أمر غير مسلم، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن تيمية-رحمه الله- حيث قال: "قال الإمام أحمد "ثلاثة علوم ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير" وفي لفظ "ليس لها أسانيد" ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة ومنقطعة، فإذا كان الشيء مشهورًا عند أهل الفن وقد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره". [2] انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

قلت: هذه معايير أهل النقد يبينها ابن تيمية:

---

1 دلائل النبوة (١/ ٣٤).

2 تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ص١٦-١٧. ط: الدار العلمية، الهند.

١- أن يكون الشيء مشهورا عند أهل الفن.

٢- تعدد طرقه.

وهذا أمر ينبغي أن يتنبه له من تصدى لتحقيق الكتب المسندة، فإن كثيرًا منهم يتعامل مع الآثار بتعنت شديد ينافي طريقة السلف في التعامل معها، خصوصًا ما كان منها من كتب العقيدة، والكلام في هذه المسألة يطول وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثالثًا: الاقتصار على مجرد الوقوف على رد هذه الرسالة على مجرد الكلام على الطعن في سندها أمر محل نظر، فالمتعين أن يكون النظر من جهة المتن كذلك، وأضرب مثلًا لذلك بكلام ابن تيمية فيما نقل عن الإمام أحمد، من رواية حرب بن إسماعيل، ثم علَّق على ما وَرَد فيها: "وليست هذه العقيدة ثابتة عن الإمام أحمد بألفاظها، فإني تأملت لها ثلاثة أسانيد مظلمة برجال مجاهيل، والألفاظ هي ألفاظ حرب بن إسماعيل، لا ألفاظ الإمام أحمد". [1] فهذا نقد للإسناد والمتن.

---

1 الاستقامة (١/ ٧٣).

وهذه العقيدة كما ترى ليس فيها ذكر للأحاديث والأسانيد التي يخشى من الهكاري التركيب فيها.

وليس في هذه الوصية شيء من الغرائب والمنكرات التي يتفرَّد الهكاري بها في مروياته.

٥-الكلام على متن الوصية

وقد قمت بعقد مقارنة بين ألفاظ هذه الوصية وبقية ما نقل عن الشافعي في مؤلفاته، أو الكتب التي نقلت عن الشافعي اعتقاده في تلك المسائل وخرجت من تلك المقارنة بالنتائج الآتية:

النص الأول: جاء في الوصية: "أوصى أنه يشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا-صلى الله عليه وسلم-عبده ورسوله".

جاء في وصية الشافعي في كتاب الأم ما نصه: قال الربيع بن سليمان: "هذا كتاب كتبه محمد بن إدريس بن العباس الشافعي في شعبان سنة ثلاث ومائتين وأشهد الله عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وكفى به جل ثناؤه شهيدًا، ثم من سمعه أنه شهد أن لا إله إلا الله وحده لا

شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله لم يزل يدين بذلك وبه يدين حتى يتوفاه الله ويبعثه عليه إن شاء الله". [1]

وقال البيهقي-رحمه الله-: "وقرأت في كتاب أبي الحسن: محمد بن الحسين العاصمي قال: خرجت إلى زيارة قبر أبي عبد الله: محمد بن إدريس الشافعي، بمصر إلى مقبرتها، وتسمى «المقطم» في مقبرة القرشيين بين قبور بني عبد الله بن عبد الحكم. قال: و «المقطم» اسم جبل مطل على المقبرة. قال: فرأيت قبره مسنما مرتفعا من الأرض مقدار شبرين أو أكثر قليلا، وعليه لوحان منصوبان من رخام: واحد عند رأسه، والآخر عند رجليه، فأما اللوح الذي عند رجليه فمكتوب فيه نسبته إلى إبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله عليه وآله، وأما الذي عند رأسه فمكتوب فيه حفرا في الحجر: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما شهد به محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا، ويشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الموت حق، وأن الله يبعث من في القبور. على ذلك حيي وعليه مات وعليه يبعث حيًا إن شاء الله تعالى. اللهم اغفر له ذنبه، ونور له قبره،

---

1 انظر: كتاب الأم (٤/ ١٢٨).

واحشره مع نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-، واجعله من رفقائه. توفي محمد بن إدريس، رحمه الله، في رجب من سنة أربع ومائتين". [1]

النص الثاني: جاء في الوصية: "وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله".

قال الشافعي-رحمه الله-: "خلق الله الخلق لعبادته ثم أبان-جل وعلا-أن خيرته من خلقه أنبياؤه فقال-تبارك اسمه-: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: الآية: ٢١٣].

فجعل النبيين عليهم الصلاة والسلام من أصفيائه دون عباده بالأمانة على وحيه والقيام بحجته فيهم .

ثم ذكر من خاصة صفوته فقال-جل وعز-: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران: الآية: ٣٣].

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٣٠٠).

فخص آدم ونوحا بإعادة ذكر اصطفائهما وذكر إبراهيم فقال-جل ثناؤه-: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا} [النساء: الآية: ١٢٥] .

وذكر إسماعيل بن إبراهيم فقال-عز ذكره-: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا} [مريم: الآية: ٥٤].

ثم أنعم الله-عز وجل-على آل إبراهيم وآل عمران في الأمم فقال-تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: الآيتان: ٣٣-٣٤]". [1]

النص ثالث: جاء في الوصية:"وأن صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت".

نقل البيهقي حكاية العبارة المكتوبة على قبر الشافعي-رحمه الله-فقال: "هذا قبر محمد بن إدريس، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حق. لم يذكر ما بينهما وزاد: وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له

---

1 انظر: كتاب الأم (٤/ ١٥٩).

وبذلك أمر، وهو من المسلمين، عليه حي، وعليه مات، وعليه يبعث حيا إن شاء الله. توفي أبو عبد الله ليوم بقي من رجب سنة أربع ومائتين". [1]

جاء في وصية الشافعي في كتاب الأم ما نصه: قال الربيع بن سليمان: "وأن يخلص النية لله-عز وجل-فيما قال: وعمل". [2]

وقال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: "لو جهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل إليه، فإذا كان كذلك فأخلص عملك ونيتك لله-عز وجل-". [3]

النص الرابع: جاء في الوصية: "وأن اللهَ يبعث مَن في القبور".

قال الشافعي-رحمه الله-: "والبعث حق". [4]

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

2 انظر: كتاب الأم (٤/ ١٢٨).

3 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٠).

4 الاعتقاد للبيهقي (٢٢٦، ٢٥٥، ٢٦٢)، ومناقب الشافعي (١/ ٤١٥).

وقال البيهقي–رحمه الله–: "في وصف الحجر المكتوب عند رأس الشافعي عند قبره وأما الذي عند رأسه فمكتوب فيه حفرا في الحجر وجاء فيه: " وأن الله يبعث من في القبور. على ذلك حيي وعليه مات وعليه يبعث حيا إن شاء الله تعالى". [1]

ومن شعر الشافعي–رحمه الله–:

شهدت بأن الله لا شيء غيره ... وأشهد أن البعث حق وأخلص. [2]

النص الخامس: جاء في الوصية:"وأن الجنَّةَ حقٌّ، وأنَّ النَّارَ حقٌّ"

قال الشافعي–رحمه الله–: "والجنة والنار وغير ذلك ما جاءت به السنن فظهرت على ألسنة العلماء وأتباعهم من بلاد المسلمين حق". [3]

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٣٠٠).

2 البيهقي في المناقب (١/ ٤٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٤٠٦)، وانظر ديوانه (ص: ٥٤).

3 الاعتقاد للبيهقي (٢٢٦، ٢٥٥، ٢٦٢)، ومناقب الشافعي (١/ ٤١٥).

وقال البيهقي-رحمه الله-: "في وصف الحجر المكتوب عند رأس الشافعي عند قبره وأما الذي عند رأسه فمكتوب فيه حفرا في الحجر وجاء فيه: "ويشهد أن الجنة حق، وأن النار حق". [1]

النص السادس: جاء في الوصية: "وأن عذابَ القبرِ، والحساب، والميزان، والصِّراط حقٌّ"

ورد عن الإمام الشافعي ما يثبت إيمانه بسؤال الملكين وبعذاب القبر ونعيمه. فقد روى البيهقي بسنده عن الإمام الشافعي قال: ".. وأن عذاب القبر حق ومساءلة أهل القبور حق". [2]

وفي دعاء الشافعي-رحمه الله-في الصلاة على الجنازة دلالة على مذهبه في فتنة القبر وعذابه. فإنه قال في كتاب الجنائز في دعائه للميت: "اللهم عبدك وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبه وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر وما هو لاقيه وكان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبدك ورسولك وأنت أعلم به، اللهم نزل بك وأنت خير منزول به وأصبح فقيرا إلى رحمتك وأنت غني عن عذابه وقد جئناك راغبين إليك شفعاء له اللهم إن كان محسنا فزد في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه ولقه رحمتك رضاك وقه فتنة القبر وعذابه وافسح له في

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٣٠٠).

2 مناقب الشافعي (١/ ٤١٥-٤١٦).

قبره وجاف الأرض عن جنبيه ولقه برحمتك الأمن من عذابك حتي تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين". [1]

وقال في موضع آخر

"وقه عذاب القبر، وكل هول يوم القيامة". [2]

وفي رواية للبيهقي: "وقه عذاب القبر، وكل هول دون القيامة". [3]

فهذه النقول تدل على موافقة الشافعي-رحمه الله-لمذهب السلف في هذه المسألة.

قال الشافعي-رحمه الله-: "والحساب حق". [4]

---

1 انظر: كتاب الأم (١/ ٢٨٢)، ومختصر المزني (ص: ٢٨).

2 انظر: كتاب الأم (١/ ٢٧١).

3 مناقب الشافعي (١/ ٤١٦).

4 الاعتقاد للبيهقي (٢٢٦، ٢٥٥، ٢٦٢)، ومناقب الشافعي (١/ ٤١٥).

النص السابع: جاء في الوصية: "وأن اللهَ يَجزي العباد بأعمالهم. عليه أحيا، وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله".

قال الشافعي في وصيته: "وجعل الآخرة دار قرار وجزاء بما عمل في الدنيا من خير أو شر إن لم يعفه جل ثناؤه". [1]

قال البيهقي: "وقال في الفرق بين النكاح الذي تثبت به حرمة المصاهرة وبين الزنا الذي لا تثبت به تلك الحرمة: "وذلك أن الله رضى النكاح وأمر به وندب إليه؛ فلا يجوز أن تكون الحرمة التي أنعم الله بها على من أتى ما دعاه الله إليه كالزاني العاصي لله الذي حده الله وأوجب له النار، إلا أن يعفو عنه. وبسط الكلام فيه". [2]

عن الربيع بن سليمان، قال: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة بن الصامت،قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مجلس

---

1 مناقب الشافعي (١/ ٤٢٩).

2 مناقب الشافعي (١/ ٤٢٩).

فقال: ((بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا. وقرأ عليهم الآية [1]، وقال: فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه)). [2]

النص الثامن: جاء في الوصية: "وأشهد أن الإيمان قولٌ وعملٌ ومَعرفةٌ بالقلبِ يزيد وينقص".

---

1 يعني قوله تعالى: {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم} [الممتحنة: الآية: ١٢].

2 الحديث من هذا الوجه في ترتيب مسند الشافعي (١/ ١٥–١٦)، وقد رواه البخاري بنحوه من حديث عبادة في كتاب الإيمان (١/ ٦٠-٦١)، وفي كتاب المغازى (٧/ ٢٤٣-٢٤٤) وباب وفود الأنصار إلى النبي–صلى الله عليه وسلم–بمكة وبيعة العقبة (٧/ ١٧٤)، وكتاب الحدود: باب الحدود كفارة (١٢/ ٧٤).

قال ابن أبي حاتم[1] ثنا أبي[2] قال: سمعت حرملة[3] بن يحيى قال: اجتمع حفص الفرد[4] ومصلاق[5] الإباضي عند الشافعي في دار الجروي يعني بمصر فاختصما في الإيمان فاحتج مصلاق في الزيادة

---

1 عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي الحافظ الثبت ابن الحافظ الثبت (ت: ٣٢٧ هـ) [الميزان (٢/ ٥٨٧)].

2 محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران العطفاني النظلي أبو حاتم الرازي أحد الأئمة الأعلام (ت: ٢٧٧ هـ) طبقات الشافعية (١/ ٢٩٩).

3 حرملة بن يحيى بن حرملة بن عمران أبو حفص التجيبى المصرى صاحب الشافعى صدوق من الحادية عشرة (ت: ٢٤٣ أو ٢٤٤ هـ)، [التقريب ١٥٦].

4 حفص الفرد مبتدع قال النسائي عنه صاحب كلام لا يكتب حديثه وكفره الشافعي في مناظرته [اللسان (٢/ ٣٣)].

5 مصلاق الإباضي أو مصلان لم أجد له ترجمة والإباضية فرقة من الخوارج لا تزال موجودة حتى اليوم. [انظر الإباضية لصابر طعيمة].

والنقصان واحتج حفص الفرد في أن الإيمان قول، فَعَلاَ حفص الفرد على مصلاق وقوي عليه وضعف مصلاق فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فطحن حفصًا الفرد وقطعه". [1]

وقد روى البيهقي- رحمه الله- بسنده عن الربيع بن سليمان المرادي[2] قال سمعت الشافعي- رضي الله عنه-يقول: "الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص". [3]

---

1 هذا الآثر أخرجه ابن أبي حاتم فى آداب الشافعي ومناقبه صفحة ١٩١ كما أخرجه اللالكائي ٥/٩٦٢ رقم ١٧٥١ والبيهقي في مناقب الشافعي بسنده (١/ ٣٨٧) وهو في الحلية (٩/ ١١٥)، وتاريخ ابن عساكر (١٤/ ٤٠٦ / ١٤ ب)، وطبقات الشافعية لابن كثير (ق ١٤/ أ)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-في كتابه الإيمان (ص: ٢٩٢). وإسناده صحيح.

2 الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي أبو محمد المؤذن-صاحب الشافعي-ثقة وهو راوية كتبه (ت: ٢٧٠ هـ) [التقريب: (ص: ٢٠٦)].

3 أخرجه البيهقي في المناقب (١/ ٣٨٥). وابن عبد البر في الإنتقاء (ص: ٨١)، والذهبي في السير (١٠/ ٣٢)، وآداب الشافعي (ص: ١٩٢)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٢٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق

وروى البيهقي بسند آخر إلى الربيع قال أنشدني الشافعي من قيله:

شهدت بأن الله لا شيء غيره ... وأشهد أن البعث حق وأخلص

وأن عرى الإيمان قول محسن ... وفعل زكي قد يزيد وينقص. [1]

وقال ابن حجر-رحمه الله-:

(١٤/ ٤٠٦ أ) وابن كثير في طبقات الشانعية (١٤ أ)، وابن حجر في توالي التأسيس (ص: ١١٠)، وذكره ابن القيم في شرح سنن أبي داود عون العبود (١٢/ ٤٥٠).

1 البيهقي في المناقب (١/ ٤٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٤٠٦)، وانظر ديوانه (ص: ٥٤).

قال الحاكم في مناقب الشافعي ثنا أبو العباس الأصم[1] أنا الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: "الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص". [2]

ونحوه عند أبي نعيم في الحلية وزاد "يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ثم تلا قوله تعالى: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: الآية: ٣١]". [3]

---

1 أبو العباس الأصم محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل الأموي مولاهم، المحدث، محدث الشرق، قال الحاكم: حدث في الإسلام ستا وسبعين سنة، ولم يختلف في صدقه وصحة سماعه (ت: ٣٤٦ هـ) وهو غير الأصم المعتزلي. [تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٦٠)].

2 فتح الباري (١/ ٤٧).

3 الحلية (٩/ ١١٥).

قال الشافعي–رحمه الله–: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم .ممن أدركناهم: أن – الإيمان: قول وعمل ونية لا يجزيء واحد من الثلاثة إلا بالآخر". [1]

وقال ابن عبدالبر–رحمه الله–: "وذكر أبو القاسم عبيد الله بن عمر البغدادي الشافعي–الذي استجلبه المستنصر بالله أمير المؤمنين وأسكنه الزهراء–حدثنا محمد بن علي قال أنا الربيع قال سمعت الشافعي يقول: "الإيمان قول وعمل وإعتقاد القلب ألا ترى قول الله–عز وجل– {وَمَا كَانَ اللهُ يُضِيعَ إِيمَانَكُم} [البقرة: الآية: ١٤٣] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيمانًا وهي قول وعمل وعقد". [2]

---

1 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٥/ ٨٨٦)، وانظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٢٥)، والإيمان لابن تيمية (ص: ١٩٧)..

2 الانتقاء (ص: ٨١)، وانظر: مناقب الشافعي للرازي (ص: ١٣١)..

وممن نقل القول عن الإمام الشافعي-رحمه الله-بالزيادة والنقصان ابن أبي حاتم [1]، والحافظ اللالكائي [2]، وأبو نعيم [3]، والبيهقي [4]، وابن عبد البر [5]، وابن عساكر [6]، والرازي [7]، والنووي

---

1 أداب الشافعي ومناقبه (ص: ١٩٢).

2 شرح أصول أعتقاد أهل السنة والجماعة(٥/ ٨٨٦، ٨٩٠، ٩٥٧).

3 الحلية (٩/ ١١٥).

4 الاعتقاد (ص: ١٨٠)، المناقب (١/ ٣٨٥).

5 الإنتقاء (ص: ٨١).

6 تاريخ دمشق (١٤/ ٤٠٦ / ١٤أ- ب).

7 مناقب الشافعي (ص: ١٣٠-١٣٢).

[1]، وابن تيمية [2]، والذهبي [3]، وابن القيم [4]، وابن حجر [5]،-رحمهم الله -كلهم نقل عن الإمام الشافعي-رحمه الله-القول بزيادة الإيمان ونقصانه بل نقلَ بعضهم أن الشافعي حكى الإجماع على ذلك من السلف- رحمهم الله-كابن تيمية [6]، وابن رجب [7].

---

1 تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٦٦).

2 الإيمان (ص: ٢٩٢).

3 سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٢).

4 عون العبود (١٢/ ٤٥٠).

5 فتح الباري (١/ ٤٧).

6 الإيمان (ص: ١٩٧).

7 جامع العلوم والحكم (ص: ٢٥).

النص التاسع: جاء في الوصية: "وأن القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى غيرَ مخلوقٍ".

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي-رضي الله عنه-، يقول: "القرآن كلام الله غير مخلوق". [1]

وعن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: "القرآنُ كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر". [2]

وروى البيهقي بسنده عن محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت الربيع يقول: لما كلم الشافعي-رحمه الله-حفص الفرد، فقال حفص: القرآن مخلوق. قال الشافعي: "كفرت بالله العظيم". [3]

---

1 أخرجه الآجري في الشريعة عن الحسين الحصاص به (١/ ٥٠٨) (ح: ١٧٦)، وأخرجه ابن أبي حاتم (ص: ١٩٤) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٦١٢)، واللالكائي (٢/ ٢٥٢) (ح: ٤١٨)، وغيرهم..

2 الآجري في الشريعة (١/ ٥٠٩) (ح: ١٧٦).

3 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٠٧).

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي-رضي الله عنه-يقول: "من قال لفظي بالقرآن مخلوق أو القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمى". [1]

وروى البيهقي في الأسماء والصفات بسنده عن علي بن سهل الرملي قال: سألت الشافعي عن القرآن فقال: "كلام الله تعالى منزل غير مخلوق". قلت فمن قال بالمخلوق فما هو عندك قال لي: "كافر".

قال: وقال الشافعي-رضي الله عنه-: "ما لقيت أحدًا منهم يعني أساتذته إلا قال من قال في القرآن إنه مخلوق فهو كافر". [2]

وقال في كتابه الإعتقاد: وقد ذكر الشافعي-رحمه الله-مادل على أن ما نتلوه في القرآن بالسنتنا ونسمعه بآذاننا ونكتبه في مصاحفنا يسمى كلام الله-عز وجل-، وأن الله-عز وجل-كلم به عباده بأن أرسل به رسوله-صلى الله عليه وسلم-". [3]

---

1 أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٥٤) (٥٩٩).

2 الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٣٢٣)، وانظر: السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٦).

3 الاعتقاد للبيهقي (ص: ١٠٨).

النص العاشر: جاء في الوصية: "وأن الله-عز وجل-يُرى في الآخره، ينظر إليه المؤمنون عيانًا جِهارًا، ويسمعون كلامَه"]

قال الشافعي=رحمه الله-لابن أسد، وقد سأله عن حديث الرؤية، فقال: "أقض عليّ حييت أو مت أن كل حديث يصح عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فإني أقول به، وإن لم يبلغني". [1]

عن الربيع بن سليمان قال: كنت ذات يوم عند الشافعي-رحمه الله-، وجاءه كتاب من الصعيد-وهو اسم موضع-يسألونه عن قول الله جل ذكره: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين: الآية: ١٥]، فكتب فيه: لما حجب الله قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا قال الربيع: قلت له: أوتدين بهذا يا سيدي؟

---

1 المناقب (١/ ٤٢)، الاعتقاد للبيهقي (ص: ١٣١).

فقال: والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا". [1]

وعن المزني، قال: سمعت ابن هرم القرشي، يقول: سمعت الشافعي يقول في قول الله عز وجل: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين: الآية: ١٥]، قال: "هذا دليل على أن أولياءه يرونه يوم القيامة". [2]

وعن إسماعيل بن يحيى المزني يقول: سمعت ابن هرم القرشي، يقول: سمعت الشافعي يقول في قول الله عز وجل: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين: الآية: ١٥]، قال: فلما حجبهم في السخط كان هذا دليلا على أنهم يرونه في الرضا.

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (ص: ١/ ٤١٩).

2 مناقب الشافعي للبيهقي (ص: ١/ ٤٢٠).

قال: فقال أبو النجم القزويني: يا أبا إبراهيم، به تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله عز وجل. قال: فقام إليه عصام وقبل رأسه، وقال: يا سيد الشافعيين، اليوم بيضت وجوهنا. [1]

النص الحادي عشر: جاء في الوصية: "وأنه فوقَ العرشِ".

روى الشافعي بسنده في كتاب الأم قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد قال: حدثني موسى بن عبيدة قال: حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد الله بن عبيد بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكتة إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((ما هذه؟) فقال: ((هذه الجمعة، فُضِّلْتَ بها أنت وأمتُك))..، قال: ((وهو اليوم الذي استوى فيه ربُّك تبارك اسمُه على العرش)). [2]

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (ص: ١/ ٤٢٠).

2 الأم (٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

قال أبو عثمان الصابوني-رحمه الله-: "وإمامنا أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي-رضي الله عنه-، احتج في كتابه المبسوط في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة وأن غير المؤمنة لا يصح التكفير بها بخبر معاوية بن الحكم، وأنه أراد أن يعتق الجارية السوداء لكفارة، وسأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-عن إعتاقه إياها، فامتحنها رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فقال-صلى الله عليه وسلم-لها: ((من أنا؟))، فأشارت إليه وإلى السماء، يعني أنك رسول الله الذي في السماء، فقال-صلى الله عليه وسلم-: ((أعتقها فإنها مؤمنة)).

فحكم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بإسلامها وإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية.

وإنما احتج الشافعي-رحمة الله عليه-على المخالفين في قولهم بجواز إعتاق الرقبة الكافرة في الكفارة بهذا الخبر؛ لاعتقاده أن الله سبحانه فوق خلقه، وفوق سبع سماواته على عرشه، كما معتقد المسلمين من أهل السنة والجماعة سلَفِهم وخلفِهم، إذ كان-رحمه الله-لا يروي خبراً صحيحاً ثم لا يقول به". [1]

قال الذهبي-رحمه الله-نقلًا عن الصابوني أن الشافعي احتج في كتابه المبسوط على أن "الرقبة الكافرة لا يصح التكفير بها بخبر معاوية بن الحكم، فإنه أراد أن يعتق الجارية.. فقال لها أين

---

1 كتاب عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص: 43).

ربك؟، فأشارت إلى السماء، فقال اعتقها فإنها مؤمنة، فحكم بإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية". [1]

وقال البيهقي – رحمه الله – في الأسماء والصفات–بعد أن ذكر الأدلة على استواء الله تبارك وتعالى على عرشه–: "والآثار عن السلف في معنى هذا كثيرة وعلى هذه الطريق يدل مذهب الشافعي–رضي الله عنه–". [2]

قال ابن القيم: "وصح عن الشافعي أنه قال: خلافة أبي بكر الصديق–رضي الله عنه–حق، قضاها الله في سمائه وجمع عليها قلوب أصحاب نبيه–صلى الله عليه وسلم–".[3]

النص الثاني عشر: جاء في الوصية: "وأن القدرَ خيره وشرّه مِن الله–عز وجل–، لا يكون إلَّا ما أراد الله –عز وجل–وقضاه وقدره".

---

1 كتاب العرش للذهبي (2/ 449).

2 الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٥١٧)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤٠٧).

3 إثبات صفة العلو (ص: ١٨١)، رقم (٩٣)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٢٤١).

عن الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي-رحمه الله-: "إن مشيئة العباد هي إلى الله تعالى، ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين؛ فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم، وهي خلق من خلق الله تعالى أفعال العباد، وأن القدر خيره وشره من الله عز وجل". [1]

قال الشافعي-رحمه الله-: "قال الله-عز وجل-: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان الآية: ٣٠]، فأعلم خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء والمشيئة إرادة الله عز وجل". [2]

وفي تاريخ ابن عساكر عن الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: "لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء.

وذلك أنه رأى قوما يتجادلون في القدر بين يديه.

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (ص: ١/ ٤١٥).

2 كتاب الأم (١/ ٢٠٢)، ومناقب الشافعي للبيهقي (ص: ١/ ٤١٢)، والاعتقاد للبيهقي (ص: ١٥٧).

فقال الشافعي: في كتاب الله المشيئة له دون خلقه والمشيئة إرادة الله بقول الله تعالى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان الآية: ٣٠]، فأعلم خلقه أن المشيئة له وكان يثبت القدر". [1]

وعن الربيع بن سليمان قال: كنت جالسًا عند الشافعي-رضي الله عنه-، فذكر القدر وأنشأ يقول:

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتي والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيحُ ومنهم حَسَنْ. [2]

---

1 تاريخ ابن عساكر (١٤/ ب/ ٤٠٦/ خ) .

2 أخرجه البيهقي في كتاب القدر (ق: ٩٤-ب)، وفي الأسماء والصفات (٢/ ٤٥٠)، وفي مناقب الشافعي (١/ ٤١٢-٤١٣)، وفي السنن (١٠/ ٢٠٦-٢٠٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٥٤)، طبقات الشافعية لابن كثير (١٤/ أ خ)، وديوان الشافعي (ص: ٨٣).

النص الثالث عشر: جاء في الوصية: "وأن خير الناس بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب-رضوان الله عليهم-أجمعين، وأتولاهم، وأستغفر لهم، ولأهل الجمل، وصِفين، القاتِلين والمقتولين، وجميع أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-أجمعين-رضي الله عنهم-".

قال الشافعي-رحمه الله-: "أفضل الناس بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي-رضوان الله عليهم-". [1]

وقال الشافعي-رحمه الله-: "التفضيل يبدأ بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي". [2]

قال الشافعي-رحمه الله-: "وقد أثنى الله-تبارك وتعالى-على أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، هم أدوا إلينا سنن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-عامًا وخاصًا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٣٣).

2 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٣٣).

من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به.

وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا ومن أدركنا ممن نرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا وما صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-فيه سنة إلى قولهم أن اجتمعوا وقول بعضهم أن تفرقوا؛ فهكذا نقول ولم نخرج من أقاويلهم وإن قال واحد منهم ولا يخالفه أحد غيره أخذنا بقوله". [1]

قال الإمام الشافعي-رحمه الله-: "خلافة أبي بكر الصديق حق قضاه الله في سمائه وجمع عليه قلوب عباده". [2]

قال محمد بن الحسن بن الصبّاح الزعفراني: سمعت الشافعي-رحمه الله-يقول: "اجتمع الناس على خلافة أبي بكر-رضي الله عنه-، واستخلفَ أبو بكر عمرَ، ثم جعل عمر الشورى إلى ستة على أن يُولّوها واحدًا منهم، فولّوها عثمان. قال الشافعي: وذلك أُنهم نظروا بعد رسول

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢-٤٤٣)، ومناقب الشافعي للرازي (ص: ١٣٦)..

2 انظر: عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (ص: ٤٧)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٩٥).

الله-صلى الله عليه وسلم-، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيرًا من أبي بكر الصديق-رضي الله عنه-فولَّوه رقابهم". [1]

أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد المقرئ، نا أبو الفتح محمد ابن أحمد بن أبي الفوارس الحافظ، نا أحمد بن جعفر بن سلمة، نا محمد بن مخلد، نا محمود بن محمد المروزي، قال: سمعت أبا سليمان الحارث بن سريج، قال: سمعت إبراهيم بن عبيد الله الحَجَبي يقول للشافعي-رحمه الله: ما رأيت هاشميًا قط قدم أبا بكر وعمر على عليّ غيرك، فقال الشافعي: عليّ ابن عمي وابن خالتي، وأنا رجل من بني عبد مناف، وأنت رجل من بني عبد الدار، فلو كان هذا مكرُمةٌ كنتُ أنا أحق بها منك، ولكن ليس الأمر كما تحسب.

وقال: الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز-رضي الله عنهم-أجمعين. [2]

---

1 أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٥)، والبيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٣٤).

2 أخرجه أبن أبي حاتم (ص:١٨٩-١٩٠)، والبيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٣٨-٤٣٩)، وابن عساكر في التاريخ (١٤/ ٨١٢).

وقال الشافعي–رحمه الله–: " ما اختلف أحد من الصحابة في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة، وإنما اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان: منهم من قدم عليا على عثمان ومنهم من قدم عثمان على علي.

قال: ونحن لا نخطيء أحدًا من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فيما فعلوه". [1]

وكان الشافعي–رحمه الله–يقول للربيع: "اقبل مني ثلاثة أشياء لا تَخُضْ في أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–فإن خصمك النبي–صلى الله عليه وسلم–يوم القيامة، ولا تشتغل بالكلام فإني اطلعت من أهل الكلام على أمر عظيم، ولا نشتغل بالنجوم فإنه يجر إلى التعطيل". [2]

وقال الشافعي–رحمه الله–: "ما أرى أن الناس ابتلوا بشتم أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–إلا ليزيدهم الله بذلك ثوابا عند انقطاع عملهم".

وفي رواية الربيع بمعناه وقال: "إلا ليجري الله–عز وجل–لهم الحسنات وهم أموات". [3]

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٣٤).

2 توالي التأسيس (ص: ٧٣)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٨).

3 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤١)، ومناقب الشافعي للرازي (ص: ٤٩)، تاريخ دمشق (١٤/ ٤٠٧ ب).

النص الرابع عشر: جاء في الوصية: "والسَّمع والطاعة لأولي الأمر ما داموا يصلّون، والولاةُ لا يُخرَج عليهم بالسَّيفِ، والخلافةُ في قريشٍ".

قال الإمام الشافعي: "كانت العرب تأنف من الطاعة للأمراء، فلما أطاعوا رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-أمرهم بطاعة الأمراء، وهذا صريحٌ في أنَّ المرادَ بأولي الأمر: الأُمَراءُ؛[1]

1 كما قال الحافظ أبو زرعة العراقي في "طرح التثريب" (8/ 82، ط. دار إحياء التراث العربي).

قال النووي: "أجمع العلماء على وجوبها-أي طاعة الأمراء-في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية. نقل الإجماع على هذا القاضي عياض". إلى أن قال: "ولا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث

وقال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا فكان من مذهبهم وذكرا أمورًا ثم قالا: ونقيم فرض الجهاد والحج مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان. ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله-عز وجل-أمرنا ولا ننزع يدا من طاعة، ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة. وأن الجهاد ماض منذ بعث الله-عز وجل-نبيه عليه الصلاة

بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق". [شرح مسلم (12/ 222، 223، 229)].

قال النووي: "تَجِبُ طَاعَةُ الْإِمَامِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ مَا لَمْ يُخَالِفْ حُكْمَ الشَّرْعِ، سَوَاءٌ كَانَ عَادِلًا أَوْ جَائِرًا". [روضة الطالبين وعمدة المفتين (10/ 47)].

والسلام إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء. والحج كذلك، ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين". [1]

النص الخامس عشر: جاء في الوصية: "وأن قليلَ ما أسكر كثيره خمرٌ".

وقد جاء في الحديث: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)). [2]

جاء في كتاب الأم ما نصه: "وقول الشافعي: إن ما أسكر كثيره قليله حرام". [3]

النص السادس عشر: جاء في الوصية: "والمُتعةُ حرامٌ".

---

1 شرح الاعتقاد للالكائي (١/ 176،180).

2 أخرجه النسائي (5607)، وابن ماجه (3394)، وأحمد (6558)، وقال الألباني في صحيح النسائي (٥٦٢٣): حسن صحيح.

3 كتاب الأم (٦/ ١٩٥).

قال الشافعي-رحمه الله-: "وجماع نكاح المتعة المنهي عنه: كل نكاح كان إلى أجل من الآجال، قَرُبَ أو بعد. وذلك أن يقول الرجل للمرأة "نكحتك يوماً" أو "عشراً" أو "شهراً" أو "نكحتك حتى أخرج من هذا البلد" أو "نكحتك حتى أصيبك فتحلين لزوج فارقك ثلاثًا" أو ما أشبه هذا مما لا يكون فيه النكاح مطلقًا لازِمًا على الأبد أو يحدث لها فرقة". [1]

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: "لا أعلم في الإسلام شيئًا أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة". [2]

النص السابع عشر: جاء في الوصية: "وأوصي بتقوى الله-عز وجل-"

وقال الشافعي: "خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله على كل حال". [3]

---

1 "الأم" (٧/ ٢٨٠).

2 معالم التنزيل للبغوي (١/ ٥٩٦) (تفسير سورة النساء: الآية: ٢٤].

3 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٣).

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس". [1]

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "لا يجمل العلم ولا يحسن إلا بثلاث خلال: تقوى الله، وإصابة السنة، والخشية". [2]

النص الثامن عشر: جاء في الوصية: "ولزوم السُّنة والآثار عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–وأصحابه".

قال الإمام الشافعي–رحمه الله–: "ليس في سنة رسول الله–صلى الله عليه وسلم– إلا اتباعها بفرض الله تعالى". [3]

---

1 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٨).

2 مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٨).

3 أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٢٧) (ح: ٦٩٦).

قال الشافعي: "ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أو واحد منهم، ثم كان قول الأئمة أبي بكر، أو عمر، أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا. إلى أن قال: والعلم طبقات شتى:

الأولى: الكتاب والسنة إذا ثبتت السنة

الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

الثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبيّ ﷺ ولا نعلم له مخالفاً منهم.

الرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ في ذلك.

الخامسة: القياس على بعض الطبقات، ولا يصار إلى شيء غير الكتاب والسنة، وهما موجودان، وإنما يؤخذ العلم من أعلى". [1]

قال الإمام الشافعي-رحمه الله-: "إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث فكأني رأيت رجلًا من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم". [2]

---

1 "الأم" (5/ 79).

2 أخرجه البيهقي في المدخل (ح: ٦٨٩)، وفي مناقب الشافعي (١/ ٤٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٩).

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي–وقد روى حديثًا–فقال له رجل: تأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟ فقال: "إذا رويتُ حديثًا صحيحًا عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب". [1]

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فقولوا بها، ودعوا ما قلته". [2]

وقال الحميدي: روى الشافعي يومًا حديثًا، فقلت: أتأخذ به ؟ فقال: "رأيتني خرجت من كنيسة ؟ أو علي زنار؟ حتى إذا سمعت عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–حديثا لا أقول به". [3]

---

1 أخرجه ابن أبي حاتم (ص: ٦١)، والبيهقي في المدخل (ح: ٢٥٠)، وفي المناقب (١/ ٤٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٦)، والخطيب في الفقيه (١/ ١٥٠)، وابن عساكر (ج ١٥/ ١٧)، والمعرفة (١/ ١٤٥)، كلهم عن الربيع به.

2 مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢)، توالي التأسيس (ص: ٦٣).

3 مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢)، حلية الأولياء (٩/ ١٠٦)، توالي التأسيس (ص: ٦٣)، ومفتاح الجنة (ص: ٥٤).

وقال حرملة: قال الشافعي: "كل ما قلته فكان من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-خلاف قولي مما صح، فهو أولى، ولا تقلدوني". [1]

وعن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، قال: أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل فيما كتب به إليّ قال: سمعت أبي-رحمه الله-يقول: كان الشافعي-رحمه الله-إذا ثبت عنده الخبر قلَّده. وخير خصلة كانت فيه أنه لم يشته الكلام إنما همته الفقه". [2]

أخبرنا أحمد بن مهدي، أنا أبو نصر المري، أنا القاضي الميانجي، نا أحمد بن مروان المالكي، أنا زكريا بن يحيى الساجي، نا أحمد بن أبي الليث، عن أحمد بن حنبل-رضي الله عنه-، قال: "ما رأيت أتبع للأثر من الشافعي". [3]

وعن أبي إسماعيل الترمذي قال سمعت أحمد ابن حنبل وذكر الشافعي فقال-رحمه الله-: "لقد كان يذب عن الأثار". [4]

---

1 آداب الشافعي (ص: 67-68، ٩٣)، وحلية الأولياء (٩/ ١٠٦-١٠٧).

2 أخرجه ابن أبي حاتم (ص: ٨٢).

3 أخرجه ابن أبي حاتم (ص: ٦١)، وعنه أبو نعيم في الحلية: (٩/ ١٠٠)، وفي (٩/ ١٠٧).

4 أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣٤٥).

وعن أحمد بن عثمان بن سعيد الأحول قال سمعت أحمد بن حنبل يقول: "ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم-حتى قدم الشافعي فبينها لهم". [1]

وعن أبي القاسم بن منيع يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول: "كان الفقه قفلا على أهله حتى فتحه الله بالشافعي". [2]

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي-رحمه الله-يقول: "إذا رويتم عن النبي له بخلاف قولي، فدعوا قولي وخذوا به فإني أقول به . [3]

ومن شعر الشافعي:

كل العلوم سوى القرآن مشغلةٌ ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

---

1 أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣٤٥).

2 أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣٤٥).

3 أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٦٧-٦٨) بنحوه، والبيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢)، وفي المدخل (ح: ٢٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٧)، وابن عساكر (١٥/ ١٨)..

العلم ما كان فيه حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين. [1]

النص التاسع عشر: جاء في الوصية: "وترك البدع والأهواء واجتنابها".

قال ابن عبد الحكم، سمعت الشافعي يقول: "لو علم الناس ما في الكلام والأهواء، لَفَرُّوا منه كما يفرون من الأسد". [2]

---

1 أخرجه السبكي في طبقات الشافعية من طريق المصنف به (١/ ٢٩٧)، وذكره ابن كثير في البداية (١٠/ ٢٥٤).

ونُسبت الأبيات لبعض علماء ((شاش)) كما في شرف أصحاب الحديث (ح: ١٧٠) ، وعنه عياض في الإلماع (ص: ٤١)، وكتاب البرهان لابن قدامة (ص: ٥٧).

2 سير أعلام النبلاء (10/ 18).

فعن يونس بن عبد الأعلى قال: قلت لمحمد بن إدريس الشافعي: قال صاحبنا الليث بن سعد: لو رأيت صاحب هوىً يمشي على الماء؛ ما قبلته. فقال الشافعي: أما إنه قصر! لو رأيته يمشي في الهواء؛ ما قبلت". [1]

وقال الشافعي-رحمه الله-: "لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط، ولأَنْ يُبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه الله بالكلام". [2]

وقال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، والنعال، ويجعلوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام. [3]

---

1 آداب الشافعي (ص: ١٨٩).

2 مناقب الشافعي (١/ ٤٥٤)، وسير أعلام النبلاء (10/ 19).

3 أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٦٢)، وإسماعيل الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٥٥)، وابن عبد البر في الانتقاء (ص: 80)، وفي جامع بيان العلم وفضله (2/ 941)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٦)، وأبو الفضل عبد الرحمن في كتابه أحاديث في ذم الكلام وأهله (ص: 98)، وابن المبرد في جمع الجيوش والدساكر على ابن عساكر (ص: 66).

قال الشافعي–رحمه الله–: "ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة".

قال البيهقي: وهذا لأنَّ المقيم على البدعة قلَّما يرجع بالمناظرة عن بدعته، وإنما كان يناظر من يرجو رجوعه إلى الحق إذا بينه له [1]

النص العشرون: جاء في الوصية: "واتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون، فإنها وصية الأولين والآخرين، وأن من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، واتقوا الله ما استطعتم".

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس". [2]

---

1 مناقب الشافعي (١/ ١٧٤).

2 مناقب الشافعي (١/ ١٤٨).

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "لا يجمل العلم ولا يحسن إلا بثلاث خلال: تقوى الله، وإصابة السنة، والخشية". [1]

النص الحادي والعشرون: جاء في الوصية: "وعليكم بالجمعة والجماعة".

قال الشافعي-رحمه الله-: "وأمر رسول الله-صلى الله عليه وسلم-من أتى الصلاة أن يأتيها وعليه السكينة ورخص في ترك إتيان الجماعة في العذر بما سأذكره إن شاء الله تعالى في موضعه، وأشبه ما وصفت من الكتاب والسنة أن لا يحل ترك أن يصلي كل مكتوبة في جماعة حتى لا يخلوا جماعة مقيمون ولا مسافرون من أن يصلى فيهم صلاة جماعة". [2]

---

1 مناقب الشافعي (١/ ١٤٨).

2 الأم الشافعي (١/ ١٧٩).

قال الشافعي–رحمه الله–: حضور الجمعة فرض فمن ترك الفرض تهاونا كان قد تعرض شرًا إلا أن يعفو الله كما لو أن رجلا ترك صلاة حتى يمضي وقتها كان قد تعرض شرا إلا أن يعفو الله. [1]

النص الثاني والعشرون: جاء في الوصية: "ولزوم السُّنَّة، والإيمان، والتفقه في الدِّين".

قال الإمام الشافعي–رحمه الله–: "طلب الحديث أفضل من صلاة النافلة". [2]

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "لا يجمل العلم ولا يحسن إلا بثلاث خلال: تقوى الله، وإصابة السنة، والخشية". [3]

---

1 الأم الشافعي (١/ ٢٣٩).

2 أخرجه البيهقي في المدخل (ح: ٤٧٤)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص: ١١٣) (ح: ٢٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٢٣) من طريق الأصم به، والهروي في ذم الكلام (ص: ٢٤٧).

3 مناقب الشافعي (١/ ١٤٨).

النص الثالث والعشرون: جاء في الوصية: "ومن حضرني منكم فليُلقني: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتعاهدوا الأظفار والشارب قبل الوفاة إن شاء الله، فإذا حضرت فإن كانت عندي حائض فلتقِم، وليُطَيِّبوا، وليُدخّنوا عند فراشي".

وهذه المسائل سيأتي ذكر تفاصيلها عند شرح الوصية.

القسم الثاني: شرح متن الوصية

[١] شرح قول المصنف: "أوصى أنه يشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له".

[٢] شرح قول المصنف: "وأن محمدًا-صلى الله عليه وسلم-عبده ورسوله".

[٣] شرح قول المصنف: "وأنه يؤمن بالله".

[٤] شرح قول المصنف: "وملائكته".

[٥] شرح قول المصنف: "وكتبه".

[٦] شرح قول المصنف: "ورسله، لا يُفرِّقُ بين أحدٍ من رسله".

[٧] شرح قول المصنف: "وأن صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت".

[٨] شرح قول المصنف: "وأن الله يبعث مَن في القبور".

[٩] شرح قول المصنف: "وأن الجَنَة حقٌّ، وأنَّ النار حقٌّ".

[١٠] شرح قول المصنف: "وأن عذابَ القبرِ، والحساب، والميزان، والصراط حق".

[١١] شرح قول المصنف: "وأن الله يَجزي العباد بأعمالهم. عليه أحيا، وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله".

[١٢] شرح قول المصنف: "وأشهد أن الإيمان قولٌ وعملٌ ومَعرفةٌ بالقلبِ يزيد وينقص".

[١٣] شرح قول المصنف: "وأن القرآنَ كلامُ الله تعالى غيرَ مخلوقٍ".

[١٤] شرح قول المصنف: "وأن الله-عز وجل-يُرى في الآخره، ينظر إليه المؤمنون عيانًا جِهارًا، ويسمعون كلامه".

[١٥] شرح قول المصنف: "وأنه فوقَ العرشِ".

[١٦] شرح قول المصنف: "وأن القدرَ خيره وشرّه من الله-عز وجل-، لا يكون إلّا ما أراد الله -عز وجل-وقضاه وقدره".

[١٧] شرح قول المصنف: "وأن خير الناس بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب..."

[١٨] شرح قول المصنف: "والسَّمع والطاعة لأولي الأمر ما داموا يصلّون".

[١٩] شرح قول المصنف: "والولاةُ لا يُخرَج عليهم بالسَّيفِ".

[٢٠] شرح قول المصنف: "والخلافةُ في قريشٍ".

[٢١] شرح قول المصنف: "وأن قليل ما أسكر كثيره خمْر".

[٢٢] شرح قول المصنف: "والمُتعةُ حرامٌ".

[٢٣] شرح قول المصنف: "وأوصي بتقوى الله-عز وجل-، ولزوم السُّنة والآثار عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وأصحابه".

[٢٤] شرح قول المصنف: "وترك البدع والأهواء واجتنابها".

[٢٥] شرح قول المصنف: **"واتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون، فإنها وصية الأولين والآخرين..."**.

[٢٦] شرح قول المصنف: "وعليكم بالجمعة والجماعة".

[٢٧] شرح قول المصنف: "ولزوم السُّنَّة، والإيمان، والتفقه في الدِّين".

[٢٨] شرح قول المصنف: "ومن حضرني منكم فليلقني: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله".

[٢٩] شرح قول المصنف: "وتعاهدوا الأظفار والشارب قبل الوفاة إن شاء الله".

[٣٠] شرح قول المصنف: "فإذا حضرت فإن كانت عندي حائض فلتقم".

[٣١] شرح قول المصنف: "وليطَّيبوا، وليدّخنوا عند فراشي".

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه وصيةُ محمد بن إدريس الشَّافعي–رضي الله تعالى عنه–:

الشرح:

كانت سنة الصحابة–رضوان الله عليهم–، والعلماء، وأهل الصلاح أنهم كانوا يذكرون عقيدتهم، ويصدرون بالشهادتين وصاياهم كالوصية إلى مَن بعدهم أن يكونوا كذلك.

قال أنس بن مالك–رضي الله عنه–: "كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: هذا ما أوصى به فلان بن فلان، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا

الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب {يَبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ} [البقرة: الآية: ١٣٢]". [1]

وجاء في وصية عثمان بن عفان-رضي الله عنه-: "هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. .. " إلى آخرها وبنحو ما جاء عن الشافعي-رحمه الله-. [2]

وجاء في وصية علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-: "هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله . . . ". [3]

---

1 أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ١٠٤) برقم: (٣٢٦)، والدارقطني في سننه (٥/ ٢٧١) برقم: (٤٣٠٣)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٤٦٨) برقم: (١٢٦٨٣)، وعبد الرزاق في منصفه (٩/ ٥٣) برقم: (١٦٣١٩)، والأثر صححه الألباني في الإرواء (٦/ ٨٤) برقم: (١٦٤٧).

2 انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ١٨٤)، وسير السلف الصالحين، للأصبهاني، (ص: ١٨٣)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٩/ ٤٠١)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحب الدين الطبري (٣/ ٧٥).

3 تاريخ ابن جرير (٥/ ١٤٧-١٤٨) والبداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ٣٢٧).

وجاء في وصية أحمد بن حنبل-رحمه الله-: "هذا ما أوصى به أحمد بن محمد، أوصى أنه يشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وإنَّ محمدًا عبده ورسوله إلى آخر وصيته". [1]

وجاء في وصية أبي عثمان الصابوني-رحمه الله-، حيث قال: "هذا ما أوصى به إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني. .. أوصى وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا أحَّد، فرداً صمدًا ... ". إلى آخر وصيته. [2]

وغيرهم كثير. [3]

---

1 البداية والنهاية، لابن كثير (١٠/ ٣٤٠) وتاريخ الإسلام، للذهبي (٥/ ١٠٤٩)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٠)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥/ ٣٢٥)، والعواصم والقواصم، لابن الوزير (٤/ ٢٥٤-٢٥٣)، وسيرة الإمام أحمد، لابنه صالح، (ص: ١٠٩).

2 طبقات الشافعية، للسبكي (٤/ ٢٨٥)، بغية الطلب في تاريخ حلب، لكمال الدين بن العديم (٤/ ١٦٨٦).

3 انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٣/ ٨٨)، وتاريخ ابن معين (٤/ ٢٩٦)، تاريخ جرجان، للجرجاني، (ص: ٣٢٦)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، للشنتريني، (ص: ٣٣٣)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٣/ ١٨٠) (١٩/ ٢٠٥)، معجم الأدباء، للحموي (٢/ ٨٣٩)، بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم (٤/ ١٧٤١).

[شهادة أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له]

المسألة الأولى: بيان معناها.

المسألة الثانية: معنى الإله في الشرع.

المسألة الثالثة: معنى لا إله إلا الله.

المسألة الرابعة: العمل بمقتضاها.

المسألة الخامسة: أركان لا إله إلا الله.

المسألة السادسة: شروط لا إله إلا الله.

المسألة السابعة: مراتب الشهادة.

المسألة الثامنة: متي ينفع الإنسان قول لا إله إلا الله.

[١]-قال المصنف-رحمه الله-: "أوصى أنه يشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له".

الشرح معنى الشهادة:

الشهادة مشتقة من الأصل الثلاثي (شهد)، فالشين والهاء والدال أصل يدل على حضور، وعلم، وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن ذلك، يقال: شهد يشهد شهادة، وشهد الرجل على كذا يشهد عليه شهادة: إذا أخبر به قطعًا، والأصل في الشهادة الإخبار عما شاهد

المخبر بحسه، ثم قد تطلق على ما يحققه الإنسان ويتقنه معرفة وعلما، وإن لم يكن شاهدا للحس؛ لأن المحقق علما كالمدرك حسا ومشاهدة. [1]

ولا شك أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية: ٢٥].

وقال تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الفتح: الآية: ٩].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء الآية: ١٣٦].

وفي الصحيحين عن ابن عباس–رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–لمعاذ بن جبل–رضي الله عنه–حين بعثه إلى اليمن: ((إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك

---

1 انظر: معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٢١)، وتهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٤٧)، والكليات (٥٢٨)، والمعجم الوسيط (١/ ٤٩٧)، والمفهم بشرح صحيح مسلم للقرطبي (١/ ٨٧).

بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)).
1

وعن عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)). 2

قال الإمام ابن حجر العسقلاني: "وقعت البداءة بهما –يعني الشهادتين–لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلاّ بهما ...". إلخ. 3

---

1 أخرجه البخاري (1496) واللفظ له، ومسلم (19).

2 أخرجه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

3 فتح الباري (٣/ ٣٥٨).

فينبغي للمسلم أن يكون على علم بمعنى الشهادة وأركانها وشروطها ومراتبها، وهذا ما نتناوله في المحاور الآتية وذلك في جانب وحدانية الله هنا، وسيأتي الجانب المتعلق بالنبوة في الفقرة التي تليها:

وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: بيان معناها

بيان معنى كلمة إله في اللغة:

أ-أصل الكلمة:

قال ابن فارس: الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود، ويقال: تأله الرجل إذا تعبد. [1]

ب-تصريفها:

قال الفيروزأبادي: أله يأله ألهة وتالها كعبد يعبد عبادة وتعبدا. [2]

---

1 معجم مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

2 بصائر ذوي التمييز (٢/ ١٤).

ج–معناها:

فقد ذكرت له عدة معان:

أولا: الإله فعال بمعنى مألوه، أي: معبود، كإمام بمعنى مؤتم به، وأله إلهة: عبد عبادة، والتأليه: التعبيد، والآلهة: المعبودون من الأصنام وغيرها، والتأله: التعبد والتنسك. [1]

فالإله: هو المعبود وهو الله سبحانه، وهو على وزن فعال بمعنى مفعول، مثل كتاب معنى مكتوب وبساط بمعنى مبسوط، فالإله إذن على معنى ما روي عن ابن عباس: "هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق، والله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين". [2]

---

1 تهذيب اللغة: (١/ ٤٢٢،٤٢٤)، معجم مقاييس اللغة (١/ ١٢٧)، مجمل اللغة: (١/ ١٠١)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٢٢٣،٢٢٢٤)، المفردات (ص: ٢١-٢٢)، أساس البلاغة (٩)، لسان العرب: (١/ ١٨٨،١٩١)، القاموس : (٤/ ٢٨٢)، وتاج العروس (٩/ ٣٧٤-٣٨٥).

2 الطبري في تفسيره (١/ ٥٤).

ثانيا: الإله مأخوذ من أله: إذا تحير، وأصله وله يوله ولها، على وزن تعب يتعب تعبا، فإن الإله هو الله سبحانه تتحير الألباب والفكر في حقائق صفاته ومعرفته، وعلى هذا، فأصل كلمة إله: ولاه، وأن الهمزة مبدلة من واو. [1] وقد أنكر بعض أصحاب المعاجم هذا المعنى. [2]

ثالثا: أن الإله مأخوذ من أله إلى كذا: أي لجأ إليه، فروي عن الضحاك أنه قال: إنما سمي الله إلها؛ لأن الخلق يتضرعون إليه في حوائجهم ويتضرعون إليه عند شدائدهم [3] فيكون المعنى: هو من يفزع إليه في النوائب لأنه المجير لجميع الخلائق من كل المضار.

رابعا: أن الإله مشتق من (لاه يليه ويلوه لياها) إذا احتجب [4]، فلفظ الجلالة يتضمن معنى الاحتجاب كما قال تعالى: {لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}. [الأنعام: الآية: ١٠٣].

---

1 لسان العرب: (١/ ١٨٨-١٩١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٠٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٩).

2 انظر : معجم مقاييس اللغة : (١/ ١٢٧).

3 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٠٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٩).

4 تفسير ابن كثير (١/ ١٩).

خامسا: أنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، فالقلوب لا تسكن إلا بذكره، فمن خاف الله تقرب إليه فيحصل له الاطمئنان والسكونه. [1]

سادسا: أنه مشتق من أله الرجل إلى الرجل إذا اتجه إليه لشدة شوقه إليه، ومنه: "أله الفصيل بأمه إذا أولع بأمه، وعلى هذا معناه : أن العباد يتوجهون إليه وحده".

والمعنى: "أن العباد مألوهون: أي مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال". [2]

سابعا: أنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : الاها، وإذا طلعت الشمس تقول: لاهت [3]، وعلى هذا يتضمن لفظ الجلالة معنى العلو والارتفاع.

فهذه كما ترى معاني اشتقاقات هذا اللفظ، وليس في شيء منها أن معناه القادر على الاختراع أو أنه الصانع المالك.

---

1 انظر ما ذكره ابن كثير في التفسير (١/ ١٩).
2 انظر ما ذكره ابن كثير في التفسير (١/ ١٩).
3 انظر ما ذكره القرطبي في التفسير (١/ ١٠٣).

وقد رجح جماعة من العلماء القول الأول، وأن لفظ الجلالة (**الله**) مشتق من أله يأله: إذا عبد، فهو إله بمعنى مألوه أي معبود، وكل الاشتقاقات والمعاني الأخرى تدخل تحت هذا المعنى الأول، فهو متضمن لها، وسأذكر فيما يأتي من قال بهذا من أئمة اللغة:

قال الراغب الأصفهاني: و(إله) جعلوه اسما لكل معبود لهم. [1]

قال ابن منظور: الإله (الله)-عز وجل-، وكل ما اتخذ من دون الله معبودا (إله) عند متخذه، والجمع (آلهة). [2]

وقال المجد الفيروزآبادي: (إله) كفعال، بمعنى مألوه، وكل ما اتخذ معبودا (إله) عند متخذه. [3]

وقال الزبيدي: فإذا قيل: (الإله) أطلق على الله سبحانه، وعلى ما يعبد من الأصنام، وإذا قلت: (الله) لم يطلق إلا عليه-سبحانه وتعالى-". [4]

---

1 المفردات (ص: ٢١).
2 لسان العرب (١/ ١٨٨-١٩١).
3 القاموس المحيط (ص: ١٦٠٣).
4 تاج العروس : (٩/ ٣٧٥).

المسألة الثانية: معنى الإله في الشرع.

الإله في القرآن وفي فهم السلف والمفسرين

الألوهية والإله في لغة القرآن وما حكى الله-سبحانه وتعالى-عن مشركي العرب لم يختلف عن معناها الذي ذكرناه عن معاجم اللغة. فالإله يطلق على كل معبود حقًا كان أم باطلًا، والأدلة عليها كثيرة، منها:

أ- أن الله سبحانه وتعالى سمى معبودات المشركين (**آلهة**) وأبطل كونها آلهة حقا؛ قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}. [الفرقان: الآية : ٣].

وهكذا كان مشركو العرب يسمون معبوداتهم (آلهة) مع اعتقادهم أنها ليست خالقة لهذا الكون ولا مالكة؛ كما حكى عنهم:

{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}. [ص: الآية: ٥]

وقال عنهم : {إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا}. [الفرقان: الآية : ٤٢].

وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: الآية: ٣٦].

وقال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: الآية ٤٣].

وقال تعالى: {وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا} [طه: الآية : ٩٧].

وقال تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ}. [طه: الآية : ٨٨].

وقال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}. [الأعراف: الآية : ١٣٨].

فأنت ترى في هذه الآيات أن المشركين سموا معبوداتهم (آلهة) مع أن المشركين لم يعتقدوا فيها أنها خالقة لهذا الكون وأرباب للعالم؛ قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [العنكبوت: الآية: ٦١].

وهكذا ترى اللغة القرآنية لكلمة (الإله) تتفق مع معاني أهل اللغة لهذه الكلمة، كما أن هذا ما كان عليه فهم السلف والمفسرين:

قال ابن عباس: "الله: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين، ومنه قوله في {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: الآية: ١٢٧]، يذرك وإلاهتك، أي عبادتك". [1] وهو قول مجاهد أيضا. [2]

قال الطبري: "ولا شك أن الإلهة على ما فسره ابن عباس ومجاهد مصدر من قول القائل : أله الله فلان إلهة: كما يقال : عبد الله فلانٌ عبادة وعبر الرؤيا عبارة، فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا: أن أله عبد وأن الإلاهة مصدره". [3]

وقال أيضا: "فالإله: هو المعبود وهو الله سبحانه، وهو على وزن فعال بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب وبساط بمعنى مبسوط، فالإله إذن على معنى ما روي عن ابن عباس: هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق". [4]

---

1 تفسير ابن جرير الطبري، (١/ ٤١).
2 تفسير ابن جرير الطبري، (١/ ٤١).
3 تفسير ابن جرير الطبري، (١/ ٤٢).
4 تفسير ابن جرير الطبري، (١/ ٤٢).

قال الزجاجي: "(إله) فعال بمعنى مفعول، كأنه مألوه، أي معبود مستحق للعبادة يعبده الخلق ويولهونه". [1]

وقال الزمخشري: "(الإله) من أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم على المعبود بحق". [2]

قال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره: لا إله إلا الله: "معناه: لا معبود إلا الله". [3]

والصحيح: لا معبود بحق إلا الله، ومعنى ذلك أن كل المعبودات إنما عبدت بغير الحق، قال جل وعلا: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [لقمان: الآية: ٣٠].

فهذه بعض أقوال المفسرين في معنى الإله.

---

1 اشتقاق أسماء الله الحسنى (ص: ٢٤).

2 الزمخشري : الكشاف: (١/ ٦).

3 الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٧٥)، والصحيح: لا معبود بحق إلا هو.

وقال ابن تيمية: "فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعيد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع". [1]

وقال ابن القيم: "الإله: هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وإنابة وإكرامًا وتعظيمًا وذلًا وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وتوكلًا". [2]

وقال ابن رجب: "الإله: هو الذي يطاع فلا يعصي، هيبة له وإجلالا، ومحبة وخوفا ورجاء، وتوكلا عليه، وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح هذا كله إلا الله عز وجل". [3]

وقال البقاعي: "لا إله إلا الله: أي انتفاء عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك العظيم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف". [4]

---

1 مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩).
2 ابن القيم، مدارج السالكين (٣/ ٤٩٠).
3 تحقيق كلمة الإخلاص (٢٣، ٢٤).
4 فتح المجيد (١/ ٥٣٣).

وقال الطيبي: "الإله: فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أنه إلهة: أي عبد عبادة". [1]

قال الشوكاني: "لفظ (إله) إنما هو لبيان استحقاق الله للألوهية التي هي حقيقة العبودية، ولهذا جاء في كتاب الله {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: الآية: ٨٤]، أي: مألوه معبود فيها، قال قتادة: يعبد في السماء والأرض". [2]

بهذا يتضح لنا أن لفظة (إله) مأخوذة من التأله وهو التعبد ومعناه المعبود المطاع سواء كان بحق أو بغير حق، فكل ما عبد بأي نوع من أنواع العبادات ولو كان المعبود جمادًا فهو إله عند عابده كما قال تعالى: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: الآية: ١٠١].

---

1 انظر ما نقله عنه الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد (١/ ٥٣٣).
2 فتح القدير (٤/ ٥٩٧).

ولكن هذا اللفظ غلب على المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعالى يقول الزمخشري: "والإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق ...". [1]

وأما لفظ الجلالة (الله) فلا يطلق إلا على المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعالى، فهو مختص به عز وجل ولا يطلق على غيره. [2]

فالتفسير الصحيح لكلمة الإله هو المألوه والمعبود المطاع، ولا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

الرد على من فسر الإله بالقادر على الاختراع.

المتكلمون ومن سار على نهجهم يفسرون الإله بأنه الخالق والقادر على الاختراع، أو شبه ذلك من معاني الربوبية فجعلوا الألوهية بمعنى الربوبية.

---

1 الكشاف (١/ ٣٦).

2 انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٩).

وقد عَرَّف كثير من الأشعرية كلمة (إله) بأنه القادر على الاختراع، فمن ذلك ما نسبه البغدادي إلى أبي الحسن الأشعري فقال: "واختلف أصحابنا في معنى الإله: فمنهم من قال إنه مشتق من الألهية، وهي: قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري" [1]، ثم اختار البغدادي القول بأنه غير مشتق!

وقد حكى الرازي هذا القول ذاكرًا دليله دون أن يسمي قائله، فقال في صدد حكاية مذاهب الناس في أصل اشتقاق اسم الله تعالى (الله) قال: "القول السابع: الإله من له الإلهية، وهي القدرة على الاختراع، والدليل عليه أن فرعون لما قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: الآية: ٢٣]، قال موسى في الجواب: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الشعراء: الآية: ٢٤] فذكر في الجواب عن السؤال الطالب لماهية الإله: القدرة على الاختراع، ولولا أن حقيقة الإلهية هي القدرة على الاختراع لم يكن هذا الجواب مطابقًا لذلك السؤال". [2]

---

1 أصول الدين للبغدادي (ص: ١٢٣).

2 ((شرح أسماء الله الحسنى للرازي)) (ص: ١٢٤).

وهذا التفسير لا شك أنه تفسير خاطىء مخالف للغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، هذا القول غير معروف عند أهل اللغة، ولذلك لم يحتج من قال بهذا القول بشاهد من شواهد لغة العرب ولا بنقل إمام معتبر من أئمة اللغة [1]، كما أنه يؤدي إلى إغفال حقيقة التوحيد الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلق الله الخلق ألا وهو توحيد العبادة الذي ضل فيه كثير من الناس خصوصًا في هذا العصر.

ليس المراد (بالإله) هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو. [2]

ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي-صلى الله عليه وسلم-دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشًا تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر،

---

1 انظر ((تيسير العزيز الحميد)) (ص: ٧٦).

2 الرسالة التدمرية لابن تيمية (ص: ١٠٨).

لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيرًا من فهم هؤلاء المتكلمين، والمنتسبين للإسلام.

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه؛ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف: الآية: 106]، قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره". [1]

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "وليس المراد "بالإله" هو القادر على الاختراع، كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أنه لا إله إلا هو، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم

---

1 درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٧٧-٣٧٨).

مشركون كما تقدم بيانه. بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد فهو إله بمعنى مألوه، لا إله بمعنى آله. والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلها آخر". [1]

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله تعالى-بعد أن ذكر أن معنى الإله هو المعبود المطاع: "وهذا كثير جدًا في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود خلافا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى، فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله ... وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات ...فإن قيل: فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلا.

---

1 شرح التدمرية (٢/ ١١٣٧).

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقا قادرا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حتى وإن سمي إلها، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أراد ذالك فهو مخطىء يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية". [1] . [2]

المسألة الثالثة: معنى لا إله إلا الله.

(لا إله إلا الله) تعني إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده لا شريك له، والبراءة من كل معبود سواه، فهي كلمة الإخلاص وعنوان التوحيد ولا يتم إيمان أي عبد بدون تحقيق معناها والعمل بمدلولها.

فهي تعني الإيمان بالقلب والإقرار باللسان أنه **لا معبود بحق إلا الله تعالى**؛ فلا يستحق العبادة أحدٌ غير الله تعالى؛ فإنه وإن كانت هناك معبودات تعبد من دون الله تعالى إلا أنها

---

1 تيسير العزيز الحميد (ص: ٧٦-٨١).

2 المصدر: كتاب ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف (ص: ٣٠٢-٣٠٧)، بتصرف.

معبودات باطلة؛ وأما المعبود بحق فهو الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: الآية: 62].

قال ابن تيميه (ت: ٧٢٨ هـ)-رحمه الله-: "تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، أن ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الله، ويثبت في قلبه ألوهية الله، فيكون نافياً لألوهية كل شئ من المخلوقات مثبتا لألوهية رب العالمين رب الأرض والسماوات؛ وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه". [1]

قال ابن حجر الهيتمي-رحمه الله-(ت: ٩٧٤ هـ): "لا إله إلا الله ... معناها: لا معبود بحق إلا ذلك الواحد الحق". [2]

قال الصنعاني-رحمه الله-(ت: ١١٨٢ هـ): "إن رسل الله وأنبياءه من أولهم إلى آخرهم بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة ... وهذا الذي تضمنه قول: (لا إله إلا الله) فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة، واعتقاد معناها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لما يعبد من دونه والبراءة منه.

---

1 مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٥).

2 انظر: الإيعاب (١/ ٦).

وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه، ولا شك فيه، وفي أنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه ويحققه".[1]

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله- (ت: ١٢٠٦ هـ): "فإن هذه الكلمة "لا إله إلا الله" نفي وإثبات؛ نفي الإلهية عما سوى الله-سبحانه وتعالى-من المخلوقات، حتى من المرسلين البشر وخاتمهم محمد-صلى الله عليه وسلم-، وحتى من الملائكة وجبريل-عليهم وعلى جميع المرسلين الصلاة والسلام-، فضلا عن غيرهم من الأنبياء والصالحين وسائر المخلوقات؛ وإثباتها بجميع أنواعها كلها لله عز وجل وحده لا شريك له".[2]

قال الشيخ صالح الفوزان: "معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا إله واحد وهو الله وحده لا شريك له، لأنه المستحق للعبادة فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله من سائر المعبودات ليس بإله حق وأنه باطل، لأنه لا يستحق العبادة.

ولهذا كثيرًا ما يرد الأمر بعبادة الله مقرونًا ينفي عبادة ما سواه، لأن عبادة الله لا تصح مع إشراك غيره معه قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: الآية: ٣٦].

---

1 تطهير الاعتقاد (ص: ٥-٦).

2 مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول-العقيدة: تفسير كلمة التوحيد- (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

وقال تعالى: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: الآية: ٢٥٦].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: الآية: ٣٦].

وقال-صلى الله عليه وسلم-: ((ومن قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله)). [1]

وكل رسول يقول لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [هود: الآية: ٨٤].

إلى غير ذلك من الأدلة". [2]

المسألة الرابعة: العمل بمقتضاها

من قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها عاملًا بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا من نفى الشرك وإثبات العبادة لله مع الإعتقاد الجازم لما تضمنته والعمل به فهو المسلم حقًا، ومن قالها وعمل بها وبمقتضاها ظاهرًا من غير اعتقاد لما دلت عليه فهو منافق، ومن قالها بلسانه وعمل بخلافها من الشرك المنافي لها فهو المشرك المتناقض فلابد مع النطق بهذه الكلمة من معرفة معناها، لأن

---

1 أخرجه مسلم (23).

2 معنى لا اله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع (ص: ٢٠-٢١).

ذلك وسيلة للعمل بمقتضاها قال تعالى: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية: ٨٦].

والعمل بمقتضاها: هو عبادة الله والكفر بعبادة ما سواه وهو الغاية المقصود من هذه الكلمة؛ ومن مقتضي لا إله إلا الله قبول تشريع الله في العبادات والمعاملات والتحليل والتحريم، ورفض تشريع من سواه قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى: الآية: ٢١].

فلابد من قبول تشريع الله في العبادات والمعاملات والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في الأحوال الشخصية وغيرها رفض القوانين الوضيعة، ومعنى ذلك رفض جميع البدع والخرافات التي يبتدعها ويروجها شياطين الإنس والجن في العبادات ومن تقبل شيئًا من ذلك فهو مشرك كما قال في هذه الآية: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى: الآية: ٢١].

وقال تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: الآية: ١٢١].

وقال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [التوبة: الآية: ٣١].

وفي الحديث الصحيح أن النبي-صلى الله عليه وسلم-: تلى هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي-رضي الله عنه-فقال: "يا رسول الله لسنا نعبدهم"، قال: ((أليس يحلون لكم ما حرم

الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه))، قال: "بلى"، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((فتلك عبادتهم)). [1]

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن-رحمه الله-: "فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ... فتبين أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة". [2] [3]

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ في معنى قوله-عليه السلام-: "من شهد أنه لا إله إلا الله": "أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها، باطنًا وظاهرًا كما دل عليه قوله: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: الآية: ١٩]، وقوله: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية: ٨٦]، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها، ولا عمل

---

1 أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (17/ 92)، واللفظ له، والترمذي (3095)، والبيهقي في ((الكبرى)) (20350) باختلاف يسير.

2 فتح المجيد (ص: ١٠٧).

3 معنى لا اله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع (ص: ٢٤-٢٧).

بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع، وفي الحديث ما يدل على هذا وهو قوله: (من شهد)؛ إذ كيف يشهد وهو لا يعلم [1]، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به". [2]

قال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: "وكل من عقل عن الله يعلم علمًا ضروريًا: أن المقصود من الشهادتين ما دلتا عليه من الحقيقة والمعنى، وما اشتملتا عليه من العلم والعمل، وأما مجرد اللفظ من غير علم بمعناهما، ولا اعتقاد لحقيقتهما فهذا لا يفيد العبد شيئًا، ولا يخلصه من شعب الشرك وفروعه ...

فالإيمان بمعناهما، والانقياد له لا يتصور ولا يتحقق إلا بعد العلم، والحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فإذا لم يعلم، ولم يتصور فهو كالهاذي، وكالنائم، وأمثالهما ممن لا يعقل ما يقول،

---

1 روى الإمام الخلال في كتاب السنة: عن أبي بكر بن حماد المقري أنه سأل أبا عبد الله في هذه المسألة – أي: الشهادة للعشرة بالجنة– قال: تفرق بين العلم وبين الشهادة؟ قال: لا؛ إذا قلت أعلم فأنا أشهد، قال الله: { إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية: ٨٦]، وقال: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا} [يوسف: الآية: ٨١] إسناده صحيح. [السنة للخلال (٢/ ٣٥٦)، رقم (٤٧٨)].

2 تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٦).

بل لو حصل له العلم، وفاته الصدق لم يكن شاهدا، بل هو كاذب، وإن أتى بهما صورة".[1]

المسألة الخامسة: أركان لا إله إلا الله:

لها ركنان:

الركن الأول: النفي: أي: نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى؛ بقولك: (لا إله).

الركن الثاني: الإثبات: أي: إثبات الإلهية لله وحده؛ بقولك: (إلا الله).

"لا إله إلا الله" لها نوعان من الأركان؛ نوع لفظي، ونوع معنوي.

أما النوع اللفظي: وهو ما تضمنه لفظ الشهادة "لا إله إلا الله": فركناه نفي وإثبات؛ "لا إله": نفي، "وإلا الله": إثبات.

وأما النوع المعنوي، وهو ما تضمنه معنى الشهادة "لا معبود بحق إلا الله": فركناه نفي وإثبات أيضا؛ ف "لا معبود بحق": نفي، و"إلا الله": إثبات.

---

1 مصباح الظلام للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ (ص: ١٦١).

والنفي: مصدر نفيت الشيء أنفيه نفيا، وأصله من الفعل الثلاثي (نفى)، فالنون والفاء والحرف المعتل: أصيل يدل على تعرية شيء من شيء وإبعاده منه، تقول: نفيت الشيء أنفيه نفيا ونفاية: إذا رددته، وأزلته، وجحدته. [1]

وأما الإثبات: فهو ضد النفي، وهو مصدر للفعل الرباعي (أثبت) وأصله (ثبت) صحيح سالم، قال أهل اللغة: الثاء والباء والتاء كلمة واحدة، وهي دوام الشيء، وثبت الشيء يثبت ثبوتا دام واستقر فهو ثابت، وثبت الأمر صح، ويتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال: أثبته وثبته والاسم الثبات. [2]

وقال المناوي في معناه: "الإثبات: ضد الإزالة؛ ثم تارة يقال بالفعل، فيقال لما يخرج من العدم نحو: أثبت الله كذا، وتارة لما ثبت بالحكم، فيقال: أثبت الحاكم كذا، وتارة لما يكون

---

1 انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٦)، والمحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٤٩٥)، والأفعال (٣/ ٢٨١)، وجمهرة اللغة (٢/ ٩٧٢)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٣٤١)، وتاج العروس (٤٠/ ١١٧)، ولسان العرب (١٥/ ٣٣٧).

2 انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٩٩)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٩٠)، وتاج العروس (٤/ ٤٧٢)، والمصباح المنير (١/ ٨٠)، والمعجم الوسيط (١/ ٩٣)، ومعجم تصريف الأفعال العربية للدحداح (ص: ٢٧٤)، ومعجم الأفعال المتعدية بحرف (ص: ٢٧).

بالقول؛ سواء كان صدقا أم كذبا، فيقال: أثبت التوحيد، وصدق النبوة، وفلان أثبت مع الله إلها آخر". [1]

فشهادة أن لا إله إلا الله اشتمالت على معنيين عظيمين، بل على أصلين كبيرين لا تقوم الشهادة إلا عليهما؛ وهما النفي والإثبات؛ فالنفي في شقها الأول: (لا إله)، والإثبات في الشق الثاني: (إلا الله)، والمقصود بالنفي: نفي جميع الآلهة المعبودة من دون الله تعالى، ونفيها يستلزم إبطالها، والكفر بها، وبغضها، وإزالتها عند القدرة، وبيان ضعفها وحقارتها، وأنها لا تستحق مثقال ذرة من العبادة ولا أدنى من ذلك.

قال ابن القيم-رحمه الله-: "طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد". [2]

والمقصود بالإثبات هو إثبات الألوهية لله تعالى وحده دون ما سواه، ثم إفراده عز وجل بأنواع العبادة.

---

1 التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص: ٣٣).

2 "البدائع" (1/ 141).

يقول الصـــنعاني: "قوله: (لا إله إلا الله) للتوحيد؛ أي: وضـــع لإفادته، ومعناه: النفي والإثبات، فلو كان تكلما بالباقي لكان نفيا لغيره؛ أي: نفيا لما ســـوى الله تعالى؛ لأنه هو الباقي بعد الاستثناء؛ لإثباته للألوهية لله، فيصح من كونها كلمة التوحيد بالإجماع". [1]

ويقول الشـــيخ عبد الرحمن بن حســـن: "والمقصـــود أن نفي الأوثان الذي دلت عليه كلمة الإخلاص يحصـــل بتركها، والرغبة عنها، والبراءة منها، والكفر بها وبمن يعبدها، واعتزالها واعتزال عابديها، وبغضـــها وعداوتها، وكل هذا في القرآن مبينا، وقد انتفت عبادة كل ما عبد من دون الله مما هو موجود في الخارج مما يعبده المشركون سلفا وخلفا بهذه الكلمة كما تقدم". [2]

ويقول الشـــيخ محمد الأمين الشـــنقيطي: "لأن (لا إله إلا الله): نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منهـا هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبـادات، وهـذا المعنى جـاء موضحا في قوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} [الزخرف: الآية: ٢٦]، ومعنى الإثبات منها: هو

---

1 إجابة السائل شرح بغية الأمل (ص: ٢٦٥).

2 بيان كلمة التوحيد والرد على الكشميري عبد المحمود للشيخ عبد الرحمن بن حسن مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٤/ ٣٤٣).

إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله، وهذا المعنى جاء موضحا في قوله: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} [الزخرف: الآية: ٢٧]". [1]

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "فقولك: (لا إله إلا الله): فـــ (لا): نافية للجنس، و (الإله) هو: المألوه بالعبادة، وهو الذي تألهه القلوب، وتقصـــده رغبة إليه في حصول نفع، أو دفع ضر، كحال من عبد الأموات، والغائبين، والأصنام، فكل معبود مألوه بالعبادة، والخبر المرفوع محذوف تقديره: حق، وقوله: (إلا الله): اســـتثناء من الخبر المرفوع، فالله سبحانه هو الحق، وعبادته وحده هي الحق، وعبادة غيره منتفية بلا في هذه الكلمة.

قال الله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [لقمان: الآية:٣٠]، فإلهية ما سواه باطلة، فدلت الآية على أن صرف الدعاء الذي هو مخ العبادة عنه لغيره باطل؛ فتبين أن الإلهية هي العبادة؛ لأن الدعاء من أفرادها، فمن صـــرف منها شيئا لغيره تعالى فهو باطل". [2]

يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين: فلا إله إلا الله" اشتملت على نفي وإثبات؛ فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى؛ فكل ما سواه من الملائكة، والأنبياء، فضلا عن غيرهم؛ فليس بإله، ولا له من العبادة شيء. وأثبتت الإلهية لله وحده؛ بمعنى أن العبد لا يأله

---

1 أضواء البيان (٧/ ١٠٢).

2 مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٢/ ٨٨).

غيره؛ أي لا يقصده بشيء من التأله؛ وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة؛ كالدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك. [1]

فالنفي إذا: نفي الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله-عز وجل-.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سو الله-عز وجل-.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة لله عز وجل وحده، لا شريك له. [2]

وهو معنى قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: الآيات: ١٦٢-١٦٣] .

---

1 الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما للشيخ ابن جبرين (ص: ٢٢). وانظر الدين الخالص لصديق حسن خان (١/ ١٨٩).

2 انظر أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي (ص: ٣٩).

المسألة السادسة: شروط لا إله إلا الله:

شروط جمع، مفردها شرط، والشرط: إلزام الشيء، والتزامه؛ يقال: شرط له أمرا: التزمه، وشرط عليه أمرا: ألزمه إياه". [1]

يراد بشروط "لا إله إلا الله": الأمور التي يجب على الإنسان أن يلزمها، حتى يحقق "لا إله إلا الله"، أو: ما لا تصح شهادة "لا إله إلا الله" إلا بوجودها، ويجب اجتماعها.

منزلة هذه الشروط من شهادة "لا إله إلا الله":

هذه الشروط بمثابة الأسنان للمفتاح، فلا يفتح إلا بوجودها.

وقد أشار إلى ذلك عدد من علماء الأمة؛ منهم الإمام الحسن البصري-رحمه الله-، حين قال للشاعر الفرزدق-وهو يدفن امرأته-: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نعم العدة، إن لـ "لا إله إلا الله شروطا"؛ فإياك وقذف المحصنات. [2]

---

1 انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي (ص: ٨٦٩). والمعجم الوسيط لجماعة من المؤلفين (ص: ٤٧٨).

2 انظر: كتاب التوحيد لابن رجب الحنبلي (ص: ٣٩). والدين الخالص لصديق حسن خان (١/ ١٥٧).

وقيل لوهب بن منبه–رحمه الله–: أليس "لا إله إلا الله" مفتاح الجنة؟ فقال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك. [1]

للشهادة شروط لا بد من توفرها فيهما، إذ لا يمكن لقائلهما أن ينتفع بهما إلا بعد اجتماعها فيهما، وهذه الشروط مطلوبة فالعبد لا يدخل في الدين إلا بها.

وباستقراء أهل العلم لنصوص الكتاب والسنة تبين أن لا إله إلا الله لا تقبل إلا بشروط

وهي سبعة شروط:

الشرط الأول: العلم:

إذ العلم بالشيء شرط عند الشهادة به.

والدليل على ذلك:

قوله تعالى: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية: ٨٦].

وقوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: الآية: ١٩].

---

1 أخرجه البخاري تعليقًا في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. وقد وصله في تاريخ ١/ ٩٥، وأبو نعيم في حيلة الأولياء ١/ ٦٦.

وقول النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-: ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)). [1]

والعلم المراد به هنا هو معرفة معنى الشهادتين ومقتضاهما واللوازم المترتبة على ذلك.

فلا إله إلا الله:

معناها: لا معبود بحق إلا الله.

ومقتضاها ولازمها: نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله تعالى وإفراده بالعبادة مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به. [2]

"فكلمة الإخلاص لا إله إلا الله لا تنفع قائلها إلا بمعرفة معناها، وهو نفي الإلهية عما سوى الله، والبراءة من الشرك في العبادة، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: الآية: ٦٤] .

ومعنى: {سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: الآية: ٦٤] ، أي: نستوي نحن وأنتم في قصر العبادة على الله، وترك الشرك كله.

---

1 أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار. انظر (1/ 41).

2 تيسير العزيز الحميد صـ ٥٨.

وقال الخليل عليه السلام: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} [الزخرف: الآية: ٢٦] . {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} [الزخرف: الآية: ٢٧] . {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف: الآية: ٢٨]. فهذا، هو حقيقة معنى: لا إله إلا الله; وهو البراءة من كل ما يعبد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده وهذا هو معناها الذي دلت عليه هذه الآيات وما في معناها; فمن تحقق ذلك وعلمه، فقد حصل له العلم بها، المنافي لما عليه أكثر الناس، حتى من ينتسب إلى العلم، من الجهل بمعناها". [1]

الشرط الثاني: اليقين:

أي استيقان القلب بالشهادتين، وذلك بأن يعتقدهما اعتقادا جازما لا يصاحبه شك أو ارتياب، لأن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن.

والدليل على ذلك:

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: الآية: ١٥].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله، كونهم لم يرتابوا؛ أي: لم يشكوا.

---

1 الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

فأمَّا المرتاب فهو من المنافقين والعياذ بالله الذين قال الله تعالى فيهم: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة: الآية: 45].

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال له: ((من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستقينا بها قلبه فبشره بالجنة)). الحديث. [1]

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة)). [2]

"فلا بد لقائل هذه الكلمة من اليقين بمعناها، المنافي للشك والريب، كما في الحديث الصحيح: ((مستيقنا بها قلبه، غير شاك فيها))، ومن لم يكن كذلك فإنها لا تنفعه، كما دل عليه حديث: سؤال الميت في قبره". [3]

---

1 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (1/ 44).

2 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (1/ 41- 42).

3 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٥).

قال أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٥٦ هـ): "باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابدَّ من استيقان القلب" هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها؛ ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح ، وهو باطل قطعاً ا.هـ". [1]

الشرط الثالث: الإخلاص:

"وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك". [2]

والدليل على ذلك:

قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: الآية: 5].

وقال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: الآية: ٣] "أي لا يقبل الله من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له".

---

1 المفهم على صحيح مسلم (١/ ٢٠٤).

2معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي (1/ 382).

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} شهادة أن لا إله إلا الله". [1]

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} [الزمر: الآية: ١١-١٢] ، إلى قوله: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ} [سورة الزمر آية: ١٤-١٥]

وعن عتبان بن مالك-رضي الله عنه-قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)). [2]

وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)). [3]

---

1 تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥).

2 أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، انظر: فتح الباري (1/ 519) (ح: 425)، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (2/ 126).

3 أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، انظر: فتح الباري (11/ 418) (ح: 6570).

عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((ما قال عبدٌ قط لا إله إلا الله مخلصًا؛ إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)). [1]

وللنسائي في "اليوم والليلة" من حديث رجلين من الصحابة–رضي الله عنهما–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مخلصًا له بها قلبه، يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقًا، حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله)). [2]

---

1 أخرجه الترمذي (3590)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه؛ وقال العلامة الألباني: في "صحيح وضعيف الترمذي": حسن".

2 أخرجه النسائي في اليوم والليلة (ص: ٢٨)، قال العلامة الألباني: في تخريج "كلمة الإخلاص" (ص: 61): إسناده صحيح.

"فلا بد من الإخلاص المنافي للشرك". [1]

الشرط الرابع: "الصدق فيها المنافي للكذب.

وهو أن يقولها صدقا من قلبه يواطىء قلبه لسانه". [2]

والدليل على ذلك:

قال تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: الآيات: ١-٣]، "أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله-سبحانه وتعالى- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة"[3].

---

1 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

2 معارج القبول (١/ ٣٨١).

3 تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٤).

وقال في شأن المنافقين الذين قالوها كذباً {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: الآيات: 8 – 10].

وعن أنس بن مالك–رضي الله عنه–، أن النبي–صلى الله عليه وسلم–، ومعاذ رديفه على الرحل–قال: "يا معاذ بن جبل" قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: "يا معاذ" قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا.قال: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار)). الحديث. [1]

"فلا بد من الصدق المنافي للكذب، كما قال تعالى عن المنافقين: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: الآية: ١١] ، فالصادق يعرف معنى هذه الكلمة، ويقبله، ويعمل بما تقتضيه، وما يلزم قائلها من واجبات الدين، فيصدق قلبه لسانه". [2]

الشرط الخامس: المحبة:

---

1 أخرجه البخاري في صحيحها واللفظ له، كتاب العلم باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا. انظر فتح الباري (1/ 226) (ح: 128).

2 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٥).

"لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها والعاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك". [1]

والدليل على ذلك:

قال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: الآية: ٢٣٤]، ففي الآية دليل على وجوب محبة الله ورسوله ولا خلاف في ذلك بين الأمة وأن ذلك مقدم على كل محبوب". [2]

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ} [البقرة: الآية: ١٦٥].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة: الآية: ٥٤].

وعن أنس بن مالك-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا

---

1 معارج القبول (١/ ٣٨٣).

2 تفسير القرطبي (٨/ ٩٥).

يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)).[1]

"فلا بد من المحبة المنافية لضدها، فلا يحصل لقائلها معرفة وقبول إلا بمحبة ما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك؛ فمن أحب الله أحب دينه، ومن لا فلا، كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ} [البقرة: الآية: ١٦٥] ، فصارت محبتهم لله ولدينه خاصة، فأحبوا لله ولدينه، ووالوا لله ولدينه، فأحبوا من أحبه الله، وأبغضوا من أبغضه الله.

وفي الحديث: ((وهل الدين إلا الحب والبغض)) [2]، ولهذا وجب أن يكون الرسول أحب إلى العبد من نفسه، وولده، ووالده، والناس أجمعين فإن شهادة ألا إله إلا الله تستلزم شهادة

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان. انظر: فتح الباري (1/ 72) (ح: 21). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، واللفظ له. انظر: (1/ 48).

2 أخرجه ابن أبي حاتم (3399) واللفظ له، والحاكم (3148)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (8/ 368)، بلفظه في آخر حديث طويل. والحديث فيه عبد الأعلى قال أبو زرعة: "منكر الحديث".

أن محمدا رسول الله، وتقتضي متابعته، كما قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: الآية: ٣١]". [1]

الشرط السادس: الانقياد:

(الانقياد) لما دلت عليه المنافي لترك ذلك، أي الانقياد والاستسلام ظاهرا وباطنا لأوامر الله وما أنزله من الشرع على لسان نبيه-صلى الله عليه وسلم-.

والدليل على ذلك:

قال تعالى: {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: الآية: ٢٢]

ففي هذه الآية: "يقول تعالى مخبرا عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه،ولهذا قال: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} ، أي في عمله: باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ} أي فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه {وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}". [2]

---

1 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٤).

2 تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٠).

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: الآية: ٣٦].

والآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: الآية: ٦٥]". [1]

ولا بد أيضا من الانقياد لحقوق لا إله إلا الله، بالعمل بما فرضه الله وترك ما حرمه الله، والتزام ذلك، وهو ينافي الشرك، فإن كثيرا ممن يدعي الدين يستخف بالأمر والنهي، ولا يبالي بذلك.

والإسلام حقيقته أن يسلم العبد بقلبه وجوارحه لله تعالى، وينقاد له بالتوحيد والطاعة، كما قال تعالى: {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: الآية: ١١٢]. وقال تعالى: {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: الآية: ٢٢]، وإحسان العمل لا بد فيه من الإخلاص، ومتابعة ما شرعه الله ورسوله". [2]

---

1 تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٠).

2 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٤-٢٥٥).

الشرط السابع: القبول:

أي قبول الشهادتين والالتزام بمقتضياتها ولوازمها.

والدليل على ذلك:

قال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: الآية: ٢٨٥]،

وقال تعالى في شأن من لم يقبلها: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} [الصافات: الآيات: ٣٥-٣٦].

وقد قص الله-عز وجل-علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قَبلها وانتقامه ممن ردها وأباها، قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} إلى قوله {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}[الصافات: الآيات: 22 – 36].

فجعل الله علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله، وتكذيبهم من جاء بها، فلم ينفوا ما نفته ولم يثبتوا ما أثبتته، بل قالوا إنكاراً واستكباراً {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ

هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: الآيات: 5-7].

فكذبهم الله-عز وجل-ورد ذلك عليهم على لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-فقال: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: الآية: 37]... ثم قال في شأن من قبلها: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الصافات: الآيات: 40 – 43].

وعن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية[1]، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب[2]، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان[3]، لا تمسك ماء

1 هي مستنقع الماء في الجبال والصخور. فتح الباري (1/ 176).

2 هي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء. فتح الباري (1/ 176).

3 بكسر القاف جمع قاع وهو الأرض المستوية اللمساء التي لا تنبت. فتح الباري (1/ 177).

ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)). [1]

"فلا بد له من القبول لما دلت عليه، وذلك ينافي الرد، لأن كثيرا ممن يقولها ويعرف معناها، لا يقبلها، كحال مشركي قريش، والعرب، وأمثالهم، فإنهم عرفوا ما دلت عليه، لكن لم يقبلوا، فصارت دماؤهم، وأموالهم، حلالا لأهل التوحيد، فإنهم كما قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: الآية: ٣٥] ، {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} [الصافات آية: ٣٦] . عرفوا أن لا إله إلا الله توجب ترك ما كانوا يعبدونه من دون الله". [2]

فهذه هي شروط الشهادتين يجب على المسلم تحقيقها والإتيان بها على الوجه المطلوب حتى يكون من أهلها.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن-رحمه الله-"وسرنا ما ذكرت من معرفتك جهل أكثر الناس بمعنى لا إله إلا الله، وإن تكلموا بها لفظا، فقد أنكروها معنى، فانتبه لأمور ستة أو سبعة،

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم: باب فضل من علم وعلم واللفظ له. انظر فتح الباري (1/ 175) (ح: 79). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: باب بيان مثل ما بعث النبي-صلى الله عليه وسلم-من الهدى والعلم. انظر: (7/ 63).

2 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٥٣).

لا يسلم العبد من الكفر والنفاق إلا باجتماعها، وباجتماعها والعمل بمقتضاها، يكون العبد مسلما؛ إذ لا بد من مطابقة القلب للسان، علما، وعملا، واعتقادا، وقبولا، ومحبة، وانقيادا.

فلا بد من العلم بها المنافي للجهل، ولا بد من الإخلاص المنافي للشرك؛ ولا بد من الصدق المنافي للكذب، بخلاف المشركين والمنافقين؛ ولا بد من اليقين المنافي للشك والريب؛ فقد يقولها وهو شاك في مدلولها ومقتضاها؛ ولا بد من المحبة المنافية للكراهة؛ ولا بد من القبول المنافي للرد، فقد يعرف معناها ولا يقبله، كحال مشركي العرب.

ولا بد أيضا من الانقياد المنافي للشرك، لترك مقتضياتها، ولوازمها، وحقوقها، المصححة للإسلام والإيمان؛ فمن تحقق ما ذكرته، ووقع منه موقعا، صرف الهمة إلى تعلم معنى: لا إله إلا الله؛ وصار على بصيرة من دينه، وفرقان، ونور، وهدى، واستقامة. وبالله التوفيق". [1]

زاد الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ إلي هذه الشروط السبعة المتقدم ذكرها شرطًا ثامنًا، "وهو الكفر بما يعبد من دون الله". [2] أي: الكفر بالطاغوت.

---

1 الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/ ٢٥٥-٢٥٦).

2 قرة عيون الموحدين (ص: ٥٣).

ونظمه بعض أهل العلم في قوله:

وزيدَ ثَامِنُها الكُفْرَانُ مِنْكَ وبَمَا // سوى الإله مِنْ الأَنْدَادِ قَدْ أَهِلَا [1]

وهذا الشرط قد استحسنه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز–رحمه الله–، وعبّر عنه بالبراءة. أي: البراءة من الشرك. [2]

وممن عده في الشروط أيضاً: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي–رحمه الله–، وعبّر عنه بشرط الكفر بما سوى الله تعالى. [3]

"شروط (لا إله إلا الله) شروط صحة لا شروط كمال؛ لأن الإنسان لا يحصل منه الإيمان إلا بها كلها، مثل: القبول المنافي للرد واليقين المنافي للشك، فإذا حصل الرد أو حصل الشك أو حصل التكذيب فهذا يدل على عدم حصول الإيمان". [4]

---

1 انظر: الشهادتان وما يستلزم كل منهما لابن جبرين (ص: ١٠٣)، والبيت منسوب إلى سعد بن عتيق.

2 مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لابن باز (٣/ ٤٩–٥٠).

3 حاشية الثلاثة الأصول (ص: ٥٢).

4 شرح سنن أبي داود للعباد (٥٥/ ٢٥).

المسألة السابعة: مراتب الشهادة:

للشهادة مراتب يتدرج عليها الشاهد مرتبة بعد مرتبة حتى يتم له تحقيق الشهادة على الوجه المطلوب.

ومراتب الشهادة أربع هي: [1]

المرتبة الأولى: العلم والمعرفة والاعتقاد لصحة المشهود به وثبوته، فلا بد للشاهد أن يعلم ويعرف معنى الشهادتين وإلا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له به قال تعالى: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية: ٨٦].

المرتبة الثانية: تكلمه بالشهادتين وإن لم يعلم بها غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف: الآية: ١٩]، فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم.

---

1 انظر: كتاب الكواشف الجلية عن معاني الواسطية للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان من (ص: 38 إلى ص: 40) بتصرف.

المرتبة الثالثة: أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له ومرتبة الإعلام والإخبار نوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل.

وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر، تارة يعلمه به بالقول وتارة بفعل ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ} [التوبة: الآية: ١٧]، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه. [1]

المرتبة الرابعة: أن يلتزم بمضمونها ويأتمر به.

ومجرد الشهادة لا يستلزم هذه المرتبة، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه، فإنه سبحانه وتعالى شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده كما قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: الآية: ٢٣].

وقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا} [التوبة: الآية: ٣١].

والقرآن كله شاهد بذلك.

وقد شهد الله لنفسه بالوحدانية فقال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: الآية: ١٨]، فشهادته سبحانه

---

1 الكواشف الجلية (ص: 39-40) بتصرف.

لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع وهي: علمه بذلك، وتكلمه، وإخباره لخلقه، وإلزامهم وأمرهم به". [1]

المسألة الثامنة: متى ينفع الإنسان قول لا إله إلا الله؟

قول لا إله إلا الله لا بد أن يكون مصحوبا بمعرفة معناها والعمل بمقتضاها، ولكن لما كان هناك نصوص قد يتوهم منها أن مجرد التلفظ بها يكفي وقد تعلق بهذا الوهم بعض الناس، فاقتضى الأمر إيضاح ذلك لإزالة هذا الوهم عمن يريد الحق، قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله على حديث عتبان. . الذي فيه: ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)). [2] قال: اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كهذا الحديث وحديث أنس قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل، فقال: يا معاذ. قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال: ((ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا حرمه الله على النار)) [3]، ولمسلم عن عبادة مرفوعا: ((ومن

---

1 الكواشف الجلية (ص: 40) بتصرف.

2 رواه البخاري (١١/ ٢٠٦)، ومسلم رقم: (٣٣).

3 رواه البخاري (١/ ١٩٩)، ورواه مسلم في الإيمان.

شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله حرمه الله على النار)) [1]، ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أن يحرم على النار، منها حديث عبادة الذي تقدم قريبا وحديث أبي هريرة "أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك" [2] الحديث وفيه: فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة)). [3] رواه مسلم. [4]

قال: وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها-كما جاءت مقيدة-وقالها خالصا من قلبه مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها، بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة وما

---

1 صحيح مسلم (١/ ٢٨٨-٢٢٩) بشرح النووي.

2 سنن أبو داود البيوع (٣٣٥٧)، مسند أحمد بن حنبل (٢/ ١٧١).

3 صحيح مسلم الإيمان (٢٧)، مسند أحمد بن حنبل (٢/ ٤٢١).

4 صحيح مسلم مع شرح النووي (١/ ٢٢٤).

يزن خردلة وما يزن ذرة. وتواترت بأن كثيرا ممن يقول: لا إله إلا الله، يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها يقولها تقليدا وعادة، لم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: ((سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)) [1]، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: الآية: ٢٢]، وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرا على ذنب أصلا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذه التوبة وهذا الإخلاص وهذه المحبة وهذا اليقين لا تترك له ذنبا إلا يمحى كما يمحى الليل بالنهار". [2]

---

1 أخرجه البخاري (86)، ومسلم (905) .

2 تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد (ص: ٦٦-٦٧).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كشف الشبهات: [1] "ولهم مشبهة أخرى، يقولون: إن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله. وقال: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله)). [2]، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل، فيقال لهؤلاء الجهال معلوم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إله إلا الله، وأصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب، وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال: لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئًا من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه، ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث.

وقال-رحمه الله-: فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلا ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه إلا خوفا على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا} [النساء: الآية: ٩٤]، أي (فتثبتوا) فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فإن

---

1 انظر مجموعة التوحيد (ص: ١٢٠-١٢١).

2 صحيح البخاري (٦٨٧٢).

تبين بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل؛ لقوله: فتبينوا ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى، وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه من أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلا إن تبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن الرسول-صلى الله عليه وسلم-الذي قال: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله)) [1] ، وقال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) [2] هو الذي قال في الخوارج: ((أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)) [3] مع كونهم من أكثر الناس تهليلًا حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة.

وقال الحافظ ابن رجب على قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)). [4] قال: ففهم عمر وجماعة من الصحابة أن

---

1 أخرجه البخاري (4269).

2 أخرجه البخاري (25)، ومسلم (22).

3 أخرجه البخاري (3344)، ومسلم (1064).

4 أخرجه البخاري (25)، ومسلم (22).

من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا لمجرد ذلك، فتوقفوا في قتال مانعي الزكاة، وفهم الصديق أنه لا يمتنع قتاله إلا بأداء حقوقها لقوله صلى الله عليه وسلم: ((فإذا فعلوا ذلك منعوا مني دمائها إلا بحقها وحسابهم على الله)). [1]، وقال: "الزكاة حق المال" [2]، وهذا الذي فهمه الصديق قد رواه عن النبي-صلى الله عليه وسلم-صريحا غير واحد من الصحابة منهم ابن عمر وأنس وغيرهما وأنه قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)) [3]، وقد دل على ذلك قوله تعالى: {فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: الآية: ٥]، كما دل قوله تعالى: {فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة: الآية: ١١]، على أن الأخوة في الدين لا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد، فإن التوبة من الشرك لا تحصل إلا بالتوحيد، فلما قرر أبو بكر هذا للصحابة رجعوا

---

1 أخرجه البخاري (25)، ومسلم (22).

2 أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

3 أخرجه البخاري (2946)، ومسلم (21).

إلى قوله ورأوه صوابا، فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدى الشهادتين مطلقا، بل يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام، فكذلك عقوبة الآخرة". [1]

وقال أيضا: "وقالت طائفة من العلماء المراد من هذه الأحاديث أن التلفظ بلا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضى لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه وهو الأظهر. ثم ذكر عن الحسن البصري أنه قال للفرزدق وهو يدفن امراته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العدة، لكن للا إله إلا الله شروط، فإياك وقذف المحصنات. وقيل للحسن: إن أناسا يقولون: من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة. فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدى حقها وفرضها دخل الجنة. وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك". [2] .[3]

---

1 كلمة الإخلاص لابن رجب (ص: ١٣-١٤).

2 كلمة الإخلاص لابن رجب (ص: ٩-١١).

3 المصدر: بحث بعنوان حقيقة لا إله إلا الله، ضمن مجلة البحوث الإسلامية (١٣/ ١٢٣-١٢٧) .

[شهادة أن محمدًا رسول الله]

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولى: معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

المسألة الثانية: معنى النبوة والرسالة.

أ–معنى النبي لغة وشرعًا.

ب–معنى الرسول لغة وشرعًا.

المسألة الثالثة: الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الإيمان به–صلى الله عليه وسلم–.

أ–الأدلة من القرآن.

ب–الأدلة من السنة.

المسألة الرابعة: حقوق النبي–صلى الله عليه وسلم–.

أ–الحقوق التي تتصل بجانب الرسالة التي بعث بها.

ب–الحقوق التي تتعلق بخاصة شخص الرسول–صلى الله عليه وسلم–تفضيلًا وتكريمًا من الله له.

ج– نماذج من الغلو في حق النبي–صلى الله عليه وسلم–.

[٢]- قال المصنف-رحمه الله-: "وأن محمدًا-صلى الله عليه وسلم-عبده ورسوله".

الشرح

وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

ب- معناها:

"معنى شهادة أن محمدا رسول الله: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع". [1]

وهذه الشهادة هي الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، كما أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم داخل في الركن الرابع من أركان الإيمان الستة، ويشهد لذلك حديث جبريل المشهور. ويلاحظ أننا عرفنا الشهادة والإيمان به بتعريف واحد، وهذا الأمر يصح في

1 الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ٩) ضمن مجموعة الرسائل المفيدة.

حالة الإفراد كما سبق وأن ذكرت في لفظ الإسلام والإيمان، أما في حالة الاقتران فالإيمان به يختص بتصديق القلب وإقراره، والشهادة يراد بها نطق اللسان واعترافه، ويجب تحقيق هذه الشهادة معرفة وإقرارا وانقيادا وطاعة. [1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الإيمان بالرسول فهو المهم، إذ لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه، إذ هو الطريق إلى الله سبحانه، ولهذا كان ركنا الإسلام: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله". [2]

المسألة الثانية: معنى النبوة والرسالة.

جمع الله لنبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-بين النبوة والرسالة قال تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: الآية: ٤٠].

---

1 زاد المعاد (١/ ٣٤).

2 مجموع الفتاوى (٨/ ٦٣٨-٦٣٩).

أ-معنى النبي لغة وشرعا:

لغة:

النبوة في اللغة العربية مشتقة إما من (النبأ) أو (النباوة) أو (النبوة) أو (النبي)

١- فإذا كانت مأخوذة من (النبأ) فتكون بمعنى الإخبار، لأن النبأ هو الخبر.

٢- وإذا كانت مأخوذة من (النباوة أو النبوة) فتكون بمعنى الرفعة والعلو، لأن (النباوة أو النبوة: هي الشيء المرتفع)

٣- أما إذا كانت مأخوذة من (النبي) بدون همز، فيكون معناها الطريق إلى الله-عز وجل-لأن معنى "النبي" الطريق.

ولو نظرنا إلى النبوة الشرعية لوجدنا أنها تشمل كل هذه المعاني إذ النبوة إخبار عن الله-عز وجل-، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهى الطريق الموصلة إلى الله سبحانه.

شرعًا:

أما النبوة في اصطلاح الشرع: "فهي خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدًا من عباده فيميزه عن غيره بإيحائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد".

1

أما النبي فقد اختلف العلماء في تعريفه:

-فمنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه بشرع [2] ليعمل به ولم يؤمر بتبليغه.

-فمنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله. [3]

---

1 شعب الإيمان للبيهقي، (ص: ٢٧٥).

2 شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٦٧).

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٧٣٥).

-ومنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين [1] وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ولعله هو أرجح الأقوال وأسلمها من الاعتراض فقد اعترض على القول الأول بأنه غير صحيح لأن قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} [الحج: الآية:: ٥٢]، يدل على أن كلا منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير [2] وكذلك مما يؤكد كون الأنبياء مأمورين بتبليغ قومهم ما أوحي إليهم والحكم بينهم بذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي ...)). الحديث. [3]

---

1 النبوات لابن تيمية (ص: ٢٥٥).

2 أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

3 أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة: باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٦/ ١٧).

"أي تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه".

1

وقد اعترض على القول الثاني بأن الضابط الذي ذكروه لا يستقيم فيوسف عليه السلام كان رسولا وكان على شريعة إبراهيم قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا} [غافر: الآية: ٣٤].

وكذلك داود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ

1 النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٢١).

قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا} [النساء: الآيات: ١٦٣-١٦٤].

ب-معنى الرسول لغة وشرعًا:

لغة:

الرسول لغة: إما مأخوذ من الرسل.

والرسل: هو الانبعاث على تؤدة. يقال: ناقة رسله: أي سهلة السير، وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثا سهلا. ولفظ الرسل متضمن لمعنى الرفق ومعنى الانبعاث. فإذا تصور منه معنى الرفق يقال على رسلك إذا أمرته بالرفق. وإذا تصور منه معنى الانبعاث يقال إبل مراسيل أي منبعثة.

ولفظ الرسول اشتق من المعنى الثاني أي الانبعاث.

فالرسول على هذا الاشتقاق هو المنبعث. [1]

وإما مأخوذ من الرسل وهو التتابع فيقال جاءت الإبل رسلا أي متتابعة، ويقال جاءوا أرسالًا: أي متتابعين.

ومعنى الرسول على هذا الاشتقاق: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه. [2]

ولو نظرنا إلى كلا الاشتقاقين فإنا نجد أن لفظ الرسول في اصطلاح الشرع يدل عليهما فالرسول مبعوث من قبل الله، وهو كذلك يتابع أخبار الوحي المنزل إليه من الله تعالى.

ولفظ الرسول تارة يقال للقول المتحمل كقول الشاعر:

ألا بلغ أبا حفص رسولا

---

1 المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٥)، مادة "رسل".

2 المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٥)، مادة "رسل"، ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

وتارة لمتحمل القول والرسالة [1]

شرعًا:

والرسول في الشرع: عرف بعدة تعريفات:

فمن العلماء من عرفه بقوله: هو الذي أوحى الله إليه بخبر وأمره بتبليغه للناس، وهؤلاء فرقوا بينه وبين النبي بأن النبي أوحي إليه بخبر ولم يؤمر بتبليغه. [2]

ومنهم من عرفه بقوله: هو الذي أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي تثبت بها نبوته.

---

1 المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٥) مادة "رسل"، ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

2 شعب الإيمان للبيهقي (ص: ٢٧٥-٢٧٦) بتحقيق فلاح بن ثاني، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٦٧).

وقالوا: إن النبي هو الذي لم ينزل إليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله. [1]

ومنهم من قال: إن الرسول هو الذي ينبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى من خالف أمره أي إلى قوم كافرين.

أما النبي فهو من أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين بهما.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، واستشهد لذلك بأن نوحا عليه السلام كان هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض وكان أول شرك بالله قد وقع في قومه.

---

1 أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

وقد كان قبل نوح أنبياء كشيث وإدريس-عليهما السلام-وقبلهما آدم كان نبيًا مكلمًا، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وكان المبعوثون في هذه القرون أنبياء فقط.

21

وهذا القول الثالث هو أرجح الأقوال.

أما القول الأول فهو غير مسلم كما سبق وإن وضحت في الكلام على معنى النبي. وكذا الأمر بالنسبة للقول للثاني فليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة كما تقدم ذكر ذلك.

---

1 أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

2 النبوات (ص: ٢٥٥-٢٥٦).

المسألة الثالثة: الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الإيمان به–صلى الله عليه وسلم–.

أ–الأدلة من القرآن:

أوجب الله سبحانه وتعالى على الثقلين–الإنس والجن–الذين أدركتهم رسالة النبي–صلى الله عليه وسلم–أن يؤمنوا بالنبي–صلى الله عليه وسلم–وبما جاء به كما شهدت بذلك نصوص الكتاب العزيز.

كما أكد الله وجوب الإيمان بأن جعله مقترنا بالإيمان به سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها:

قال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [الحديد: الآيات: ٧–٨]، وقال تعالى:{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: الآية: ٨].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: الآية: ١٣٦]، وقال تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: الآية: ٩]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: الآية: ١٥٨]، وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: الآية: ١٥].

والإيمان به-صلى الله عليه وسلم-واحد من ثلاثة حقوق اقترن بها حقه-صلى الله عليه وسلم- مع حق الله تعالى في القرآن الكريم.

أما الحق الثاني له: فهو طاعته قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: الآية: ١٣٢].

والحق الثالث هو: محبته قال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: الآية: ٢٤].

"كما أن الإيمان به واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه". [1]

وقال تعالى في حق من لم يؤمن: {وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا} [الفتح: الآية: ١٣].

---

1 الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٣٨) بتصرف.

ب- الأدلة من السنة على وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم:

وردت في السنة أحاديث كثيرة جدًا تدل على وجوب الإيمان به-صلى الله عليه وسلم-على الجن والإنس الذين أدركتهم رسالته، سواء كانوا أهل كتاب، أم ليسوا بأهل كتاب، ويستوي في ذلك عربهم وعجمهم، وذكرهم وأنثاهم، فلا يسع أحدا من هؤلاء الخروج عن شريعته أو التعبد لله بغير ما جاء به. لأن الله لا يقبل من أحد عملا يخالف شرع نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-.

قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: الآية: ٨٥]، ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

أ-عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال: ((أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)). [1]

٢- وعن ابن عمر-رضي الله عنهما-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)). [2]

---

1 أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٣٩) .

2 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان: باب {فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} ، انظر: فتح الباري (١/ ٧٥) (ح: ٢٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، انظر (١/ ٣٩).

٣- عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع لي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)). [1]

٤- وعن ابن عباس-رضي الله عنهما-، في حديث وفد عبد القيس أن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال لهم: ((أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((شهادة أن لا إله إلا ال له وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس....)). الحديث. [2]

٥- وعن معاذ بن جبل-رضي الله عنه-، قال: بعثني رسول الله فقال: ((إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم

---

1 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/ ٩٣).

2 أخرجه البخاري (523)، ومسلم (17).

أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم)). [1]

وبما تقدم من آيات وأحاديث يعلم وجوب الإيمان بالرسول-صلى الله عليه وسلم-وأهميته وأنه لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، كما لا تحصل نجاة ولا سعادة بدون الإيمان به لأنه هو الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان أول أركان الإسلام "شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله".

المسألة الرابعة: حقوق النبي-صلى الله عليه وسلم-.

فقد أوجب الله لنبيه-صلى الله عليه وسلم-على هذه الأمة جملة من الحقوق والواجبات تنظم العلاقة التي تربطهم به تنظيمًا دقيقًا لا لبس فيه ولا اشتباه.

---

1 أخرجه البخاري(١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

وقد وردت في شأن تلك الحقوق نصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه–صلى الله عليه وسلم–وضحت وفصلت وبينت جوانب تلك الحقوق.

وهذه الحقوق في جملتها هي الأصل الثاني من أصلي الدين كما يدل عليه قولنا "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله".

ولذا فقد كان لزاما على كل من ينطق بهذه الشهادة، ويدين الله بهذا الدين أن يحيط بتلك الحقوق معرفة، ويلتزم بها اعتقادا وقولا وعملا، فذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يحصل إيمان العبد إلا به.

ومما يؤسف له أن كثيرا من المسلمين اليوم هم على درجة كبيرة من الجهل بهذه الحقوق فتراهم لذلك على طرفي نقيض هذا المقام:

– فإما مقصر عن القيام بهذه الحقوق التي أوجبها الله على الأمة فتراه لا يقيم لها وزنا ولا يلقي لها بالا.

– وإما غال مبتدع منكب على ما ابتدعه، يظن أنه بما يفعله من أمور مبتدعة في هذا المقام قد أحسن صنعا وأنه مؤد لما أوجبه الله من حق لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكلا الطرفين صاحب حال مذموم غير محمود. فلما كان عامة أصحاب هذين الطرفين إنما أوقعهم فيما هم فيه، جهلهم بمعرفة تلك الحقوق على الوجه المطلوب شرعا.

وهذه الحقوق:

أ–الحقوق التي تتصل بجانب الرسالة التي بعث بها.

١–وجوب الإيمان بنبوته ورسالته. وقد تقدم بيان الأدلة على ذلك.

٢–وجوب الإيمان بأن رسالته خاتمة الرسالات وأنه خاتم النبيين.

قال تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} .[الأحزاب: الآية: ٤٠].

والآية نص صريح واضح على ختم النبوة بمحمد-صلى الله عليه وسلم-وكونه خاتم الأنبياء وآخرهم مبعثًا فلا نبي بعده ولا رسول.

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: "أتي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بلحم، فرفع إليه الذراع – وكانت تعجبه – فنهس منها نهسة ثم قال ((أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مما ذلك؟))، ثم ذكر-صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وما يحدث فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب حتى يصلوا إليه-صلى الله عليه وسلم-، فذكر-صلى الله عليه وسلم-أنهم يقولون: "أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تشفع لنا إلى ربك ... " الحديث [1]

٣-وجوب الإيمان بأن رسالته عامة للإنس والجن وأنه لايسع أحدًا الخروج عنها.

وأما الأدلة من القرآن على ذلك فمنها:

---

1 أخرجه البخاري(٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

١-قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: الآية: ١٥٨].

٢-وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ} [سبأ: الآية: ٢٨].

٣-وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا} [النساء: الآية: ٧٩].

٤-قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية: ١٠٧].

٥-وقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: الآية: ١].

وأما الأدلة من السنة على ذلك فمنها:

١-عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا

فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)). [1]

٢-وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)). [2]

٣-وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)). [3]

---

1 أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

2 أخرجه مسلم (٥٢٣).

3 أخرجه مسلم (153).

وذكر اليهود والنصارى تنبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. [1]

٤- وعن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: ((من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ثم لم يؤمن بي دخل النار))). [2]

٤-وجوب الإيمان بعصمته فيما بلغه عن ربه.

وأما الأدلة من القرآن على ذلك فمنها:

١-قوله تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: الآيات: ٣-٤]، فالآية نص في عصمة لسانه-صلى الله عليه وسلم-من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما

1 انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٨٨).

2 أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٦- ٣٩٨).

يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان.

وهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه ورسوله محمد-صلى الله عليه وسلم-في كل ما بلغه للناس من شرع الله.

٢- وقوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: الآيات: ٤٤-٤٧]، فالآيات نصت على أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد من يكذب عليه بل لابد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه

وقوله تعالى: {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء: الآيات: ٧٣-٧٥]. وهذه الآيات دالة على عصمة الله وتثبيته لنبيه-صلى الله عليه وسلم-في تبليغ ما

أوحى إليه، ومعناها مقارب لمعنى الآيات التي ذكرناها قبلها "فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله-صلوات الله عليه وسلامه-وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها". (1)

وأما الأدلة من السنة على ذلك فمنها:

ت- حديث طلحة بن عبيد الله، وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم: ((ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله)). (2)

والحديث نص على عصمته-صلى الله عليه وسلم-من الكذب فيما يخبر به عن الله.

---

(1) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣).
(2) أخرجه مسلم (2361).

٢- حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-، قال: "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ورسول الله-صلى الله عليه وسلم-بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقال: ((اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق)). (1)

٣- حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: ((إني لا أقول إلا حقًا))، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: ((إني لا أقول إلا حقا)). (2)

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٦٢، ١٩٢) ، وأبو داود في سننه، كتاب العلم: باب في كتاب العلم (٤/ ٦٠) (ح: ٣٦٤٦)، والحاكم في المستدرك (١/١٠٤، ١٠٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٤٠، ٣٦٠). والترمذي في سننه، كتاب البر والصلاة: باب مما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧) (ح: ١٩٩٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٥-الإيمان بأن النبي بلغ الرسالة وأكملها.

من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن أكمل لهم دينهم فلا ينقصه أبدا، ولا يحتاج إلى زيادة أبدا، واقترن هذا الإكمال برضاه سبحانه بأن يكون هذا الدين الكامل دينا نتعبده به، قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: الآية: ٣].

وهذه الآية دليل على كمال الدين وحيا من الله، وتبليغا من رسوله-صلى الله عليه وسلم-، ولقد نزلت هذه الآية الكريمة والنبي-صلى الله عليه وسلم-واقف بعرفات في حجة الوداع، وعاش النبي-صلى الله عليه وسلم-بعد نزولها إحدى وثمانين ليلة.

وهي شهادة من الله تعالى لنبيه-صلى الله عليه وسلم-على تبليغه لما أرسله به أتم تبليغ وأكمله وبذلك جعله الله خاتم النبيين، لأن الخلق بعد هذا لن يحتاجوا إلى نبي غير نبيهم-صلى الله عليه وسلم-ليكمل لهم دينهم، كما أنهم لا يحتاجون إلى دين آخر وذلك لكمال دينهم.

ووجه الدلالة من الآية على ذلك "أن الله أخبر في هذه الآية بأنه قد أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه، إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه، فعلم من ذلك أنه-صلى الله عليه وسلم-قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده". (1)

وما كان من النبي-صلى الله عليه وسلم-بعد نزول هذه الآية الكريمة إلا أن استشهد الناس على ذلك في نفس المناسبة التي نزلت فيها الآية.

فعن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟)).

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: ((اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات ...)). الحديث. (2)

---

(1) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٥، ١٥٦) بتصرف.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (٤/ ٤١).

فشهد له خير قرون هذه الأمة وهم صحابته–رضوان الله عليهم–، وكانوا في ذلك الموقف نحوا من أربعين ألفًا". (1)

ولقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله–صلى الله عليه وسلم–في مواطن متعددة من كتابه العزيز بأن يبلغ أمور هذا الدين البلاغ المبين الواضح فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: الآية: ٦٧]، وقال تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: الآية: ٨٢]، وقال تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: الآية: ٥٤]، وقال تعالى: { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى: الآية: ٤٨].

وهذا الأمر والحث من الله لرسوله–صلى الله عليه وسلم–على البلاغ لشرع الله والدين الذي أوحاه إليه نابع من كون الرسول–صلى الله عليه وسلم–هو الطريق الوحيد الذي يعرف بواسطة ما شرعه من دين يدين العباد له به، فليس ثمت طريق آخر إلى معرفة شرع الله وأوامره ونواهيه إلا طريقه بها فهو المبلغ عن الله تعالى، وهذه هي سنة الله في خلقه حيث جعل طريق معرفته

(1) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧).

وعبادته عن طريق من أرسله من الرسل "فلا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدارين إلا على أيدي الرسل، كما أنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث والحلال من الحرام إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير" (1) وبهذا وبغيره نلمس عظم الحاجة إلى تبليغ الرسل.

٦-وجوب طاعته واتباعه ولزوم سنته والمحافظة عليها.

وأما الأدلة من القرآن على ذلك فمنها:

قال الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله تعالى-: "نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول-صلى الله عليه وسلم-في ثلاثة وثلاثين موضعا". (2)

---

(1) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٦٩).

(2) الصارم المسلول لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٥٦) .

جعل الرب طاعته طاعة له في مثل قوله تعالى: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: الآية: ٨٠].

وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء: الآية: ٦٥].

وهو الذي لا سبيل لأحد إلى النجاة إلا بطاعته، ولا يسأل الناس يوم القيامة إلا عن الإيمان به واتباعه وطاعته، وبه يمتحنون في القبور، قال تعالى: { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: الآية: ٦].

قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء: الآية: ٦٤].

قال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: الآية: ٥٢].

وقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: الآية: ١٥٨].

وأما الأدلة من السنة على ذلك فمنها:

عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى))، قالوا: يارسول الله ومن يأبى؟، قال: ((من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)). (1)

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ...)) الحديث. (2)

وعن أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله كشراد البعير)). قال: يارسول الله ومن يأبى أن يدخل الجنة؟، قال: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)). (3)

---

(1) أخرجه البخاري (٧٢٨٥).

(2) أخرجه البخاري (7137)، ومسلم (1835).

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٥٣) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٨٠) ، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وله شاهد من طريق أبي هريرة بنحوه أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/

وعن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)). (1)

ب–الحقوق التي تتعلق بخاصة شخص الرسول–صلى الله عليه وسلم–تفضيلًا وتكريمًا من الله له.

١–وجوب محبته–صلى الله عليه وسلم–.

---

٢٤٧) وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. وله شاهد آخر من طريق أبي أمامة بنحوه. أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٧) وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

(1) أخرجه مسلم (٥٠).

قال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: الآية: ٢٤].

عن أنس بن مالك-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يلقى في النار)). (1)

ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي-صلى الله عليه وسلم-: "يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

(1) أخرجه البخاري (16)، ومسلم (43).

فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك)) ."فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي" .فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((الآن ياعمر)). (1)

فالحديث نص على وجوب تقديم محبة الرسول-صلى الله عليه وسلم-على محبة النفس.

وأما الدليل على وجوب تقديم محبته على محبة الوالد والولد والناس أجمعين:

ثانيا: فعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده". (2)

ثالثا: وعن أنس-رضي الله عنه-، قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)). (3)

---

(1) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).
(2) أخرجه البخاري (١٤).
(3) أخرجه البخاري (١٥).

٢-وجوب تعزيره وتعظيمه وتوقيره-صلى الله عليه وسلم-.

قال تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩].

وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية: ١٥٧].

ث- أما التعزير في اللغة:

فيقول صاحب معجم مقاييس اللغة عن أصل هذه الكلمة: "عزر" العين والزاء. والراء: كلمتان أحدهما: التعظيم والنصر. والكلمة الأخرى: جنس من الضرب. فالأولى: النصر والتوقير كقوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩]

والأصل الآخر: التعزير وهو الضرب دون الحد". (1)

---

(1) مقاييس اللغة (٤/ ٣١١).

وفي النهاية في غريب الحديث "أصل التعزير: المنع والرد. فكأن من نصرته قد رددت عنه أعداءه ومنعتهم من أذاه. ولهذا قيل للتأديب الذي هو دون الحد تعزير، لأنه يمنع الجاني أن يعاود الذنب، يقال عزرته، وعزرته. فهو من الأضداد". (1)

وجاء في تهذيب اللغة: "عزر" قال الله عز وجل: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩].

جاء في التفسير في قوله تعالى {وَتُعَزِّرُوهُ} أي لتنصروه

بالسيف {وعزرتموهم} عظمتموهم. وقيل: نصرتموهم.

واللفظة تستعمل لعدة معان هي:

ج- التعزير: النصر باللسان والسيف.

٢- التعزير: التوقير.

٣- التعزير: التأديب دون الحد.

---

(1) النهاية (٣/ ٢٢٨).

٤- التعزير: التوقيف على الفرائض والأحكام". (1)

وأما عن المعنى الشرعي المراد هنا:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: {وعزروه} يقول: "حموه ووقروه". (2)

وعن مجاهد قال: "عزروه: سددوا أمره، وأعانوا رسوله ونصروه". (3)

وعن قتادة في قوله: {وتعزروه} قال ينصروه". (4)

وقال ابن جرر الطبري: {وعزروه} "وقروه وعظموه وحموه من الناس". (5)

---

(1) تهذيب اللغة (٢/ ١٢٩- ١٣٠) بتصرف.
(2) تفسير الطبري (٩/ ٨٥).
(3) تفسير الطبري (٩/ ٨٥).
(4) تفسير الطبري (٢٦/ ٧٥).
(5) تفسير الطبري (٩/ ٨٥).

وقال أيضا بعد أن نقل قول ابن عباس ومجاهد وقتادة "وهذه الأقوال متقاربات المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال". (1)

وقال شيخ الإسلام: "التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه". (2)

ب- وأما عن التوقير في اللغة:

ففي معجم مقاييس اللغة: "وقر" الواو. والقاف. والراء: أصل يدل على ثقل في الشيء ... ومنه الوقار: الحلم والرزانه". (3)

وجاء في تهذيب اللغة "وقر الرجل من الوقار، يقر، فهو وقور. ووقرت الرجل: إذا عظمته ومنه قوله عز وجل: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩].

---

(1) تفسير الطبري (٢٦/ ٧٥).
(2) الصارم المسلول (ص: ٤٢٢).
(3) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١٣٢).

وفي لسان العرب: "وقر الرجل: بجله، والتوقير: التعظيم والترزين". (1)

وأما المعنى الشرعي المراد هنا:

فقال ابن عباس: {وَتُوَقِّرُوه} يعني التعظيم. (2)

وقال قتادة: {وَتُوَقِّرُوهُ} أمر الله بتسويده وتفخيمه". (3)

وقال أيضا: "وَتُوَقِّرُوه} أي ليعظموه". (4)

وقال ابن جرير الطبري: "فأما التوقير فهو التعظيم والإجلال والتفخيم". (5)

---

(1) تهذيب اللغة (٩/ ٢٨٠).
(2) لسان العرب (٥/ ٢٩١).
(3) تفسيرالطبري (٢٦/ ٧٤).
(4) تفسيرالطبري (٢٦/ ٧٤).
(5) تفسيرالطبري (٢٦/ ٧٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "التوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار". (1)

قال ابن كثير: "التوقير: هو الإحترام والإجلال والإعظام". (2)

ح- وأما التعظيم في اللغة:

ففي لسان العرب "التعظيم: التبجيل: يقال لفلان عظمة عند الناس: أي حرمة يعظم لها". (3)

---

(1) الصارم المسلول (ص: ٤٢٢).
(2) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٥).
(3) لسان العرب (١٢/ ٤١٠-٤١١).

ولفظ "التعظيم" لا يرد في خطاب الشارع كما ورد لفظ "التعزير" و"التوقير" لكن العلماء استعملوه في كلامهم عند هذه المسألة وذلك لقربه في المعنى إلى ذهن السامع، ولتأديته للمعنى المراد من لفظتي "التعزير" و"التوقير".

تعظيم النبي-صلى الله عليه وسلم-، وإجلاله، وتوقيره، شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة (1) بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة. ذلك لأنه ليس كل محب معظما، ألا ترى أن الوالد يحب ولده ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه.

والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم. والسيد قد يحب مماليكه ولكنه لا يعظمهم. والمماليك يحبون ساداتهم ويعظمونهم.

---

(1) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٢/ ١٢٤) الشعبة الخامسة عشرة. وكذلك الجامع في شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٣٠٠) الشعبة الخامسة عشرة..

فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة. (1)

فمن حق النبي-صلى الله عليه وسلم-على أمته أن يهاب ويعظم ويوقر ويجل أكثر من كل ولد لوالده ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة له مما يزيد على لوازم الرسالة. (2) وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز قال تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩].

وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية: ١٥٧].

فأبان أن حق الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته أن يكون معزرًا موقرًا مهيبًا.

---

(1) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٢/ ١٢٤).

(2) المعنى المقصود هنا: أنه يجوز أن يبعث الله رسولا ولا يوجب له هذا الحق بخلاف الإيمان والاتباع فإنهما من لوازم الرسالة.

وأخبر سبحانه أن الفلاح إنما يكون لمن جمع بين الإيمان به وتعزيره ولا خلاف في أن التعزير ها هنا التعظيم. (1)

وفي الجمع الحاصل في الآيتين بين الإيمان به وتعظيمه، تنبيه وإرشاد إلى أن القيام بحقوقه-صلى الله عليه وسلم-يعد من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان العبد إلا به.

قال الحليمي: "فمعلوم أن حقوق رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أجل وأعظم وأكرم وألزم لنا وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم والآباء على أولادهم لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لما إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم. فأية نعمة توازي هذه النعم وأية منة تداني هذه المنن. ثم إنه جل ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار. ووعدنا باتباعه الجنة. فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العلا هذه الدرجة. فحق علينا أن نحبه

(1) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٢٥) "بتصرف".

ونجله ونعظمه ونهابه أكثر من إجلال كل عبد سيده وكل ولد والده. وبمثل هذا نطق القرآن ووردت أوامر الله جل ثناؤه". (1)

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه-صلى الله عليه وسلم-وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه ومن تلك الآيات ما يلي:

خ- قوله تعالى: {لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا} [النور: الآية: ٦٣]، "ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلظ وجفاء، وأمر لهم أن يدعوه بلين وتواضع". (2)

---

(1) المنهاج في شعب الإيمان (ص: ١٢٤- ١٢٥) والجامع لشعب الإيمان (ص: ٣٠٢- ٣٠٣).
(2) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).

وروى الطبري بسنده عن مجاهد في تفسيرها فقال: "أمرهم أن يدعوه يارسول الله في لين وتواضع، ولا يقولوا: يامحمد، في تجهم". (1)

وعن قتادة قال: "أمرهم أن يفخموه ويشرفوه". (2)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–في تفسيرها "خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهي أن يقولوا: يامحمد أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يارسول الله، يانبي الله وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدا من الأنبياء، فلم يدعه باسمه في القرآن قط، بل يقول {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} [الأحزاب: الآية: ٢٨] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} [الأحزاب: الآية: ٥٠] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } [الأحزاب: الآية: ١] {يَا أَيُّهَا

(1) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).
(2) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).

النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: الآية: ٤٥] { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: الآية: ١] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [التحريم: الآية: ١].

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: الآية: ٦٧]، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: الآيات: ١-٢]، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر: الآيات: ١-٢]، {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ} [الأنفال: الآية: ٦٤].

مع أنه سبحانه قال: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: الآية: ٣٥]، {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ} [البقرة: الآية: ٣٣] {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: الآية: ٤٦]، {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا} [هود: الآية: ٧٦] {قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} [الأعراف: الآية: ١٤٤]، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} [ص: الآية: ٢٦]، {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ} [المائدة: الآية: ١١٠] . (1)

(1) الصارم المسلول (ص: ٤٢٢-٤٢٣).

وقال رحمه الله: "وإذا كنا في باب العبارة عن النبي-صلى الله عليه وسلم-علينا أن نفرق بين مخاطبته والإخبار عنه. فإذا خاطبناه كان علينا أن نتأدب بآداب الله تعالى حيث قال: {لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا} [النور: الآية: ٦٣]، فلا تقول يا محمد يا أحمد، كما يدعو بعضنا بعضا بل نقول: يارسول الله، يانبي الله. والله سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: {يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: الآية: ٣٥]، {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} [هود: الآية: ٤٨]، {يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ} [طه: الآيات: ١١-١٢] {يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: الآية: ٥٥]

ولما خاطبه صلى الله عليه وسلم قال {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ } [الأنفال: الآية: ٦٤]، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [المائدة: الآية: ٤١]، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: الآية: ٦٧] {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [المزمل: الآية: ١]، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: الآية: ١]، فنحن أحق أن نتأدب في دعائه وخطابه.

وأما إذا كنا في مقام الإخبار عنه قلنا: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" وقلنا محمد رسول الله وخاتم النبيين، فنخبر عنه باسمه كما أخبر الله سبحانه لما أخبر عنه- صلى الله عليه وسلم-: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: الآية: ٤٠]، وقال {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: الآية: ٢٩] وقال { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران: الآية: ١٤٤]، وقال {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ} [محمد: الآية: ٢].

فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل".

٢- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن

وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: الآيات: ١-٥].

فهذه الآيات اشتملت على جملة من الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يجب أن يعاملوا به الرسول-صلى الله عليه وسلم-من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام وهذه الآداب هي:

أولًا: أنه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: الآية: ١].

قال ابن كثير في معناها: "أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن ((بم تحكم؟)). قال: بكتاب الله تعالى. قال -صلى الله عليه وسلم-: ((فإن لم تجد؟)). قال بسنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-. قال-

صلى الله عليه وسلم-: ((فإن لم تجد؟)). قال-رضي الله عنه-: أجتهد رأي، فضرب في صدره وقال: ((الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لما يرضي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-)). (1)

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقدم بين يدي الله ورسوله". (2)

وقال الحليمي عند تعليقه على هذه الآية: "والمعنى لا تقدموا قولًا أو فعلًا بين يدي قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر دين أو دنيا، بل أخروا أقوالكم وأفعالكم إلى أن يأمر رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في ذلك بما يراه فإنكم إذا قدمتم

(1) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢) .وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (٤/ ١٨) (ح: ٣٥٩٢). والترمذي في سننه، كتاب الأحكام، باب القاضي كيف يقضي (٣/ ٦١٦) (ح: ١٣٢٧). وابن ماجة في سننه، المقدمة، باب اجتناب الرأي والقياس بنحوه (١/ ٢١).

(2) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥).

بين يديه كنتم مقدمين بين يدي الله-عز وجل-إذ كان رسوله لا يقضي إلا عنه، {وَاتَّقُوا اللَّهَ}! أي احذروا عقابه بتقديمكم بين يدي رسول الله ومعاملته بما يوهم الاستخفاف به ومخالفة شيء مما يأمركم به عن الله بوحي متلو أو بوحي غير متلو {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي سميع لما تقدمونه بين يدي رسوله صلى الله عليه وسلم، أو تأتونه اقتداء به واتباعا له، عليم بما يكون منكم من إجلاله أو خلاف ذلك فهو يجزيكم بما سمعه ويعلمه منكم". (1)

ولقد تأدب الصحابة مع ربهم ومع رسولهم، فما عاد بعد نزول هذه الآية مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أن يدلي به، وما عاد أحد يقضي برأيه في أمر أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول النبي-صلى الله عليه وسلم-.

حتى كان الرسول-صلى الله عليه وسلم-يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه وهم يعلمونه حق العلم،فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في

(1) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٢٧).

قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله. ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي-رضي الله عنه-، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-سأل في حجة الوداع ((أي شهر هذا؟)). قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه، قال: ((أليس ذو الحجة؟)). قلنا: بلى. قال: ((فأي بلد هذا؟)). قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه، قال: ((أليس البلدة؟)). قلنا بلى. قال ((فأي يوم هذا؟)). قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: ((أليس يوم النحر؟)). قلنا بلى ... " الحديث. (1)

فهذه صورة من الأدب، ومن التحرج، ومن التقوى التي انتهى إليها الصحابة بعد سماعهم ذلك النداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى تقوى الله السميع العليم.

---

(1) أخرجه البخاري في صـــحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع واللفظ له. انظر فتح الباري (٨/ ١٠٨) (ح: ٤٤٠٦).

ثانيا: أنه حرم رفع الصوت فوق صوت النبي-صلى الله عليه وسلم-وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وهذا من باب الأدب مع النبي-صلى الله عليه وسلم-في الحديث والخطاب ومن التوقير الذي يجب له، ذلك التوقير الذي ينعكس على نبرات أصوات الصحابة ليتميز بذلك شخص الرسول-صلى الله عليه وسلم بينهم ويميز مجلسه فيهم فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: الآية: ٢].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: "هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي-صلى الله عليه وسلم-فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما-، فعن ابن أبي مليكة قال: "كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي-صلى الله عليه وسلم-حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس-رضي الله عنه-أخي بن مجاشع وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر-رضي الله عنهما-ما أردت إلا

خلافي، قال: مما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ} [الحجرات: الآية: ٢].

قال ابن الزبير-رضي الله عنه-: "فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر". (1)

فقد نهي الله-عز وجل-عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي-صلى الله عليه وسلم-قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا". (2)

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الحجرات. انظر: فتح الباري (٨/ ٥٩٠) (ح: ٤٨٤٥).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد. انظر: فتح الباري (١/ ٥٦٠) (ح: ٤٧٠).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره-صلى الله عليه وسلم-كما كان يكره في حياته-عليه الصلاة والسلام-لأنه محترم حيًا وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائمًا.

ثم نهي عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: الآية: ٢]، كما قال {لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا} [النور: الآية: ٣].

وقوله-عز وجل-: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: الآية: ٢]، أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان

الله تعالى لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض)). (1)

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ} [الحجرات: الآية: ٣] أي أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا {لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: الآية: ٣]". (2)

وجاء في الكشاف عند تفسير هذه الآيات قوله: "أعاد النداء عليهم- أي في قوله {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك همهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان. فتح الباري (١١/ ٣٠٨) (ح: ٦٤٧٨).

(2) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥- ٢٠٦).

وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لايدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحدوه عليه، وارتداعا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: الآية: ٢]، أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم، وجهره باهرا لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} [الحجرات: الآية: ٢]، أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليهم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن

تتعمدوا في مخاطبته القول البين المقرب من الهمس الذي لا يضاهي الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآية: ٩]، وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي لا يتأتى به رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو أو ما أشبهه، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها". (1)

---

(1) الكشاف (٣/ ٥٥٤-٥٥٥).

"ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته-صلى الله عليه وسلم-فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفرادا وجماعات الأدب الأكمل مع النبي-صلى الله عليه وسلم-في كل ما يتصل بمخاطبته والتحدث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره-صلى الله عليه وسلم-توقيرا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته-صلى الله عليه وسلم-بعد وفاته كحرمته في حياته". (1)

ثالثا: أن الله تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه فقال {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: الآية: ٤]، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا

(1) كتاب محمد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-منهج ورسالة تأليف محمد الصادق إبراهيم عرجون (٤/ ٣٣٣).

حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [الحجرات: الآية: ٥]، أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة فكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لهم ما يجب عليهم وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم وحبب إليهم التوبة والإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة.(1)

قال الحليمي "في هذه الآية يسلى الله نبيه–صلى الله عليه وسلم–بما أخبره من أن الذين يصيحون خارج منزله ولا يصبرون حتى يخرج إليهم إنما حملهم على ذاك جهلهم وقلة عقلهم وأكثرهم لا يهتدون إلى ما يلزمهم من تعظيمك في حال مخاطبتك". (2)

٣- وقال تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ} [التوبة: الآية: ١٢٠].

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٨).
(2) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٢٨).

قال الحليمي: "فأعلمهم أن نفس الرسول-صلى الله عليه وسلم-أكرم وأشرف وأزكى وأجمل من أنفسهم، فلا يسعهم من ذلك أن يصرفوا أنفسهم عمالا يصرف نفسه عنه فيتخلفوا عنه إذا خرج لجهاد أعداء الله معتذرين من شدة حر، أو طول طريق، أو عوز ماء، أو قلة زاد، بل يلزمهم متابعته ومشايعته على أي حال رضيها لنفسه، وفي هذا أعظم البيان لمن عقل، وأبين الدلالة على وجوب تعظيمه وإجلاله وتوقيره". (1)

٤- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: الآية: ٥٣].

فنهاهم سبحانه وتعالى عن أن يعاملوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بالتوسع في الانبساط والإسترسال كما يعامل من لا يهاب ولا يتقى، فيدخل بيته بغير إذنه إذا دعاهم إلى طعام لم

(1) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٢٦).

ينضج، وأحاطوا به منتظرين إدراكه وإذا حضر الطعام ودخلوا وطعموا لزموا مجالسهم مستأنسين بالمحادثة، وأخبرهم أن ذلك منهي عنه، إذ كان النبي-صلى الله عليه وسلم-قد تأذى منه ويستحى أن يكلمهم، كما أدبهم فيما ينبغي عليهم تجاه معاملتهم مع أزواجه-صلى الله عليه وسلم-وهذا كله مما يدل على ماله-صلى الله عليه وسلم-من التعظيم والاحترام.

٥- وقد جاء بعد هذه الآيات الأمر بالصلاة والسلام عليه-صلى الله عليه وسلم-، حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦].

ووجه إيصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما كان من الواجب على المكلفين تعظيم النبي-صلى الله عليه وسلم-برفع الأذى عنه وإظهار شرفه وكرامته فذكر الله تعالى القسم الأول- أي رفع الأذى- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: الآية: ٥٣]، إلى آخرها وذكر القسم الثاني- أي إظهار شرفه وكرامته- في هذه الآية الثانية، وبدأ بالأول لأن دفع المفاسد أهم.

وأيضا لما أرشد الله تعالى المؤمنين إلى تعظيمه–صلى الله عليه وسلم–بتعلم سلوك طريق الأدب معه في أشياء كثيرة تتعلق بحياته وموته إظهارا لشرفه وتعظيما له، عقبه بما يدل على أنه تعالى أيضا معظم لشأنه أيضا، وكذلك ملائكته المقربون حملة العرش وحفظته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وفيه بيان لمنقبة عظيمة له–صلى الله عليه وسلم–، فإن الملك قد يأمر بإكرام شخص ولا يكون عنده بمكان فأزيل هذا التوهم وبين أنه أكرم الخلق على ربه تعالى.

وأيضا لما أرشد الله المؤمنين إلى الحال التي يجب أن يكونوا عليها مع نبيه–صلى الله عليه وسلم–من التعظيم والتوقير–ولهم معه حالتان:

د– حالة الخلوة: والواجب هناك عدم إزعاجه– بين ذلك بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: الآية: ٥٣]

٢- وحالة الملأ: والواجب هناك إظهار التعظيم، بين ذلك بقوله: {صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦].

وأيضًا لما أمر الله سبحانه وتعالى بالاستئذان في بيوته، وعدم النظر إلى وجوه زوجاته، وغير ذلك من الآداب إكراما وتبجيلا، كمل سبحانه بيان حرمته بقوله {صَلُّوا عَلَيْهِ} .

وأيضًا لما بين الأدب معه في حال الخلوة، وكان حاله في الملأ نوعين، لأنه يكون أعلى وأسفل، فبين أنه في الأعلى محترم في غاية الاحترام ثم بين ما يجب على الملأ الأسفل من ذلك التعظيم بقوله {صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦]. (1)

٦- وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب: الآيات: ٥٧-٥٨].

---

(1) الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر (ص: ١٩-٢٠).

فالله تعالى من تعظيمه لنبيه–صلى الله عليه وسلم–حفظ له كرامته وصان له حقه ففرق بين أذاه وأذى المؤمنين، فأوجب على من آذى النبي–صلى الله عليه وسلم–اللعن والطرد من رحمته وهذا حكم على من آذاه بالكفر وفي الآخرة له العذاب المهين ومصيره إلى جهنم وبئس المصير. بينما حكم على من آذى المؤمنين بالبهتان والإثم والفرق يين الحكمين ناتج عن الفرق بين حق النبي صلى الله عليه وسلم وحق غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في استدلاله بهذه الآية على وجوب قتل من أذى النبي–صلى الله عليه وسلم–: "ودلالتها من وجوه:

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم. بين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا فقال تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: الآية: ٤]، وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران: الآية: ١٣٢]، في مواضع متعددة، وقال تعالى: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [التوبة: الآية: ٦٢]، فوحد الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن إرضاء الله إرضاء للرسول وإرضاء الرسول فيه إرضاء لله، وقال أيضا {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: الآية: ١٠]، وقال أيضا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال: الآية: ١].

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئا واحدا، فقال: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: الآية: ١٣]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: الآية: ٥]، وقال تعالى: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة: الآية: ٦٣]، وقال: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [النساء: الآية: ٤].

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتانا وإثما مبينا وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرا فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم، لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا تثبت في حقه ... ". (1)

ومما يوضح ذلك أن سب النبي-صلى الله عليه وسلم-قد تعلق به عدة حقوق:

ذ- حق الله سبحانه من حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

ب- وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأم، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصا أمته فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا

(1) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٤٠-٤١).

والآخرة بوساطته وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وآبائهم والناس أجمعين.

ر- وتعلق به حق رسول الله كلها من حيث خصوص نفسه فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة". (1)

٣-الصلاة والسلام عليه-صلى الله عليه وسلم-.

فقد أمرنا الباري تبارك وتعالى أن نصلي ونسلم على نبينا-محمد صلى الله عليه وسلم-، وذلك تشريف منه عز وجل لنبيه ورسوله-صلى الله عليه وسلم-وإظهار للاحترام والتعظيم الذي شرعه في حقه فقد قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

(1) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٣٩٣-٣٩٤).

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦]، فهذه الآية فيها من تعظيم النبي-صلى الله عليه وسلم-والتنويه به ما ليس في غيرها، وذلك بسبب ما فيها من تمييز للنبي-صلى الله عليه وسلم-عند ذكره ولا شك أن ذلك فيه رفع لقدره وإعلاء لمكانته في حياته وبعد موته.

ولذلك فإن من أعظم شعب الإيمان الصلاة والسلام على النبي-صلى الله عليه وسلم-محبة له وأداء لحقه وتعظيما لقدره، والمواظبة عليها من باب أداء شكره-صلى الله عليه وسلم-، وشكره واجب لعظمة الإنعام به، فقد جعله الله سببا لنجاتنا من الجحيم، ودخولنا في دار النعيم، وإدراكنا الفوز بأيسر الأسباب، ونيلنا السعادة من كل الأبواب.

وليست صلاتنا على النبي-صلى الله عليه وسلم-شفاعة منا له فإن مثلنا لا يشفع لمثله ولكن الله أمرنا بالمكافأة لمن أحسن إلينا وأنعم علينا، فإن عجزنا عنها كافيناه بالدعاء فأرشدنا الله-لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا-إلى الصلاة عليه لتكون صلاتنا عليه مكافأة بإحسانه إلينا وإفضاله علينا إذ لا إحسان لمخلوق أفضل من إحسانه-صلى الله عليه وسلم-، وكذلك فإن المقصود بصلاتنا على النبي-صلى الله عليه وسلم-هو التقرب إلى الله تعالى بامتثال ما أمر به،

وقضاء لحق من حقوق لصطفى-صلى الله عليه وسلم-التي أوجبها الله علينا فحق على هذه الأمة أن تعظم قدر نبيها وذلك بأن تكثر من الصلاة والسلام عليه-صلى الله عليه وسلم-اتباعا لأمر ربها تبارك وتعالى وقياما بما لنبيها-صلى الله عليه وسلم-من الحق عليها. وقد اعتنى العلماء بهذه الخصيصة العظيمة فأفردوها بالتأليف وتناولوا في مؤلفاتهم تلك جوانب هذا الموضوع، من أشهر تلك المؤلفات وأجمعها كتاب "جلاء الأفهام" في الصلاة والسلام على خير الأنام للعلامة ابن القيم، بل هو أشهرها وأحسنها.

ومن تلك المؤلفات كتاب القول البديل في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي (ت: ٩٠٢ هـ). وقد ختم كتابه هذا ببيان الكتب المصنفة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر جملة كبيرة من هذه الكتب مرتبة. (1)

الأدلة:

(1) انظر: القول البديع (ص: ٢٥٨-٢٥٩).

ز- من القرآن:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦].

وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب (1) والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم صلى الله عليه وسلم والتنويه به ما ليس في غيرها. (2)

وهي مدنية النزول وقد جاءت بعد جملة من الآيات في سورة الأحزاب ذكر الله فيها عددا من حقوق نبيه-صلى الله عليه وسلم-وما خصه به دون أمته، من حل نكاحه لمن تهب نفسها له، ومن تحريم نكاح أزواجه على الأمة من بعده، ومن سائر ما ذكر بعد ذلك من حقوقه وتعظيمه وتبجيله.

---

(1) المنهاج للحليمي (٢/ ١٤٣).

(2) انظر: القول البديع (ص: ٢١).

ثم ذكر رفع الجناح عن أزواجه في تكليمهن آباءهن وأبناءهن ودخولهم عليهن، وخلوتهم بهن.

ثم عقب ذلك بما هو حق من حقوقه الأكيدة على أمته، وهو أمرهم بصلاتهم عليه وسلامهم، مستفتحا ذلك الأمر بإخباره بأنه هو وملائكته يصلون عليه". (1)

قال ابن كثير-رحمه الله تعالى-: "والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا". (2)

"فهذه الآية شرف الله بها رسوله-صلى الله عليه وسلم-في حياته وبعد موته". (3) "وفيها تنبيه على كمال الرسول-صلى الله عليه وسلم-ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع

(1) جلاء الأفهام (ص: ١٧٤-١٧٥).
(2) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٧).
(3) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٢) بتصرف.

ذكره، فقوله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} أي يثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى، ويثني عليه الملائكة المقربون ويدعون له ويتضرعون.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦]. اقتداء بالله وملائكته وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلا لإيمانكم، وتعظيما له-صلى الله عليه وسلم-ومحبة وإكراما وزيادة في حسناتكم وتكفيرا من سيئاتكم". (1)

قال الحليمي: "وقد أمر الله تعالى في كتابه بالصلاة والتسليم عليه جملة فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦]، فأمر الله عباده أن يصلوا عليه ويسلموا، وقدم قبل أمرهم بذلك إخبارهم بأن ملائكته يصلون عليه، لينبئهم بذلك على ما في الصلاة عليه من الفضل، إذ كانت الملائكة مع

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي (٦/ ١٢٠-١٢١).

انفكاكهم من شريعته تتقرب إلى الله بالصلاة والتسليم عليه ليعلموا أنهم بالصلاة والتسليم عليه أولى وأحق". (1)

ب- من السنة النبوية:

ورد في شأن الصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم-كثير من الأحاديث التي وضحت وبينت ما يتعلق بشأن هذه الصلاة من جهة مشروعيتها وكيفيتها ومواطنها وفضلها إلى غير ذلك من الجوانب المتعلقة بها.

وقد روى هذه الأحاديث ما جمع من الصحابة رضوان الله عليهم عدهم ابن القيم في كتابه "جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام" فبلغوا اثنين وأربعين صحابيا.

وقد جمع ابن القيم هذه الأحاديث وبين طرقها وصحيحها من حسنها ومعلولها، وما في معلولها من العلل بيانا شافيا.

---

(1) المنهاج للحليمي (٢/ ١٣١).

قال ابن القيم: "إن طلب الصلاة من الله على رسوله–صلى الله عليه وسلم–هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته". (1) يدلك على ذلك ما جاء في فضلها من الأحاديث.

فعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: "من صلى على واحدة صلى عليه عشرا". (2)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص–رضي الله عنهما–، أنه سمع النبي–صلى الله عليه وسلم–يقول: ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)). (3)

---

(1) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٠).
(2) رواه مسلم (٤٠٨).
(3) رواه مسلم (٣٨٤).

وعن أبي بن كعب–رضي الله عنه–، قال: قلت: "يارسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال☹(ما شئت)). "قلت: الربع؟" قال: ((ما شئت، وإن زدت فهو خير)). قلت: النصف؟ قال: ((ما شئت، وإن زدت فهو خير)). قلت: الثلثين؟ قال: ((ما شئت وإن زدت فهو خير)). قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: ((إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك)). (1)

وللحديث طريق آخر عن يعقوب بن زيد بن طلحة التيمي قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((أتاني آت من ربي فقال: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرا)). فقام إليه رجل فقال: يارسول الله أجعل نصف دعائي لك؟ قال: ((إن شئت)). قال:

(1) رواه الترمذي (2457) وأحمد (20736) وابن أبي شيبة في "المصنف" (8706) وعبد بن حميد في "المسند" (170) والبيهقي في "الشعب" (1579). قال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وحسنه المنذري في (الترغيب والترهيب)، وكذا حسنه الحافظ في "الفتح" (11/ 168)، وأشار البيهقي في "الشعب" (2/ 215) إلى تقويته، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (1670) وغيره.

ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: ((إن شئت)). قال: ألا أجعل دعائي كله؟ قال: ((إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة)). (1)

وعن أنس بن مالك–رضي الله عنه–، أن النبي–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((من ذكرت عنده فليصل علي ومن صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا)). (2)

وفي رواية: "من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات". (3)

---

(1) أخرجه اسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (ص: ٨٧) (ح: ١٣)، وقال: قال شيخ كان بمكة يقال له منيع لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدري، وقال الألباني في تعليقه: هذا مرسل صحيح الإسناد، ويشهد له الحديث الذي بعده– يعني الحديث الذي تقدم ذكره.

(2) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص: ١٦٥) (ح: ٦١)، باب ثواب الصلاة على النبي–صلى الله عليه وسلم–وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص: ١٣٥–١٣٦) (ح: ٣٨٠).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٠٢، ٢٦١) . والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٩٤، ٩٥) باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص: ١٦٦) (ح: ٦٣)،

وفي رواية: ((من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات)). (1)

باب ثواب الصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم-. وأخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن (٢٣٩٥).

(1) أخرجه النسائي في السنن (٣/ ٥٠) باب الفضل في الصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم وكذلك في عمل اليوم والليلة (ص ١٦٥، ١٦٦) (ح: ٦٢)، ثواب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم-، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وكل من رواية "صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات". ورواية "صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه بها عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات" جاءت من طريق بريد بن أبي مريم وقد جاء في بعض الروايات عن بريد بن أبي مريم عن الحسن عن أنس وفي بعضها عن بريد بن أبي مريم عن أنس، وقد ذكر ابن القيم أن هذه العلة لا تقدح فيه شيئًا، لأن الحسن لا شك في سماعه من أنس، وقد صح سماع بريد بن أبي مريم من أنس أيضًا هذا الحديث، فرواه ابن حبان في صحيحه موارد ٢٣٩٠ والحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٠) من حديث يونس بن أبي إسحاق، عن بريد بن أبي مريم، قال سمعت أنس بن مالك ... نذكره. ولعل بريدا سمعه من الحسن ثم سمعه من أنس، فحدث به على الوجهين، فإنه قال: كنت أزامل الحسن بن محمد، فقال حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فذكره، ثم إنه حدثه به أنس فرواه عنه كما تقدم". جلاء الأفهام (ص: ٥٦) .

وقد ورد كذلك في فضل السلام على النبي-صلى الله عليه وسلم-ومواطنها عدد من الأحاديث أورد بعضا منها هنا:.

فالسلام على النبي-صلى الله عليه وسلم-مشروع في التشهد عند كل صلاة ففي الصحيحين عن ابن مسعود-رضي الله عنه-، قال: "كنا إذا كنا مع النبي-صلى الله عليه وسلم-في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده السلام على فلان وفلان.

فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقولوا السلام على لله، فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله الصلوات الطيبات، والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء

والأرض أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو)). (1)

وشرع السلام كذلك عند دخول المسجد والخروج منه.

فعن فاطمة بنت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ورضي الله عنها-، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: ((إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك)). (2)

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد. وليس بواجب. فتح الباري (٢/ ٣٢٠) (ح: ٨٣٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة (٢/ ١٣).

(2) رواه ابن ماجه (771) وغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (625).

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي–صلى الله عليه وسلم–، وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي–صلى الله عليه وسلم–، وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم)). (1)

وعن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، أنه قال: ((إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام)). (2)

---

(1) رواه ابن ماجه (765)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (627).

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٨٧، ١ ٤٤، ٤٥٢). وأخرجه النسائي ني السنن، كتاب السهو، باب السلام على النبي–صلى الله عليه وسلم– (٣/ ٤٣) . وأخرجه أيضًا في اليوم الليلة، فضل السلام على النبي–صلى الله عليه وسلم–، (ح: ٦٦). وأخرجه الدارمي في السنن، كتاب الرقائق، باب فضل الصلاة على النبي–صلى الله عليه وسلم–، (٢/ ٣١٧) (ح: ٢٧٧٧)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأدعية، باب الصلاة على النبي–صلى الله عليه وسلم–. انظر: موارد الضمآن (ح: ٢٣٩٣) . وأخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي–صلى الله عليه وسلم–، (ص: ١١) (ح: ٢١)، وقال ابن القيم في جلاء الأفهام (ص: ٥٤) : إسناده صحيح..

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((ما من أحد يسلم علي إلا رد الله–عز وجل–إلى روحي حتى أرد عليه السلام)). (1)

وبما تقدم من نصوص يعلم أن السلام هو حق من الحقوق التي للنبي–صلى الله عليه وسلم–على أمته، والمسلم مأمور بالقيام بهذا الحق حيث كان إما مطلقا، وإما عند الأسباب المؤكدة

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢/ ٥٣٤) (ح: ٢٠٤١)، وعزاه السخاوي في القول البديع (ص: ١٦١) إلى الطبراني والبيهقي أيضا والحديث لا يسلم من مقال في إسناده. قال ابن عبد الهادى: أما المقال في إسناه فمن جهة تفرد أبي صخر به عن ابن قسيط عن أبي هريرة. ولم يتابع ابن قسيط أحد في روايته عن أبي هريرة ولا تابع أبا صخر أحد في روايته عن ابن قسيط. الصارم المنكي (ص: ٢٥٠) وحميد بن زياد أبو صخر، ويزيد بن عبد الله بن قسيط فيهما كلام قال ابن عبد الهادي: وأبو صخر حميد بن زياد قد اختلف الأئمة في عدالته والاحتجاج بخبره مع الاضطراب في اسمه وكنيته واسم أبيه، فما تفرد به من الحديث ولم يتابعه عليه أحد لا ينهض الى درجة الصحة بل يستشهد به ويعتبر به. انتهي كلامه. وهذا الحديث مما تفرد به كما سبق بيانه من كلام ابن عبد الهادى. وقد ذكر ابن عبد الهادي أقوال أئمة الجرح والتعديل في كل من حميد بن زياد أبي صخر ويزيد بن عبد الله بن قسيط وقال في نهاية نقله والحديث إسناده مقارب وهو صالح أن يكون متابعا لغيره عاضدا له والله أعلم. الصارم المنكى (ص: ٢٥٩) ..

لذلك كما في التشهد وعند الدخول إلى المسجد أو الخروج منه. وهذا السلام فيه من الخاصية للنبي صلى الله عليه وسلم والفضل على هذه الأمة ما فيه. أما الخاصية التي فيه للنبي-صلى الله عليه وسلم-.

قال ابن تيمية: "فالأمر بالسلام عليه-صلى الله عليه وسلم-، مع الغيبة من خصائصه التي خصه الله بها، فلم يرد في الشرع الأمر بالسلام على معين مع مغيبه إلا عليه-صلى الله عليه وسلم-، وذلك كما في التشهد فليس فيه سلام على معين إلا عليه، وكذلك عند دخول المسجد والخروج منه". (1)

وأما الفضل الذي جعله الله لهذه الأمة بهذا السلام فهو جعله سبحانه وتعالى هذا السلام مطلقا لا يتكلف فيه المرء قطع المسافة ولا يشترط فيه اللقاء به في حياته أو المجيء إلى قبره بعد وفاته.

---

(1) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤١٢).

فالمسلم يسلم على النبي–صلى الله عليه وسلم–في أي مكان في هذه الدنيا وفي أي وقت وزمان يشاء وهذا من الفضل والنعمة التي امتن الله بها علينا.

٤–الإقرار ببشريته وعدم الغلو في حقه–صلى الله عليه وسلم–.

أما المعنى اللغوي للغلو:

جاء في مقاييس اللغة: الغين –واللام– والحرف المعتل –أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر. يقال: غلا السعر يغلو غلاء، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوا، إذا جاوز حده. وغلا بسهمه غلوا، إذا رمى به سهما أقصى غايته. وتغالى النبت ارتفع وطال. وتغالى لحم الدابة: إذا انحسر عنه وبره، وذلك لا يكون إلا عن قوة وسمن وعلو ... الخ (1)

(1) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨).

جاء في اللسان: ... "أصل الغلاء: الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء. وغلا في الدين والأمر يغلو غلوا: جاوز حده. وفي التنزيل: {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} [النساء: الآية: ١٧١]. (1)

وفي التهذيب " ... غلا السعر غلاء ممدود. وغلا في الدين يغلو غلوا: إذا تجاوز الحد ... ". (2)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الغلو: هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك". (3)

الغلو في الشرع:

هو مجاوزة حدود ما شرع الله سواء كان ذلك التجاوز في جانب الاعتقاد أو القول أو العمل.

---

(1) لسان العرب (١٥/ ١٣١، ١٣٢) مادة (غلا).
(2) تهذيب اللغة (٨/ ١٩٥، ١٩٢).
(3) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ١٠٦).

وقد جاء ذكر لفظ الغلو في القرآن الكريم في موضعين وكان الخطاب فيهما للنصارى باعتبارهم أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف وأما الموضعان:

فأحدهما: في قوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء: الآية: ١٧١].

والموضع الثاني: قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: الآية: ٧٧].

قال ابن جرير الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}: يا أهل الإنجيل من النصارى {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} يقول: " لا تتجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في

عيسى غير الحق فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق، لأن الله لم يتخذ ولدا، فيكون عيسى أو غيره من خلقه ابنا {وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} .

وأصل الغلو في كل شيء: مجاوزة حده الذي حده، ويقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلؤا ". (1)

وقال في تفسير آية المائدة: وهذا خطاب من الله تعالى ذكره، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} يعني بالكتاب الإنجيل {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} يقول لا تفرطوا في القول فيما تدينون به في أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل فتقولوا فيه: هو الله أو هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا

(1) تفسير الطبري (٦/ ٣٤).

كَثِيرًا} يقول لا تتبعوا أيضا في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه كما قالوا وتبهتوا أمه كما يبهتونها بالفرية ... ". (1)

وقال ابن كثير في تفسيره للآية الواردة في سورة النساء: "ينهي تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا ولهذا قال الله تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [التوبة: الآية: ٣١]". (2)

وقال عند تفسير آية سورة المائدة: "أي لا تتجاوزوا الحد في إتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو

(1) تفسير الطبري (٦/ ٣١٦).
(2) تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٩).

نبي من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديما ... ". (1)

والمتأمل للنصوص القرآنية يجد أن النصارى لم يكتفوا بالغلو في المسيح ورفعه إلى درجة الألوهية بل غلوا أيضا في حق أحبارهم ورهبانهم فأعطوهم حق التشريع والطاعة المطلقة والإتباع حتى فيما يخالف شرع الله وأحكامه. فكان الأحبار والرهبان يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله ويقررون شرائع وأحكاما ما أنزل الله بها من سلطان فتلقى النصارى ذلك كله بالقبول والطاعة.

قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: الآية: ٣١]، فهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا}أي الذي إذا حرم شيئا فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ {لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا

(1) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٢).

يُشْرِكُونَ} أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأنداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه". (1)

ولم يقتصر غلو النصارى عند الحد، بل قدسوهم أمواتا كما قدسوهم أحياء فأقاموا على قبورهم الأضرحة وقدموا لهم القرابين فكان ذلك سببا في لعنهم قال صلى الله عليه وسلم ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). (2). يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والنصارى أشد غلوا في ذلك من اليهود كما في الصحيحين: " أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت له أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما كنيسة بأرض الحبشة، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها. فقال: ((إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح، فمات بنو على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)). (3)

---

(1) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٩).
(2) أخرجه البخاري (4441)، ومسلم (529).
(3) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

والنصارى كثيرا ما يعظمون آثار القديسين منهم، فلا يستبعد أنهم ألقوا إلى بعض جهال المسلمين أن هذا قبر بعض من يعظمه المسلمون ليوافقوهم على تعظيمه.

فالذين يعظمون القبور والمشاهد لهم شبه شديد بالنصارى". (1)

فالنصارى أمة ضلت وهلكت وكان سبب ضلالها وهلاكها غلوها وقد تجلى غلوها في عدة أمور منها:

س- غلوهم في نبي الله عيسى ورفعه إلى مكانة الألوهية.

٢- غلوهم في رهبانهم وصالحيهم وذلك بإعطائهم حق التشريع في التحليل والتحريم، والعكوف على قبورهم وتقديسها بعد موتهم.

٣- ابتداعهم الرهبانية.

---

(1) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٦٠-٤٦١).

والله سبحانه وتعالى بذكره لأحوالهم في كتابه العزيز يحذرنا من الوقوع فيما وقعوا فيه، وفي هذا دعوة للاعتبار بالأم السابقة ومعرفة سبب هلاكها وضرورة اجتنابه قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: الآية: ١١١].

والغلو عند النصارى هدم أصلي الدين: ١- التوحيد، ٢- الإتباع.

فهم هدموا الأصل الأول بجعلهم عيسى في مقام الألوهية. وهدموا الأصل الثاني بأن جعلوا لرهبانهم حق التشريع والتحليل والتحريم.

فانظر كيف كان الغلو سببا لهدم الدين.

فإن المسيح قال لهم {اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة: الآية: ١١٧]، وقال {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: الآية: ٦]، فلو امتثلوا أمره كانوا مطعين لرسول الله موحدين لله، ونالوا بذلك السعادة من الله في الدنيا والآخرة، ولكنهم غلوا فيه واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، يستغيثون به وبغيره من

الأنبياء والصالحين ويطلبون منهم ويشركون بهم، وكذبوا بالرسول الذي بشر به، وحرفوا التوراة التي صدق بها وظنوا في ذلك أنهم معظمون للمسيح وكان هذا من جهلهم وضلالهم، فإنهم لو أطاعوه فيما دعاهم إليه لكان له مثل أجورهم، وكانت طاعتهم له والإقرار بعبوديته وبما بشر به فيه له ولهم من الأجر ما لا يحصيه إلا الله، ففوتوا هذا الأجر والثواب عليهم وعليه وله ولهم فيه الخير المستطاب واعتاضوا عن ذلك بما ضرهم في الدنيا والآخرة.

وإذا بين لهم قدر المسيح فقيل لهم {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} [المائدة: الآية: ٧٥].

قالوا: إن هذا تنقص بالمسيح وسب له واستخفاف بدرجته وسوء أدب معه، بل قالوا هذا كفر وجحد لحقه، وسلب لصفات الكمال الثابتة له.

وهذا في الحقيقة إنما هو نقص لما في نفوسهم من الغلو فيه لا نقص لنفس المسيح الموجود في نفس الأمر.

وفي ذلك من الحمد له والمدح وإعظامه والإيمان به وإعطائه الدرجة العلية ما ليس في الغلو فيه.

لأن في تقرير كمال عبوديته التي هي كمال الخلوق، وهذا هو الكمال فأما الغلو فيه إلى حد الربوبية فذاك خيال باطل لا كمال حاصل وفي إثبات العبودية له، إيمان به وموافقة لخبره وأمره، فيحصل له بذلك من الخير والرحمة ما لا يحصل له بالغلو فيه، الذي هو كذب فيه مكذوب عليه ومعصية له وإشراك بالله، وليس في ذلك ما ينفعه ولا ما يرفعه بل في ذلك ضرر على المشركين المفترين ". (1)

ولم يقتصر الغلو على النصارى وحدهم بل كان واقعا في الأمم قبلهم فالغلو كان أول خطوات الإنحراف عن الدين القويم والوقوع في الشرك.

---

(1) الرد على البكري (ص: ١٠٤- ١٠٥).

فقد روى الطبري بسنده عن عكرمة قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ". (1)

فكان مبدأ الشرك في قوم نوح، وكان سببه غلوهم في الصالحين فقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه باب قوله تعالى {وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: الآية: ٢٣]، عن ابن عباس أنه قال: " أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت ". (2)

فالغلو في الصالحين هو الطامة الكبرى والبلية العظمى التي جنحت بالبشرية عن جادة الحق والصواب إلى ظلمات الشرك والضلال باتخاذ أنداد لله من خلقه واعتقاد أنها تملك شيئًا من خصائص الإلهية.

---

(1) تفسير الطبري (٢٩/ ٩٩).
(2) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٦٧).

قال ابن القيم: "ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق وإعطائه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه.

وهذا التشبيه الواقع في الأمم هو الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله". (1)

ولهذا نهي الشارع الحكيم عن الغلو بشتى صوره وأشكاله وحذر منه وذلك لما له من آثار سيئة على الدين ولما فيه من منافاة لعقيدة التوحيد وهدم لأصلي الدين: التوحيد، والإتباع.

ولقد حذر النبي-صلى الله عليه وسلم-أمته من الغلو في الدين وأخبر أنه سببا لهلاك من قبلنا من الأم.

---

(1) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٦).

فعن ابن عباس–رضي الله عنهما–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)). (1)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله "إياكم والغلو في الدين عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال". (2)

---

(1) أخرجه الأمام أحمد في المسند (١/ ٢١٥، ٣٤٧) . والنسائي في السنن (٥/ ٢٠١٨) كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى. وابن ماجه في سننه، أبراب المناسك، باب قدر حصى الرمي (٢/ ١٨٣) (ح: ٣٠٦٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة من حديث عوف بن أبي جميلة عن زيادة بن حصين عن أبي العالية عنه وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ١٠٦) . وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٧٨) (ح: ١٢٨٣)، وقال في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١/ ٤٦) إسناده صحيح. وقد صححه ابن خزيمة والحاكم (١/ ٤٦٦) والذهبي والنووي وابن تيمية.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ١٥٦).

وسبب قول النبي-صلى الله عليه وسلم-لهذه العبارة أن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال لابن عباس غداة العقبة وهو على ناقته "القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات مثل حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: أيها الناس إياكم والغلو في الدين ... " الحديث.

فسبب ورود الحديث ينبهنا إلى أمر هام جدا وهو أن الغلو قد يبدأ بشيء صغير ثم تتسع دائرته فتهلك بذلك أمم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه فالغلو فيه: مثل رمي الحجارة ونحو ذلك، بناء على أنه بالغ في الحصى الصغار، ثم علل ذلك بأن ما أهلك كان قبلنا إلا الغلو في الدين كما تراه في النصارى". (1)

(1) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ١٠٦).

ولو لم يرد في السنة إلا هذا الحديث لكفى به زاجرا ورادعا للأمة عن الوقوع في الغلو، كيف والسنة مليئة بالأحاديث التي تحذر من الغلو وتبين خطره وهلاكه.

فعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((هلك المتنطعون)): قالها ثلاثا. (1)

قال النووي: "هلك المتنطعون": أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم". (2)

وقال أيضا: "المتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد". (3)، فهذا الحديث موافق لما جاء في الحديث السابق من الإخبار بهلاك أصحاب الغلو.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٨/ ٥٨).
(2) شرح النووي (١٦/ ٢٢٠).
(3) رياض الصالحين باب الاقتصاد في الطاعة (ص: ٨٨).

وهناك أحاديث كثيرة نهي فيها النبي-صلى الله عليه وسلم-أصحابه-رضوان الله عليهم-عن الغلو في جوانب معينة من الدين نذكر اثنين منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فعن أنس بن مالك-رضي الله عنه-، قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي-صلى الله عليه وسلم-فلما أخبروا كأنهم تقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي-صلى الله عليه وسلم-وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ال فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)). (1)

فسمى النبي-صلى الله عليه وسلم-الغلو في جانب العبادات والسنن التي سنها لهم رغبة عن الشرع الذي جاء به، وتبرأ ممن هذه حاله، حتى وإن كان الدافع لذلك التقرب إلى الله تعالى

(1) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

ذلك لأن هذا الغلو فيه هدم للأصل الثاني من أصول هذا الدين ألا وهو الإتباع فنحن مأمورون بالاقتداء به-صلى الله عليه وسلم-والأخذ بسنته. والغلو في هذا الجانب مناقض تماما لهذا الأصل، ولذلك فلا غرابة أن يتبرأ النبي-صلى الله عليه وسلم-ممن غلا في جانب ما سنه وشرعه للأمة.

لأنه لو فتح هذا الباب وولجته الأمة لأصبحت عبادة الله مجالا لأهواء الناس وعقولهم وبذلك يتلاشى دينها وتنطمس معالمه فتستحق بذلك غضب الله ومقته فتهلك كما هلكت الأم السابقة.

وعن أنس-رضي الله عنه-، قال: دخل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: ((ما هذا الحبل؟)). قالوا: هذا حبل زينب فإذا فترت تعلقت

به. فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد)) (1) وعند مسلم " حبل لزينب تصلي ".

قال ابن حجر: "وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق فيها ... ". (2)

وقد حذر النبي-صلى الله عليه وسلم-أمته كذلك من الغلو في حقه-صلى الله عليه وسلم-.

وذلك لما ينطوي عليه الغلو من الشر العظيم، ولما يعلمه-صلى الله عليه وسلم-من منزلته في قلوب المؤمنين.

فقد خشي-صلى الله عليه وسلم-أن يدفعهم حبهم وتعظيمهم له إلى رفعه فوق منزلته التي جعلها الله له وتشريكه مع الله في بعض ما هو حق لله.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة. انظر: فتح الباري (٣٦١٣) (ح: ١١٥٠). وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومراجع الصلاة، باب أمر من نعس في صلاته ... (٢/ ١٨٩).

(2) فتح الباري (٣/ ٣٧).

فحذرهم من الغلو في شخصه بأساليب مختلفة وذلك حماية منه لجناب التوحيد وقطعا لذريعة الشرك.

وقد جاء تحذره تارة بأسلوب النهي الصريح.

وتارة بالتجائه إلى ربه ودعائه بأن لا يتحول قبره إلى وثن يعبد.

وتارة بلعنة الغلاة الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

فمما ورد عنه قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فانما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله)). (1)

قال ابن حجر: "الإطراء: المدح بالباطل تقول أطربت فلانا: مدحته فأفرطت في مدحه". (2)

---

(1) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(2) فتح الباري (٦/ ٤٩٠).

فمعنى الحديث: أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبد الله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي، وقولوا عبد الله ورسوله.

فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، أن في ذلك هضمًا لجنابه وغضًا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب وغير ذلك من الأمور. (1)

وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب تلخيص الاستغاثة (2) عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول-صلى الله عليه وسلم-في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف فيه مصنفا. وكان يقول أن النبي-صلى الله عليه وسلم-يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وحكي

(1) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٧٢-٢٧٣).
(2) الرد على البكري (ص: ٢١٨).

عن آخر من جنسه يباشر التدريس وينسب إلى الفتيا أنه كان يقول إن النبي-صلى الله عليه وسلم-يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر الله عليه.

ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: الآية: 42]، إن الرسول-صلى الله عليه وسلم-هو الذي يسبح بكرة وأصيلا.

ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله فيجعلون الرسول معبودا ويقول قائلهم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا والآخرة من جوده، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ". (1)

فانظر إلى ما أدى إليه هذا الإطراء من صرف أمور قد اختص بها الرب عز وجل فصرفت للنبي-صلى الله عليه وسلم-.

---

(1) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٧٣).

ولكن ما على الرسول إلا البلاغ فقد سد النبي-صلى الله عليه وسلم- كل ذريعة مؤدية إلى الغلو والشرك حتى يبقى هذا الدين وسطًا صافيًا لا كدر فيه، وتبقى عقيدة التوحيد نقية قوية خالدة.

فلقد نهي الرسول الكريم عن المبالغة في مدحه لعلمه بأن هذه المبالغة بريد إلى الغلو ومدعاة للشرك والانحراف عن الطريق السوي.

وهذا من الحرص الكامل للرسول-صلى الله عليه وسلم-على حماية التوحيد، فبهذا النهي الشديد سد الرسول-صلى الله عليه وسلم-طريق الغلو.

والنهي عن المبالغة في الإطراء لا يعني التقليل من قدره وتوقيره فإن للتوقير والتعظيم وسائله المشروعة والتي سبق ذكرها.

ولكن هناك أناس شق عليهم التوقير المشروع فلجأوا إلى التوقير الممنوع فنسجوا قصائد مطولة أغرقوا فيها بالمديح المجاوز للحد والمنافي لقواعد التوحيد والذي لا يرضى به الله ورسوله بل جاء التحذير منه بنص القرآن والسنة المطهرة.

"ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أحرص الخلق على تجريد التوحيد حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: ((اجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده)). (1)

ونهى أن يحلف بغير الله، وأخبر أن ذلك شرك.

ونهي أن يصلى إلى القبر أو يتخذ مسجدا أو عيدا أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل-أي تجريد التوحيد- الذي هو قطب رحا النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره-صلى الله

(1) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) ، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص: ٥٤٥) (ح: ٩٨٧).

عليه وسلم-بقوله وفعله وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه-صلى الله عليه وسلم-بموافقته على ذلك لا مناقضته فيه". (1)

والغلو بشتى صوره وأشكاله مناف لأصلي التوحيد ويكفيك أن تعلم أن سبب عبادة الأصنام هو الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في الأم الذي أبطه الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله. فهو سبحانه ينفي، وينهي، أن يجعل غيره مثلا له، وندا له وشبها له. لا أن يشبه هو بغيره إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم.

وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه، ويحبونه، حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الألهة إلهًا واحدًا وقالوا: {وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ} [ص: الآية: ٦]وصرحوا بأنه إله معبود، يرجى، ويخاف،

(1) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٧٤).

ويعظم، ويسجد له ويحلف باسمه، وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى. فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبه من كل وجه. (1)

فحقيقة الشرك هو التشبه بالخالق أو التشبيه للمخلوق به فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية.

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده.

فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا -فضلا عن غيره- شبيها لمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه،

(1) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٦).

ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات. ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره. فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله.

ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين.

فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه وهذا من المحال أن تجئ به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها. ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوفق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نورا على نور {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [النور: الآية: ٣٥].

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها المتوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به. هذا في جانب التشبيه.

وأما في جانب التشبه به: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه-صلى الله عليه وسلم-قال: ((يقول الله عز وجل: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدا منهما عذبته)). (1)

وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟ ففي الصحيحين عنه-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((قال الله-عز وجل-: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة)). (2) فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر وقال-صلى

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر (٨/ ٣٦).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قول الله تعالى {والله خلقكم وما تعملون} فتح الباري (١٣/ ٥٢٨) ح ٧٥٥٩. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (٦/ ١٦٢).

الله عليه وسلم-: ((أشد الناس عذابا ئرم القيامة المصورون يقال لهم أحيوا ما خلقتم)) (1)". (2)

الفرق بين ها هو حق لله وحده لا يشركه فيه غيره وبين ما هو حق للرسول

بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن دعاء ما سواه -لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة-. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية: ٢٥].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: الآية: ٣٦].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة. فتح الباري (١٠/ ٨٢-٨٣) (ح: ٤٩٥٠-٤٩٥١)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كثاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولاصورة (١٦١١٦).

(2) الجواب الكافي (ص: ١٥٩-١٦١).

وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: الآية: ٤٥].

وقال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: الآيتان: ٧٩-٨٠].

فدين الحق دين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسله كما يدل عليه قولنا: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله".

فهذان الأصلان:

١-توحيد الرب بالعبادة، ٢- الإيمان برسله.

لابد منهما، ولهذا لا يدخل أحد في الإسلام حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ذلك لأن دين الإسلام مبني على هذين الأصلين ومن خرج عن واحد منهما فلا عمل له ولا دين.

فلا إله إلا الله معناها أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا.

فإن الإله: هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وإجلالًا وإكرامًا.

وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يطاع إلا الله.

وأما شهادة أن محمدا رسول الله فهي تعني ألا نعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فهو المبلغ عن الله طاعته وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه، فهو الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده.

وليس للرسول واسطة في إجابة الدعاء، وكشف البلاء، والهداية، والإغناء ونحو ذلك.

فالله تعالى هو المتفرد بذلك فهو سبحانه الذي يسمع ويرى ويعلم السر والنجوى وهو القادر على إنزال النعم وإزالة الضر من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم.

والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها، فهو مسبب الأسباب التي يحصل بها ذلك ولهذا فرض سبحانه على المصلى أن يقول في صلاته {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: الآية: ٥].

فالله سبحانه أجل وأعظم وأغني وأعلى من أن يفتقر إلى شيء، بل هو الأحد الصمد وكل ما سواه مفتقر إليه، وهو مستغن عن كل ما سواه. وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: " قام فينا النبي–صلى الله عليه وسلم–فذكر الغلول وعظم أمره قال: ((لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، يقول: يارسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك،

وعلى رقبته بعير له ركاء، يقول يارسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك)) الحديث. (1)

فهؤلاء الذين بلغهم أخبر أنهم إذا استغاثوا به يوم القيامة وسألوه الشفاعة يقول لهم لا أملك لكم من الله شيئا قد أبلغتكم. (2)

فعلى المسلم أن يفرق لأن ما هو حق لله وحده وبين ما هو حق لرسله.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الغلول. انظر: فتح الباري (٦/ ١٨٥) (ح: ٣٠٧٣).

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول (٦/ ١٠).

(2) انظر: الرد على البكري (ص: ٥٢-٥٤) بتصرف.

فالله أمرنا أن نؤمن بالأنبياء وما جاؤا به وفرض علينا طاعة الرسول الذي بعث إلينا ومحبته وتعزيره وتوقيره والتسليم لحكمه.

وأمرنا أيضا أن لا نعبد إلا الله وحده لا نشرك به شيئا ولا نتخذ الملائكة والنبيين أربابا.

وفرق بين حقه الذي يختص به الذي لا يشركه فيه لا ملك ولا نبي.

وبين الحق الذي أوجبه علينا لملائكته وأنبيائه عموما ولمحمد-صلى الله عليه وسلم-خاتم الرسل وخير مرسل الذي جاءه بالوحي خصوصا، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، فاصطفي من الملائكة جبريل لرسالته واصطفي من البشر محمدا-صلى الله عليه وسلم-، وأخبر أن هذا القرآن الذي نزل به هذا الرسول إلى هذا الرسول مبلغا له عن الله قال تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: الآية: ٩٧]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: الآيات: ١٩٢-١٩٥].

فالله أوجب علينا الإيمان بمحمد-صلى الله عليه وسلم-خصوصا وبالملك الذي جاءه بالقرآن.

وأمرنا بالإيمان بالأنبياء كلهم وبجميع ما أوتوا كما قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: الآية: ١٣٦].

وقال تعالى: {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} [البقرة: الآية: ١٧٧].

وقال تعالى {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: الآية: ٢٨٥].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء: الآية: ١٣٦].

فالأنبياء وسائط بين الله–عز وجل–وبين عباده في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده، وما أخبر به عن نفسه وملائكته وغير ذلك مما كان وسيكون. وسائر الأنبياء علينا أن نؤمن بهم، مجملًا وذلك بأن كل ما أخبروا به عن الله فهو حق وأن طاعتهم فرض على من أرسلوا إليهم.

أما محمد–صلى الله عليه وسلم–فهو الذي أرسل إلينا وإلى جميع الخلق وقد ختم الله به الأنبياء وآتاه من الفضائل ما فضله به على غيره وجعله سيد ولد آدم وخصائصه وفضائله كثيرة وعظيمة لا يسعها هذا الموضع.

وقد أوجب الله علينا أن نطيعه في كل ما أوجبه وأمر به وأن نصدقه في كل ما أخبر به، كما سبق ذكر ذلك في الباب الأول من هذه الرسالة.

وهو سبحانه مع هذا كله نهانا عن الشرك بهم والغلو فيهم، وميز بين حقه تعالى وحقهم.

فقال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: الآيتان: ٧٩-٨٠]. فهذا بيان أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر مع وجوب الإيمان بهم ما لم يحصل بعبادة الأوثان، فإن الأوثان تستحق الإهانة وأن تكسر كما كسر إبراهيم الأصنام وكما حرق موسى العجل ونسفه وكما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يكسر الأصنام ويهدم صوتها وقد قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: الآية: ٩٨]. فإهانتها من تمام التوحيد والإيمان.

والملائكة والأنبياء بل الصالحون يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء. مع أنه يحرم الغلو فيهم والشرك بهم، فلهذا صار بعض الناس يزيد في التعظيم على ما يستحقونه فيصير شركا، وبعضهم يقصر عما يجب لهم من الحق فيصير فيه نوع من الكفر.

والصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو القيام بما أمر الله به ورسله في هذا وهذا.

والله تعالى يميز حقه من حق غيره ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ((يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد)).

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: ((أن يعبدوه ولا شركوا به شيئا، أتدرى يا معاذ ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟)). قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((أن لا يعذبهم)). (1)

وقد قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص: الآيتان: ٧٤-٧٥].

---

(1) أخرجه البخاري (2856)، ومسلم (30) باختلاف يسير.

فالرسل كلهم نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم يبينون أن العبادة والتقوى حق لله وحده، وحق الرسل طاعتهم.

قال نوح عليه السلام {يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ} [نوح: الآيتان: ٢-٣].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: الآيات: (٦٥- ٧٣- ٨٥)].

وقال تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}. [الشعراء: الآيات: ١٠٥-١٠٨].

وكذلك قال سائر الرسل هود وصالح وشعيب كل يقول {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء الآيات: ١٢٦-١٣١-١٤٤-١٦٣-١٧٩].

وكذلك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: الآية: ٥٢].

فجعل الطاعة لله والرسول. وجعل الخشية والتقوى لله وحده.

وقال تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: الآية: ٩].

فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول، وتعزيره، نصره ومنعه.

والتسبيح بكرة وأصيلا لله وحده، فإن ذلك من العبادة لله وحده والعبادة هي لله وحده.

وقال تعالى: { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} [النحل: الآيتان: ٥١-٥٢]. فأنكر سبحانه أن يتقى غيره كما أمر أن لا يرهب إلا إياه.

وقال تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [البقرة: الآية: ١٥٠].

وقال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}. [التوبة: الآية: ١٨]. فقد أمر الله تعالى في غير موضع بأن يخشى ويخاف ولا يخشى ويخاف غيره. وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}. [التوبة: الآية: ٥٩].

ففي الإيتاء قال {مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} كما قال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: الآية: ٧]، لأن الحلال ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله.

فما أعطاه الرسول للناس فهو حقهم بالقول والعمل كالفرائض التي قسمها الله وأعطى كل ذي حق حقه وكذلك من الفيء والصدقات ما أعطى فهو حقه، وما أباحه له فهو مباح، وما نهاه

عنه فهو حرام عليه فلهذا قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ } [التوبة: الآية: ٥٩]، ولم يقل هنا ورسوله لأن الله تعالى وحده حسب عبده أي كافيه. لا يحتاج الرب في كفايته إلى أحد لا رسول ولا نبي، ولهذا لا تجئ هذه الكلمة إلا الله وحده كقوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: الآية: ١٧٣].

وقال تعالى: {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: الآية: ١٢٩].

وقال تعالى {وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: الآية: ٦٢]. إلى قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: الآية: ٦٤]. أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين كما قاله جمهور أهل العلم. ومن قال إن الله ومن اتبعك حسبك فقد غلط، ولم يجعل الله وحده حسبه بل جعله وبعض المخلوقين حسبه، وهذا مخالف لسائر آيات القرآن.

وقال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: الآية: ٣٦]. فهو وحده كاف عبده، وقال تعالى {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: الآية: ٣].

فلهذا قال تعالى {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} [التوبة: الآية: ٥٩]، ولم يقل ورسوله ثم قال {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: الآية: ٥٩]، ولم يقل ورسوله بل جعل الرغبة إلى الله وحده كما قال { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب} [الشرح: الآيتان: ٧-٨].

فالرغبة تتضمن التوكل وقد أمر أن لا نتوكل إلا عليه كقوله {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا} [المائدة: الآية: ١١١]، وقوله {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: الآية: ٩٩].

فالتوكل على الله وحده، والرغبة إليه وحده، والرهبة منه وحده.

ليس لمخلوق لا الملائكة ولا الأنبياء في هذا حق كما ليس لهم حق في العبادة ولا يجوز أن نعبد إلا الله وحده ولا نخشى ولا نتقى إلا الله وحده كما قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ

اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: الآية: ٢].

فإذا قال القائل لا يجوز التوكل إلا على الله وحده، ولا العبادة إلا لله وحده ولا يتقى ولا يخشى إلا الله وحده لا الملائك ولا الأنبياء ولا غيرهم كان هذا تحقيقا للتوحيد.

ولم يكن، هذا سبا لهم ولا تنقصا بهم ولا عيبا لهم وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كل مخلوق. ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق.

والملائكة والأنبياء كلهم عباد الله يعبدونه كما قال تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} [النساء: الآية: ١٧٢].

وقال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ

مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: الآيات: ٢٦-٢٩].

فإذا نفي عن مخلوق ملك أو نبي أو غيرهما ما كان من خصائص الربوبية وبين أنه عبد الله كان هذا حقا واجب القبول، وكان إثباته إطراء للمخلوق فإن دفعه عن ذلك كان عاصيا بل مشركا.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله)). (1)

فالله تعالى قد وصفه بالعبودية حين أرسله، وحين تحدى، وحين أسرى به فقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} [الجن: الآية: ١٩].

وقال تعالى {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا} [البقرة: الآية: ٢٣].

---

(1) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وقال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ} [الإسراء: الآية: ١].

وأهل الباطل يقولون لمن وصفهم بالعبودية إنه عابهم وسبهم ونحو ذلك.

ولهذا لما سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب-رضي الله عنه- ما تقول في المسيح عيسى؟ فقال: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه رفع النجاشي عودًا وقال: ما زاد المسيح على ما قلت هذا العود فنخرت بطارقته. (1) فقال: "وإن نخرتم". (2)

---

(1) أي تكلمت، وكأنه كلام مع غضب ونفور. النهاية (٥/ ٣٢).

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٠١-٢٠٣) (٥/ ٢٩٠-٢٩٢) . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤-٢٧) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٩٣-٢٩٥). وهو في سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٩-٢٩١).

فهم يجعلون قول الحق في المخلوق سبا له، وهم يسبون الله ويصفونه بالنقائص والعيوب كما في الحديث عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، قال: ((يقول الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. أما تكذبه إياي أن يقول: إني لن أعيده كما بدأته، وأما شتمه إياي أن يقول: اتخذ الله ولدا، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد)). (1)

فقد أخبر سبحانه أن هؤلاء يسبونه، وقد كان معاذ بن جبل يقول عن النصارى: "لا ترحموهم فقد سبوا الله سبة ما سبه إياها أحد من البشر". وهذا نظير ما ذكره الله تعالى عن المشركين

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ... } الآية (٦/٢٨٧) (ح: ٣١٩٣)، وكذلك في كتاب التفسير، تفسير سورة الإخلاص. انظر فتح الباري (٨/٧٣٩) (ح: ٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

بقوله {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ} [الأنبياء: الآية: ٣٦].

فكانوا ينكرون على محمد عليه السلام أن يذكر آلهتهم بما تستحقه وهم يكفرون بذكر الرحمن ولا ينكرون ذلك كما قال تعالى {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: الآية: ١٠٨].

وهكذا من فيه شبهه من اليهود والنصارى والمشركين تجده يغلو في بعض المخلوقين من المشايخ والأئمة والأنبياء وغيرهم وإذا ذكروا بما يستحقونه أنكر ذلك ونفر منه وعادى من فعل ذلك وهو وأصحابه يستخفون بعبادة الله وحده وبحقه وبحرماته وشعائره ولا ينكر ذلك. ويحلف أحدهم بالله ويكذب ويحلف بمن يعظمه ويصدق ولا يستجيز الكذب إذا حلف به. وهؤلاء من جنس النصارى والمشركين وكذلك قد يعيبون من نهي عن شركهم كالحج إلى القبور التي يحجون إليها عادة وهم يستخفون بحرمة الحج إلى بيت الله ويجعلون الحج إلى القبور أفضل منه. وقد ينهون عن الحج اعتياضا إلى القبور ويقولون هذا الحج الأكبر.

ويرون النهي عن الحج إلى قبور الأنبياء والصالحين إخلالا بحقهم ومعاداة لهم ونحو ذلك.

وهم لا يرون الشرك بالله ودعاء غيره واتخاذ عباده من دونه أولياء إخلالا بحقه ومعاداة له.

ومعلوم أن المشركين من أعظم أعداء الله عز وجل قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: الآيات: ١-٤] فأمر بالتأسي بإبراهيم ومن معه لما تبرءوا من المشركين وما يعبده المشركون،

وأظهروا لهم العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده. فالمشرك والآمر بالشرك والراضي به معاد لله، ومن عادى الله فقد عادى أنبياءه وأولياءه.

وأما من أمر بما جاءت به الرسل فلم يعادهم ولم يعاندهم قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: الآيات: ١-٦].

وهنا موضع يشكل على بعض الناس وذلك أنه قال عليه السلام في الحديث الصحيح: "

أصدق كلمة قد قالها شاعر كلمة لبيد

ألا كل شيء ما خلا الله باطل. (1)

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية فتح الباري (٧/ ١٤٩) (ح: ٣٨٤١). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر (٧/ ٤٩).

وذلك مثل قوله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: الآية: ٦٢].

فالمراد بالباطل: ما لا ينفع، وكل ما سوى الله لا تنفع عبادته، وهذا يدخل فيه كل ما عبد من دون الله من الملائكة والأنبياء وهؤلاء قد سبقت لهم من الله الحسني فكيف يدخلون في الباطل؟.

وكذلك قوله: {فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ} [يونس: الآية: ٣٢]..

فيقال: إن المراد عبادتهم والعمل لهم باطل، وقد يقال عن الشيء أنه لا شيء لانتفاء المقصود منه ليس بشيء وكما قال صلى الله عليه وسلم عن الكهان لما سئل عنهم فقال: "ليسوا بشيء" فقالوا إنهم يحدثون أحيانا الشيء يكون حقا، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة

كذبة)). (1) فهم ليسوا بشيء: أي لا ينتفع بهم فيما يقصد منهم، وهو الاستخبار عن الأمور الغائبة لأنهم يكذبون كثيرا فلا يدرى ما قالوه أهو صدق أم كذب. وهم مع ذلك موجودون يضلون ويضلون.

فقوله: "ليس بشيء" مثل قوله: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" وقوله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: الآية: ٦٢]، فهو من جهة كونه معبودا باطل لا ينتفع به ولا يحصل لعابده مقصود العبادة وإن كان من جهة أخرى هو شمس وقمر ينتفع بضيائه ونوره وهو يسجد لله ويسبحه. وكذلك الملائكة والأنبياء إذا نفي عنهم كونهم آلهة معبودين وتبين أن عبادتهم عمل باطل لا ينتفع به، لم ينف ذلك ما يستحقونه من الإجلال والإكرام وعلو قدرهم عند الله تعالى.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٧/ ٣٦).

والتبري من عبادتهم وكونهم معبودين، لا من موالاتهم والإيمان بهم وقولهم {إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: الآية: ٤]، أي ومن عبادتهم ومن كونهم معبودين كما قال الخليل عليه السلام: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: الآية: ٧٨]، فهو بريء من كل شريك لله من جهة كونه جعل شريكا وندا لله ولم يبرأ منه من جهات أخرى.

فإبراهيم لم يبرأ من الشمس والقمر والكواكب من جهة كونها مسخرة لمنافع العباد وكونها تسجد لله وتسبحه وكونها من آياته العظيمة بل من جهة كونها

شركاء لله. أما الأوثان ونحوها فتعادى مطلقا. والشمس والقمر والملائكة والكواكب تعادى عبادتها وكونها آلهة معبودة فتبغض من هذه الجهات وتعادى، مع وجوب الإيمان بالملائكة وإذا قيل للنصارى نحن براء من شرككم ومما تعبدون من دون الله. وقد قال تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة: الآية: ٧٦]. هذا بعد قوله: {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المائدة: الآية: ٧٥].

فالبراءة من كل معبود سوى الله كالبراءة من كل إله سوى الله، وذلك براءة من الشرك ومن كل ما سوى الله معبودا، وليس هو براءة من المسيح من جهة كونه رسولا كريما وجيها عند الله، بل براءة مما قيل فيه من الباطل لا من الحق. والمسيح والملائكة وغيرهم يتبرؤن ممن عبدوهم ويعادونهم ولا يوالونهم قال الله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}. [سبأ: الآيات: ٤٠-٤١].

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} [الفرقان: الآيات: ١٧-١٨].

وقال تعالى {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ} [الكهف: الآية: ١٠٢]، وقال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الشورى: الآية: ٩].

وقال تعالى {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام: الآية: ١٤].

وهو سبحانه لم ينه عن موالاتهم فمن أحبهم ووالاهم فهو موحد ومن جعلهم أندادا أحبهم كما يحب الله فهو مشرك كافر. فالحب لله توحيد وإيمان. والحب كما يحب الله شرك وكفر.

وكذلك الشفاعة قال تعالى: {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} [السجدة: الآية: ٤].

وقال تعالى {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: الآية: ٢٥٥].

فتبين أنه لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء ولا غيرهم إلا لمن أذن له حتى ((إذا قضى بالأمر ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله تعالى كأنه سلسلة على صفوان)) (1) وصعقوا فلا يعلمون ما قال: {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: الآية: ٢٣]، فحينئذ يعلمون ما قضى به، فكيف يضفعون بدودت إذنه؟

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة سبأ، باب (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) . فتح الباري (٨/ ٥٣٧-٥٣٨) (ح: ٤٨٠٠).

قال الله تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: الآيتان: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} [الزمر: الآية: ٤٣].

وأوجه الشفعاء وأول شافع يوم القيامة محمد-صلى الله عليه وسلم-وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أحاديث الشفاعة أن الناس يوم القيامة إذا ذهبوا إلى آدم ليشفع لهم يردهم إلى نوح ونوح إلى إبراهيم وإبراهيم إلى موسى وموسى إلى المسيح والمسيح إلى محمد-صلى الله عليهم وسلم أجمعين-فيقول اذهبوا إلى محمد فإنه عبد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال صلى الله عليه وسلم ((فيأتوني فأذهب إلى ربي فإذا رأيت ربي خررت ساجدا وأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن وحينئذ فيقول الله تعالى "أي محمد ارفع رأسك، وقل يسمع،

وسل تعطه واشفع تشفع" قال فأقول: أي رب أمتي فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة)) وكذلك ذكر في الثانية والثالثة. (1)

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قلت: يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ " الحديث إلى أن قال–صلى الله عليه وسلم–: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)). (2)

فقد بين أوجه الشفعاء أنه إذا أتى يبدأ بالسجود لله والحمد لله لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له فإن أذن له فحينئذ يشفع، فإذا شفع حد له حدا فيدخلهم الجنة، وبين أن أولى الناس بشفاعته من كان أعظم إخلاصا وتوحيدا لا من كان سائلا وطالبا منه أو من غيره. فالأمر كله لله وحده لا شريك له هو الذي يأذن في الشفاعة وهو الذي يقبل شفاعة الشفيع فيمن يختار قال

---

(1) أخرجه البخاري (7510).

(2) أخرجه البخاري (99).

تعالى {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: الآية: ٦٨].

فالذين يخالفون شريعة الأنبياء ويغلون فيهم ويقولون إنهم يحبونهم ويوالونهم ويعظمونهم بذلك، فالأنبياء يتبرءون منهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم بريء من عمل يخالف أمره وسنته قال الله تعالى {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: الآية: ٢١٦].

ولا ينفع من عصى الرسول أن يقول قصدي تعظيمهم فإنه إنما أمر بطاعتهم ولم يأمر أن يعبد الله بالظن وما تهوى الأنفس، قال الله تعالى {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة: الآيتان: ١١٦-١١٧].

فقد أخبر أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به أن يعبدوا الله وحده وكذلك سائر الانبياء قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية: ٢٥].

وهو سبحانه انما يعبد بما شرع من الدين، لا يعبد بما شرع من الدين بغير إذنه فإن ذلك شرك قال الله تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى: الآية: ٢١].

وقال تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى: الآية: ١٣]. والدين الذي شرعه إما واجب أو مستحب فكل من عبد عبادة ليست واجبة في شرع الرسول ولا مستحبة كانخا من الشرك والبدع، وكلما تدبر الإنسان ما أمر به وشرعه تبين له أنه جمع في شرعه بين كمال توحيد الرب وإخلاص الدين له.

وبين كمال طاعة الرسل وتعزيرهم ومحبتهم وموالاتهم ومتابعتهم فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أتبعهم للرسول باطنا وظاهرا صلى الله عليه وسلم تسليما. (1)

فهذا هو صراط الله المستقيم قال تعالى {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: الآية: ١٥٣].

ولما أمرنا الله أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين. كان ذلك

(1) الرد على الأخنائي (ص: ٣٣٣- ٣٨٨) بتصرف.

مما لحين أن العبد يخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريقين. (1) والمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى. (2)

وقد افترق اليهود والنصارى في شأن الأنبياء، فاليهود جفوا عنهم فكذبوهم وقتلوهم كما أخبر الله عنهم بقوله {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة: الآية: ٨٧]، والنصارى غلوا فيهم فأشركوا بهم حتى كفروا بالله تعالى قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا

---

(1) مجموع الفتاوى (١/ ٦٥).

(2) كتاب الله يدل على ذلك فقد قال الله في حق اليهود {فباءوا بغضب على غضب}، وقال في النصارى {قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} .

خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء: الآية: ١٧١].

فبالإيمان بهم وتصديقهم وطاعتهم يخرج المسلم عن مشابهة اليهود وبعبادة الله وحده والاعتراف بأنهم عباد الله لا يجوز اتخاذهم أربابا إلا اك ك بهم والغلو فيهم يخرج عن مشابهة النصارى.

فإن اتخاذهم أربابا كفر تال الله تعالى {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: الآية: ٨٠]، والنصارى يشركون بمن دون المسيح من الأحبار والرهبان قال تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [التوبة: الآية: ٣١]، فمن غلا فيهم واتخذهم أربابا فهو كافر.

ومن كذب شيئا مما جاؤا به أو سبهم أو عابهم أو عاداهم فهو كافر.

فلابد من رعاية هذا الأصل. (1)

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم ففيه شبه من اليهود كما ترى في أحوال منحرفة أهل العلم من تحريف الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب، والبخل بالعلم وغير ذلك.

ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى كما ترى في منحرفة أهل العبادة من الغلو في الأنبياء والصالحين وغير ذلك. (2)

والغلو في هذه الأمة وقع في طائفتين:

---

(1) الرد على الأخنائي (ص: ٣٢٤-٣٢٥).

(2) مجموع الفتاوى (١/ ٦٥) بتصرف.

الطائفة الأولى: طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية.

الطائفة الثانية: طائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين. (1)

فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئا من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى.

وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل {وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [المائدة: الآية: ١٢].

والتعزير: النصر والتوقير والتأييد.

---

(1) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٩٢) والرد على البكري (ص: ١٠٥، ١٠٦).

وقال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: الآيتان: ٨-٩]. فهذا في حق الرسول، ثم قال في حق الله تعالى {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: الآية: ٩].

وقال تعالى {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية: ١٥٧].

وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: الآية: ٣١].

وقال تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران: الآية: ٣٢]، وذكر طاعة الرسول في أكثر من ثلاثين موضعا.

وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية: ٥٦].

وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا} [التوبة: الآية: ٢٤]، فقد بين الله في كتابه حقوق الرسول من الطاعة له، ومحبته، وتعزيره، وتوقيره، ونصره، وتحكيمه، والرضى بحكمه، والتسليم له واتباعه والصلاة والتسليم عليه، وتقديمه على النفس والأهل والمال، ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق.

وأخبر أن طاعته طاعته فقال: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: الآية: ٨٠]، ومبايعته مبايعته فقال {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: الآية: ١٠].

وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال {أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: الآية: ٢٤]، وفي الأذى فقال {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأحزاب: الآية: ٥٧]، وفي الطاعة والمعصية فقال {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [النساء: الآية: ١٣]، {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [النساء: الآية: ١٤]، وفي الرضا فقال {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [التوبة: الآية: ٦٢].

فهذا ونحوه هو الذي يستحقه رسول الله بأبي هو وأمي.

فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له كما قال {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: الآية: ٣٦].

ج- نماذج من الغلو في حق النبي-صلى الله عليه وسلم-.

١-ما يسمى بـ (الحقيقة المحمدية) :

وهي أسطورة من أساطير الصوفية، نسجها خيالهم المريض، وأوهامهم الفاسدة، فهي كذبة ليس لها رصيد من الواقع، بل هي مناقضة تماما لما أخبر به الله تعالى وقرره في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. أما عن فحوى هذه الأسطورة فيقول قائلهم:"اعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من أنواره ثم سلخ منها العوالم كلها علوها

وسفلها ... ثم انبخست منه-صلى الله عليه وسلم-عيون الأرواح فهو الجنس العالي على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات". (1)

ويقول آخر: "اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأراضين وجنات وحجبا وما فوقها وما تحتها إذا اجتمعت كلها وجدت بعضا من نور النبي، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت". (2)

وفي هذا يقول شاعرهم:

أنشاك نورا ساطعا قبل الورى ... فردا لفرد، والبرية في عدم

ثم استمد جميع مخلوقاته ... من نورك السامي، فيا عظم الكرم

---

(1) الأنوار المحمدية (ص: ٩).
(2) هذه هي الصوفية (ص: ٨٧).

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم ... في هذه الدنيا، وفي اليوم الأهم

وإذا دعتهم كربة فرجتها ... حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم. (1)

وهذا الزعم الباطل تضمن ثلاث دعاوى كلها كذب وافتراء.

الدعوى الأولى: دعوى أن النبي صلى الله عليه وسلم خلق من نور رب العالمين.

الدعوى الثانية: أنه وجد قبل خلق آدم.

الدعوى الثالثة: أن الأشياء خلقت منه.

وكل دعوى من هذه الدعاوى هي أكذب من أختها، وقد قال بها جميعا بعض الغلاة المنتسبين إلى الإسلام مضاهاة لقول النصارى في عيسى، ويروون في ذلك أحاديث، وكلها كذب، فمن

(1) الأبيات لأحمد بن عبد المنعم الحلواني من قصيدته المستجيرة (نقلا عن كتاب هذه الصوفية) (ص: ٨٧).

هؤلاء الغلاة من يروى عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: "من قال إني كلى بشر فقد كفر، ومن قال لست ببشر فقد كفر" وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث. (1)

ومنهم من يروى عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-، قال: "قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأراضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٢٠٠- ٢٠١) بتصرف.

الرابع أربع أجزاء، فخلق من الأول أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله تعالى، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله". (1)

وهذا الحديث باطل قال عنه السيوطي: "ليس له إسناد يعتمد عليه". (2)

ولا يخفي على من له أدني معرفة بنصوص القرآن والسنة ما في هذا الخبر المكذوب من المخالفات والمغالطات، ولا يشك طالب علم في وضعه واختلاقه. وكذلك مما يرونه "كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "هذا مما لا أصل له لا من نقل ولا من عقل فإن أحدًا من المحدثين لم يذكره، ومعناه باطل فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط فإن الطين ماء وتراب، وإنما كان بين الروح والجسد.

---

(1) الرد على البكري (ص: ٨-٩).
(2) الحاوي للفتاوى (١/ ٣٢٥).

ثم هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبي-صلى الله عليه وسلم-كان حينئذ موجودا وأن ذاته خلقت قبل الذوات، ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة مثل حديث فيه "أنه كان نورًا حول العرش، فقال: يا جبريل أنا كنت ذلك النور". (1)

ومن العجيب أن كثيرًا من الناس صاروا يتناقلون مثل هذه الأخبار المفتراة حتى أصبحت عندهم عقيدة راسخة في قلوبهم.

ومما يبين كذب هذه الدعاوى ويظهر زيفها مخالفتها لنصوص الكتاب والسنة.

فقد أخبرنا عز وجل عن أصل ما خلق منه الإنس والجن فقال تعالى { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}. [الرحمن: الآيتان: ١٤-١٥].

والنبي صلى الله عليه وسلم بشر خلق مما خلق منه باقي البشر فلا ميزة له في هذا الشأن عن باقي البشر قال تعالى {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا} [الإسراء: الآية: ٩٣].

---

(1) الأنوار المحمدية (ص: ١٣).

وقال تعالى {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ}. [الأحقاف: الآية: ٩].

والآيات في هذا الشأن، وفي شأن خلق السموات والأرض وكذا الأحاديث الثابتة كثيرة وكلها تخالف هذا الخبر المذكور وتبين زيفه وبطلانه. (1)

ب- دعوى أن الدنيا خلقت من أجل النبي-صلى الله عليه وسلم-:

وفي هذا يقول قائلهم

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة // من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم (2)

وقول الآخر ممن هو من نقطة وشكله

لولاه ما خلقت شمس ولا قمر // ولا نجوم ولا لوح ولا قلم (3)

---

(1) انظر في هذا الشأن رسالة تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق.

(2) ديوان البوصيري (ص: ٢٤٠) . تنبيه الحذاق (ص: ٢٧).

(3) تنبيه الحذاق (ص: ٢٧).

ويستند هؤلاء على أحاديث موضوعة وأخبار مكذوبة منها حدثا "لولاك ما خلقت الأفلاك" وهو موضوع. (1)

وعن ابن عباس–رضي الله عنهما–، قال: أوحى الله إلى عيسى يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت جنة ولا نار ... ". (2)

وهذه الأحاديث الموضوعة وأمثالها لا يمكن أن يعول عليها في إثبات أمر شرعي كهذا.

---

(1) لا أصل له مرفوعًا إنما أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٤، ٦١٥) من طريق عمرو بن أوس الأنصاري ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: فذكره موقوفًا وقال: "صحيح الإسناد" وتعقبه الذهبي بقوله "أظنه موضوعًا على سعيد".
وقد قال الذهبي في الميزان (٣/ ٢٤٦) عند ترجمته لعمرو بن أوس الذي روى هذا الحديث عن سعيد ما نصه: "عمرو بن أوس يجهل حاله أتى بخبر منكر، أخرجه الحاكم في مستدركه، وأظنه موضوعًا من طريق جندل بن والق" ثم ذكر نص هذا الحديث. ووافقه ابن حجر في اللسان (٤/ ٣٥٤) ..

(2) . قاله الصغاني في الأحاديث الموضوعة (ص: ٧) ، وانظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني (ص: ٣٢٦) وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم: (٢٨٢).

أضف إلى ذلك مخالفتها للشرع فالذي تدل عليه النصوص الشرعية أن الله عز وجل إنما خلق الجن والإنس لغاية ذكرها في القرآن الكريم حيث قال عز وجل {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. [الذاريات: الآية: ٥٦].

قال ابن كثير: "ومعني الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه عذبه أشد العذاب". (1) وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}. [هود: الآية: ٧].

وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}. [الملك: الآية: ٢].

وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}. [الكهف: الآية: ٧].

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٨).

فصرح-جل وعلا-في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق هي اختبارهم وابتلاؤهم ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

فهذه هي الحكمة من خلقهم أولًا وبعثهم ثانيًا. (1)

والنصوص من آيات وأحاديث كلها تؤكد هذا الأمر وتدل عليه، وفي الوقت نفسه تبطل ما زعمه الغلاة من أن الغاية من خلق الخلق هي من أجل محمد-صلى الله عليه وسلم-.

فهذه الدعاوى يعرف بطلانها من له أدنى بصيرة في نصوص الشرع؛ والنبي-صلى الله عليه وسلم-قد أعطاه الله خصائص وفضائل كثيرة تدل على فضله ومكانته، فليس هو بحاجة إلى أن ترفع مكانته ويبين شرفة بمثل هذه الأخبار الباطلة الموضوعة.

ش- دعوى الغلاة: جواز صرف بعض جوانب العبادة له-صلى الله عليه وسلم-:

(1) انظر: أضواء البيان (٧/ ٦٧٣- ٦٧٧).

وقد تفنن الغلاة في هذا

"فمن قائل يقول إنه يستغاث به في كل يستغاث فيه بالخالق بمعني أنه يطلب منه كما يطلب من الخالق.

فهؤلاء جعلوا الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله تعالى.

فآذوا الرسول وأساؤا في حقه إذ سألوه ما لا يقدر عليه مخلوق وسووه برب العالمين وسلطوا عليه العامة، فهذا يطلب منه إنزال المطر، وهذا يطلب منه غفران الذنوب، وهذا يطب منه النصر على الأعداء، وهذا يطلب منه أن يتزوج، وهذا يطلب منه الولد.

وهذا يطلب منه المعيشة وهذا يطلب منه الملك، وهذا يطلب منه الولاية، وهذا يطلب منه قضاء دينه، وهذا يطلب منه شفاء مريضه إلى غير ذلك من الأمور فنزلوا المخلوق منزلة الإله وطلبوا منه من جلب المنافع ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله". (1)

(1) الرد على البكري (ص: ٣٣٥-٣٣٦) بتصرف.

ومن نظم بعضهم في هذا قوله:

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم

فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذم

إن لم يكن في معادى آخذا بيدي ... فضلا وإلا فقل يا زلة القدم. (1)

فنفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث، إلا النبي-صلى الله عليه وسلم-وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا إياه سبحانه وتعالى.

ودعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك الشرك في الإلهية. (2)

---

(1) ديوان البوصيري (ص: ٢٤٨).

(2) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٧).

ومن شعر بعضهم قوله:

ماذا تعامل يا شمس النبوة من ... أضحى إليك من الأشواق في كبدي

فامنع جناب صريع لا صريخ له ... نائي المزار غريب الدار مبتعدي

حليف ودك واه الصبر منتظر ... لغارة منك يا ركني ويا عضدي

أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل ... أرجو النجاة به إن أما لم تجد

وجرى في شركه والى أن قال:

وحل عقدة كربي يا محمد من ... هم على خطرات القلب مطرد

أرجوك في سكرات الموت تشهدني ... كيما يهون إذ الأنفاس في صعد

وإن نزلت ضريحا لا أنيس به ... فكن أنيس وحيد فيه منفرد

وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن ... يليه من أجله وانعشه وافتقد

وإن دعا فأجبه واحم جانبه ... من حاسد شامت أو ظالم نكد

وقوله من أخرى:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا ... بهجة الحشر جاها ومقاما

عد على عبد الرحيم الملتجى ... بحمى عزك يا غوث اليتامى

وأقلني عثرتي يا سيدي ... في اكتساب الذنب في خمسين عاما

وقوله:

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ... ويا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني

هبني بجاهك ما قدت من زلل ... جودا أو رجح بفضل منك ميزاني

واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... من الخطوب ونفسه كل أحزاني

فأنت أقرب من ترجى عواطفه ... عندي وإن بعدت دارى وأوطاني

إني دعوتك من نيابتي برع ... وأنت اسمع من يدعوه ذو شأن

فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي ... برحمة وكرامات وغفران

لقد أنسانا هذا ما قبله، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها، وترك الاسم، إذ في الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعني دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوى العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى عليه السلام كفر، فلو أتاهم بدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعى وإضرابه، وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندرى ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب، فالله المستعان. (1)

(1) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٩-١٩٠).

ويقول صاحب المواهب اللدنية: وينبغي للزائر -لقبره- أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل والتوجه به لا فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه فإن كلا من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه للنبي-صلى الله عليه وسلم-واقع في كل حال كل خلقه وبعده في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة. (1)

ومن هؤلاء من يرى أن زيارة قبر النبي-صلى الله عليه وسلم-أفضل من الحج إلى الكعبة وأن دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم-والاستغاثة به أفضل من الاستغاثة بالله تعالى ودعائه. (2)

ومنهم من يظن أن الرسول يعلم ذنوبه وحوائجه وإن لم يذكرها وأنه يقدر على غفرانها وقضاء حوائجه ويقدر على ما يقدر عليه الله ويعلم ما يعلمه الله". (3)

---

(1) انظر الأنوار المحمدية (ص: ٦٠٤).
(2) الرد على البكري (ص: ٣٤٩).
(3) الرد على البكري (ص: ٣٠).

ومنهم من يقول "إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه زمان ولا مكان" يريدون بذلك أنه ما من زمان إلا وهو فيه موجود، ولا من مكان إلا هو فيه موجود. (1)

ومنهم من يقول: "إنه يحضر في كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه وأنه يتصرف حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته". (2)

ومنهم من يقول في قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: الآيتان: ٨-٩].

يقول: إن الرسول هو الذي يسبح بكرة وأصيلا.

ومنهم من يقول: اسقط الربوبية وقل في الرسول ما شئت.

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

---

(1) غاية الأماني (١/ ٤٨).
(2) هذه هي الصوفية (ص: ٨١).

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم. (1)

ومنهم من يقول نحن نعبد الله ورسوله فيجعلون الرسول معبودًا. (2)

بل لم يكتف غلاة الصوفية بهذا القدر حتى اعتقدوا أنه هو الله سبحانه ذاتًا وصفة. (3)

وكتب أصحاب البدع وعباد القبور مملؤة بالكثير من أنواع هذا الغلو وألوانه والذي لا يشك الموحد بكذبه وبطلانه.

---

(1) ديوان البوصيري (ص: ٢٤١).

(2) الرد على البكري (ص: ٢١٩).

(3) هذه هي الصرفية (ص: ٧٤- ٧٥).

[الإيمان بالله]

المسألة الأولى: تعريف التوحيد.

أولًا: التعريف اللغوي لكلمة التوحيد عند أهل السنة.

ثانيًا: التعريف الشرعي للتوحيد عند أهل السنة.

المسألة الثانية: الأدلة على التوحيد:

أولًا: الأدلة من القرآن.

ثانيًا: الأدلة من السنة.

ثالثًا: كلام السلف.

المسألة الثالثة: أقسام التوحيد عند أهل السنة.

الأمر الأول: هل تقسيم التوحيد استقرائي أم اصطلاحي.

الأمر الثاني: تقسيمات التوحيد عند أهل السنة.

الأمر الثالث: الرد على شبهة من أنكر تقسيم التوحيد.

الأمر الرابع: العلاقة بين أقسام التوحيد

[٣]- قال المصنف رحمه الله-: "وأنه يؤمن بالله".

يقصد بالإيمان بالله توحيده-عز وجل-ويمكن توضيح ذلك من المسائل الآتية:

المسألة الأولى: تعريف التوحيد

أولًا: التعريف اللغوي لكلمة التوحيد عند أهل السنة.

١-أصلها: أصل هذه الكلمة من "وحد".

قال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): "(وحد) الواو، والحاء، والدال: أصل واحد يدل على الانفراد". [1]

٢-تصريفها: التوحيد: مصدر خماسي مشتق من الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه(وحد)، فالحاء هنا مشددة، فهو ثلاثي لكنه من حيث عد الأحرف أربعة أحرف، فيقال: وحد يوحد توحيدًا، والتوحيد مصدر تفعيل، فعل يفعل تفعيلا، مثل علم يعلم تعليما، خرج يخرج تخريجا، إذا التفعيل يكون مصدرا للفعل الماضي الثلاثي المضعف العين. 2

فهي على وزن تفعيل، ويعني: الحكم والعلم بأن الشيء واحد.

---

1 معجم مقاييس اللغة لابن فارس (6/ 90).

2 شرح كتاب التوحيد للحازمي (2/ 8).

قال ابن منظور-رحمه الله-(ت: ٧١١ هـ): "التوحيد: مصدر من: وحد يوحد توحيدًا؛ إذا أفرده وجعله واحدًا". [1]

وقال أبو القاسم التيمي-رحمه الله-(ت: ٥٣٥ هـ): "التوحيد على وزن التفعيل، وهو مصدر وحَّدته توحيدًا...، ومعنى وحدته: جعلته منفردا عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته...، فالله تعالى واحد، أَي: منفرد عن الأنداد والأشكال فيجميع الأحوال". [2]

٣-اشتقاقها: التوحيد مشتق من وحد الشيء أي: جعل الشيء واحداً.

٤-معناها: مادة "وحد" في اللغة مدارها على انفراد الشيء، فإذا قلت: توحيد الله: فالمعنى إفراد الله.

المقصود من التفعيل: النسبة كالتصديق لا للجعل، فمعنى وحدت الله: نسبته إلى الوحدانية لا جعلته واحدًا. [3]

---

1 لسان العرب لابن منظور (3/ 448).

2 الحجة في بيان المحجة (1/ 332).

3 انظر: لوامع الأنوار للسفاريني (1/ 56-57).

لأن وحدانيته: صفته، وليست بجعل جاعل، أما التوحيد فهو فعل المكلف، ولذلك جاء في القاموس: "التوحيد: إيمان بالله وحده". [1]

وقال الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ): "التوحيد في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد". [2]

ثانيًا: التعريف الشرعي للتوحيد عند أهل السنة.

فهو: إفراد الله -تعالى- بما يختص به من الألوهية والربوبية والأسماء والصفات". [3]

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي-رحمه الله-(ت: ١٧٠ هـ): "التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو التوحد والوحدانية". [4]

---

1 القاموس المحيط (ص: 414) مادة: (وحد).

2 التعريفات للجرجاني (ص: 69).

3 القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن عثيمين (11/1).

4 العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (3/ 281).

وقال ابن منظور–رحمه الله–(ت: ٧١١ هـ): "التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الواحد الأحد: ذو الوحدانية والتوحد". [1]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) عن توحيد الرسل إنه "يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا هو، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات". 2

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ): "التوحيد الذي بعث الله به رسله هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وذلك يتضمن **التوحيد بالقول والاعتقاد وبالإرادة والقصد**". [3]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ): "والتوحيد الذي جاء به الرسول يتناول:

١–**التوحيد في العلم والقول** وهو وصفه بما يوجب أنه في نفسه أحد صمد لا يتبعض ويتفرق فيكون شيئين وهو واحد متصف بصفات تختص به ليس له فيها شبيه ولاكفؤ.

---

1 لسان العرب لابن منظور (3/ 450).

2 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (224/1)، وانظر: الصفدية لابن تيمية (2/ 228).

3 بيان تلبيس الجهمية (4/ 123).

٢-و**التوحيد في الإرادة والعمل** وهو عبادته وحده لا شريك له". [1]

وقال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "توحيد الرسل: إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل، وعبادته وحده لا شريك له، فلا يجعل له ندًا في قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا لفظ ولا حلف ولا نذر، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته". [2]

وقال محمد بن أحمد السفاريني-رحمه الله-(ت: ١١٨٨هـ): التوحيد:"إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا". [3] والمعبود هو الله وحده.

وقال محمد بن صالح بن عثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "التوحيد: إفراد الله-سبحانه-بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات". [4]

---

1 بيان تلبيس الجهمية (3/ 140-141).

2 الروح لابن قيم الجوزية (ص: 386)، وانظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية (3/ 933)، مدارج السالكين إلى منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية (3/ 459).

3 لوامع الأنوار (1/ 57).

4القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن عثيمين (1/ 11).

وقال صديق حسن خان-رحمه الله-: "التوحيد: إفراد الله بما تفرد به، وبما أمر أن يفرد به؛ فنفرده في ملكه وأفعاله فلا رب سواه ولا شريك له، ونفرده في ألوهيته فلا يستحق العبادة إلا هو، ونفرده في أسمائه وصفاته فلا مثيل له في كماله ولا نظير له". [1]

المسألة الثانية: الأدلة على التوحيد:

أولًا: الأدلة من القرآن:

القرآن كله دعوة للتوحيد ويوضح ذلك قول ابن القيم-رحمه الله-(٧٥١هـ): "كل سورة في القرآن هي متضمنة للتوحيد، بل نقول قولاً كليا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه.

فإن القرآن:

ا-إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري.

2-وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

3-وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

1الدين الخالص لصديق حسن خان (1/ 56)؛ وانظر: الأسئلة والأجوبة الأصولية للسلمان (ص: 41).

4-وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

5-وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم توحيده.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم". [1]

والآيات الدالة على التوحيد في القرآن كثيرة ومنها:

ما جاء في إثبات الألوهية:

قال-تعالى-: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: الآية: 133]

وقال-تعالى-: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: الآية: 73]

---

1 مدارج السالكين (3/449-450).

وقال-تعالى-: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل: الآية: 51].

قال محمد بن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "إلها واحدا أي نخلص له العبادة، ونوحد له الربوبية، فلا نشرك به شيئا، ولا نتخذ دونه ربا". [1]

قال سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي-رحمه الله-(ت ٧١٦ هـ): "قال-تعالى-: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل: الآية: 51]، هذا نهي عن الشرك، وإثبات للتوحيد يتضمن الأمر به". [2]

ومنها ما جاء في إثبات الأسماء والصفات لله -تعالى-:

قال -تعالى-: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: الآية: 163]

وقوله-تعالى-: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: الآيات: 1-4].

ومنها ما جاء في إثبات الربوبية:

---

1 جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (562/1).

2 الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية للطوفي (ص: ٣٨٠).

قال-تعالى-: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: الآية: 16].

وقال-تعالى-: {إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [الصافات: الآيات: 4-5].

ثانيًا: الأدلة من السنة:

قوله-صلى الله عليه وسلم-لمعاذ (ت: ١٨ هـ)، لما بعثه إلى اليمن: ((إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله-تعالى-)). [1]

ولفظ مصنف عبد الرزاق: ((إنك ستأتي على ناس من أهل الكتاب فادعهم إلى التوحيد)). [2]

---

1 أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (4/ 378)، (ح: 7372).

2 مصنف عبد الرزاق، باب دعاء العدو (5/ 215) (ح: 9420).

عن ابن عمر–رضي الله عنهما–(ت: ٧٣ هـ) عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((بني الإسلام على خمسة على أن يوحدوا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج)). [1]

وعنه –صلى الله عليه وسلم–أنه قال: ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)). [2]

وفي رواية: ((من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله..)). [3]

عن أبي أمامة–رضي الله عنه–، قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت رجلًا بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، مستخفيًا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: ((أنا نبي)).

---

1 رواه مسلم (1/ 34) (ح: 120).

2 أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب {فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة: الآية: 5] (24/1)، (ح: 25)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. (1/ 53)، (ح: 37).

3 أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. (53/1)، (ح: 38).

فقلت: وما نبي؟ قال: ((أرسلني الله)). فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: ((أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء)). الحديث.... [1]

ثالثًا: من أقوال السلف.

قول جابر–رضي الله عنه– (ت: ٧٨ هـ): عند قول رسول الله–صلى الله عليه وسلم– في حديث صفة حج النبي–صلى الله عليه وسلم–، حيث قال: "فأهل بالتوحيد، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك". [2]

قول ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨هـ) في معنى قوله –تعالى–: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: الآية: 21] قال "وحدوا". [3]

---

1 أخرجه مسلم (2/ 208) (ح: 1967).

2 أخرجه مسلم في كتاب الحج باب حجة النبي–صلى الله عليه وسلم–(2/ 886-887)، (ح: 1218).

3 الدر المنثور للسيوطي (85/1)، وانظر: حقيقة التوحيد للدكتور العلياني (ص: 55).

وقال-رضي الله عنه-: "كل عبادة في القرآن فهو التوحيد". [1] وفسر-رضي الله عنه- قوله-تعالى-: {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: الآية: 39] بقوله: "يخلص له التوحيد". [2] فالدين عنده هو التوحيد.

قول عطاء بن أبي رباح-رحمه الله-(ت: ١١٤هـ) في قوله-تعالى-: {وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ} [المائدة: 5] قال: "الإيمان التوحيد". [3]

المسألة الثالثة: أقسام التوحيد عند أهل السنة.

الأمر الأول: هل تقسيم التوحيد استقرائي أم اصطلاحي.

أولًا: تعريف التقسيم لغة.

أصل الكلمة مأخوذ من قولهم: قَسَمَ الشيء يقسمه قسماً فانقسم، ومعناه إفراز النصيب.

والتقسيم هو مصدر قَسَّمه تَقْسِيما وهي القِسْمة، أي جزاه وفرقه تفريقاً، يقال قسم فلان المال أي فرقه قسما ههنا وقسما ههنا.

والقسم النصيب والحظ، والجمع أقسام وهو القسيم وحقيقته: أنه جزء يقبل التقسيم، يقال:

---

1 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (193/18)، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (1/ 14)، (4/ 75)، البحر الرايق لابن نجيم (1/ 291).

2 زاد المسير (1/ 200)، وانظر: جامع البيان (9/ 249).

3 جامع البيان للطبري (6/ 109).

هذا ينقسم قسمين بالكسر إذا أريد به الجزء من الشيء المقسوم، والقسيم هـو شطر الشيء.

فالتقسيم معناه في اللغة

من المقسوم فهو قسم له هو عملية الفرز والتفريق بين الأجزاء لشيء معين، وكل جزء من المقسوم فهو قسم له. [1]

وأما اصطلاحا: "فالتقسيم: هو أن يتتبع المستقري جزئيات فيتوصل إلى أنها لا تدخل تحت نوع واحد، ولكنها أقسام تحت أمر كلي، بشرط أن يستقصي الأنواع حتى يعلم أنه لم يبق قسم في الخارج غير ما ذكر". [2]

وأما الاستقراء فهو أحد أنواع الاستدلال، وللاستدلال أنواع كثيرة عند الأصوليين منها:

الاستقراء: وهو: استدلال على الكلي بالجزئي.

القياس: وهو: استدلال على الجزئي بالكلي.

والتمثيل: وهو: استدلال على الجزئي بالجزئي.

التمثيل أو قياس: وهو: استدلال على الكلي بالكلي.

الاستقراء لغة: "مأخوذ من الفعل الثلاثي "قرأ"، الذي من معانيه الجمع والضم.

---

1 انظر الصـــحاح للجوهري (٥/ ٢٠١٠)، والمفردات للأصـــفهاني (ص: ٦٧٠)، وتاج العروس للزبيدي (٩/ ٢٥)، ولسان العرب (١١/ ١٦٢-١٦٤).

2 أدب البحث والمناظرة (2/ 10-11).

قال ابن منظور: "قرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض". [1]

واصطلاحًا: قال الغزالي: الاستقراء "أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كل، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات، حكم على ذلك الكلي به". [2]

من الجوانب التي يظهر فيها الاستقراء علم العقيدة، والقواعد الكلية المتعلقة به، ذلك أن كل علم توجد فيه قواعد كلية تحكم جزئياته، وحيث تكون القواعد الكلية يكون الاستقراء موجوداً، ولذا كانت قواعد علم العقيدة منها ما بني على الاستقراء؛ إلا أن الاستقراء هنا مقصور-في الغالب-على استقراء النصوص الشرعية: دلالاتها ومعانيهاواستعمالاتها". [3]

وتقسيمات التوحيد استقرائية وليست اصطلاحية، وذلك باعتبار أنها ترجع إلى النصوص فهي مصدرها، فتقسيم العلماء للتوحيد ناتج من استقراء الآيات والأحاديث الواردة في التوحيد؛ لأن المصدر في تلقي العقيدة هو القرآن والسنة، وبهذا يعلم أنها من الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-وليست أمرًا اصطلاحيًا أنشأه بعض العلماء.

فالفرق بين النوعين:

---

1 لسان العرب (1/ 128).

2 معيار العلم (ص: 148).

3 المصدر: بحث بعنوان "الاستقراء ومجالاته في العلوم الشرعية" للباحث محمد أيمن الزهر، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية-المجلد 29-العدد الأول-2013م. (ص: 477)

أن التقسيم الشرعي هو التقسيم الذي تنبني الأحكام عليه بمجرد التقسيم، وهذا النوع من التقسيم يحتاج إلى دليل؛ لأن الحكم لا يكون إلا بدليل.

ومثاله: تقسيم الكفر إلى نوعين أكبر وأصغر، فالأول مخرج من الملة دون الثاني.

والاستقراء نوع من أنواع الأدلة اليقينية في منهج البحث والتحري.

وأما التقسيم الاصطلاحي: فهو تقسيم المتشابهات إلى أقسام بوصفٍ جامع بينها دون بناء الأحكام عليها بمجرد التقسيم، فهذا لا يحتاج إلى دليل؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح.

فالاصطلاح فمعناه كما عرفه الجرجاني بعدة تعريفات بقوله:

"الاصطلاح: عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول.

الاصطلاح: إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر، لمناسبة بينهما.

وقيل: الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى.

وقيل: الاصطلاح إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر؛ لبيان المراد.

وقيل: الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين". [1]

وقال الزبيدي: "والاصطلاح: اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص؛ قاله الخفاجي". [2]

وهذه المناسبة لا تكون دائما في المصطلحات لذا يقال "لا مشاحة في الاصطلاح" إذا كانت لا توجد مناسبة بين الكلمة والمصطلح، قال ابن القيم-رحمه الله: "والاصطلاحات لا مشاحة

---

1 التعريفات للجرجاني (ص: 28).

2 تاج العروس (6/ 551).

فيها إذا لم تتضمن مفسدة ". [1]

وبهذه التعريفات التي أوردها الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) والزبيدي وغيرهما يتبين أن مقولة إن تقسيمات التوحيد اصطلاحية لا تنطبق على تقسيمات التوحيد فهي استقرائية كما صرح بذلك بعض أهل العلم.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبوديته.

النوع الثالث: توحيده-جل وعلا-في أسمائه وصفاته". [2]

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ): "اعلم أن التوحيد ينقسم ثلاثة أقسام، وأن هذه القسمة استقرائية؛ والاستقراء: هو تتبع النصوص؛ كما أن النحو علم بالاستقراء بتتبع لغة العرب؛ إما اسم، أو فعل، أو حرف، فكذلك علمنا أقسام التوحيد من تتبع القرآن؛ فالله-تعالى-قسم التوحيد ثلاثة أقسام في سورة الفاتحة؛ فقال {الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الفاتحة: الآية: ٢]، والله هو المعبود بحق، {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: الآية: ٢]، والرب هو الذي يربي الأشياء، وهذا توحيد الربوبية. ثم قال: {الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:

---

1 مدارج السالكين (3 / 306).

2 أضواء البيان (3/ 410-411) وانظر: المعين والزاد (ص: 64-65).

الآيات: ٣-٤]، وهذا توحيد الأسماء والصفات. وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: الآية: ٥]، دل على توحيد الألوهية. وتوحيد الألوهية أن تكون جميع أعمالك خالصة لله؛ من صلاة وصيام وزكاة ونذر وخوف ورجاء وغير ذلك مما لا يجوز صرفه إلا لله".
1

قال عبد العزيز بن باز-رحمه الله-(ت: ١٤٢٠ هـ): "هذا التقسيم مأخوذ من الاستقراء والتأمل، لأن العلماء لما استقرأوا ما جاءت به النصوص من كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-ظهر لهم هذا، وزاد بعضهم نوعا رابعا هو توحيد المتابعة، وهذا كله بالاستقراء".
2

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "وعلموا [أي العلماء الذين قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام] ذلك بالتتبع والاستقراء والنظر في الآيات والحديث، فوجدوا زن التوحيد لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة فنوهوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع".
3

وقال الشيخ بكر أبو زيد-رحمه الله-(ت: ١٤٢٩ هـ): "هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة وابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ)، وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس وشيخنا

---

1 كتاب جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (1/ 95).

2 مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لعبد العزيز بن عبد الله بن باز (6/ 215).

3 مجموع فتاوى ابن عثيمين (١/ ١٧-١٨).

الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين-رحم الله الجميع-، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء". [1]

وقال الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد: "وهذا التقسيم لأنواع التوحيد عرف بالاستقراء من نصوص الكتاب والسنة". [2]

وهناك من يقول إن تقسيمات التوحيد اصطلاحية كما ذكر ذلك كل من:

الدكتور صلاح الصاوي حيث قال: "التقسيم المعهود للتوحيد، إلى توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فإن هذا التقسيم اصطلاحي، والهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم؛ كعلم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة ونحوه..." إلى أن قال: "وعلى هذا لا مشاحة في الاصطلاح، وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات، بل إن هذا التقسيم ابتداء على هذا النحو لم يرد به-فيما نعلم-آية محكمة أو سنة متبعة، والعبرة كما يقولون بالمقاصد والمعاني، وليس بالألفاظ والمباني". [3]

---

1 التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص: 30).

2 مقدمة تحقيق كتاب تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد للصنعاني (ص: 10).

3 كتاب الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر (ص: 151).

وقال الشيخ محمد إسماعيل المقدم: "وهذا التقسيم ما جاء به النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولم يستعمل هذه الاصطلاحات: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات" إلى أن قال: "والنبي-صلى الله عليه وسلم-قد أتى بمضمون هذه الأقسام الثلاثة، ولا مشاحة في الاصطلاح، فلا نختلف في الاصطلاح، لكن المهم ما وراء هذا الاصطلاح". [1]

قال الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق-رحمه الله-(ت: ١٤٤٢ هـ): "وتقسيم معاني توحيده إلى اثنين علمي خبري، وقصدي طلبي؛ أو ثلاثة ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات، إنما هو عمل تعليمي إرشادي اصطلاحي لم يأت هذا التقسيم بهذه القسمة الثنائية أو الثلاثية في الكتاب والسنة ولا في أقوال الصحابة والتابعين، وإنما هذا التقسيم مستفاد من معاني أسمائه وصفاته وتوحيده سبحانه وتعالى". [2]

وقال الدكتور ناصر العقل: "فتقسيم التوحيد تقسيم اصطلاحي علمي فني، وهو نتيجة لاستقراء نصوص التوحيد". [3]

---

1 دروس الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم (60/ 13).

2 انظر: (كتاب أقسام التوحيد الاصطلاح والمضمون) وانظر مقال بعنوان: (أقسام التوحيد) منشور بموقع طريق الإسلام.

3 كتاب شرح باب توحيد الألوهية من فتاوى ابن تيمية (3/ 19).

قال الدكتور عبد الرحيم السلمي: "وهذا التقسيم وإن لم يرد في الكتاب والسنة بألفاظه إلا أن معناه صحيح وحق لا شك فيه.

لأن الاصطلاح هو استخدام ألفاظ معينة، وترتيب أقسام معينة المعاني معينة، فإن كانت هذه المعاني صحيحة فالتقسيم والاصطلاح صحيح، وإن كانت المعاني باطلة فالتقسيم والاصطلاح باطل. فالاصطلاحات ليست كلها حقا، وليست كلها باطة، بل هي بحسب المعاني الداخلة ضمن دلالة اللفظ الاصطلاحي.

ولهذا لم يختلف أهل العلم في أن مصطلحات النحو والصرف وأصول الفقه –في الجملة–ونحوها صحيحة لصحة المعاني الدالة عليها، ولم يعترض أحد من العلماء على هذه الاصطلاحات بأنها لم ترد في الكتاب والسنة.

وهذا المعنى مجمع عليه، لا أعلم فيه خلافا عند من عرف العلم، بينما اعترض علماء أهل السنة على مصطلحات أهل الكلام وتقسيماتهم إما لدلالتها على معنى باطل أو لإجمالها وغموضها وذلك الاحتمال دخول المعنى الباطل في هذا الإجمال". [1]

---

1 حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين (ص: ٨٩).

ولكنه ذكر بعد ذلك أن هذا التقسيم استقرائي فقال: "يتلخص مما تقدم أن تقسيم التوحيد موجود في القرآن والسنة، وقد دل التبغ والاستقراء على أن التوحيد له ثلاثة أقسام باعتبار وقسمين باعتبار آخر.

وهذا الاستقراء الاستقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى (اسم، وفعل، وحرف) والعرب لم ته بهذا ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء. [1]

وهذا يشير إلى عدم تفريقه بين الاستقراء والاصطلاح.

الأمر الثاني: تقسيمات التوحيد عند أهل السنة.

تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد، ولكنها مع ذلك التنوع متفقة في المضمون، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذة من استقراء النصوص ولم يُنص عليها باللفظ مباشرة.

١-تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

فمن العلماء من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، هي: [2]

---

1 وعزا هذا النقل إلى التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (ص ٣٠) حاشية (٢).

2 انظر: طريق الهجرتين (ص: 3.)، وشرح الطحاوية (ص: 76)، ولوامع الأنوار للسفاريني (1/ 128)، وتيسير العزيز الحميد (ص: 17-19).

ا-توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بأفعاله كالخلق والرزق.

2-توحيد الأسماء والصفات: وقد تقدم ذكر تعريفه.

3-توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بأفعال العباد التعبدية؟ كالصلاة والصوم والدعاء.

قال الإمام **أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري-رحمه الله-**(ت: 387 هـ): "وذلك أن أصل الإيمان الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدهما: أن يعتقد العبد ربانيته[1]؛ ليكون مبايناً بذلك لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

الثاني: أن يعتقد وحدانيته، ليكون مبايناً بذلك مذاهب أهل الشـــرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

الثالث: أن يعتقده موصـوفاً بالصـفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصـوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسـائر ما وصـف به نفسـه في كتابه؛ إذ قد علمنا أن كثيراً ممن يقربه ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته؛ فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده". [2]

قال **أبو جعفر الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ)**: "نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له ولاشيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره". [3]

---

1 أي: إثبات وجود الرب تبارك وتعالى.

2 الإبانة الكبرى [الرد على الجهمية] (2/ 172-173).

3 العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز الحنفي (ص: ٧٧).

وقال الإمام الحافظ **أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده–رحمه الله–(ت: ٣٩٥ هـ)**، حيث فصل وبوب في كتابه القيم: (كتاب التوحيد) في الأقسام الثلاثة للتوحيد فمن تبوبياته:

1. ذكر ما وصف الله عز وجل به نفسه ودل على وحدانيته عز وجل وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
2. ذكر معرفة بدأ الخلق.
3. ذكر معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة التي تسمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر–وأبواب أخرى كثيرة فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الكتاب المذكور.

ولذلك وصف الكتاب ومباحثه محققه الدكتور علي الفقيهي بقوله:

"قسم المؤلف التوحيد إلى أربعة أقسام حيث جعل أسماء الله الحسنى قسما مستقلا ثم أتبعها بالصفات، وأقسام التوحيد الذي ذكرها هي:

الوحدانية في الربوبية.

توحيد الألوهية وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

توحيد أسماء الله الحسنى.

الصفات". [1] [2]

قال الإمام **أبي عمرو عثمان الداني (ت: 444 هـ)**: "والإيمان بالله-تعالى-: يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته، ...والتوحيد له: هو الإقرار بأنه ثابتٌ موجود، وواحدٌ معبود". [3]

قال **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: "والكلام في التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات.

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله خالق كل شيء.

والثالث: توحيد الإلهية؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له". [4]

قال **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)**: "فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم-.

---

1 التوحيد ابن مندة (1/ 33) تحقيق علي بن ناصر الفقيهي ط: الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

2 انظر في ذلك: ((القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد))، عبد الرزاق البدر، دار ابن عفان.

3 الرسالة الوافية، لأبي عمرو الداني (ص: 120).

4 شرح العقيدة الأصبهانية (ص: ١٠٧). تحقيق: محمد بن عودة السعوي، ط: مكتبة دار المنهاج. الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات". [1]

قال **ابن أبي العز (ت: ٧٩٢هـ)**: "فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات.

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثالث: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له". [2]

قال **سليمان بن عبد الله آل الشيخ (ت: ١٢٣٣هـ)**: "وسمي دين الإسلام توحيدا؛ لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له،

---

1 مدارج السالكين (1/ 37-38).

2 شرح العقيدة الطحاوية (1/ 78).

وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء، والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب". [1]

وقال **الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي–رحمه الله–(ت: 1407هـ)**: "واعلم أنه يجب على كل مسلم أن يوحد الله في ربوبيته وفي عبادته وفي أسمائه وصفاته فهذه أنواع التوحيد الثلاثة من أخل بها أو بشيء منها فهو كافر.

أما توحيد الربوبية: فهو أن يوحد الله تعالى بأفعاله بأن تعتقد أنه الموجد الممد فهو الذي يخلق وهو الذي يرزق وهو الذي يحيي ويميت ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويدل ويتصرف في الخلق ويحفظ على كل مخلوق وجوده.

وأما توحيد العبادة ويسمى أيضا توحيد الإلهية: فهو أن توحد الله بأفعالك فلا تتوجه بقلبك ولسانك إلى غيره بدعائك واستغاثتك واستعادتك واستمدادك واستشفائك واستعانتك وغير ذلك من حاجاتك التي لا يقدر عليها إلا الله.

وأما توحيد الأسماء والصفات: فهو ألا تسمي الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في حديثه، وكل اسم سميت الله به لا تسم به أحدا من خلقه، وكل

---

1 تيسير العزيز الحميد (ص: 17).

صفة وصفت الله بها لا تصف بها أحدا من خلقه". [1]

وقال الشيخ **أحمد بن حجر آل أبو طامي–رحمه الله–(ت: 1432هـ)**: "ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات". [2]

وقال الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (ت: 1418هـ): "التوحيد قد بينه الله في أول سورة الفاتحة،

فبدأ بتوحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وهلم جرا.

وذكر توحيد الأسماء والصفات، وقد تقدم التفصيل فيه.

وذكر توحيد الألوهية، وأنه توحيد الله بأفعال العباد كالصلاة والزكاة وهلم جرا". [3]

وقال الشيخ **حماد بن محمد الأنصاري–رحمه الله–(ت: ١٤١٨هـ)**: "وأما كونها–أي سورة الفاتحة–اشتملت على التوحيد: فإنك حينما تقرأ هذه السورة أول ما يواجهك فيها التوحيد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: الآية:]، هذا توحيد الربوبية الذي يسميه علماء التوحيد

---

1 كتاب الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية (1/ 52-53).

2 العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية (1/ 24).

3 تفسير سورة الفاتحة بيان ما تضمنته من أنواع التوحيد (ص: 58-59).

الصحيح: بتوحيد السيادة، وبتوحيد الخلق، وبتوحيد الملك، وبتوحيد الإحياء والإماتة، وهلم جرا.

وهذا النوع من التوحيد هو: توحيد الله بأفعاله، فنوحده بأنه: الخالق، السيد، المالك، المحيي المميت، النافع الضار، وغير ذلك من أسمائه التسعة والتسعين اسمًا، نوحده بتلك الأسماء.

وأما النوع الثاني: وهو توحيد الأسماء والصفات: الذي ثنى الله-عز وجل-به في هذه السورة في قوله: {الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}....ذكر الله-عز وجل-هنا ثلاثة أسماء من أسمائه التسعة والتسعين اسمًا التي من أحصاها دخل الجنة، والتي سردها الترمذي في جامعه.

ذكر منها ثلاثة أسماء: الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين.

ذكرها مثالًا لتوحيد الأسماء والصفات....

وتوحيد الألوهية وهو النوع الثالث من أنواع التوحيد الذي نص الله-عز وجل-في هذه الكلمة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: الآية: ٥]: هو الغاية والمقصد الأعظم.. وهو معنى: لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله". [1]

٢- تقسيم التوحيد إلى أربعة أقسام

ومن المتأخرين من زاد قسمًا رابعًا على الأقسام الثلاثة السابقة وسماه:

4-توحيد الاتباع أو توحيد الحاكمية (أي التحاكم إلى الكتاب والسنة)، ولكن يلاحظ

---

1 تفسير سورة الفاتحة وبيان ما تضمنته من أنواع التوحيد (ص: 25-39).

على من ذكر هذا القسم أن هذا القسم في الحقيقة داخل ضمن توحيد الألوهية، لأن العبادة لا تقبل شرعًا إلا بشرطين هما:

ا-الإخلاص.

2-الاتباع.

كما قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [الكهف: الآية: ١١٠].

قال الشيخ **محمد بن إبراهيم آل الشيخ** (ت: **1389**هـ): "الهام هو النظر في الأصول العظام التي الإخلال بها هادم للدين من أساس، وذلك مسائل:

ص- توحيد الله تعالى بإثبات ما أثبت لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات: إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل.

ض- وكذلك توحيد الألوهية،

ط- وتوحيد الربوبية.

ظ- وكذا توحيد الاتباع، والحكم بين الناس عند النزاع: بأن لا يحاكم إلا إلى الكتاب والسنة، ولا يحكم إلا بهما". [1]

وقد ألف الشيخ **تقي الدين الهلالي-رحمه الله-(ت: 1407**هـ): مؤلفاً على هذا التقسيم

---

1 كتاب فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (4/ 156).

وهو (سبيل الرشاد)، وقال عنه: "خطر ببالي منذ مدة أن أؤلف كتاباً لنفسي ولمن شاء الله بعدي، أشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة، التي أولها توحيد الربوبية، وثانيها توحيد العبادة، وثالثها توحيد الاتباع، [1] ورابعها توحيد الأسماء والصفات".

علَّق الشيخ على كلامه السابق مبيناً سبب تقسيمه التوحيد إلى أربعة أقسام فقال:"أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة لأن الثالث الاتباع داخل في الثاني، ولكنني جعلته قسماً

1 علق الباحث عبد الرحمن بن محمد عميسان في رسالته (جهود العلامة محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين) (ص: 100) فقال: "بيَّن الشيخ-رحمه الله- قصده في تقسيمه التوحيد إلى أربعة، وجعله القسم الرابع: توحيد الاتباع، وهو في الحقيقة داخلٌ في توحيد الألوهية؛ وذلك لكون توحيد الألوهية هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومعنى لا إله إلا الله لا معبود بحقٍ إلا الله، ومعنى محمد رسول الله أي لا متبوع بحق إلا رسول الله، وهذا معنى الاتباع، وقول الشيخ-رحمه الله-إن سبب هذا التقسيم هو كثرة خلاف المقلدين، أقول: لو فتح هذا الباب لما أغلق؛ لكون الخلاف وجد في أشياء كثيرة فهذا سيقول توحيد المشيئة؛راداً على القدرية، وهذا سيقول توحيد التوكل؛ ليرد على الصوفية، ويأتي آخر بتوحيد الحاكمية ليكفروا بذلك المسلمين، مع أن الشيخ الهلالي قد نص أن جعل الحكم لله داخلٌ في توحيد الألوهية فقال: "اعلم أن دين الرسل واحد في أصوله وهي أربعة:-الأول:- توحيد الله في ربوبيته وعبادته-أي: الألوهية- وأسمائه وصفاته، ومن توحيده في عبادته جعل الحكم له-ثم ساق الثاني والثالث والرابع فيما تتفق عليه الرُسل-"[سبيل الرشاد(4/ 60)].

لكثرة خلاف المقلدين لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم". [1]

وقال أيضاً في بيان الواجب على المسلمين تجاه أقسام التوحيد قائلاً:"فاتباع توحيد الله تعالى بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم". [2]

وعرَّف الشيخ بالإجمال والاختصار هذه الأنواع الأربعة بقوله: "فتوحيد الربوبية: أن تعلم وتعتقد بأن الذي أوجدك من العدم، وأفاض عليك النعم، وحفظ عليك وجودك، وأمدك بكل ما تحتاج إليه، وبيده حياتك، وموتك، وضرك، ونفعك، وفلاحك، وإخفاقك، هو الله رب العالمين لا شريك له لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من الصالحين.

وتوحيد الألوهية: ويسمى أيضاً توحيد العبادة، وهو القسم الثاني: ألا تدعو لجلب خير، أو دفع شر إلا الله، ولا تستغيث في الشدائد إلا بالله، ولا تذبح بقصد التعظيم إلا لله...ثم قال: النوع الثالث: من أنواع التوحيد توحيد الأسماء والصفات، وهو أن تصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم... النوع الرابع: توحيد الاتباع...". [3]

وقال الشيخ **حماد بن محمد الأنصاري (ت: ١٤١٨هـ)**: "وقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

1 سبيل الرشاد (1/ 19). (1/ 67)

2 سبيل الرشاد (1/ 191).

3 السراج المنير (ص: 91-92).

نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: الآية: ٥]، دل على توحيدين:

التوحيد الأول: توحيد الألوهية.

التوحيد الثاني: توحيد المتابعة.

ومعنى توحيد الألوهية: توحيد العبادة لله عز وجل بجميع أنواعها....

ومعنى توحيد المتابعة: إفراد هذا النبي الكريم-عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-بالمتابعة دون غيره من المخلوقات...

وكثير من المؤلفين والمصنفين، وكثير من طلبة العلم يقتصرون على أنواع التوحيد الثلاثة (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات)، وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك توحيد رابع، كما ظن بعض الناس، بل التوحيد أربع أقسام، سواء ذكرنا الرابع أم لم نذكره، فهو موجود ضمنًا.

فالرابع هو توحيد المتابعة، أي توحيد النبي-صلى الله عليه وسلم-بالمتابعة دون غيره من المخلوقات، لأنه لم يرسل إلينا غيره.

والدليل على هذا التوحيد آيات كثيرة تقدم ذكر بعضها، ويكفي دليلًا عليه كلمة شهادة الإخلاص، وشهادة الإخلاص ذات شقين:

الشق الأول: لا إله إلا الله.

والشق الثاني: محمد رسول الله.

فالشق الأول: توحيد الألوهية، أي العبادة.

والشق الثاني: توحيد المتابعة، أي إفراد النبي-صلى الله عليه وسلم-دون غيره من المخلوقات بالمتابعة، كما قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}". [1]

- ✓ قال الشيخ **عبد العزيز بن باز (ت: ١٤٢٠ هـ)**: "هذا التقسيم مأخوذ من الاستقراء والتأمل، لأن العلماء لما استقرأوا ما جاءت به النصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ظهر لهم هذا، وزاد بعضهم نوعا رابعا هو توحيد المتابعة، وهذا كله بالاستقراء". [2]

ومن العلماء من قسم التوحيد إلى قسمين، وهذا هو الأغلب في كلام أهل العلم المتقدمين لأنهم يجمعون بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك بالنظر إلى أنهما يشكلان بمجموعهما جانب العلم بالله ومعرفته عز وجل، فجمعوا بينهما لذلك، بينما توحيد الألوهية يشكل جانب العمل لله.

وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام راجع إلى اعتبار متعلق التوحيد، وتقسيمه إلى قسمين راجع إلى اعتبار ما يجب على الموحد.

٣- تقسيم العلماء التوحيد إلى قسمين:

---

1 تفسير سورة الفاتحة وبيان ما تضمنته من أنواع التوحيد (ص: 43-44).

2 مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لعبد العزيز بن عبد الله بن باز (6/ 215).

فمن العلماء من يقول: التوحيد قسمان: [1]

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات:

ويريد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسمي بتوحيد المعرفة، لأن معرفة الله-عز وجل-إنما تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والإثبات: أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب:

ويراد به الألوهية، وسمي بتوحيد القصد والطلب لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين هما:[2]

القسم الأول: التوحيد العلمي الخبري:

والمقصود به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وسمي بالتوحيد العلمي: لأنه يعتني بجانب معرفة الله، فالعلمي أي "العلم بالله".

والخبري: لأنه يتوقف على الخبر أي: "الكتاب والسنة".

القسم الثاني: التوحيد الإرادي الطلبي:

---

1 ممن ذكر ابن القيم في كتابه مدارج السالكين (449/3).

2 ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين (450/3)، وابن تيمية في الصفدية (2/ 228)

والمقصود به توحيد الألوهية، وسمي بالتوحيد الإرادي لأن العبد له في العبادات إرادة، فهو إما أن يقوم بتلك العبادة أو لا يقوم بها، وسمي بالطلبي، لأن العبد يطلب بتلك العبادات وجه الله ويقصده عز وجل بذلك.

قال **ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)**: "التوحيد الذي بعث الله به رسله هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وذلك يتضمن التوحيد بالقول والاعتقاد وبالإرادة والقصد". [1]

- ✓ وقال **ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)**: "والتوحيد الذي جاء به الرسول يتناول التوحيد في العلم والقول وهو وصفه بما يوجب أنه في نفسه أحد صمد لا يتبعض ويتفرق فيكون شيئين وهو واحد متصف بصفات تختص به ليسله فيها شبيه ولاكفؤ والتوحيد في الإرادة والعمل وهو عبادته وحده لا شريك له". [2]
- ✓ وقال **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**: "وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه: فوراء ذلك كله وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سماواته على

---

1 بيان تلبيس الجهمية (4/ 123).

2 بيان تلبيس الجهمية (3/ 140-141).

عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح.

كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة " تنزيل " السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: الآية: 1] وقوله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: الآية: 64]، -الآية وأول سورة "تنزيل الكتاب" وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد.

بل نقول قولا كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيدالعلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى

من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد". [1]

وقال **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**: "فالأول: تسليم منازعات الأسباب لتجريد التوحيد العملي القصدي الإرادي. وهذا تجريد منازعات الأوهام المخالفة للخبر لتجريد التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي. وهذا حقيقة التسليم". [2]

وقال الشيخ **حافظ بن أحمد حكمي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٧هـ)**: "التوحيد نوعان:

الأول: التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز وجل، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والثاني: التوحيد الطلبي القصدي الإرادي، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له، وخوفه ورجاؤه، والتوكل عليه والرضا به ربا وإلها ووليا، وأن لا يجعل له عدلا في شيء من الأشياء، وهو توحيد الإلهية". [3]

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول: [4]

---

1 مدارج السالكين (3/ 417-418).

2 مدارج السالكين (2/ 148).

3 معارج القبول (1/ 54).

4 ممن ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوى (1/ 367)، (19/ 171)

القسم الأول: التوحيد القولي:

والمراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العلمي من التوحيد، وأما هذا الجانب فهو مختص بالجانب القولي العلمي.

القسم الثاني: التوحيد العملي:

والمراد به توحيد الألوهية، وسمي بالعملي، لأنه يشمل كلاً من عمل القلب وعمل اللسان وعمل الجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي.

قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "فأما {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: الآية: ١]، فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة وهو الذي يتكلم به مشايخ التصوف غالبا.

وأما سورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١]، أحد فمتضمنة للتوحيد القولي العلمي". [1]

قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ولا بد له في أحكامهمن

---

1 مجموع الفتاوى (15/ 54).

أن يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه: من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل وهذا يتضمن (التوحيد في عبادته وحده لا شريك له): وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل.

والأول يتضمن (التوحيد في العلم والقول) كما دل على ذلك سورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١].

ودل على الآخر سورة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: الآية: ١] وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبي-صلى الله عليه وسلم-يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

فأما الأول وهو-التوحيد في الصفات-فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله: نفيا وإثباتا؛ فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه". [1]

وقال **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨هـ)**: "التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولا وعملا

فالتوحيد القولي مثل سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١].

والتوحيد العملي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: الآية: ١]". [2]

---

1 مجموع الفتاوى (3/ 3).

2 مجموع الفتاوى (1/ 367).

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "وكان النبي–صلى الله عليه وسلم–يقرأ في ركعتي الفجر تارة (سورة الإخلاص) و (قل يا أيها الكافرون) ففي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: الآية: ١] عبادة الله وحده وهو دين الإسلام؛ وفي {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١]، صفة الرحمن وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الإيمان هذا هو التوحيد القولي، وذلك هو التوحيد العملي". [1]

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١] اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصا وهي دالة على التوحيد العملي لزوما". [2]

قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "وقد بسط الكلام في التوحيد وأنه نوعان:

علمي قولي

وعملي قصدي.

فقل يا أيها الكافرون اشتملت على التوحيد العملي نصا وهي دالة على العلميلزوما. و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١] اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصا وهي دالة على التوحيد العملي لزوما". [3]

---

1 مجموع الفتاوى (19/ 171).

2 مجموع الفتاوى (17/ 108).

3 مجموع الفتاوى (17/ 107-108).

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول:

القسم الأول: توحيد السيادة:

ويعنى بذلك توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بذلك لأن تفرد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته يوجب له القيادة المطلقة والتصرف التام في هذا الكون خلقا ورزقا وإحياء وإماتة وتصرفا وتدبيرًا، سبحانه وتعالى. فمن واجب الموحد أن يفرد الله بذلك.

والقسم الثاني: توحيد العبادة:

المراد به توحيد الألوهية، وتسميته بذلك واضحة لا تحتاج إلى مزيد تفصيل.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول:

التوحيد توحيدان:

القسم الأول: توحيد الربوبية.

والقسم الثاني: توحيد الإلهية.

قال **أبو عبد الله الحسن بن الحسين الحليمي-رحمه الله-(ت: 404هـ)**: "فالإيمان بالله-تعالى جده-إثباته والاعتراف بوجوده، والإيمان له القبول عنه والطاعة له.

والإيمان بالنبي إثباته والاعتراف بثبوته، والإيمان للنبي موافقته والطاعة له. ويدل على افتراق الصلتين أن إحداهما تصلح حيث لا تصلح الأخرى، فإن بني يعقوب عليه السلام لو قالوا

لأبيهم: "وما أنت بمؤمن بنا" لما صلح لذلك. ولو قال كفار العرب: "ولا تؤمنوا إلا بمن اتبع دينكم" لما أدى ذلك لما أرادوه من المعنى. وأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمنافقين: {لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ} [التوبة: الآية: ٩٤]، أي لن نقبل منكم عذركم، ولو كان مكانه: "لن نؤمن بكم"، ما جاز ولا حسن. وقال-جل ثناؤه-: {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: الآية: ٦١]، ولو كان مكان ذلك: "ويؤمن بالمؤمنين" لما جاز ولا صلح. فثبت بما اقتصصنا أن الصلتين موضوعان لمعنيين متغايرين لا لمعنى واحد. ويدل على صحة ما ذكرت أن اسم التصديق الذي هو حقيقة الإيمان قد يحتمل صلتين: إحداهما الباء والأخرى الهاء.

فأما الباء فإنه يليق بالتصديق وبما يتصرف عنه من فعل ونعت.

وأما الهاء فإنه يلزم ما ينصرف عنه من فعل، فإذا جاء النعت جازت اللام مكان الهاء، فيقال: "صدقت فلانا وصدقت به"، فمعنى صدقته أثبت قوله وخبره ووثقت بصحته ومعنى صدقت به: أثبت وجوده وكونه. ثم يقال: صدقت به وأنا مصدق. وإذا قيل صدقته، جاز أن يقال: "وأنا مصدقه ومصدق له، قال الله-تعالى-: {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ} [المائدة: الآية: ٤٨]، ولا يصلح مكانه ومصدقا بما بين يديه لأن الغرض، أن هذا الكتاب مثبت من وحدانية الله تعالى وقدسه ووجوب طاعته وتحسين العدل، وتقبيح الظلم والشهادة للذين جاؤوا بالكتب المقدمة، بأنهم جاؤوا بها من عند الله-تعالى-ما أثبتته تلك الكتب أنفسها. ولو قيل: "مصدقا لما بين يديه من الكتاب"، لصلح، فعلم أن اللام قائمة مقام الهاء

في صـــدقته. ولو قيل: "ومصـــدقا بما يديه"، لم يدلك على أكثر من أنه أثبت أن كتبا كانت قبله، فثبت بهذا افتراق الصلتين، وتغاير ما يراد بهما، والله أعلم وما ينبغي لأحد أن يستنكر هذا الفرق، فإن الوجود منه هو الموافق للصواب والحكمة إذ كان الاعتراف بالله-جل جلاله- ، لابد من أن يسبق حتى يصح القبول عنه وطاعته وعبادته من بعد، والاعتراف بالنبي كذلك لأنه يسبق، ثم تكون متابعته والقبول عنه، ولو تجردت المتابعة بفعل ما يأمر به، والانتهاء عما ينهي عنه عن الاعتراف بالنبوة لما سلمت، ولا سلمت نفعت، فكان حقا أن يعود الأصل من هاتين الخصـــلتين بإحدى هاتين اللفظتين والتابع منهما بالأخرى. فيكون التصـــديق بالله إثباته والاعتراف بوجوده، والتصديق له قبول شرائعه، وإتباع فرائضه على أنها صواب وحكمة وعدل، والطاعة فيها لازمة، والمحافظة على حدوده، والثقة بوعده ووعيده.

وكذلك التصديق بالنبي، غير التصديق له.

فالتصديق به: هو الاعتراف بوجوده وكونه وإثباته نبيا في الجملة.

والتصديق له: إتباعه وطاعته وقبول ما جاء عنه.

وكذلك الإيمان بالله: هو الاعتراف به وإثباته.

والإيمان له: طاعته وإتباع أمره.

وعلى هذا الإيمان بالله أو النبي، إيمان بالدلائل التي دلت عليه، لأنه قبول لدلالتها عنها،

وانقياد لموجبها". [1]

وقال **محمد بن يعقوب الفيروزأبادي–رحمه الله–(ت: ٨١٧هـ)**: "والتوحيد توحيدان: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، فصاحب توحيد الربوبية يشهد قيومية الرب فوق عرشه يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطى ولا مانع ولا مميت ولا محيي ولا مدبر لأمر المملكة ظاهرا وباطنا غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجرى حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وقد أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته، ونفذت فيها مشيئته، واقتضتها حكمته.

وأما توحيد الإلهية فهو أن يجمع همه وقلبه وعزمه وإرادته وحركاته على أداء حقه والقيام بعبوديته". [2]

قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "التوحيد: "توحيد الربوبية" و "توحيد الإلهية". [3]

---

1 شعب الإيمان للحليمي (1/ 21-22).

2 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/ ١٧٢).

3 مجموع الفتاوى (15/ 331).

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ): "وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية وعلى توحيد الإلهية وهو التوحيد الواجب الكامل الذي جاء به القرآن ...فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية ونفي الربوبية يوجب نفي الإلهية؛ إذ الإلهية هي الغاية وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية. وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية –وإن كان معلوما بالفطرة الضرورية البديهية وبالشرعية النبوية الإلهية–فهو أيضا معلوم بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية". [1]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)–في معرض كلامه عن غلط بعض العامة والسالكين–: "وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة؛ بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية فيرى أن الله خالق كل شيء وربه ولا

1مجموع الفتاوى (2/ 37).

يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية". [1]

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية؛ وعلى توحيد الإلهية؛ وهو: التوحيد الواجب الكامل الذي جاء به القرآن". [2]

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "وكثير من المتوجهين السالكين يشهد في سلوكه الربوبية والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق؛ من الأعيان والصفات. وهذه الأمور قائمة بكلمات الله الكونية التي كان النبي–صلى الله تعالى عليه وسلم–يستعيذ بها فيقول: ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن)). فيغيب ويفنى بهذا **التوحيد الرباني**

1 مجموع الفتاوى (15/ 668). وانظر: (15/ 497).
2 مجموع الفتاوى (20/ 183).

عما هو مأمور به أيضـا ومطلوب منه وهو محبوب الحق ومرضـيه من **التوحيد الإلهي**؛ الذي هو عبادته وحده لا شـريك له وطاعته وطاعة رسـوله والأمر بما أمر به والنهي عما نهى عنه والحب فيه والبغض فيه". [1]

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هي نفس الربوبية وأن ما ذكر في القرآن من نفي إله آخر والأمثال المضروبة البينة فالمقصود به نفي رب يشركه في خلق العالم كما هو عادتهم في كتب الكلام فهذا قصور وتقصير منهم في فهم القرآن وما فيه من الحجج والأمثال أتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية فاعتقدوا أن المقصودين واحد وليس كذلك بل القرآن ينفي أن يعبد غير الله أو أن يتخذه إلها فيحبه ويخضع له محبة الإله وخضوعه كما بينت ذلك عامة آيات القرآن مثل قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا} [البقرة: الآية: ٦٥]، ولهذا قال الخليل {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام: الآية: ٧٦]

ومن المعلوم أن كل حي فله إرادة وعمل بحسبه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله ولهذا قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: الآية: ٢٢]، ولم يقل

1 مجموع الفتاوى (2/ 457).

لعدمتا إذ هو قادر على أن يبقيها على وجهة الفساد لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له فإن صلاح الحي إنما هو صلاح مقصوده ومراده وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها". [1]

قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "فمتكلمة أهل الإثبات يثبتون لله صفات الكمال كالحياة والعلم والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر.

وهؤلاء يثبتون ذلك لكن قصروا في بعض صفات الكمال، وقصروا في التوحيد، فظنوا أن كمال التوحيد هو توحيد الربوبية، ولم يصعدوا إلى توحيد الإلهية الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

وذلك أن كثيرا من كلامهم أخذوه من كلام المعتزلة، والمعتزلة مقصرون في هذا الباب، فإنهم لم يوفوا توحيد الربوبية حقه، فكيف بتوحيد الإلهية.

ومع هذا فأئمة المعتزلة وشيوخهم وأئمة الأشعرية والكرامية ونحوهم خير في تقرير توحيد الربوبية من متفلسفة الأشعرية كالرازي والآمدي وأمثال هؤلاء، فإن هؤلاء خلطوا ذلك بتوحيد الفلاسفة كابن سينا (ت: ٤٢٨ هـ)، وأمثاله، وهو أبعد الكلام عن التحقيق في التوحيد، وإن كان خيرا من كلام قدمائهم أرسطو وذويه". [2]

---

1 قاعدة في المحبة (ص: ١٤-١٥).

2 منهاج السنة (٣/ ٢٩٤-٢٩٥).

وقال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ)**: "حتى أن كثيرا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله–صلى الله عليه وسلم–". [1]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨هـ): "فقوله: ((لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)) توحيد الربوبية الذي يقتضي: أنه سبحانه: هو الذي يسأل ويدعى ويتوكل عليه. وهو سبب لتوحيد الإلهية ودليل عليه". [2]

وقال **أحمد بن علي المقريزي–رحمه الله–(ت: 845هـ)**: "ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة". [3]

---

1 مجموع الفتاوى (15/ 264).
2مجموع الفتاوى (14/ 377).
3 تجريد التوحيد المفيد (ص: 7).

وقال **المقريزي–رحمه الله–(ت: 845هـ)**: "فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين". [1]

وقال الشيخ **محمد بن إسماعيل الصنعاني–رحمه الله–(ت: 1182هـ)**: "الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد". [2]

وقال الشيخ **محمد بن إسماعيل الصنعاني–رحمه الله–**(ت: 1182هـ): "التوحيد قسمان: القسم الأول: توحيد الربوبية والخالقية والرازقية ونحوها، ومعناه: أن الله وحده هو الخالق للعالم، وهو الرب لهم والرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شريكا، بل هم مقرون به.

والقسم الثاني: توحيد العبادة، ومعناه: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها، فهذا هو الذي جعلوا لله فيه شركاء، ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى". [3]

---

1 تجريد التوحيد المفيد (ص: 8).
2 تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد (ص: 47).
3 تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد (ص: 50).

وقال **المرتضى الزبيدي–رحمه الله–صاحب تاج العروس في شرح القاموس** (ت: 1205هـ): "التوحيد توحيدان:

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية.

فصاحب **توحيد الربانية** يشهد قيومية الرب فرق عرشه يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق ولا معطي ولا مانع ولا محيي ولا مميت ولا مدبر لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجوز حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وقد أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت فيها مشيئته، واقتضتها حكمته.

وأما **توحيد الإلهية**: فهو أن يجمع همته وقلب وعزمه وإرادته وحركاته على أداء حقه، والقيام بعبوديته". [1]

---

1 تاج العروس (9/ 276).

وقال الشـــيخ **محمد بن عبد الوهاب بن ســـليمان التميمي النجدي–رحمه الله–**(ت ١٢٠٦هـ): "وهو نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية:

أما توحيد الربوبية فيقر به الكافر والمسلم،

وأما توحيد الألوهية فهو الفارق بين الكفر والإسلام". [1]

وقال **الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب بن ســـليمان التميمي النجدي–رحمه الله–**(ت ١٢٠٦هـ): "التوحيد نوعان: توحيد الربوبية: وهو أن الله ســـبحانه متفرد بالخلق والتدبير عن الملائكة والأنبياء وغيرهم. وهذا حق لا بد منه، لكن لا يدخل الرجل في الإســـلام؛ بل أكثر الناس مقرون به، قال الله تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّـــمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّـــمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: الآية: ٣١]، وأن الذي يدخل الرجل في الإســـلام هو توحيد الإلهية، وهو: ألا يعبد إلا الله، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا". [2]

---

1 كتاب الجواهر المضية (ص: 37).

2 كتاب الرسائل الشخصية (ص: 151).

وقال الشـــيخ **محمد بن عبد الوهاب بن ســـليمان التميمي النجدي-رحمه الله-**(ت ١٢٠٦هـ): "واعلم، أرشـدك الله، أن الله سـبحانه بعث الرسـل وأنزل الكتب لمسـألة واحدة، هي: توحيد الله وحده، والكفر بالطاغوت، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: الآية: ٣٦] ، والطاغوت هو الذي يســـمى: "الســـيد"، الذي ينخى وينذر له، ويطلب منه تفريج الكربات غير الله-تعالى-. وهذا يتبين بأمرين عظيمين:

الأول: توحيد الربوبية، وهو الشـــهادة بأنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت، ولا يدبر الأمور إلا هو؛ وهذا حق، ولكن أعظم الكفار كفرا، الذين قاتلهم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، يشـهدون به ولم يدخلهم في الإسـلام، كما قال تعالى: قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: الآية: ٣١].

الأمر الثاني: وهو توحيد الإلهية، وهو أنه لا يســـجد إلا لله، ولا يركع إلا له، ولا يدعى في الرخاء والشـدائد إلا هو، ولا يذبح إلا له، ولا يعبد بجميع العبادات إلا الله وحده لا شـريك له، وأن من فعل ذلك في نبي من الأنبياء أو ولي من الأولياء فقد أشرك بالله". [1]

---

1 الرسائل الشخصية (ص: 146-147).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا-رحمه الله-(ت: 1354هـ): "أقول: المراد بهذا تقرير وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، وكلاهما متفق عليه بين الأنبياء ... ". [1]

ويقول في موضع آخر مصرحا بهذه القسمة: "ولما كان التوحيد الذي هو لباب الدين وروحه نوعين: توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية بين كلا منهما بالآيات والبراهين ... ". [2]

وهناك من يقسم التوحيد إلى قسمين:

القسم الأول: توحيد المرسل.

القسم الثاني: توحيد متابعة الرسول.

✓ قال **ابن القيم-رحمه الله-**(ت: ٧٥١ هـ): "توحيدان. لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما:

توحيد المرسل.

وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره". [3]

وقال **ابن أبي العز-رحمه الله-**(ت: ٧٩٢هـ): "فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله

---

1 تفسير المنار (3/ 325).

2 تفسير المنار (8/ 272).

3 مدارج السالكين (2/ 366).

إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا نحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غير".[1]

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين:

القسم الأول: التوحيد الإجمالي.

القسم الثاني: التوحيد التفصيلي.

قال الشيخ **حماد بن محمد الأنصاري–رحمه الله–**(ت: 1418هـ): "والتوحيد ينقسم باعتبار آخر إلى قسمين:

أولًا: توحيد إجمالي.

ثانيًا: توحيد تفصيلي.

التوحيد الإجمالي: هو الذي يدرك بالآيات الفعلية.

والتوحيد التفصيلي: هو الذي يدرك بالآيات القولية.

والتوحيد الإجمالي الذي يدرك بالآيات الفعلية هو توحيد الربوبية.

والآيات الفعلية: هي السموات والأرض وما بينهما، وبالنظر إلى الخلق نستنتج أن لهذا الخلق ربًا عظيمًا متصفًا بجميع صفات الجمال والكمال.

وهذا في الإمكان أن يدركه كل أحد لأنه فطري.

---

1 شرح العقيدة الطحاوية (1/ 200).

أما التوحيد التفصيلي الذي بينه الله عز وجل في سورة الفاتحة فلا يمكن إدراكه إلا بالآيات القولية، وهي القرآن والسنة". [1]

وقد قسم بعض العلماء التوحيد إلى قسمين:

الأول: توحيد عامي

الثاني: توحيد خاصي.

قال **ابن القيم–رحمه الله–**(ت: ٧٥١ هـ): "فإن التوحيد نوعان: عامي وخاصي، كما أن الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القرب كذلك خاصية وعامية.

فالخاصية: ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها.

والعامية: ما لم يكن كذلك.

فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم بحقها باطنا وظاهرا أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل". [2]

---

1 تفسير سورة الفاتحة وبيان ما تضمنته من أقسام التوحيد (ص: 47).

2 طريق الهجرتين (ص: ٥٩).

قال **ابن تيمية–رحمه الله–**(ت: ٧٢٨ هـ): "من كان توكله على الله ودعاؤه له هـو في حصول مباحات فهو من العامة، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو الخاصة". ". [1]

قال **ابن تيمية–رحمه الله–**(ت: ٧٢٨ هـ): "قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخـذلان لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجوء إليه والدعاء له هي التي تقوي العبد وتيسـر عليـه". [2]

فالتوحيد الخاصي هو الذي حقق التوحيد معرفة بكل معانيه وعمـلا بـه وبلوازمه، وأما العامي ما نقص من ذلك إما معرفة وعلما أو عملا وطاعة، والله أعلم.

وهذا ما وقفت عليه من تقسيمات العلماء للتوحيد وهي واحدة من حيث مضمونها كما سبق إيضاح ذلك من خلال ربطها بالتقسيم الأول، ولذا فإن الاختلاف بينها منحصر في الألفاظ فقط. والله أعلم.

---

1 مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٦).

2 مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢).

الأمر الثالث: الرد على شبهة من أنكر تقسيم التوحيد.

هناك من حاول إنكار تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام بدعوى:

أولًا: أن هذا التقسيم لا يعرف عند السلف البتة، وأن هذا التقسيم إنما انتشر بعد القرن السابع الهجري.

ومن ذلك قول حسن السقاف: "وخصوصًا أن هذا التقسيم لا يُعرف عند السَّلَف البتَّة، وإنما اختُرع هذا التقسيم وانتشر بعد القرن السابع الهجري". [1]

وقال: "ولم يَذكر الله تعالى في كتابه ولا النبيُّ-صلى الله عليه وسلم-في سنته أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيدِ ربوبية، وتوحيدِ ألوهية، وتوحيدِ أسماء وصفات، بل لم ينطق بهذا التقسيم أحدٌ من الصحابة، بل ولا أحدٌ من التابعين، بل ولا أحدٌ من السَّلَف الصالح-رضي الله عن الجميع-، بل إن هذا التقسيم بدعة خَلَفية مذمومة حَدَثت في القرن الثامن الهجري، أي بعد زمن النبي-صلى الله عليه وسلم-بنحو ثمان مئة سنة، ولم يقل بهذا التقسيم أحدٌ من قبل". [2]

وقال: "ابن تيمية الذي اختَرَع تقسيمَ التوحيدِ إلى ألوهية وربوبية". [3]

---

1 التنديد بمن عدَّد التوحيد (ص: 3).

2 التنديد بمن عدَّد التوحيد (ص: 6).

3التنديد بمن عدَّد التوحيد (ص: 10).

وقال أبو حامد بن مرزوق: "إن تقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، والقول بأنَّ المشركين كانوا مؤمنين بالأول دون الثاني ولم يُدخلهم في الإسلام أنَّ ذلك بدعة ابتدعها ابن تيمية وقلَّده فيها محمد بن عبد الوهاب". [1]

ثانيًا: أن ذلك دعوة إلى التثليث،

والرد على هذه الدعوى بأن يقال هذه الدعوى مقصودها التشغيب وإثارة الشكوك والبلبلة ومردودة على قائليها:

أولًا: هذا التقسيم مأخوذ من التتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة فوجد العلماء أن التوحيد لا يخرج عن هذه الأقسام وكل قسم من هذه الأقسام له أدلته من القرآن والسنة، وكل قسم له مميزاته وخصائصه.

ثم إن هذا التقسيم من جنس تقسيمات العلماء الأخرى المتعلقة بالأمور الشرعية مثل تقسيم العلماء الأمر الشرعي إلى واجب ومندوب أو تقسيم النواهي الشرعية إلى محرم ومكروه، أو قولهم إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، أو تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية. فسائر هذه التقسيمات وغيرها كثير لم ترد في الشارع منصوصاً عليها وإنما استنبطها العلماء من خلال استقراء كلام الشارع. [2]

---

1 كتاب التوسل بالنبي وجهالة الوهابيين.

2 أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة (ص: 91).

وقال الشيخ بكر أبو زيد:"هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة وابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) ، وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين-رحم الله الجميع-، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء". [1]

وقال الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد: "وهذا التقسيم لأنواع التوحيد عرف بالاستقراء من نصوص الكتاب والسنة". [2]

ثانيًا: هذا التقسيم موجود مع بداية التصنيف والتدوين لمسائل العقيدة ومن الأدلة على ذلك بعض النصوص الواردة عن السلف في بيان ذلك:

النص الأول: للإمام **أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري-رحمه الله-**(ت: 387 هـ) حيث قال في كتابه (الإبانة) ما نصه: (... وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذاهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون

---

1 التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص: 30).

2 مقدمة تحقيق كتاب تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد للصنعاني (ص: 10).

صانعا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينا بذلك مذاهب أهل الشـــرك الذين أقروا بالصـــانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصـــوفا بالصـــفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصـــوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.."[1]

وكلامه هذا صـريح في أن أصـل الإيمان بالله وتوحيده مبني على هذه الأمور الثلاثة فسـمى الأول اعتقاد الربانية والثاني اعتقاد الوحدانية والثالث اعتقاد اتصـافه بالصـفات العلى اللازمة لكمال الله سبحانه وتعالى.

والنص الثاني: للإمام الحافظ **أبي عبد الله محمد بن إســـحاق بن يحيى بن منده–رحمه الله– (ت: ٣٩٥ هـ)** حيث فصـــل وبوب في كتابه القيم: (كتاب التوحيد) في الأقســـام الثلاثة للتوحيد فمن تبويباته:

1. ذكر ما وصف الله عز وجل به نفسه ودل على وحدانيته عز وجل وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
2. ذكر معرفة بدأ الخلق.
3. ذكر معرفة أسماء الله عز وجل الحســـنى التي تســـمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء

---

1 الإبانة (2/ 172-173).

والذكر-وأبواب أخرى كثيرة فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الكتاب المذكور.

ولذلك وصف الكتاب ومباحثه محققه الدكتور علي الفقيهي بقوله:

"قسم المؤلف التوحيد إلى أربعة أقسام حيث جعل أسماء الله الحسنى قسما مستقلا ثم أتبعها بالصفات، وأقسام التوحيد الذي ذكرها هي:

الوحدانية في الربوبية.

توحيد الألوهية وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

توحيد أسماء الله الحسنى.

الصفات". [1]. [2]

ثالثًا: أن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام أمر مقرر عند المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية على خلل في التقسيم لديهم بعدم ذكرهم لتوحيد الألوهية ومن قولهم في ذلك ما قاله الشهرستاني (ت: ٥٤٨ هـ): "وأما التوحيد فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له". [3]

---

1 التوحيد ابن مندة (1/ 33) تحقيق علي بن ناصر الفقيهي ط: الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

2 انظر في ذلك: ((القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد))، عبد الرزاق البدر، دار ابن عفان.

3 الملل والنحل (1/ 42).

وقال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): "اعلم أنه تعالى واحد في ذاته، وواحد في صـــفاته، وواحد في أفعاله، أما أنه واحد في ذاته فلأن ذاته منزهة عن جهات التركيبات، لا من التركيبات المقدارية الحسية كما في الجسم، ولا من التركيبات العقلية كما في النوع المركب من الجنس والفصل.

وأما أنه واحد في صـفاته فهو أنه ليس في الوجود مواد آخر يسـاويه في الوجود بالذات، وفي العلم بكل المعلومات، وفي القدرة على كل الممكنات، وفي الغني عن كل ما سواه.

وأما إنه واحد في أفعاله فهو أنه ليس في الوجود موجود بكون مبدئا لجميع الممكنات إما بغير واسطة، وإما بواسطة إلا هو". [1]

وقال أبو منصور الماتريدي-رحمه الله-(ت: ٣٣٣ هـ): "الإيمان بالله: هو أن تجعله رب كل شيء، وأن له الخلق والأمر، والإيمان برسوله: هو أن تصدقه في كل ما يخبر عن الله تعالى وفي كل قول وفعل، وأنه صـادق، وأنه محق، وتعلم أنه بأمر الله تعالى ونهيه يأمر وينهى ويفعل لا من ذات نفسه؛ هذا هو الإيمان بالله تعالى ورسوله-صلى الله عليه وسلم-". [2]

قال الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)في تعريف التوحيد: "التوحيد ثلاثة أشـــياء: معرفة الله-تعالى-بالربوبية، والإقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة". [3]

---

[1] المطالَب العالية (١/ ١٦٣).

2تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) (9/ 515-516).

3التعريفات للجرجاني (ص: 99).

وقال كمال الدين ابن أبي شـــريف (ت: ٩٠٦ هـ):"التوحيد هو اعتقاد الوحدانية في الذات والصفات والأفعال". [1]

فلماذا لم يسقط هذا المنكر لتقسيم التوحيد دعواه على هذا القول بأن يقول عنه ما قاله عن تقســـيم التوحيد إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصـــفات، بحيث يقال هذا التقســـيم مبتدع وفيه مشـــابهة لدعوى النصـــارى بالتثليث، فهلا أخبرونا عن دليلهم الذي استدلوا به لهذا التقسيم؟! فما كان جوابًا لهم فهو جوابٌ لنا.

رابعًا: أن دعوى كون هذا التقسيم هو دعوة لعقيدة التثليث فهذه الدعوى فاسدة وميتة وهي دعوى ادعاها قدماء الجهمية

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وضـــربنا لهم مثلا في ذلك فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكرب وليف وسعفوخوص وجمار واسمها اسم شيء واحد وسميت نخلة بجميع صـــفاتها فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صـــفاته إله واحد لانقول إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة حتى خلق قدرته والذي ليس له قدرة هو عاجز ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات ولا يعلم حتى خلق له علما فعلم والذي لا يعلم هو جاهل، ولكن نقول لم يزل الله عالما قادرا مالكا لا متى ولا كيف.

قال وسمى الله رجلا كافرا اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي فقال: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}

1المسامرة شرح المسايرة: (ص: 43).

[المدثر: الآية: 11] وقد كان الذي سماه وحيدا له عينان وأذنان ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة وقد سماه وحيدا بجميع صفاته فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد". [1]

ثم إن التمييز بين الربوبية والألوهية ومن ثم تقسيم التوحيد إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، لم ينفرد به ابن تيمية،بل قال به العديد من العلماء، وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت: 354هـ):"الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المانِّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته". [2]

قال الشيخ أحمد بن حجر آل طامي (ت: 1432هـ): "أورد بعض المتعصبين: إن ذلك التقسيم لم يقل به النبي؟.

الجواب:

أولًا: أن يقال له: إن ترد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل به لا لفظًا ولا معنى فباطل،

---

1 بيان تلبيس الجهمية (3/ 96-97).

2روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: 14).

فإنه قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله))[1]...

وهذا هو توحيد الألوهية، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه علموا الداخلين في الإسلام بأن لا يعبدوا إلا الله، وهو ما نريده.

وأكثر القوم كانوا معترفين بالربوبية، فكانوا عارفين بمعاني الألفاظ، لا يحتاجون إلى تفرقة.

فإذا قيل لهم: لا إله إلا الله، ولا خالق ولا رازق إلا الله، عرفوا ما تدل عليه الجملة الأولى والثانية، وأنت حين توازن بين قوله تعالى إخبارًا عنهم: {وَلَئِن سَـــأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: الآية: ٨٧]، وقوله-تعالى-: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَـــيْءٌ عُجَابٌ} [ص: الآية: ٥]، يظهر لك ما قلناه بجلاء ووضوح.

على أنه لا يضرنا أن النبي-صلى الله عليه وسلم-وصحبه لم يصطلحوا هذا الاصطلاح، لأننا نقول: تؤخذ الأشياء بمعانيها، ولا يلزم أن يكون النبي-صلى الله عليه وسلم-وصحابته-رضي الله عنهم-يمشون على هذا النهج المصطلح عليه.

وغاية قولنا: إن معنى الرب في اللغة غير معنى الإله، يدل الأول على الإحاطة والخلق والإيجاد والتربية، والثاني: على المعبود بحق أو باطل.

ونقول في الجواب ثانيًا: إن لم يقسم النبي التوحيد إلى أقسام ثلاثة، فلم يحصره في قسم واحد-كما تزعم-، ومعنى الألفاظ الواردة في القرآن والسنة واللغة تساعدنا على ذلك، وليس معك

---

1 أخرجه البخاري (25)، ومسلم (22).

ما ينصرك على دعواك". [1]

رابعًا: أن إخراج توحيد الألوهية من تقسيم التوحيد مرده إلى عدم تفريقهم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وزعمهم بأنهما بمعنى واحد.

والذي دلت عليه النصـــوص وأقوال المفســـرين والعلماء هو التفريق بين هذين النوعين من التوحيد.

عن مجاهد بن جبر-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ): "{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْـرِكُونَ} [يوسف: الآية: ١٠٦]، إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره". [2]

وعن قتادة بن دعامة السدوسي-رحمه الله-(ت: ١١٨هـ)، قوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْـرِكُونَ} [يوسـف: الآية: ١٠٦]، في إيمانهم هذا. إنك لسـت تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته". [3]

قال محمد بن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "يقول تعالى ذكره: وما يقر أكثر هؤلاء الذين وصـف عز وجل صـفتهم بقوله: {وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُـونَ} [يوسف: الآية: ١٠٥]، بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء

---

1 العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية (1/ 66-67).

2تفسير الطبري (16/ 287).

3تفسير الطبري (16/ 288).

{إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ}، في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابا، وزعمهم أن له ولدا، تعالى الله عما يقولون". [1] وقول هنا فيه تفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

قال الشيخ حماد بن محمد الأنصاري-رحمه الله-(ت: ١٤١٨ هـ): "توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ليسا بمعنى واحد، كما ظنه الأشعرية الكلابية، والحنفية الماتريدية، والكرامية السجستانية، والجهمية الجعدية.

وهكذا كل هؤلاء الطوائف من المتكلمين المتفلسفين، الذين أعرضوا عن القرآن وعن السنة النبوية، واشتغلوا بالفلسفة والكلام، وبمجرد آراء يبدونها حول قضايا جوفاء لا نتيجة لها صحيحة". [2]

خامسًا: أن إخراج توحيد الألوهية من تقسيم التوحيد مرده إلى قول طوائف المتكلمين من إخراجهم العمل عن مسمى الإيمان وأنه التصديق فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-(ت: ٧٢٨ هـ): ((الوجه الثاني من غلط المرجئة: ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب، كما تقدم عن جهمية المرجئة، الثالث: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم

---

1 تفسير الطبري (16/ 286).

2 تفسير سورة الفاتحة وبيان ما تضمنته من أنواع التوحيد (ص: 30).

بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر". [1]

الأمر الرابع: العلاقة بين أقسام التوحيد

أقسام التوحيد تُشكل بمجموعها جانب الإيمان بالله الذي نُسميه التوحيد، فلا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة، فهي متكافلة متلازمة يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستغناء ببعضها عن الآخر، فلا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية، وكذلك لا يصح-ولا يقوم-توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية، وكذلك توحيد الله في ربوبيته وألوهيته لا يستقيم بدون توحيد الله في أسمائه وصفاته، فالخلل والانحراف في أيِّ نوع منها هو خلل في التوحيد كله، "فمعرفة الله لا تكون بدون عبادته، والعبادة لا تكون بدون معرفة الله، فهما متلازمان". (2)

وقد أوضح بعضُ أهل العلم العلاقة بين أنواع التوحيد بقوله: "هي علاقة تلازم وتضمن وشمول".

فتوحيد الربوبية مُستلزم لتوحيد الألوهية.

---

1 مجموع الفتاوى (7/ 204).

(2) «تحذير أهل الإيمان» (1/ 140)، (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية).

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

وتوحيد الأسماء والصفات شامل للنوعين معًا.

بيان ذلك: أنَّ مَن أقرَّ بتوحيد الربوبية، وعلم أنَّ الله سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته لَزمه (1) من ذلك الإقرار أن يُفرد الله بالعبادة وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا، وما دام كله لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده.

ولهذا جَرَت سُنَّة القرآن الكريم على سوق آيات الربوبية مَقرونة بآيات الدعوة إلى توحيد الألوهية، ومن أمثلة ذلك:

قوله-تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: الآية: ٢١].

وأمَّا توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأنَّ مَن عبد الله ولم يُشرك به شيئًا فهذا يدل ضمنًا على أنه قد اعتقد بأن الله هو ربه ومالكه الذي لا ربَّ غيره.

---

(1) اللازم هنا قد يتخلف، كما هو الحال في كفار قريش؛ فهم يُقرون بتوحيد الربوبية، كما دَلَّت على ذلك النصوص، ولكنهم لم يُحققوا اللازم مِن إقرارهم بتوحيد الربوبية.

وهذا أمر يشاهده الموحد من نفسه، فكونه قد أفرد الله بالعبادة ولم يَصرف شيئًا منها لغير الله، ما هو إلا لإقراره بتوحيد الربوبية، وأنه لا ربَّ ولا مالك ولا متصرف إلا الله وحده.

وأمَّا توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنَّوعين معًا، وذلك لأنه يقوم على إفراد الله تعالى بكلِّ ما له من الأسماء الحسنى والصفات العُلى التي لا تنبغي إلا له سبحانه وتعالى، والتي من جملتها: الرَّب-الخالق-الرازق-الملك، وهذا هو توحيد الربوبية.

ومن جملتها: الله-الغفور-الرحيم-التَّواب، وهذا هو توحيد الألوهية. (1)

(1) انظر: «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» للشيخ عبد العزيز السلمان (ص: 421، 422).

[الإيمان بالملائكة]

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولى: التعريف اللغوي للملائكة.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي للملائكة.

المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالملائكة

المسألة الرابعة: صفاتهم وقدراتهم.

[٢]-قال المصنف-رحمه الله-: "وملائكته".

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التعريف اللغوي للملائكة.

قال الكرماني: "الملائكةُ: جمع مَلَكٍ؛ نظرًا إلى أصله الذي هو (مألك) مَفْعَل من الألوكة، بمعنى الرسالة، والتاء زيدت فيه لتأكيد معنى الجمع، أو لتأنيث الجمع". [1]

أصله: أَوالملكلكَ، والمألكة، والمألكُ: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله.

---

1 «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» (1/ 194).

وقيل: اشتق من (لَ أك) والملأكة: الرسالة، وألكني إلى فلان؛ أي: بلغه عني، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى.

وقال بعض المحققين: الملك من الملك. قال: والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له مَلَك، ومن البشر مَلِك.[1]

المسألة الثانية: التعريف الشرعي للملائكة.

"الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبداً."[2]

وسنرى عبر نصوص الكتاب والسنة صفاتهم التي حدثتنا بها النصوص.

---

1 راجع: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي: 4/ 524.

2 عالم الملائكة الأبرار ص 8.

المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالملائكة.

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، وأصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: 285].

- والإيمان بالملائكة: يكون على درجتين:

الدرجة الأولى: الإيمان المجمل.

فيجب أن يكون إيمانًا مُجملًا بجميعهم؛ مَن علمنا منهم ومَن لم نعلم، وأن الله خلقهم من نور، وأنهم عباد مُكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون،

الدرجة الثانية: الإيمان المفصل.

فيجب أن يكون إيمانًا مُفَصَّلًا بمن ذُكر منهم باسمه؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وبصفة مَن ذُكر منهم بوصفٍ؛ كحملة العرش وخزنة النار وجبريل، وبعدد مَن ذُكِر منهم بعددٍ كخزنَة النار وحملة العرش.

وبعمل مَن ذُكِر منهم بعملٍ؛ فمنهم الموكَّل بالجبال، ومنهم الموكَّل بالقَطر، ومنهم الموكَّل بفتنة القبر، ومنهم الموكَّل بالنفخ في الصور وغير ذلك.

نقل السيوطي عن البيهقي في كتابه (شعب الإيمان): " أن الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

أحدها: التصديق بوجودهم.

الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكنّ الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

الثالث: الاعتراف بأنّ منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأنّ منهم حملة العرش، ومنهم الصافّون، ومنهم خزنة الجنّة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره ".[1]

- ومن ثمرات الإيمان بالملائكة:

أولًا: العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقدرته وسلطانه.

ثانيًا: شكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكَّل بهم مِن هؤلاء الملائكة مَن يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

---

1 الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ص 10. وانظر مختصر شعب الإيمان: 1/ 405-406.

ثالثًا: محبَّة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله على الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين[1].

المسألة الرابعة: صفاتهم وقدراتهم

- مادة خلقهم ووقته.

إنّ المادة التي خلقوا منها هي النور؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[2].

"ولم يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي نور هذا الذي خلقوا منه، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد؛ لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث"[3].

---

1 انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله» (3/ 259).

2 صحيح مسلم: 4/ 2294. ورقمه: 2996.

3 عالم الملائكة الأبرار ص 9.

ولا ندري متى خُلقوا، فالله-سبحانه-لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أنّ خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه جاعل في الأرض خليقة: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ [البقرة: 30]، والمراد بالخليفة آدم عليه السلام، وأمرهم بالسجود له حين خلقه: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: 29][1].

- **عِظَم خلقهم**[2]

قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: 6].

ومن الأمثلة عظم خلقهم ما ورد في الأحاديث التي تتحدث عن ملكين كريمين هما:

---

1 عالم الملائكة الأبرار ص 10.

2 المصدر: عالم الملائكة الأبرار ص 10،11

1-عِظم خلق جبريل عليه السلام:

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها مرتين، هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ [التكوير: 23]، وفي قوله: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى-عند سدرة المنتهى-عندها جنة المأوى﴾ [النجم: 13-15]، عندما عرج به إلى السموات العلا.

وقد ورد في صحيح مسلم: أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم عن هاتين الآيتين فقال صلى الله عليه وسلم: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين.

رأيته منهبطاً من السماء، سادّاً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء إلى الأرض)[1].

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلَّى﴾ [النجم: 8]، فقالت: " إنما ذلك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته، التي هي صورته، فسدّ أفق السماء "[2].

---

1 صحيح مسلم: 1/ 159. ورقم الحديث: 177.

2 صحيح مسلم: 1/ 160. ورقمه: 177.

وورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح "[1].

وقال ابن مسعود أيضاً في قوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: 18] " أي رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق "[2]. وهذا الرفرف الذي سدّ الأفق هو ما كان عليه جبريل، فقد ذكر ابن حجر أن النسائي والحاكم رويا من طريقهما عن ابن مسعود قال: " أبصر نبي الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض " [3].

وذكر ابن حجر أن ابن مسعود قال في رواية النسائي: " رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق "[4].

---

1 صحيح البخاري: 8/ 610. ورقمه: 4856، 4857.

2 صحيح البخاري: 8/ 611. ورقمه: 4858.

3 فتح الباري: 8/ 611.

4 فتح الباري: 8/ 611.

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق. يسقط من جناحه التهاويل[1] من الدرر واليواقيت ".

قال ابن كثير في هذا الحديث: " إسناده جيد "[2].

وقال في وصف جبريل: ﴿إنه لقول رسولٍ كريمٍ-ذي قوةٍ عند ذي العرش مكينٍ-مُّطاعٍ ثم أمينٍ﴾ [التكوير: 19-21]، والمراد بالرسول الكريم هنا: جبريل، وذي العرش: رب العزة سبحانه.

2-عِظم خلقة حَمَلة العرش:

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُذن لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[3].

---

1 التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.

2 البداية والنهاية: 1/ 47.

3 صحيح سنن أبي داود: 3/ 895. ورقمه: 9353.

ورواه ابن أبي حاتم وقال: (تخفق الطير). قال محقق مشكاة المصابيح: " إسناده صحيح "[1].

وروى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت)[2].

- **أهم الصفات الخَلقية[3].**

أولاً: أجنحة الملائكة:

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، أو أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك: ﴿الحمد لله فاطر السَّماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾ [فاطر: 1].

---

1 مشكاة المصابيح: 3/ 121. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: 151.

2 صحيح الجامع الصغير. الطبعة الثالثة: 1/ 208. ورقمه: 853.

3 المصدر: عالم الملائكة الأبرار ص 12.

والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أو أربعة، أو أكثر من ذلك.

وقد سبق ذكر الأحاديث التي يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن لجبريل ستمائة جناح.

ثانياً: جمال الملائكة:

خلقهم الله على صور جميلة كريمة قال تعالى في جبريل: ﴿علَّمه شديد القوى-ذو مرةٍ فاستوى﴾ [النجم: 5-6]. قال ابن عباس: (ذو مرة): ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْقٍ طويل حسن. وقيل: ذو مرة: ذو قوة. ولا منافاة بين القولين، فهو قوي وحسن المنظر.

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك، انظر إلى ما قالته النسوة في يوسف الصديق عندما رأينه: ﴿فلما رأينه أكبرنه وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ﴾ [يوسف: 31].

- **أهم الصفات الخُلُقية:**

أولاً: العلم.

والملائكة عندهم علم وفير علّمهم الله إيّاه، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء

هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31-32].

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء، واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

ولكنّ الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان، ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12]. [1]

ثانيا العبادة:

والملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

فتركهم للمعصية، وفعلهم للطاعة جبلّة، لا يكلفهم أدنى مجاهدة؛ لأنه لا شهوة لهم.

---

1 انظر عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الأشقر (1/ 22).

ولعلّ هذا هو السبب الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين، وإنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد[1].

ويمكن أن نقول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين بالتكاليف نفسها التي كلف بها أبناء آدم. أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً، فهو قول مردود، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50]. وفي الآية أنهم يخافون ربهم، والخوف نوع من التكاليف الشرعية، بل هو من أعلى أنواع العبودية، كما قال فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

المسألة الخامسة: مكانة الملائكة.

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله، ولكنهم عباد مكرمون، وقد أبطل الله دعوى المشركين حينما زعموا أنّ الملائكة-بنات الله-وبين أنها دعوى باطلة، لا نصيب لها من الصحة، وقد أكذب الله القائلين بهذا القول، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع، قال تعالى:﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن

1 لوامع الأنوار البهية: 2/ 409.

يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 26-29].

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية، قائمون بما أوكل إليهم، منفذون للتعاليم، وعلم الله بهم محيط، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم، خائفون وجلون...

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين، ولا يعترضون على ما أمر من أوامره، بل هم عاملون بأمره، مسارعون مجيبون ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، فالأمر يحركهم، والأمر يوقفهم، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64])) [1].

نماذج من عبادتهم:

---

1 صحيح البخاري: 6/ 305. ورقمه: 3218.

الملائكة عباد الله، مكلفون بطاعته، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة. وسنورد- هنا-بعض العبادات التي حدثنا الله، أو رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم يقومون بها.

1-التسبيح:

الملائكة يذكرون الله تعالى، وأعظم ذكره التسبيح، يسبحه تعالى حملة عرشه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: 7]، كما يسبحه عموم ملائكته: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: 5].

وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع، لا في الليل، ولا في النهار:﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20].

ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبِّحون في الحقيقة، وحق لهم أن يفخروا بذلك: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 165-166].

وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: ((سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذكر أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده))[1].

---

1 صحيح مسلم: 4/ 2093. ورقمه: 2731.

2-الحج:

للملائكة كعبة في السماء السابعة يحجون إليها، هذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى: البيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: 4].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: (ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء، بعد مجاوزته السماء السابعة: ((ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)) [1]؛ يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وَجَد إبراهيمَ الخليل-عليه الصلاة والسلام-مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل).

وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة، أي فوقها، لو وقع لوقع عليها، وذكر أن في كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة[2].

---

1 صحيح البخاري: 6/ 103. ورقمه: 3207. وصحيح مسلم: 1/ 146. ورقمه: 162. وفي اللفظ بعض الاختلاف عما هو في الصحيحين.

2 انظر تفسير ابن كثير (7/ 428 و429)

وهذا الذي ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة: (أن رجلاً قال لعلي-رضي الله عنه-: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء بحيال البيت، حرمة هذا في السماء كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه)[1].

3-خوفهم من الله وخشيتهم له:

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة، كان تعظيمهم له، وخشيتهم له عظيمة، قال الله فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

---

1 نقله عن الطبري وإسحاق: ابن حجر في فتح الباري: 6/ 308، وأطال في الكلام على إسناده وطرقه. وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني: (ورجاله ثقات غير خالد بن عرعرة، وهو مستور... ثم ذكر أن له شاهداً مرسلاً صحيحاً من رواية قتادة، قال: ذكر لنا ((أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه: هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه مسجد في السماء، تحته الكعبة، لو خرّ لخر عليها...)) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 859).

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ" .[1]

قال علي، وقال غيره: (صفوان ينفذهم ذلك. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير)[2].

وفي معجم الطبراني الأوسط بإسناد حسن عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [3]

خامسًا: وقد يفصلون بين متخاصمين ولو كانوا ملائكة:

---

1 صحيح البخاري (6/ 80) (4701)

2 صحيح البخاري: 3/ 380. ورقمه: 4701.

3 رواه الطبراني في الأوسط (5/ 64) برقم (4679) قال الألباني حسن انظر الأحاديث الصحيحة (2289)، السنة (821).

وقد حدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فحكّموا فيه ملكاً جاءَهم في صورة آدمي، يقول عليه السلام: فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "[1]

سادسا سَفَرَة:

وصف الله الملائكة بأنهم ﴿كرام برة: بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 15-16]؛ أي القرآن بأيدي سفرة، أي: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، قال البخاري: (سفرة: الملائكة واحدهم سافر، سفرتُ: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة-إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته- كالسفير الذي يصلح بين القوم) [2].

---

1 صحيح مسلم (4/ 2118) برقم (2766).

2 صحيح البخاري: 8/ 691.

سابعا بَرَرَة:

وقد وصف الله تعالى هؤلاء الملائكة بأنهم كِرَامٍ بَرَرَةٍ؛ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة ظاهرة كاملة، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

روى البخاري عن عائشة–رضي الله عنهما–قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران))[1].

ثامنا الحياء واستحياء الملائكة:

من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بها: الحياء؛ ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة: ((أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً في بيتها، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثمّ استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس الرسول صلى الله

1 صحيح البخاري: 8/ 691. ورقمه: 4937. ورواه مسلم: 1/ 549. ورقمه: 798، واللفظ للبخاري.

عليه وسلم وسوّى ثيابه، فدخل، فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر، فلم تهتش له، ولم تُبَالِهِ، ثم دخل عمر، فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان، فجلست، وسويت ثيابك، فقال: ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة))[1]

التاسع: يحبون ويبغضون:

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ. ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ"[2]

---

1 رواه مسلم: 4/ 1866. ورقمه: 2401.

2 رَوَاهُ مُسلم (4/ 2030) برقم (2637)

عَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ قَالَ لي جِبْرِيل: مَا كَانَ على الأَرْض شَيْء أبْغض إليَّ من فِرْعَوْن فَلَمَّا آمن جعلت احشو فَاه حمأة وَأَنا أغطه خشيَة أَن تُدْرِكهُ الرَّحْمَة[1]

العاشر: يضحكون ويتأثرون.

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار"[2]. يقتضي أن الملائكة يضحكون وفيه دليل على أنهم يتأثرون.

الحادي عشر: منظمون في كل شؤونهم.

---

1 أخرج ابن جرير، والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا نحوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا. وأخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعا نحوه أيضا، قال الشوكاني: وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول، وباقي رجاله ثقات انظر فتح القدير للشوكاني:

2 أخرجه الروياني في " مسنده " (ق 247/ 2) قال الألباني وهذا إسناد صحيح انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (6/ 42).

الاصطفاف: جاء في الحديث الذي يحث الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة: ((ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال: يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف)). [1]

وفي القرآن عن الملائكة: قوله تعالى: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) [الصافات: 165]. وهم يقومون، ويركعون، ويسجدون، ففي مشكل الآثار للطحاوي، وفي المعجم الكبير للطبراني عن حكيم بن حزام قال: ((بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا عليه ملك ساجد أو قائم))[2].

الملائكة منظمون في عبادتهم :

---

1 رواه مسلم: 1/ 322. ورقمه: 430.

2 قال فيه الألباني: (صحيح على شرط مسلم). سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم 852.

وقد حثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم في ذلك فقال: ((ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها؟ قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف))[1].

وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة: ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]، ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]، والروح: جبريل.

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر، ففي صحيح مسلم، ومسند أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ "[2]

الثالث عشر: تفتقده إذا غاب عن المسجد وتعوده إذا مرض:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

1 رواه مسلم: 1/ 322. ورقمه: 430.

2 صحيح مسلم: 1/ 188. ورقمه: 197.

" إنَّ للمساجدِ أوتادًا؛ الملائكةُ جلساؤهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرِضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم "[1]

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"المسجِدُ بيتُ كلِّ تقيٍّ وتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَن كانَ المسجِدُ بيتَهُ بالرَّوحِ والرَّحمةِ والجوازِ على الصِّراطِ إلى رِضوانِ اللَّهِ إلى الجنَّةِ "[2]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ما تَوَطَّنَ رجلٌ مسلمٌ المساجِدَ للصلاةِ والذكْرِ، إلّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ منْ حينِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، كَما يتَبَشْبَشُ أهلُ الغائِبِ بغائِبِهِمْ، إذا قدِمَ علَيْهم "[3]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:

---

1 حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم 329.

2 حسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب رقم 330

3 حسنه الألباني في صحيح الجامع 5604

"الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ؛ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ "[1]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

"أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟

قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ "[2]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ:

"صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَغْرِبَ فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْرِعًا قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ،

---

1 صحيح البخاري رقم 445

2 صحيح مسلم رقم 251

فَقَالَ: " أَبْشِرُوا؛ هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى "[1]

المسألة السادسة: هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة:

روى مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عُرض عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال[2]، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم صلوات

1 رواه ابن ماجه 801 وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه 660

2 الضرب من الرجال: هو الرجل المتوسط في كثرة اللحم وقلته. وقيل: الخفيف اللحم.

الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبُكم، (يعني نفسه) ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (دحية)[1] وفي رواية: (دحية بن خليفة) .[2]"

فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة بشر؟! الأرجح هذا الأخير؛ لأن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً.[3]

---

1 ودحية الكلبي: هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي القضاعي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسوله بكتابه إلى عظيم بُصرى ليُوصله إلى هرقل. أسلم دحية قبل بدر، ولم يشهدها، وكان يتشبّه به جبريل عليه السلام، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورته، وكان من أجمل الناس وجهاً. شهد اليرموك، وسكن المزة من قرى دمشق، وبقي إلى زمن معاوية. انظر سير أعلام النبلاء 2550. والإصابة لابن حجر 1463.

2 صحيح مسلم: 1/ 153. ورقمه: 167.

3 عالم الملائكة الأبرار ص 13.

وتشكل الملائكة على صورة أحدٍ من البشر ثبت في القرآن وصحيح السنَّة، وهذا الشبه بين صورة جبريل وصورة دحية الكلبي إنما هو في الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة دحية؛ لأن أصل خلقة الملائكة تختلف عن أصل خلقة الآدميين، والملائكة في أصل خلقتهم ليس بينهم وبين البشر شبه، فهم لا يشبهون بني آدم قط، وإنما يشبهونهم إذا تمثلوا في صورة آدميين.

إن جبريل عليه السلام لا تتغير صورته ولا تتبدل ولكن يمثل في أعين يومئذ من رآه على شكل دحية الكلبي.

وهنا يفصل المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية وهو بصدد الرد على بشر المريسي:

((أن رؤيتهم تلك أنَّهم يعلمون يومئذ أن لهم ربا لا يعتريهم في ذلك شك كأنهم في دعواك أيها المريسي لم يعلموا في الدنيا أنَّه ربهم حتى يستيقنوا به في الآخرة فهذا التفسير إلى الشك أقرب مما ادعيت في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشك والشرك لا بل هو الكفر لأن الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم يعلمون يومئذ أن الله ربهم ألا ترى أنه يقول: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة 12] فالشك في الله هذا الذي تأولته أنت في الرؤية لا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك إن الله لا تتغير صورته ولا تتبدل ولكن يمثل في أعينهم يومئذ أولم تقرأ كتاب الله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ

فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال 44] وهو الفعال لما يشاء كما مثل جبريل عليه السلام مع عظم صورته وجلالة خلقه في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما مثله لمريم بشرًا))[1]

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (دحية).))، وفي رواية: ((دحية بن خليفة))[2].

فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي، أم لا؟

قال رحمه الله تعالى: "فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك، فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك، بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته وإن كان ما رآه مناسبا مشابها لها، فالله تعالى أجل وأعظم"[3]

---

1 انظر بيان تلبيس الجهمية (7/ 138).

2 صحيح مسلم: 1/ 153.

3 "بيان تلبيس الجهمية" (1/ 325) [ط. مجمع الملك فهد).

المسألة السابعة: علاقة الملائكة بالإنسان.

الملائكة عليهم سلام خلقهم الله من نور، وهم من عالم الغيب أطلعنا الله على شيء من أخبارهم بالقدر الذي أراده سبحانه وتعالى، ولا عِلْم لنا بعالَم الملائكة إلا في حدود ما أخبرنا عنهم ربنا سبحانه في قرآنه الكريم، أو ما جاء وصح عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأيُّ خبر عن الملائكة خارج عن هذين الأصلين يعتبر رجمًا بالغيب.

- بدأت علاقة الملائكة بآدم عليه السلام قبل خلقه:

حينما قال الله تعالى للملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:30]، وجاء الرد من الملائكة: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: 30]

- وحينما أراد الله أن يخلق آدم عليه السلام من تراب الأرض

أرسل ملكًا ليقبض قبضة من التراب[1]، ثم خلق آدم، وظلَّ بين الماء والطين حينًا من الدهر، ثم أوحى الله سبحانه إلى الملائكة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29].

فسجدت الملائكة بمجرد صدور الأمر الإلهي؛ تعظيمًا لأمر الله سبحانه.

---

1 انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 210) برقم (773)

- آدم عليه السلام يسلم على الملائكة بتحية الإسلام وترد عليه الملائكة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ المَلَائِكَةِ، إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ، فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ، بَيْنَهُمْ "[1]

- دعاء الملائكة لآدم: "يرحمك الله".

فقد ثبت أنه عندما نفخ الله سبحانه الروحَ في آدم عليه السلام عطس آدم وقال: "الحمد لله"، فقالت له الملائكة: "يرحمك الله"

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: " ذَلِكَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَسَارَ فِيهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى، فَاسْتَوَى جَالِسًا فَعَطَسَ فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَحِمَكَ اللَّهُ"[2].

- نزول آدم عليه السلام إلى الأرض:

---

1 أخرجه الترمذي في سننه (5/ 453) (3368) وهو صحيح انظر مشكاة المصابيح (3 /1321) (4662)

2 أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (3/ 259) (5569).

وبعد أن نزل آدم إلى الأرض لعمارتها، جعل الله سبحانه من الملائكة رُسُلاً إلى بني آدم، فكانت الكتب السماوية التي نزلت إلى الأنبياء والمرسلين، من أول صحف إبراهيم إلى ختام الأنبياء المرسلين.

- العلاقة المباشرة بين البشر وبين الملائكة:

أمَّا بالنسبة للعلاقة المباشرة بين البشر وبين الملائكة، فإن بدايتها من يوم إرسال الملك لينفخ الروح في الجنين في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وشقي أم سعيد، ومن بعد ذلك مع مولده، ثم هم معه في طفولته، وتستمرُّ هذه العلاقة في حياته كلها، وأشد ما تكون هذه العلاقة عند الشدائد، وبالذات يوم وفاته ويوم بعثه، ثم بعد ذلك عند الحساب، وبعدها إما في الجنة بإذن الله، أو في النار التي عليها ملائكة غلاظ شِداد.

- الملائكة حُرَّاسًا على السموات المسلحة بالشهب:

وعاش الإنسان يتأرجح بين الهدى والضلال؛ تارةً يأخذ زمام الأمور بيده، وتارةً تستهويه الشياطين في الأرض حيرانَ، وكلما أغلق الإنسان بابًا من أبواب الضلال، أتاه الشيطان من باب آخر، فجاءتْه الشياطين، ووصل الأمر إلى أن استرَقَ الشياطينُ السمعَ في السماء الدنيا، ويوحون إلى أوليائهم زخرفَ القول، فكانت النجدة من عند الله سبحانه وتعالى للبشر أن جعل حُرَّاسًا على السموات من الملائكة المسلحة ضمنًا بالشهب لمنع الشياطين من استراق السمع لتضليل الناس، واعترفت الشياطين بذلك كما جاء في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: 8].

- الملائكة شهودًا على أفعال بني آدم:

ومن قبل ذلك ومن بعده جعل الله سبحانه من الملائكة شهودًا على أفعال بني آدم بأن جعل منهم الكرام الكاتبين، كل هذا بإذن الله تعالى كما قالت الملائكة فيما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: 64].

- ملك الأرحام عليه السلام:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَرَفَعَ الْحَدِيثَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ "[1].

- علاقة الملائكة بالأطفال:

وبعد الولادة مباشرة تبدأ رسالة الوالدين برعاية الوليد في طعامه وشرابه، لا يأكلان حتى يأكل، ولا ينامان حتى ينام؛ لأنه ليس له سن يقطع، ولا يد تبطش، وهذه هي رعاية المادة أو الجسم، فمن يرعى الروح في عالم جديد؟ أو من يستطيع أن يتعامل مع سرٍّ من أسرار الله؟ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: 16] إِلَى {عَتِيدٌ}

1 أخرج مسلم (4/ 2038) برقم (2646)

[ق: 18] قَالَ: «جَعَلَ اللَّهُ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَافِظَيْنِ فِي اللَّيْلِ، وَحَافِظَيْنِ فِي النَّهَارِ، يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَيَكْتُبَانِ أَثَرَهُ » [1]

- علاقة الملائكة بني آدم إذا بلغ سن التكليف:

وينمو الوليد على ذلك، إلى أن يصل إلى سن التكليف، فتبدأ علاقة من نوع جديد بينه وبين الملائكة، فيجعل الله عن يمينه ملكًا يدوّن له حسناته، وعن شماله ملكًا يسجّل عليه سيئاته، كما يقول-سبحانه وتعالى-في سورة (ق): ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 17، 18].

- علاقة الملائكة لمن راح إلى المسجد ولمنتظر الصلاة

كما ثبت أن الملائكة تستغفر لمنتظر الصلاة ومن في حكمه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " الملاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ " [2]

---

1 انظر تفسير الطبري (21/ 425).

2 أخرجه البخاري في صحيحه (1/ 96) (445) و (1/ 132) (659).

قال ابن بطال: قوله عليه السلام: (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه)، تفسير لقوله: (ويستغفرون للذين آمنوا) [غافر: 7]، يريد المصلين، والمنتظرين للصلاة ويدخل في ذلك من أشبههم في المعنى، ممن حبس نفسه على أفعال البرّ كلها، والله أعلم. انتهى[1]

ومن كان في طريقه للمسجد، فكأنه في صلاة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ».[2]

وعلى هذا، فإنه يرجى له أن يكون ممن تستغفر لهم الملائكة.

فالذهاب إلى المسجد ثوابه عظيم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ

---

1 شرح صحيح البخاري لابن بطال (2/ 284).

2 أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 421) (602).

الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[1]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

- الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، والأقذار، والأوساخ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ "[2]

- البصاق عن اليمين في الصلاة تَتَأَذَّى منه الملائكة:

---

1 أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 219) (251).

2 أخرجه البخاري في صحيحه (1/ 395) (564).

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه؛ فإن عن يمينه ملكاً، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها))[1]

- لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جُنب

قال ابن كثير[2]: (ثبت في الحديث المروي في الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جُنب))[3]

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه (416).

2 البداية لابن كثير (1/ 55).

3 رواه أبو داود (227)، والنسائي (7/ 185)، وابن حبان (4/ 5)، (1205)، والحاكم (1 / 278). من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: صحيح، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (1/ 46): ثابت، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (1/ 242) كما قال ذلك في المقدمة.

- حفظ الملائكة العبد عموما من أمر الله:

كما يدل أن الملائكة لا تحفظ العبد مما يأتي من قضاء الله وقدره، قوله تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) {الرعد: 11}

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} وَالْمُعَقِّبَاتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ.

وَقَالَ عِكْرِمة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ خَلَّوا عَنْهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَك مُوَكَّلٌ، يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَرَاءَكَ إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللَّهُ فِيهِ فَيُصِيبُهُ [1]

قال البغوي: في التفسير: يحفظونه من أمر الله، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه.

وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه[2].

---

1 انظر تفسير ابن كثير (4/ 438).

2 انظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن (3/ 9).

وقال القرطبي: في التفسير: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفاً منه به، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه[1]

وقال ابن رجب: في جامع العلوم والحكم: وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله ويحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه[2]

- علاقة الملائكة بالمسلم في حياته اليومية:

وهذه العلاقة تستمر معك بطول الحياة وعرضها، فإذا ذهبتَ إلى المسجد للصلاة، يقول ملك بجوارك: "اللهم اغفر له، اللهم احفظه[3]، لا يتركك حتى تنصرف، وإذا أنفقتَ مما آتاك الله شيئًا لوجه الله، يدعو لك ملك من قِبل الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ

1 انظر تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن (9291)

2 انظر جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (1/ 465)

3 انظر صفحة (197) علاقة الملائكة لمن راح إلى المسجد ولمنتظر الصلاة

مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " [1] . وهكذا كلما هممت بطاعة ابتغاءَ وجه الله تعالى.

- علاقة الملائكة على من يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

- قعود الملائكة يوم الجمعة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول

عن أبي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ».[2]

- علاقة حملة العرش للذين آمنوا بالله تعالى:

وهم قد يقتصرون بصالح دعواتهم وصلواتهم للمؤمنين فقط وبالدعوات التي تشرح صدر هذا الإنسان، وتثلج قلب كل مؤمن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ

1 صحيح البخاري (2/ 115) (1442)

2 رواه مسلم (2/ 587).

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].

ولكن في استغفارهم يستغفرون لكل من في الأرض، فيقول تعالى مبيّنًا ذلك: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: 5].

- علاقة الملائكة بالمستقيمين:

وهؤلاء الذين آمنوا بالله سبحانه وساروا على نهج الله تعالى واهتدَوْا إلى الصراط المستقيم، وسلكوا سبيل الرشد؛ أملاً في الاستقامة، فالملائكة لتدعوا لهم بالتوفيق، فيطمئنونهم ويبشّرونهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

فالملائكة يساهمون في الدعوات والصلوات في ثبات المؤمن على الاستقامة، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 43].

- علاقة الملائكة بالإنسان عند الموت

وفي نهاية مطافك في الحياة الدنيا، فإن الإنسان إذا احتضره الموت، انقطع رزقه، فقد صح عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا

لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[1]

فحين إذن، يتوقف عن التنفس فيقوم ملك الموت بنزع الروح، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: 11].

- علاقة الملائكة بالميت المؤمن:

فينادون الذين سبقتْ لهم الحسنى من الله مبشرين برضوان الله ومذكّرين بحسن الثواب ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103]. وفي هذا المشهد العظيم الحمد كله لله سبحانه وتعالى ونعم أجر العاملين: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

- علاقة الملائكة بالميت الكافر:

قال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد: 27]. وعندما تأتيه المنيَّةُ يقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 10، 11].

---

1 أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 26) وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته (1/ 419).

ومن مات من الكفار لعنتهم الملائكة لكفرهم قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

- علاقة الملائكة ببني آدم في القبر:

وفي القبر صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ملكًان يأتيان إلى الميت فيسألانه ويريه مقعده في الجنة أو النار، وذلك في نهاية سؤال القبر.

عَن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ ديني الْإِسْلَام فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ قَالَ فَيَقُول هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولَانِ وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ زَاد فِي حَدِيث جرير فَذَلِك قَول الله عز وَجل (يثبت الله الَّذين آمنُوا بالْقَوْل الثَّابِت) الْآيَة ثمَّ اتفقَا قَالَ فينادي مُنَاد من السَّمَاء أَن قد صدق عَبدِي فأفرشوه مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ وألبسوه من الْجنَّة قَالَ فيأتيه من روحها وطيبها قَالَ وَيفتح لَهُ فِيهَا مد بَصَره عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ «هَاهُنَا» وَقَالَ: " وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ " قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: " وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ،

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ " قَالَ: " فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [ص:240]، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ «زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ» فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [إبراهيم: 27] " الْآيَةُ-ثُمَّ اتَّفَقَا-قَالَ: " فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ " قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ» قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: " وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ " قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» قَالَ: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ» زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا» قَالَ: «فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا» قَالَ: «ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ» [1]

- علاقة الإنسان يوم البعث:

---

1 رواه أبو داود في سننه (4/ 239) (4753) وصححه الشيخ الألباني انظر (1/ 47).

ويوم البعث ستخرج من قبرك فتجد ملكًا من قِبَل الله يأخذك ويوقفك في المكان الذي يريده الله لك، أو يسوقك إلى موقفك المناسب، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21].

عن ابن عباس، قوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) قال: السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه[1].

- علاقة الملائكة يوم الحساب:

ثم عند الحساب يوم ينفع الصادقين صدقهم، تأتي الملائكة شفعاء بإذن الله ولكنَّهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 87]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

- علاقة الملائكة بعد الحساب:

وبعد الحساب، إما جنة وإما نار،

---

1 انظر تفسير الطبري (22/ 348).

1-فبالنسبة لأهل الجنة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: 23]،

2-أما أهل النار، فسيجدون التوبيخ اللائق بهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: 71]،

ثم بعد ذلك يتلفتون في النار لعلهم يجدون مخرجًا منها، فينادون على خازن جهنم: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: 77].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: 6].

- علاقة الملائكة لمن دخل الجنة:

ثم يباركونهم ويهنئونهم بعدما يزفونهم إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23، 24].

والموضع الصحيح لهذا الحبِّ الذي وهبه لنا-سبحانه وتعالى-﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 7].

المسألة الثامنة: التفاضل بين الملائكة والبشر.

تنبيهات مهمة:

وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية رحمه الله: (المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره)[1].

وقال ابن كثير: (أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم)

قال: (أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم) وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل[2]).

---

1 الفتاوى (4/ 354).

2 البداية والنهاية (1/ 54) تهذيب تاريخ دمشق (3/ 136)

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل، قال البيهقي في التفاضل بين الملائكة والبشر: (والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به)[1] .

وقال شارح الطحاوية: (وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[2].

وقال: (وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول)[3].

ونقل عن تاج الدين الفزاري من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه: (اعلم أن هذه المسألة من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب)[4].

---

1 شعب الإيمان (1/ 182)

2 شرح الطحاوية (278)

3 شرح الطحاوية (288).

4 شرح الطحاوية 297.

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد، ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعاً للنظر والاستدلال، ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف.

وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة، وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائك، وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة، ولكنها أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل:

حديث: ((المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة))[1] .

وحديث: ((أن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فأجعل لنا الآخرة فقال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان))[2].

---

1 رواه ابن ماجه (786) والبيهقي في (شعب الإيمان) (1/ 137) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [فيه أبو المهزم] قال البيهقي: متروك، وقال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (2/ 278): [فيه] أبو المهزم تركه شعبة وقال البيهقي: متروك وقد روى موقوفا.

2 رواه الطبراني في (المعجم الأوسط) (6/ 196) (6173) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال ابن تيمية في (بغية المرتاد) (224): ثابت بالإسناد على شرط الصحيح، وقال ابن

وحديث: ((ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر))[1] وكلها ضعيف وموضوع.

فهذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذاً ورداً، وطال طولاً أخرجها عن فائدتها وحدها.

خلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها على أربعة أقوال[2]:

القيم في (مختصر الصواعق المرسلة) (405): إسناده صحيح روي مرسلا، وقال ابن كثير في (البداية والنهاية) (1/ 49): مرفوع وهو أصح.

1 رواه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (1/ 87) والبيهقي (1/ 174) (153) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه. قال البيهقي: تفرد به عبيد الله بن تمام، قال البخاري: عنده عجائب، ورواه غيره عن خالد الحذاء موقوفا، على عبد الله بن عمرو، وهو الصحيح، وقال ابن كثير في تفسيره (5/ 98): هذا حديث غريب جدا، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف، وقال الألباني في (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) (4981): منكر مرفوع.

2 مقالات الإسلاميين، (ص48، 226، 439)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (7/ 235) والفصل، (5/ 20 وما بعدها)، (المحلى، (1/ 13) و(أصول الدين) (166) والمواقف، (367) وفتح الباري،

القول الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقاً:

القائلون به:

وإليه ذهبت المعتزلة، وبعض الأشعرية، وابن حزم، ومال إليه بعض أهل السنة، وبعض الصوفية.

أدلتهم:

استدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لها وجهها في الدلالة على قولهم منها:

كقوله سبحانه في بني آدم: وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [الإسراء: 70].

وجه الدلالة: فقال (على كثير) ولم يقل على كل، ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة.

وبقوله سبحانه: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء: 172].

وجه الدلالة: ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه.

(13/ 386) وشـرح الطحاوية (277) ولوامع الأنوار البهية ن (2/ 398) والمواهب اللدنية (2/ 44) وغيرها.

وبقوله سبحانه: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ [الأنعام: 50].

وجه الدلالة: والمعنى عندهم أني لا أدعي فوق منزلتي.

وبقوله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) [1] .

وجه الدلالة: وهو نص في الأفضلية.

وهي أدلة على ما ترى من الدلالة، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم.

القول الثاني: تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة.

القائلون به:

وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعري.

أدلتهم:

واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم، ففي الأنبياء:

---

1 رواه البخاري (7405)، ومسلم (2675) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كقوله سبحانه: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

وجه الدلالة: والفاضل لا يسجد للمفضول.

وقوله سبحانه: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32].

وقوله: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [آل عمران: 33].

أما في صالح البشر

فكقوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [البينة: 7].

وقال ابن تيمية بعد ذكر بعض هذه الأحاديث: (وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم)[1]

وقال: (قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكراً لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك)[2].

---

1. الفتاوى (4/ 369).

2 الفتاوى (4/ 371).

وقد جاء عن الإمام أحمد أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة، ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم[1].

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلاً طويلاً، قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالحي البشر على الملائكة[2].

وهي أدلة في القوة على ما ترى، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد، وإنا إن ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع عن حده وطال طولاً لا نستطيع الوقوف عند حد له.

القول الثالث: أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية.

فقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية: (أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة

---

1 طبقات الحنابلة (2/ 279، 306).

2 مجموع فتاوى ابن تيمية (4/ 352).

فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة) قال: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه)[1] .

القول الرابع: التوقف والسكوت عن التفضيل.

رأى قوم أن الأدلة متكافئة، وأنه كثر فيها الاختلاف، وتشعبت فيها الاستدلالات، وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول: منا الأنبياء ومنا الأولياء، فرد عليه بأن للملائكة أن تقول: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادعى الربوبية؟[2] وأساء بعضهم الأدب فقال: كان الملك خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم، أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم. [3]

---

1 بدائع الفوائد (3/ 163).

2 طبقات الحنابلة (4/ 207)

3 شرح الطحاوية (279).

[الإيمان بالكتب]

المسألة الأولى: التعريف بمعنى الكتب لغة وشرعًا.

المسألة الثانية: الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان.

المسألة الثالثة: القدر الذي يتحقق به الإيمان بالكتب المتقدمة.

المسألة الرابعة: حكم من أخل بهذا الركن من أركان الإيمان.

المسألة الخامسة: الإيمان بأن الكتب جميعًا دعت إلى عبادة الله وحده.

المسألة السادسة: الاعتقاد الجازم بنسخ جميع الكتب والصحف التي أنزلها الله على رسله، بالقرآن الكريم.

المسألة السابعة: الإيمان بأن كتب الله يصدق بعضها بعضا فلا تناقض بينها ولا تعارض.

المسألة الثامنة: الإيمان بالكتب يتضمن أمرين هما: التصديق بها، ووجوب طاعتها فيما أمرت.

المسألة التاسعة: بيان أن التوراة والإنجيل وبعض الكتب الأخرى المنزلة دخلها التحريف وسلامة القرآن من ذلك.

المسألة العاشرة: ثمرات الإيمان بالكتب.

[٣]- قال المصنف-رحمه الله-: "وكتبه".

الشرح

والإيمان بالكتب يتضمن المسائل الآتية:

المسألة الأولى: التعريف بمعنى الكتب لغة وشرعًا.

أولًا: الكتب لغة:

جمع كتاب، بمعنى مكتوب، ومعناه يدور على الجمع والضم.

قال ابن فارس: "الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء، من ذلك الكتاب والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتبًا". [1]

ثانيًا: الكتب شرعًا

هي الكتب المتضمنة لكلام الله-عز وجل-المنزلة على رسله.

والكتب التي يجب الإيمان بها: "هي الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله، رحمة للخلق، وهداية لهم، ليصلوا بها إلى سعادة الدنيا والآخرة". [2]

قال ابن كثير: "والكتب: اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها، وهو: القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب". [3]

---

1 معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٨٥).

2 شفاء العليل ١/ ٦٩٨، وينظر: شعب الإيمان، للبيهقي ١/ ١٨٥.

3 تفسير القرآن العظيم (١/ ١٨٥).

والمراد بالكتب هنا: الكتب والصحف التي حوت كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام. سواء ما ألقاه مكتوبا كالتوراة، أو أنزله عن طريق الملك مشافهة فكتب بعد ذلك كسائر الكتب. [1]

المسألة الثانية: الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان.

الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان، وأصل كبير من أصول الدين، ولا يتحقق إيمان العبد إلا به، وهو الاعتقادُ الجازمُ أن الله تعالى أنزل على رسله كتبًا حجة على العالمين، ومحجة للعاملين؛ يعلمونهم بها الحكمة، ويزكونهم.

فلا بد من التصديق الجازم بأنها كلها منزلة من الله-عز وجل-، وأنها كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد سبحانه. [2]

---

1 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٢٧).

2 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣١).

الأدلة على ذلك:

قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} [آل عمران: ٢-٤].

قال تعالى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: الآية: ١٧٧].

ولتقرير الإيمان بالكتب كلها أمر الله عباده المؤمنين أن يخاطبوا أهل الكتاب بقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: الآية: ١٣٦].

"فتضمنت الآية إيمان المؤمنين بما أنزل الله عليهم بواسطة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وما أنزل على أعيان الرسل المذكورين في الآية، وما أنزل على بقية الأنبياء في الجملة وأنهم لا يفرقون بين الرسل في الإيمان ببعضهم دون بعض، فانتظم ذلك الإيمان بجميع الرسل وكل ما أنزل الله عليهم من الكتب". [1]

ومن السنة ما جاء في حديث جبريل-عليه السلام-عندما سَئَل النبي-صلى الله عليه وسلم-عن الإيمان، فقال النبي-صلى. الله عليه وسلم-: ((الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتابه وبلقائه ؛ وبرسله ، وتؤمن بالبعث الآخر)). [2] . [3]

---

1 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٦).

2 أخرجه البخاري (4777)، ومسلم (9).

3 المصدر أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٢٧-١٢٩).

المسألة الثالثة: القدر الذي يتحقق به الإيمان بالكتب المتقدمة.

الإيمان بالكتب المتقدمة دون معرفة أعيان المنزل عليهم كاف، إلا من ورد تعيينه في الكتاب والسنة فلا بد من الإيمان به". [1]

وهذا حق، فما ذكر الله منها تفصيلًا وجب علينا الإيمان به تفصيلًا، وما ذكر منها إجمالًا وجب علينا الإيمان به إجمالًا [2]، ونؤمن به كما أمرنا الله-عز وجل-ورسوله-صلى الله عليه وسلم-: {وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ} [الشورى: الآية: ١٥].

وقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}.

فمن الإيمان بما سمى الله-عز وجل-من كتبه على وجه الخصوص، والتصديق بها، وبإخبار الله ورسوله عنها. وهذه الكتب هي:

---

1 البحر المديد (١/٧٥).

2 أعلام السنة المنشور (ص: ٩٧).

1-التوراة: التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل؛ قال عز وجل: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}. [المائدة: الآية: ٤٤].

وقال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص: الآية: ٤٣].

وفي حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: ((فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصابها ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه تكليما)). [1]

وقد ألقى الله التوراة على موسى مكتوبة في الألواح وفي ذلك يقول سبحانه {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: الآية: ١٤٥].

قال ابن عباس (يريد ألواح التوراة.

---

1 صحيح البخاري برقم (٧٤١٠)، ومسلم برقم (١٩٣).

وفي حديث احتجاج آدم وموسى من رواية أبي هريرة–رضي الله عنه–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده)). أخرجاه في الصحيحين من طرق كثيرة. [1]

والتوراة هي أعظم كتب بني إسرائيل وفيها تفصيل شريعتهم وأحكامهم التي أنزلها الله على موسى وقد كان على العمل بها أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى كما قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: الآية: ٤٤].

٢–الإنجيل: وهو كتاب الله الذي أنزله على عيسى ابن مريم عليهما السلام. قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ

1 صحيح البخاري برقم (٦٦١٤)، ومسلم برقم (٢٦٥٢).

فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: الآية: ٤٦].

وقد أنزل الله الإنجيل مصدقًا للتوراة وموافقًا لها كما تقدم في الآية السابقة.

قال بعض العلماء [1] لم يخالف الإنجيل التوراة إلا في قليل من الأحكام مما كانوا يختلفون فيه كما أخبر الله عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: الآية: ٥٠].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن التوراة والإنجيل نصا على البشارة بنبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-. قال تعالى {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ}[الأعراف: الآية: ١٥٧].

---

1 تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦).

٣-الزبور: وهو كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام. قال تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء: الآية: ١٦٣].

قال قتادة في تفسير الآية: "كنا نحدث أنه دعاء علمه الله داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ".

٤-صحف إبراهيم وموسى: وقد جاء ذكرها في موضعين من كتاب الله،

الأول: في سورة النجم في قول الله تعالى: { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} [النجم: الآيات: ٣٦ - ٣٩].

والثاني: في سورة الأعلى، قال تعالى:{ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ} [الأعلى: ١٨ - ١٩].

فأخبر الله عز وجل عن بعض ما جاء في هذه الصحف من وحيه الذي أنزله على رسوليه إبراهيم وموسى عليهما السلام. والعلم عند الله. [1]

5-القرآن العظيم: الذي أنزله الله على نبيه، محمد خاتم النبيين {هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} فكان {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}؛ فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفل بحفظه عن عبث العابثين، وزيغ المحرفين؛ قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}؛ لأنه سيبقى حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة. (2)

وللقرآن أسماء كثيرة أشهرها: القرآن، والفرقان، والكتاب، والتنزيل، والذكر.

فيجب الإيمان بهذه الكتب على ما جاءت به النصوص، من ذكر أسمائها، ومن أنزلت فيهم، وكل ما أخبر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم عنها، وما قص علينا من أخبار أهلها. [3]

---

1 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٣-١٣٥).

(2) انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» (3/ 241).

3 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٦).

المسألة الرابعة: حكم من أخل بهذا الركن من أركان الإيمان.

كما سمى الله-عز وجل-من آمن بهذه الجملة مؤمنين، فقد حكم بالكفر لمن كفر بهذه الجملة.[1]

والإخلال يقع من جانبين:

الجانب الأول: إنكارها جملة.

قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: الآية: ١٣٦].

قال ابن كثير: "أي: فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد".[2]

---

1 شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٧).

2 تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٣٤).

الجانب الثاني: التفريق في الإيمان بالكتب بين كتاب وآخر.

فيجب الإيمان بجميع الكتب من غير تفريق ولا تبعيض.

وقال ابن تيمية-رحمه الله-: "التفريق والتبعيض قد يكون في القدر تارة، وقد يكون في الوصف".[1]

وتوضيح ذلك يكون: إما في الكم، وإما في الكيف كما قد يكون في التنزيل تارة وفي التأويل أخرى؛ فإن الموجود له حقيقة موصوفة وله مقدار محدود فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض في قدره، وقد يقع في وصفه.

وهذا مثل اليهود يقولون: نؤمن بما أنزل على موسى-عليه السلام-دون ما أنزل على عيسى-عليه السلام-ومحمد-صلى الله عليه وسلم-، وهكذا النصارى في إيمانهم بالمسيح دون محمد.

---

1 مجموع الفتاوى (١٢/ ١٣).

فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا؛ فإنه لم يؤمن بجميع المنزل، وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض.[1]

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [النساء: الآية: ١٥٠-١٥١].

يقول ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: "فقال جل ثناؤه لعباده، منبهًا لهم على ضلالتهم وكفرهم {أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}، يقول: أيها الناس، هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم، هم أهل الكفر بي، المستحقون عذابي والخلود في ناري حقًّا، فاستيقنوا ذلك، ولا يشككنكم

---

1 مجموع الفتاوى (١٢/ ١٣).

في أمرهم انتحالهم الكذب، ودعواهم أنهم يقرون بما زعموا أنهم به مقرون من الكتب والرسل، فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كذبة.

وذلك أن المؤمن بالكتب والرسل، هو المصدق بجميع ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق، وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

فأما من صدق ببعض ذلك وكذب ببعض، فهو لنبوة من كذب ببعض ما جاء به جاحد، ومن جحد نبوة نبي فهو به مكذب.

وهؤلاء الذين جحدوا نبوة بعض الأنبياء، وزعموا أنهم مصدقون ببعض، مكذبون من زعموا أنهم به مؤمنون، لتكذيبهم ببعض ما جاءهم به من عند ربهم، فهم بالله وبرسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرون". [1]

---

1 تفسير الطبري (٩/ ٣٥٣).

وهكذا قرر ابن القيم-رحمه الله-حيث قال: "وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي، فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له، فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي-صلى الله عليه وسلم-أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذرا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها، وكما أنه لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه فهو كمن كفر به كله". [1]

---

1 بدائع الفوائد (٤/ ١٩٤).

المسألة الخامسة: الإيمان بأن الكتب جميعًا دعت إلى عبادة الله وحده.

فمن الإيمان بالكتب الإيمان بأنها دعت كلها إلى عبادة الله وحده وقد جاءت بالخير والهدى والنور والضياء. قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: الآية: ٧٩]. فبين الله أنه ما ينبغي لأحد من البشر، آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يأمر الناس أن يتخذوه إلها من دون الله. وذلك أن كتب الله إنما جاءت بإخلاص العبادة لله وحده.

وقال تعالى مبينا أن كتبه جاءت بالحق والهدى { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ} [آل عمران: الآيتان: ٣ – ٤].

.وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} [البقرة: الآية: ٢١٣].

وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: الآية: ٤٤].

وقال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: الآية: ٤٦].

وقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ } [البقرة: الآية: ١٨٥].

إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة أن كتب الله تعالى قد جاءت بالهدى والنور من الله تعالى.

المسألة السادسة: الاعتقاد الجازم بنسخ جميع الكتب والصحف التي أنزلها الله على رسله، بالقرآن الكريم.

وأنه لا يسع أحدا من الإنس أو الجن، لا من أصحاب الكتب السابقة، ولا من غيرهم، أن يعبدوا الله بعد نزول القرآن بغير ما جاء فيه أو يتحاكموا إلى غيره. والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة. قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: الآية: ١]. وقال عز وجل: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي

بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [المائدة: الآيتان: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى آمرا نبيه-صلى الله عليه وسلم-أن يحكم بين أهل الكتاب بالقرآن { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: الآية: ٤٨]. وقال أيضا {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: الآية: ٤٩].

ومن السنة حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-، أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-أتى النبي-صلى الله عليه وسلم-بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي-صلى الله عليه وسلم-فغضب وقال: ((أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا، والذي

نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًا، ما وسعه إلا أن يتبعني)). رواه أحمد والبزار والبيهقي [1] وغيرهم وهو حديث حسن بمجموع طرقه. ومعنى متهوكون: متحيرون.

فهذا ما يجب اعتقاده في كتب الله على سبيل الإجمال وسيأتي تفصيل ما يجب اعتقاده في القرآن على وجه الخصوص في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى. [2]

المسألة السابعة: الإيمان بأن كتب الله يصدق بعضها بعضا فلا تناقض بينها ولا تعارض.

كما قال تعالى في القرآن {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: الآية: ٤٨].

وقال في الإنجيل: {وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} [المائدة: الآية: ٤٦].

---

1 مسند الإمام أحمد: ٣ / ٣٨٧، وكشف الأستار: ١٣٤، وشعب الإيمان للبيهقي: (١٧٧) .

2 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٦-١٣٧).

فيجب الإيمان بهذا واعتقاد سلامة كتب الله من كل تناقض أو تعارض، وهذا من أعظم خصائص كتب الله عن كتب الخلق وكلام الله عن كلام الخلق فإن كتب المخلوقين عرضة للنقص والخلل والتعارض كما قال تعالى في وصف القرآن {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: الآية: ٨٢]. [1]

المسألة الثامنة: الإيمان بالكتب يتضمن أمرين هما: التصديق بها، ووجوب طاعتها فيما أمرت.

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "فإن الكتب تضمنت أصلين: الإخبار، والأمر، والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت، وإيجاب طاعتها فيما أوجبت". [2]

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية فحسب؛ بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أعم وأكمل؛ وهو فهم معانيه وتدبر آياته ثم التذكر والعمل بما فيه، وهو المنصوص عليه في

---

1 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٣).

2 الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٤١١).

قوله- تعالى-: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: الآية: 129].

فتلاوة كتاب الله-تعالى-المقصود منها:

١-أننا مُتعبدُون بقراءة ألفاظ القرآن صحيحة وإقامة حروفه على النحو الذي يرضيه-جلّ وعلا-

٢-ومتعبدون بفهم القرآن والتفقه فيه دون سواه، والاستغناء به عن غيره.

قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)). [1]

قال-تعالى-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة: الآية: 121] وقد فسر قتادة أن الصحابة هم الذين كانوا يتلونه حق تلاوته. [2]

والتلاوة لها معنيان :

---

1 رواه مسلم (2699).

2 الجامع للقرطبي، (1/ 91).

أحدهما: القراءة المرتلة المتتابعة، وقد أمر الله بها رسوله-صلى الله عليه وسلم-في قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} [النمل: الآية: 91-92] . وكان يتلوه على كفار قريش قال-تعالى-: {قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ}[يونس: لآية: 16] .

والثاني: الاتباع؛ لأن من اتبع غيره يقال تلاه ؛ ومنه قوله - تعالى - : {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس: الآية: 2] ، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : "يتبعونه حق اتباعه"، ثم قرأ : {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} أي: اتبعها. [1]

ونقل القرطبي عن عكرمة قوله: "يتبعونه حق اتباعه باتباع الأمر والنهي فيُحلون حلاله، ويحرمون حرامه ويعملون بما تضمنه". [2]

والجمع بين المعنيين هو المتعين، ويصح فيها جميعًا؛ فالتلاوة بإقامة الألفاظ وضبط الحروف، ثم العمل بما تضمنته الآيات المتلوة، وعبّر عن الفهم والتدبر بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة، وليس مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ بدون فهم وفقه واهتداء.

---

1 تفسير ابن كثير، (1/ 175)، الرازي (2/ 36).

2 الجامع للقرطبي، (1/ 92).

وقد بين عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–معنى حق التلاوة فقال:"والذي نفسي بيد! إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلالَه ، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً على غير تأويله" [1]، وهذا البيان من عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–واسع وجامع لمعنى التلاوة، وهي قراءته كما أنزل، وفهمه وتفسيره والعمل به.

ولهذا كان الصحابة–رضي الله عنهم–لا يتجاوزون خمس آيات أو عشرًا حتى يعلموا ما فيهن من العلم والعمل.

قال أبو عبد الرحمن السلمي– أحد أكابر التابعين–: حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي–صلى الله عليه وسلم–عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: "فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً". [2]

وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–، قال: "كان الرجلُ منَّا إذا تعلمَ عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرفَ معانيهن والعمل بهن". [3]

---

1 تفسير ابن كثير، (1/ 175).

2 الإتقان، (2/ 389)، التفسير الكبير، (2/ 132).

3 جامع البيان، (1/ 35).

وهذا يدلُّ على أن الصحابة- رضي الله عنهم-نقلوا عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة [1]؛ فبين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: الآية: 44] فنقل معاني القرآن عنه-صلى الله عليه وسلم-كنقل ألفاظه سواء، بدليل قول-تعالى-: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:: الآية: 54] ، "وهذا يتضمن بلاغ المعنى ، وأنه في أعلى درجات البيان". [2]

قال ابن تيمية وابن القيم : "والصحابة-رضي الله عنهم-أخذوا عن الرسول-صلى الله عليه وسلم-لفظ القرآن ومعناه". [3]

وهكذا تلقى الصحابة-رضي الله عنهم-هذا القرآن لفظًا ومعنى، وكان التعلم والتعليم عندهم مبناهما على التفقه في القرآن دون سواه.

ذكر الحافظ ابن كثير عن الضحاك فقال: " قال الضحاك في قوله-تعالى-: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: الآية: 79] قال: "حقٌّ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً" ومعنى تَعْلَمون: تفهمون معناه، وقرئ: تعلمون بالتشديد من

---

1 التفسيرالكبير، (2/ 132).

2 الصواعق المرسلة، (ص: 440).

3 التفسير الكبير، (2/ 104 ، 253)، الصواعق، (ص: 440).

التعليم وبما كنتم تدرسون تحفظون ألفاظه، والجمع بين القراءتين متعيَّن، فكانوا يَعْلَمونه ويُعلِّمونه ولا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم . [1]

قال الرازي: "ودلّت الآية على أن العلمَ والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً ؛ فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيُه وخاب عملُه". [2]

ونقل هذا المعنى رشيد رضا وقال: "فبعلم الكتاب ودراسته وتعليمه للناس ونشره والعمل به يكون الإنسان ربانيًا مَرضِيًّا عند الله". [3]

هكذا كان دأبُ الصحابة-رضي الله عنهم-كما ذكره ابن القيم فقال: "ولم يكن للصحابة كتابٌ يدرسونه وكلامٌ محفوظ يتفقهون فيه إلاَّ القرآن وما سمعوه من نبيه-صلى الله عليه وسلم-، ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون إلا في ذلك". [4]

فكان القرآن عندهم هو العلمُ الذي به يعتنون حفظًا وفهمًا وتفقهًا.

وقد فسر حَبْرُ الأمة ابن عباس الحكمة بفهم القرآن وفقه ما فيه من علوم.

---

1 ابن كثير، (1/ 405)، القرطبي، (2/ 115).

2 تفسير الرازي، (4/ 123)

3 تفسير المنار، (3/ 348).

4 الصواعق المرسلة، (ص: 441).

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله – تعالى – : {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: الآية: 269] قال: "المعرفة بالقرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه ،وأمثاله". [1]

وفسرها الحافظ ابن كثير بالسنة وعزا ذلك إلى غير واحد من السلف وهو ما أُخِذَ عن الرسول–صلى الله عليه وسلم–سوى القرآن، كما قال–صلى الله عليه وسلم–: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)). [2]

وذهب ابن عباس في تفسيره للحكمة إلى المعرفة بالقرآن وفقه ما فيه من العلوم، وهو من أوسع التفسيرات، وهو لا ينافي من فسّر الحكمة بالسنة؛ لأن بها يحصل بيانُ القرآن وفهمُه وفقهُه؛ فهي المفسّرة والمبيّنة للقرآن ، وتعني–من بين ما تعنيه–الفقه والفهم ، يدلّ على ذلك قوله – تعالى – : {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [ص: الآية: 20] .

قال مجاهد: "يعني الفهم والعقل والفطنة" [3] ومن أعطاه الله ويسّر له فقه القرآن وعلومَه والعمل به فقد حاز فضلًا عظيمًا وخيرًا جزيلًا.

---

1 الإتقان، (2/ 385)، ابن كثير، (1/ 345).

2رواه أحمد، (ح: 16546).

3 تفسير ابن كثير، (4/ 33).

قال القرطبي: "إن من أُعْطِيَ الحكمة والقرآن فقد أُعطي أفضل مما أُعطي مَنْ جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها". [1]

فكتاب الله حكمة، وسنة نبيّه-صلى الله عليه وسلم-حكمة، وأصل الحكمة ما يُمتنَع به من السفه ، ومن ثَمَّ اشتركت الحكمة في نسق تعليم الكتاب: {ويعلمهم الكتاب والحكمة} [البقرة : 129] وقد حث الله-عز وجل-على التدبر والاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ فقال: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب} [ص: الآية: 29] ، وقال : {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} [محمد: الآية: 24]، وقال: {ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون} [الزمر: الآية: 27] ففي مثل الآيات ونحوها دليل على وجوب معرفة معاني القرآن والاتعاظ بمواعظه وفقه ما فيه من الهداية والرشاد، ولا يقال لمن لا يفهم تفسيره : اعتبر بما لا فهم لك به ، ولا يقال ذلك إلا لمن كان بمعاني القرآن بصيراً وبكلام العرب عارفاً". [2]

---

1 الجامع للقرطبي، (2/ 300).

2 جامع البيان، (1/ 35).

وأقول: وتدبر القرآن مرحلة تالية لمرحلة الفهم، ولا يمكن أن يتأتى التدبر لمن لم يفهم معاني القرآن.

قال القرطبي: "وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ؛ إذ لا يصحّ التدبر مع الهذّ، وقد شكا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إلى ربه من هجر قومه للقرآن فقال: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: الآية: 30] .

وهجر التفسير والفهم والتدبر نوع من أنواع هجره.

قال ابن القيم وابن كثير: "ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه". [1]

قال ابن تيمية: "وأما في باب فهم القرآن فهو-أي: قارئ القرآن-دائم التفكر والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية قَبِلَهُ وإلا ردّه". [2]

---

1 تفسير ابن كثير، (3/ 349)، تفسير ابن القيم، (3/ 292).

2 التفسير الكبير، (6/ 71).

ويشهد لما تقدم ما رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري حيث قال: "والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه ما يُرى له في خُلُقٍ ولا عملٍ". [1] [2].

قال الإمام ابن رجب-رحمه الله-: "النصيحة لكتاب الله: شدة حبه، وشدة العناية بتدبره". [3]

المسألة التاسعة: بيان أن التوراة والإنجيل وبعض الكتب الأخرى المنزلة دخلها التحريف وسلامة القرآن من ذلك.

أ-ما جاء في تحريف أهل الكتاب لكلام الله وكتبه في الجملة.

---

1 تفسير ابن كثير، (4/ 36).

2 المصدر بحث بعنوان فهم القرآن وتدبره للدكتور أحمد شرشال، نشرته مجلة البيان "بتصرف".

3 جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢١).

أخبر الله-عز وجل-في القرآن الكريم عن تحريف أهل الكتاب لكتب الله المنزلة عليهم وتغييرها وتبديلها.

قال تعالى في حق اليهود: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: الآية: ٧٥].

وقال-عز وجل-: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [النساء: الآية: ٤٦].

وقال تعالى مخبرا عن النصارى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [المائدة: الآيتان: ١٤-١٥].

فدلت الآيات على تحريف اليهود والنصارى كتب الله المنزلة عليهم.

وقد كان هذا التحريف بالزيادة تارة وبالنقص تارة أخرى.

فدليل الزيادة قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: الآية: ٧٩].

ودليل النقص قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} [المائدة: الآية: ١٥].

وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: ٩١].

ب- ما جاء في تحريف التوراة والإنجيل خاصة.

دلت الأدلة مما تقدم وغيرها على وقوع التحريف فيهما.

فمن أدلة تحريف التوراة قوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: الآية: ٩١].

وجاء في تفسير الآية: "أي تجعلون الكتاب الذي جاء به موسى في قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل وكتم صفة النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة فيه".

وقال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: الآية: ٧٥].

قال السدي في تفسير الآية: "هي التوراة حرفوها".

وقال ابن زيد: "التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا".

ودليل تحريف الإنجيل قوله تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} [المائدة: الآيتان: ١٤ – ١٥].

قال بعض أئمة التفسير في تفسير الآية الأخيرة: "أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه". [1]

فدلت هذه الآيات على وقوع التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل. ولهذا اتفق علماء المسلمين على أن التوراة والإنجيل قد دخلهما التحريف والتغيير. [2]

ج–سلامة القرآن من التحريف وحفظ الله له وأدلة ذلك:

---

1 تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣).

2 المصدر أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٣٩–١٤١).

أما القرآن العظيم فهو سليم مما طرأ على الكتب السابقة من التحريف والتبديل وهو محفوظ من كل ذلك بحفظ الله له وصيانته إياه كما أخبر الله عن ذلك بقوله: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: الآية: ٩].

قال الطبري في تفسير الآية: " قال وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه". [1]

"كما أخبر الله في آيات أخرى عن تمام إحكامه للقرآن وتفصيله وتنزيهه من كل باطل فقال عز من قائل: {لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: الآية: ٤٢].

وقال تعالى: {الرۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: الآية: ١].

---

1 تفسير ابن جرير (١٤/ ٧).

وقال-عز وجل-: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: الآيتان: ١٦ - ١٧].

فدلت هذه الآيات على كمال حفظ الله للقرآن لفظًا ومعنى، بدءا بنزوله إلى أن يأذن الله برفعه إليه سليمًا من كل تغيير أو تبديل. إذ تكفل بتعليمه لنبيه-صلى الله عليه وسلم-، ثم جمعه في صدره وبيانه له وتفسيره في سنته المطهرة، ثم ما هيأ الله له بعد ذلك من عدول الرجال الذين حفظوه في الصدور والسطور، عبر الأجيال والقرون، فبقي سليمًا منزهًا من كل باطل، يقرؤه الصغار والكبار، على مختلف الأعصار والأمصار، غضًا طريًا كما أنزل من الله على رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

وقد نبه العلماء في هذا المقام إلى سر لطيف ونكتة بديعة تتعلق بجواز التحريف على التوراة وعدم جوازه على القرآن على ما روى أبو عمرو الداني عن أبي الحسن المنتاب قال: "كنت يوما عند القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق فقيل له: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟

فقال القاضي: قال الله عز وجل في أهل التوراة {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ} [المائدة: الآية: ٤٤] فوكل الحفظ إليهم فجاز التبديل عليهم.

وقال في القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: الآية: ٩] فلم يجز التبديل عليهم. قال: فمضيت إلى أبي عبد الله المحاملي فذكرت له الحكاية فقال: " ما سمعت كلاما أحسن من هذا ". [1] [2]

المسألة العاشرة: ثمرات الإيمان بالكتب.

أولًا: إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن ما في هذه الكتب هو كلام الله حقيقة.

ثانيًا: حصول اليقين برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

ثالثًا: ظُهُور حِكمته تعالى؛ حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مُناسبًا لِجَميع الخَلْقِ في كلِّ عَصر ومكانٍ إلى يوم القيامة.

---

1 التحرير والتنوير: (5/ 209).

2 المصدر أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٤١-١٤٢).

رابعًا: شكر نعمة الله على ذلك. (1) فالقرآن نعمة الله العظيمة على هذه الأمة؛ حيث جعل كتابها المنزل عليها مشتملًا على إرث الكتب السابقة؛ فكل ما فيها من نور وهدى، وخير وصلاح، وحكمة ورشاد فللقرآن منها نصيبٌ وافرٌ، وزيادة فضل، وهذا من التوريث المذكور في قوله -تعالى-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [فاطر: الآية: 32].

قال القرطبي: "يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده وكأن الله-تعالى-لما أعطى أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-القرآن وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة فكأنه ورث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا". [2]

خامسًا: ومن الثمرات: إظهار فضيلة هذه الأمة على من سبقها من الأمم؛ فالله-سبحانه-أوكل حفظ الكتب السابقة لأتباع الأنبياء من الأحبار والرهبان، وهذا مذكورٌ في قول الباري-

(1) انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» (259/3، 260). وأصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٢٩).

2 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ٣٤٧)

سبحانه-: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} [المائدة: الآية: 44]؛

قال السعدي: "{بِمَا اسْتُحْفِظُوا} أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه". [1]

لكنّهم لم يصونوا هذا العهد فغيّروا وحرّفوا، وزادوا ونقصوا، في حين أن الله -تعالى-تولّى حفظ القرآن بنفسه فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: الآية: 9]، وكان موقف المسلمين من كتابهم مغايرًا للأمم السابقة فحفظوا القرآن بالصدور والسطور؛ حتى ما عاد هناك مجالٌ للتبديل والتغيير فيه.

سادسًا: الإيمان بأن شريعة القرآن أكمل الشرائع قال شيخ الإسلام ابن تيمية، في جوابٍ له على أحد الأسئلة: "والجواب على هذا من وجوه:

---

1 تفسير السعدي (ص: ٢٣٢).

أحدها: أن يقال بل الشرائع ثلاثة؛ شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي جمع فيه بين العدل والفضل، مع أنا لا ننكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل، وكذلك المسيح عليه السلام أيضًا أوجب العدل وندب إلى الفضل.

وأمّا من يقول إن المسيح أوجب الفضل وحرّم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين، لكن قد يقال إن ذكر العدل في التوراة أكثر وذكر الفضل في الإنجيل أكثر والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال". [1]

---

1 الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٥/ ٥٨-٥٩).

[الإيمان بالرسل]

المسألة الأولى: حكم الإيمان بالأنبياء.

المسألة الثانية: دعوة الرسل إلى عبادة الله وحده وطاعتهم فيما جاءوا به.

[٤]- **قال المصنف-رحمه الله-: "ورسله، لا يُفرّقُ بين أحدٍ من رسله".**

الشرح:

المسألة الأولى: حكم الإيمان بالأنبياء.

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى: في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى: أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأت في عددهم نص.

وقد قال تعالى: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) [النساء:164] .

وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [غافر:78] .

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه.

قال تعالى: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [النحل:35] .

قال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) [النحل:82]

قال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [النور:54] .

قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [التغابن:12] .

وأما أولو العزم من الرسل. فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: "نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ [الأحزاب:7] .

وفي قوله تعالى: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ [الشورى:13]"[1]

المسألة الثانية: دعوة الأنبياء والرسل واحدة وهي لدعوة إلى عبادة الله وحده وطاعتهم فيما جاءوا به

اتفق جميع الرسل عليهم السلام على الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واجتناب الشرك.

---

1 انظر: تفسير البغوي: 7/ 272

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: الآية: 36].

وقال الله سبحانه: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} [النحل: الآية: 2] .

ونوح عليه السلام قال لقومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: الآية: 59] .

وهود عليه السلام قال لقومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: الآية: 65] .

وصالح عليه السلام قال لقومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُه} [الأعراف: الآية: 73] .

وإبراهيم عليه السلام قال لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} [العنكبوت: الآية: 16] .

وشعيب عليه السلام قال لقومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: الآية: 85] .

وعيسى عليه السلام قال لقومه: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [آل عمران: الآية: ٣٦] .

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((أنا أولى الناس

بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد)). [1]

قال النووي–رحمه الله–: "قال جمهور العلماء معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، فقوله: ((ودينهم واحد)) أي أصول التوحيد، أو أصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها، أو أصول التوحيد والطاعة جميعا". [2]

فآفاد الحديث أن الأنبياءَ كلَّهم على دين واحد هو دين الإسلام فكلُّهم دعَوا إلى عبادة الله وحده وعدمِ الإشراك به شيئًا والتصديقِ بأنبيائه، ولكنَّ شرائعَهم مختلفةٌ أي الأحكام.

فالمرسلين قاطبة يَنتسِبون إلى أصلٍ واحد، هو الدين القيِّم، الذي ارتضاه الله لنفسه، وشرَعه لعبده، ثم وصَّى به رُسله، وكتب ألا يَقبَل غيره، وألا يجزي إلا به، وتعاقب الأنبياء على هذا الدين الحق، الذي أصوله: توحيد الله وتنزيهه.

وقال ابن تيمية: "التوحيد الذي هو أصل الإسلام، وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله، وله خلق الخلق، وهو حقه على عباده: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا"[3].

---

1 أخرجه البخاري (3443)، ومسلم (2365).

2 شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٢٠.

3 ينظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/ 133).

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "فإن الرسل جميعهم أمروا بالتوحيد وأمروا به؛ قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية: 25] ، فبين أنه لا بد أن يوحي بالتوحيد إلى كل رسول، وقال الله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: الآية: 45] ، فبين أنه لم يشرع الشرك قط، فهذان النصان قد دلا على أنه أمر بالتوحيد لكل رسول، ولم يأمر بالإشراك قط، وقد أمر آدم وبنيه من حين أهبط باتباع هداه الذي يوحيه إلى الأنبياء؛ فثبت أن علة الشرك كان من ترك اتباع الأنبياء والمرسلين فيما أمروا به من التوحيد والدين". [1]

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه، والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به". [2]

---

1 مجموع الفتاوى (20/ 107).

2 مجموع الفتاوى ١١/ ٥٢٣-٥٢٤.

[إخلاص العمل لله]

المسألة الأولى: الإخلاص أساس العمل.

المسألة الثانية: معرفة ما يضاد الإخلاص لاجتنابه.

[٤]- قال المصنف-رحمه الله-: "وأن صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت".

الشرح:

المسألة الأولى: الإخلاص أساس العمل.

إخلاص العمل لله هو أساس العمل، فركني العمل: الإخلاص والإتباع، فإذا كان العمل خالصًا وفق السنة قُبل، أما إذا اختل الإخلاص أو اختل الإتباع لا قيمة لعملٍ تعمله، {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: الآية: ٥]، فلابد من إخلاص العمل لله-عز وجل-،

الإخلاص هو: تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. فكل شيء يتصور أنه يشوب لغيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص، سمي: خالصًا.

ويسمى الفعل المصفى المخلص: "إخلاصا"، قال تعالى: {مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ} [النحل: الآية: ٦٦].

فإنما خلوص اللبن بأن لا يكون فيه شائبة من الشوائب، من الدم أو الفرث، ومن كل ما يمتزج به.

قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: الآية: ٥].

قال ابن جزي-رحمه الله-: "الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي، وهو الرياء. قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: الرياء الشرك الأصغر وقال-صلى الله عليه وسلم-فيما يرويه عن ربه إنه تعالى يقول ((أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشريكه»)). [1]. ". [2]

.

---

1 أخرجه مسلم (2985).

2 التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٥٠١-٥٠٢).

والإخلاص أشد الأشياء على النفس.

كما قال أهل العلم: "عالجت نفسي في كل شيء فما وجدت أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي" [1]

قال يوسف بن الحسين الرازي–رحمه الله–: "أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر". [2]

قال الإمام هرم بن حيان–رحمه الله–لأويس القرني: أوصني ، قال: "ادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئا أشد عليك منهما". [3]

قال شداد بن أوس–رضي الله عنه–لما حضرته الوفاة–: "إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة الرياء والشهوة الخفية". [4]

---

1 قاله سفيان الثوري، انظر قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد الجزء الثاني، صفحة (264).

2 مدارج السالكين: (2/ 96).

3 صفوة الصفوة: (٢/ ٣٤).

4 حلية الأولياء (898).

.

فالنفس دائماً تسعى لحظها، ولذلك أنت معها في جهاد، فاحرص أشد الحرص على الإخلاص، أن تكون مخلصاً في عملك، كما جاء في الحديث: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)) (1)، فبحسب تلك النية التي عقدت عليها ذلك العمل بحسب ما يكون قبول هذا العمل.

قال ابن القيم: "١-الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

٢-والرياء:أن يكون ظاهره خيرا من باطنه.

٣-والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره". [2]

.

---

1 انظر صحيح البخاري بَابُ بَدْءِ الوَحْيِ برقم (1)، ومسلم كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْغَزْوُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ (1907)، وأبو داود (2201)، والترمذي (1647)، والنسائي (75)، وابن ماجه (4227)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ (168).

2 مدارج السالكين (٢/ ٩١).

المسألة الثانية: معرفة ما يضاد الإخلاص لاجتنابه.

من لوازم معرفة الإخلاص، ومن لوازم تحقيقه كذلك، التعرف على ما يضاده؛ لكي يتجنبه الإنسان.

وهكذا الشأن في أي أمر من الأمور؛ فإن معرفته معرفة تامة تتوقف على معرفة ما يضاده، أو ينافيه. وبضدها تتميز الأشياء. وهذه المعرفة تفيد في الوصول إلى معرفة حقائق الأمور، ومعرفة حقيقة الإسلام، والإيمان والإخلاص، والفقه ... إلى آخر ما هنالك.

وإن من أعظم ما يضاد الإخلاص الشرك-عياذًا بالله منه-فينبغي للإنسان أن يتعرف على الشرك، بنوعيه: الأصغر "الرياء"، والأكبر "وهو أن يجعل لله ندًا فيما هو واحد فيه". [1]

قال ابن تيمية: "و "أصل الإسلام": أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله.

---

1 كتاب طريقك إلى الإخلاص والفقه في الدين (ص: ٦٨-٦٩).

ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله". [1]

قال ابن القيم: "الأعمال أربعة: فواحد منها مقبول،وثلاثة أرباعها مردودة، فالمقبول ما وافق الأمر وأريد به وجهُ الله، ولا يقبل الله عملًا سواه، والمردود أن لا يكون خالصًا لله ولا موافقًا لأمره، أو ينتفي عنه أحدهما، فالمردود ما انتفى عنه الأمران أو أحدهما". [2]

فالإخلاص يضاده: "الإشراك"؛ فمن ليس مخلصا فهو: مشرك. والشرك درجات، كما أن للإخلاص درجات.

فالتوحيد يضاده: الإشراك. والشرك منه خفي، ومنه جلي.

---

1 مجموع الفتاوى (١١/ ٦١٧-٦١٨).

2 الكلام على مسألة السماع (ص: ٢٩٦).

فالشرك الجلي: هو: الشرك الأكبر، كاتخاذ الشركاء والأنداد؛ وهو من الكبائر التي لا تغتفر، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: الآية: ٤٨].

وقال-صلى الله عليه وسلم-: ((اجتنبوا السبع الموبقات))، وعد في مقدمتها: الإشراك بالله.

أما الشرك الخفي: فهو: ما يتسرب إلى أعمال القلوب وخفايا النفوس؛ وهذا لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، قال تعالى: {لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النساء: الآية: ١٤٩].

عن محمود بن لبيد أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)). قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟. قال: ((الرياء. يقول الله عز وجل

لهم، يوم القيامة،إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا؛ فانظروا: هل تجدون عندهم جزاء)). [1]

الرياء: مصدر راءى، فاعل، ومصدره يأتي على بناء مفاعلة وفعال، وهو مهموز العين؛ لأنه من الرؤية، ويجوز تخفيفها بقلبها ياء.

وحقيقته لغة: أن يري غيره خلاف ما هو عليه.

قال ابن بطال: "الرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار.
وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله، لأنه أشرك في بعض أعماله حمد المخلوقين مع حمد ربه، فحرم ثواب عمله ذلك". [2]

---

1 أحمد، (٢٣١١٩)، و (٢٧٧٤٢).

2 شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١١٣).

والرياء من النوع الثاني تعريفه شرعًا: أن يفعل الطاعة، ويترك المعصية مع ملاحظة غير الله، أو يخبر بها، أو يحب أن يطلع عليها لمقصد دنيوي من مال أو نحوه.

وقد ذمه الله في كتابه، وجعله من صفات المنافقين في قوله: {يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: الآية: ١٤٢]، وقال: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: الآية: ١١٠]، وقال: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} [الماعون: الآيات: ٤-٦]

وورد فيه من الأحاديث الكثيرة الدالة على عظم عقاب المرائي، فإنه في الحقيقة عابد لغير لله؛ ولذلك جاء في الحديث: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معي في عملٍ غيري تركته وشركه)) (1)، فالله تعالى غني، لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، فلابد أن تُخلص العمل لله-عز وجل-، وكما قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ} [القصص: الآية:

1 أخرجه مسلم (4202)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (7999).

٧٧]، فيسعى العبد إلى ما عند الله–عز وجل–ويطلب ما عنده عز وجل سيكفيه ويغنيه ويعطيه، وكل عملك أيها لإنسان كُتب وأنت في بطن أمك، كُتب رزقك وكُتب الأجل وكُتب كل شيء في حياتك.

عن الفضيل بن عياض أنَّه قال: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله عنهما". [1]

قال سفيان بن عيينة: "أفضل العبادة: الإمساك عن المعصية، والوقوف عند الشبهة، وأقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة،". [2]

فهذا العمل الذي أنت تُقدم عليه أخلصه لله عز وجل واجعله لوجهه سبحانه وتعالى لا تكن ممن أراد به شيئًا من الدنيا، لأنك إن أردت شيئًا من ذلك فاعلم أن الله تبارك وتعالى لا يقبل أن يكون معه شريك في العمل، لذلك الإخلاص عزيز، ومن أصعب الأشياء.

---

1 رواه البيهقي في شعب الإيمان (6879).

2 بهجة المجالس (ص: 417).

وضد الإخلاص الشرك، والشرك كما أخبر النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل)) (1).

ولما سمع أبو بكر هذا بكى وقال: "وما النجاة والمخرج يا رسول الله؟ " قال: ((أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم))، وفي رواية: ((وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم)) (2)، هذا الدعاء يهجره الناس كثيراً بينما نحتاجه في كل وقت، أن نسأل الله عز وجل أن يعفو عنا ما قد يقع من خللٍ في نياتنا، وفي نوايانا، فعلينا بالإخلاص.

وينبغي على العبد أن يخلص نفسه من أنواع الشرك بكلها فإيمانك بالله تعالى هو أعظم وأهم ما عندك، وهو الصلة بينك وبين ربك عز وجل، وينبغي على العبد أن يكون إيمانه بالله-عز وجل-إيمانا سالمًا خاليًا من كل شائبة من شوائب الشرك، وأن يجتهد في ذلك، واجتهاده في ذلك وتصحيحه يكون من جانبين:

---

1 انظر مسند الإمام أحمد أَوَّلُ مُسْنَدِ الْكُوفِيِّينَ برقم (19606)، قال الشيخ الالباني في تحقيق الإيمان لابن تيمية صفحة (58): صحيح.

2 انظر الأدب المفرد (716)، صححه الشيخ الالباني في صحيح الأدب المفرد صفحة (266).

من جانب العلم فينبغي أن يكون علمه بالله عز وجل علمًا صحيحًا، ومعرفته بالله عز وجل معرفة صحيحة مبنية على أسس الكتاب والسنة، وبذلك يسلم وينجو من كل داء أو كل شائبة من شوائب الشرك.

ومن جانب العمل: فيجب أن يكون عمله لله-عز وجل-صحيحًا وسليمًا، وعليه أن يسعى جاهدًا في تنقيته من الشرك الأكبر، تنقية العمل من الشرك الأكبر فينبغي أن لا يخدش أو يجرح هذا التوحيد بأي شائبة من شوائب الشرك الأكبر.

أما الشرك الأصغر فقل من يسلم وينجو منه، وهنا إن كان الأمر من سبيل الخطأ فالله-عز وجل-قد غفر لهذه الأمة ما أخطئت فيه، وإن كان من سبيل التقصير فالحمد لله باب التوبة والاستغفار مفتوح فعلى العبد دائمًا أن يكثر من التوبة، وأن يكثر من الاستغفار، وهذا نبينا-صلى الله عليه وسلم-مع ما عليه من عظيم الإيمان، وجلالة القدر والشأن، ورفعة المنزلة عند الله تعالى يستغفر الله-عز وجل-في اليوم أكثر من مائة مرة، وفي رواية أكثر من سبعين مرة، فينبغي على الإنسان إذا وجد في نفسه تقصيرًا أو خللًا فيما يتعلق بالشرك الأصغر فيجب عليه أن يكثر من الاستغفار، وأن يكثر من التوبة، وهذا كله مع وجود قلب صحيح سليم مخلصًا لله تعالى، مبتعدًا عن كل ما يغضب الله-سبحانه وتعالى-، وكل ما يوقع في المعصية، وكذلك محققًا لجانب الطاعة، فالعبد الذي يقبل على الله سبحانه وتعالى بالطاعة ويبتعد عن المعاصي لا شك أنه قلب يسعى إلى إخلاص أمره الله تعالى حتى يلقى الله-عز وجل-وهو

على التوحيد، ومن مات ولم يشرك بالله شيئا أدخله الله الجنة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل التوحيد، والثبات على دينه، وأن يجعل عملنا كله صالحًا، وأن يجعله لوجهه خالصًا، وأن لا يجعل لأحد فيه شيئًا.

[البعث]

المسألة الأولى: ترتيب أهوال يوم القيامة.

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات البعث.

المسألة الثالثة: ثمرات الإيمان بالبعث.

المسألة الرابعة: الذين خالفوا في مسألة البعث.

المسألة الخامسة: حكم من أنكر البعث.

[٥]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن اللهَ يبعث مَن في القبور".**

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ترتيب أهوال يوم القيامة

اختلف أهل العلم في ترتيب أهوال يوم القيامة، تبعا لاختلافهم في الجمع بين الأحاديث الواردة في هذا الباب، لكن الذي عليه جمهور علماء أهل السنة والجماعة أن ترتيب أحداث ذلك اليوم يكون على النحو الآتي:

أولا: إذا مات ابن آدم قامت قيامته، لأن البرزخ هو أول منازل الآخرة؛ فإن نجى منه العبد فما بعده أيسر منه؛ وهو إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق مات كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله.

ثانيا: ثم ينفخ في الصور نفخة البعث؛ فتعاد الأرواح إلى أجسادها التي يبعثها الله تعالى من عظم عجب الذنب, ويقوم الناس من قبورهم إلى أرض المحشر {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: الآية: 48].

ثالثا: وإذا بُعث الناس وقاموا من قبورهم ذهبوا إلى أرض المحشر، ثم يقومون في أرض المحشر قيامًا طويلًا، تشتد معه حالهم وظمؤُهُم، ويخافون في ذلك خوفًا شديدًا؛ لأجل طول المقام، ويقينهم بالحساب، وما سيُجري الله-عز وجل-عليهم.

فيقف الناس في أرض المحشر حفاة عراة غرلا، وتدنوا منهم الشمس قدر ميل، ويلجمهم العرق كل بحسب عمله، ولكن الله يخفف على عباده المؤمنين في ذلك اليوم الذي مدته خمسون ألف سنة –وبحسب إيمان كل منهم- بجملة أمور منها:

1- أن عرقهم يقل تبعا لقلة ذنوبهم وكثرة طاعاتهم.

2- أنه يُظل طائفة منهم في ظِل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

3- يخفف على عباده المؤمنين طول ذلك اليوم حتى أنه ليكون بالنسبة للمؤمن كتدلِّي الشمسِ للغروبِ إلى أن تغربَ.

4- أنه يقيم لهم الحوض الذي من شرب منه شربة لم يضمأ بعدها أبدًا. فإذا طال المقام رَفَعَ الله-عز وجل-لنبيه-صلى الله عليه وسلم-أولًا حوضه المورود، فيكون حوض النبي-صلى الله عليه وسلم-في عرصات القيامة، إذا اشتد قيامهم لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فمن مات على سنّته، غير مُغَيِّرٍ ولا مُحْدِثٍ ولا مُبَدِّلْ: وَرَدَ عليه الحوض، وسُقِيَ منه، فيكونُ أول الأمان له أن يكون مَسْقِيَ ًا من حوض نبينا-صلى الله عليه وسلم-، ثم بعدها يُرْفَعُ لكل نبي حوضه، فيُسْقَى منه صالح أمته.

رابعا: ثم يقوم الناس مقامًا طويلًا حتى يتعجلون الحساب؛ فيسألون الأنبياء واحدًا تلو الآخر ان يشفعوا لله تعالى كي يقيم الحساب كما في الحديث الطويل المعروف: أنهم يسألونها آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم، إلى آخره،؛ فيعتذر كل منهم حتى يأتون نبينا-صلى الله عليه وسلم-فيسألونه أن يشفع لهم عند الله في الحساب، ثم تكون الشفاعة العظمى، شفاعة النبي-صلى الله عليه وسلم- بأن يُعَجِّلَ الله-عز وجل-حساب الخلائق، فيأتون إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-ويقولون له: يا محمد، ويصِفُونَ له الحال، وأن يسأل الله تعالى أن يقي الناس الشدة بسرعة الحساب، فيقول-صلى الله عليه وسلم-بعد طلبهم اشفع لنا عند ربك، يقول أنا لها، أنا لها، فيأتي فيسجد عند العرش فيحمد الله-عز وجل-بمحامد يفتحها الله-عز وجل-عليه، ثم يقال:

((يا محمد ارفع رأسك، وسل تُعْطَ واشْفَعْ تُشَفَّعْ))، فتكون شفاعته العظمى في تعجيل الحساب.

خامسًا: ثم يبدأ عرض الأعمال على الأمم والعباد، وأول هذه الأمة عرضًا هم أمة محمد- صلى الله عليه وسلم-؛ فتعرض أعمال هذه الأمة عليها، وتعرض أعمال كل واحد منهم عليه.

سادسًا: وبعد الحساب الأول تتطاير الصحف، والحساب الأول من ضمن العرض؛ لأنه فيه جدال ومعاذير، ثُمَّ بعد ذلك تتطاير الصحف، ويُؤْتَى أهل اليمين كتابهم باليمين، وأهل الشمال كتابهم بشمالهم، فيكون قراءة الكتاب.

سابعًا: ثم بعد قراءة الكتاب: يكون هناك حساب أيضًا لقطع المعذرة، وقيام الحجة بقراءة ما في الكتب.

ثامنًا: ثم يوضع الميزان؛ ليوزن عمل كل إنسان، وعلى قدر رجحان طاعاته على سيئاته يكون ميل كفة الميزان لصالحه، والعكس كذلك، وبمقدار رجحان الميزان يكون الجزاء والوفاء، لأنه ميزان عدل وقسط، لا يغادر مثقال ذرة من خير أو شر..

تاسعًا: ثم بعد الميزان ينقسم الناس إلى طوائف وأزواج؛ أزواج بمعنى كل شكل إلى شكله، وتُقَامُ الألوية -ألوية الأنبياء- لواء محمد-صلى الله عليه وسلم-، ولواء إبراهيم، ولواء موسى إلى آخره، فيأتي النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الرهط، والنبي وليس معه أحد، وأكثر تلك الأمم رهطا في ذلك اليوم هم أمة نبينا-صلى الله عليه وسلم-.

ويتنوع الناس تحت اللواء بحسب أصنافهم، كل شَكْلٍ إلى شكله. والظالمون والكفرة أيضاً: يُحْشَرُونَ أزواجاً، يعني متشابهين كما قال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ} [الصافات: الآيتان: 22-23]؛ يعني بأزواجهم: أشكالهم ونُظَرَاءَهُمْ، فيُحْشَرْ علماء المشركين مع علماء المشركين، ويُحْشَرْ الظلمة مع الظلمة، ويُحْشَرْ منكرو البعث مع منكري البعث، وهكذا، وكما في حديث أبي سعيد الخدري: ((إذَا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كَانَتْ تَعْبُدُ، فلا يَبْقَى مَن كانَ يَعْبُدُ غيرَ اللَّهِ مِنَ الأصْنَامِ والأنْصَابِ، إلَّا يَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ)). [1]

عاشرًا: ثُمَّ بعد هذا يَضْرِبُ الله-عز وجل-الظُّلمة قبل جهنم والعياذ بالله، ثم يصير الناس في الظلمة, وينصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين

1 أخرجه البخاري (7439)، ومسلم (183).

أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم ، كل على قدر إيمانه، وأما المنافقون فلا نور لهم يمشون به؛ فيسعون خلف المؤمنين ليقتبسوا من نورهم, فيضرب الله تعالى بينهم بسور له باب فيحجزهم عنهم, كما قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [الحديد: الآيات: 12 - 15].

فيلحق المنافقون بإخوانهم الكافرين إلى نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير.

الحادي عشر: ثم يأتي النبي-صلى الله عليه وسلم-، أولًا ويكون على الصراط، ويسأل الله-عز وجل-له ولأمته فيقول: اللهم سلّم سلم، اللهم سلّم سلم؛ فَيَمُرْ صلى الله عليه وسلم، وتَمُرُّ أمته على الصراط، كُلٌ يمر بقدر عمله، ومعه نور أيضًا بقدر عمله، فيمضي مَنْ غَفَرَ الله-عز وجل-له، ويسقط في النار، في طبقة الموحّدين، من شاء الله-عز وجل-أن يُعَذبه.

ثم يجتاز أتباع الرسل الصراط وهو شديد الظلمة، أدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فيه خَطاطِيفُ وكَلالِيبُ وحَسَكٌ، ويجتازه كل أحد من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين على

قدر أعمالهم؛ فمنهم من يجتازه كلَمْحِ البَرْقِ، ثم كمرِّ الريحِ، ثم كَحضرِ الفَرسِ، ثم كالراكِبِ في رَحْلِه، ثمَّ كشَدِّ الرجُّل، ثم كمَشْيِه, ومنهم من يزحف زحفا.

ولشدة ظلمة الصراط فإن الله تعالى يجعل لعباده نورا على قدر أعمالهم يتمكنون به من اجتياز الصراط, ويكون شدة نور كل منهم بقدر إيمانه في الدنيا؛ فمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مثل الجَبَلِ العَظِيمِ ومنهم من يُعْطَى نُورَهُ على إِبْهامِ قَدَمِهِ ، يُضِيءُ مرةً ، ويطفأُ مرةً ، فإذا أَضَاءَ قَدَمَهُ قدمٌ ومَشَى، وإذا طُفِىءَ قامَ.

ثم أنهم بعد مرورهم على الصراط إما: ناج سالم، أو ناج مجروح بالكلاليب على قدر ذنوب كل منهم، وإما من لا تسعفه أعماله فتخطفه الكلاليب إلى نار جهنم, وهم المعذبون من أتباع الرسل.

ثم إذا انتهوا من النار: اجتمعوا في عَرَصَات الجنة، يعني في السّاحات التي أعدها الله-عز وجل-لأن يقْتَصَّ أهل الإيمان بعضهم من بعض، ويُنْقَى الغل حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل.

الثاني عشر: ثم إذا اجتاز الناجون الصراط وقفوا على باب الجنة؛ فلا تفتح أبوابها إلا للنبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فإذا فتحت أبواب الجنة كان النبي-صلى الله عليه وسلم-أول الناس دخولًا إليها، وكانت أمته أول الأمم دخولًا، فيدخل الجنة أول الأمر، بعد-النبي صلى الله عليه

وسلم-: فقراء المهاجرين، وفقراء الأنصار، ثم فقراء الأمة، ويُؤَخَّر الأغنياء لأجل الحساب الذي بينهم وبين الخلق، ولأجل محاسبتهم على ذلك، ثم يتبعهم سائر الأمم.

الثالث عشر: فإذا استقر اهل الجنة فيها تذاكروا إخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا ممن لم يجتازوا الصراط، فاستفقدوهم فوجدوهم في النار؛ فيستشفعون لهم؛ فيشفع الله فيهم من يشاء ويرضى من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ فيخرجون منهم من عرفوه بآثار الطاعة والعبادة، حتى إذا بقي في النار من الموحدين ممن لم يعمل خيرا قط؛ يشفع الجبار فيهم فيخرجهم من النار بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، فيدخلهم الجنة, ويعطيهم الدنيا وعشر أمثالها معها، ويبقى في الجنة فضلة ينشيء لها أقواما فيسكنهم إياها برحمته وفضله.

الرابع عشر: ثم ينادي مناد بعد ذلك و((يُقالُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ لا مَوْتَ، ولِأَهْلِ النَّارِ: يا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لا مَوْتَ)). [1]

1 أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

الخامس عشر: ثم يكون لأهل الجنة ما يشاؤون فيها من النعيم المقيم الدائم, وزيادة ذلك النظر إلى وجه الله تعالى، وهو أعظم نعيم وأكمله". [1]

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات البعث.

أول مراحل الحياة الآخرة حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه، ثم بعد ذلك يأتي البعث، ويسبق البعث النفخ.

البعث بعد الموت: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سيبعث الناس بعد موتهم، ويُعيد إليهم أرواحهم، وذلك للحساب والجزاء.

دلَّ على ذلك الأدلة المتوافرة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، بل واليهود والنصارى وكل الشرائع السماوية السابقة.

عظم الله أمر الإيمان باليوم الآخر وقرنه بالإيمان به، فقال تعالى: (يؤمنون بالله وباليوم الآخر)، فجمع بين الإيمان به عز وجل والإيمان باليوم الآخر لعظيم حقه وهو ركن من أركان الإيمان فنؤمن باليوم الآخر بجميع ما يتعلق به

---

1 انظر: "شرح الطحاوية" (ص: 542) بترقيم الشاملة / للشيخ صالح آل الشيخ، بتصرف.

ومن الأدلة على إثبات البعث

أولًا: من القرآن.

قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: الآية: ١٧٧].

قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: الآية: 29]

قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)} [الرعد: ٢].

قال تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الروم: ١١]،

قال تعالى: {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} [النور: ٦٤].

ثانيًا: من السنة:

ما جاء في حديث جبريل-عليه السلام-؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: ((أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه)).[1] ، وفي رواية: ((والبَعْث بعدَ المَوْتِ)). [2]

عن ابنِ عبَّاس-رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((أيُّها النَّاس، إنَّكم مَحْشُورُونَ إلى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلًا، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: الآية: ١٠٤]، ثُمَّ إنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكسى يوم القيامة إبراهيمُ)).[3]

ويوم البعث يخرج الإنسان من قبره فيجد ملكًا من قِبَل الله يأخذه ويوقفه في المكان الذي يريده الله له، أو يسوقه إلى موقفه المناسب قال تعالى: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: الآية: ٢١].

---

1 أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر.

2 أخرجها ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٨٩) (١٦٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢) (٣٠٤٤٥)، وصححها الألباني في التعليقات الحسان (١٦٨).

3 أخرجه البخاري (٤٧٤٠) ومسلم (٢٨٦٠).

عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، قوله: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} قال: "السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه" . [1]

وروي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم. [2]

ثالثًا: الإجماع.

روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[3]

---

1 انظر تفسير الطبري (٢٢/ ٣٤٨).

2 رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1/ 156)

3 رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1/ 156)

قال ابن حزم: "اتفقوا أن البعث حق، وأن الناس كلهم يبعثون في وقت تنقطع فيه سكناهم في الدنيا".[1]

وقال: "البعث حق، والحساب حق،... يجمع الله تعالى يوم القيامة بين الأرواح والأجساد، كل هذا إجماع من جميع أهل الإسلام، من خرج عنه خرج عن الإسلام". [2]

وقال ابن حزم: "اتفق جميع أهل القبلة -على تنابذ فرقهم- على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك". [3]

المسألة الثالثة: ثمرات الإيمان بالبعث واليوم الآخر:

أولًا: الحرص على طاعة الله تعالى؛ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته، خوفًا من عقاب ذلك اليوم. وذلك بالتزام بما يحبّه الله-تعالى-من الأعمال والأقوال والأحوال وتجنّب ما يُبغضه.

---

1 ينظر: ((مراتب الإجماع)) (ص: ١٧٥).

2 ينظر: ((الدرة)) (ص: 311).

3 ينظر: ((الفصل)) (66/4).

ثانيًا: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا، ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.[1]

ثالثًا: عِظَم الأجر والثواب، فإنّ الإيمان بالبعث والحساب من الإيمان بالأمور الغيبيّة، والتي وعد الله أهلها بالاهتداء والرزق الكريم وحسن العاقبة يوم القيامة. الاجتهاد في فعل الطاعات، والرغبة في ملازمة ما يحبّه الله ويرضاه، وامتثال أمره طمعًا بالأجر والثواب وحُسن العاقبة.

رابعًا: الحَذر من المعاصي والنواهي وما أبغضه الله، والحرص على تجنّب ما حذّر منه خوفًا من العقاب والعذاب.

خامسًا: الصبر على الابتلاءات، والرضا بقضاء الله وقدره.

---

1 «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٦٠).

سادسًا: الأخذ بأسباب حُسن الخاتمة، ومن أهمّها: ملازمة الأعمال الصالحة وتجنّب الأعمال السيئة المخالفة للشريعة، وسؤال الله –تعالى– حُسن الخاتمة والموت على ما يحبّه من الأعمال.[1]

المسألة الرابعة: الذين خالفوا في مسألة البعث:

قال ابن تيمية: "طوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح ولا الأجساد، وقد بين الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك بيانا في غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة؛ فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ... وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان؛ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك بيانا شافيا قاطعا للعذر". [2]

---

1 ثمرات الإيمان باليوم الآخر، للشيخ عبدالله بن صالح القصيِّر، المصدر: موقع الألوكة. بتصرّف.

2ينظر: مجموع الفتاوى (4/ 313)..

فالقرامطة الباطنية والفلاسفة أتباع المشائين، ونحوهم من الملاحدة ينكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر". [1]

فهذه الطوائف نفت ما دلت عليه نصوص المعاد، من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، كما نفت ما دلت عليه نصوص الصفات من نعوت الجلال وأوصاف الكمال، وهذا ضلال صراح وكفر بواح، وهؤلاء هم الغلاة، من القرامطة والباطنية الإسماعيلية، والفلاسفة المشائين.

فالقرامطة معتقدهم في اليوم الآخر: أنهم كلهم أنكروا القيامة، وقالوا: هذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضي أبدا. وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار. [2]

أما الجهمية والمعتزلة فهم يؤمنون بالبعث مع خلل في بعض مسائل المعاد كمسائل عذاب القبر، وكذلك الشفاعة، وفناء الجنة والنار، وغيرها من المسائل التي تتعلق باليوم الآخر.

---

1 ينظر: مجموع الفتاوى (4/ 313).

2 القرامطة لابن الجوزي (ص: ٦٠).

وقال الإيجي: "أجمع أهل الملل عن آخرهم على جواز حشر الأجساد ووقوعه، وأنكرهما الفلاسفة". [1]

المسألة الخامسة: حكم من أنكر البعث.

قال ابن حزم: "فمن قال: إن الأرواح أعراض فانية، أو قال: إنها تنتقل إلى أجسام أخر؛ فهو منسلخ من إجماع أهل الإسلام؛ لخلافه القرآن والسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم والإجماع، ... وهو قول أهل التناسخ، وهو كفر بلا خلاف، وكذلك من أنكر إحياء العظام والأجساد يوم القيامة، أو أنكر البعث؛ فخارج عن دين الإسلام بلا خلاف من أحد من الأئمة". [2]

وقال ابن عبد البر: "قد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث، فلا إيمان له ولا شهادة، وفي ذلك ما يغني ويكفي، مع ما في القرآن من تأكيد الإقرار بالبعث بعد الموت؛ فلا وجه للإنكار في ذلك". [3]

---

1 المواقف في علم الكلام (3/ 474).

2 ينظر: ((الدرة)) (ص: 315).

3 ينظر: ((التمهيد)) (116/9).

وقال الغزالي: "فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع؛ كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام، واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعيا؛ إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين؛ فيجب تكفير كل من تعلق". [1]

وقال عياض: "وكذلك نقطع على كفر من قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب زكائها وخبثها". [2]

وقال أيضا: "كذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة؛ فهو كافر بإجماع؛ للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواترا، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره، وأنها لذات روحانية، ومعان باطنة، كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة، وزعم أن معنى القيامة الموت أو فناء محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم كقول بعض الفلاسفة". [3]

---

1 ينظر: (((مجموعة رسائل الإمام الغزالي)) (ص: 246).

2ينظر: ((الشفا)) (2/ 283).

3ينظر: ((الشفا)) (2/ 290).

[الجنة والنار حق]

المسألة الأولى: الإيمان بوجود الجنة والنار .

المسألة الثانية: الجنة والنار مخلوقتان دائمتان لا تفنيان.

[٥]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن الجنَّةَ حقٌّ، وأنَّ النَّارَ حقٌّ".**

الشرح

المسألة الأولى: الإيمان بوجود الجنة والنار

على المسلم الإيمان بالجنة والنار، فهما يدخلان ضمن الإيمان باليوم الآخر الذي هو أصل من أصول الإيمان، فمن أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث، أي: أن الله يبعث الأجساد ويحاسب الخلائق، والإيمان بالميزان والصراط والجنة والنار، فمن أنكر وجود الجنة أو أنكر النار كفر؛ لأنه مكذب لله.

قال تعالى: {وَبَشِّرِ لَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) [البقرة:25]} [لقمان:8]،

وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ} [فاطر:36]، فمن أنكر الجنة أو النار فقد كذب الله، ومن كذب الله كفر.

المسألة الثانية: الجنة والنار مخلوقتان دائمتان لا تفنيان.

الأقوال في المسألة:

القول الأول: قول أهل السنة والجماعة.

أن الجنة والنار الآن مخلوقتان دائمتان لا تفنيان.

قال الإمام ابن القيم: "يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون.

فيها قال أبو الحسن الأشعري في كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: "جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردّون من ذلك شيئا"...."ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان" قال ابن القيم بعد أن ساق كلام الأشعري "والمقصود حكايته عن جميع أهل السنة والحديث أن الجنة والنار مخلوقتان"[1].

أدلتهم:

وقد دل على ذلك من القرآن:

---

1 حادي الأرواح: ص 11 . 15

- قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} النجم:13 . 15وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء وفي آخره: "ثم أنطلق بي جبريل حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدرى ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك"[1].
- وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة"[2].

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه (3164) ومسلم في صحيحه (163) واللفظ للبخاري.

2 أخرجه أحمد في مسنده (4/ 287، 288، 295، 297) وأبو داود (3212، 4753، 4754) والنسائي (4/ 78) وابن ماجه (1548) و(1549) والحاكم (1/ 93) رقم (107) وأبو عوانة كما في (إتحاف المهرة) (2/ 459) وابن منده في الإيمان (1064) والبيهقي في إثبات عذاب القبر رقم (21) و (43) وغيرهم.

من طريق زاذان عن البراء بن عازب فذكره.

- وفي المسند وصحيح الحاكم وابن حبان وغيرهم من حديث البراء ابن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فذكر الحديث بطوله وفيه "فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها "[1] وذكر الحديث.
- وفي الصحيحين من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا المُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ

والحديث صححه: أبو عوانة وابن منده والحاكم والبيهقي وابن القيم وغيرهم.

قال ابن القيم في الروح، ص(91): (هذا حديث ثابت مشهور مستفيض، صححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحدا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رووه في كتبهم وتلقوه بالقبول، وجعلوه أصلا من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه، ومسألة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله، ثم رجوعها إلى القبر).

1 أخرجه البخاري برقم (1308)، ومسلم برقم (2870) واللفظ لمسلم.

اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا"[1].

- وفي صحيح أبي عوانة الاسفرايني وسنن أبي داود من حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح "ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال هذا كان منزلك لو عصيت الله تعالى أبدلك الله به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي فيقال أسكن"[2].
- وفي مسند البزار وغيره من حديث أبي سعيد قال شهدنا مع النبي صلى الله عليه وسلم جنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا دفن الإنسان وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق فأقعده فقال ما تقول في هذا الرجل يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده رسوله فيقولون له صدقت ثم يفتح له باب إلى النار فيقولون هذا كان منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت

1 أخرجه البخاري (98/2) برقم (1374)، ومسلم (2200/4) برقم (2870) واللفظ للبخاري.

2 أخرجه أبو عوانة في صحيحه كما في إتحاف المهرة لابن حجر (2/ 459)، وأبو داود برقم (4753). ولعل هذا لفظ أبي عوانة في صحيحه، والحديث تقدم الكلام عليه مختصرًا.

به فهذا منزلك فيفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض إلى الجنة فيقولون له اسكن "[1]. وذكر الحديث.

- وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت الحديث إلى أن قالت ثم قام فخطب الناس فأثنى على

---

1 أخرجه أحمد النسخ (3/ 3-4) والبزار كما في (كشف الأستار) رقم (872) وابن أبي عاصم في (السنة) رقم (865)، والطبري في تفسيره (13/ 214)، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) رقم (31)، من طريق عباد بن راشد البصري عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري فذكره.

وقد تفرد به عباد وهو صدوق له أوهام، عن خاله داود بن أبي هند مرفوعا.

وقال البزار: (لا نعلمه عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد، وهذا من أغرب ما كان يسأل عنه الحسين وابن معمر).

وقد خولف عباد، خالفه مسلمة بن علقمة فأوقفه.

فرواه عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: فذكر نحوا من حديث عباد بن راشد ولم يرفعه.

الله بما هو أهله ثم قال: " أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة "[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم حتى لقد رأيتني آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتموني أقدم ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها حين رأيتموني تأخرت "[2].

- وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله فذكر الحديث وفيه قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ". فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيناك تناولت شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال: "إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا بم يا رسول قال: " بكفرهن" قيل: أيكفرن بالله قال: "يكفرن العشير

1 رقم (901)، وهو عند البخاري أيضا رقم (997، 1154).

2 أخرجه البخاري رقم (358)، ومسلم رقم (907).

ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط"[1].

- وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الخسوف قال: " قد دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ودنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا معهم فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هرة قلت ما شأن هذه قالوا حبستها حتى ماتت جوعا لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل"[2].

القول الثاني: المعتزلة.

أنكروا خلقهما الآن، فقالوا: الجنة والنار لم تخلقا بعد، ولكن سوف يخلقهما الله تعالى يوم القيامة، أما الآن فلا توجد جنة ولا نار.

شبهتهم: سبب هذا القول إن المعتزلة يعملون عقولهم في مقابلة النصوص، فيعارضون النصوص بعقولهم، وهذا من جهلهم ومن ضلالهم، فهم يقولون: لو قلنا إن الجنة والنار مخلوقتان الآن لصار خلقهما عبثاً؛ لأنهما مخلوقتان وليس فيهما أحد، والعبث محال على الله، فتنزيهاً لله

---

1 صحيح البخاري رقم (712).

2 رقم (904) –(9).

نقول: لا توجد جنة ولا نار الآن؛ لكن يخلقهما الله يوم القيامة حين ينتفع المؤمنون بالجنة ويكون الكفرة في النار.

ويجاب عليهم:

أولاً: قولكم هذا من أبطل الباطل؛ لأن الله تعالى أثبتهما، ونحن نصدق الله ونؤمن بالله، فقد أخبر تعالى أنهما موجودتان، قال عن الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:133]، وقال عن النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:24]، فهي مرصدة معدة مهيأة.

ثانياً: أن خلق الجنة وخلق النار الآن وإعدادهما أبلغ في الزجر وأبلغ في التشديد، فإذا علم العاصي أن النار معدة الآن صار أبلغ في الزجر، وإذا علم المطيع أن الجنة معدة صار أبلغ في الشوق.

ثالثاً: نقول: من قال إن خلقهما الآن عبث؟ فالجنة فيها الولدان، وفيها الحور، وأرواح المؤمنين تتنعم في الجنة، وأرواح الشهداء تنعم فيها، كما جاء في الحديث: (أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وترد أنهارها، وتأكل من ثمارها، حتى يرجعها الله إلى أجسادها)، والمؤمن إذا مات نقلت روحه إلى الجنة على هيئة نسمة طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثون.

- ونعلم أن المؤمن يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من نعيمها، والكافر يفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها.

- إذاً هناك حكمة وفائدة من خلقهما الآن، فهذا من جهل المعتزلة وضلالهم، حيث إنهم عارضوا النصوص بأفهامهم وآرائهم الفاسدة.

[عذاب القبر]

المسألة الأولى: فتنة القبر.

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.

[٦]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن عذابَ القبرِ".**

الشرح:

المسألة الأولى: فتنة القبر.

الإنسانُ بمجرد موتِه يدخل فِي اليومِ الآخرِ بالنِّسبة له، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَن مَاتَ قَامَت قِيَامَتُهُ.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ رحمه الله تعالى هُنَا مَسألَتَينِ عَظيمَتَينِ:

الأولى: فِتنَةُ القَبر،

والثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ تِلكَ الفِتنَةِ مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ.

المسأَلَةُ الأُولى: فِتنَةُ القَبر:

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابن تيمِيَّة-رحمه الله تعالى-: "وَأَمَّا الفِتْنَةُ فِي القُبُورِ فَهِيَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِلمَيِّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ المَلَكَانِ". [1]

---

1 «مجموع الفتاوى» (4/ 257).

وقَد رَوَت أَسمَاءُ بِنت أَبِي بَكر رضي الله عنهما أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْل فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ)). [1]

وعن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كان يدعو في الصلاة: ((اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم)). [2]

وعن عثمانَ بن عفَّان-رضي الله عنه-، قالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرِغَ مِن دَفنِ الميتِ وَقَفَ عليهِ، فَقَالَ: ((اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ)). [3]

وَعَن أَبِي هُرِيرَةَ-رضي الله عنه-، قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدعُو: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ)). [4]

---

1 أخرجه البخاري (184) ومسلم (905).

2 أخرجه البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩).

3 أخرجه أبو داود (3221)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 526) (1372)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (3511).

4 أخرجه البخاري (1377) ومسلم (588).

وعن البرَاءِ بنِ عَازب–رضي الله عنه–، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ((إِنَّ العَبدَ المؤمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ به...)).

إِلَى أَن قَالَ فِي العَبدِ الكَافِرِ: ((فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاهْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي)). [1]

وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ التي بَلَغَت مَبلَغَ التَّوَاتُرِ.

قال أحمد بن حنبل: "أصول السنة عندنا... الإيمان بعذاب القبر". [2]

---

1 أخرجه أحمد في «المسند» (4/ 287) (18557)، وأبو داود (4753)، وصححه الألباني في «المشكاة» (1630).

2 أصول السنة (ص: ١٤، ٣٠).

قال ابن قتيبة: "إن أصحاب الحديث كلهم مجمعون على... الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول". [1]

قال أبو الحسن الأشعري: "أجمعوا على أن عذاب القبر حق". [2]

قال ابن بطة: "نحن الآن ذاكرون شرح السنة... مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام وسائر الأمة مذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا... ثم الإيمان بعذاب القبر". [3]

6- قال ابن بطال: (قال أبو بكر بن مجاهد: أجمع أهل السنة أن عذاب القبر حق، وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيوا فيها، ويسألوا فيها، ويثبت الله من أحب تثبيته منهم. وقال أبو عثمان بن الحداد: وإنما أنكر عذاب القبر بشر المريسي والأصم وضرار... قال القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره: قد ورد القرآن بتصديق الأخبار الواردة في عذاب القبر، قال تعالى: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا [غافر: 46] ". [4]

---

1 تأويل مختلف الحديث (ص: ٦٤).

2 رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٥٩).

3 الإبانة الصغرى (ص: ١٩١، ٢١٧).

4 شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٥٨).

قال ابن عبد البر: "أهل السنة والجماعة مصدقون بفتنة القبر وعذاب القبر؛ لتوافر الأخبار بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم". [1]

قال ابن بطال: "هذه الآثار تشهد للآثار التي في الباب قبل هذا، أن عذاب القبر حق على ما ذهب إليه أهل السنة، ألا ترى الرسول استعاذ بالله منه، وقد عصمه الله وطهره، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فينبغي لكل من علم أنه غير معصوم ولا مطهر أن يكثر التعوذ مما استعاذ منه نبيه؛ ففي أكرم الأكرمين أسوة. فإن قيل: فإذا أخبر الله نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما وجه استعاذته صلى الله عليه وسلم من شيء قد علم أنه قد أعيذ منه؟ فالجواب: أن في استعاذته صلى الله عليه وسلم من كل ما استعاذ منه إظهارا للافتقار إلى الله، وإقرارا بالنعم، واعترافا بما يتجدد من شكره عليها ما يكون كفا لها ألا ترى أنه كان يصلي حتى تتفطر قدماه، فيقال له: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول: ((أفلا أكون عبدا شكورًا)) [2] . فمن عظمت عليه نعم الله وجب عليه أن يتلقاها بعظيم الشكر، لا سيما أنبيائه وصفوته من خلقه الذين اختارهم، وخشية العباد لله

---

1 الاستذكار (٢/ ٤٢١).

2 أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

على قدر علمهم به. وفي استعاذته مما أعيذ منه تعليم لأمته، وتنبيه لهم على الاقتداء به واتباع سنته وامتثال طريقته، والله أعلم". [1]

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّة رحمه الله تعالى: "وَقَدْ تَوَاتَرَت الأَحَادِيثُ عَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم". [2]

وَقوله: ((مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟)) هَذِهِ الأسئلة الثلاثة الِتي تُوَجَّهُ للمَيِّتِ فِي قَبرِهِ؛ قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين-رحمه الله تعالى-: "يَعنِي: مَن رَبُّكَ الذِي خَلَقَكَ وَتعبدُهُ وَتَخصُّهُ بِالعِبَادَةِ؟ لِأَجلِ أَن تَنتَظِمَ هَذِهِ الكَلمةُ توحيد الربوبيَّةِ، وَتوحيد الألوهيَّةِ.

و((المرتاب)): الشَّاكُّ والمنافقُ وشبههمَا، ((فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلتُهُ))، يعني: لم يَلجِ الإيمانُ قلبَهُ، وإنَّمَا كانَ يقولُ كما يقولُ النَّاسُ مِن غيرِ أن يَصِلَ الإيمانُ إلى قلبِهِ.

وَتَأَمَّل قولَهُ: ((هاه هاه)) كأنَّ شيئًا غَابَ عنهُ يريدُ أن يَتذكرَه، وَهَذا أشدُّ فِي التَّحَسُّرِ أن يتخيَّلَ أنَّهُ يَعْرِفُ الجوابَ، ولكن يُحالُ بينهُ وبينهُ، ويقولُ: «هاه هاه»، ثمَّ يقولُ: «سمعتُ الناسَ يقولونَ

---

1 شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٦٤).

2 «مجموع الفتاوى» (4/ 257).

شيئًا فقلتُهُ»، وَلَا يقولُ: رَبِّيَ الله، وَلَا ديني الإسلام، وَلَا نَبِيّ محمَّد؛ لأَنَّهُ فِي الدُّنيا مُرتابٌ شاكٌّ. هذا إِذَا سُئِلَ فِي قَبرِهِ وَصَارَ أحوج مَا يكونُ إِلَى الجَوَابِ الصَّوَابِ يَعجزُ، وَيَقولُ: ((لَا أدري سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا فقلتُهُ)).

إِذًا؛ إيمانُه قولٌ فَقَط".[1]

وقولُ شيخِ الإسلامِ-رحمه الله تعالى-: ((فَيُضرِبُ بِمرزَبَّةٍ مِن حديدٍ؛ فيصيحَ صحيةً يسمعهَا كُلُّ شيءٍ إِلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَها لصعقَ))-يُشير إلى حديث أنس عليه السلام وفيه: ((وأمَّا المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديد ضربةً؛ فيَصِيحُ صَيحةً يَسْمَعُهَا مَن يَلِيهِ غَيرَ الثَّقَلينِ))[2]، والثَّقلان: هُم الإنسُ والجنُّ.

قالَ ابنُ عُثَيمين-رحمه الله تعالى-: ((فيُضرب)): يَعني الذِي لم يُجِب، سواء كانَ الكافرَ أو المنافقَ، والضارب لَهُ المَلَكَانِ اللذانِ يَسألانِهِ.

والمرزبَّةُ: هِيَ مِطرقةٌ مِن حَدِيدٍ، وَقَد وَرَدَ فِي بعضِ الرواياتِ: أَنَّهُ لَو اجتَمَعَ عَلَيهَا أَهلُ مِنى مَا أَقَلُّوها، فَإِذَا ضُرِب يَصيح صيحةً يَسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان، أي: صِياحًا مَسموعًا يَسمعه

---

1 انظر: «شرح الواسطِيَّة» (ص480-482).

2 أخرجه البخاري (1374) من حديث أنس رضي الله عنه.

كلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يسمع صوته، وليس كلُّ شيء في أقطار الدُّنيا يَسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه كما مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِأَقْبُرٍ للمُشركين على بَغْلَتِه، فَحَادت به حتى كادت تُلقيه؛ لأنَّها سَمِعت أصواتَهم يُعَذَّبون.

قوله: ((إلا الإنسان))، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثَّقلين. يعني: أنه لا يَسمع هذا الصِّياح، وذلك لحكمٍ عظيمة منها:

أولًا: ما أشار إليه النبي-صلى الله عليه وسلم-بقوله: ((لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْرِ)). [1]

ثانيًا: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهلَه إذا سَمعوا مَيِّتَهم يُعَذَّب ويَصيح لم يَسْتَقِرَّ لهم قَرَارٌ.

رابعًا: عدم تَخْجِيل أهله؛ لأنَّ النَّاس يقولون: هذا ولدُكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نَهْلِك؛ لأنَّها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد تُوجب أن تسقط القلوب من مَعاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشى عليه.

---

1 أخرجه مسلم (2868) من حديث أنس.

سادسًا: لو سَمِع النَّاسُ صُرَاخ هؤلاء المعَذَّبين لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاس سوف يُؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب". [1]

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

وقد دلَّ على سؤال القبر وما يكون فيه من نَعيم أو عذاب-بعض الآيات والسُّنَّة المتواترة وكذلك إجماع أهل السُّنَّة والجَمَاعَة.

أمَّا دلالة القرآن: فمنها:

- قوله تعالى في قصة آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب} [غافر: الآية: 46].

قال الحافظ ابن كثير: "وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور". [2]

---

[1] «شرح الواسِطيَّة» (ص482، 483).

2 «تفسير ابن كثير» (7/ 146).

وقال العلامة الفوزان: "هذا في البرزخ قبل الآخرة؛ يُعرضون على النَّار صباحًا ومساء إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ على عذاب القبر، والعياذ بالله، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: الآية: 46] هذه ثلاثة عقوبات:

الأولى: أنَّ الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنَّهم يُعَذَّبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثَّالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله". [1]

- ومنها: قوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيم} [التوبة: الآية:101].

قال ابنُ تيمِيَّة: "قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن العُلَمَاءِ: المَرَّةُ الأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِيَةُ فِي البَرْزَخِ، {ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيم} فِي الآخِرَةِ". [2]

- ومنها: وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأنعام: الآية: ٩٣].

---

1 «شرح الأصول الثلاثة» (ص: 51)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1427هـ -2006م.

2 «مجموع الفتاوى» (4/ 266).

وهذا خطابٌ لهم عند الَموت، وقد أخبر الملائكة-وهم الصادقون-أنَّهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صَحَّ أن يقال لهم: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ}؛ فدل على أنَّ المراد به عذاب القبر[1].

وأمَّا السُّنَّة: فإنها متواترةٌ في ذلك، كما قال الحافظُ ابنُ رَجَب رحمه الله تعالى: "وقد تَوَاتَرَت الأحاديثُ في عذاب القبر". [2]

وقال ابنُ أبي العِزِّ-رحمه الله تعالى-: "وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثُبُوت عذاب القبر ونعيمه لِمَن كان أهلًا". [3]

وأمَّا الإجماعُ:

---

1 انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» صالح الفوزان (ص 275)، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، 1420هـ-1999م.

2 «أهوال القبور» (ص 43).

3 «شرح الطَّحاوية» (ص 399).

- فقد قال ابن تيمِيَّة–رحمه الله تعالى–: "فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنَّ المَيِّتَ إِذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ". [1]
- وقال أيضًا: "العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَى النَّفْسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ". [2]
- وقال ابن القيّم–رحمه الله تعالى–: "وَهَذَا كَمَا أنه مُقْتَضى السُّنَّة الصَّحِيحَة فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَين أهل السُّنَّة.

قَالَ المروزي: قَالَ أَبُو عبد الله: "عَذَاب القَبْر حقٌّ، لَا يُنكره إِلَّا ضالٌّ أَو مُضِلٌّ". [3]

---

1 «مجموع الفتاوى» (4/ 284).

2 «مجموع الفتاوى» (4/ 282).

3 «الروح» (ص 57).

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن العذاب أو النعيم يحصل لروح الميت وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأيضا تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم أو العذاب". [1]

وقال ابن القيم-رحمه الله-: وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال:

"بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعَّم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن.

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى". [2]

---

1 الاختيارات الفقهية (ص: ٩٤).

2 "الروح" (ص: 51-52).

ويضرب العلماء مثالا لذلك الحلم في المنام فقد يرى الإنسان أنه ذهب وسافر وقد يشعر بسعادة وهو نائم وقد يشعر بحزن وأسى وهو في مكانه وهو في الدنيا فمن باب أولى أن تختلف في الحياة البرزخية وهي حياة تختلف كلية عن الحياة الدنيا أو الحياة في الآخرة.

قال النووي-رحمه الله-: "فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يُسأل ويُقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر، فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظر في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وآلاما لا نحس نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلما لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرئيل يأتي النبي-صلى الله عليه وسلم- فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلي". [1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "والنائم يحصل له في منامه لذة وألم وذلك يحصل للروح والبدن حتى إنه يحصل له في منامه من يضربه فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أَنّه أُطْعِم شيئًا طيبًا فيصبح وطعمه في فمه، وهذا موجود، فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه وقد يتكلم إما بقرآن وإما بذكر وإما بجواب واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينه مغمضة ولو خوطب لم يسمع: فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول أنه ((يسمع قرع نعالهم))، وقال: ((ما أنتم أسمع لما أقول منهم؟))،

---

1 "شرح مسلم" (201/17).

والقلب يشبه القبر، ولهذا قال لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق: ((ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا))، وفي لفظ: ((قلوبهم وقبورهم نارًا))، وَفرَّق بينهما في قوله: {بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات: الآيتان: ٩-١٠]، وهذا تقريب وتقرير لإمكان ذلك.

ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك، إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير ونحو ذلك مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم". [1]

---

1 "مجموع الفتاوى" (4/ 275-276).

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "مذهب سائر المسلمين إثبات الثواب والعقاب في البرزخ – ما بين الموت إلى يوم القيامة – هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة؛ وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع". [1]

وقال أبو الحسن الأشعري وهو يذكر ما خالف فيه المعتزلة وأهل القدر نهج أهل السنة: وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين. [2]

---

1 "مجموع الفتاوى" (4/ ٢٦٢).

2 الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٤).

وقد خالف في ذلك الخوارج وضرار بن عمرو وبشر المريسي وجماعة من متأخرى المعتزلة، فقالوا بنفى عذاب القبر؛ وذلك بناء على قولهم أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب". [1]

قال ابن حزم: "ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر، وهو قول من لقينا من الخوارج، وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمر والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به، وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك" . [2]

وقد نسب أبو الحسن الأشعري نفي عذاب القبر إلى المعتزلة والخوارج،[3]

---

1 مقالات الإسلاميين (٢/ ١١٦)، ودراسات فى الفرق الإسلامية (ص: ١٧٣).

2 الفصل في الملل والنحل والأهواء (٤/ ٦٦).

3 المقالات (٢/ ١١٦).

كما نسبه البغدادي إلى الجهمية والضرارية،[1]

ونسب الملطي إلى جهم بن صفوان إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير. [2]

والأرجح بالنسبة للمعتزلة أن جمهورهم على القول بعذاب القبر، كما حكى ذلك عنهم القاضي عبد الجبار، فقد ذكر: "فصل فى عذاب القب" وقال: "بأنه لاخلاف في ذلك بين الأمة، كما أنه قد بين أن ابن الراوندي هو الذي يشنع علي المعتزلة، ويدعى أنهم ينكرون عذاب القبر، ثم أورد الأدلة على إثباته من القرآن والسنة. [3]

---

1 أصول الدين (ص: ٢٤٥).

2 التنبيه والرد على أهل الأهواء (ص: ١٢٤).

3 "شرح الأصول الخمسة " (ص: ٧٣٠).

وقال أيضًا ما نصه: "إنما أنكر ذلك أولًا: ضرار بن عمرو، لما كان من أصحاب واصل ظن ذلك مما أنكرته المعتزلة وليس الأمر كذلك، بل أكثر شيوخنا يقطعون بعذاب القبر، وإنما ينكرون قول جماعة سنن الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى، ودليل العقل يمنع من ذلك. ا. هـ [1]

كذلك فقد قال الزمخشرى عن سورة الملك: "وتسمى: الواقية، والمنجية، لأنها تقى وتنجي قارئها من عذاب القبر ". [2]

شبهتهم

والمخالفون الذين خالفوا أهل السنة في هذا الأصل فنفوا القول بإثبات عذاب القبر قد جاء فساد تأصيلهم في أنهم قد حكموا العقل وردوا عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فقاسوا الأمور

1 "الاعتزال وطبقات المعتزلة " (ص: ١٦٧).

2 الكشاف (٤/ ٥٧٤) والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/ ٧١٢) تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف.

الغيبية على الأمور المشاهدة، وحكموا العقل فيما جاءت به النصوص في أن هذا يعقل، وأن هذا لا يعقل.

فتراهم لا يؤمنون بما يحدث في القبر؛ لأنهم عقلانيون، فيسمون أدلة الشرع ظنية، فأما أدلة العقل عندهم فهي يقينية، وهم في ذلك قد نسوا أو قل تناسوا أن عذاب القبر وفتنة القبر أمر غيبي، والأمور الغيبية مجالها الاعتقاد؛ لأنها لا تدرك بالنظائر ولا تدركها العقول؛ بل تحار فيها العقول، فيجب الإيمان بها والتسليم على نحو ما جاء في الخبر الصادق في الوحي.

ومن شبهاتهم النفاة قالوا: إنا نرى شخص الميت مشاهدة وهو غير معذب، وكذلك فإن الميت ربما تفترسه السباع وتأكله!!

وجوابه:

أن هذا هوس؛ أما مشاهدة الشخص فهو مشاهدة لظواهر الجسم، والمدرك للعقاب جزء من القلب أو من الباطن كيف كان، وليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن، بل

الناظر إلى ظاهر النائم لا يشاهد ما يدركه النائم من اللذة عند الاحتلام ومن الألم عند تخيل الضرب وغيره، ولو انتبه النائم وأخبر عن مشاهداته وآلامه ولذاته من لم يجر له عهد بالنوم لبادر إلى الإنكار اغترارا بسكون ظاهر جسمه.

فتعسا لمن ضاقت حوصلته عن تقدير اتساع القدرة لهذه الأمور المستحقرة بالاضافة إلى خلق السموات والأرض وما بينهما، مع ما فيهما من العجائب. [1]

ثم يقال لمن يشكل بعدم تحقق رؤية عذاب القبر بالبصر: أن الله – عزوجل – يبتلى عباده بالتكاليف الشرعية اختبارا وامتحانا لهم، وهذه التكاليف شاملة لباب العلم والعمل:

أ) ففي باب العمل:

يكلفهم بجملة من العبادات الشرعية، والتى منها ما يكون غير معلوم الحكمة، فيجمع لهم بين التكليف بالاستسلام وتكليف القيام بالعمل.

---

1 الاقتصاد في الاعتقاد للغزالى (١١٨).

ب) وفي باب العلم:

فقد يختبر الله –تعالى –عباده بالإيمان بالغيبيات التى تتالت النصوص بإثباتها، فيظهر هنا من يؤمن بالغيب ممن هو منه في شك، إذ لو عاين العباد الغيبيات لزالت حكمه التكليف والإيمان بالغيب، ومن هذا الباب فقدا اقتضت الحكمة أن يكون عذاب القبر خفيًا؛ لأنه لو كان أمرًا ظاهرًا لما كان الإيمان به إيمان بالغيب، والإيمان النافع المنجي إنما هو الإيمان بالغيب.

لذا فقد كان أول ما مدح الله–تعالى–به أهل الإيمان فى كتابه أنهم يؤمنون بالغيب، فقد قال تعالى {الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: الآيات: ١ – ٣].

وأضف الي ذلك أنه قد اقتضت حكمة الله -تعالى-أن لا يكون عذاب القبر ظاهرا، إذ لو كان ظاهرا لما تدافن الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)). [1]

وأما قولهم بعدم حدوث عذاب القبر لمن أكله سبع أو حرق!!

فجوابه:

فذكر العذاب والحاقه بالقبر إنما خرج على الغالب فلا مفهوم له؛ فالمصلوب والمحروق والغريق ومن أكلته السباع لهم من عذاب البرزخ ونعيمه بحسب ما تقتضيه أعمالهم، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

وإلا فسيقال من باب الإلزام بعدم بعث من أكلته السباع أو حرق، ومثل هذا مما لم يقل به نفاة القول بعذاب القبر، فكما قيل فى قوله تعالى {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا

1 أخرجه مسلم (٧١٤٢).

مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: الآية: ٥٢] أنه خرج على الغالب، مع إثبات البعث لمن لم يكن له مرقد، كالمحروق ومن أكلته السباع، فكذا يقال بإثبات عذاب القبر ونعيمه لمن لم يقبر.

وقد ورد في حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له)). [1]

قال ابن القيم: "ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا

1 أخرجه البخاري (3481)، ومسلم (2756).

ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور". [1]

ويلخص ما سبق كلام بديع للسمعاني، لما ذكر أمور الغيب من عذاب القبر وسؤال الملكين والحوض والميزان والصراط، قال-رحمه الله-: "وهذه أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئًا من أمور الدين وعقلناه وفهمناه فلله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، وما لم يمكنا إدراكه وفهمه ولم تبلغه عقولنا آمنا به وصدقنا واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه ومشيئته، وقال تعالى في مثل هذا {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}.[الإسراء: الآية: ٨٥]". [2]

---

1 الروح (ص: ٥٨).

2 الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ٨٢).

* تنبيه وتصحيح:

قد ذهب بعض المعتزلة إلى أن الله – سبحانه –يعذب الموتى في قبورهم، ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها، وقالوا بأن سبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب. [1]

*وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك، وبين أن الأمر على خلاف ذلك، فقال رحمه الله: "ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه؛ بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم. وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير، ونحو ذلك.

---

1 الروح (ص: ٥٨).

مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم". [1]. [2]

1 مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٦).

2 المصدر: الأربعين العقدية لأيمن إسماعيل (٢/ ٨٨٥-٨٩٢).

[الحساب]

المسألة الأولى:الأدلة على إثبات الحساب.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في المسألة.

[٧]- **قال المصنف-رحمه الله-:** **"والحساب".**

الشرح

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات الحساب:

أ-الأدلة من القرآن:

١-قال الله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: الآية: 10] .

قال ابن جرير: "قوله: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: الآية: 10] يقول تعالى ذكره: وإذا صحف أعمال العباد نشرت لهم، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات". [1]

وقال السمعاني: "قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: الآية: 10]، يعني: على الخلائق؛ فمنهم من يعطى بيمينه، ومنهم من يعطى بشماله". [2]

وقال البيضاوي: "{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: الآية: 10]، يعني صحف الأعمال؛ فإنها تطوى عند الموت وتنشر وقت الحساب. وقيل: نشرت فرقت بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالتشديد نشرت للمبالغة في النشر، أو لكثرة الصحف، أو شدة التطاير". [3]

---

1 ينظر: تفسير ابن جرير (24/ 148).

2 ينظر: تفسير السمعاني (6/ 168).

3 ينظر: تفسير البيضاوي (5/ 289).

2- قال الله-عز وجل-: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: الآيات: 7-١٣].

قال ابن كثير: "{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: الآيتان: 7-٨]، أي: سهلا بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة... قوله تعالى: {وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: الآية: ٩]، أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة والضحاك مسرورا أي: فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل... وقوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق: الآية: ١٠]، أي: بشماله من وراء ظهره، تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا} [الانشقاق: الآية: ١١]، أي: خسارًا وهلاكًا، {وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا} [الانشقاق: الآية: ١٢]، {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: الآية: ١٣]، أي: فرحًا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل". [1]

---

1 ينظر: تفسير ابن كثير (8/ 356-358).

وقال السعدي: "{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الانشقاق: الآية: ٧]، وهم أهل السعادة. {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: الآية: ٨] وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى له: ((إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم)). {وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: الآية: ٩]، لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب، {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق: الآية: ١٠]، أي: بشماله من خلفه. {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا} [الانشقاق: الآية: ١١]، من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، {وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا} [الانشقاق: الآية: ١٢]، أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها؛ وذلك لأنه في الدنيا كان في أهله مسرورا لا يخطر البعث على باله، وقد أساء ولم يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه". [1]

3- قال الله تعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: الآيات: 13-14].

---

1 ينظر: تفسير السعدي (ص: 917).

قال البغوي: "{اقْرَأْ كِتَابَكَ} أي: يقال له اقرأ كتابك، قوله تعالى: {كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}. قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك. قال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا". [1]

وقال ابن كثير: "قوله تعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة؛ إما بيمينه إن كان سعيدا، أو بشماله إن كان شقيا منشورا أي: مفتوحا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: الآيات: 13 - 15] ؛ ولهذا قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} أي: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي". [2]

---

1 ينظر: تفسير البغوي (3/ 124).

2 ينظر: تفسير ابن كثير (5/ 51).

4- قال الله سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} [الحاقة: الآيات: 19 - 29] .

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} أي: خذوا اقرؤوا كتابيه؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات... وقوله: {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} أي: قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة: الآية: 46] ...{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}.... وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم، فيقول: {فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}... قال

الضحاك: يعني موتة لا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب، والربيع، والسدي. وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه!". [1]

وقال السعدي: "هؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزا لهم وتنويها بشأنهم ورفعا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: هاؤم اقرءوا كتابيه أي: دونكم كتابي فاقرؤوه؛ فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب...

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}....

هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخزيا وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}، لأنه يبشر بدخول النار والخسارة

1 يُنظر: تفسير ابن كثير (8/ 213-215).

الأبدية. {وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} أي: ليتني كنت نسيا منسيا ولم أبعث وأحاسب؛ ولهذا قال: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها". [1]

5- قال الله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [الإسراء: الآية: 71] .

قال السمعاني: "قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} فيه أقوال: أحدها: بنبيهم، والآخر: بكتابهم، والثالث: بأعمالهم... وقوله تعالى: فمن أوتي كتابه بيمينه {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ}، والكتاب: هو صحيفة الحسنات والسيئات.

وقوله: {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} أي: لا ينقص من حقهم بقدر الفتيل. والفتيل: هو الذي في شق النواة، وقيل: ما فتل بين الأصابع". [2]

وقال البيضاوي: "فمن أوتي من المدعوين كتابه بيمينه أي كتاب عمله. فأولئك يقرؤون كتابهم ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه. ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع

---

1 يُنظر: تفسير السعدي (ص: 883).

2 يُنظر: تفسير السمعاني (3/ 263).

اسم الإشارة والضمير؛ لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتى كتابه بشماله إذا اطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة؛ ولذلك لم يذكرهم". [1]

ب-الأدلة من السنة:

عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر-رضي الله عنهما-: كيف سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: ((يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه-عز وجل-، حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله)). [2]

عن عائشة-رضي الله عنها-، أنها ذَكَرَتِ النار، فبَكَت، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((ما يبكيكِ؟ قالت: ذكرتُ النار فبكَيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول

---

1 يُنظر: تفسير البيضاوي (3/ 262).

2 أخرجه البخاري (2441)، ومسلم (2768) واللَّفظُ له.

الله-صلى الله عليه وسلم-: أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخِفُّ ميزانه أو يثقُل، وعند الكتاب حين يُقال: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [الحاقة: الآية: 19]، حتى يعلم أين يقع كتابه؛ أفي يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وُضِع بين ظَهْرَي جهنم)). [1]

---

1 أخرجه أحمد في المسند (6/ 110)، وأبو داود في السنن (٢/ ٤٢٥)، والحاكم النيسابوري في المستدرك (4/ 578)، إسحاق بن راهويه في مسنده (3/ 740)، والآجري في الشريعة (٢/ ٤٩٥)، وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٤٨، ٣١٤)، والنحاس في معاني القرآن (٤/ ٣٧٢)، وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والآجرى في الشريعة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث أبو الشيخ وابن مردويه، وأورده الهيثمى في مجمع الزوائد (10/ 358).

للحديث ثلاثة طرق عن عائشة

الأول: من طريق الشعبي عن عائشة، اسناده منقطع عامر الشعبي لم يسمع من عائشة ورجاله موثقون وله طريق متصل في الوسيط في تفسير القرآن المجيد ومعاني القرءان للنحاس، عن عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة، واسناده ضعيف فيه عصام بن طليق.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في المسألة.

1- قال ابن حزم: "الصحف تكتب فيها أعمال العباد، الملائكة حق نؤمن بها ولا ندري كيف هي ... وأن الناس يعطون كتبهم يوم القيامة، فالمؤمنون الفائزون

الثاني: من طريق قتادة مرسلا -تفسير الصنعاني (1940)-[1988]، اسناده ضعيف مرسل والراجح أن قتادة سمعه من الحسن.

الثالث: من طريق خالد بن أبي عمران عن القاسم عن عائشة كما جاء في مسند الامام أحمد، اسناده ضعيف ورجاله موثقون غير عبد الله بن لهيعة ضعفوه.

بالإضافة الى طريق الحسن، فقد أخرجه أبو داود (٤٧٥٥)، وأحمد مختصرا (٢٤٦٩٦)، والحاكم بنحوه في "مستدركه" (٨٧٢٢) من طريق الحسن عن عائشة. قال الحاكم: "هذا حديثٌ صحيحٌ إسنادُه على شرط الشيخين لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة، على أنه قد صحَّت الروايات أنَّ الحسن كان يدخل وهو صبيٌّ منزل عائشة-رضي الله عنها- وأمِّ سلمة"، وقال الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة".

ولعل الحديث يرتقي إلى الحسن لغيره والله أعلم.

الذين لا يعذبون يعطونها بأيمانهم، والكفار بأشملهم، والمؤمنون أهل الكبائر وراء ظهورهم". [1]

2- قال أبو الحسن الأشعري: "الخلق يؤتون يوم القيامة بصحائف فيها أعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه حوسب حسابا يسيرا، ومن أوتي كتابه بشماله فأولئك يصلون سعيرا". [2]

3- قال القرطبي: "فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتونها بعد البعث حوسبوا بها، قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: الآية: 7-8]، فدل على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب؛ لأن الناس إذا بعثوا لا يكونون ذاكرين لأعمالهم. قال الله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: الآية: 6]... فإذا بعثوا من قبورهم إلى المواقف وقاموا فيها ما شاء الله تعالى -على ما تقدم- حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس، فأوتوها؛ فمنهم من يؤتى كتابه

---

1 ينظر: المحلى (1/ 17).

2 ينظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص: 162).

بيمينه، فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كل كتابه... فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب، ونصبت الموازين، وقد نوديت ونوه باسمك على رءوس الخلائق؛ أين فلان بن فلان؟ هلم إلى العرض على الله تعالى... فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك، في يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بلية كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل، وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف، وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما! فيا حسرة قلبك! ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك!". [1]

4- قال ابن تيمية: "تنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال. فآخذ كتابه بيمينه. وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره. كما قال سبحانه وتعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: الآيات: 13-14]". [2]

---

1 ينظر: التذكرة (1/ 294).

2 ينظر: العقيدة الواسطية (ص: 98).

5- قال السفاريني: "الصحف جمع صحيفة، وهي الكتب كتبتها الملائكة، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله في الدنيا، القولية والفعلية... والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين والشمال مما يجب الإيمان به، وعقد القلب بأنه حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع". [1]

6- قال ابن باز: "يجب الإيمان بما أخبر الله به ورسوله من أمر القيامة، والجنة والنار، والحساب والجزاء، ونشر الصحف، وأخذها باليمين أو الشمال، ووزن الأعمال، إلى غير ذلك مما جاءت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية". [2]

7- قال ابن عثيمين: "الصحف يعني الصحف التي كتبت فيها أعمال العبد، وهي التي كتبتها الملائكة في الدنيا، قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: الآيات: 9-11].

وقال تعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: الآيات: 13-14].

---

1 ينظر: لوامع الأنوار البهية (2/ 180).

2 ينظر: مجموع فتاوى ابن باز (9/ 398).

فهذه الصحف قد كتبت من قبل وسجلت، فتنشر يوم القيامة، ويقال للرجل: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: الآية: ١٤]، وقد قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيبا على نفسك. وهذه الصحف تنشر وتتطاير، فينقسم الناس فيها إلى قسمين: قسم يأخذها باليمين، وقسم يأخذها بالشمال، وفي آية ثالثة من وراء الظهر، ويحتمل أن تكون هذه صفة ثالثة، ويحتمل أن تكون صفة في صفة الشمال، وهو الصنف الثاني، وهذا هو الأقرب، والأول محتمل". [1]

1 ينظر: شرح العقيدة السفارينية (ص: 469).

[الميزان]

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة.

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

المسألة الخامسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد.

المسألة السادسة: الأقوال في الموزون.

المسألة السابعة: كيفية وزن الأعمال.

[٨]- **قال المصنف-رحمه الله-: "والميزان".**

الشرح

في هذا النص مسائل: [1]

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة:

- **أصل الكلمة:**

أصله من مِوْزان؛ انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين.

---

1 المصدر: الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي (2/ 1083).

قال الجوهري-رحمه الله تعالى-: "... وأصله مِوْزانٌ، انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها... ووزنتُ الشيء وزنًا وزِنَة، ويقال: وَزَنْتُ فلانًا ووَزَنْتُ لفلان، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: 3]، وهذا يزن درهمًا". [1]

- **وزنها وتصاريفها**: الميزان مأخوذ من (وَزَنَ)، (يَزِن)، (وزنًا)، و(زِنَةً)، وأصله (مِوزَان) انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها فصار (ميزان)، ويتعدَّى باللام وبدونها.

قال ابن فارس-رحمه الله تعالى-: "الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا، وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ، وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ... وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ: هُوَ مُحَاذِيهِ، وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ، وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ: إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ". [2]

- **معانيها:**

قال الليث: (الوزن ثقل شيء بشيء مثله)[3].

---

1 "الصحاح للجوهري، مادة: (وزن)، (6/ 2213).

2 "معجم مقاييس اللغة"؛ لأحمد بن فارس مادة: (و-ز-ن)، (6/ 107).

3 لسان العرب (15/ 206).

والميزان: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تُقَدَّرُ به الأشياء خفةً وثقلًا.

وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان:

المعنى الأول: فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء وقيمته، أو خسة الشيء وسقوطه، كما قال تعالى: فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: الآية: 105].

قال ابن الأعرابي: العرب تقول: "ما لفلان عندنا وزن أي قدر؛ لخسته، ويقال: وزن الشيء إذا قدره، وزن ثمر النخيل إذا خرصه". [1]

المعنى الثاني: أن الميزان يأتي في باب اللغة مرادًا به الميزان ذي الكفات.

المعنى الثالث: ويأتي مرادًا به العدل أيضًا.

المعنى الرابع: كما يأتي ويراد به الكتاب الذي فيه أعمال الخلق.

ثم قال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ[2].

---

1 "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و-ز-ن)، (13/ 175).

2 "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و ز ن)، (13/ 175).

وقال الراغب: الوزن معرفة قدر الشيء... والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان.[1]

ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على أنه يأتي مراداً به المعادلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، مثل قوله تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الشعراء: الآية: 182]، {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ} [الرحمن: الآية: 9].

وأنه يأتي بمعنى العدل في محاسبة الناس، كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: الآية: 47].

- **استعمالاتها:**

أما الميزان؛ فهو: "الآلة التي يوزن بها الأشياء" ويجمع على: موازين.

"وجائز أن يقال للميزان الواحد-بأوزانه وجميع آلته-الموازين، قال الله-عز وجل-: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: الآية: 47] يريد نضع الميزان ذا القسط. وسيأتي تفصيل هذا.

---

1 المفردات في غريب القرآن"؛ للراغب الأصفهاني، (ص: 868).

وجاء إطلاق الموازين على الأعمال:

كما قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية: 8]

قال الأزهري: "أراد والله أعلم-: فمن ثقلت أعماله التي هي حسناته".

وذكر الراغب: "أن مجيء الميزان على صيغة الجمع تارة، ومجيئه تارة أخرى بالإفراد فإنما هو باعتبار المحاسب والمحاسبين، فمجيئه بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب، ومجيئه بالجمع اعتباراً بالمحاسبين". [1]

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

أولاً: الأدلة من القرآن:

ومن أدلة الكتاب العزيز:

- وقوله: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: الآيتان: 8-9].

---

1 الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي (2/ 1083).

- وقال-جل وعلا-: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: الآية: 47].
- وقال عز وجل: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة: الآيات: 6-9]، وغير ذلك.

ثانياً: الأدلة من السنة:

- عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((كَلِمَتان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلتان في الميزان، حَبِيبتان إلى الرَّحمن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)).[1]
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّه لَيُؤتى بالرَّجل العَظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزن عند الله جناح بَعُوضة، وقال: اقْرءوا إن شئتم: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: الآية: 105])).[2]
- وعن عبد الله بن عُمر-رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: ((إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رُءوس الخَلائق يوم القيامة، فَيَنْشُر عليه تِسعة وتِسعين سِجلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصر، ثُمَّ يقول له: أَتُنْكِر مِن هذا شيئًا؟ أَظَلَمَتك كَتَبَتي الحَافظون؟ قال: لا يا

---

1 أخرجه البخاري (6406) ومسلم (2694)

2 أخرجه البخاري (4729)، ومسلم (2785).

رب. فيقول: أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنة؟ فيهيب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك؛ فَتُخرج له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسولُ الله. فيقول: أَحْضِروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيُقال: إنَّك لا تُظلم. قال: فَتُوضع السِّجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، قال: فَطاشت السِّجلات، وثَقُلت البِطاقة، ولا يَثْقُل شيءٌ بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ)). [1]

- وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-: أنَّه كان يَجني سِوَاكًا من الأَرَاك، وكان دقيقَ السَّاقين، فَجَعَلت الرِّيح تَكفؤه، فَضَحِك القومُ مِنه، فقال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم-: ((مِمَّ تَضْحَكُون؟)). قالوا: يا نَبِيَّ الله مِن دِقَّة سَاقيه. فقال: ((والَّذي نَفْسِي بيدِه لَهُما أثقلُ في الميزان مِن أُحُدٍ)). [2]
- وعن أبي مالكٍ الأشعريّ-رضي الله عنه-، قال: قال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم: ((الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تَمْلَأُ الميزانَ)). [3]

---

1 أخرجه أحمد في مسنده (2/ 213) (6994)، والترمذي (2639)، وصححه الألباني في "الصحيحة" (135).

2 أخرجه أحمد في مسنده (1/ 114) (920)، وابن حبان في صحيحه (7069)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (2750).

3 أخرجه مسلم (223).

ثالثاً: دليل الإجماع:

فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك.

قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلةً ليكونوا على أنفسهم شهداء.

قال القرطبي: "قد بلغت أحاديثه-أي: الميزان-مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه". [1]

- وقال في موضع آخر: "أَجْمَع أكابرُ مُحَقِّقي هذه الأمة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقٌّ واجبٌ وفَرْضٌ لازبٌ لِثُبوته، وعدم استحالة ذلك عقلًا". [2]

---

1 لوامع الأنوار البهية (2/ 184، 185).

2 لوائح الأنوار السنية (2/ 179).

- قال السفاريني رحمه الله تعالى: "فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ. .. وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ". [1]

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

الميزان في الشرع: هو ما يضعُه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

والميزان الذي تُوزن بِهِ الأعمال هو: ميزان حسيٌّ حقيقي، له كفتان، وفي بعض الروايات: "ولسان"، والميزان عند أهل السنة ميزانٌ حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في هذا القول المعتزلة وقلة قليلةٌ من أهل السنة.

أقوال علماء الأمة:

- قال السَّفارينيُّ: "قال علماؤنا كغيرهم: نُؤمن بأن الميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات حقٌّ، قالوا: وله لسان وكفتان تُوزن به صحائف الأعمال؛ قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: تُوزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.
- قال العلامة الشيخ مرعي في "بهجته": الصحيح: أنَّ المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل، خلافًا لبعضهم.

---

1 لوامع الأنوار البهية (2/ 185).

- وقال القرطبي في "تذكرته": "قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها". [1]

الذين خالفوا قول الجمهور في الميزان:

قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تُقَوَّم بأنفسها. قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: "أن الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا، فيزنها"، وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعَزَا الطبري القول بذلك إلى مجاهد، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الميزان ميزان حقيقي توزنُ بِهِ أعمالُ العباد.[2]

---

1 لوامع الأنوار البهية (2/ 184، 185).

2 انظر: التذكرة (ص: 309).

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

الواقع أن العلماء لم يتفقوا على إثبات أوصاف الميزان–وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الجوانب في وجوب الإيمان بالميزان، ومواقف الناس في ذلك–وأما خلافهم في ثبوت صفاته فقد انقسموا إلى فريقين:

1–أما الفريق الأول: فهم المثبتون لصفات الميزان الحسية، من أن له كفتين... إلى آخر أوصافه، وهؤلاء وإن أثبتوا هذا لكنهم يرجعون صفة تلك الكفات واللسان إلى علم الله تعالى.

2–أما الفريق الآخر: فهم النافون لتلك الصفات.

وسنذكر رأي الفريقين فيما يلي: –

(1) المثبتون لصفات الميزان:

يثبت هؤلاء–وهم جمهور العلماء–أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان، وله لسان كذلك. يقررون هذه الحقيقة غير ملتفتين إلى من تشمئز قلوبهم من سماعها، لعدم قبول عقولهم لها، وعدم تفهم ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك. ذلك أن الحق ضالة المؤمن، وما ورد به الشرع هو الذي ينبغي أن يقدم على هوى النفس وحكم العقل.

وسنذكر فيما يلي بعض أقوال هؤلاء كأمثلة على ثبوت ما ذكرنا.

قال القرطبي-ردًّا على من ينكر الميزان، ويؤول الوزن بأنه من ضرب المثل، وأن الوزن يراد به العدل والقضاء-قال: "وهذا مجاز. وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة – للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووصفه بكفتين ولسان، وأن كل كفة منها طباق السموات والأرض". [1]

ويعزو القرطبي إلى ابن عباس أنه قال: "توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان". [2]

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه قال: "الميزان له لسان وكفتان، يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات؛ فتؤخذ فتوضع في الجنة... ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان فتخف...". [3]

---

1 التذكرة، (ص: 378).

2 التذكرة، (ص: 378).

3 الدر المنثور، (3/ 70)

ويقول ابن قدامة: "والميزان له كفتان ولسان، توزن به الأعمال، {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: الآيتان: 102-103]". [1]

ويقول أبو الحسن الأشعري في معرض بيانه لاختلاف الناس في الميزان ومبينًا رأي أهل السنة: فقال أهل الحق: "له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات، فمن رجحت حسناته؛ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته، تفضل الله عليه فأدخله الجنة". [2]

ويثبت ابن كثير أن للميزان كفتين حسيتين، ويستدل على هذا من السنة بحديث صاحب البطاقة المشهور وغيره من الأحاديث. [3].

---

1 ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، (ص: 33).

2 المقالات، (2/ 164)

3 النهاية، (2/ 24).

وأخرج الطبري عن ابن جريج قال: قال لي عمرو بن دينار: "قوله: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: الآية: 8] قال: إنا نرى ميزاناً وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يجعل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب". [1] وهو القول الذي رجحه الطبري أيضًا.

ويقول ابن أبي العز: "والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان". [2]

وقال أبو إسحاق الزجاج – كما نقل عنه الحافظ ابن حجر: "أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، ويميل بالأعمال". [3]

ويقول السفاريني: "فقد دلت الآثار على أنه ميزان حقيقي ذو كفتين ولسان، كما قال ابن عباس، والحسن البصري، وصرح بذلك علماؤنا، والأشعرية وغيرهم، وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه". [4]

---

1 جامع البيان، (8/ 123).

2 الطحاوية، (ص: 472).

3 نقله عنه الحافظ ابن حجر في، فتح الباري، (13/ 538).

4 لوامع الأنوار، (2/ 152).

ويقول البرديسي: "وانعقد الإجماع على أنه ميزان حسي له كفتان ولسان يوضع فيه صحف أعمال العباد ليظهر الرابح والخاسر". [1]

ويروى من طريق عبد الملك بن أبي سليمان أنه قال: "ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان". [2]

وعن سليمان قال: "يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعته". [3]

ويقول الهراس: "وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب الله أعمال العباد-وهي أعراض-أجساماً لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة". [4]

ونقتصر في إثبات أن الميزان له لسان وكفتان على ما قدمناه من ذكر أقوال العلماء.

---

1 تكملة شرح الصدور، (ص: 14).

2 تفسير المنار، (8/ 322).

3 فتح الباري، (13/ 539).

4 شرح العقيدة الواسطية، (ص: 123).

وبهذا يتبين أن أهل الحق-أهل السنة والجماعة-يثبتون حقيقة الميزان على ضوء ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، لا يتأولون معناه، ولا يردون ما جاء في وصفه، ويقولون: الله وحده هو الذي يعلم قدرهما وكيفيتهما.

إذ لو لم يكن له لسان وكفتان؛ بل هو بمعنى العدل والقضاء كما ذهب إليه بعض العلماء، لو لم يكن كذلك لما وصف في السنة النبوية بأن له لسانا وكفتين، وأنه يخف ويثقل؛ إذ العدل لا يقال فيه تلك الصفات، فصح أنه ميزان حقيقي يزن الله فيه أعمال العباد، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار، على ما علم من مذهب السلف.

وإذ كنا نثبت صفات الميزان على ضوء ما جاء به الشرع فإنه لا ينبغي أن نتكلف فنثبت له أوصافًا تحتاج إلى إثبات من الشارع، أو نستند إلى أخبار لم تثبت، فإن الغلو في هذا مذموم.

وكمثال على هذا: ما يذهب إليه بعض الناس من أن كفتي الميزان من ذهب. [1]

أو القول بأن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام. [2]

---

1 الفصل لابن حزم، (4/ 65).

2 التذكرة، (ص: 313).

أو أن كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار".
1

أو ما يقال إن صاحب الميزان يوم القيامة هو جبريل عليه السلام. 2

فتلك المسائل كلها تحتاج لإثباتها-فضلاً عن اعتقادها-إلى نص صحيح، فإن بعض العلماء يتساهل فيما يقرره من هذه المسائل، مثل ما يرويه السفاريني بصيغة التضعيف-يروى-"أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق قال: إلهي من ذا الذي يقدر يملأ كفة حسناته؟ فقال: إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة". 3

أو ما يذكره عن عبد الله بن سلام-رضي الله عنه-غير معزو إلى أحد-أنه قال: "ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة، والأخرى على

---

1 التذكرة، (ص: 314)، وعزاه إلى الترمذي الحكيم.

2 أخرجه الطبري في (جامع البيان) (8/ 123) عن الحارث، قال: ثنا عبد العزيز قال: ثنا يوسف بن صهيب، عن موسى بن بلال ابن يحيى، عن حذيفة.

3 ذكره السفاريني في (لوامع الأنوار) (2/ 184) وعزاه إلى الرازي والثعلبي

جهنم، لو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعمود ينظر إلى لسانه". [1]

وكذا ما يروى عن عمر مرفوعاً: ((من كبر تكبيرة في سبيل الله، كانت صخرة في ميزانه أثقل من السموات السبع وما فيهن وما تحتهن، وأعطاه الله بها رضوانه الأكبر، وجمع بينه وبين محمد وإبراهيم والمرسلين في دار الجلال: ينظر إلى الله بكرة وعشياً)). [2]

وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من كبر تكبيرة على ساحل البحر، كان في ميزانه صخرة، قيل: يا رسول الله، وما قدرها؟ قال: تملأ ما بين السموات والأرض)). [3]

---

1 لوامع الأنوار، (2/ 184) ولم يعزه إلى أحد.

2 قال السيوطي في اللآلئ المصنوعة: "قال ابن حبان لا أصل له، وإسحاق يأتي بالموضوعات عن الثقات، قلت-وكذا قال الدارقطني في (غرائب مالك) إنه موضوع (2/ 137).

3 قال ابن عدي: "هذا ما وضعه النخعي، وزيد ليس بشيء" (اللآلئ المصنوعة) (2/ 137).

ويقول السفاريني: "ظواهر الآثار وأقوال العلماء: أن كيفية الوزن في الآخرة-خفة وثقلاً-مثل كيفيته في الدنيا، ما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرفع إلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين، وبه صرح جموع، منهم القرطبي".

وقال بعض المتأخرين بل الصفة مختلفة، وأن عمل المؤمن إذا رجح صعد وسفلت سيئته، والكافر تسفل كفته لخلو الأخرى عن الحسنات، ثم تلا قوله تعالى: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: الآية: 10].

وذكر بعضهم في صفة الوزن: أن تجعل جميع أعمال العباد في الميزان في مرة واحدة، كل الحسنات في كفة النور، وهي يمين العرش جهة الجنة، والسيئات في كفة الظلمة، وهي عن يسار جهة النار، ويخلق الله لكل إنسان علمًا ضروريًا يدرك به خفة أعماله وثقلها.

وقيل: بل علامة الرجحان عمود نور يقوم في كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيئات، وعلامة الخفة عمود ظلمة يقوم من كفة السيئات حتى يكسو كفة الحسنات، لكل أحد. [1]

والظاهر أن هذه الكيفيات كلها تحتاج إلى إثبات، فهي مسألة غيبية، والله تعالى له القدرة على ما يشاء.

---

1 لوامع الأنوار (2/ 188-189).

2 – النافون لصفات الميزان:

وهؤلاء قالوا بعكس ما قاله الفريق الأول، حيث أحجموا عن وصف الميزان بالأوصاف التي تقدمت، واكتفوا بإثبات أن هناك ميزانًا فقط.

1-يقول محمد رشيد رضا في نفي تلك الصفات وفي رده على الزجاج: "وإذا لم يكن في الصحيحين ولا في كتب السنة المعتمدة حديث صحيح مرفوع في صفة الميزان، ولا في أن له كفتين ولساناً، فلا تغتر بقول الزجاج أن هذا مما أجمع عليه أهل السنة، فإن كثيراً من المصنفين يتساهلون بإطلاق كلمة الإجماع ولاسيما غير الحفاظ المتقنين، والزجاج ليس منهم، ويتساهلون في عزو كل ما يوجد في كتب أهل السنة إلى جماعتهم، وإن لم يعرف له أصل من السلف، ولا اتفق عليه الخلف منهم، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف والخلف كما علمت". [1]

وقال أيضًا: "والأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته، فنؤمن إذا بأن في الأخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجع أنه بميزان يليق بذلك العالم، ويوزن به الإيمان،

1 تفسير، المنار، (8/ 322).

والأخلاق، والأعمال، ولا نبحث عن صورته وكيفيته، ولا عن كفتيه – إن صح الحديث فيهما – كما صوره الشعراني في ميزانه". [1].

والواقع أن ما قاله محمد رشيد رضا–من إنكار أن يكون هناك أي إشارة إلى أن الميزان له كفتان من السنة–غير مسلم فقد جاء في السنة بعض الأحاديث التي تدل على وزن العمل ووزن العامل وكما أخرج البخاري: ((يؤتي بالرجل فيوضع في كفة))[2] وكقوله أيضاً: ((فطاشت السجلات وثقلت البطاقة))[3]. وغيرها من الأحاديث التي قدمنا ذكرها، وفيها إشارة إلى إثبات أن ميزان الأعمال له كفتان.

---

1 تفسير المنار، (8/ 323).

2 الحديث رواه أحمد (٢/ 221) (7066) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (10/ 82) رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه بن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (12/ 24): إسناده صحيح.

3 الحديث رواه الترمذي (2639)، وابن ماجه (3488) وأحمد (2/ 213) (6994)، والحاكم (1/ 46) من حديث ابن عمرو–رضي الله عنهما–، قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البغوي في (شرح السنة) (7/ 490) حسن غريب.

ثم إن إثبات أن الميزان له كفتان لم يقل به الزجاج وحده، بل هو ما عليه الأئمة الذين قدمنا ذكر أقوالهم.

2-ما علقه الدكتور طه محمد الزيني على ترجمة ابن كثير في إثبات أن للميزان كفتين حسيتين بقوله: "لا يوجد دليل قاطع في القرآن ولا في الحديث على أن كفتي ميزان الحساب يوم القيامة حسيتان – أي يدركان بإحدى الحواس الخمس، وأقرب الحواس إلى إدراك الكفتين اللمس باليد – بل كل ما في القرآن والحديث يحتمل أن يكون الوزن معنوياً، بل هو الأرجح؛ لأن الأعمال يوم القيامة أكثرها معنوي يقرب إلى الأذهان بتشبيهه بالحسيات". [1]

وهذا القول من الدكتور طه الزيني يعتبر بعيدًا عما قرره العلماء، ومخالفًا لما جاءت به السنة في وزن الأعمال، وليس ما يذكره من أعمال يوم القيامة من الأشياء المتخيلة التي يشبه فيها المعنوي بالحسي. فإن القول بهذا يفتح بابًا خطيرًا من التشكيك في أمور الآخرة، وينبغي على من يقول بهذا أن يعيد النظر فيه.

المسألة الخامسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد:

وقد اختلف العلماء في وحدة الميزان وتعدُّده على مذهبين:

---

1 النهاية، (2/ 91).

المذهب الأول: القائلون بتعدد الميزان:

قال الحسن البصري-رحمه الله تعالى-: "بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزانًا على حدة"[1].

وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد؛ لقوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ} [الأنبياء: الآية: 47]، وقوله: {فمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [الأعراف: 8].

وقالوا: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

المذهب الثاني: القائلون بوحدة الميزان:

فذهب هؤلاء إلى أن لكل فرد ميزانًا خاصًّا به أو لكل عمل ميزان خاص به؛ لقوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: الآية: 47].

وأجابوا عن جمع كلمة (الموازين) في الآية: إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدُّد الأعمال أو الأشخاص.

---

1 أورده ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (2/ 376)، ونسبه إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى.

وقد رجَّح ابن حجر العسقلاني-رحمه الله تعالى-بعد حكايته الخلاف أن الميزان واحد، وقال: "والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا". [1]

وحَسَّنَ السفاريني رحمه الله تعالى القول بوحدة الميزان بعد ذكر الإجابة عن جمع كلمة (الموازين) في الآية بقوله: "وَهُوَ حَسَنٌ"[2] .

ومن المعاصرين الذين يرون هذا القول الشيخ العثيمين-رحمه الله تعالى-في الجواب عن سؤال عن وحدة الميزان وتعدده، فقال-بعد ذكر الخلاف بين أهل العلم-: "الذي يظهر-والله أعلم-أن الميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون". [3]

المسألة السادسة: الأقوال في الموزون:

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال:

---

1 "فتح الباري شرح صحيح البخاري"؛ لابن حجر العسقلاني، (13/ 538).

2 لوامع الأنوار البهية للسفاريني، (2/ 186).

3 مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. (2/ 44)، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.

القول الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

أدلته: ويدل لذلك:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في (الصحيح) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)). [1]
- وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورةٍ الله أعلم بها، فمن ذلك: مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما. ففي (صحيح مسلم) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما))[2]. وروى مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم

---

1 رواه البخاري (6406)، ومسلم (2694).

2 رواه مسلم (804).

القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما)) [1].

القائلين به: هذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق))[2] .

القول الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه.

أدلته: فقد دلَّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَز}[الكهف: 105].[3] ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روى أحمد في

---

1 رواه مسلم (805).

2 رواه أبو داود (4799)، والترمذي (2003)، وابن حبان (2/ 230) والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال الألباني في (صحيح سنن أبي داود): صحيح.

3 رواه البخاري (4729)، ومسلم (2785).

(مسنده)، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، ((أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. قال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)). [1]

القول الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال.

أدلته: فقد روى الترمذي في (سننه) عن عبد الله بن عمرو بن العاص–رضي الله عنهما–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه

1 رواه أحمد (1/ 420) (3991)، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد (6/ 39): إسناده صحيح، وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (2750): إسناده حسن وهو صحيح بطرقه الكثيرة.

البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء)). [1]

القائلين به: وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى: رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار. وقال السفاريني: والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي.

القول الرابع: أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله.

أدلته: فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات

---

1 رواه الترمذي (2639)، والحديث رواه ابن ماجه (4300)، وأحمد (2/ 213) والحاكم (1/ 46) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في (الصحيحين) وهو صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (135): وهو كما قالا.

الوزن للثلاثة المذكورة جميعها. وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: "والذي استظهر من النصوص-والله أعلم-أن العامل وعمله وصحيفة عمله – كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد-رحمه الله تعالى-: عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر، إذ صائح من عند الرحمن-عز وجل-يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان)). [1] فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة.

---

1 رواه أحمد (2/ 221) (7066)، قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (10/ 82): رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (12/ 24): إسناده صحيح.

المسألة السابعة: كيفية وزن الأعمال

قال الإمام القرطبي-رحمه الله-: «قال علماؤنا-رحمهم الله-: الناس في الآخرة ثلاث طبقات:

- متقون لا كبائر لهم.
- ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر.
- والثالث: الكفار.

فأمَّا المتقون: فإن حسناتهم تُوضع في الكفة النيرة، وصغائرهم-إن كانت لهم الكفة الأخرى-فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تَبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأمَّا المخلطون: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي، هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة

فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات؛ فيُحمل عليه مِن أوزار مَن ظلمه، ثم يُعَذَّب على الجميع. هذا ما تقتضيه الأخبارُ". [1]

وأمَّا الكفار: فلا تُوزن أعمالهم؛ إذ لا حسنات لهم، وما قَدَّموه مِن عمل نافع في الدنيا فإنَّهم يجازون به في الدنيا كذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: الآيتان: 15، 16]، فيُوفون جزاء أعمالهم النافعة في الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم فيها نصيب من الحسنات والأجر، وإنما يجازون بكفرهم.

فما يقدِّمه الكافر من أعمال صالحة، كالصدقة، والعتق، وصلة الأرحام، والإنفاق، ونحوها من سبل الخير لا تُغني عنه شيئا، فالله تعالى:

شبهها بالسراب، فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: الآية: 39].

وشبهها بالرماد، فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: الآية: 18].

---

1 التذكرة للقرطبي (ص: 360).

وســـيجعلها هباءً منثوراً، فقال: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [الفرقان: الآية: 23].

وبيَّن أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة، فقال: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: الآيات: 103 – 105].

[الصراط]

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات الصراط.

المسألة الثانية: أحوال الناس على الصراط.

[٩]- **قال المصنف-رحمه الله-: "والصِّراط حقٌّ".**

الشرح

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات الصراط.

قال ابن القيم-رحمه الله-: "ولا ريب أن كل من له التفات إلى سنة رسول الله-صلى الله وعليه وسلم-واعتناء بها يشهدون شهادة جازمة أن المؤمنين يرون ربهم عيانًا يوم القيامة، وإن

قومًا من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة، وأن الصراط حق، وتكليم الله لعباده يوم القيامة كذلك"[1]

وروي عن الإمام سفيان بن عيينة–رحمه الله–، في اعتقاده قوله: "السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط، والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله، وعذاب القبر، والبعث يوم القيامة، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم".[2]

وقال شيخ الاسلام: "إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة" [3].

---

1 مختصر الصواعق للموصلي (ص: ٤٨٠).

2 رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1/ 156)

3 الأصفهانية (2/ 214).

ففي حديث أبي بكرة عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: ((يحمل الناس على الصراط، فينجي الله من شاء برحمته ثم يؤذن للملائكة، والنبيين، والشهداء، والصديقين فيشفعون)) الحديث[1].

والصِّراط: جِسر منصوب على مَتن جهنم بين الجَنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم.

قال السفاريني رحمه الله: "والصراط شرعًا: جِسر ممدود على مَتن جهنم يَرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلِق مِن حين خُلِقت جهنم". [2]

وفي قوله سبحانه وتعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: الآيتان: 71، 72].

---

1 رواه أحمد (5/ 43) (20457)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (2/ 142) (929)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (ص: 837). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/ 362): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (251): إسناده صحيح.

2 لوامع الأنوار البهية للسفاريني (2/ 189).

قال الشيخ السعدي: "هذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرّهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم: أنَّه ما منهم مِن أحدٍ إلا سيرد النار حكمًا حَتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد مِن نفوذه، ولا محيد عن وقوعه". [1].

المسألة الثانية: أحوال الناس على الصراط.

فالناس سيردون جهنم؛ لأنَّ الصراط مَنصوب على مَتْنِها.

وتختلف أحوال الناس في المرور عليه، كما جاء عن ابن مسعود-رضي الله عنه-: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يَرِدُ الناس النَّارَ، ثم يَصدرون عنها بأعمالهم؛ فأولهم كلمح البَرق، ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفرس[2]، ثم كالرَّاكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرَّجل ثم كمَشيه)). [3]

---

1 تفسير السعدي (ص: 580).

2 أي: جريه، وهو العَدْوُ الشَّديد.

3 أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (2852)، وقال: "حديث حسن"، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (2526).

وقد جاء في وصفه أنه: صراطٌ دقيق جدًّا، فعن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-، أنه قال: "بَلغني أنَّ الجسر أدق من الشعرة، وأحَدُّ من السيف". [1]

والصِّراط مِن عرصات وأهوال يوم القيامة، وأول مَن يجوز عليه: النبيُّ-صلى الله عليه وسلم-وأمته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((... ويُضْرَبُ الصِّراط بين ظَهْري جَهَنَّم فأكونُ أنا وأُمَّتي أَوَّل مَن يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرُّسل، ودَعوى الرُّسل يَومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مِثل شَوْك السَّعدان؛ هل رأيتم السَّعدان؟))، قالوا: نَعم يا رسول الله. قال: ((فإنَّها مِثل شَوك السَّعدان غَير أنَّه لا يَعلم قَدْرَ عِظَمِها إلَّا الله عز وجل، تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فمَنهم الموبق بعملِه، والموثق بعمله، ومنهم المخَرْدَل والمجَازَى)). [2]

قال الإمامُ القرطبيُّ-رحمه الله تعالى-: "فَتَفَكَّر الآن فيما يَحِلُّ بك من الفَزع بفؤادك إذا رأيتَ الصِّراط ودِقَّتَه، ثُمَّ وَقَعَ بصرُك على سَوَادِ جَهنم من تحته، ثم قَرَعَ سَمْعَك شَهِيقُ النارِ وتَغَيُّظُها، وقد كُلِّفْت أن تَمشي على الصِّراط مع ضَعف حالك، واضطراب قلبِك، وتَزَلزُلِ قَدَمِك، وثِقَل ظَهْرك بالأوزار المانعة لك مِن المشي على بساط الأرض فضلًا عن حِدَّة الصِّراط،

---

1 أخرجه مسلم (183).

2 أخرجه البخاري (7437)، ومسلم (182).

فكيف بك إذا وَضَعْتَ عليه إحدى رِجليك فَأَحْسَسْتَ بِحِدَّتِه، واضطررت إلى أن تَرفع القَدَم الثاني، والخلائق بين يديك يَزِلُّون ويَعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فَتَسْفُل إلى جهة النار رُءوسهم، وتَعْلُو أَرْجُلُهم؛ فَيَا له مِن مَنظر ما أَفْظَعَه! ومُرْتَقًى ما أَصْعَبَه! ومَجاز ما أَضْيَقَه!". [1]

ومع كل هذا فالمؤمن يمر عليه مرورًا سريعًا جدًّا.

ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أنه إذا أراد اجتياز الصراط إلى الجنة: أنه مطالب بمجاهدة نفسه في هذه الحياة؛ للثبات على منهج الله، وعليه النظر فيما هو مُقدم عليه من هذه الأهوال؛ قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: الآية: 18]؛ وإذا كان الإنسان يحتاط جدًّا في سفر الدنيا وخاصة إذا سَمِع أن فيه مشقة، وأنه قد يُصيبه العنت فيه-فماذا قَدَّم ليوم القيامة وما فيه من كربات وأهوال؟

1 التذكرة للقرطبي (ص 289).

وليحاسب نفسه هنا: لماذا هذه الغشاوة التي على عينيه، ولماذا هذه الغفلة التي في قلبه عن هذا المصير المحتوم؟! ولماذا الركون إلى الدنيا وعدم استثمار الأنفاس فيما ينفع وينجي في هذا اليوم؟!

فكيف يوقن العبد بهذه الحقائق ومع ذلك يفرط في جنب الله؟!

ولماذا لا يجتهد في تحصيل مرضاة الله؟!

وليعلم كل امرئ أن نفسه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل، وأن الله قد أعطاه قوة كامنة في نفسه؛ إمَّا أن يُوجهها للخير، وإما أن يوجهها للشر، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما قَدَّمه من أعمال صالحة في هذه الحياة صار قلبه بها سليمًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: الآيات: 87-89].

فعلى حسب حال المؤمن هنا من التنافس في فعل الخيرات، والمسارعة إلى مغفرة الله-سيكون حاله في الآخرة على الصراط؛ فمن استقام على صراط الله (منهجه) في الدنيا-ثَبَّته الله على الصراط المنصوب على ظهر جهنم؛ فاللهم ثَبِّتنا وسَلِّمنا دنيا وآخرة.

[الجزاء]

المسألة الأولى: فتنة القبر.

المسألة الثانية: جزاء المؤمنين.

المسألة الثالثة: جزاء الكافرين.

[١٠]- قال المصنف-رحمه الله-: "وأن اللهَ يَجزي العباد بأعمالهم. عليه أحيا، وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله".

الشرح:

المسألة الأولى: جزاء المؤمنين.

إن الله تعالى قد وعد عباده المؤمنين الأبرار بدار في الآخرة، ينعمون بجمالها ويبتهجون بحسنها ويقيمون في ظلها وينالون فيها كل ما تشتهيه أنفسهم وتقر به أعينهم، ثواباً من الله تعالى بسبب ما قاموا به من أعمال حسنة طيبة ومراعاتهم لمسؤولياتهم، وأدائهم لأمور عبادتهم.

والقارئ للقرآن الكريم يجد فيه ذكر كثير من هذه الألوان النعم وهذا الخير الذي وعد الله تعالى عباده الصالحين. ولو تتبعنا كل ما جاء في القرآن الكريم من ذلك فسوف يطول الحديث جداً. ولهذا سوف اقتصر فيما يلي على بعض مظاهر هذه النعم التي أعدها الله تعالى لعباده الصالحين في الآخرة.

الجنة متبوأ المؤمنين:

يقرر القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة أن الجنة ونعيمها متبوأ المؤمنين ومستقرهم وميراثهم الذي يرثونه بسبب أعمالهم الطيبة في الدنيا قال تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ

كَانَ تَقِيًّا} [مريم: الآية: 63]، كما قال تعالى {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: الآيتان: 10، 11]، كما قال تعالى {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: الآية 72].

ولذلك كان دعاء إبراهيم-عليه السلام-فيما حكاه القرآن الكريم {وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} [الشعراء: الآية 85]، ويقول الله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا} [العنكبوت: الآية 58]، فالله سبحانه وتعالى هيأ وسوى وزين الجنة للمؤمنين، لذا يقولون عند دخولهم إليها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: الآية: 74].

فحمدوا الله تعالى واثنوا عليه حيث أورثهم الجنة وجعلها متبوأهم ومستقرهم وحقق لهم ما وعدهم به في مثل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: الآيتان: 107، 108]، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد وعد الله تعالى للمؤمنين بأن الجنة ميراثهم ومتبوأهم ومستقرهم.

تحيتهم بالسلام:

أن أهل الطاعة والإيمان الذين عاشوا في الدنيا مسلمين لله عز وجل يتفضل الله تعالى عليهم في الآخرة بسلامه كما قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس: الآية: 58]، كما

تحييهم الملائكة بالسلام كلما دخلوا عليهم أو شاهدوهم يقول الله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: الآيتان: 23، 24]، كما يحيونهم بذلك عند دخولهم الجنة {يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: الآية: 32].

ويكون السلام تحية بعضهم بعضا، يقول الله تعالى: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: الآية: 10]، وكما قال تعالى: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [الفرقان: الآية: 75]. فحياتهم في الجنة خالية عن اللغو والعبث مملوءة بالسلام كما قال تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: الآية: 26].

طعام وشراب أهل الجنة:

لقد وصف الله تعالى طعام أهل الجنة وبين أن فيه من أنواع الملذات ما تشتهيا الأنفس وتلذ به الأعين، في آيات كثيرة من القرآن الكريم. يقول الله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} [يس: الآية: 57]، أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ"، [1] كما يقول تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} [ص: الآية: 51]، ويقول تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ} [محمد: الآية: 15]، وغير ذلك من الآيات التي تخبر بأن ثمار

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: 1572).

الجنة وطعامها كثير ومتنوع. يقول تعالى: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} [الرحمن: الآية: 52]. وهذه الطعوم والثمار تكون قريبة دانية من أهل الجنة تقدم إليهم وهم مكرمون، يقول تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الصافات: الآيات: ٤١-43].

كما أن الله تعالى يتفضل على أهل الجنة بألذ الشراب وأطيبه، يقول تعالى في وصف شرابهم: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: الآية: 15]، وقال تعالى: {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور: الآية: 23] "أي يتعاطون فيها كأسا أي من الخمر، لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إثم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا". [1]

درجات أهل الجنة:

يخبرنا الله تعالى أن الجنة درجات بعضها فوق بعض وأن لكل مؤمن درجة خاصة على حسب إيمانه وطاعته وأعماله الصالحة. قال تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: الآية: 132]، يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: "وفي هذا ما يدل على

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ١٧٧١).

أن المطيع من الجن في الجنة والعاصي منهم في النار كالإنس سواء وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه ومعنى ولكل درجات أي ولكل عامل بطاعة درجات في الثواب ولكل عامل بمعصية دركات في العقاب". [1]

ويقول ابن كثير "أي ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر".[2]. ويؤكد هذا قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأحقاف: الآية 19]، وقوله تعالى: {دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: الآية: 96]، وقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: الآية: 4]، فأهل الجنة يتفاوتون في الدرجات فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ويوضح هذه الدرجات ويفسرها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ((في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس)). [3]

---

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، (7/ 87، 88).

2 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ٧٢٣).

3 أخرجه الترمذي في سننه، صفة الجنة، في صفة درجات الجنة، ص: 573، رقم الحديث: 2529.

وقال النبي-صلى الله عليه وسلم- ((إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم)). قالوا يا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: ((بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)). [1]

مساكن أهل الجنة:

إن الله تعالى قد وعد عباده المؤمنين الصالحين المتقين بمساكن طيبة في الجنات ثواباً على أعمالهم الصالحة في الدنيا. يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [العنكبوت: الآية: 58]، وبين الله تعالى بأن هذه المساكن غرف مبنية بعضها فوق بعض. يقول الله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} [الزمر: الآية 20]، "أخبر-عز وجل-عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهي القصور أي الشاهقة {مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات". [2]

---

1 أخرجه البخاري، (3257).

2 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: 1617).

وقد وصف الله تعالى هذه المساكن بأنها طيبة حسنة جميلة بقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: الآية: 72]، كما وصف بأن أهل الجنة سوف يكونون في أمن وسلامة ولا يخافون شيئا في الجنة وفي مساكنهم التي يسكنونها. قال تعالى: {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: الآية: 37]، أي هم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه.

كما أخبرنا الله تعالى إن أهل الجنة يدخلونها ويتعرفون على مساكنهم فيها كأنهم قد سكنوها قبل ذلك. يقول تعالى {وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: الآية: 6]،

قال مجاهد: "يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله تعالى لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً". [1]

وبذلك يحيا المؤمنون في الجنة وقصورها ومساكنها حياة سعيدة هادئة طيبة يقيمون فيها أبدا ولا يبغون عنها حولا.

أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة:

---

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ١٧١٨).

جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين: منزلا في الجنة ومنزلا في النار، ثم إن من كتبت له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار، والذين كتب لهم السعادة من أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: الآيتان: 10–11]، وعن أبي هريرة–رضي الله عنه– ، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزل فذلك قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ})). [1]

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضا، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يجيء ناس يوم القيامة عن المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى)). [2]، وقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو

1 أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، (ص: 635)، رقم الحديث: (4341).

2 أخرجه مسلم (51).

نصرانياً، فيقول: هذا فكاك من النار)). [1] ، وهذا الحديث كقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} [مريم: الآية: 63]، أي "هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس". [2]

وذكر الرازي قول الحسن في تفسير هذه الآية "أن المراد أننا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل إرثاً". [3]

أفضل ما يُعطاه أهل الجنة:

وأفضل ما يعطاه أهل الجنة من النعيم هو رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم. وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم بقوله {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: الآيتان: 22–23]. والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة، قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: الآية: 15].

---

1 أخرجه مسلم (٤٩).

2 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: 1195 و 1292).

3 التفسير الكبير، لإمام الرازي، (11/ 203).

وقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((إذا دخل أهل الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى))، [1] زاد في رواية: ((ثم تلا هذه الآية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [يونس: الآية: 26]، وقد فسرت الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، كما يشير إليه الحديث.

والنظر إلى وجه الله تعالى هو من المزيد الذي وعد الله به المحسنين كما قال تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: الآية: 35]، وفي حديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها-وفي رواية طولها-ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)). [2]

صحبة أسرهم وأهل مودتهم:

---

1 أخرجه مسلم (٢٩٧).

2 أخرجه البخاري (4879).

لقد بشر الله تعالى ووعد عباده الأبرار المتقين الصالحين بأنه يجمعهم بأسرهم وأهل مودتهم في الجنة، كما قال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد: الآية: 23].

قال ابن كثير: أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً". [1] كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ *وَأَمْدَدْنَاهُمْ} [الطور: الآية: 21]،

وقال في تفسير هذه الآية "يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}". [2]

---

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ١٠١١).

2 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ١٧٧١).

خلود النعمة:

يقرر القرآن الكريم في كثير من الآيات بأن نعم الدنيا فانية، ونعم الآخرة باقية أبدية، لذلك سمى الله تعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعاً، لأنه يتمتع به ثم يزول، أما نعيم الآخرة فهو باق، ليس له نفاد، كما قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل: الآية: 96].

قال ابن كثير {ما عندكم ينفد} أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه (وما عند الله باقٍ) أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول".[1]

وكما قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: الآية: 54]، وقال تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد: الآية: 35].

وهناك آيات كثيرة تؤكد وتقرر دوام واستمرار أهل الجنة في الجنة بلا انقطاع ودوام الجنة وأبديتها.

قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: الآية: 119]، وقال تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا *مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا}

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ص: ١٠٧٥).

[الكهف: الآية: 3]، وقال تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التوبة: الآية: 22]، نرى في هذه الآيات المتقدمة بأن الله تعالى قد كرر لفظ: {أَبَدًا} وهذا اللفظ لا يأتي إلا بعد وصف أهل الجنة بالخلود فيها أو المكث.

وكل هذا يقرر أبدية الجنة وخلودها ودوام أهلها فيها. ويزيد الأمر تأكيدًا في أحاديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال-صلى الله عليه وسلم-: ((إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم)). [1]

وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، قال: ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم الآية: ٣٩])). [2]

---

1 أخرجه البخاري (6548).

2 أخرجه مسلم (٤٠).

هذه هي بعض المظاهر التي ذكرناها في ضوء الآيات القرآنية من ألوان النعيم وأنواع الخير في الآخرة للصالحين، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهذا هو الفوز الكبير الذي يناله عباد الله المؤمنون الذين سلكوا سبيل ربهم، واتبعوا سبيل نبيهم، وقاموا برعاية الأمانة والمسؤولية الموكلة إليهم. فهم يحيون في الجنة حياة سرمدية أبدية، يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [الشورى: الآية: 22]. [1]

المسألة الثانية: جزاء الكافرين

معلوم أن الله سبحانه وتعالى أعد جهنم للكافرين قال تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: الآية: 24].

وقال: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} [آل عمران: الآية: ١٣١].

وقال: {إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها} [الكهف: الآية: ٢٩].

وقال: {إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا} [الكهف: الآية: ١٠٢].

---

1 المصدر: مظاهر الجزاء الإلهي في الآخرة للصالحين، بحث منشور على موقع الألوكة.

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–، قال: كنا مع رسول الله إذ سمع وجبة، فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((تدرون ما هذا)) قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)).[1]

وروى البخاري عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها))[2]. وأخرجه مسلم بمعناه[3]

وأعد الله عز وجل فيها الأغلال والأنكال والسلاسل، وأعد فيها شجرة الزقوم وكل هذا ثابت في النصوص، فلا يأتي من يأتي ويكذب بعذاب النار فهو واقع لا محالة على أهل الكفر والمعاصي لمن شاء الله تعذيبه، فهو عذابٌ حقيقة وتعذيب في النار وليس عند النار.

ومعلوم أن النار دركات، والجنة درجات، والدركات أسفلها أشدها عذابًا لذلك الله تعالى قال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء: الآية: 145].

---

1 أخرجه مسلم: (2844).

2 أخرجه البخاري: (7449).

3 أخرجه مسلم: (2846).

وقد أخبر الله عن الكفار وأوصـــاف أحوالهم يوم القيامة ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: يُخرجون وهم يدعون على أنفسهم بالويل، والثبور.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِـلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 51].

ثانيًا: هوانهم، وذلهم، وحسرتهم، وخزيهم في ذلك اليوم.

والنصوص في بيان هذا كثيرة.

قال الله تعالى في ذلِهم: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِـمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِـيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس:27].

وفي حســـرتهم: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَـــنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْـعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْـرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـــاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِـــنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْـــتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾]الزمر: 55-59].

وفي خزيهم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:27].

وكل ذلك من هوانهم على الله تعالى في ذلك اليوم، ومن شدة حسرتهم يتمنون أن يكونوا ترابا: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ:40].

بل من حسرتهم يتمنوا أن يروا الذين أضلوهم؛ ليطؤوهم بأقدامهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:29].

ومن شِدَّة هولهم لذلك اليوم، وما فيه من العذاب، يتمنون لو قدَّموا أبنائهم، وأزواجهم، وإخوانهم، وعشيرتهم فداء لهذا اليوم؛ من أجل أن ينجوا، بل يتمنون أن يقدموا كل ما في الأرض جميعا من أجل أن ينجوا من العذاب، ولكنَّ هذا محال: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج:11-14].

ثالثًا: اسوداد الوجوه، وتغيرها.

قال الله تعالى في **وصف وجوههم**: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:27].

وقال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:60].

وقال في تغيرها: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾]القيامة:24]، أي: كالحة، كاسفة، عابسة، وقيل: أي: تغير لونها، والمعنى متقارب.

وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: 40-42]، والغبرة: الغبار، والدخان، والقترة :السواد.

وحينما تدنو الشمس من الخلائق مقدار ميل، يختلف الناس في جريان العرق منهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه-أي: إلى جنبه-، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما، كما جاء في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه عند مسلم، ولا شك أن الكافر له من هذا أوفر الحظ، والنصيب.

رابعًا: حبوط أعمالهم.

فما يقدّمه الكافر من أعمال صالحة، كالصدقة، والعتق، وصلة الأرحام، والإنفاق، ونحوها من سبل الخير لا تُغني عنه شيئا، فالله تعالى:

شبهها بالسراب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: 39].

وشبهها بالرماد، فقال: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: 18].

وسيجعلها هباءً منثوراً، فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: 23].

وبيَّن أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 103 – 105].

خامسًا: فضيحتهم؛ وذلك بلعنهم على رؤوس الأشهاد، فلا يُستر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18].

سادسًا: تخاصم الكفار فيما بينهم في الموقف.

وهذا التخاصم جاء على عِدَّة أنواع، منها:

أ- تخاصم الأتباع مع قادتهم، وسادتهم الضُّلَال.

قال الله تعالى في بيان ذلك: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ *قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: 27: 32].

ثم يتبرَّأ المتَّبَعُون من أتباعهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:166]، فإذا رأى الأتباع هذا ندموا، وتحسَّروا، وتمنَّوا أنهم لم يتبعوهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:167].

وقال في بيان ذلك أيضًا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:21].

وقال أيضا: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: 47-48].

ب- تخاصم الكافر مع قرينه الشيطان الموكَّل به.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: 27-28].

قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة وغيرهم رحمهم الله ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ هو: الشيطان الذي وُكِّل به[1].

ج- بل يتخاصم الكافر حتى مع أعضائه أشد المخاصمة، وذروتها.

وتأمَّل هذه الخصومة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصّلت: 19: 21].

---

1 انظر: تفسير ابن كثير على هذه الآية.

وهذه المعنى فسَّره النَّبيُّ-صلَّى الله عليه وسلَّم-ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. "قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. "فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي". ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي، "فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ، وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. أَيْ رَبِّ "فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. "فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي". ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذلِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ. فَيَقُولُ: هَهُنَا إِذًا "، قَالَ: " ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ. وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ. وَذلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ[1]".

1 رواه مسلم برقم (2968). "أي فل": أي فلان.

وهذا الحوار بين هذا العبد وجوارحه عجيب، أضحك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم أيضا، من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه-قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ فَضَحِكَ، فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟" قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ. يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟" قَالَ: "يَقُولُ: بَلَى" قَالَ: "فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي" قَالَ: "فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا. وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا". قَالَ: "فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي". قَالَ: " فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ". قَالَ: "ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ " قَالَ: "فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"[1].

سابعًا: يمقتون أنفسهم.

والمقت هو: أشد البغض، فتبلغ كراهيتهم لأنفسهم في ذلك اليوم مبلغًا عظيما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:10].

1 رواه مسلم برقم (2969).

بل ويمقتون أنصارهم في الدنيا، ويدعون عليهم بمضاعفة العذاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 66: 68]، بل لشدة مقتهم لهم، يتمنون أن يتولوا ذلك، فيطؤوهم تحت أقدامهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت:29].

فلا يزال حنقهم، ومقتهم حتى يدخلوا النار، وترتفع أصواتهم، فيلعن بعضهم بعضا، ويتمنَّى بعضهم لبعض مزيدًا من العذاب: ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38]". [1]

1 المصدر: "فقه الانتقال من دار الفرار إلى دار القرار" ص 59-60.

[الإيمان قول وعمل ومعرفة بالقلب يزيد وينقص]

المسألة الأولى:تعريف الإيمان.

المسألة الثانية: دخول العمل في مسمى الإيمان.

المسألة الثالثة: زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة لرابعة: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة في زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة الخامسة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة السادسة: مسألة الاستثناء في الإيمان.

[١١]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأشهد أن الإيمان قولٌ وعملٌ ومَعرفةٌ بالقلبِ يزيد وينقص".** (1)

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان

شرح قول المصنف: " وأشهد أن الإيمان ".

هذه المسألة يوردها العلماء ضمن مسائل الأسماء، ويحسن تناول هذه المسألة من خلال الجوانب الآتية:

الجانب الأول: الجانب اللغوي.

أ-المعنى اللغوي لكلمة "آمن":

الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن

1

أ-فيرى جمع من أهل اللغة أن الإيمان في اللغة معناه: التصديق وقد حكوا الإجماع على ذلك قال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق". (1).

واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: الآية: ١٧]، فقالوا: معناه ما أنت بمصدق لنا. (2)

2-أما علماء السلف(3) فيقولون إن الإيمان يأتي في اللغة لمعنيين هما:

أ-بمعنى صدق به وذلك إذا عدي بالباء كما في قوله تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ...} [البقرة: الآية: ٢٨٥]، أي صدق الرسول. (4)

ب-وبمعنى أقر له وذلك إذا عدي باللام كما في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: الآية: ١٧]، وقوله تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوط} [العنكبوت: الآية: ٦].

---

(1) تهذيب اللغة (5/ 513).

(2) لسان العرب لابن منظور، مادة آمن (13/ 23).

(3) شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: 143).

(4) تفسير القرطبي (3/ 425).

وقد اعترض السلف على حصر بعض أهل اللغة لمعنى الإيمان بالتصديق فقط وقالوا: "إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار[1] والطمأنينة أيضا"[2] واستدل السلف لقولهم بالأمور التالية:

---

[1] الإقرار: متضمن لمعنيين هما: قول القلب الذي هو التصديق. وعمل القلب الذي هو الانقياد. مجموع الفتاوى (7/ 638-639).

[2] الصارم المسلول لابن تيمية (ص: 519).

ومن الأقوال الواردة في تفسير الإيمان بمعنى الطمأنينة ما يلي:

يقول الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "آمَنَ بهِ: صَدَّقَهُ، وبهِ: وثِقَ بهِ وأَمِنَ عليهِ". القاموس المحيط، (1/ 78).

وقال الراغب الأصفهاني-رحمه الله-(ت: ٥٠٢ هـ): "الإيمان: هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان... وأصل الكلمة من الأمن الذي هو الطمأنينة". المفردات في غريب القرآن، (ص: 24).

وقال الفيومي-رحمه الله-(ت: ٧٧٠ هـ): "آمن به: صدقه، وبه: وثق به واطمأن إليه". المصباح المنير، (1/ 29).

أولًا: إن الترادف التام ممتنع بين التصديق والإيمان من عدة وجوه،

١-إن كلمة آمن تتعدى بالباء وباللام وقد تقدم التمثيل لذلك.

وقال الجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه". الصحاح في اللغة، (1/ 78).

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "آمن يؤمن إيمانًا: صدق، والطمأنينة التي تصحب التصديق". تهذيب اللغة، (1/ 134).

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "الإيمان في اللغة هو التصديق والاطمئنان". الكشاف، (1/ 25).

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "الإيمان: التصديق... وهو مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة." تاج العروس، (1/ 25).

قال نشوان الحميري-رحمه الله-(ت: ٥٧٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه". شمس العلوم، (1/ 78).

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "الإيمان: التصديق بالقلب، والاطمئنان". العين، (1/ 25).

-أما كلمة "صدق" فلا تتعدى باللام فلا يقال "صدق له" إنما يقال "صدق به" فهي تتعدى بالباء وبنفسها فيقال صدقه.

٢-إن كلمة آمن تتضمن ثلاثة معان هي: الأمن، والتصديق، والأمانة.

-أما كلمة صدق فلا تتضمن معنى الأمن والأمانة.

٣-إن لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب لأن فيه أصل معنى الأمن والائتمان وهذا إنما يكون في الخبر عن الغائب، فلا يقال لمن قال طلعت الشمس آمنا له وإنما يقال صدقناه ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في الخبر عن الغائب.

-أما لفظ التصديق فيستعمل في كل مخبر عن مشاهد أو غيب، فمن قال السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

٤-إن لفظ الإيمان ضده الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب فقط، بل هو أعم منه، إذ يمكن أن يكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ومع ذلك يسمى كفرا كما لو قال شخص: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، فهذا كفر أعظم.

-أما لفظ التصديق ضده التكذيب فقط.

وبهذا يتبين عدم الترادف التام بين اللفظين، وأن الإيمان ليس التصديق فقط[1] كما أن الكفر ليس التكذيب فقط.

---

[1] انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص: 380-381).

ثانيًا: من المعلوم أن كلام الله وشرعه إنما هو خبر وأمر.

فالخبر: يستوجب تصديق الخبر.

والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه: الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به.

فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو "الطمأنينة والإقرار" فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد. فلو فُسِّر الإيمان بالتصديق فقط، كما قال أهل اللغة، فإن التصديق إنما يعرض للجزء الأول من الشرع فقط الذي هو الخبر، ولا يعرض للجزء الثاني وهو الأمر، لأن الأمر ليس فيه تصديق من حيث هو أمر.

ومن المعلوم أن إبليس لم يكفر بسبب عدم تصديقه، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، قال تعالى: {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: الآية: 34]، فسماه الله كافرا وسلب عنه وصف الإيمان لاستكباره وعدم انقياده لأمر الله له بالسجود لآدم.

لازم القول بأن الإيمان مجرد التصديق فقط.

وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون مما لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون.

ومثل هؤلاء القوم لو أنهم هُدوا لما هُدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولا في القلب، وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته–وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره–فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، لأن الكفر أعم من التكذيب، فالكفر يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو "الجهل" ألا ترى أن نفرا من اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن أشياء، فأخبرهم، فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره، فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرا وأمرا، فإنه يحتاج إلى مقام ثان، وهو تصديق خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. "وأشهد أن محمدا رسول الله" تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله.

فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين–وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول–ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصدق الرسول، ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس". (1)

ثالثًا: ما استدل به أهل اللغة على أن معنى الإيمان في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: الآية: ١٧]، هو التصديق غير مسلم.

إذ يرى علماء السلف أن تفسيرها بـ "أقررت" أقرب من تفسيرها بـ " صدقت " وذلك لأن لفظ "آمن" متى عُدّي باللام يكون بمعنى "أقر" وليس بمعنى "صدق"، إذ لا يكون بمعنى صدق إلا إذا عُدّي بالباء أو بنفسه.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأصل الإيمان في اللغة: التصديق، والطمأنينة، كما يقول العرب: أمن الرجل أمانة وأمناً: إذا صار ذا أمن". (2)

---

(1) الصارم المسلول (ص: 519–520) بتصرف.

(2) كتاب الإيمان، (ص: 22) بتصرف.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإيمان في لغة العرب مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما قال أهل العلم باللغة". (1)

وقال أيضًا: "وأصل الإيمان في اللغة: التصديق والطمأنينة". (2)

الجانب الثاني: المعنى الشرعي للإيمان:

تتحدد دلالة اسم "الإيمان" في الشرع بحسب سياق الكلام الذي تستعمل فيه هذه اللفظة فلفظ "الإيمان" إما أن يستعمل:

أ-مطلقا: أي يذكر مطلقا عن لفظ "العمل" و"الإسلام".

2-أو مقيدا: فتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام.

الحال الأول: فإذا استعمل مطلقا: "فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة-من الصحابة والتابعين وتابعيهم- الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات- فرضها ونفلها-في مسماه". (3)

---

(1) مجموع الفتاوى، (7/ 633). بتصرف.

(2) مجموع الفتاوى، (7/ 642). بتصرف.

(3) مجموع الفتاوى (7/ 642).

ويلاحظ هنا أن لفظ "الإيمان" على هذا الاستعمال يكون مرادفا للفظ "العبادة" والعبادة كما هو معروف هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ومن استعمال الشارع للفظ الإيمان بهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)). (1)

فالإيمان في هذا الحديث شمل جميع أمور الدين بما في ذلك أمور الإسلام. ومن هذا الاستعمال أيضًا ما جاء في حديث عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي-صلى الله عليه وسلم-أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: ((أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم خمس...)). الحديث (2)

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الدين. انظر: فتح الباري (1/ 51) (ح: 9)، وأخرجه مسلم-واللفظ له-كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (1/ 46).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. انظر: فتح الباري

فلفظ الإيمان استعمل في الحديث مطلقا فدخل فيه الأمور الظاهرة مع أنها من أمور الإسلام كما جاء في حديث جبريل المشهور.

قال الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): "الإيمان والإسلام هما دين الله تعالى، وكل منهما إذا ذكر منفردًا دخل فيه الآخر". (1)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام؛ فإذا اجتمعا كان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة". (2)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإسلام إذا أطلق شمل الدين كله، وإذا اجتمع مع الإيمان افترقا، فيكون الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة". (3)

(1/ 129) (ح: 53)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (1/ 35-36).

(1) العقيدة الطحاوية (ص: ٥٥).

(2) مجموع الفتاوى، (7/ 621).

(3) مدارج السالكين، (1/ 337).

قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام. فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه". (1)

قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "إذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان، وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام. وإذا اجتمعا افترقا، فيكون الإيمان هو التصديق القلبي والإسلام هو الأعمال الظاهرة". (2)

قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسلام شمل الدين كله، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه، فكان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة". (3)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام؛ فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه". (4)

---

(1) شرح صحيح مسلم، (1/ 146).

(2) فتح الباري، (1/ 90).

(3) الموافقات، (1/ 106).

(4) الجامع لأحكام القرآن، (1/ 118).

قال البيضاوي-رحمه الله-(ت: ٦٨٥ أو ٦٩١ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسلام وحده شمل الدين كله من اعتقادات وأعمال، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه". (1)

قال السعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "إذا ذكر الإسلام وحده شمل كل ما يتعلق بالدين من تصديق بالقلب وأعمال الجوارح، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه". (2)

الحال الثاني: وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا: كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: الآية: ٦٣].

وقول النبي-صلى الله عليه وسلم-في حديث جبريل المشهور: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)). (3)

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (1/ 110).

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (1/ 95).

(3) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (1/ 29). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل بلفظ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث". انظر: فتح الباري (1/ 114)، (ح: 50).

فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: {وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: الآية: ٩٨]، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [الأحزاب: الآية: ٧].

وقد يقال إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل". (1)

قلت: إن القول بأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ينطبق على الآية وهي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: الآية: ٦٣]..

والقول بأن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران ينطبق على حديث جبريل حيث ذكر الإسلام والإيمان فأصبح كل واحد منهما يختص بأمور معينة فالإسلام اختص بالأمور الظاهرية، والإيمان اختص بالأمور الاعتقادية الباطنية.

"فلفظ الإسلام والإيمان إذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنا أظهر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على

---

(1) الفتاوى (7/ 647 . 648).

أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر، وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس". (1)

خلاصة القول:

إن اسم الإيمان إذا أفرد: تناول جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة كما في حديث الشعب.

وإذا اقترن اسم الإيمان مع الإسلام دل الإيمان على الأمور الباطنة ودل الإسلام على أمور الدين الظاهرة كما في حديث جبريل.

وإذا اقترن العمل مع الإيمان: فهو من باب عطف الخاص على العام (2) كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: الآية: ٧٧].

---

(1) مجموع الفتاوى (7/ 647 -648).

(2) قال شارح الطحاوية: "اعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

ا-أعلاها: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءا منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: الآية: ١]، وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} [آل عمران: الآية: ٣]، وهذا هو الغالب.

2-ويليه: أن يكون منهما تلازم، كقوله تعالى: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. فالإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان". (1)

[البقرة: الآية: ٤٢]، وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [المائدة: الآية: ٩٢].

3-الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: الآية: ٢٣٨]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَال} [البقرة: الآية: ٩٨]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْك} [الأحزاب: الآية: ٧]، وفى مثل هذا وجهان: أحدهما: أن يكون داخلا في الأول، فيكون مذكورا مرتين. والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا وإن كان داخلا فيه منفردا كما قيل في لفظ "الفقراء والمساكين" ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

4-الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر: الآية: ٣]". شرح العقيدة الطحاوية (ص: 387-388).

(1) مجموع الفتاوى، (7/ 621).

2. قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد، والإيمان تصديق وإقرار، فإذا اجتمعا كان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة". (1)

3. قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد الظاهري، والإيمان هو التصديق القلبي، فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه، وإذا افترقا دل أحدهما على الآخر". (2)

4. قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، فإذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، وإذا انفرد أحدهما في الذكر دخل فيه الآخر". (3)

5. قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "الإسلام في الظاهر هو الاستسلام للأحكام، والإيمان في الباطن هو التصديق والإقرار". (4)

---

(1) مدارج السالكين، (1/ 337).

(2) شرح صحيح مسلم، (1/ 146).

(3) فتح الباري، (1/ 90).

(4) الموافقات، (1/ 106).

6. قال الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "الإسلام هو الانقياد الظاهر للأحكام الشرعية، والإيمان هو التصديق الباطني". (1)

المسألة الثانية: دخول العمل في مسمى الإيمان.

شرح قول المصنف: " قولٌ وعملٌ ومَعرفةٌ بالقلبِ".

تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان:

١-فتارة يقولون: الإيمان قول وعمل.

2-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

3-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية واتباع سنة. (2)

4- وتارة يقولون: "قول وعمل ومعرفة". كما ذكر المصنف هنا.

٥- وتارة يقولون: الإيمان: قول اللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة

---

(1) بصائر ذوي التمييز، (1/ 34).

(2) هذه التعريفات الثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الإيمان. انظر (ص: 162).

وينقص بالمعصية[1].

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) –بعد أن أورد التعريفات الثلاثة الأول–: "وكل هذا صحيح"[2] وعلل ذلك بقوله[3]:

"فمن قال إن الإيمان قول وعمل فمرداه قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح".

وقول اللسان وعمل الجوارح معروفان.

وأما المقصود من قول القلب: فهو إقراره ومعرفته وتصديقه.

وأما عمله: فهو انقياده لما صدق به.

ومن عبر عن الإيمان بهذا التعريف ليس مراده كل قول أو عمل وإنما المراد ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال.

كما أن تعبير بعض السلف بهذه العبارة في تعريف الإيمان إنما جاء في معرض الرد على

---

[1] مجموع الفتاوى (7/ 642).

[2] كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: 162).

[3] كلام شيخ الإسلام نقلته بتصرف من كتابه الإيمان (ص: 162-163).

المرجئة. [1] الذين جعلوه قولا فقط، فقال بعض السلف ردا عليهم: بل قول وعمل. [2]

وأما من عرفه بقوله هو قول وعمل ونية، فمقصوده بزيادة لفظ "ونية": أن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

---

[1] المرجئة هم الذين أرجأوا العمل عن مسمى الإيمان وهم خمس طوائف سيأتي ذكرهم.

[2] قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس لهم في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال:

١-فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا.

2-وقيل: بل مسماه اللفظ، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ.

3-وقيل: مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

4-وقيل: بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين". كتاب الإيمان (ص: 162).

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك. (1)

وأما من عرفه بأنه قول وعمل ونية واتباع سنة، فقد زاد لفظة "واتباع سنة" لأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة. (2)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد سئل **سهل بن عبد الله التستري–رحمه الله–(ت: ٢٨٣ هـ)** عن الإيمان ما هو؟، فقال: قول وعمل ونية واتباع سنة.

لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر.

وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة". (3)

وأجمع التعاريف الواردة وأشملها هو: أن الإيمان قول اللسان واعتقاد بالجنان وعمل الجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

---

(1) كتاب الإيمان (ص: 163).

(2) كتاب الإيمان (ص: 163).

(3) كتاب الإيمان (ص: 163).

وهذا التعريف هو الذي يميز قول السلف في مسمى الإيمان عن قول غيرهم من الفرق. (1)

---

(1) الذين خالفوا السلف في مسمى الإيمان هم:

أ-المرجئة بطوائفهم الخمس:

ا-الجهمية: وقالوا الإيمان هو معرفة القلب فقط: أى المعرفة الفطرية التي هي المعرفة بربوبية الله.

2-الأشاعرة: وقالوا الإيمان هو التصديق فقط أي التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله.

3-الماتريدية: وقولهم في الإيمان مثل قول الأشاعرة.

4-الكرامية: قالوا الإيمان قول باللسان فقط.

5-مرجئة الأحناف (أو مرجئة الفقهاء) قالوا: الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان. وهو قول الكلابية. وكل هذه الطوائف الخمسة أخرجت العمل عن الإيمان.

ب-الخوارج: قالوا الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولكنهم يكفرون من أخل بشيء من هذه الثلاثة ويقولون بأنه كافر في الدنيا وفي الآخرة خالد في النار.

ولهذا كان هذا التعريف هو أجمع التعاريف الواردة عن السلف وأكثرها دقة في بيان قولهم.

فإن الناظر إلى هذا الإنسان باعتبار ما يجب عليه تجاه ما أخبر الله به وما أمر الله تعالى به؛ فنصوص الشرع لا تخرج عن أمرين: إما أخبارٌ وإما أوامر، فالأخبار حقها التصديق بأن تُصدق بها، والأوامر حقها أن تعمل بها، كما جاء في الحديث "إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن نهيٍ فانتهوا". (1)

فأنت مأمور بأن تتبع، وأن تعمل بهذه الأوامر بحسب ما يأتي من حكمٍ عليها، فهذه الأمور أي الوحي تأتي لهذا الإنسان، وأول ما تأتي إليه في باطنه؛ لأنه لابد وأن يعلم أن الصلاة مثلاً ركنٌ من أركان الإسلام، ثم إذا جئت إلى الصلاة تجد أن منها فرائض ومنها نوافل، ثم أن

ج-المعتزلة: وقالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون إنه في الدنيا في منزلة بين منزلتين بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر، واتفقوا معهم في باقي الأمور.

انظر تفاصيل هذه الأقوال: في كتاب الإيمان لابن تيمية، والجزء السابع من مجموع الفتاوى، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: 373-392) وكتاب النبوات (ص: 199).

(1) رواه البخاري (4/ 422) ومسلم (7/ 91) وأحمد (2/ 258).

هذه النوافل منها سنن رواتب ومنها غير ذلك، فهذا أول ما يقابله بالعلم.

فإذاً هذا الإيمان سيخاطب هذا الباطن في الإنسان، وأول ما يخاطب أن يصدق بما أخبر الله به.

والثاني: أن ينقاد لأمر الله، فلابد أن يحصل الانقياد والتسليم لأوامر الله، فليس لك حق الاعتراض أن تقول: لا بدل خمس صلوات نجعلها ثلاثة أو نجعلها ستة، فهي خمس صلوات في اليوم الليلة لابد من أدائها في أوقاتها، فأصبح عليه أن يصدق وعليه أن ينقاد.

ومعلوم أن هنا ثلاثة أحوال:

القلب، والقلب يشمل أمرين:

يشمل جانب العلم، ويشمل جانب الإرادة هذا القلب.

والجانب الثاني: جانب اللسان.

والجانب الثالث: جانب الجوارح.

فهناك قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل اللسان، وهناك عمل الجوارح فهذه خمسة، فإذا جئت إلى قول القلب فهذا هو العلم الذي هو التصديق فعليه أن يعلم هذه الأشياء ويصدق بها، هذا الواجب الأول على القلب، والقلب هو الباطن، والباطن مجموع الأمرين وهذه هي العقيدة.

لذلك قال المصنف: "الإيمان قولٌ وعمل"، فالقول هنا هو العلم والتصديق، تعلم وتصدق، هذا واجبٌ على الإنسان لكي يكون مؤمناً، وهذا وحده لا يكفي فلو قال قائل: أنا أعلم أن الصلوات خمس وهي كذا وكذا وهيئتها كذا لكن لن أصلي، فهو بهذا لا يكون مؤمناً إذ لابد من الجانب الثاني.

والجانب الثاني: هو انقياد القلب، فهذه الإرادة لابد أن تنقاد لهذه الأخبار وهذه الأوامر، ولذلك يأتي عمل القلب، والقلب أعماله كثيرة، منها مثلاً الإخلاص، والمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والخشية، والتقوى، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر التقوى قال: ((**التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا وأشار بيده على صدره**)). (1)، فهذه أعمال القلوب، وهي التي تنطلق إلى سائر الجوارح

وأما قول اللسان وعمل اللسان، فقول اللسان جعله العلماء النطق بالشهادتين لأن هذا هو الفيصل بين الإسلام والكفر، ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**)). (2)، فأول ما يدخل الإنسان في الإسلام يُطالب بعد تطهره يطالب بالنطق بالشهادتين، فهذا يسميه العلماء: قول اللسان، فجعلوه في النطق بالشهادتين.

---

(1) رواه مسلم (2565)، وأحمد (7670).

(2) رواه البخاري (25)، ومسلم (25).

وأما عمل اللسان: فمنه قراءة القرآن وتلاوته، وذكر الله عز وجل، والتسبيح، والتهليل هذا كله عمل اللسان.

وأما أعمال الجوارح، فمنها الركوع والسجود والصوم والجهاد وغض البصر وغيرها فهذه أعمال الجوارح، وهذا بكله هو الذي يُسمى إيماناً عند أهل السنة.

المسألة الثالثة: زيادة الإيمان ونقصانه

شرح قول المصنف-رحمه الله-: "يزيدُ ويَنقُصُ".

الشرح

هل السنة يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، ومن الأدلة على ذلك:

أولًا: أدلة زيادة الإيمان ونقصانه من القرآن. (1)

لقد جاء في كتاب الله عز وجل نصوص كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه وأن أهله متفاضلون فيه بعضهم أكمل إيماناً من بعض، فمنهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه، منهم المحسن، ومنهم المؤمن، ومنهم المسلم، ليسوا في الدين سواء في مرتبة واحدة،

---

(1) المصدر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للدكتور عبد الرزاق البدر (ص: 35)

بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

وقبل الشروع في ذكر هذه الأدلة القرآنية الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه أودّ التنبيه على نقطة هامة، وهي:

أن كل دليل دلّ على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه، وكذا العكس، فما دل على نقصان الإيمان فهو يدل على زيادته، فالآيات التي أوردها هنا وظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط، فهي تدل على نقص الإيمان باللزوم، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص.

ولهذا فإنا نجد أهل العلم كثيراً ما يستشهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصانه وكذا العكس للأسباب المتقدمة، وتأمل-مثالاً على ذلك-صنيع البخاري في صحيحه فقد أورد بعض الآيات المصرحة بزيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلاً بها على الزيادة والنقصان معاً.

قال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "إن كان قبل زيادته-أي الإيمان-تاماً فكما يزيد كذا ينقص". (1)

---

(1) رواه الخلال في السنة (2/ 688، ح: 1030).

فمن الأدلة:

● قوله تعالى: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** [آل عمران: الآية: 173].

● وقوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [الأنفال: الآية: 2].

● وقوله تعالى: **{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** [التوبة: الآية: 124].

● وقوله تعالى: **{وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}** [الأحزاب: 22].

● وقوله تعالى :**{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ}** [الفتح: الآية: 4].

● وقوله تعالى: **{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً}** [المدثر: الآية: 31].

● وقوله تعالى :**{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}** [محمد: الآية: 17].

ثانياً: الأدلة من السنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

● حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**)). (1)

● حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**)). (2)

ففي هذا الحديث "بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، له أعلى وأدنى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق–بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها". (3)

---

(1) أخرجه البخاري (5/ 119، 10/ 30، 12/ 58، 12/ 14 فتح)، ومسلم (2/ 41 نووي).

(2) أخرجه البخاري (1/ 51 فتح) ومسلم (2/ 6 نووي) وهذا لفظ مسلم.

(3) معالم السنن للخطابي (7/ 43،44).

وهذه الشعب متفاوتة ليست على درجة واحدة في الفضل، بل بعضها أفضل من بعض، كما هو ظاهر لفظ الحديث في قوله: "أعلاها "وقوله: "أدناها"، فشعب الإيمان منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعاً كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعاً كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادتين، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى". (1)

وقال ابن سعدي–رحمة الله–(ت: ١٣٧ هـ) –بعد ذكره لحديث أبي هريرة–: "وهذا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشرع كما ترى". (2)

● حديث **أنس بن مالك–رضي الله عنه–(ت: ٩٠ وقيل ٩٣ هـ)**، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((**لا إيمان لمن لا أمانة له**)). (3)

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: 322).

(2) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص: 14).

(3) أخرجه أحمد في المسند (3/ 135)، وابن أبي شيبة في مصنفه (11/ 11) وفي الإيمان (ص: 5)، وابن حبان في صحيحه (1/ 208 الإحسان)، والبغوي في شرح السنة (1/ 75)؛ وقال البغوي:

فهذا الحديث دليل على أن من لا أمانة له، فقد نقص فيه شيء من واجبات هذا الدين، فيذهب عنه كمال الإيمان الواجب وتمامه، ويكون بذلك مؤمناً ناقص الإيمان. (1)

يوضح الاستدلال بهذا الحديث ويبينه ما جاء **عن عروة بن الزبير–رحمه الله–(ت: ٩٤ هـ)**، أنه قال: "ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه". (2)، فنقص الأمانة في العبد دليل على نقص الإيمان وضعفه فيه

● ولهذا لما سئل الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) مرة عن نقصان الإيمان احتج بهذا، قال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وسئل عن نقص الإيمان فقال: حدثنا وكيع عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ما انتقصت أمانة رجل إلا نقص إيمانه"(3).

"هذا حديث حسن"؛ وصححه الألباني في تحقيقه للإيمان لابن أبي شيبة.

(1) انظر الفتاوى (11/ 653).

(2) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (11/ 12)، وفي الإيمان (ص: 6)، وعبد الله في السنة (1/ 368) والخلال في السنة (ق: 159/ ب) والآجري في الشريعة (ص: 118) والبيهقي في الشعب (1/ 197)، وابن بطة في الإبانة (برقم:1141).

(3) رواه الخلال في السنة (برقم: 789)، والآجري في الشريعة (ص: 118)، وابن بطة في الإبانة (برقم:

● حديث **أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–(ت: ٧٤ هـ)**، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**)). (1)

فبين النبي–صلى الله عليه وسلم–في هذا الحديث مراتب إنكار المنكر، وأنه حسب الاستطاعة فإما أن يغير باليد أو باللسان أو بالقلب، بمعنى يكرهه بقلبه، وهذه المراتب الثلاث للإنكار يقوم بها المكلف على قدر استطاعته، ولا شك أن المرتبة الأخيرة باستطاعة جميع المكلفين، فمن رأى المنكر ولم يكرهه بقلبه وهو يعلم أنه منكر فإن هذا يكون علامة على ضعف إيمانه.

وقد احتج بهذا الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهله فيه النسائيُ–رحمه الله–(٣٠٣ هـ)، في سننه فبوب له بـ"باب تفاضل أهل الإيمان"(2).

وابن منده–رحمه الله–(ت: ٣٩٦ هـ) في كتابه الإيمان فقال: "ذكر خبر يدل على أن

.(1148

(1) رواه مسلم (2/ 22 نووي).

(2) سنن النسائي (8/ 11).

الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص"(1) ثم ذكر حديث أبي سعيد-رضي الله عنه-.

وبوب له النووي في شرحه لمسلم بـ "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..."(2).

ثانيًا: أقوال السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه(3)

جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-من حجج ودلالات على زيادة الإيمان ونقصانه، فبينوا رحمهم الله أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وكثرة العبادة والمداومة عليها، وينقص باللهو والغفلة والمعصية والتقصير في فعل الطاعة، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

عن عمير بن حبيب الخطمي-رضي الله عنه-قال: "الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما

---

(1) الإيمان لابن منده (2/ 341).

(2) شرح صحيح مسلم للنووي (2/ 21) وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3/ 343).

(3) المصدر: ت: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: 106 . 107).

زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه". (1)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وأقدم من روي عنه زيادة الإيمان ونقصانه من الصحابة عمير بن حبيب الخطمي". (2)

وعن أبي الدرداء عويمر الأنصاري–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، أنه قال: "الإيمان يزداد وينقص". (3)

وروي عنه رضي الله عنه أنه قال: "من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه". (4)

---

(1) رواه عبدا لله بن أحمد في السنة (١/ ٣٣٠) (٦٨٠)، والآجري في الشريعة (ص: ١٠٨)، والخطابي في الغنية (ص: ٤٥)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص: ٨).

(2) تهذيب السنن (٧/ ٥٦).

(3) رواه ابن ماجه بعد حديث رقم: (٧٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٦) (٥٤). وقال الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه: ضعيف.

(4) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٩) (١١٤٠)، وذكره شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (ص: ٢١١).

وعن علقمة بن قيس النخعي–رحمه الله–(ت: ٦٢ هـ)، أنه كان يقول لأصحابه: "امشوا بنا نزدد إيمانا". (1)

١٢ – وكتب عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، إلى عدي بن عدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠ هـ)، –أحد عماله على الجزيرة–: "أما بعد: فإن للإيمان حدودًا وشرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان".

علقه البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ) في كتاب الإيمان من صحيحه (2)، وقال ابن حجر مبينا سبب ذكر البخاري له: "والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبد العزيز كان ممن

وإسناده ضعيف لإبهام شيخ حريز.

(1) رواه ابن أبي شيبة (١١/ ٢٥) وفي الإيمان (ص: ٣٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٧) (٥٧). وحسن الألباني إسناده في الإيمان لابن أبي شيبة.

(2) البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث (٨)، ووصله ابن أبي شيبة (١١/ ٤٨)، وفي ((الإيمان)) (ص: ٤٥) والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ١٩٧) والبغوي في ((شرح السنة)) (١/ ٤٠). قال ابن الملقن في شرح البخاري (٢/ ٤٤٠): إسناده صحيح.

يقول بأن الإيمان يزيد وينقص، حيث قال: استكمل ولم يستكمل" (1).

قال الإمام الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص". (2)

قال الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية". (3)

قال يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "ما أدركت أحداً من أصحابنا، إلا على سنتنا في الإيمان، ويقولون: الإيمان يزيد وينقص(4).

قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص

---

(1) فتح الباري (١/ ٤٧)..

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (4/ 751).

(3) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، (9/ 238).

(4) رواه ابن هاني في مسائل الإمام أحمد (2/ 162) وذكر نحوه الذهبي في السير (9/ 179) في ترجمة يحيى بن سعيد.

بالمعصية". (1)

وقال الإمام عبد الرزاق الصنعاني–رحمه الله–(ت: ٢١١ هـ): "لقيت اثنين وستين شيخًا،... فذكر عددًا منهم ثم قال: كلهم يقولون: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص". (2)

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "هذه تسمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص،... فسمى أكثر من مائة وثلاثين رجلًا من أهل العلم من الصحابة وغيرهم.. ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا". (3)

قال الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد

---

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (4/ 749).

(2) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (5/ 958 ح: 1737).

(3) رواه ابن بطة في الإبانة (2/ 814 برقم: 1117) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص: 293-295).

بالطاعة وينقص بالمعصية". (1).

وقال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "أجمع سبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر أموراً منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية". (2)

وقال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): "لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص". (3)

---

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (4/ 750).

(2) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص: 228) وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (1/ 130) بلفظ أجمع تسعون...إلخ.

(3) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (1/ 47)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (2/ 256) وعزواه للالكائي في السنة، وصححا إسناده، قلت: وهو في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي "المطبوع" (5/ 889 رقم: 1597) بنحوه، وليس فيه "ويزيد وينقص"، فلعل هذه اللفظة سقطت

وقال الإمام البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص". (1)

وقال عبد الله بن المبارك–رحمه الله–(ت: ١٨١ هـ): "الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل". (2)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وبعضهم أي: السلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل. فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته". (3)

من المطبوع، أو أن الحافظ والزبيدي اطلعا على نسخة اشتملت على ما حكياه.

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه.

(2) رواه عبد الله في السنة (١/ ٣١٦) (٦٣١)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ٩٦١) (١٧٤٦).

(3) الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

وعن **محمد بن أبان–رحمه الله–(ت: ٢٤٤ آو ٢٤٥ هـ)**، قال قلت **لعبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)**: الإيمان قول وعمل؟ قال: نعم. قلت: يزيد وينقص؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة". (1)

المسألة الرابعة: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

القول الأول: قول من قال الإيمان يزيد وتوقف في النقصان.

جاء عن **الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)** في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه روايتان، قال في إحداهما: إن الإيمان يزيد أما النقصان فتوقف فيه وطلب من السائل أن يكف عن السؤال عنه، لأنه لم يجد عليه دليلاً من كتاب الله.

أما الرواية الأخرى: فقد جاءت عنه من طرق متعددة صحيحة، قال فيها: إن الإيمان

---

(1) السنة (٣/ ٥٨٠) (١٠٠٥).

يزيد وينقص، كقول أهل السنة والجماعة سواء(1).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه. لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القران، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك". (2)

القول الثاني: قول من قال الإيمان يزيد ولا ينقص.

وهذا قول طائفة من الأشاعرة، رواية **عن أبي حنيفة–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ)**، والغسانية، النجارية، الإباضية.

أما قول الطائفة من الأشاعرة: فقد أشار إليه البغدادي في "أصول الدين" فقال: "وأما من قال: إنه التصديق (3) بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها". (4)

---

(1) انظر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: 277–290) وقد ناقش هذا القول بالتفصيل.

(2) الفتاوى (7/ 506).

(3) القول بأن الإيمان هو التصديق هو قول الأشاعرة.

(4) أصول الدين (ص: 252).

وأما الرواية عن أبي حنيفة–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ): أن الإيمان يزيد ولا ينقص، فقد ذكرها غير واحد ممن كتب في المقالات، من طريق غسان وغيره عن أبي حنيفة–رحمه الله–.

قال الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه وترك الاستخفاف بحقه وأنه يزيد ولا ينقص"(1).

وقال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "وحكى غسان وجماعة من أصحاب أبي حنيفة أنه يزيد ولا ينقص". (2)

وأما الغسانية: فقد ذكر **البغدادي–رحمه الله–(ت: ٤٢٩ هـ)** عن الغسانية، وهم أتباع غسان المرجئ أن من أقوالهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، ثم قال: "وزعم غسان هذا في كتابه أن قوله في هذا الكتاب كقول أبي حنيفة". (3)

---

(1) مقالات الإسلاميين (ص: 139).

(2) إتحاف السادة المتقين (2/ 256).

(3) الفرق بين الفرق (ص: 203). وانظر: انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (ص: 139)، والتبصير في الدين للإسفراييني (ص: 98)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص: 203).

وأما النجارية: فلهم أصول باطلة جانبوا فيها الحق وفارقوه منها: قولهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، وقد حكى ذلك عنهم غير واحد ممن كتب في مقالات الفرق كالأشعري والإسفرايني والبغدادي وغيرهم. (1)

وأما الأباضيه: فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي (ت: ١٣٣٢ هـ) من الأباضية في كتابه مشارق أنوار العقول: "الإيمان بالمعنى الشرعي الذي هو أداء الواجبات مطلقاً ليس ينقص نظراً إلى إيمان كل مؤمن، فإنه في ذاته غير متفاوت بالنسبة إلى إيمان غيره". (2)

القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

لقد قال بهذا القول طوائف كثيرة من أهل الكلام والإرجاء، والتجهم، وممن نسب له هذا القول:

أبو حنيفة وأصحابه:

لقد اشتهر عن الإمام أبي حنيفة-رحمه الله تعالى وغفر له-أنه يقول بأن الإيمان لا يزيد

---

(1) انظر مقالات الإسلاميين (ص: 136) والتبصير في الدين (ص: 101)، والفرق بين الفرق (ص: 208) والفتاوى لابن تيمية (7/ 546).

(2) مشارق الأنوار (ص: 35-36).

ولا ينقص، واستفاض هذا عنه، بحيث لا يدع مجالاً للشك أو التردد في نسبته إليه، ويمكن أن أبرز أهم الأسباب المؤكدة لصحة نسبة هذا القول إليه في النقاط التالية:

1-إن عامة كتب الفرق والمقالات تنسب هذا القول إليه، كالمقالات لأبي الحسن الأشعري، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي، والمِلَلْ والنِحَلْ للشهرستاني، وغيرها. (1)

2-إن الكتب المؤلفة في العقيدة والمنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله تذكر هذا القول، كالفقه الأكبر، وكتاب العالم والمتعلم، والوسيطين الصغير والكبير والوصية ورسالته إلى البتي. (2)

وهذه الكتب إن لم يصح نسبتها جميعاً إليه، فلا بد أن يصح نسبة بعضها أو واحد منها على أقل تقدير إليه، وعلى كل إن لم يصح لا هذا ولا ذاك فإن هذه الكتب مطبوعة متداولة، وقد احتفى بها الأحناف شرحاً ونشراً ونقلاً، فهي عند عامتهم مسلم بما فيها، وقد شرح

---

(1) المقالات (ص: 139)، الفَرْق بين الفِرَق (ص: 203)، ونقله عنه الزبيدي في الإتحاف (2/ 265)، الملل والنحل (1/ 141).

(2) انظر: فيض الباري للكشميري (1/ 59).

بعضها شروح مطولة عديدة، ونقل منها نقولٌ متكاثرة، واعتمد على ما فيها من عقائد. (1)

وممن قال بهذا القول: الجهمية.

ومن مقولاتهم الفاسدة وآرائهم المنحرفة زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل أهله فيه.

قال الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "وزعمت الجهمية أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه". (2)

وقال الشهرستاني–رحمه الله–(٥٤٨ هـ): "قال أي الجهم: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل، قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفاضل". (3)

وجهم وأتباعه إنما قالوا بهذا القول لأن الإيمان عندهم مجرد التصديق، فمن صدق بقلبه فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

---

(1) انظر كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: 318-319).

(2) المقالات (ص: 132).

(3) الملل والنحل (1/ 88).

وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء". (1)

وممن قال بهذا القول: الخوارج والمعتزلة:

ذهبت الخوارج والمعتزلة مذهب أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان من حيث إنه شامل للأعمال والأقوال والاعتقادات، إلا أنهم فارقوا أهل السنة والجماعة بقولهم إن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه لا يقبل التبعض.

ومن هنا كان الإخلال بالأعمال وارتكاب الكبائر عندهم مخرجاً من الإيمان كلية، على خلاف بينهم في تسميته كافراً، فالخوارج قطعوا بكفره، ونازعهم المعتزلة في الاسم وقالوا نحن لا نسميه مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين أي: بين منزلة الإيمان والكفر، وإن كانوا قد اتفقوا جميعاً أنه يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم. (2)

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (7/ 582).

(2) انظر الفتاوى (7/ 223، 257) وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص: 137).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقينًا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان، وإذا زال بعضه زال جميعه؛ لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون في العبد إيمان ونفاق، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء". (1)

وأصل غلط هؤلاء ومنشأ ضلالهم كما **قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقًا للثواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم، بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها، وقالوا: "الإيمان هو الطاعة فيزول بزوال بعض الطاعة، ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شيء منه، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضل فلا يزيد ولا ينقص وقالوا إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين". (2)

فهذه الشبهة هي التي أفسدت على هؤلاء قولهم، بل وعلى جميع المرجئة، كما قال شيخ الإسلام: "وإنما أوقع هؤلاء كلهم أي المرجئة بأقسامهم–ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض

---

(1) الفتاوى (13/ 48).

(2) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: 137، 138)، وانظر الفتاوى (7/ 404).

وأنه ينقص ولا يزول جميعه". (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام كالسكنجبين(2) إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجبين، قالوا فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها". (3)

وممن قال بهذا القول: الأشاعرة والماتريدية:

لقد ذهب جمهور الأشاعرة وجميع الماتريدية إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لشبه عقلية وأدلة نظرية، وذهب بعض الأشاعرة إلى أن الإيمان يزيد وينقص". (4)

---

(1) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: 143، 144).

(2) السكنجبين: شراب مركب من حامض وحلوا–معرب–فارسيته: سركا انكبين انظر المعجم الوسيط (1/ 440).

(3) مجموع الفتاوى (7/ 511).

(4) انظر شرح مسلم للنووي (1/ 148)، وفتح الباري لابن حجر (1/ 46)، وعمدة القاري للعيني (1/ 136) وتحفة القاري "للكاندهلوي" (ص: 44) مجموع "شروح البخاري" (1/ 112)، النبراس شرح

قال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "وقال أبو حنيفة وأصحابه لا يزيد الإيمان ولا ينقص واختاره أبو منصور الماتريدي ومن الأشاعرة إمام الحرمين وجمع كثير". (1)

وقال ابن أبي شريف الحنفي–رحمه الله–(ت: ٩٠٦ هـ): "وهذا القول–أي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص–اختاره من الأشاعرة أمام الحرمين وجمع كثير، وذهب عامتهم أي أكثر الأشاعرة إلى زيادته ونقصانه". (2)

وقال الفرهاري–رحمه الله–(ت: ١٢٣٩ هـ): "مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله والمتكلمين من أهل السنة أنه لا يزيد ولا ينقص"(3).

فالماتريدية لهم قول واحد في المسألة وهو أن الإيمان غير قابل للزيادة والنقصان، وأما

العقائد (ص: 402)، المسامرة شرح المسايرة (ص: 367)، أصول الدين للبغدادي (ص: 252)، وأصول الدين للبزدوي (ص: 153)، والاقتصاد للغزالي (ص: 208)، والمواقف للإيجي (ص: 388)، والإنصاف للباقلاني (ص: 86)، والإرشاد للجويني (ص: 335) وغيرها.

(1) إتحاف السادة المتقين (2/ 256).

(2) المسامرة (ص: 367).

(3) النبراس شرح العقائد (ص: 402).

الأشاعرة فلهم في المسألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما، والأشاعرة يعرفون الإيمان بأنه التصديق وحده، فلا يدخل فيه القول والعمل، فبحثهم هنا هو في التصديق هل يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟

فالذين قالوا لا يزيد ولا ينقص فبناء على أن الإيمان هو التصديق اليقيني الغير قابل للتفاوت، فإن نقص فنقصه شك وكفر، ولشبه أخرى.

ومن قال منهم يزيد وينقص فللقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، واختاره النووي وعزاه التفتازاني في شرح العقائد لبعض المحققين وقال في المواقف إنه الحق(1)

المسألة الخامسة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

فمسائل الأسماء لها تناول معين لدى الفرق، ومسائل الأحكام لها تناول معين لدى الفرق، وهذه مسائل يطول شرحها لكن لعل ما أشرنا إليه يُبين ما مدى صفاء عقيدة أهل السنة وأن والإيمان عندهم قولٌ واعتقادٌ وعمل يزيد وينقص، زيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي.

---

(1) انظر شرح مسلم للنووي (1/ 142) وشرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص: 126) والمواقف للأيجي (ص: 388) وانظر إرشاد الساري للقسطلاني (1/ 112) ضمن مجموع شروح البخاري.

وزيادة الإيمان ونقصانه أمر يراه الإنسان من نفسه، فقد يكون حاله اليوم من الإيمان أحسن من حاله في الأمس، أو قد يكون حاله في الأمس أحسن من حاله في هذا اليوم، فالإيمان فيه زيادة ونقص، فيزيد إلى ما شاء الله، وينقص أحياناً حتى يزول هذا الإيمان ولا يبقى منه شيء، ويُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافرا.

والقول إن الإيمان يزيد وينقص في اعتقاد أهل السنة والجماعة، يترتب عليه أمور كثيرة في مسائل الأحكام، فهذه المسألة مرتبطة بمسألتين:

الأولى: حكم مرتكب الكبيرة.

فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه له تعلق بمسألة حكم مرتكب الكبيرة، فأهل السنة لا يرون تكفير مرتكب الكبيرة دون الشرك الأكبر، ويقولون إن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته فلا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية.

والمسألة الثانية: مسألة مراتب الدين.

أي ما يتعلق بدخول الإنسان إلى هذا الدين متى ينتقل في مراتب الدين؛ لأن مراتب الدين ثلاثة: الإسلام، الإيمان، الإحسان، فهي عبارة عن ثلاث دوائر أول دائرة فيه هي الإسلام، ثم هناك دائرة أضيق منها هي الإيمان، ويعني هذا الضيق أن من هو مؤمن هو مسلم، ولكن ليس بالضرورة من كان مسلماً أن يكون مؤمنا، ثم تأتي الدائرة الأضيق هي دائرة الإحسان؛ لأن الإحسان فحواه ومعناه أن تُتقن الظاهر والباطن.

فعندما أقول أحسنت بمعنى أتقنت فالإحسان إتقان الظاهر والباطن، فإذا أُتقن الظاهر والباطن فهذه مرتبة عليا، فكل مسلم مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مؤمن محسن، قد يكون محسن وقد لا يكون محسنا، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة.

كما أنه مرتبط بتفاضل الناس في إيمانهم وتفاضل درجاتهم في الآخرة إلى غير ذلك من المسائل ذات الصلة.

المسألة السادسة: مسألة الاستثناء في الإيمان.

أ-الاستثناء في اللغة:

بمعنى المنع والصرف، وأصل الاستثناء مأخوذ من الثني، وهو ردُّ الشيء بعضه على بعض. والثني العطف، وكل شيء عطفته فقد ثنيته؛ كما يطلق الثني على تكرير الشّيء مرّتين، أو جعلُه شيئين متواليَين أو متباينين، ومن ذلك عدد الاثنين. والاستثناء يشمل أمرين:

1 . الاستثناء الوضعي، وهو الذي يكون بأداة الاستثناء، كقوله تعالى: **{إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** [العصر: الآيات: ٢-٣]

2 . الاستثناء العرفي، وهو ما لم يكن بأداة الاستثناء، بل يكون الموجود كلمة الشرط، كما جاء في قوله تعالى: **{...إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ *}** [القلم:

الآيات: ١٧-١٨]؛ أي: لا يقولون: إن شاء الله. (1). ومنه قول القائل: لأفعلن كذا إن شاء الله، أو: أنا مؤمن إن شاء الله". (2).

ب-تعريف الشرعي للاستثناء في الإيمان:

الاستثناء في الإيمان هو: أن يُعَلِّق الشخص إيمانه على ما لا يدل على الجزم والقطع بكمال الإيمان؛ كأن يعلقه على مشيئة الله، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو: مؤمن أرجو، ونحو ذلك، فلا يقطع بكمال الإيمان لنفسه. (3)

---

(1) انظر: تفسير البغوي (195/8) [دار طيبة، ط1، 1417هـ].

(2) انظر: مقاييس اللغة (391/1) [دار الجيل، ط2]، ولسان العرب (115/14. 125) [دار صادر، ط1]، والكليات للكفوي (91)، وبدائع الصنائع للكاساني (153/3. 154) [دار الكتاب العربي، ط2].

(3) انظر: بيان اللجنة الدائمة للإفتاء، فتوى رقم (21436)، صادرة بتاريخ (1421/4/8هـ)..

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله، أو إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي فنعم، وإن كنت تريد **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** [الأنفال: الآية: 2] فالله أعلم"(1).

وقال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "الاستثناء في الإيمان،... هو: أن يقول . أي: الرجل .: أنا مؤمن إن شاء الله" (2).

ج–العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي:

المعنى الشرعي للاستثناء في الإيمان مندرج تحت عموم المعنى اللغوي للثني، وهو الرجوع والتكرار، فبعد أن أقر القائل لنفسه بالإيمان بقوله: "أنا مؤمن"، انثنى ورجع ليعلق ذلك الإقرار بأمر آخر، وهو مشيئة الله، فيقول: "إن شاء الله".

---

(1) مجموع الفتاوى (666/7).

(2) شرح الطحاوية (395)، وانظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (347/1) [دار ابن القيم، ط1، 1406هـ].

وهذا مندرج تحت المعنى الثاني من المعاني اللغوية، وهو الاستثناء العرفي الذي يعلق فيه الأمر على مشيئة الله بغير أداة الاستثناء.

حكم الاستثناء في الإيمان عند أهل السُّنَّة[1]:

الاستثناء في الإيمان له حالتان:

الحالة الأولى: إذا أريد كمال الإيمان: يكون الاستثناء مشروعًا.

وذلك لما يلي:

1 ـ أن الإيمان الكامل يشمل فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه، ولا يدعي أحد أنه جاء بذلك كله على التمام والكمال.

2 ـ أن الإيمان النافع هو المتقبل عند الله، والإنسان لا يدري؛ أتقبل الله منه أم لا، فلذلك صح له أن يستثني.

---

[1] هذا المبحث مستفاد من موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة مبحث (الاستثناء في الإيمان).

3 . البعد عن تزكية النفس.

4 . أن الإيمان الكامل يقتضي دخول الجنة، والإنسان لا يدري بما يختم له. (1)، فيستثني لعدم العلم بالعاقبة. (2)

الحالة الثانية: إن أريد أصل الإيمان، فلا يخلو ذلك من حالتين:

---

(1) انظر حول التعليل بعدم العلم بالخاتمة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (42/13).

(2) انظر حول التعليل بعدم العلم بالعاقبة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (289/3)، وحول هذا الوجه وبقية الوجوه انظر: الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (179 . 181) [مكتبة العلوم والحكم، ط1، 1423هـ]، والرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة لابن الحنبلي (814/2 . 815) [مجموعة التحف النفائس الدولية، ط1، 1420هـ]، والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (781/3 . 792) [دار أضواء السلف، ط1]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (496/7)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (398) [المكتب الإسلامي، ط4].

1 ـ إن كان الاستثناء على جهة الشك: فإنه لا يجوز. سئل الإمام أحمد رحمه الله: يستثنى في الإيمان؟ قال: "نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أستثني على اليقين لا على الشك". (1)

2 ـ وأما إن كان الاستثناء من باب أنه يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة ذكر مشيئة الرب، لا على جهة الشك في أصل الإيمان، بل لأن الأمور كلها إنما تكون بمشيئة الرب؛ فإن الاستثناء جائز.

قال ابن تيمية رحمه الله: "وأما جواز إطلاق القول بأني مؤمن، فيصح إذا عنى أصل الإيمان دون كماله، والدخول فيه دون تمامه". (2)

وقال: "ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن، بلا استثناء، إذا أراد ذلك ـ يعني: أصل الإيمان، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه... فعلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائدًا

---

(1) السُّنَّة للخلاّل (596/3) [دار الراية، ط1، 1410هـ]..

(2) مجموع الفتاوى (669/7)..

إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور، ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه، وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان". (1)

الأدلة:

أ. جزم المرء بالإيمان الكامل لنفسه هو من تزكية النفس، ومما يدل على مشروعية البعد عن تزكية النفس ما يلي:

1. قوله تعالى: **{فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *}** [النجم: الآية: ٣٢].

2. وقوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ}** [النساء: الآية: 49].

وليس هناك تزكية للنفس أعظم من الشهادة لها بالإيمان الكامل.

---

(1) المصدر نفسه (7/449. 450)..

3 . ويشهد لهذا ما جاء **عن ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)** عندما قال رجل عنده: "أنا مؤمن"، فقال له ابن مسعود: "أفأنت من أهل الجنة؟" قال: "أرجو"، قال ابن مسعود: "أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى". (1)

4 . الإجماع، فإن الاستثناء في الإيمان . إذا أريد به كماله . هو مذهب جماهير السلف، بل هم مجمعون على مشروعيته في هذه الحال. (2)

---

(1) أخرجه أبو عبيد في الإيمان (35) [مكتبة المعارف، ط1]، والآجري في الشريعة (665/2) [دار الوطن، ط2].

(2) انظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (347/1)، والإبانة لابن بطة (873/2) [دار ابن القيم، ط1، 1406هـ]، وشعب الإيمان للبيهقي (212/1)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (438/7، 439، 505، 666). وقد عدد اللالكائي أسماء من روي عنهم الاستثناء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، كما في: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (1047/5).

يقول **يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)**: "ما أدركت أحدًا من أصحابنا إلا على الاستثناء". (1)

ب. ومما يدل على أن الإيمان إذا أريد به أصله فإن الإنسان لا يستثني باعتبار الشك في الأصل ما يلي: قوله تعالى: **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيْسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** [البقرة: الآية: ١٣٦].

فأمر المؤمنين بالإقرار بالإيمان، ولم يذكر الاستثناء؛ لأن ما ذكر في الآية هي أصول الإيمان، فهي مما يجب أن يجزم الإنسان به لنفسه من دون شك.

---

(1) رواه الخلال في السُّنَّة (595/3).

ج . ومما يدل على أن الاستثناء يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة قوله تعالى: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}** [الفتح: الآية: 27]، فذكر الله الاستثناء، مع أن دخولهم للمسجد الحرام شيء مستيقن. (1)

أقوال العلماء

عن **عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)**، قال: "ومن لم يعلم من يؤمن بالله حقاً فلا يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً". (2)

عن أبي الدرداء–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، قال: "اللهم اغفر لي ظلمي وكفري" فقال له قائل: يا أبا الدرداء، هذا كفر؟ قال: "نعم، كل من عصى الله فقد كفر". (3)

---

(1) انظر: الإيمان لأبي عبيد (38 . 39)، والسُّنَّة للخلال (594/3)، مجموع الفتاوى (289/3) و(429/7 . 460)، وشرح العقيدة الطحاوية (494/2 . 496) [مؤسسة الرسالة، ط2، 1411هـ].

(2) "صحيح البخاري"، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "بني الإسلام على خمس".

(3) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج 7، ص 64.

عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)، قالت: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين". (1)

عن سعيد بن جبير–رحمه الله–(ت: ٩٥ هـ)، قال: "إن الإيمان يزيد وينقص، فليقل أحدكم: أنا مؤمن إن شاء الله". (2)

عن مجاهد–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً". (3)

عن مكحول–رحمه الله–(ت: ١١٣ أو ١١٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً". (4)

---

(1) "التمهيد" لابن عبد البر، ج 9، ص 239.

(2) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج 2، ص 845.

(3) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج 6، ص 127.

(4) "التمهيد" لابن عبد البر، ج 9، ص 242.

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، قال: "لا أقول إنني مؤمن حقاً، ولا كافر حقاً، ولكني أرجو أن أكون من المؤمنين وأخاف أن أكون من الكافرين". (1)

وسأل رجل الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، فقال: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت؟ فقال له: "الإيمان إيمانان:

فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب: فأنا به مؤمن.

وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *}** [الأنفال: الآيات ٢-٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا". (2)

---

(1) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج 2، ص 844.

(2) تفسير القرطبي (367/7) [دار الشعب].

عن الإمام الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شاء الله فقد وفق". (1)

عن سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شاء الله فقد وفق". (2)

عن الليث بن سعد–رحمه الله–(ت: ١٧٥ هـ)، قال: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين". (3)

عن الإمام مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)، قال: "الاستثناء في الإيمان ليس بشك، ولكنه من التواضع والورع". (4)

---

(1) "سير أعلام النبلاء" للذهبي، ج 7، ص 120.

(2) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج 2، ص 848..

(3) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج 6، ص 128.

(4) "التمهيد" لابن عبد البر، ج 9، ص 238.

عن الإمام الشافعي–رحمه الله–(ت: ٢٠٤ هـ)، قال: "من استثنى في إيمانه فقد أصاب، ومن لم يستثن لم يخطئ". (1)

عن الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقول أنا مؤمن حقاً، ولكن يقول: أرجو أن أكون مؤمناً". (2)

وقال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "من صفة أهل الحق، ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان، لا على جهة الشك. نعوذ بالله من الشك في الإيمان. ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للإيمان، لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا؟ وذلك أن أهل العلم من أهل الحق إذا سئلوا: أمؤمن أنت؟ قال: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار وأشباه هذا، فالناطق بهذا والمصدق بقلبه مؤمن، وإنما الاستثناء في الإيمان، لا يدرى أهو ممن يستوجب ما نعت الله به المؤمنين من حقيقة الإيمان أم لا؟ هذا طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان، عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول والتصديق في القلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان". (3).

---

(1) "السنن الكبرى" للبيهقي، ج 6، ص 370.

(2) "السنة" للخلال، ج 1، ص 288.

(3) الشريعة للآجري (2/656 . 657).

قال الإمام ابن تيمية–رحمه الله–: "من قال: أنا مؤمن إن شاء الله، يخرج به عن دعوى الإيمان المطلق، كما أن من قال: أنا عالم إن شاء الله، كان أدباً مع الله؛ لأن العلم المطلق هو ما لا يدخله شك ولا نقص، وكذلك الإيمان المطلق". (1).

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الاستثناء في الإيمان ليس بشك، ولكنه من التواضع والورع". (2)

المسائل المتعلقة

المسألة الأولى: حكم قول الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟

لقد أنكر السلف سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت، بل عدُّوا ذلك السؤال من البدع والتعمق والتكلف، والإيمان القائم بالإنسان علمه عند الله، فمن شهد لنفسه بالإيمان لم تكن شهادته

---

(1) "مجموع الفتاوى"، ج 7، ص 352.

(2) "سير أعلام النبلاء"، ج 7، ص 121.

موجبة له أن يدخل الجنة، كما أن من لم يشهد لنفسه بالإيمان الكامل لم يكن تركه لتلك الشهادة موجبًا له أن لا يدخلها. (1)

قال إبراهيم النخعي–رحمه الله–(ت: ٩٦ هـ): "سؤال الرجلِ الرجلَ: أمؤمن أنت؟ بدعة". (2).

وقيل للإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "إذا سألني الرجل: أمؤمن أنت؟ قال: سؤاله إياك بدعة، لا يشك في إيمانك، أو قال: لا نشك في إيماننا". (3).

---

(1) انظر: الشريعة للآجري (673/2 . 674).

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (38/11) [مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ]، وعبد الله بن أحمد في السُّنَّة (141/1)، والآجري في الشريعة (671/2).

(3) انظر: السُّنَّة للخلال (601/3)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (448/7).

وقال سفيان بن عيينة–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "إذا سئل أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني". (1).

ووجه كراهة السلف لهذا السؤال: أنه قد جاء من قِبَل المرجئة؛ فقد سأل رجلٌ الإمامَ أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، فقال له: "قيل لي: أمؤمن أنت؟" قلت: نعم، هل عليَّ في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب الإمام أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، وقال الله عزّ وجل: **{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ}** [التوبة: الآية: 106]، من هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول: "إن شاء الله» ويستثني؟". (2).

المسألة الثانية: في حكم من قال: «أنا مؤمن إن شاء الله» على جهة الشك:

---

(1) السُّنَّة للخلال (597/3)، وانظر: الشريعة للآجري (673/2 . 674)، الإبانة لابن بطة (883/2).

(2) السُّنَّة للخلال (597/3)، وانظر: الشريعة للآجري (673/2 . 674)، الإبانة لابن بطة (883/2)

حسب ما تقدم من تفصيل، فإن من استثنى قاصدًا الشك ففيه تفصيل:

أ . إن قصد الشك في أصل الإيمان، فهذا محرم، وقد يخرج به صاحبه عن الديانة.

ب . وإن كان قاصدًا الشك في كمال الإيمان، فالاستثناء هنا مشروع، وتقدم تفصيل ذلك وبيان علته. (1).

المسألة الثالثة: في حكم من قال: "أنا مؤمن كامل الإيمان" ولم يستثن:

من أثبت لنفسه كمال الإيمان بدون استثناء فقد وقع في المحظور، ويخشى عليه الإثم لوقوعه في تزكية النفس المنهي عنها في قوله تعالى: **{فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}** [النجم: الآية: ٣٢]". (2).

---

(1) انظر: السُّنَّة للخلال (596/3) [دار الراية، ط1، 1410هـ]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (669/7).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (669/7).

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لا نجد بدًّا من الاستثناء؛ لأنه إذا قال: "أنا مؤمن" فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول". (1).

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاّم–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "وكذلك نرى مذهب الفقهاء الذين كانوا يتسمون بهذا الاسم ـ يعني: الإيمان ـ بلا استثناء، فيقولون: نحن مؤمنون... إنما هو عندنا منهم على الدخول في الإيمان، لا على الاستكمال... فأما على مذهب من قال: «كإيمان الملائكة والنبيين» فمعاذ الله، ليس هذا طريق العلماء". (2).

وقال الإمام ابن بطة العكبري–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "فهذه سبيل المؤمنين، وطريق العقلاء من العلماء، لزوم الاستثناء والخوف والرجاء، لا يدرون كيف أحوالهم عند الله، ولا كيف أعمالهم، أمقبولة هي أم مردودة... فهل يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير وأعمال البر كلها مرضيَّة، وعنده زكيَّة، ولديه مقبولة؟! هذا لا

---

(1) رواه الخلال في السُّنَّة (601/3).

(2) الإيمان لأبي عبيد (40 ـ 41).

يقدر على حتمه وجزمه إلا جاهل مغتر بالله، نعوذ بالله من الغرة بالله، والإصرار على معصية الله". (1).

المسألة الرابعة: الاستثناء في الإسلام:

المشهور عند أهل السُّنَّة والجماعة؛ كالإمام أحمد بن حنبل وغيره هو عدم الاستثناء في الإسلام فيقول أحدهم: أنا مسلم ولا يستثني، هذا هو الأصل عندهم في هذه المسألة، بخلاف الإيمان، فالغالب عندهم فيه الاستثناء كما تقدم. (2).

سئل الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) عن الاستثناء في الإيمان، فقال: "نحن نذهب إلى الاستثناء"، فقيل له: فأما إذا قال: أنا مسلم فلا يستثني؟ فقال: "لا يستثني إذا

---

(1) الإبانة لابن بطة (872/2 . 873).

(2) انظر: الفرقان بين الحق والباطل ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (43/13) [مكتبة ابن تيمية، ط2]، والتحبير شرح التحرير للمرداوي (531/2) [مكتبة الرشد، ط1، 1421هـ]، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (438/1) [مؤسسة الخافقين، ط2].

قال: أنا مسلم، قال الزهري: نرى الإسلام الكلمة، والإيمان العمل". [1].. إلا أن الإمام أحمد قد تعددت عنه الروايات في ذلك:

فالرواية الأولى: منع الاستثناء في الإسلام، وهي الرواية المشهورة عنه. [2]

ومما يستدل به على ذلك:

1 ـ أن نصوص الشريعة قد دلَّت على الشهادة للنفس بالإسلام بدون ذكر الاستثناء، ومن ذلك:

ـ قوله: **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}** [الحجرات: الآية: 14] ، **قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وهذه الآية ـ يعني: آية الحجرات السالفة ـ مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يُستثنى في الإيمان دون الإسلام... **قال الميموني–رحمه**

---

[1] الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (876/2).

[2] الإيمان لابن منده (311/1) [مؤسسة الرسالة، ط2، 1406هـ]، والسُّنَّة للخلال (604/3)، والإبانة الصغرى لابن بطة (876/2)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (43/7) و(43/13).

الله–(ت: ٢٧٤ هـ): سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في: أنا مؤمن إن شاء الله، فقال: أقول: مؤمن إن شاء الله، وأقول: مسلم ولا أستثني، قال: قلت لأحمد: تُفَرِّق بين الإسلام والايمان؟ فقال لي: نعم، فقلت له: بأيِّ شيء تحتج؟ قال لي: **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}** [الحجرات: الآية: 14]". (1)

2 . أن كل من نطق بالشهادتين صار مسلمًا، متميزًا عن سائر الكافرين، تجري عليه أحكام المسلمين، وهذا أمر لا شك في تحققه عند جميع المسلمين، فجُزم به بلا استثناء. (2)

والرواية الثانية: تجويز الاستثناء في الإسلام. (3)

وليس بين هاتين الروايتين تعارض، وبيان ذلك:

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (253/7)..

(2) انظر: الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (415/7)، زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق البدر (495 . 496) [دار القلم والكتاب، ط1، 1416هـ].

(3) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (415/7).

أن الإسلام له إطلاقان عند الإمام أحمد:

الإطلاق الأول: أن يراد بالإسلام: الكلمة. وهذا الإطلاق مشهور **عن ابن شهاب الزهري–رحمه الله–(ت: ١٢٣ أو ١٢٤ هـ)**. والمراد بالكلمة: الشهادتان. (1)

وعليه؛ فـ"يكون مراد الزهري أن المرء يُحكم بإسلامه ويسمى مسلمًا إذا تلفظ بالكلمة؛ أي: كلمة الشهادة، وأنه لا يسمى مؤمنًا إلا بالعمل، والعمل يشمل عمل القلب والجوارح... وأما الإسلام المذكور في حديث جبريل فهو الشرعي الكامل المراد بقوله تعالى: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [آل عمران: الآية: ٨٥]". (2)

---

(1) انظر: عون المعبود للعظيم آبادي (287/12) [دار الكتب العلمية، ط2، 1995م]، ومرقاة المفاتيح لعلي قاري (542/7) [دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ].

(2) فتح الباري لابن حجر (81/1 . 82) [دار المعرفة].

وعلى هذا الإطلاق تحمل رواية المنع من الاستثناء في الإسلام عند الإمام أحمد؛ لأن النطق بالشهادتين هو مما يجزم به كل مسلم ولا يجوز الشك فيه.

الإطلاق الثاني: أن يراد بالإسلام فعل الواجبات الظاهرة كلها كما أمر به الله.

فعلى هذا الإطلاق تحمل رواية جواز الاستثناء، فيُستَثنى في الإسلام كما يُستثنى في الإيمان.
(1).

فالحاصل: أنه إن أريد أصل الإسلام، وهو النطق بالشهادتين: مُنِع الاستثناء.

وإن أريد كمال الإسلام، المتضمن لفعل الواجبات وترك المحرمات على ما أمر به الله جاز الاستثناء.

المسألة الخامسة: الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن:

الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن، مثل قولهم: هذه شجرة إن شاء الله، أو محمد رسول الله إن شاء الله، وأنه قد صلى بالأمس إن شاء الله، فهذا بدعة مخالفة للعقل والدين، ولم يكن عليه

---

(1) انظر حول هذا التفصيل: الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (259/7، 415)، والتحبير شرح التحرير للمرداوي (531/2 ـ 532).

أحد من أهل الإسلام السابقين، وأئمة الدين، ولم يأت في الكتاب ولا السُّنَّة استثناء في الماضي، بل كل ما ورد فهو في المستقبل؛ كقوله تعالى: **{وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** [الكهف: الآيات: ٢٣-٢٤]. (1)

المسألة السادسة: الاستثناء في الأعمال الصالحة:

الاستثناء في الأعمال الصالحة بحيث يقال: صليت إن شاء الله، وصمت إن شاء الله، وحججت إن شاء الله، القول فيها كالقول في الاستثناء في الإيمان؛ إذ هي أفراد الإيمان؛ فإن كان المقصد خوف التزكية، أو الخوف من عدم الإتيان بالعمل الصالح على وجه الكمال شرع له الاستثناء، وإن كان المقصد مجرد الإخبار عن العمل كأن يقول: صليت وصمت وحججت فلا يستثني.

قال ابن تيمية: "وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على الوجه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منه في الإيمان، وفي أعمال الإيمان؛

(1) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (8/421، 425).

كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، وصليت إن شاء الله؛ لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق". [1]

مذاهب المخالفين:

للمخالفين عدة أقوال في حكم الاستثناء في الإيمان:

القول الأول: القول بوجوب الاستثناء في الإيمان. وهو قول الكلابية [2]. وجمهور الأشاعرة. (3)

وعلّلوا ذلك بأمرين:

---

[1] مجموع الفتاوى (496/7)..

[2] انظر: مجموع الفتاوى (289/3) (430/7)، والاستقامة لابن تيمية (150/1) [طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1403هـ].

[3] انظر: أصول الدين للبغدادي (253) [دار زاهد القدسي]، وشرح المقاصد للتفتازاني (253) [دار المعارف النعمانية، ط1، 1401هـ].

١. أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، وكذلك الكفر هو ما مات عليه الإنسان، فالإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة، وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك فلا عبرة به.

2. البعد عن تزكية النفس بالشهادة لها بالإيمان. (1)

وهم قد وافقوا السلف في الاعتبار الثاني دون الاعتبار الأول، فإن الاعتبار الأول مبني على قولهم بنفي الصفات الاختيارية عن الله، وهو ما يسمونه بمنع حلول الحوادث، ومن ثم قالوا: إن الحب والبغض والسخط والغضب صفات أزليه قديمة، فلا يكون الله مبغضًا لشخص ـ حال كفره ـ ثم يصير محبًّا له بعد إيمانه، بل لم يزل محبًّا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الإيمان، ولم يزل مبغضًا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الكفر.

---

(1) انظر: الإرشاد للجويني (336) [مكتبة الخانجي، ط3، 1422هـ].

ثم قرنوا مسألة الاستثناء في الإيمان بهذا القول، وأوجبوه، بناء على أن الإنسان لا يعلم على أي شيء يموت عليه، والإيمان هو ما يموت عليه المرء ويوافي به ربه. (1)

وهذا تناقض منهم؛ لأنهم يقولون: إن الإيمان هو التصديق؛ لأنه في اللغة كذلك، ثم يقولون: الإيمان في الشرع هو ما يوافي به العبد ربه، وجعلوا الاستثناء واجبًا لأجل ذلك، فهذا عدول منهم عن معنى الإيمان في اللغة إلى معنى آخر، فأبطلوا استدلالهم اللغوي في بيان حد الإيمان. (2)

---

(1) انظر: الإيمان لابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى (418/7).

(2) انظر: الإيمان لابن تيمية (137 ـ 138)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (1371/3) [مكتبة الرشد، ط1].

القول الثاني: من يحرِّم الاستثناء في الإيمان. وهو قول المرجئة والجهمية (1) والماتريدية (2)، وبعض الأشاعرة (3)، ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا، وهو التصديق والإقرار.

قال عبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "أول الإرجاء ترك الاستثناء". (4)

وعلّلوا التحريم بقولهم: إن الإيمان شيء واحد، والاستثناء يقتضي الشك، فإن من استثنى في إيمانه فهو شاك، ومن تردد في تحقيق الإيمان لم يكن مؤمنًا، بل ذهب بعضهم إلى تكفير من قال بالاستثناء. (5)

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (429/7).

(2) انظر: التوحيد للماتريدي (388) [دار الجامعات المصرية]، وتأويلات أهل السُّنَّة (265) [مطبعة الإرشاد، 1404هـ]، وبحر الكلام لأبي المعين النسفي (40) [مطبعة الكردي، 1911هـ].

(3) انظر: أصول الدين للبغدادي (253).

(4) السُّنَّة للخلال (598/3).

(5) انظر: أصول الدين للبغدادي (253)، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم المصري (46/2)

وقولهم هذا في غاية البطلان، فإن الإيمان الشرعي يطلق على جميع الاعتقادات والأقوال والأعمال الشرعية، وليس شيئًا واحدًا (التصديق) كما زعمه هؤلاء، فالاستثناء راجع إلى تحقيق كمال الأقوال والأعمال، لا إلى أصل التصديق الذي لا شك فيه.

[طبع سعيد كمبني، كراتشي]، وإتحاف السادة المتقين (278/2) [دار الفكر]، وكذلك: زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق العباد (519)، وانظر في الرد على هذا القول: مجموع الفتاوى لابن تيمية (41/13).

[القرآن كلام الله غير مخلوق]

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

المسألة الثانية: الأقوال في صفة الكلام.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله.

[١٣]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن القرآنَ كلامُ الله تعالى غيرَ مخلوقٍ".**

الشرح وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

هذه مسألة من كبريات مسائلِ باب الصفات؛ فأكبرُ مسألتين في باب الأسماء والصفات ركَّز عليها أعداءُ الإسلام تركيزاً شديداً

- مسألةُ العلو.
- ومسألةُ الكلام.

لأنهم إذا أبطلوا كونَ القرآن كلام الله أبطلوا حقيقةَ الوحي،

وإذا أبطلوا علوَّ الله تعالى أبطلوا وجوده،

فهذه غايتهم وهدفهم الذي يريدون أن يصلوا إليه.

ذلك لأن أعظم ركيزتين تقوم عليهما المبادئ الفلسفية لدى الفلاسفة هما:

1. أن العلمَ مصدره الإنسان. وفي هذا تكذيب للوحي.
2. وأن المعلومات والعلوم محصورةٌ في المحسوس المشاهَد. وفي هذا إنكار للغيب وأعظم الغيب هو الله.

فتسلَّط أعداءُ الله على باب الصفات من أجلِ أن يشكِّكُوا في كلامِ الله وذلك بإنكارهم بأن يكون القرآن كلامُ الله حقيقة.

وأن يشكِّكُوا في وجودِ الله بإنكارهم لعلو الله عز وجل.

فلذلك وقفوا وقفةً خبيثة، وهجموا هجمةً شرسة ضد هاتين الصفتين، فإذا كنا نقول إنهم يزعمون أن العلوم مصدرها الإنسان، ونحن نقول إن العلم الشرعي مصدره الوحي فلمَّا هؤلاء يلغونَ أن الله تكلم حقيقة، ويشكِّكُون في أن هناك وحي وقالوا: هذه عبارة محمد؛ أو عبارة جبريل، وأن الله ما تكلم حقيقة. لأنهم إذا أسقطوا الوحي وقطعوا عليك طريق الوحي فسيتساوى قولُ محمد مع قولِ أي بشرٍ من الناس.

صفة الكلام تأتي-من حيث الأهمية-مع صفة العُلو لله سبحانه وتعالى؛ لذلك اهتم بهما أئمة السلف، وأكدوا على ثُبوتهما لله تعالى حقيقة، وأوردوا في ذلك أدلة كثيرة.

وبالنسبة لصفة الكلام التي هي موضوع حديثنا هنا فإن علماء أهل السنة بينوا الحق في هذه المسألة ووقفوا موقفاً عظيماً صلباً حتى إنه كما هو معلوم في زمن فتنةَ القولِ بخلقِ القرآن، فقام المأمون وهو كان من المعتزلة ويتبنَّى قول المعتزلة، فعذَّب مَن عذَّب من العلماء وفصَلَهم عن وظائفهم وسجنهم وقام بتعذيبهم لأجلِ أن يرفعَ هذا الشعار؛ أن القرآنَ مخلوق وأنه ليس كلامُ الله حقيقة.

فدفع أهل السنة شبهات المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومَن دَار في فَلَكهم القائلين بأنَّ الله خلق القرآن في غيره، وردوا كذلك على الكلَّابية الذين قالوا: القرآن حكاية عن كلام الله، وردوا-أيضًا-على الأشاعرة الذين قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله.

فالمعطلة أرادوا بقولهم هذا: إسقاط قيمة الوحي؛ ليصبح لدى الناس خلل في اتباع الوحي، فأهل السنة يؤمنون بأن أول مصدر للتشريع هو وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أي: كلامه بحروفه ومعانيه، وأن الله تعالى قاله بحرف وصوت.

وأوَّل مَن عُرف أنه قال: مخلوق الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان.

وأول مَن عُرف أنه قال: هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، (ت: ٢٤١ هـ)، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول؛ فمنهم مَن قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرَّبِّ،

ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يَتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره.

وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار؛ فإنَّه مِن المعلوم بصريح العقل أن معنى (آية الكرسي) ليس معنى (آية الدَّيْن)، ولا معنى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية: ١]، معنى {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: الآية: ١]؛ فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه؟!

ومنهم مَن قال: هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يَزل ولا يزال موصوفًا بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين، ولم يقل أحدٌ من السلف: إنَّ هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير

مخلوق؛ بل كانوا يقولون بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يَقرءونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مَخلوق". (1)

وأما المعتزلة والجهمية فقالوا: القرآن كلام الله مخلوق؛ فهم أضافوا الكلام إلى الله من باب إضافة الوصف على حد قولهم: (ناقة الله).

ومن المتفلسفة مَن يزعم أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء.

---

(1) «مجموع الفتاوى» (12/ 301، 302).

المسألة الثانية: الأقوال في كلام الله. (1).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "مسألة كلام الله تعالى، والناس فيها مضطربون، وقد بلغوا فيها إلى تسعة أقوال: وعامة الكتب المصنفة في الكلام وأصول الدين لم يذكر أصحابها

---

(1) لخص شارح العقيدة الطحاوية أقوال المخالفين في صفة الكلام فقال: "وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبريه كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

إلا بعض هذه الأقوال إذ لم يعرفوا غير ما ذكروه، فمنهم من يذكر قولين، ومنهم من يذكر ثلاثة، ومنهم من يذكر أربعة، ومنهم من يذكر خمسة، وأكثرهم لا يعرفون قول السلف.

– **أحدها**: قول من يقول: إن كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض: إما من العقل الفعال عند بعضهم، وإما من غيره.

وهذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم كأصحاب وحدة الوجود. وفي كلام صاحب الكتب "المضنون بها على غير أهلها" (بل "المضنون الكبير والمضنون الصغير") ورسالة "مشكاة الأنوار" وأمثاله ما قد

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة".

شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٢-١٧٤.

يشار به إلى هذا، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا، لكن كلامه يوافق هؤلاء تارة وتارة يخالفه، وآخر أمره استقر على مخالفتهم ومطالعة الأحاديث النبوية.

وثانيها: قول من يقول: إنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه.

وهذا قول هذا الإمامي وأمثاله من الرافضة المتأخرين، والزيدية، والمعتزلة، والجهمية.

وثالثها: قول من يقول: إنه معنى واحد قديم قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة.

وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره.

ورابعها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث. ذكره الأشعري في " المقالات " عن طائفة. وهو الذي يذكر عن السالمية ونحوهم. وهؤلاء

قال طائفة منهم: إن تلك الأصوات القديمة هي الصوت المسموع من القارئ، أو هي بعض الصوت المسموع من القارئ.

وأما جمهورهم مع جمهور العقلاء فأنكروا ذلك، قالوا: هذا مخالف لضرورة العقل.

وخامسها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات لكن تكلم به بعد أن لم يكن متكلما، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته بعد أن لم يكن متكلما ولا فاعلا. وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وهو قول هشام بن الحكم وأمثاله من الشيعة. وهؤلاء منهم من يقول: هو حادث وليس بمحدث، ومنهم من يقول: بل هو محدث أيضا. وقد ذكر القولين الأشعري عنهم في "المقالات" وذكر الخلاف بين أبي معاذ التومني وبين زهير الأثري. والكرامية يقولون: حادث لا محدث.

وسادسها: قول من يقول: إنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء بكلام يقوم به وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم، م وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما.

وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وسابعها: قول من يقول: كلامه يرجع إلى ما يحدث من علمه وإرادته القائم بذاته. ثم من هؤلاء من يقول: لم يزل ذاك حادثا في ذاته، كما يقوله أبو البركات صاحب "المعتبر" وغيره، ومنهم من لا يقول بذلك، وأبو عبد الله الرازي يقول بهذا القول في مثل " المطالب العالية ".

وثامنها: قول من يقول: كلامه يتضمن معنى قائما بذاته وهو ما خلقه في غيره. ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

ومنهم من يقول بقول المتفلسفة وهذا قول طائفة من الملاحدة الباطنية متشيعهم ومتصوفيهم.

وتاسعها: قول من يقول: كلام الله مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات. وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من متأخري الأشعرية". (1)

وفصل ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) هذه الأقوال فقال: "فصل: اختلف أهل الأرض في كلام الله تعالى،

---

(1) ((منهاج السنة النبوية)) (2/ 358 - 363).

[مذهب الاتحادية]

فذهب الاتحادية القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود كلام الله: نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش، وأضداده كله غير كلام الله تعالى القائم به كما قال عارفهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الذي أصلوه، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله، وكلامه هو كلام الله، وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو، فإنهم لما أصلوا أن الله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة.

أحدهما: إنه معدوم لا وجود له، إذ لو كان موجودا لكان إما داخل العالم وإما خارجا عنه، وهذا معلوم بالضرورة، فإنه إذا كان قائما بنفسه، فإما أن يكون مباينا للعالم أو محايثا له، إما داخلا فيه وإما خارجا عنه.

الأمر الثاني: أن يكون هو عين هذا العالم، فإنه يصح أن يقال فيه حينئذ أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينا له ولا حالا فيه، إذ هو عينه، والشيء لا ينافي نفسه ولا يحايثها، فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده وبالحكم عليه بأنه معدوم، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه، لا داخل العالم ولا خارجا، ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه، فرارا إلى ما لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتي به شريعة. ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما.

أحدهما: أن يكون ساريا فيه حالا فيه، فهو في كل مكان بذاته، وهو قول جميع الجهمية الأقدمين.

الوجه الثاني: أن يكون وجوده في الذهن لا في الخارج، فيكون وجوده سبحانه وجودا عقليا، إذ لو كان موجودا في الأعيان لكان إما عين هذا العالم أو غيره، ولو كان غيره لكان إما بائنا عنه أو حالا فيه، كلاهما باطل، فثبت أنه عين هذا العالم، فله حينئذ كل اسم حسن قبيح، وكل صفة كمال ونقص، وكل كلام حق وباطل، نعوذ بالله من ذلك.

[مذهب الفلاسفة المتأخرين]

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو، وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم: إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، لهذه النفوس عندهم ثلاث قوى: قوة التصور وقوة التخييل وقوة التعبير، فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس، فتتصور المعقول صورا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج، وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية، قالوا وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائي فيرى الملائكة ويسمع خطابهم، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج.

فهذا أصل هؤلاء في إثبات كلام الرب وملائكته وأنبيائه ورسله، والأصل الذي قادهم إلى هذا عدم الإقرار بالرب الذي عرفت به الرسل ودعت إليه، وهو القائم بنفسه المباين العالي فوق سماواته فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته، العالم بجميع المعلومات، القادر على كل شيء، فهم أنكروا ذلك كله.

[مذهب المعتزلة]

المذهب الثالث: مذهب الجهمية لصفات الرب تعالى أن كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته، فلم يقم بذاته سبحانه، فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا في فروعه، قال الأشعري في كتاب المقالات: اختلفت المعتزلة في كلام الله، هل هو جسم أو ليس بجسم، وفي خلقه على ستة أقاويل:

فالفرقة الأولى: منهم يزعمون أن كلام الله جسم، وأنه مخلوق، وأنه لا شيء إلا جسم.

والفرقة الثانية: زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة؛ لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة وأن كلام الخالق جسم، وأن ذلك الجسم صوت متقطع مؤلف مسموع، وهو فعل الله وخلقه، وهذا قول أبي الهذيل وأصحابه، وأحال النظام أن يكون كلام الله في أماكن كثيرة أو مكانين في وقت واحد، وزعم أنه في المكان الذي خلق فيه.

والفرقة الثالثة: من المعتزلة تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد إذا تلاه قال فهو يوجد مع تلاوته، وإذا كتبه وجد مع كتابته، وإذا حفظه وجد مع حفظه، وهو يوجد في الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال.

والفرقة الرابعة: يزعمون أن كلام الله عز وجل عرض وأنه مخلوق وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد، وزعموا أن المكان الذي خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده في غيره، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين.

والفرقة الخامسة: أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض، والأعراض عندهم قسمان: قسم منهما يفعله الأحياء وقسم منهما يفعله الأموات، ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلا للأحياء، والقرآن مفعول وهو عرض، ومحال أن يكون الله فعله في الحقيقة، لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذي يسمع منه، إذ سمع من الشجرة، فهو فعل لها حيث سمع، فهو فعل المحل الذي حل فيه.

والفرقة السادسة: يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق، وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، وهذا قول الإسكافي.

واختلفت المعتزلة في كلام الله هل يبقى؟ فقالت فرقة منهم: يبقى بعد خلقه، وقالت فرقة أخرى: لا يبقى إنما يوجد في الوقت الذي خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك، وهذا المذهب هو من فروع الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله، ولصريح المعقول والفطر، من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه ونفي قيام الأفعال به، فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف

ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته، فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالا مدبرا متصرفا في خلقه، يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته، إذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالم ولا إله، فضلا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه.

[مذهب الكلابية]

المذهب الرابع: مذهب الكلابية، أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم، وأنه لا يسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهي مخلوقة، وهو أربع معان في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، فهي أنواع لذلك المعنى القديم الذي لا يسمع، وذلك المعنى هو المتلو المقروء، وهو غير مخلوق، والأصوات والحروف هي تلاوة العباد وهي مخلوقة، وهذا المذهب أول من يعرف أنه قال به ابن كلاب، وبناه على أن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب تعالى لأنه ليس محلا للحوادث، فهي مخلوقة منفصلة عن الرب، والقرآن اسم ذلك المعنى وهو غير مخلوق.

[مذهب الأشعري]

المذهب الخامس: مذهب الأشعري ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب، وهو صفة قديمة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء ولا عين الأمر وعين النهي وعين الخبر وعين الاستخبار، الكل من واحد وهو عين التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمرا ونهيا، وخبرا واستخبارا صفات لذلك المعنى الواحد، وأنواع له، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء، وكونه قرآنا وتوراة وإنجيلا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان اسمه إنجيلا، والمعنى واحد، وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية، وهي خلق من المخلوقات، وعنه لم يتكلم الله بهذا الكلام العربي، ولا سمع من الله وعنده ذلك المعنى سمع من الله حقيقة، ويجوز أن يرى ويشم، ويذاق ويلمس، ويدرك بالحواس الخمس، إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود، فكل وجود يصح تعلق الإدراكات كلها به كما قرره في مسألة رؤية من ليس في جهة من الرائي، وأنه يرى حقيقة وليس مقابلا للرائي.

هذا قولهم في الرؤية وذلك قولهم في الكلام.

والبلية العظمى نسبة ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة، وأنهم أهل الحق، ومن عداهم أهل الباطل، وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم في بطلانه، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات، وهذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ويسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته إرادته ومشيئته.

[مذهب الكرامية]

المذهب السادس: مذهب الكرامية، وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن متكلما، كما يقوله سائر فرق المتكلمين أنه فعل بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلا، كما ألزموا به الكرامية في مسألة الكلام، فهو لازم لهم في مسألة الفعل، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم، فإنهم أثبتوا كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل، وجعلوا لهما أولا، فرارا من القول بحوادث لا أول لها، ومنازعون أبطلوا حقيقة الكلام والفعل، وقالوا لم يقم به فعل ولا كلام البتة، وأما من أثبت منهم معنى قائما بنفسه سبحانه، فلو كان ما أثبته مفعولا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن شيئا خارجا عنهما، فهم لم يثبتوا له كلاما

ولا فعلا وأما الكرامية فإنهم جعلوه متكلما بعد أن لم يكن متكلما، كما جعله خصومهم فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا.

[مذهب السالمية] (1)

المذهب السابع: مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث أنه صفة قائمة بذات الرب تعالى لم يزل ولا يزال، لا يتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف وأصوات، وسور وآيات سمعه جبرائيل منه، وسمعه موسى بلا واسطة، ويسمعه سبحانه من يشاء، وإسماعه نوعان: بواسطة وبغير واسطة ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا، بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد، لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا

---

(1) "جماعة ينسبون إِلَى مَذْهَب أبي الحسن مُحَمَّد بن أَحمد بن سالم السالمي فِي الْأُصُول يُقَال لَهُم السالمية وَهُوَ مَذْهَب مَشْهُور بِالْبَصْرَةِ وسوادها". «اللباب في تهذيب الأنساب» (ج٢ص٩٣).

وقال الذهبي عن أبي الحسن البصري هذا: "وَلَهُ أَصْحَابٌ يُسَمَّوْنَ السَّالِمِيَّة، هجرهُمُ النَّاسُ لأَلْفَاظٍ هُجنَةٍ أطلقُوهَا وَذَكَرُوهَا ... وَمَاتَ ابْنُ سَالِمٍ وَقَدْ قَارَبَ التِّسْعِيْنَ سَنَةَ بضع وَخَمْسِيْنَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ" – «سير أعلام النبلاء – ط الرسالة (١٦/ ٢٧٣).

تعدم، بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفة الحياة والسمع والبصر، وجمهور العقلاء قالوا: تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها، وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل، والعجب أنها هي الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله

صفة الكلام من الصفات التي لها تشعبات كثيرة متعددة يحسن عند عرضها أن يكون العرض لها مفصلًا بحسب تلك التفريعات التي سأضع لها عناوين جانبية مما يساعد من جهة على التعرف على قول أهل السنة بشكل أدق، والتعرف على أقوال المخالفين حين عرضها في تلك الجزئيات من جهة أخرى.

أولًا: إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

يثبت أتباع الرسل صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتوا له سائر الصفات، ومحال قيام هذه الصفة بنفسها كما يقوله بعض المكابرين أنه خلق الكلام لا في محل، ومحال قيامها بغير الموصوف بها كما يقوله المكابر الآخر أنه خلق في محل فكان هو المتكلم به دون المحل، قالوا والكلام الحقيقي هو الذي يوجد بقدرة المتكلم وإرادته قائما به، لا يعقل غير هذا، وأما ما

كان موجودا بدون قدرته ومشيئته وإن سمع منه فإنه ليس بكلام له، وإنما هو مخلوق خلقه الله فيه، فلو كان ما قام بالرب تعالى من الكلام غير متعلق بمشيئته بل يتكلم بغير اختياره لم يكن هذا هو الكلام المعهود، بل هذا شيء آخر غير ما يعرفه العقل ويشهد به الشرع، قالوا: ولو لم يكن هناك ألفاظ مسموعة حقيقة السمع لم يكن ثم صفة كلام البتة، ولو كان عاجزا عن الكلام في الأزل لم يصر قادرا عليه فيما لم يزل، فإنه إذا كانت حاله قبل وبعد سواء وهو لم يستفد صفة الكلام من غيره، فمن المستحيل أن تجدد له هذه الصفة بعد أن كان فاقدا لها بالكلية.

وكذلك إثبات قدم عين كل فرد من أنواع الكلام وبقائه أزلا وأبدا واقتران حروفه بعضها ببعض بحيث لا يسبق شيء منها لغيره، لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة وقد دلت النصوص النبوية أنه متكلم إذا شاء بما شاء، وأن كلامه يسمع، وأن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقا، لا تأليف ملك ولا بشر، وأنه سبحانه الذي قاله بنفسه: **{المص}** [الأعراف: الآية: ١]، **{حم عسق}** [الشورى: الآية: ١]، **{كهيعص}** [مريم: الآية: ١].

وأن القرآن جميعه، حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي تكلم به، وليس بمخلوق ولا بعضه قديما، وهو المعنى وبعضه مخلوق، وهو الكلمات والحروف، ولا بعضه كلامه وبعضه كلام غيره، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبرائيل أو محمد عليهما السلام عما قام بالرب من المعنى من غير أن يتكلم الله بها، بل القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، تكلم الله به حقيقة، والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل عن رب العالمين.

فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء، لا الوضع والإنشاء، كما يقول أهل الزيغ والاعتداء، فكتاب الله عندهم غير كلامه، كتابه مخلوق وكلامه غير مخلوق، والقرآن إن أريد به الكتاب كان مخلوقا، وإن أريد به الكلام كان غير مخلوق، وعندهم أن الذي قال السلف هو غير مخلوق هو عين القائم بالنفس وأما ما جاء به الرسول وتلاه على الأمة فمخلوق، وهو عبارة عن ذلك المعنى، وعندهم أن الله تعالى لم يكلم موسى، وإنما اضطره إلى معرفة المعنى القائم بالنفس من غير أن يسمع منه كلمة واحدة، وما يقرؤه القارئون ويتلوه التالون فهو عبارة عن ذلك المعنى، وفرعوا على هذا الأصل فروعا: منها: أن كلام الله لا يتكلم به غيره، فإنه عين القائم بنفسه، ومحال قيامه بغيره فلم يتل أحد قط كلام الله ولا قرأه.

ومنها: أن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كلام الله إلا على سبيل المجاز.

ومنها: أنه لا يقال إن الله تكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ولا خاطب ولا يخاطب، فإن هذه كلها أفعال إرادية تكون بالمشيئة، وذلك المعنى صفة أزلية لا يتعلق بالمشيئة.

ومنها: أنهم قالوا لا يجوز أن ينزل القرآن إلى الأرض، فألفاظ النزول والتنزيل لا حقيقة لشيء منها عندهم.

ومنها: أن القرآن القديم لا نصف له ولا ربع ولا خمس ولا عشر ولا جزء له البتة.

ومنها: أن معنى الأمر هو معنى النهي، ومعنى الخبر والاستخبار، وكل ذلك معنى واحد بالعين.

ومنها: أن نفس التوراة هي نفس القرآن ونفس الإنجيل والزبور، والاختلاف في التأويلات فقط.

ومنها: أن هذا القرآن العربي تأليف جبرائيل أو محمد أو مخلوق خلقه الله تعالى في اللوح المحفوظ، فنزل به جبرائيل من اللوح لا من الله على الحقيقة كما هو معروف من أقوالهم.

ومنها: أن ذلك العين القديم يجور أن تتعلق به الإدراكات الخمس فيسمع ويرى ويشم ويذاق ويلمس إلى غير ذلك من الفروع الباطلة سمعا وعقلا وفطرة.

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل قال الله تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [النحل: الآية: ٤٠] ، وقوله: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [يس: الآية: ٨٢] فإذا: تخلص الفعل للاستقبال (وأن) كذلك (ونقول) فعل دال على الحال والاستقبال (وكن) حرفان يسبق أحدهما الآخر، فالذي اقتضته هذه الآية هو الذي في صريح العقول والفطر.

وكذلك قوله: **{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً}** [الإسراء: الآية: ١٦] الآية، سواء كان الأمر هاهنا أمر تكوين أو أمر تشريع فهو موجود بعد أن لم يكن، وكذلك قوله: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}** [الأعراف: الآية: ١١] وإنما قال لهم اسجدوا بعد خلق آدم وتصويره.

وكذلك قوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] الآيات كلها، فكم من برهان يدل على أن التكلم هو الخطاب وقع في ذلك الوقت.

وكذلك قوله: **{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ}** [القصص: الآية: ٣٠]، والذي ناداه هو الذي قال له: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** [طه: الآية: ١٤]، وكذلك قوله: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ}** [القصص: الآية: ٦٢]، وقوله: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}** [سبأ: الآية: ٤٠] وقوله: **{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ}** [ق: الآية: ٣٠] الآية، ومحال أن يقول سبحانه لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد قبل خلقها ووجودها.

وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره ونصوص السنة، ولا سيما أحاديث الشفاعة وحديث المعراج وغيرها، كقوله:" **((أتدرون ماذا قال ربكم الليلة))**. (1)، وقوله: " **((إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة))**. (2)، وقوله: " **((ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب))**. (3).

---

(1) أخرجه البخاري (846)، ومسلم (71) باختلاف يسير.

(2) أخرجه أبو داود (924) واللفظ له، والنسائي (1221) باختلاف يسير. وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (7522) مختصراً.

(3) أخرجه البخاري (7443)، ومسلم (1016) باختلاف يسير.

وقد أخبر الصادق المصدوق أنه يكلم ملائكته في الدنيا فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي، ويكلمهم يوم القيامة، ويكلم أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين يومئذ ويكلم أهل الجنة في الجنة ويسلم عليهم في منازلهم، وأنه كل ليلة يقول: ((**من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، من يقرض غير عديم ولا ظلوم**)). (1)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا**)). (2)، ومعلوم أنه في ذلك الوقت كلمه وقال له: تمن علي.

إلى أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها، وإن كانت مجازا كان الوحي كله مجازا، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب وظهور معانيها وتعدد أنواعها واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح، فكم جهد ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز.

---

(1) أخرجه البخاري (1145) بنحوه، ومسلم (758) باختلاف يسير.
(2) أخرجه الترمذي (3010) واللفظ له، وابن ماجه (190) باختلاف يسير، وأحمد (14881) مختصراً.

هب أن ذلك يمكن في موضع واثنين وثلاثة وعشرة، أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة آلاف وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر؟ ولا تستبعد قولنا أكثر من ثلاث آلاف، فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الإخبار عما قال الله تعالى أو يقول، وكل أثر فيه ذلك، إذا استقرئت زادت على هذا العدد، ويكفي أحاديث الشفاعة وأحاديث الرؤية وأحاديث الحساب، وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة، وأحاديث تكليم الله لموسى، وأحاديث تكلمه عند النزول الإلهي، وأحاديث تكلمه بالوحي، وأحاديث تكليمه للشهداء، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان ولا واسطة، وأحاديث تكليمه للشفعاء يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة، إلى غير ذلك، إذ كل هذا وأمثاله وأضعافه مجاز لا حقيقة له، سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أحق بهذه الصفة وأولى من كل أحد، وأن البحر لو أمده من بعده سبعة أبحر، وكانت أشجار الأرض أقلاما يكتب بها ما تتكلم به، لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلماتك، وأنك لك الخلق والأمر، فأنت الخالق حقيقة". (1)

(1) مختصر الصواعق المرسلة ٤٩٤-٥٠٣.

قال ابنُ تَيميَّةَ–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام، وكماله من لوازم ذاته، فيمتنع أن يزول عنه شيء من صفات كماله، ويمتنع أن يصير ناقصا بعد كماله. وهذا الأصل عليه قول السلف وأهل السنة: أنه لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل قادرا، ولم يزل موصوفا بصفات الكمال، ولا يزال كذلك". (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ولا نزاع بين العلماء أن كلام الله تعالى لا يفارق ذات الله، ولا يباينه كلامه، ولا شيء من صفاته، بل ليس صفة شيء من موصوف تباين موصوفها وتنتقل عنه إلى غيره. فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه، وينتقل إلى غيره". (2)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل". (3)

---

(1) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (6/ 250).

(2) مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٢، مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٣٥.

(3) مختصر الصواعق المرسلة ص: ١٣١٨.

فصفة الكلام صفة ذاتية فعلية (1). فكلام الله عز وجل باعتبار أصله ونوعه: صفة ذات، وباعتبار آحاد الكلام وأفراده: صفة فعل". (2)

وقال السعدي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٦ هـ): "يصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات الذاتية؛ كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته؛ كالرحمة، والرضا، والسخط، والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد". (3)

أ–الأدلة من القرآن.

---

(1) "الصفات الفعلية من حيث قيامها بالذات تسمى: صفات ذات، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى: صفات أفعال، ومن أمثلة ذلك: صفة الكلام". يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: 25).

(2) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: 25)

(3) يُنظر: ((القول السديد)) (ص: 8). يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: 25).

وقد أثبت الله الكلام لنفسه، خلافًا لما يعتقده الضالون،

1 - قال تعالى: **{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ}** [البقرة: الآية: 253].

2 - وقالَ عزَّ وجلَّ: **{وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [النساء: الآية: 164].

3 - وقال تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}** [الأعراف: الآية: 143].

4 - وقال تعالى: **{وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}** [طه: الآيات: 13 - 14].

5 - وقال تعالى: **{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَـــاطِئِ الْوَادِ الأيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [القصص: الآية: 30].

6 - وقالَ تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَـــيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [النحل: الآية: 40].

- وقال تعالى: **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** [الكهف: الآية: 109].

8 - وقال تعالى: **{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِـــدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}** [الأنعام: الآية: 115].

9 - وقال تعالى: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ}** [الفتح: الآية: 15].

10 - وقال تعالى: **{يَسْـمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [البقرة: الآية: 75].

11 - وقال تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}** [التوبة: الآية: 6].

وأمَّا الأدلَّةُ على حِرْمانِ أقوامٍ من تكليمِ الله لهم، فمنها:

1 - قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْـتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الضَّـلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْـبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** [البقرة: الآيات: 174 - 175].

2 - وقوله عزَّ وجلَّ: **{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [آل عمران: الآية: 77].

والأيات في ذلك كثيرةٌ جدًا.

ب-الأدلة من السنة.

١- **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((**احتجّ آدمُ وموسى، فقالَ له موسى: يا آدم، أنتَ أبونا، خَيَّبْتَنا وأخرَجْتَنا من الجنَّة، قال له آدم: يا موسى، اصطفاكَ الله بكلامِهِ، وخَطَّ لكَ [التوراةَ] بيدِهِ، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرهُ الله عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً؟ فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدمُ موسى -ثلاثًا-**)). (1)

---

(1) أخرجه البخاري 5/ 160، 9/ 388، 11/ 548 - 549، ومسلم رقم (127).

٢- **حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)**، قال: "كانَ النبيُّ-صلى الله عليه وسلم-يَعْرِضُ نفسَه على الناس بالموقفِ فيقول: ((**هلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إلى قومِهِ؟ فإنَّ قريشًا قدْ مَنعوني أن أبلّغَ كلامَ رَبِّي عَزَّ وجلَّ**)). الحديث. (1).

3 - **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "فضلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِه". (2)

---

(1) أخرجه أحمد 3/ 390، وأبو داود (4734)، والترمذي رقم (2925)، وابن ماجة رقم (201)، والدارمي رقم (3357)، والنسائي في "الكبرى" -كما في "تحفة الأشراف" 2/ 175 -، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (86، 205)، وعثمان الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (284)، والحاكم 2/ 612 – 613، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" رقم (217)، واللالكائي في "السنة" رقم (554، 555)، والبيهقي في "الاعتقاد" ص: 100، و"الأسماء والصفات" ص: 187، و"دلائل النبوة" 2/ 413، وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني في "الحجة" ق 48/ أ – ب من طرق عن إسرائيل: حدثنا عثمان ابن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

(2) أخرجه عثمان الدارميُّ في "الرَّدِّ على الجَهْميَّة" رقم (287، 340)، واللالكائي رقم (557)، والترمذي رقم (2926)، والدارمي رقم (3359)..

٤-**حديث أبي أمامةَ-رضي الله عنه-(ت: ٨١ أو ٨٦ هـ)** أنَّ رجلاً أتى النبيَّ-صلى الله عليه وسلم-قال: يا نبيَّ الله، أنبيًّا كانَ آدمُ؟ قالَ: ((**نَعَمْ، مُكَلَّمًا**)). قَالَ: كم بينَه وبينَ نُوحٍ؟ قالَ: ((**عَشرةُ قُرون**)). (1)

٥-**حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه-(ت: ٦٥ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ الله كَتَبَ كتابًا قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بألفَي عام، فأنزلَ منه آيتين ختمَ بِهما سورةَ البقرةِ، فلا تقْرآنِ في "دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقرَبُها شَيْطانٌ)). (2)

---

(1) أخرجه الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (299)، وابن حبان رقم (2085 - == موارد)، والطبراني في "الكبير" 8/ 139 – 140، و"الأوسط" رقم (405)، والحاكم 2/ 262، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص: 206، وابن عساكر 2/ 325/ ب، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم". وأقرّه الذهبي، وابن كثير في "البداية والنهاية" 1/ 101. وقال الهيثمي في "المجمع" 1/ 196 و8/ 210: "رجاله رجال الصحيح" زاد في الموضع الثاني: "غير أحمد بن خُليد الحلبي وهو ثقة".

(2) أخرجه أحمد 4/ 274، والترمذي رقم (2882)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (967)، والدارمي رقم (2290)، وابن حبان رقم (1726 - موارد)، والحاكم 1/ 562 أو البيهقي في "الأسماء والصفات" ص: 231 - 232.

٦-**حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((**يَقبِضُ الله الأرضَ، ويَطْوي السَّماواتِ بيمينه، ثمَّ يقول: أنا المَلِكُ؛ أَينَ مُلوكُ الأرضِ؟ " وفي لفظ: "يَقبِضُ الله الأرضَ يوم القيامة ...**)). (1)

٧- **وحديث عَدِيّ بنِ حاتِم-رضي الله عنهما-(ت: ٦٦ أو ٦٩ هـ)**، قالَ: قالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-:

((**ما مِنْكمْ من أحَدٍ إلا سيكلِّمُهُ الله، ليسَ بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ، فينظُرُ أيْمَنَ منه فلا يَرى إلاَّ ما قدَّم، وينظُرُ بينَ يدَيْهِ فَلَا يَرى إلاَّ النَّارَ تِلقاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمْرةٍ**)).

وفي لَفْظٍ: ((**ما مِنْكُمْ من أحْدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ليسَ بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ ولا حِجَابٌ يَحْجُبُه**)). (2)

---

(1) أخرجه البخاري 8/ 551 و11/ 372 و13/ 367 ومسلم رقم (2787).

(2) أخرجه أحمد 4/ 256 والبخاري 11/ 400 و13/ 423، 474، ومسلم 2/ 703 - 704.

وبوَّب البخاري في «صـــحيحه» على ذلك فقال: «باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة» (1)، وقال لأهل النار: **{اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}** [المؤمنون: الآية: 108].

ثانيًا: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء.

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "منشـأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته على قولين،

فقالت طائفة: كلامه بغير مشيئته واختياره، ثم انقسم هؤلاء أربع فرق،

١–قالت فرقة: هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو.

٢–وفرقة قالت: بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى هو به متكلم، وهو قول الكلابية ومن تبعهم، وانقسم هؤلاء فريقين،

---

(1) «صحيح البخاري» (9/ 151).

فرقة قالت: هو معان متعددة في أنفسها أمر ونهي وخبر واستخبار، ومعنى جامع لهذا الأربعة، وفرقة قالت: بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض.

وفرقة قالت: كلامه هو هذه الحروف والأصوات، خلقها خارجة عن ذاته، فصار بها متكلما، وهذا قول المعتزلة وهو في الأصل قول الجهمية تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم.

٣-وفرقة قالت: يتكلم بقدرته ومشيئته كلاما قائما بذاته سبحانه كما يقول به سائر أفعاله لكنه حادث النوع، وعندهم أنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما كما قاله من لم يصفهم من المتكلمين أنه صار فاعلا بعد أن لم يكن، فقول هؤلاء في الفعل المتصل كقول أولئك في الفعل المنفصل، وهذا قول الكرامية.

٤-وفرقة قالت: يتكلم بمشيئته، وكلامه سبحانه هو الذي يتكلم به الناس كله حقه وباطله وصدقه وكذبه، كما يقوله طوائف الاتحادية.

وقال أهل الحديث والسنة: إنه لم يزل سبحانه متكلما إذا شاء ويتكلم بمشيئته ولم تتجدد له هذه الصفة، بل كونه متكلما بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة، وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته وكلامه، وليس متحدا بهم ولا حالا فيهم". (1)

قال الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "بل نقول: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء ولا نقول: إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام. ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علما فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه كان قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نورا، ولا نقول: إنه قد كان ولا عظمة له حتى خلقه لنفسه عظمة". (2)

وقال عبد المغني المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ): "مذهب أهل الحق أن الله عز وجل لم يزل متكلما بكلام مسموع مفهوم مكتوب". (3)

وقال ابن أبي العز الحنفي–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى؛ فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا

---

(1) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٥٢٧-٥٢٨.

(2) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص: ١٣٩.

(3) الاقتصاد في الاعتقاد ١/ ١٣٠.

شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك ... كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف". (1)

قال عبد الباقي المواهبي الحنبلي–رحمه الله–(ت ١٠٧١ هـ): "قال الأئمة: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته، أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له". (2)

ثالثًا: القرآن كلام الله.

من أركان الإيمان السِّتة: الإيمانُ بالكُتُبِ التي أنزلها اللهُ، كما دلَّ على ذلك قولُه سبحانه وتعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}** [النساء: الآية: 136]، وكذلك جاء في حديث جبريل عليه السلام، وفيه:

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٢.

(2) كتاب العين والأثر في في عقائد أهل الأثر ص: ٦٨.

((الإيمان))، قال: ((**أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه**)). (1)

ومن الإيمانِ بالكتب: الإيمانُ بِأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ.

والقرآنُ في الأصل: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا؛ قال الله تعالى: **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}** [القيامة: ١٧]، أي: قراءته، فهو مَصدر على وزن فُعلان-بالضم- كالغُفران والشُّكران. (2)

وفي الاصطلاح هو: «كلام الله المنَزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس". (3)

---

(1) أخرجه البخاري (50) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (8) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) انظر: «لسان العرب» (1/ 129)، و«مناهل العرفان» للزرقاني (1/ 7).

(3) انظر: «مناهل العرفان» (1/ 10-13)، و«مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص 20-21)، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت.

والقرآنُ كلامُ الله، وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ عز وجل؛ قال تَعَالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}** [التوبة: الآية:6]، وروي عن **جابر بن عبد الله–رضي الله عنهما–(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** أنه قَالَ: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفسَهُ فِي المَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: ((**أَلَا رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**)). (1)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إنَّ سلفَ الأمَّةِ وأئمَّتَها كانوا على الإيمان الذي بعثَ الله به نبيَّه –صلى الله عليه وسلم–، يصِفون الله بما وصَف به نفسَه، وبما وصَفَه به رسولُهُ من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ويقولون: إنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، ويصفونَ الله بما وصفَ به نفسَهُ، من التكليمِ، والمناجاة، والمناداةِ، وما جاءت به السُّنَنُ والآثارُ موافقةً لكتاب الله تعالى". (2)

---

(1) أخرجه أبو داود (4734)، والترمذي (2925)، وابن ماجه (201)، والحاكم (2/ 669) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال في «المجمع» (6/ 35): «رجاله ثقات».

(2) «مجموع الفتاوى» (٦/٥١٨).

رابعًا: القرآن غير مخلوق.

الذِي عَلَيهِ إِجماعُ السَّلفِ الصَّالحِ مِنَ الصَّحابةِ-رضي الله عنهم-وَالتَّابعِينَ لَهم بِإحسَانٍ: أَنَّ القرانَ كلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ حُرُوفه وَمَعَانِيه، مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ نَزَلَ بِهِ جِبريلُ عليه السلام إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ. فكلامُ الله تعالى صفةٌ من صفاتهِ غيرُ مَخلوقٍ كسائر صِفاتِه، سَواء كان القرآن العربيَّ، أوِ التَّوراةَ العِبرِيَّةَ، أو غيرَ ذلك من كلامِهِ تعالى، ممَّا وقَعَ من كلامِهِ، وممَّا لَم يقع بَعْدُ.

ولَقَدْ كانَ السَّلفُ في صَدْرِ الإِسلام في غِنًى عن إطلاقِ لفظِ (غير مخلوق) لأنَّه كانَ من المسَلَّمِ عندهم أنَّ كلامَ الله صفةٌ مِن صفاتِهِ، وصفاتُهُ غيرُ مَخلوقةٍ، حتى ظَهَرت الجَهميةُ، فنفَتْ صفةَ الكلامِ عن الله تعالى، لكنْ لما كانَ هذا القولُ منكَراً شَنيعاً، تَنفرُ منه قلوبُ الناسِ، وتقشَعِرُّ منه جلودُهم، ويرفُضُهُ إيمانُهُمْ، أبدَلوهُ بقَوْلِهم: كلامُ الله مَخْلوقٌ، فتظاهَروا بإثباتِ الكلامِ، وأبطلُوهُ بقولهم: مخلوقٌ.

فلمَّا كانَ حقيقةُ قَوْلِهم إبطالَ صفةِ الكلامِ وتَعطيلَها قابَلهم السَّلَفُ برفْضِ هذهِ البدعةِ وإنكارِها، والتَّشديدِ عليهم في ذلكَ، بل وتكفيرهم، لأنَّ حقيقةَ قولهم الكفرُ، لِما تضمَّنَ من تكذيبِ القرآنِ، وإثبات النَّقْصِ للرَّحمنِ، فقالَ السَّلَفُ حينئذٍ: (كلامُ الله -كالقرآن وغيره- غيرُ مخلوقٍ).

ولقَدْ كانَتْ لهذه العقيدةُ مبنيَّةً على أسُسٍ متينةٍ وقَواعدَ عظيمةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، والمعقولِ الصَّريحِ، ونُصوصِ السَّلَفِ وكَلامِهم، خِلافًا لما يحسَبُه الجاهلونَ.

أ-الأدلة من القرآن الكريم:

1 - قالَ الله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: الآية: 54].

والاحتجاجُ بهذه الآيةِ من وَجْهَيْنِ:

الأول: أنَّه تعالى فرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ، وهما صِفَتان من صِفاتِهِ، أضافَهما إلى نفسهِ، أمَّا الخَلْقُ فَفِعْلُهُ، وأمَّا الأَمرُ فقولُهُ، والأصْلُ في المتعاطفين التَّغايُرُ إلاَّ إذا قامَتِ القرينةُ على عَدم إرادَة ذَلكَ، وهنا قد قامتِ القرائنُ على توكيدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما، ومنها الوجهُ الآتي.

والثاني: أنَّ الخَلْقَ إنَّما يكونُ بالأمْرِ، كَما قال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [يس: الآية: 82].

فقوله تعالى: {كُنْ} هو أمْرُهُ، فلو كانَ مَخْلوقاً لاحتاجَ خلقُهُ إلى أمْرٍ، والأمْرُ إلى أمرٍ، إلى ما لا نِهاية، وهذا باطلٌ.

وقد احَتجَّ الإمامُ أحمدُ-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) على الجَهْمِيَّة المعْتزلةِ بهذه الآية.

قال رحمه الله: "قلتُ: قال الله: **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ}** [الأعراف: الآية: ٥٤]، ففرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ". (1)

وقال لهم: "قال الله: **{أَتَى أَمْرُ اللهِ ...}** [النحل: الآية: 1] فأمْرُهُ كلامُه واستطاعَتُهُ ليسَ بمخلوقٍ، فلا تَضْرِبوا كِتابَ الله بعضَهُ بِبعضٍ". (2)

وقالَ فيما كتَبَهُ للمتوكِّل حينَ سألَهُ عن مَسألةِ القرآنِ: "وقَدْ قالَ الله تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ...}** [التوبة: الآية: 6]، وقَالَ: **{أَلَا لَهُ**

(1) رواه حنبل في "المحنة" ص: 53 عن أحمد.
(2) رواه حنبل في "المحنة" ص: 54 عنه.

الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: الآية: ٥٤]، فَأخبَرَ بالخَلْقِ، ثُمَّ قَالَ: **{وَالأَمْرُ}**، فأخبرَ أنَّ الأمرَ غَيْرُ مَخلوقٍ". (1)

وقد سبَقَ الإمامَ أحمد إلى هذا الاحتجاج شيخُه الإمامُ **سفيانُ بن عُيَيْنَةَ الهِلاليُّ–الحافظُ الثِّقَةُ الحُجَّةُ–(ت: ١٩٨ هـ)**، فقالَ رَحمه الله: "ما يَقولُ هذا الدُّوَيْبَّةُ؟ " –يعني بشرًا المريسِيّ–.

قالوا: يا أبا محمَّدٍ، يزعُمُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ،

فقالَ: "كَذَبَ، قال الله عَزَّ وجَلَّ: **{أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}** [الأعراف: الآية: ٥٤]، فالخَلْقُ خَلْقُ الله تبارك وتعالى، والأمْرُ القرآنُ". (2)

قال الحافظُ هبةُ الله ابنُ الطَّبَريّ–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ)، عقبَ هذا: "وكذلكَ قالَ أحمدُ بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، ونُعَيْمُ بن حمَّادٍ (ت: ٢٢٨ هـ)، ومحمَّدُ بن يحيى الذُّهْليُّ (ت:

---

(1) رواه صالح ابنه في "المحنة" روايتة ص: 120 - 121.

(2) رواه الآجري في "الشريعة" ص: 80 وابن الطبري في "السنة" رقم (358) والخطيب في "تاريخ بغداد" 9/ 88 - 89 بسند جيد عنه.

٢٥٨ هـ)، وعَبْدُ السَّلام بن عاصمٍ الرازيُّ، وأحمدُ بن سِنانٍ الواسطيُّ (ت: ٢٥٦ هـ)، وأبو حاتمٍ الرازيُّ (ت: ٢٧٧ هـ)". (1)

2 - وقالَ تعالى: **{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ}** [الرحمن: الآيات: 1 - 3].

ففرَّقَ تعالى بينَ عِلمهِ وخَلْقِهِ، فالقرآنُ عِلْمُهُ، والإنسانُ خلقُهُ، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ.

قالَ تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: الآية: 140].

وقالَ تعالى: **{... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ}** [البقرة: الآية: 145].

وقالَ تعالى: **{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ}** [الرعد: الآية: 37].

فسمَّى الله تعالى القرآنَ عِلْماً، إذْ هو الذي جاءَه مِنْ رَبِّهِ؟ وهو الذي عَلَّمهُ الله تعالى إيَّاه -صلى الله عليه وسلم-، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ، إذ لو كانَ مخلوقًا لاتَّصَفَ تعالى بِضدِّهِ قبلَ الخَلْقِ، تعالى الله عن ذلك وتنزَّه وتقدَّس.

---

(1) ابن الطبري في "السنة" رقم (358).

وبهذا احتجَّ **الإمامُ أحمدُ-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**، على الجَهْميةِ فيما كتبَهُ للمتوكِّل في مسألة القرآنِ.

قالَ-رحمه الله-: "قالَ عَزَّ وَجَلَّ: **{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}**، فَأخبرَ تَعالى أنَّ القرآنَ مِنْ عِلْمِهِ" ثمَّ احتجَّ بالآياتِ الثلاثِ المذكوراتِ، ثمَّ قال: "فالقرآنُ من علم الله تعالى، وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ الذي جاءَه -صلى الله عليه وسلم- هو القرآنُ، لقولِهِ: **{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [البقرة: الآية: ١٢٠]". (1)

وقالَ-رحِمَه الله-في حكايةِ مُناظرتِهِ للجَهْميةِ في مَجْلس المعتصِم: "قالَ لي عبدُ الرَّحمن القزّازُ (2): كانَ اللهُ ولا قرآنَ، قلتُ له: فكانَ الله ولا عِلْم! فأمْسَكَ، ولَوْ زعَمَ أنَّ اللهَ كانَ ولا عِلْم لكفَرَ باللهِ". (3)

وقيلَ له-رحِمَه الله-: قومٌ يقولونَ: إذا قال الرَّجُلُ: كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، يقولون: مَنْ إمامُكَ في هذا؟ ومِنْ أيْنَ قلتَ: ليس بمخلوقٍ؟ قال:

"الحجَّة قولُ الله تبارك وتعالى: **{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [البقرة: الآية: ١٢٠]، فما جاءَه غيرُ القرآن".

---

(1) رواه صالح في "المحنة" ص: 121 وعبد الله في "السنة" رقم (107) عن أبيهما به.

(2) أحدُ مناظِري الإمام بحضرة المعتصم.

(3) رواه حنبل في "المحنة" ص: 45 عنه.

قال: "القرآنُ من عِلْمِ الله، وعلمُ الله ليسَ بمخلوقٍ، والقُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ". (1)

وقالَ رحِمَه الله: "القُرآنُ علمٌ مِنْ عِلمِ الله، فمَنْ زعَمَ أنَّ عِلمَ الله مخلوقٌ فهو كافرٌ". (2)

3 - وقالَ تعالى: **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}** [الكهف: الآية: 109].

وقالَ تعالى: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [لقمان: الآية: 27].

فأخبرَ تعالى -وقولُهُ الحَقُّ- أنَّ كَلِماتِهِ غيرُ مُتَناهِيَةٍ، فَلو أنَّ البحارَ التي خَلَقَ الله كانتْ مِدادًا تُكْتَبُ به، والشَّجَرَ الذي خلقَ الله أقلاماً تُخَطُّ بِهِ، لَنَفِدَ مِدادُ البُحورِ، وَلَفَنِيَت الأقْلاَمُ، ولم تَفْنَ كَلِماتُ الله.

وإنَّمَا في هذه الإبانةُ عن عَظَمَةِ كَلَامِهِ تعالى، وأنَّه وَصْفُهُ وَعِلْمُهُ، وهذا لا يُقاسُ بالكلامِ المخلوقِ الفاني، إذ لَوْ كان مخلوقًا لَفَنِيَ من قبلِ أنْ يَفنى بَحْرٌ من البُحورِ، ولكنَّ الله تعالى إنَّما كتَبَ الفناءَ على المخلوقِ لا عَلَى نفسِهِ وصفَتِهِ.

---

(1) رواه صالح في "المحنة" ص: 69 عنه.

(2) رواه ابن هانئ في "المسائل" 2/ 153، 154عنه.

4 – أسماءُ الله تعالى في القُرآنِ، كـ (الله، الرحمن، الرحيم، السميع، العليم، العفور، الكريم ...) وغيرها من أسمائِهِ الحُسْنى، وهي من كلامِهِ، إذ هو الذي سَمَّى بها نفسَه، بألفاظِها وَمَعانِيها.

وقد ساوى الله تعالى بين تَسبيحِ نَفْسِهِ وتَسبيحِ أسمائِهِ، فقال تعالى: **{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الأحزاب: الآية: 42]، وقال: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [الأعلى: الآية: 1]، وقال: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** [الواقعة: الآيات: 74، 96 والحاقة: الآية: 52].

وساوى تعالى بين دُعائِهِ بنفسهِ ودُعائِهِ بأسمائِهِ، فقال: **{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}** [الأعراف: الآية: 55] وقال: **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء: الآية: 110] وقال: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}** [الأعراف: الآية: 180].

وكذلك ساوى تعالى بين ذِكْرِهِ بنفسهِ وذِكْرِهِ بأسمائِهِ، فقالَ: **{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً}** [الأعراف: الآية: 205] وقالَ: **{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الإنسان: الآية: 25].

وهذا التَّسبيحُ والدُّعاءُ والذِّكْرُ إنْ كانَ يَقَعُ لمخلوقٍ كان كُفْراً بالله.

فإنْ قيلَ: إنَّ كلامَه تعالى مَخلوقٌ، كانتْ أسماؤُهُ داخِلةً في ذلكَ، ومَنْ زعَمَ ذلك فقَدْ كَفَرَ لِما ذكرنا، ولأنَّ معنى ذلكَ أنَّ الله تعالى لم تكن لَه الأسماءُ الحُسنى قبل خَلْقِ كلامِهِ،

ولَكانَ الحالفُ باسْم من أسمائِهِ مُشْرِكاً لأنه حلَفَ بمَخلوقٍ، والمخلوقُ غيرُ الخالقِ، وقد قالَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: ((**مَن حَلَفَ بغير الله فقد أشركَ**)). (1)

وبهذه الحُجَّةِ احتجَّ جماعةٌ من السَّلفِ والأئمَّةِ على كَوْنِ القرآنِ غيرَ مخلوقٍ، منهم:

1) **الإمام الحُجَّة سُفيان بن سَعيد الثوريّ-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)**.

قال: "مَنْ قالَ: إنَّ **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ}** [الإخلاص: الآيات: ١-٢] مخلوقٌ، فهو كافِر". (2)

2) **ناصرُ السُّنَّة أبو عبد الله محمَّد بن إدريسَ الشَّافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)**.

---

(1) أخرجه أحمد رقم (4904، 6072)، وأبو داود رقم (3251)، والترمذي رقم (1535)، وابن حِبّان رقم (1177 - موارد)، والحاكم 1/ 18 و4/ 297، وآخرون من حديث عبد الله بن عمر به. وحسّنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرَّه الذهبي.

.

(2) أخرجه عبد الله في "السنة" رقم (13).

قال: "مَنْ حَلَفَ باسمٍ مِن أسماءِ الله فحنَثَ فعليه الكفَّارة، لأنَّ اسمَ الله غيرُ مَخلوقٍ، ومن حلَفَ بالكعبةِ، أو بالصَّفا والمرْوةِ، فليسَ عليه الكفَّارةُ، لأنَّهُ مَخلوقٌ، وذاكَ غيرُ مَخْلوقٍ". (1)

3) إمامُ أهل السُّنَّة أحمدُ بن حَنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ).

قال: "مَنْ قالَ: القرآن مخلوق فهو عندنا كافرٌ، لأنَّ القُرآن من عِلْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه أسماءُ الله عَزَّ وَجَلَّ". (2)

وقالَ: "وأسماءُ الله في القُرْآنِ، والقُرْآنُ من عِلْمِ الله، فمَنْ زَعَمَ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فهو كافرٌ، ومن زعَمَ أنَّ أسْمَاءَ الله مخلوقةٌ فقدْ كَفَرَ". (3)

وذَكَرَ لَه رَجُلٌ أنَّ رَجُلاً قالَ: إنَّ أسماءَ الله مخلوقةٌ، والقرآنُ مخلوقٌ، فقال أحمدُ: "كُفْرٌ بَيِّنٌ". (4)

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في "آداب الشافعي" ص: 193 وأبو نعيم 9/ 113 والبيهقي في "السنن" 10/ 28 و"الأسماء والصفات" ص: 255 – 256 و"المناقب" 1/ 405 بإسناد صحيح.

(2) رواه ابنه عبد الله في "السنة" رقم.

(3) رواه ابنه صالح في "المحنة" ص: 52، 66 – 67.

(4) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 262 عنه.

وقالَ: "أسْماءُ الله في القرآنِ، والقرآنُ من عِلْم الله، وعِلْمُ الله ليس بمخلوقٍ، والقرآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ على كلِّ وجهٍ، وعلى كلِّ جهةٍ، وعلى أيِّ حالٍ". (1)

وكما أنَّه تعالى لا يوصَف بصفةٍ مخلوقةٍ، فلا يسمَّى باسم مَخلوقٍ.

5 – أخبرَ تعالى عن تَنزيلهِ منه وإضافتهِ إليهِ، كما قالَ: **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [السجدة: الآية: 2]، وقالَ: **{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}** [الأنعام: الآية: 114]، وقال: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}** [النحل: الآية: 102]، ولَمْ يُضِف شيئًا ممَّا أنزلَه إلى نفسِه غير كلامِهِ (2)، ممَّا دَلَّ على الاختصاصِ بمَعنى، فليسَ هو كإنزالِ المطَر والحديد وغير ذلك، فإنَّ هذه الأشياءَ أخبرَ عن إنزالِها، لكنَّه لم يُضِفْها إلى نفسِهِ، بخِلافِ كلامِهِ تعالى، والكلامُ صِفَةٌ، والصِّفَةُ إنَّمَا تُضافُ إلى مَن اتَّصَفَ بها لا إلى غيرِهِ، فلو كانت مخلوقةً لفارقت الخالقَ، ولم تصلحْ وَصْفاً له، لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلقِهِ، لا يَتَّصفُ بشيءٍ منه.

---

(1) رواه ابنه صالح في "المحنة" ص: 69.

(2) انظر: "مجموع الفتاوى": 12/ 247، 297.

ب- الأدلة السنة:

1 - **حديث خَوْلَةَ بنت حَكيم السُّلميَّة-رضي الله عنها-**، قالَتْ: سَمِعْتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:

((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أعوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لم يَضُرَّهُ شَيْءٌ حتَّى يرتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلكَ)). (1)

وحديثُ أبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، قالَ: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رَسُولَ الله، ما لَقِيتُ مِنْ عَقْربٍ لَدَغَتْنِي البارحةَ، قال:

((**أما لَو قُلْتَ حين أمْسَيْتَ: أعوذ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرَّكَ**)). (2)

وفي سياق آخرَ عنه قال: قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-:

---

(1) أخرجه أحمد 6/ 377، 409 ومسلم 4/ 2080 والترمذي رقم (3437)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (560، 561) وابن ماجة رقم (3547) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب".

(2) أخرجه مالك 2/ 951 وأحمد 2/ 375 ومسلم 4/ 2081 والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (585 - 589، 591 - 592) وابن ماجة رقم (3518).

((**مَنْ قالَ إذَا أمْسى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أعوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ من شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّهُ حُمَةٌ تلكَ اللَّيْلة**)).

قال: فكان أهلُنا قد تعلَّمُوها، فكانوا يقولونَها، فلُدِغَتْ جاريةٌ منهم، فلم تَجِدْ لها وَجَعاً". (1)

وحَديثُ عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، أنَّ رَسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– كانَ يُعَوِّذُ حَسَنًا وحُسَيْنًا، يقولُ:

"**أعيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**".

وكانَ يقولُ: "**كانَ إبْراهيمُ أبي يُعَوِّذُ بهما إسْماعيلَ وإسحاقَ**". (2).

فأثبتَ النَّبيُّ –صلى الله عليه وسلم– بما ذكَرْناهُ عنه شرعيَّةَ الاستعاذةِ بكلماتِ الله، فلو كانَتْ كلماتُهُ مخلوقةً لكانت الاستعاذةُ بها شِرْكًا، لأنَّها استعاذةٌ بمَخلوقٍ، ومن المعلوم أنَّ

---

(1) أخرجه أحمد 2/ 290 والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (590).

(2) أخرجه أحمد رقم (2112، 2434)، والبخاري 6/ 408، وأبو داود رقم (4737)، والترمذي رقم (2060)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (1006، 1007)، وابن ماجة رقم (3525)، من طريق منصور بن المعتمر عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"..

الاستعاذةَ بغير الله تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ شِرْكٌ، فكيفَ يَصِحُّ أن يُعلِّمَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- أمَّتَه ما هو شركٌ ظاهرٌ، وهو الذي جاءهم بالتَّوحيدِ الخالصِ؟

فدلَّ هذا على أنَّ كلماتِ الله تعالى غيرُ مخلوقةٍ.

وقالَ نُعَيْمُ بن حمَّاد (شيخُ البخاري، ومن أئمَّة السُّنَّة): "لا يُستعاذُ بالمخلوقِ، ولا بكلامِ العباد والجنِّ والإنسِ والملائكةِ".

وقال البخاري عَقِبهُ: "وفي هذا دَليلٌ أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ سواه خَلْقٌ" (1). ثمَّ احتجَّ البخاريُّ لذلك بما ذكرنا.

واعترضَ بعضُ أهل البدَعِ على هذه الحُجَّة بقوله -صلى الله عليه وسلم-: **"اللَّهمَّ أعوذُ بِرِضاكَ من سَخَطِكَ، وبمُعافاتِك من عُقوبَتِك** ... " الحديث (2)، فقالوا: فاستعاذَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرِّضا والمعافاة وهما مَخلوقان.

---

(1) "خلق أفعال العباد" ص: 143.

(2) حديث صحيح.

مرويٌّ من حديث عائشة وعلي، رضي الله عنهما.

أما حديث عائشة، فأخرجه أحمد 6/ 58، 201، ومسلم رقم (486)، وأبو داود رقم (879)، والنسائي 1/ 102 و 2/ 210، وابن ماجة رقم (3841) من طريق عُبَيْد الله ابن عمر عن محمد بن يحيى بن حَبَّان

عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فَقَدْتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة من الفراش، فالتمسْتُهُ، فوقَعتْ يَدِي على بطنِ قَدَمَيْه وهو في المسجد، وهما منصوبتان (زاد في بعض الطرق: وهو ساجد) وهو يقولُ: ((اللَّهمَّ أعوذُ برضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك)).

وأخرجه مالك 1/ 214، والترمذي رقم (3493)، والنسائي 2/ 222، عن يحيى ابن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عائشة بنحوه.

قلت: وهذا سند منقطع، محمد بن إبراهيم لم يسمَع من عائشةَ، وقد حسَّن الترمذي هذه الطريق لمجيء الحديث من غير هذا الوجه عن عائشة.

وللحديث طريق ثالثة.

أخرجها النسائي 8/ 283 - 284 من حديث مسروق بن الأجدع عن عائشة به نحوه.

قلت: لكن إسناده ضعيف، لحال العلاء بن هلال أحد رجال الإسناد فإنَّه منكر الحديث جداً.

أما حديث علي رضي الله عنه. فأخرجه أحمد رقم (751، 957)، وأبو داود رقم (1427)، والترمذي رقم == (3566)، والنسائي 3/ 248 – 249، وابن ماجة رقم (1179) من طرق عن حماد بن سلمة عن هشام بن عمرو عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن عليّ أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- كان يقولُ في آخر وترِه: "اللَّهم إنِّي أعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمعافاتِكَ من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءٌ عليك، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسِكَ".

والجوابُ: أن هذا الاعتراضَ من فاسدِ الفهْم الذي أدخلَه عليهم الشيطانُ -لعنه الله- وذلك أنَّهم حَسِبوا أنَّ الرِّضا والمعافاةَ من خَلْقه تعالى، جَرْياً على سُنَّتِهم في أنَّ الله تعالى لا يقوم به اختيارٌ ولا مَشيئة، والرِّضا والمعافاةُ إنَّما يتعلَّقان بالمشيئةِ، وكلُّ ما تعلَّقَ بالمشيئة فهو مخلوقٌ.

وهذا الأصل الفاسِدُ جرَّهم إلى الوقوع في تعطيل جميعِ الصفاتِ الاختيارية، كالرِّضا، والغَضبِ، والرَّحْمةِ، والرَّأفةِ، والحُبِّ، والبُغْضِ، والإنْعام، والانتقامِ، وغيرِها مَما يتعلَّقُ بمشيئتهِ تعالى واختيارِه.

والحَقُّ الأبلجُ الذي يبهَرُ أبصارَ أهلِ البِدَع أنَّه تعالى تقومُ به الصِّفاتُ الاختياريةُ، والاستعاذة بالرِّضا والمعافاةِ، استعاذةٌ بصفته تعالى، إذ رضاهُ تعالى صفتهُ التي يرضى بها عمَّنْ

قال الترمذي: "حديث حسنٌ غريبٌ من حديث عليّ، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، من حديث حماد بن سلمة".

قلت: إسناده صحيح، وهشام هذا هو الفَزاري معروف برواية هذا الحديث، وهو ثقة.

وقد رواه عن عليّ أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن عَبْدٍ القاري.

أخرجه النسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (891، 892).

وإسناده منقطع، إبراهيم عن علي مرسل.

شاءَ من عبادِهِ، ومعافاتُهُ صفَتُهُ التي يُعافي بها من شاءَ من عبادِهِ، والمخلوق إنَّما هو العافيةُ الموجودةُ في الناس، والتي كانت بمعافاتِهِ تبارك وتعالى، فتأمَّل هذا رحِمَكَ الله ترشَد إن شاءَ الله.

2 - **حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((**فَضْلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِهِ**)). (1)

تضمَّن هذا الحديث إثباتَ عقيدةِ السَّلَفِ (القرآن كلام الله غيرُ مخلوق) وذلك من وجهين:

الأوَّل: التفريق بين كلام الله وما سِواه من الكلام، والكلامُ إما كلامُ الله الذي هو صفته، أو الكلامُ المخلوق الذي يقَعُ من خلقِهِ، فأضافَ ما كانَ صفةً لله إلى الله، وعمَّمَ ما سِواهُ، ليشمَلَ كلَّ كلام سوى ما أضافه إلى الله، ولو كان الجميعُ مَخْلوقاً لما كانت هناك حاجة إلى التفريق.

والثاني: جعلَ الفَرْقَ بينَ كلام الله وكلام غيره كالفَرْقِ بينَ ذاتِ الله وذاتِ غيره، فجعلَ كلامَه مساوياً لذاتِهِ، وكَلامَ المخلوقِ مساوياً لذات المخلوقِ، ولو كان كلامُهُ مخلوقاً لم يساوِهِ بذاتِهِ، فإنَّ الله تعالى ليسَ يُساويه شيءٌ غيرُ صفاتِهِ وأسمائِهِ.

---

(1) أخرجه عثمان الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم: (287، 340)، واللالكائي رقم: (557).

وقد احتجَّ بهذا الإمام عثمان بن سعيد الدَّارِمِيُّ في "الردِّ على الجهمية" فقال بعدَما ذكَر الأحاديثَ في هذا المعنى:

"ففي هذه الأحاديث بيانُ أنَّ القرآنَ غير مخلوقٍ, لأنَّه ليس شيءٌ من المخلوقينَ من التفاوت في فَضْلِ ما بينهما كما بين الله وبينَ خلقِهِ في الفَضْلِ, لأنَّ فَضْلَ ما بين المخلوقين يُسْتَدْرَك، ولا يُسْتدركُ فَضْلُ الله على خلقِهِ، ولا يُحْصِيهِ أحَدٌ، وكذلك فَضْلُ كلامهِ على كلام المخلوقين، ولو كانَ مخلوقاً لم يكن فضْلُ ما بينَه وبين سائر الكلام كفضْلِ الله على خلقهِ، ولا كَعُشْرِ عُشْرِ جُزءٍ من ألفِ ألفِ جُزْءٍ، ولا قريباً فافْهَموه، فإنَّه ليسَ كمثله شيءٌ, فليسَ كَكَلامِهِ كلامٌ، ولن يُؤْتى بمثلِهِ أبداً". (1)

ج-الأدلة من المعقول الصريح:

وذلك من وجهين:

الأول: أنَّ كلامَ الله إنْ كانَ مخلوقاً، فلا يخلو من أحَدِ حالَيْن:

الأولى: أنْ يكونَ مخلوقاً قائماً بذاتِ الله.

والثانية: أنْ يكونَ منفصلاً عن الله بائناً عنه.

وكلا الحالين باطلٌ، بل كفرٌ شنيعٌ.

---

(1) "الرد على الجهمية" ص: 162 - 163.

أمّا الأولى فيَلزَمُ منها أن يقوم المخلوقُ بالخالقِ، وهو باطلٌ في قولِ أهلِ السُّنَّةِ، وعامَّةِ أهلِ البِدَعِ، فإنَّ الله تعالى مُستغنٍ عن خلقهِ من جميع الوجوهِ.

وأمّا الثانية فيلزَمُ تعطيلُ صفَةِ الكلام للباري تعالى، إذْ أنَّ الصفةَ إنَّما تقومُ بالموصوف – كما سبق تقريرةُ– لا تقومُ بسِواه، فإنْ قامَتْ بغير الموصوف كانت وصفاً لمن قامتْ به، وهذا معناه أنَّ الرَّبَّ تعالى غيرُ متكلّمٍ، وهو كفرٌ بَيِّنٌ، كما بَيَّنا الدلالةَ عليه.

والثاني: علمتَ أنَّ الصفةَ لا تقومُ بنفسِها، فإن كانتْ صفةً للخالق قامت به، وإن كانتْ صفةً للمخلوقِ قامتْ به ولا بدَّ، فالحركةُ، والسُّكونُ، والقيامُ، والقعودُ، والقدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والحياةُ، وغيرُها من الصِّفاتِ، إن أضيفت لشيءٍ كانت وصفاً لهُ، وهي تابعةٌ لمن قامَتْ به، فهذه صفاتٌ تُضاف للمخلوقِ، فهي صفات له حيث أضيفتْ له، ومنها ما يُضافُ إلى الخالق، كالقُدْرةِ والإرادةِ والعلمِ والحياةِ وغيرِ ذلك، فهي صفاتٌ له حيثُ أضيفت له، وحيثُ أضيفت للمخلوقِ فهي مخلوقةٌ، وحيثُ أضيفت للخالقِ فهي غير مخلوقةٍ.

فصفةُ الكلامِ كغيرها من الصِّفاتِ، لا بدَّ أن تقومَ بمَحَلٍّ، فإذا قامت بمَحَلٍّ كانت صفةً لذلك المحَلِّ، لا صفةً لغيرِهِ، فإنْ هى أضيفت إلى الخالق تعالى فهيَ صفتُهُ، وإنْ أضيفتْ إلى غيرِهِ فهي صفةٌ لذلك الغيرِ، وصفةُ الخالقِ غير مخلوقةٍ كنفسهِ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ كنفسهِ.

فلمَّا أضافَ الله لنفسه كلاماً، ووصَفَ نفسَهُ به، كان كلامُهُ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه تابعٌ لنفسِهِ، ونفسُهُ تعالى غيرُ مخلوقةٍ، والكلامُ في الصِّفات فَرْعٌ عن الكلامِ في الذاتِ.

فإنْ قيلَ: هو مخلوقٌ، قُلْنَا: إذاً يتنزَّهُ الله عن الاتّصافِ بمخلوقٍ، وأنتم تنزهونه تعالى بزَعْمِكُمْ عن قيام الحوادث به، فحيثُ نزّهتم ربَّكم تعالى عن ذلك فإنَّه يلزمُكُم أن لا تضيفوا إليه كلاماً، وبهذا تكذّبون السَّمْعَ والعقل الشاهِدَيْنِ على أنَّ لله تعالى صفةَ الكلام، كما قدْ بيَّناه فيما مضى.

لكنَّهم أبَوُا الإقرار بأنَّ كلامَ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ بأدهى ممَّا سبَقَ من الباطل، فقالوا: نُثْبِتُ أنَّ الله متكلمٌ بكلامٍ قائمٍ في غيرِهِ، فكلَّم الله تعالى موسى بكلامٍ مَخلوقٍ قائمٍ بالشَّجَرة، لا بهِ تعالى، فنحن نزَّهناه عن قيام الحوادث بهِ.

قُلْنا: جعلتُمُ الكلامَ إذاً صفةً للمَحَلِّ الذي قامَ به، وهو على قولِكم الشَّجَرةُ، فكانت الشجرةُ بهذا هي القائلةُ لموسى: **{يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [القصص: الآية: ٣٠]، فانتفى حينئذ الفرقُ بين قولِ الشَّجرةِ وقول فرعونَ اللَّعين: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [النازعات: الآية: ٢٤]؛ لأنَّ كلامَ الشجرةِ صفَتُها لا صفةُ الله، وكلامَ فرعونَ صفتُهُ، وكلٌّ ادَّعى الربوبيَّة، فلم يكن موسى إذاً محِقّاً في إنكارهِ قولَ فرعونَ وقبولهِ قولَ الشجرةِ.

سُبحان الله! كم تجُرُّ البدعُ على أهلِها من المحاذير؟

تأمَّل رحِمَكَ الله لهذا الكُفْرَ الصُّراح، الَّذي أوقعَ أهلَه فيه الابتداعُ المشِينُ، وعدَمُ الرِّضا والتَّسليم لحَقائق التَّنزيلِ، واستبدالُ الوحي الشريفِ بزُبالاتِ الأذْهانِ التي تُصَرِّفها الأهواءُ كيف شاءَت.

ولقد كانتْ هذه الحجَّةُ العَقْليَّة ممَّا احتَجَّ به الإمامُ أحمدُ رحمه الله على الجَهْميةِ المعتزلةِ حين ناظرَهم بحضْرَة المعتصِم، قال رحمه الله:

"وهذه قصَّةُ موسى، قال الله في كتابهِ حكاهُ عن نفسهِ: **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى}** [النساء: الآية: ١٦٤]، فأثبتَ الله الكلامَ لموسى كرامةً منه لموسى، ثمَّ قالَ بعدَ كلامهِ له **{تَكْلِيمًا}** تأكيداً للكلامِ، قالَ الله تعالى: يَا مُوسَى **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}** [طه: الآية: ١٤]، وَتُنْكرونَ هذا، فتكونُ هذه الياءُ تَرِدُ على غير الله، ويكونُ مخلوقٌ يدَّعِي الرُّبوبية؟! ألَا هو الله عَزَّ وجَلَّ". (1).

وكذا احتجَّ بهذه الحُجَّة من أئمَّة السَّلَفِ

الثِّقةُ المأمونُ أبو أيوب سليمانُ بن داودَ الهاشميُّ–رحمه الله–(ت: ٢١٩ هـ)، فقال:

"مَنْ قالَ: القرآن مخلوقٌ فهو كافرٌ، وإن كانَ القرآنُ مخلوقاً كما زعمها فَلِمَ صارَ فرعونُ أولى بأنْ يُخَلَّدَ في النَّارِ، إذْ قالَ: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [النازعات: الآية: ٢٤]، وزعَموا أنَّ هذا مخلوقٌ، والذي قال: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** [طه: الآية: ١٤]، هذا أيضاً قد ادّعى ما ادّعى فرعونُ، فَلِمَ صارَ فرعونُ أولي بأن يُخَلَّدَ في النَّارِ من هذا، وكلاهُما مخلوقٌ؟ ".

---

(1) رواه حنبل في "المحنة" ص: 52 عنه.

قال البُخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): فأخْبِرَ بذلكَ أبو عُبَيْد (1) فاستحسَنه وأعجَبه. (2).

د-كلام أئمه السلف في إثبات هذه العقيدة:

1-**عمرو بن في دينار-رحمه الله-(ت: مابين: ١٢٥إلى ١٢٩ هـ)** (من خيار أئمَّةِ التَّابعينَ):

قال: "أدركتُ أصحابَ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- فَمَن دونَهم منذ سبعينَ سنة، يقولون: الله الخالقُ، وما سِواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خَرجَ وإليه يعودُ". (3)

٢-قال إسحاقُ بن راهوَيْهِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ):

---

(1) أبو عُبَيد هو القاسم بن سلاَّم-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ) لغويُّ أهلِ الحديث.

(2) "خلق أفعال العباد" رقم (59) عن سليمان به.

(3) أخرجه الدارمي في " الردّ على الجهمية" رقم (344) و"النقض على المريسي" ص: 116 والبيهقي في "السنن" 10/ 205.

"وقد أدْرَكَ عَمْرُو بن دينارٍ أجلّةَ أصحابِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، من البَدْريينَ، والمهاجِرينَ، والأنصار، مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيدٍ الخُدْري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وأجلّة التابعين، وعلى هذا مضى صدرُ هذه الأمَّةِ". (1)

٣-**جَعفر بن محمَّد بن عليّ بن الحُسَين المَعروف بـ "الصادق"-رحمه الله-(ت: ١٤٨ هـ)** (إمامٌ ثقَةٌ سُنّيٌّ):

قال معاويةُ بن عمَّارٍ الدُّهْنِيُّ-رحمه الله-(ت: ١٧٥ هـ): قلْتُ لجَعْفر -يعني ابنَ محمد- إنَّهم يسألون عن القرآنِ: مخلوقٌ هو؟ قال:

"ليس بخالِقٍ ولا مَخلوقٍ، ولكنَّه كلامُ الله". (2).

---

(1) قول إسحاق هذا زاده البيهقي في "السنن" 10/ 205 و"الأسماء والصفات" ص: 245 عقب قول عمرو بن دينار، وسنده صحيح.

(2) أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (109) والدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (345) و"النقض على المريسي" ص: 116 وعبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (132 - 134) وأبو داود في "المسائل" ص: 265 والآجري في "الشريعة" ص: 77 البيهقي في "الأسماء" ص: 246 - 247 و"الاعتقاد" ص: 107 من طريق معاوية به.

٤-**مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)** (إمام دار الهجرة):

قال عبد الله بن نافع-رحمه الله-(ت: ١٨٦ هـ): كان مالكٌ يقول: "كلَّم الله موسى -صلى الله عليه وسلم- " ويقول: "القرآنُ كلامُ الله" ويستفظِع قولَ من يقول: القرآن مخلوق. (1).

٥-**سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ) (إمامٌ حُجَّةٌ)**:

سئل عن القرآن؟ فقال: "كلامُ الله، وليس بمخلوقٍ". (2).

٦-**عبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ) (ذاكَ العَلَم)**:

قال: "القرآنُ كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ليسَ بخالقٍ ولا مَخلوقٍ". (3).

٧-**أبو عبد الله الشَّافعيُّ الإمامُ-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)**:

قالَ الرَّبيعُ بن سُلَيْمان-رحمه الله-(ت: ٢٧٠ هـ) صاحبهُ وتلميذُهُ حاكياً المناظرةَ التي جَرَتْ بينَهُ وبينَ حفْصٍ الفَرْدِ في القرآن:

---

(1) رواه صالح بن أحمد في "المحنة" ص: 66 بسند صحيح عنه.

(2) أخرجه أبو داود في "المسائل" ص: 265 بسند جيد عنه.

(3) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (144) وسنده صحيح، وكذا رواه اللالكائي رقم (426).

فسألَ الشَّافعيَّ، فاحتجَّ عليه الشافعيُّ وطالَت فيه المناظرةُ، فأقامَ الشَّافعيُّ الحُجَّةَ عليهِ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وكفَّر حَفْصاً الفَرْدَ.

قال الرَّبيعُ:

فلقيتُ حفْصاً الفَرْدَ في المجْلسِ بَعْدُ، فقال: أرادَ الشَّافعيُّ قَتْلي. (1)

٨-**وكيعُ بن الجرَّاح-رحمه الله-(ت: ١٩٧ هـ)** (أحدُ كبارِ الحُفَّاظ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله عزَّ وجَلَّ ليسَ بالمخلوقِ". (2)

٩- **يحيى بن سعيد القطَّان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)** (رأسٌ في الحَديثِ وعِلَلِهِ):

قال الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ): قالَ لي يحيى بن سعيدٍ:

"كيف يصْنَعونَ بـ **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [الإخلاص: ١]؟ كيف يَصْنَعونَ بهذه الآية: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ}؟ يكونُ مخلوقاً؟ ". (3)

١٠-**يزيد بن هارون-رحمه الله-(ت: ٢٠٦ هـ)** (من كبار أئمَّةِ الحَديثِ):

---

(1) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في "آداب الشافعي" ص: 194 - 195 وسنده صحيح..

(2) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (151) بسند صحيح.

(3) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (157) بسند صحيح. وكذا أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (30) عن الطيالسي نحوه.

قال: "مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ فهو كافرٌ". (1)

١١-**عبد الله بن إدريس-رحمه الله-(ت: ١٩٢ هـ)** (ثِقَةٌ ثَبْتٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ومنَ الله، وما كانَ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ فليسَ بمخلوقٍ". (2)

١٢-**أبو الوليد الطَّيالِسي: هشامُ بن عبد الملك-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)** (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، وكلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ". (3)

١٣-**سليمان بن حَرْبٍ-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ)** (ثِقَةٌ جَبَلٌ صاحبُ سُنَّة):

قال عباسُ بن عبد العظيم-رحمه الله-(ت: ٢٤٦ هـ)، -وكان ثِقَةً- سمعتُ سُليمانَ بن حَرْبٍ قال:

"القرآنُ ليسَ بمَخلوقٍ".

فقلت له: إنَّكَ كنتَ لا تقولُ هذا، فما بَدا لكَ؟

---

(1) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 268 بسند صحيح.

(2) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (161) بسند صحيح.

(3) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 266 بسند صحيح.

قالَ: "استَخْرَجْتُهُ من كتاب الله عَز وجَل: **{لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ}** [آل عمران: الآية: 77] فالكلام والنظرُ واحدٌ". (1)

١٤-الإمام أحمدُ بن حَنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) إمام أهل السُّنَّة:

النَّقْلُ عنه في ذلك متواترٌ، والناقلونَ عنه لا يُحصيهم العدُّ، وكَفى ما كان منه في المِحْنَةِ مع الجهميةِ المعتزلةِ القائلين بخلقِ القرآن، وقد تقدَّم ذكرُ بعضِ النقلِ عنه، وسيأتي بعض ذلك متناثِراً.

وممَّا يَحْسُنُ ذكرُهُ هنا ما قالَه الإمام أحمدُ جواباً لسؤالِ المتوكّلِ عن مسألة القرآنِ:

"وقد رُويَ عن غير واحدٍ ممَّن مَضى من سَلَفِنا رحمهم الله أنَّهم كانوا يقولون: القرآنُ كلام الله عَزَّ وجَلَّ، وليس بمخلوقٍ، وهو الذي أذْهَبُ إلَيهِ، ولسْتُ بصاحبِ كلامٍ، ولا أرى الكلامَ في شَيْءٍ من هذا، إلاَّ ما كانَ في كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ، أو في حديثٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن أصحابِهِ، أو عنِ التابعينَ، فأمَّا غير ذلك فإنَّ الكلامَ فيه غيرُ مَحْمودٍ". (2)

وقال حنبلٌ: سمعتُ أبا عبد الله يقولُ:

---

(1) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (169) عن عباس عنه به.

(2) رواه صالح في "المحنة" ص: 122 وعبد الله في "السنة" رقم (108) عن أبيهما.

"لم يَزَل الله -عَزَّ وَجَلَّ- متكلِّماً، والقرآنُ كلامُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- غيرُ مخلوقٍ، وعلى كلِّ جِهَةٍ، ولا يوصَفُ الله بشَيْءٍ أكثرَ ممَّا وصَفَ به نَفْسَهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ". (1)

15 -يحيى بن مَعين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ) (إمامُ الجَرْحِ والتَّعديلِ) وأبو خيثمة زُهَيْر بن حَرْب-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ) (حافظٌ إمامٌ ناقِدٌ):

قالا: "القرآنُ كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهو غيرُ مَخْلوقٍ". (2)

16-أبو بكر بن أبي شَيْبَة-رحمه الله-(ت: ٢٣٥ هـ) (حافظٌ إمامٌ مُصَنِّفٌ):

قال له رجُلٌ من أصحابِهِ: القرآنُ كَلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ، فقال أبو بكر:

"مَنْ لَمْ يَقُلْ هذا فهو ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ". (3)

17-**عثمان بن أبي شَيْبَةَ-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ)** (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ". (4)

18-**جماعةٌ من شُيوخ أبي داودَ السِّجِستاني صاحب "السُّنن"**:

---

(1) رواه حنبل في "المحنة" ص: 68 وانظر ص: 74.

(2) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (173) بسند صحيح، وانظر "تاريخ يحيى" رواية الدوري 3/ 335.

(3) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (162) عنه به.

(4) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (163) عنه به.

قال أبو داود–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ):

سمعتُ إسحاقَ بن إبراهيمَ بن راهُوَيهِ–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ)، وهَنَّادَ بن السَّريّ–رحمه الله–(ت: ٢٤٣ هـ)، وعبدَ الأعلي بنَ حمَّادٍ–رحمه الله–(ت: ٢٣٧ هـ)، وعُبيدَ الله بن عُمَر بنِ مَيسرةَ القواريريَّ–رحمه الله–(ت: ٢٣٥ هـ)، وحكِيم بن سيفٍ الرَّقيَّ–رحمه الله–(ت: ٢٣٥ هـ)، وأيوبَ بن محمَّدٍ–رحمه الله–(ت: ٢٤٦ هـ)، وسَوّارَ بنَ عبد الله–رحمه الله–(ت: ٢٤٥ هـ)، والرَّبيعَ بن سليمان–رحمه الله–(ت: ٢٧٠ هـ)–صاحبَ الشَّافعيّ–، وعبدَ الوهّابِ بن الحَكَم–رحمه الله–(ت: ٢٥١ هـ)، ومحمَّدَ بن الصَبّاح بنِ سُفيانَ–رحمه الله–(ت: ٢٤٠ هـ)، وعُثمانَ بن أبي شَيْبَة–رحمه الله–(ت: ٢٣٩ هـ)، ومحمَّدَ بنَ بَكّارِ بنِ الرَّيَّانِ–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ)، وأحمدَ بن جَوَّاس الحَنَفيَّ–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ)، ووَهْبَ بن بَقِيَّةَ–رحمه الله–(ت: ٢٣٩ هـ)، ومَن لا أحْصيهم من عُلمائِنا، كلُّ هؤلاءِ سَمِعْتُهم يقولونَ:

"القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ".

وبعضهُم [قال: "القرآنُ] غيرُ مخلوقٍ". (1)

---

(1) "المسائل" لأبي داود ص: 266.

قلتُ: وجميعُ هؤلاءِ الشيوخِ من أئمَّة الحديثِ، وكلُّهم ثِقاتٌ، سِوى حَكيم بن سَيْف فإنَّه صالحٌ لا بأس به.

19-**عليُّ بن المديني-رحمه الله-(ت: ٢٣٤ هـ)** (صَيْرَفيّ الحَديثِ وأهلِهِ).

قال محمَّدُ بن عثمانَ بن أبي شَيْبة-رحمه الله-(ت: ٢٩٧ هـ): سمعتُ عليَّ بن المدِيني يقولُ قبلَ أن يموتَ بشَهرين:

"القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: مخلوقٌ، فهو كافرٌ". (1)

٢٠-**أبو يعقوب البُوَيْطيّ-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ)** (تلميذُ الشافعي وخرّيجُهُ):

قال:"مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ، فهو كافرٌ". (2)

٢١-**المُزَنيُّ: إسماعيل بن يحيى-رحمه الله-(ت: ٢٦٤ هـ)** (إمامٌ فَقيهٌ، من أخَصّ أصحابِ الشافعي به):

---

(1) أخرجه ابن الطبري في "السنة" رقم (453) والخطيب في "تاريخ بغداد" 11/ 472 بسند صحيح، وانظر "مسائل ابن أبي شيبة لابن المديني" نص: (113).

(2) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 268بسند صحيح عنه.

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فهو كافرٌ". (1)

٢2-**البخاريّ: محمَّد بن إسماعيل-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)** (إمامُ المحدّثين):

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ". (2).

٢3-**أبو حاتمٍ-رحمه الله-(ت: ٢٧٧ هـ) وأبو زُرْعَة-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ)** الرّازيانِ (عالمانِ حافظانِ، من كبارِ أئمَّةِ الحديثِ):

قال عبدُ الرَّحمن بن أبي حاتِم-رحمه الله-(ت: ٣٢٧ هـ):

سألتُ أبي وأبا زُرْعةَ عن مَذاهبِ أهل السُّنَّة في أصولِ الدّينِ، وما أدركا عليه العلماءَ في جميع الأمصارِ، وما يَعْتَقِدان من ذلك؟

فقالا: "أدْرَكْنَا العُلَماءَ في جَميع الأمصار: حِجازاً، وعِراقاً، وشاماً، ويَمَناً، فكان من مذهبهم: الإيمان قولٌ وعَمَلٌ يَزيدُ وينقصُ، والقرآنُ كلامُ الله غير مخلوقٍ بجميع جهاتِهِ". (3)

فهؤلاءِ بِضْعةٌ وثلاثونَ من الأئمَّةِ، قد سمّيناهم، عامَّتهم ممَّن يُقْتَدى بهم، وجميعهم من أهلِ القُرونِ المُفَضَّلَة التي هي خيرُ القرون.

---

(1) رواه البيهقي في "الأسماء والصفات" ص: 252 بسند صحيح، ورواه هو وابن الطبري بإسنادين آخرين عنه.

(2) "خلق أفعال العباد" ص: 37.

(3) أخرجه ابن الطبري في "السنة" 1/ 176 بسند صحيح.

٢٤-قال الإمام أبو عثمانَ الصابونيُّ-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ):

"ويشهَد أصحابُ الحديث، ويعتقدونَ: أنَّ القرآنَ كلام الله وكتابُه، وخِطابُه، ووحيُهُ، وتنزيلُهُ، غيرُ مخلوقٍ، ومَنْ قالَ بِخَلْقِهِ واعتقدَه فهو كافرٌ عندهم". (1)

ولو أرَدْنا استيعاب ما بلَغنا من أقوالهم في إثباتِ هذه العقيدةِ (القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ) لاحتاجَ ذلك إلى تصنيفٍ مُستقلٍّ.

وقد ساقَ الإمامُ أبو القاسِم هبةُ الله بن الحَسَن الطَّبريُّ اللَّالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) في كتابه العَظيم (شرحِ أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) أو (كتاب السنة) القولَ بذلك عن خَمْسِ مِئَةٍ وخَمسينَ نَفْساً من علماءِ الأمَّةِ وسَلَفِها، كلُّهُم يقولونَ: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال: مخلوقٌ، فهو كافرٌ".

قال رحمه الله: "فهؤلاء خَمْسُ مِئَةٍ وخمسونَ نَفْساً أو أكثر، من التَّابعينَ، وأتباع التَّابعينَ، والأئمةِ المرْضيينَ، سوى الصحابة الخيّرين، على اختلاف الأعصارِ، ومُضِيّ السّنين والأعوامِ، وفيهم نحوٌ من مِئة إمامٍ، ممَّن أخذَ الناسُ بقَوْلهم، وتَديَّنوا بمَذاهبهم، ولو اشتغلتُ بنقلِ قولِ المحَدِّثينَ لبلَغتْ أسماؤهم ألوفاً كثيرةً". (2).

---

(1) "رسالته في السُّنَّة" نص/6.

(2) كتاب "السنة" رقم (493).

قلتُ: وفيما ذُكر كفايةٌ لإثباتِ الحَقِّ البيّن الصَّريحِ الذي أطبقَ على اعتقادهِ سادةُ علماءِ الأمَّة، فهو إجماعُ أهلِ السُّنَّة الَّذي لا يقعُ فيهِ امتراءٌ، والله أعلم. (1)

هـ–مسألة القائلين بالتوقف.

أما مَسْألة السُّكوتُ عن القولِ: القرآنُ مَخلوقٌ، أو غيرُ مَخلوقٍ، والاكتفاء بالقول: إنَّه كلامُ الله.

فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): هَلْ لهم رُخْصَةً أنْ يقولَ الرجلُ: القرآن كلام الله تعالى ثمَّ يَسْكت؟ فقالَ: "ولِمَ يسكُت؟ لولا ما وقَعَ فيه الناس كان يسَعُهُ السُّكوتُ، ولكن حيثُ تكلَّموا فيما تكلَّموا لأيِّ شيءٍ لا يتكلَّمون؟ ". (2)

---

(1) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

(2) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 263 – 264ومن طريقه: الآجري ص: 87 وإسماعيل بن الفضل ق 114/أ.

قال الحافظ أبو بكر الآجُريُّ–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ):"معنى قول أحمدَ بن حنبل في هذا المعنى، يقول: لم يختلفْ أهلُ الإيمان أنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ، فلمَّا جاءَ جَهْمٌ فأحْدَثَ الكُفْرَ بقولِهِ: إنَّ القرآن مخلوقٌ، لم يسَع العلماءَ إلاَّ الرَّدُّ عليه بأنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ غيرُ مخلوقٍ بلا شكٍّ ولا تَوقُّفٍ فيهِ، فمَنْ لم يَقُلْ: غيرُ مخلوقٍ، سُمّيَ واقفيّاً شاكاً في دينه". (1)

وقال أحمدُ أيضاً: "كنا نرى السُّكوتَ عن هذا قبلَ أن يخوضَ فيه هؤلاء، فلمَّا أظهروهُ لم نَجِدْ بُدّاً من مُخالفتهم والرَّدِّ عليهم". (2)

والأئمةُ جميعاً على إنكارِ مَسْلَكِ هؤلاءِ، والتَّشديد عليهم، وتَبْدِيعهم، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل أشدُّهم إنكاراً.

قال أبو داود السِّجِستانيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ): سمعتُ أحمدَ ذَكَرَ رَجُلينِ كانا وَقَفا في القرآنِ، ودَعَوَا إليه، فجعَلَ يَدعو علَيْهما، وقالَ لي: هذا لأحدِهما فِتْنةٌ، وجعَلَ يذكرهما بالمكْروهِ. (3)

---

(1) "الشريعة" للآجري ص: 87.

(2) ذكره عنه عثمان الدارمي في "النقض على المريسي" ص: 110.

(3) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 264 ومن طريقه الآجري ص: 87.

وقالَ: رأيتُ أحمدَ سلَّمَ عليه رجلُ من أهْلِ بغداد ممَّن وقَفَ-فيما بلَغني-فقال: "اغْرُبْ، لا أرَينَّكَ تَجِيءُ إلى بابي-في كلام غَليظ-" ولَمْ يرُدَّ عليه السَّلامَ، وقالَ لَهُ:

"ما أحوَجَكَ إلى أنْ يُصْنَعَ بك ما صنَعَ عُمَرُ بصَبِيغٍ".

قال أبو داودَ: فهَّمَني بصَبيغ بعضُ ولَد أحمدَ - [فدخَلَ بيتَه وردَّ البابَ]. (1)

وقالَ أبو طالب: سألتُ أبا عبد الله عمَّن أمسكَ، فقال: لا أقولُ ليسَ هو مخلوقاً، إذا لَقِيَني بالطريقِ وسلَّمَ عليَّ، أسَلِّمُ عليه؟

قال: "لا تُسَلِّمْ عليه، ولا تكلِّمْهُ، كيفَ يعرفُه الناسُ إذا سلَّمتَ عليْهِ؟ وكيفَ يعرفُ هو أنَّك مُنكرٌ عليه، فإذا لَمْ تُسَلِّم عليه عَرَفَ الذّلَّ، وعرفَ أنك أنكرتَ عليه، وعرفهُ النَّاسُ". (2)

---

(1) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 264ومن طريقه: الآجري ص: 87. وصَبيغ هذا بصريٌّ قَدِم على عُمَر فكان يجادل في متشابه القرآن، فجلَده عمر رضي الله عنه لذلك، وقصته صحيحة مشهورة، رويت موصولةً بسند صحيح عند ابن عساكر 8/ 117/أوغيره، ورويت مرسلةً من وجوه متعددة..

(2) رواه الآجري ص: 88 بسند صحيح.

وقال أبو داودَ: سمعتُ أحمدَ وقيلَ له: ما تَرى في الصَّلاةِ خَلْفَ من يقولُ في القرآنِ: كلامُ الله، ويَقِفُ؟ قال: "يُعْجِبُني أنْ يُجْفَوا". (1)

وقال الإمامُ أحمدُ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "افترقَت الجَهميَّةُ على ثَلَاثِ فِرَق: فِرْقَةٍ قالوا: القرآنُ مخلوقٌ، وفرقةٍ قالوا: كلامُ الله وتسْكُتُ، وفرقةٍ قالوا: لفظُنا بالقرآنِ مخلوقٌ". (2)

ومقالاتُ الإمام أحمدَ فيهم كثيرةٌ مُستفيضةٌ، وكذا عن غيرِه من أئمَّةِ السُّنَّة، فمِنْ ذلك:

1 – **قال مُهَنّا أبو عبد الله السُّلَميّ–رحمه الله–(ت: ٢٦٠ هـ تقريبًا) (وكان من خيار أصحاب أحمد)**:

سألتُ أحمدَ بن حنبل بعدَ ما أخْرِجَ من السِّجنِ بسنتين: ما تقول في القرآنِ؟ فقَالَ: "كلامُ الله غيرُ مخلوق" وقال: "مَن رَوى عنّي غيرَ هذا القولَ فهو مُبْطِل" قلتُ له: إنَّ بعضَ مَن ذكَرَ

(1) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 264.
(2) رواه صالح في "المحنة" ص 72 عن أبيه به.

عنك أنَّك قلتَ له: هو كلام الله، لا مَخلوق ولا غيرُ مخلوق، ولكن هو كلام الله، فقال أحمد: "أبْطَلَ، ما قلتُ هذا، ولكنَّه هو كلامُ الله غير مخلوقٍ". (1)

2 - **وقالَ سلَمةُ بن شَبيب-رحمه الله-(ت: ٢٤٦ هـ)**: دخلتُ على أحمد بن حنبل فقلتُ: ما تقول فيمن يقول: القرآن كلامُ الله؟ فقال أحمد: "مَنْ لم يَقُلْ: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو كافرٌ".

ثمَّ قالَ: "لا تَشُكَّنَّ في كُفْرِهم، فإنَّ مَن لم يَقُلِ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو يقول: مخلوقٌ، ومَن قال: هو مخلوقٌ، فهو كافر بالله عزَّ وجَلَّ".

قال سلمَةُ: وقلتُ لأحمدَ: الواقفة كفّارٌ؟ فقال:"كفّارٌ". (2)

3 - **وقال عبد الله بن أحمدَ-رحمه الله-(ت: ٢٩٠ هـ)**: سمعتُ أبي -وسُئلَ عن الواقفة- فقال أبي:

---

(1) رواه عبد الله في "السنة" رقم (529) عن مهنّا عن أحمد.
(2) رواه ابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد" ص: 157 بسند جيد.

"مَن كانَ يُخاصِمُ ويُعرَفُ بالكلام فهو جَهْميٌّ، ومن لم يُعرَف بالكلام يُجانَب حتى يَرْجِعَ، ومَن لم يكن له عِلمٌ يَسأل". (1)

وقالَ مرَّةً في الواقِفَةِ:"هُمْ شَرٌّ مِن الجهميَّةِ". (2)

قلتُ: لخَفاءِ أمرِهم.

4 - **وقال إسحاقُ بن راهُوَيْهِ–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ)** (الإمامُ الفقيهُ الحافِظُ):

"مَنْ قالَ: لا أقولُ: القرآنُ مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ، فهو جَهميٌّ". (3)

5 - **وقال قُتَيبةُ بن سعيد–رحمه الله–(ت: ٢٤٠ هـ)** (وهو ثِقَةٌ ثَبْتٌ حافِظٌ):

"هؤلاءِ -يعني الواقفة- شَرٌّ مِنْهم، ممَّن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ". (4)

6 - **وقال الحافظُ الإمامُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٢٧ هـ)**:

---

(1) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (223).
(2) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (225).
(3) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 270 ومن طريقه الآجري في "الشريعة" ص: 88.
(4) رواه أبو داود في "المسائل" ص:270 ومن طريقه الآجري ص: 88.

"مَن لم يَعْقِدْ قلبَه على أنَّ القرآنَ ليسَ بمخلوقٍ فهو خارجٌ من الإسلام". (1)

7 - **وقال عثمانُ بن أبي شيبة-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ):**

"هؤلاء الذين يقولونَ: كلامُ الله ويسكُتونَ، شَرٌّ من هؤلاء -يعني ممن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ". (2)

8 - **وقال أبو داودَ: سألتُ أحمدَ بن صالح المِصْريَّ-رحمه الله-(ت: ٢٤٨ هـ)** (الحافظ الإمام) عمَّن يقول: القرآن كلامُ الله، ولا يقول: مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ؟ قال: "لهذا شاكٌّ". (3)

9 - **وقال أبو خَيْثَمة-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ) -وسأل يَحيى بن مَعِين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)**، فقال:

---

(1) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 266 بسند صحيح.
(2) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 271 ومن طريقه الآجري ص: 88.
(3) رواه أبو داود ص: 271 وعنه الآجري ص: 88.

إنَّهم يقولون: إنّكَ تقولُ: القرآنُ كلامُ الله، وتَسْكُت، ولا تقولُ: مخلوقٌ، ولا غيرُ مَخلوقٍ، قال: "لا" فعاوَدتهُ، فقال: "مَعاذَ الله، القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ، ومَن قالَ غير لهذا فعليه لعنةُ الله". (1)

10 - وقالَ أبو حاتِمٍ-رحمه الله-(ت: ٢٧٧ هـ)، وأبو زُرْعةَ-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ) الرّازيان الحافظان:

"ومَن شَكَّ في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فوقَفَ شاكّاً فيه، يقولُ: لا أدْري، مَخْلوقٌ أو غير مَخلوقٍ، فهو جَهميّ، ومَن وقَفَ جاهلاً عُلِّمَ، ويُدّعَ ولَمَ يُكَفَّر". (2)

وكذا ذكَر الإمامُ هِبَةُ الله ابنُ الطَّبريّ-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) نحوَ ما ذُكِرَ من الإنكار عن نَحْوِ مِئَةٍ من المحدّثِينَ والفُقَهاء. (3) (4).

---

(1) رواه ابن الطبري في "السنة" رقم (456) بسند صحيح.

(2) رواه ابن الطبري 1/ 178 بسند صحيح.

(3) كتاب "السنة" 2/ 323 - 329.

(4) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

خامسًا: مسألة أنه منه بدأ وإليه يعود.

الجانب الأول: (منه بدأ).

يَعْتَقدُ السَّلَفُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، منه خرجَ وبدأ، تكلَّمَ به بحُروفِهِ ومَعانيهِ، فأسمَعَهُ جبريلَ عليه السَّلام، ونَزل به جبريلُ على قلبِ نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وهو هذا اللِّسانُ العربيُّ المبينُ، النّازلُ بلغةِ قُرَيْشٍ.

الأدلة على ذلك:

وهذا مُبَيَّن في غيرِ مَوْضع من كتاب الله تعالى، فمِنْ ذلك:

1 - قولُه تعالى: **{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** [هود: 1].

2 - وقولُه -عَزَّ وَجَلَّ-: **{تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}** [طه: الآية: 4].

3 - وقولهُ تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}** [النمل: الآية: 6].

4 - وقولُه تعالى: **{الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}** [السجدة: الآيات: 1 - 3].

5 – وقولُه جلَّ وَعَلا: **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...}** [الزمر: الآيات: 1 – 2].

6 – وقولُه تعالى: **{حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا}** [فصّلت: الآيات:1 – 4].

7 – وقولُه تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [فصلت: الآيات: 41 – 42].

فأخبرَ تعالى في هذه الآيات وما يشبَهُها أنَّ القرآنَ العربيَّ الذي هو كلامهُ، إنَّما هو تنزيلُه، نَزلَ منهُ، فمنه بدَأ وَخَرَجَ لا مِنْ سِواه.

8 – وقولُه تعالى: **{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}** [النحل: الآيات: 101 – 103].

فأنبأ تعالى في هذه الآياتِ أنَّ القرآنَ العربيَّ نزَلَ به رُوحُ القُدُس منه، ورُوحُ القُدُس هو جبريلُ عليه السَّلام، كما قال تعالى: **{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}** [البقرة: الآية: 97].

فليسَ هو كلامَ محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-كما زعَمَ الكفَّارُ- ولا كلامَ جبريلَ عليه السَّلام -كما زعمَه بعضُ أهلِ البِدَع- وإنَّما هو كلامُ الله تعالى، منه بدأ وخَرَجَ، وهو الذي أنزلَه بواسطةِ رسولهِ الملَك جبريلَ، فمن قال غير هذا فقَدْ كَفَرَ، لأنَّه كذَّبَ الله في قولِهِ، وجَحَدَ ما أنبأتْ به رسلُه، وإنِ ادّعى الإسلامَ وانتسبَ إليه، فالإسلامُ يَبْرأ منه.

والله تعالى لم يُضِف شيئاً ممَّا أنزله إلى نفسِهِ غيرَ كلامهِ، وذلك لأنَّه صفتُهُ.

تنبيه:

ويجب أن يُعلَمَ أنَّه ليسَ معنى قولهم (منه خَرَجَ) أنَّ صفةَ الكلام فارَقَتْهُ تعالى، وحلَّتْ في غيرهِ، وأنَّ ما تكلَّم به نُسِبَ إلى غيرِه، وصارَ وصفاً لذلك الغَيْر -كما قد وَسْوَسَ به بعضُ أهل البدَع-فإنَّ هذا المعنى لا يُعقَل في حَقّ الإنسانِ المخلوقِ الضَّعيفِ، إذا تكلَّمَ بكلام تزولُ عنهُ صفةُ الكَلام بذلك وتفارقُه إلى غيرِهِ، فإنَّ من كانَ كذلكَ لم يمكِنْه الكلامُ إلاَّ مرّةً واحدةً، فإذا تكلَّمَ هذه المرَّة فارقَتْهُ صفتُهُ، لأنَّ الكلامَ خرَجَ منه وفارقَهُ، وبمفارقته زالتْ عنه الصّفة ولَحِقَتْ غيرَهُ، هذا كلامٌ لا يقوله مَن يَدري ما يقولُ، فإنَّ مَنْ وُصِفَ بالكلام على هذا المعنى موصوفٌ بالعَجْز عنه، وهو غيرُ متصوَّرٍ في حقّ الناطق المخلوق على ضَعْفه، فكيف تصوَّرَهُ هؤلاء الضُّلاَّلُ في حقّ الله الذي ليسَ كمثلهِ شيءٌ، فإنَّه تعالى وصفَ نفسَه بأنَّه متكلمٌ بكلامٍ متعلقٍ بمَشيئتهِ وقُدْرتهِ، يُسْمِعُه من شاءَ من خلقهِ، متى شاءَ، وأنَّ كلماتِهِ تعالى لا تَنْفَدُ، ومن

كان هذا وصْفُهُ لم تفارقْهُ صفَتُهُ بتكلّمِهِ مرَّةً أو مرَّاتٍ، وكانَ كلُّ ما تكلَّمَ به منسوباً إليه لا إلى غيرِهِ.

قالَ الإمام الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٢٧ هـ): "القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ ببائنٍ من الله". (1)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وإنَّ قولَ السَّلَف: (منه بدأ) لم يُريدوا به أنه فارقَ ذاتَهُ، وحَلَّ في غيره، فإنَّ كلامَ المخلوقِ، بل وسائرَ صفاتِهِ لا تفارقُه وتَنْتَقِلُ إلى غيرِهِ، فكيفَ يجوزُ أنْ يفارقَ ذاتَ الله كلامُه أو غيرُهُ من صفاتِهِ". (2)

قالَ الله تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: الآية: 6]** فالَّذي يسمَعُهُ المشْرك المستجيرُ من القارئ إنَّما هو كلامُ الله المضافُ إليه لا إلى غيرِهِ، فلو أن كلامَه بانَ منه وفارقَه لَما صَحَّتْ إضافَتُهُ إليه إضافةَ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ.

وهذا الكلامُ بعَيْنِهِ هو الذي في مَصاحفِ المسلمينَ بلا شَكٍّ ولا ريبٍ، خِلافاً لِلَّفظيةِ من الأشعريةِ وغيرهم القائلينَ بأنَّ ما في المصاحفِ دلالةٌ على كلام الله، وليسَ هو كلامَ الله، وقد قالَ الله تعالى: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ**

---

(1) رواه أبو داود في "المسائل" ص: 266 بسند صحيح عنه.

(2) "مجموع الفتاوى" 12/ 274 وانظر: 12/ 517 – 518، 550،561.

مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة: الآيات: ٧٧-٨٠]، فأبان أنَّ كلامَه الذي هو وحيُهُ وتنزيلُهُ يكونُ في الكتاب المكنونِ، فكذلك كونُه في المصاحفِ، ونحنُ لا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ هذا العربيَّ المنزَلَ، وهو الذي سمَّاه الله تعالى كلامَه.

وقَدْ قالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تُسافِروا بالقرآن إلى أرْضِ العَدُوّ، فإنِّي أخافُ أن ينالَهُ العدوُّ)). (1)

ولا خِلافَ في أنَّ النَّهيَ عن السَّفر بالقرآن، إنَّما هو النَّهْيُ عن السَّفَرِ بالمصاحفِ، لأنَّ القرآنَ إنَّما يكونُ فيها، وهي التي تُحْمَلُ وتُنْقَلُ، ولا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ كلامَ الله المنزَلَ على الحقيقةِ.

---

(1) أخرجه مالك2/ 446, والشافعي رقم (1149، 1150)، وأحمد رقم (4507، 4525، 4576، 5170، 5293)، والبخاري 6/ 133، ومسلم رقم (1869)، وأبو داود رقم (2610)، والنسائي في "فضائل القرآن" -من "الكبرى"- رقم (85)، وابن ماجة رقم (2879، 2880)، من طرق عن نافع عن ابن عمر به مرفوعاً.

وتابع نافعاً عليه عبد الله بن دينار، أخرجه أحمد رقم (6124) وابن أبي داود في "المصاحف" ص: 183 بسند صحيح عنه.

وكذا تابعه سالم عن أبيه، أخرجه ابن أبي داود ص: 179 - 180 بسند صالح في المتابعات.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وممَّا كانَ أحمدُ أنكرَه من قولِ الجهميَّةِ قولُ من زعَمَ أنَّ القرآنَ ليسَ في الصُّدورِ، ولا في المصاحفِ". (1)

الجانب الثاني: (إليه يعود)

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى قوله: وإليه يعود.

القول الأول: وقد تأوَّلَهُ بعضُ أهلِ السُّنَّة بعَودِ تلاوته وقراءته التي هي كَسْبُ العبدِ.

وهذا المعنى حَق، فإنَّه تعالى: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}** [فاطر: الآية: 10]

القول الثاني: يعود إليه نسبة.

أي أنه يعود إلى الله تعالى وصفا، فهو الموصوف به سبحانه وتعالى لا يوصف به أحد سوى الرب سبحانه وتعالى.

---

(1) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

قال ابن النجار الفتوحي–رحمه الله–(ت ٩٧٢ هـ): "قال أحمد: كلام الله من الله ليس ببائن منه. وقد جاء في الأحاديث والآثار "أنه منه بدأ، ومنه خرج، وإليه يعود" نصا منه، ومن غيره عليه.

ومعنى ذلك: أنه هو المتكلم به، أو الذي يخرج منه، ولا يقتضي ذلك أنه يباينه وانتقل عنه. (1)

وقال: ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله. (2)

قال أحمد: منه بدأ وإليه يعود. (3)

وقال: منه بدأ علمه، وإليه يعود حكمه. (4)

وقال تارة: منه خرج، وهو المتكلم به، وإليه يعود، وهو القرآن". (5)

---

(1) ينظر: فتاوى ابن تيمية ١٢/ ٥٢، مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٣٥.

(2) ينظر: مسائل الإمام أحمد ص ٢٦٦.

(3) ينظر: فتاوى ابن تيمية ٢/ ٥١٧.

(4) ينظر: ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة ٢/ ٥١٨.

(5) ينظر: الفتوحي، شرح الكوكب المنير شرح مختصر التحرير ٢/ ٨٨.

القول الثالث: يُسرى به من الأرض في آخر الزمان، كما روي في بعض الآثار أنه إذا لم يعمل الناس بالقرآن، أي: أطبقت الأرض على عدم العمل به، ينزه الله كتابه فيرفعه من صدور الناس ومن مدادهم.

وبهذا جاء الخبرُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغيرِه من أصحابه.

فأمَّا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

١-**عن حذيفة بن اليمان (ت: ٣٦ هـ)، وأبي هريرة-(ت: ٥٧ هـ)-رضي الله عنهما-**، قالا: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((يسرى على كتاب الله ليلا، فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية)). (1)

٢ - عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال:

---

(1) أورده الديلمي في الفردوس ٥/ ٤٨٨ (٨٨٤٨) عن أبي هريرة. وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

((يسرى على كتاب الله عز وجل فيرفع إلى السماء؛ فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور، وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو)). (1)

ومما ورد من الآثار (2):

١-**وعن شَدَّاد بن مَعْقِل-رحمه الله-أنَّ عبد الله بن مسعودٍ-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، قال:

"لَيُنْتَزَعَنَّ هذا القرآنُ من بين أظْهُرِكُمْ".

قال: قلتُ: يا أبا عبد الرَّحمن! كيفَ يُنْتَزَعُ وقد أثْبَتْنَاهُ في صُدورِنا، وأثبتناهُ في مَصاحِفنا؟

قالَ: "يُسْرى عليهِ في ليلةٍ، فلا يَبقى في قَلْبِ عَبْدٍ منه، ولا مُصحَفٍ منه شَيْءٌ، ويُصْبِحُ الناسُ فُقَراءَ كالبَهائم".

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك برقم: ٨٥٤٤، وقال الإمام الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط الإمام مسلم.

(2) كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا، أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٣/ ٣٦٢، وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥٣٤، والبخاري في خلق أفعال العباد، رقم ٣٨١، ٣٨٢، وسعيد بن منصور في السنن ٢/ ٣٣٥، وابن جرير الطبري في التفسير ١٥/ ١٥٨، والبيهقي في السنن ٦/ ٢٨٩.

ثمَّ قرأ عبد الله: **{وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا}** [الإسراء: الآية: 86]". (1)

٢-**عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، من طريق زر بن حبيش- قال: "ليسرين على القرآن في ليلة، فلا تترك آية في قلب رجل ولا مصحف إلا رفعت". (2)

٣-**عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، من طريق عبد الله بن عتبة بن مسعود- قال: "اقرءوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع. قالوا: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يعدى عليه ليلا فيرفع من صدورهم، فيصبحون فيقولون: لكأنا كنا نعلم شيئا. ثم يقعون في الشعر". (3)

٤-**عن حذيفة بن اليمان-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)**، من طريق ربعي بن حراش- قال: "يوشك أن يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون

---

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٥٣٨) وصحَّحه، وأخرجه الطبراني (٨٧٠٠)، وله طُرُقٌ مرفوعةٌ وموقوفةٌ، ذَكَرَ تخريجَها الشوكانيُّ في «فتح القدير» (٣/ ٣٥٨ . ٣٥٩).

(2) أخرجه يحيى بن سلام ١/ ١٦١. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي داود في المصاحف.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٦).

له حلاوة، فيبيتون ليلة ويصبحون وقد أسري بالقرآن وما قبله من كتاب، حتى ينتزع من قلب شيخ كبير وعجوز كبيرة، فلا يعرفون وقت صلاة ولا صيام ولا نسك، حتى يقول القائل منهم: إنا سمعنا الناس يقولون: لا إله إلا الله. فنحن نقول: لا إله إلا الله". (1)

٥-**عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، من طريق أبي حازم- قال: "يسرى على كتاب الله، فيرفع إلى السماء، فلا يبقى في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور، فينزع من قلوب الرجال، فيصبحون في الضلالة، لا يدرون ما هم فيه". (2)

٦-**عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)**، قال: "لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، يقول: أتلى ولا يعمل بي". (3)

٧-**عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)**: "يذهب الناس حتى لا يبقى أحد يقول لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك ضرب يعسوب الدين ذنبه فيجتمعون إليه من أطراف الأرض كما يجمع قزع الخريف. ثم قال علي: إني لأعرف اسم أميرهم ومناخ

---

(1) أخرجه الخطيب في تاريخه ١/ ٤٠٠.

(2) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٠٦. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(3) عزاه السيوطي إلى محمد بن نصر في كتاب الصلاة.

ركابهم، يقولون: القرآن مخلوق. وليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله، منه بدأ وإليه يعود". (1)

٨-**عن عكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ) قال: كان ابن عباس-رضي الله عنهما-** (**ت: ٦٨ هـ**)، في جنازة، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: "اللهم رب القرآن اغفر له. فوثب إليه ابن عباس فقال: "مه، القرآن منه" زاد الصهبي في حديثه فقال ابن عباس: "القرآن كلام الله ليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود". (2)

٩-**عن شمر بن عطية-رحمه الله-(ت: في ولاية خالد القسري)**، قال: "يسرى على القران في ليلة، فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها، فيخرج بعضهم إلى بعض فيلتقون، فيخبر بعضهم بعضا بما قد لقوا". (3)

---

(1) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد ٢/ ٢٥٤ عن علي رضي الله عنه موقوفًا.

(2) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد ٢/ ٢٥٦.

(3) عزاه السيوطي إلى ابن أبي داود، وابن أبي حاتم.

١٠-**عن عمرو بن دينار-رحمه الله-(ت: ١٢٦ هـ)**، يقول: "أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود". (1)

١١- **سفيان الثَّوْري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)**.

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخلوقٍ، منه بَدَأ وإليه يعودُ، مَنْ قال غيرَ هذا فهو كُفْرٌ".

١٢- **أبو بكر بن عيَّاش (ت: ١٩٣ هـ)**.

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ألقاه إلى جبرائيلَ، وألقاهُ جِبرائيلُ إلى محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، منه بدَأ، وإليه يعودُ". (2)

١٣-**سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)**.

سأله رجُلٌ: يا أبا محمَّدٍ، ما تقولُ في القرآنِ؟ فقال: "كَلامُ الله، مِنْهُ خَرجَ وإليه يَعودُ".

١٤- **الإمام أحمدُ بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**.

---

(1) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد ٢/ ٢٦٠. وذكر الحافظ ضياء الدين المقدسي في "اختصاص القرآن" فقرة [6] عشرة أنفس من الصحابة أدركهم عمرو بن دينار فيهم: عبد الله بن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وغيرهم.

(2) جميع هذه الآثار الأربعة صحيحة، انظر تخريجها في التعليق على "اختصاص القرآن" وأثر عمرو قد سبق ذكره.

قال: "لقيتُ الرِّجالَ، والعُلَماءَ، والفُقَهاءَ، بمكَّةَ، والمدِينةِ، والكُوفةِ، والبَصْرةِ، والشامِ، والثُّغورِ، وخُراسانَ، فرأيتُهم على السُّنَّة والجَماعَة، وسألتُ عنها -يعني هذه اللفظة- الفُقَهاءَ؟ فكلٌّ يقولُ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوق، منه بدَأ، وإليه يعودُ". (1)

وقالَ: "لم يَزَلِ الله عالماً متكلّماً، نعبُدُ الله لصِفاتِهِ، غير محدودَةٍ ولا مَعلومةٍ إلَّا بما وصَفَ به نفسه، ونردُّ القرآن إلى عالمِهِ تبارك وتعالى، إلى الله، فهو أعلَمُ به، منه بَدَأ وإليه يَعودُ". (2)

١٥- **أبو جعفر أحمد بن سِنان الواسطي (ت: ٢٥٦ هـ).**

قال: "مَن زَعَمَ أنَّ القرآنَ شَيْئَين أو أنَّ القرآنَ حِكايةٌ، فهو والله الذي لا إله إلاَّ هو، زِنديقٌ كافرٌ بالله، هذا القُرْآنُ هو القُرآنُ الذي أنزله الله على لسانِ جبريلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم-، لا يغيَّر ولا يُبَدَّل: **{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [فصلت: الآية: 42]، كَما قالَ الله عَزَّ وجَلَّ: **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ...}** [الإسراء: الآية: 88]، ولو أنَّ رجلاً حلفَ لا يتكلَّمُ اليومَ، ثمَّ قرأ القرآنَ، أو صلَّى وقرأ القرآنَ، أو سلَّمَ في الصَّلاةِ، لم يحنَثْ،

(1) ذكر هذا النص الحافظ الضياء في "اختصاص القرآن" عن المرّوذى عن أحمد، فقرة (9).

(2) رواه حنبل فى "المحنة" ص: 45 عنه به.

لا يُقاسُ بكَلام الله شَيْءٌ، القرآنُ كلامُ الله، منه بَدَأ وإليه يَعودُ، ليس من الله تعالى شَيْءٌ مخلوقٌ، ولا صِفاتُهُ، ولا أسماؤُهُ، ولا عِلْمُهُ". (1)

وقال ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "من كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود". (2)

ونقلَ ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)، اتّفاقَ السَّلَفِ والأئمَّةِ على ذلك في غيرِ موضع من كلامه. (3)

فبهذا يظهرُ لكَ معنى قولِ من قال من السَّلَفِ: "القرآنُ كلامُ الله، مُنْزَلٌ غيرُ مَخْلوقٍ، منه بدّأ وإليه يَعودُ".

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فقالوا: (منه بدأ) ردّاً على الجَهْمية الذين يقولون: بدأ من غيرِهِ، ومقصودُهُم أنَّه هو المتكلِّمُ به، كما قالَ تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ

---

(1) أخرجه الضياء في "اختصاص القرآن" رقم (16).

(2) لمعة الاعتقاد ص: ١٨.

(3) انظر: "مجموع الفتاوى": 6/ 528، 12/ 164.

مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمر: الآية: ١]، وقالَ تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ...} [السجدة: الآية: ١٣]، وأمثال ذلك". (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأمَّا (إليه يَعودُ) فإنه يُسْرى به في آخِر الزَّمانِ، من المصاحفِ والصُّدور، فلا يبقى في الصُّدور منه كلمةٌ، ولا في المصاحف منه حرفٌ". (2)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ: أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ» لِأَنَّ الجَهْمِيَّة–مِن المعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ–كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّهُ خَلَقَ الكَلَامَ فِي المحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ». أَيْ: هُوَ المتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْضِ المخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [الزمر: الآية:1]، وَقَالَ تَعَالَى: **{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [السجدة: الآية: 13]، وَقَالَ تَعَالَى: **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ**

---

(1) "درء التعارض"2/ 113.

(2) "مجموع الفتاوى" 3/ 174 - 175 عن المناظرة في الواسطية.

وَيَهْدِي إِلَىٰ صِـرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سبأ: الآية: 6]، وقَالَ تَعَالَى: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}** [النحل: الآية: 102].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: «إِلَيْهِ يَعُودُ»: أَنَّهُ يُرْفَعُ مِن الصُّدُورِ وَالمصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثارٍ". (1) (2)

سادسًا: أن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت مسموعين.

أولًا: إثبات الحرف.

ومن اعتقادِ السَّلَف في كلامِ الله تعالى أنَّ كلامَه جَلَّ وعَزَّ مؤلَّفٌ من الحُروفِ، إنْ شاءَ جَعَلَها عَربيَّةً، وإن شاءَ جعَلَها عِبْرانِيَّةً، وإن شاء جَعَلها غيرَ ذلك، فهو المتكلّمُ بحُروفِ القرآنِ، والتَّوراةِ، والإنجيلِ، وغيرِها من كلامِهِ.

قالَ تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}** [إبراهيم: الآية: 4].

---

(1) «مجموع الفتاوى» (6/528، 529).

(2) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

وقال تعالى: **{الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}** [آل عمران: الآيات:1 – 4].

فأخْبَرَ تعالى أنه أنْزَل الكُتُبَ: القرآنَ، والتَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما ذلك بلُغاتِ الرُّسل الذين أنْزَل عَلَيهم، وبلُغات أقوامِهم، لأجْلِ أن تقومَ الحُجَّةُ عليهم به، إذ لوكانَ بغيرِ لُغتهم ما فَقِهُوهُ.

قال تعالى: **{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** [يوسف: الآيات: 1 – 2]

وقالَ تعالى: **{حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}** [الزخرف: الآيات: 1 – 4]

وقالَ تعالى: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}** [النحل: الآية: 103].

وقالَ جَلَّ وَعَزَّ **{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}** [الشعراء: الآيات: 192 – 199]

وقالَ تعالى: **{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** [الزمر: 27 - 28].

وقالَ سُبحانه: **{حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** [فصلت: الآيات: 1 - 4].

وقالَ تعالى: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...}** [فصلت: الآية: 44].

فأخبرَ تعالى أنَّ القرآنَ الذي نزلَ به جِبريلُ عليه السَّلامُ منهُ تبارك وتعالى وحيُهُ وتنزيلُهُ، وهو هذا القرآنُ العربيُّ الذي أنْزلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم- بلغةِ قومِهِ، ليفقَهوهُ ويَعْقِلُوهُ ويعْلَمُوهُ.

وقولُه: **{لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}** أي: بلغةِ العربِ.

فالله تعالى تكلَّمَ به كذلك، بحروفهِ العربيَّةِ، كالألفِ والباءِ والتَّاءِ، ليسَ شَيْءٌ من ذلك قولَ أحَدٍ سِواهُ، وإنّما بلَّغَهُ جبريلُ عليه السَّلامُ عنه، وبلَّغَهُ محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- عن جِبريل، وهو الذي أعجزَ الكفَّارَ أنْ يأتوا بمثلِه، بَلْ تحدَّى الله تعالى الإنسَ والجنَّ أنْ يأتوا بمثلِهِ،

كما قالَ تعالى: **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}** [الإسراء: الآية: 88].

فكونُهُ مؤلّفًا من الحُروفِ ظاهرٌ لا يَحْتاجُ إلى استدلالٍ، إذْ أنَّ كُلَّ أحَدٍ يعلَم أنَّ **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** آيةٌ، وهي أربَعُ كَلِمَاتٍ، كلُّ كلمةٍ مؤلَّفةٌ من حَرْفيْنِ أو أكثر، وهي كَلِماتٌ عَرَبيَّةٌ، وحروفٌ عربيَّةٌ.

ولكنَّ بعضَ أهْلِ البدَعِ نازعَ في إطلاقِ لفظِ (الحَرْف) وأنَّه يَحتاجُ إطلاقُهُ إلى دليلٍ.

وهذا المنازع لا يَخْلو من أحَدِ حالَيْنِ:

إمّا أنْ يكونَ مُكابِرًا -كما هي سِمَة أهلِ البِدَعِ-.

وإمَّا أنْ يكونَ غَبيّاً جاهلًا.

وذلك أنَّ كُلَّ أحَدٍ يُبصرُ (آلمَ. آلمر. كهيعص. حم. طه. يس) لا يخطرُ ببالهِ غيرُ أنَّها حُروفٌ، وليسَ لها تسميةٌ إلاَّ هذهِ.

ونحن معَ ذلك نزيدُهُ حُجَجاً على صِحَّةِ إطلاقِ لهذه التَّسْميةِ من السُّنَّة وآثارِ السَّلَفِ، لنكْسِرَ أنفَ كِبْرِهِ، أو نَمْحُو جَهْلَ فِكْرِهِ، فمِنْ ذلك:

1 - **حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، قال: بينَما جِبريلُ قاعِدٌ عندَ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- سَمِعَ نقيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فرفَعَ رأسَه فقال:

((هذا بابٌ منَ السَّماءِ فُتِحَ اليومَ لم يُفْتَح قطّ إلاَّ اليوم، فَنَزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلاَّ اليَوْم، فسَلَّمَ وقالَ: أبْشِرْ بنورَين أوتيتَهما لم يؤتَهُما نبيٌّ قبلَكَ: فاتحةِ الكتابِ، وخَواتيمِ سُورَةِ البقرَةِ، لَنْ تَقْرَأ بحَرْفٍ منهما إلاَّ أعْطِيتَه)). (1)

2 - حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال:

((تعلَّموا القرآنَ، فإنَّه يُكْتَبُ بكلِّ حرفٍ منه عشرُ حسناتٍ، ويُكَفَّرُ به عَشْرُ سيّئاتٍ، أمَا إني لا أقول: {الم} ولكن أقولُ: ألفٌ عَشْرٌ، ولامٌ عَشْرٌ، وميمٌ عَشْرٌ)). (2)

3 - وقول ابن عبَّاس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ):

"ما يمنَعُ أحدَكُم إذا رَجَعَ من سُوقِهِ، أو منْ حاجَتِهِ، إلى أهْلِهِ، أنْ يَقْرأ القرآنَ فيكونَ لَه بكلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ". (3)

4 - وقالَ شُعَيْبُ بن الحَبْحاب-رحمه الله-(ت: ١٣٠ أو ١٣١ هـ) (ثِقَةٌ منْ صِغار التَّابعينَ):

---

(1) أخرجه مسلم رقم (806).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة 10/ 461.

(3) رواه ابن المبارك في "الزهد" رقم (807) وسنده جيد.

كانَ أبو العاليةِ–رحمه الله–(ت: ٩٠ هـ)، إذا قَرَأَ عنده رَجُلٌ لم يَقُلْ: ليس كما يَقرأ، وإنَّما يَقولُ: أمَّا أنا فأقرأ كَذا وكَذا، قال: فذكَرْتُ ذلك لإبراهيمَ النَّخَعيّ، فقالَ: أرى صاحِبَك قَدْ سَمِعَ: "أنَّ مَنْ كَفَرَ بحَرْفٍ منهُ، فقد كَفَرَ به كُلِّه". (1)

مسألة الفرق بين الحروف التي يتكلم بها الله، والحروف التي يتكلم بها المخلوق.

الأول: الفَرْقُ بين الحُروفِ التي يتكلَّمُ الله بها، والحُروفِ التي يتكلَّمُ بها المخلوق.

تنازع الناسُ في حُروف المعجم: هَلْ هي مخلوقةٌ؟ أو غيرُ مخلوقة؟

وليس في تحقيق ذلك كبيرُ فائدةٍ، وليس فيه نصٌّ عن معصومٍ يُصار إليه، وإنَّما يَجِبُ الكَفُّ عن إطلاقِ القَوْلِ بالخَلْقِ لئلاَّ يتوهّم متوهّمٌ أنَّ الحروفَ التي تكلَّم الله بها مخلوقةٌ.

وذكرَ ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) في غير مَوْضِع أنَّ الإمامَ أحمدَ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، أنكَرَ الإطلاقَ، لأنَّهُ مَسْلَكٌ إلى البِدْعَةِ، وإلى القَوْلِ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ. (2)

وكما يُمْنَع مِن إطلاق القَوْلِ بأنَّ الحروفَ مخلوقةٌ، يُمْنَع أيضاً إطلاقُ القَوْل بأنَّ الحُروفَ غيرُ مخلوقةٍ، لئلا يتوهَّمَ متوهِّم أنَّ الحُروفَ التي هي مَباني كَلام الناس غيرُ مخلوقةٍ، والذي يجرُّ

---

(1) رواه ابن أبي شيبة 10/ 513 - 514 وابن جرير في "التفسير" رقم (56) وسنده صحيح.

(2) انظر: "مجموع الفتاوى" 12/ 41، 84 - 85، 442.

إلى القول بأنَّ ما يتكلَّمُ به العبادُ مِن كلام أنفُسهم هو نفسُه كلامُ الله، فيتحقَّقُ حينئذ للمَلاحِدَة كابن عربي الطائي وأمثاله صِحَّةُ قولِهم:

وكلُّ كَلامٍ في الوجودِ كلامُهُ ... سَواء علينا نَثْرُه ونِظامُهُ

وهذا القولُ من أفحَش الباطِل، وأكفَر الكُفْرِ، إذ مَعْناه أنَّ كلَّ ما تلفِظُ به الخَلائق من الصِّدْق والكَذِبِ، والزُّورِ، والبُهْتان، وألفاظِ الخَنا والفُجور والكُفْر، كلامُ الله.

وحينئذ لا يتميَّزُ حَقٌّ من باطلٍ، ولا صِدْقٌ من كَذبٍ ولا كفرٌ من إيمانٍ.

وإنَّما الحَقُّ والصَّوابُ أن يُقالَ:

إنَّ الحَرْفَ المجرَّد الَّذي هو جزءٌ من اللفظ، مثل: (ز) من كلمة: (زيد) لا يُقالُ فيه مخلوقٌ ولا غيرُ مخلوق، لأنَّ الحرْفَ المجرَّدَ ليس كَلاماً، وإنَّما يقَع الكلام فيما ألّفَ من الحروفِ فأفادَ مَعنًى، ككلمةِ (زيد) اسمُ عَلَمٍ مَعْروفٌ. (1)

---

(1) فإن اعترض معترض بقوله تعالى: (الم)، (الر)، (ص)، (ن)، وما يشبهها مما جاء في أوائل بعض السور، وقال: إنَّها حروف، ونطلق أنَّها غيرُ مخلوقة لأنَّها كلام الله، فالجواب: أنَّ هذه ليست حروفاً مجردة، كحروف كلمة (زيد) وغيرها من الكلام المؤلف، وإنَّما هي أسماء للحروف، ألا ترى أنَّك تقرؤها: (ألف، لام، ميم ...)؟ فلو كان حرفاً مجرداً لقلت: (أ. لْ. مْ) فهي على ما تُلْفَظ وتُسْمَع لا على ما تُكْتب وترسم، وقد نقل

والكلامُ المؤلَّفُ من الحُروف الذي يُفيد معنًى يُفَصَّل فيه: فإنْ كانَ كلاماً لله تعالى كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان كلاماً للعبد يُنْشِئُهُ من تِلقاء نفسهِ، ولا يُريدُ به قِراءةَ كلام الله فهو مَخلوقٌ، فقوله تعالى: **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ....}** [الأحزاب: الآية: 37] غيرُ مخلوق، وقولك: (جاءَني زيدٌ فأكرمتُهُ) مخلوقٌ، لأنَّ الأوَّل كلامُ الله تعالى نظمه وحروفه، والثانيَ كلامُكَ نظمه وحروفه.

ولو قالَ قائلٌ: (محمَّدٌ رسولُ الله) أو: (ألف، لام، ميم) لم يصحّ فيه إطلاق أنَّه مخلوقٌ، أو غيرُ مخلوق، حتى يُسْتَفْصَل منه، فإنْ أرادَ بهِ قِراءةَ كلامِ اللهِ كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان أنشأهُ مبتدِئاً مِن نفسهِ، أو يُبَلِّغُهُ عن غيرِهِ، وهو من إنشاءِ ذلكَ الغيرِ سِوى الله تعالى، كانَ مخلوقاً.

وقد سألَ **الحافظُ الثِّقَةُ أحمدُ بن الحَسن الترمذيُّ–رحمه الله–(ت: غير معروف)** الإمامَ أحمَدَ فقال:

قلتُ لأحمدَ بن حنبل: إنَّ الناسَ قد وقَعوا في أمرِ القرآنِ، فكيف أقولُ؟

قال: "أليسَ أنت مخلوق؟ ".

قلتُ: نعَمْ.

شيخ الإسلام أنَّ الخليل بن أحمد –إمام العربية– سأل == أصحابَه: كيف تنطقون بالزاء مِن (زيد)؟ قالوا: نقول: (زا) قال: جئتم بالاسم، وإنَّما يقال: (زه) – "مجموع الفتاوى" 12/ 448 –.

قال: "فكلامُكَ منك مخلوقٌ؟ ".

قلت: نعم.

قال: "أوَلَيسَ القرآنُ من كلامِ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "وكلامُ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "فيكون من الله شيءٌ مَخلوق؟ ". (1).

فتأمَّل هذا القولَ الموجَز فإنَّه من أسَدِّ الكلام وأحسَنِهِ، فرَّق الإمامُ أحمدُ فيه بَيْنَ كلامِ الله وكلامِ المخلوق، بأنَّ كلامَ الله هو الذي قالَه مبتدئاً، وكلامَ المخلوق هو الذي قالَه مبتدئاً، فلمَّا كان كلامُ الله ابتدأ منه كانَ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه ليسَ من الله شيءٌ مخلوق، ولما كانَ كلامُ المخلوقِ ابتدأ منه -بمعنى أنه هو الذي أنشَأه- كانَ مخلوقاً، لأنَّ العبدَ بأفعاله جميعاً مخلوقٌ.

ثانيًا: إثبات الصوت.

أ- حد الصوت.

---

(1) رواه اللالكائي في "السُّنَّة" رقم (451) بسند صحيح.

قال المرداوي: "وحد الصوت: ما يتحقق سماعه، فكل متحقق سماعه صوت، وكل ما لا يتأتى سماعه البتة ليس بصوت، وحجة الحد كونه مطردا منعكسا.

وقول من قال: إن الصوت هو الخارج من هواء بين جرمين، فغير صحيح، لأنه يوجد سماع الصوت من غير ذلك، كتسليم الأحجار، وتسبيح الطعام والجبال، وشهادة الأيدي والأرجل، وحنين الجذع،

وقد قال الله تعالى: **{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}** [الإسراء: الآية: ٤٤]، وقال تعالى: **{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}** [ق: الآية: ٣٠]، وما لشيء من ذلك منخرق بين جرمين". (1)

ب–الأدلة على إثبات الصوت

وأمَّا كلامُهُ تعالى بصَوْتٍ، فقد قامت الدَّلائلُ القَواطِعُ على إثباتِهِ، وهو كسائِرِ صفاتِهِ تعالي، كلما أنَّها لا تَشْبَهُ صفاتِ المخلوقينَ، فصوتُهُ تعالى لا يشبَهُ أصواتَهم، وقياسُ الخالِقِ على المخلوقِ تَشْبيهٌ، والله تعالى **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى: الآية: ١١]، في ذاتِهِ، وجَميعِ صفاتِهِ.

---

(1) التحرير شرح التحبير ٣/ ١٣٤٦-١٣٤٥.

والأدلَّةُ على إثباتِ كلامِ الله تعالى بصَوْتٍ كثيرةٌ، منها:

أولًا: الأدلة من القرآن:

1 - تكليمُهُ تعالى لموسى عليه السَّلام، فإنَّه قالَ له: **{فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ}** [طه: الآية: 13].

فَدَلَّ هذا على أنَّهُ سَمِعَ كلامَ الله تعالى، ولا يُسْمَعُ إلاَّ الصَّوْتُ، وربُّنا تعالى قَدْ خاطَبَنا باللِّسانِ العَربيّ الذي نفْهَمُهُ، وليسَ فيه سَماعٌ بحصَل من غير صَوْتٍ. (1)

وسبق أنْ بيّنّا أنَّ كلامَ الله لموسى كانَ أعلى درجاتِ التَّكليمِ، وليس هو من جنسْ الإلهاماتِ، وإنَّما هو كلامٌ مسموعٌ بالآذانِ.

وقد **قالَ عبد الله بن أحمدَ بن حَنْبل-(ت: ٢٩٠ هـ)**: سألْتُ أبي رحمه الله عن قومٍ يقولونَ: لما كلَّمَ الله موسى لم يتكلَّمْ بصَوْتٍ؟ فقال أبي:

"بَلَى، إنَّ ربَّكَ-عَزَّ وَجَلَّ-تَكَلَّمَ بصَوْتٍ، هذه الأحاديثُ نَرْويها كما جاءت". (2)

واحتجَّ لذلكَ بحديث ابن مَسعودٍ الآتي.

---

(1) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" 2/ 93.

(2) رواه عبد الله في "السنة" رقم (533) عنه.

وقالَ الإمام أبو بكر المَرُّوذِيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ) صاحبُ الإمام أحمدَ: سمعتُ أبا عبد الله –يعني أحمدَ– وقيل له: إنَّ عبْدَ الوهّاب قَدْ تكلَّم وقالَ: مَنْ زعَمَ أنَّ الله كلَّمَ موسى بلا صَوْتٍ فهو جَهميٌّ عدُوُّ الله وعدوُّ الإسلام، فتبسَّمَ أبو عبد الله وقال: "ما أحسَنَ ما قال، عافاه الله". (1)

وقال عبدُ الله بن أحمدَ–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ) أيضًا: قلتُ لأبي: إنَّ ههُنا مَنْ يقولُ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصوْتٍ، فقال: "يا بُنيَّ، هؤلاء جَهْميَّةٌ زنادِقَةٌ، إنَّما يَدوُرونَ على التَّعطيل" وذكرَ الآثارَ في خِلاف قَوْلهم. (2)

2 – إخبارُه تعالى عن ندائِهِ لموسى عليه السَّلام، ولعبادِهِ يومَ القيامةِ.

وذلك في عدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِهِ، منها:

قوله تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}** [النازعات: الآيات: 15، 16]

وقوله تعالى: **{وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}** [مريم: الآية: 52].

---

(1) رواه الخلاّل عن المرّوزي به –كما في "درء التعارض 2/ 38 – 39.

(2) ذكر هذا النَّص شيخ الإسلام –كما في "مجموع الفتاوى" 12/ 368 – ونسبه إلى "كتاب السنة" لعبد الله، ولم أقف عليه فيه، فلعله وقع له في نسخة.

وقوله تعالى: **{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى}** [طه: الآية: 11].

وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** [القصص: الآية: 65].

وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}** [القصص: الآيات: 62، 74].

والنِّداءُ: **قال الجوهَريّ–رحمه الله–(ت: ٣٩٣ هـ)**: "الصَّوْتُ، وقد يُضَمّ، مثل: الدُّعاء، والرُّغاء، وناداه مُناداةً، ونِداءً، أي: صاحَ به". (1)

وفي "اللسان": النِّداءُ –ممدودٌ– الدُّعاءُ بأرفَع الصَّوْت، وقد نادَيْتُه. (2)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "والنِّداء في لغة العَرَب: هو صوتٌ رَفيعٌ، لا يُطلَق النِّداء على ما ليسَ بصوتٍ، لا حَقيقةً ولا مَجازًا". (3)

وما قالَه ابن تيمية مُوافق لِما ذكر عن أهلِ اللغةِ من أنَّ النداءَ الصَّوتُ الرَّفيعُ.

فإذا عُلِمَ هذا ثَبَتَ أنَّ الله تعالى نادى موسى بصَوْتٍ، ويُنادِي بصَوتٍ عبادَه يومَ القيامةِ.

ثانيًا: الأدلة من السنة.

---

(1) "الصحاح" مادة (ندا). نِداءً" (30). (1).

(2) "اللسان" مادة (ندي).

(3) "مجموع الفتاوى" 6/ 531.

١- **حديثُ عبد الله بن أنَيسٍ-رضي الله عنه-(ت: ٥٤ هـ)**، قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:

((يَحْشُرُ الله العبادَ -أو الناسَ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا".

قلنا: ما بُهْماً؟ قال:

"ليسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُناديهم بصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ -أحسَبُه قالَ: كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ-: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ ...)). الحديث. (1)

وهذا الحديثُ صَريحٌ في إثْباتِ كلام الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، وقَد احْتجَّ به على ذلك **إمامُ أهل الحديث محمَّدُ بن إسماعيل البُخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)**، فقال:

"وإنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ينادي بِصَوْتٍ، يَسْمَعُه مَنْ بَعُدَ كَما يَسْمَعه من قَرُبَ، فليسَ هذا لغير الله جَلَّ ذكرُه، وفي هذا دليلٌ أنَّ صوتَ الله لا يشبَهُ أصواتَ الخَلْقِ، لأنَّ صوتَ الله جلَّ ذكرُهُ يُسْمَع من بُعْدٍ كما يُسْمَع من قُرْبٍ ... " ثُمَّ أسنَدَ الحديثَ. (2)

---

(1) أخرجه البخاري معلقا بصيغة التمريض مختصراً قبل حديث (7481)، وأخرجه موصولاً أحمد (16042) مطولا باختلاف يسير.

(2) "خلق أفعال العباد" ص: 149.

٢- **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، أنَّ نبيَّ الله -صلى الله عليه وسلم-قال: ((**إذا قَضى الله الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بأجْنِحَتِها خُضْعانًا لقولِهِ، كأنَّه سلْسِلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قالَ**)). (1)

ولقد أبى بعضُ أهل البدع الاحتجاجَ بهذا الحديث على إثبات الصوت لله تعالى، وأوَّلَه بأنَّه من مَجاز الحذف، والتقدير: يأمر من ينادي.

- وهذا باطلٌ من أوجهٍ:

الأول: أنَّ الأصلَ في الإطلاق الحقيقة، وهذا ربَّما وافقنا فيه المبتدع في مواضع أُخرى.

والثاني: أنَّ التقدير إنَّما يُصار إله في أحد حالين:

- دلالة القرينة.

- عدم استقامة السياق.

وكلاهما منتفٍ هُنا، فلا قرينةَ تدعو إلى هذا التقدير سِوى التنزيه في دعوى المبتدع، وهو عندنا غير مُنتفٍ، وشأنها كسائر صفات الباري تعالى، نُثْبِتُها مع التنزيه.

وأمَّا السياق فهو مستقيمُ لا اضطرابَ فيه، ويؤكّده الوجهُ الآتي.

والثالث: أنَّه خُروجٌ عن الظاهر بغير برهان، بلْ إنَّ البرهانَ ضِدُّه، ألا تَراه قال:

---

(1) أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

"أنا المَلِكُ، أنا الديّان ... "؟ فهل يُناسبُ أن يكون هذا كلاماً لغير الله مِن مَلَكٍ أو غيرِه؟ ربُّكُم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ". (1)

وفي لفظ: ((**إنَّ الله إذا قضى أمْراً في السَّماءِ، ضَرَبتِ الملائكةُ بأجْنِحتِها جَميعاً، ولقولهِ صَوْتٌ كصَوْتِ السِّلْسِلةِ على الصَّفا الصَّفوانِ، فذلكَ قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [سبأ: الآية: 23])). (2)

ووجه الاستدلال بهذا اللَّفظ ظاهرٌ، وذلكَ أنَّ قولَه: "ولقوله صوتٌ كصوتِ السِّلْسِلَة" صَريحٌ في أنَّ قولَه تعالى وكلامَه يكون بصوتٍ.

وأمَّا اللفظُ الأوَّل فإنَّ الضَّميرَ في قوله: "كأنَّه سِلْسِلة" عائدٌ إلى أقرب مذكورٍ، وهو قوله: "لقولِه" فقوله: "سِلْسِلَة على صَفْوان" تضمَّنَ إثباتَ الصَّوتِ للمُخْبَرِ عنه الذي هو القولُ، فيظهرُ بهذا إثباتُ قولِهِ تعالى وكلامِهِ بصَوْتٍ.

ولكنَّ بعضَ أهل البِدَع أبَوْا ذلك من أجْلِ أنْ يُبْطلوا تَكَلُّمَ الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، فقالوا: الضَّميرُ في قوله: "كأنَّه" عائدٌ على أجنحةِ الملائكةِ، فالصَّوتُ صَوْتُ أجْنِحةِ الملائكةِ.

ولهذا ظاهرُ البُطلانِ لوَجهينِ:

الأول: أنَّ الضَّميرَ في الأصْل يعودُ إلى أقرَب مذكورٍ.

---

(1) أخرجه البخاري 8/ 380، 537 و13/ 453.

(2) أخرجه ابن جرير في "التفسير" 22/ 91.

والثاني: أنَّه ضميرُ مذكَّرٍ، ولو كان عائداً على أجنحةِ الملائكة لكانَ مؤنَّثاً.

فإن قيلَ: هذان الوجهان تصرفهُما القَرائن!

قلنا: نعَمْ، إن وُجِدتْ، لكنَّها هنا مُنْتفية، يؤكِّدُ نفْيَها اللَّفظُ الثاني

لحَديث أبي هُرَيْرَة كما تَراه.

والحديثُ مِمَّا احتجَّ به البخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)، لإثباتِ تَكَلُّم الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ. (1)

٣- **حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)** قال:

"إنَّ الله إذا تكلَّمَ بالوَحْي، سَمِعَ أهلُ السماواتِ للسَّماءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسلةِ على الصَّفا، فيُصْعَقونَ، فلا يزالونَ كذلك حتى يأتيَهم جِبريلُ، فإذا جاءَهم جِبْريلُ فُزِّعَ عن قُلوبهم، قال: فيقولونَ: يا جبريلُ، ماذَا قالَ رَبُّكَ؟ قال: الحَقَّ". (2)

وفي لفظٍ عن عبد الله قال:

---

(1) "خلق أفعال العباد" ص: 151.

(2) أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ص: 146، 147 وابن جرير 22/ 90 وعبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (537) والبيهقي في "الأسماء والصفات".

"إذا تكلَّمَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالوحْيِ سَمِعَ صوتَهُ أهلُ السَّماءِ، فَيَخِرّونَ سُجْداً **{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ}** [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: سُكِّنَ عنْ قُلُوبِهم -نادى أهلُ السَّماءِ: **{مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ ...}** [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: كَذا وكَذا". (1)

وهذا الحديث مما احتجّ به الإمامُ أحمد لإثبات كلام الربّ تعالى بصوتٍ.

قال ابنُه عبد الله، قال أبي رحمه الله:

"**حديث ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**: إذا تكلَّم الله عَزَّ وَجَلَّ سُمِعَ له صَوْتٌ كَجَرّ السِّلْسِلة على الصَّفْوان".

قال أبي: "وهذا الجهميةُ تُنْكِرُهُ".

وقال أبي: هؤلاء كُفَّارٌ، يُريدونَ أن يُمَوِّهوا على النَّاسِ، مَنْ زَعَمَ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يتكلَّمْ فهو كافرٌ، إلاَّ أنَّا نروي هذه الأحاديث كما جاءَت". (2)

---

(1) أخرجه عبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (536) والخَلاَّل -كما في "درء التعارض" 2/ 38 - عن الإمام أحمد.

(2) رواه عبد الله بن أحمد فى "السُّنَّة" رقم (534)، ونحوه روى الخلاَّلُ عن يعقوب بن بختان -أحد الثقات من أصحاب أحمد-عن أحمد-كما في "درء التعارض" 2/ 38.

ثالثًا: أقوال العلماء في إثبات الصوت.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ)، في إثبات الصوت: "وأن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله جل ذكره.

قال أبو عبد الله: وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوته جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يَصعقوا". (1)

وقال الحافظُ أبو نَصْرٍ السِّجْزِيُّ–رحمه الله–(ت: ٤٤٤ هـ): "وليسَ في وجود الصَّوْتِ من الله تعالى تَشبيهٌ بمَنْ يوجَد الصَّوْتُ منه من الخَلْق، كما لَمَ يكنْ في إثباتِ الكلامِ له تشبيهٌ بمنْ له كلامٌ من خلقِهِ". (2)

وقال الإمام ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [النساء:

---

(1) "خلق أفعال العباد"، للبخاري، ص149. (1).

(2) "درء تعارض العقل والنقل" 2/ 93.

الآية: 164] وقال سبحانه: **{يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}** [الأعراف: الآية: 144] وقال سبحانه: **{مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ}** [البقرة: الآية: 253] وقال سبحانه: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}** [الشورى: الآية: 51] وقال سبحانه: **{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى – إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}** [طه: الآية: 11 – 12] وقال سبحانه: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}** [طه: الآية: 14] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ): " إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء "، روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عبد الله بن أنيس عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال: ((**يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلا بهما فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان**))، رواه الأئمة واستشهد به البخاري". (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "واستفاضت الأثار عن النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، والصَّحابةِ، والتابعين، ومَن بعدَهم من أئمَّةِ السُّنَّة، أنَّه سبحانه يُنادي بصَوْتٍ، نادى موسى، ويُنادي عِبادَه يومَ القيامةِ بصَوْتٍ، ويتكلَّمُ بالوحي بصَوتٍ، ولم يُنْقَل عن أحدٍ

(1) "لمعة الاعتقاد" ص15. "خلق أفعال العباد"، للبخاري، ص149. (1).

من السَّلَفِ أنه قال: إنَّ الله يتكلَّمُ بلا صَوْتٍ، أو بِلا حَرْفٍ، ولا أنَّهُ أنْكَرَ أنْ يَتَكَلَّمَ الله بصَوْتٍ، أو بحَرْفٍ". (1)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وليسَ في الأئمَّة والسَّلَف من قالَ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصَوْتٍ، بل قَدْ ثبَتَ عن غير واحدٍ من السَّلَفِ والأئمَّة أنَّ الله يتكلَّمُ بصَوْتٍ، وجاءَ ذلك في آثارٍ مشهورةٍ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ، وكانَ السَّلَفُ والأئمةُ يذكرونَ الآثارَ التي فيها ذكرُ تَكلُّمِ الله بالصَّوْتِ ولا يُنْكِرُها منهم أحدٌ". (2)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): " قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم: إن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ليس ببائن عنه مخلوقا. ولا يقولون إنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما ". (3)

---

(1) "مجموع الفتاوى" 12/ 304 - 305.

(2) "مجموع الفتاوى" 6/ 527، وانظر: 244.

(3) "مجموع الفتاوى" (173/12).

وقال ابن أبي العز الحنفي–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): " أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة". (1)

الأقوال في مسألة الصوت.

والذين قالوا: إن الله يتكلم بصوت أربع فرق:

فرقة قالت: يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه، وهم المعتزلة.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال، وهم السالمية والاقترانية.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم حادث في ذاته بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

وقال أهل السنة والحديث: لم يزل الله متكلما بصوته إذا شاء.

والذين قالوا: لا يتكلم بصوت فرقتان:

١–أصحاب الفيض،

٢–والقائلون إن الكلام معنى قائم بالنفس". (2)

---

(1) "شرح الطحاوية" (174/1).

(2) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٥٢٨–٥٢٩.

أصل الخلاف في مسألة الصوت:

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أول ما ظهر إنكار أن الله سبحانه يتكلم بصوت في أثناء المائة الثالثة، فإنه لما ظهرت الجهمية المعطلة في إمارة أبي العباس المأمون (ت: ٢١٨ هـ)، وأدخلته في آرائها بعد أن كانوا أذلاء مقموعين، وهؤلاء كان عندهم أن الله لا يتكلم أصلا بحرف، ولا صوت ولا معنى ولا يرى، ولا هو مستو على عرشه، ولا علم ولا حياة ولا إرادة ولا حكمة تقوم به فلما وقعت المحنة وثبت الله خلفاء الرسل وورثة الأنبياء على ما ورثوه عن الأنبياء والمرسلين، وعلموا أن باطل أولئك هو نفاق مشتق من أقوال المشركين والصابئين الذين هم أعداء الرسول وسوس الملك، وظهر للأمة سوء مذاهب الجهمية وما فيها من التعطيل ظهر حينئذ عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري (ت: ٢٤١ هـ) وأثبت الصفات موافقة لأهل السنة، ونفى عنها الخلق ردا على الجهمية والمعتزلة، ولم يفهم لنفي الخلق عنها معنى إلا كونها قديمة قائمة بذاته سبحانه، فأثبت قدم العلم والسمع والبصر والكلام وغيرها، ورأى أن القديم لا يتصور أن يكون حروفا وأصواتا لما فيها من التعاقب وسبق بعضها بعضا، فجعل كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق هو مجرد معنى أو معان محصورة، وسلك طريقة

خالف فيها المعتزلة، ولم يوافق فيها أهل الحديث في كل ما هم عليه، فلزم من ذلك أن يقول إن الله لم يتكلم بصوت وحرف وتبعه طائفة من الناس.

وأنكر ذلك الإمام أحمد وأصحابه كلهم، والبخاري صاحب الصحيح، فقال عبد الله بن أحمد في كتاب السنة: قلت لأبي: يا أبت إن قوما يقولون إن الله لم يتكلم بصوت، فقال: يا بني هؤلاء الجهمية إنما يدورون على التعطيل يريدون أن يلبسوا على الناس، بلى تكلم بصوت". (1)

مسألة الصوت المسموع من القارئ.

الصَّوْتُ المسموعُ من القارئ وهو يتلو كلامَ الله، هو صَوْتُ القارئ، لا صَوْت الله تعالى، كما نصَّ عليه الأئمَّةُ كأحمدَ وغيرِهِ. (2)

وذلكَ أنَّ صوتَ العبْدِ إنَّما هو فعلُه القائمُ به، وأفعاله جميعاً مضافة إليه مخلوقةٌ كخَلقِهِ، لكنَّ المسموعَ بصَوْتهِ، الذي نطَقَ به لسانُهُ، وتحرَّكَتْ به شفَتاهُ، كلامُ الله تعالى.

---

(1) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٥٢٥-٥٢٦.

(2) ذكر ذلك شيخ الإسلام في "درء التعارض" 2/ 40.

والدَّليلُ على ذلكَ قولُ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: "زيّنوا القرآنَ بأصواتِكم". (1)

فأضافَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- الأصواتَ إلى القُرّاء، لأنَّها اكْتِسابُهُمْ وفعلهُمْ، وفرَّقَ بينها وبينَ القرآن الذي هو كلامُ الله ووحيُهُ وتنزيلُهُ، الذي لا يكونُ من التالي سِوى قراءتِه وأدائِه وتبليغِهِ.

فالقرآنُ كلامُ الله مُضافٌ إليه تعالى لأنَّه منهُ، لا يُضافُ للتالي لأنَّه أدّاه بصَوتِهِ وحَرَكَتِهِ، شأن كلّ كلامٍ سواه يُبلِّغهُ الواحدُ مِنَّا، فإنَّهُ إنَّما يُضافُ إلى مَن قالَه مُبتدئاً.

فقولُكَ: "إنَّمَا الأعمالُ بالنّياتِ، وإنَّما لكلّ امرئٍ ما نَوى" (2) تُبلّغُه أنتَ بصَوْتِكَ وحَرَكَتِكَ، وليسَ لك من نظْمِهِ شيْءٌ، إنَّما هو كلامُ النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بلفظِهِ ومعناه، ولو قلتَ: هو كَلامي، لكذّبكَ مَن يسمَعُك، إذ ليسَ لك من ذلك إلاَّ التبليغُ والأداءُ.

فكذلكَ كلامُ الله تعالى إذا تلاه التالي، وقرأه القارئ.

---

(1) أخرجه أحمد 4/ 283، 285، 296، 304، وأبو داود رقم (1468)، والنَّسائي 2/ 179 وفي "فضائل القرآن" -من "الكبرى"- رقم (75)، وابن ماجة رقم (1342)، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (250 - 254، 256) والدارمي رقم (3503)، وابن حبان رقم (737)، والحاكم 1/ 571، 572، 573، 574. 575.

(2) خرجه الشيخان في "صحيحيهما" من حديث عمر رضي الله عنه.

قال الله تعالى: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ...}** [التوبة: الآية: 6] فأضافَ الكلام إلى نفسِهِ، لأنَّه هو الذي ابتدأ نَظْمَهُ بحُروفِهِ ومعانيهِ، يسمَعُه المشرك بأذُنَيْهِ بصَوْتِ القارئ، فإنَّه إنَّما يسمَع كلامَ الله مِنَ القارئ. (1)

---

(1) ممن ألف في مسألة الحرف والصوت:

١- : رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد لعبد الله بن يوسف بن محمد الجويني-رحمه الله-(ت: ٤٣٨ هـ).

٢-رسالة عبيد الله السجزي (ت: ٤٤٤ هـ)، إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، وهي رسالة مطبوعة.

٣-كتب أبو يعلى-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، جزءا سماه ايضاح البيان في مسألة القرآن، وهو مفقود، وهذا الكتاب نقل منه شيخ الإسلام في عدة مواطن من كتبه انظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٣٢، مجموع الفتاوى ٦/ ١٥٨، درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٧٤.

٤-كما ألف ابن عقيل (ت: ٥١٣ هـ)، كتابا في مسألة الحرف والصوت وقد طبع بعنوان جزء في الأصول أصول الدين مسألة القرآن أو الرد على الأشاعرة العزال وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال

أما ابن قدامه-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ)، فله ثلاثة كتب لهذا الغرض وهي مطبوعة:

٥-الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم

٦-والبرهان في بيان القرآن

سابعًا: أن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم.

وقالَ ابن تيمية رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وَمَذْهَبُ سَـلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ القُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِن اللَّهِ عز وجل". (1)

٧–وكتاب حكاية المناظرة في القرآن.

٨–كما جمع محمد بن عبد الواحد المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٤٣ هـ) جزء في الأحاديث الواردة في هذه المسألة سماه جزء أحاديث الحرف والصوت وهو مفقود.

٩–كتاب "غاية المرام في مسألة الكلام" للشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن الأرموي الشافعي. وقد طبعت رسالة بعنوان "جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات" ونسبت للنووي، ولكن جاء في ص: ٦٩ عبارة: "وهذا الذي ذكرناه جميعه من كلام الشيخ أبي العباس الأرموي رحمه الله".

١٠–كتاب طرف الطرف في مسألة الصوت والحرف تأليف الشيخ أبي العباس أحمد ابن يحيى الحنبلي–رحمه الله–(ت: ٩٤٨ هـ) وهو مطبوع..

(1) «مجموع الفتاوى» (233/5).

يؤمنُ أهل السـنة بأن القرآن كلامُ الله عز وجل، منه بدأ وإليه يعود، وأن هذا كلام الله بحرفٍ وصوتٍ مسموعين وأن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الكلام هو كلام الله عز وجل.

ومذهب أئمَّة الحديث والسنَّة: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلَّمُ بصوت يُسمَع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا.

ثم قال: "الآثار مُتواترة عنهم-أي: عن الصـحابة والتابعين-بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله، ولما ظهر مَن قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك أنه مُفترى، كما ظنه بعض الناس؛ فإن أحدًا من المسـلمين لم يَقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يَعلمه كل مسلم، وإنَّما قالوا: إنه مخلوق خلقه الله في غيره، فرَدَّ السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنفوا في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: «منه بدأ وإليه يعود».

ونصوصُ القرآن واضحة بأنه كلامه سبحانه وتعالى **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ}** [التوبة: الآية:6] فهذا الكلام كلامه سبحانه وتعالى، منه بدأ، تكلم به حقيقةً، ونثبتُ صـفة الكلام لله عز وجل كما أثبتها لنفسـه وكما أثبتها له رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وأن الله سـبحانه وتعالى لكلامه صـوت كما جاءَ في النصـوص، وأنه

بحرف وصوت مسموعين، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء سبحانه وتعالى، وأن القرآن كلامُ الله تعالى غيرُ مخلوق.

فالقرآن كلام الله، ليس ككلام البشر، وقد توعَّد الله من وصَف القرآن بأنه ككلام البشر، توعَّده بالنار فقال تعالى: **{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}** [المدثر: الآيات: 25، 26]، فإن كان كلام البشر مخلوقًا لهم، فكلام الله ليس مخلوقًا له، إنما هو صفةٌ من صفاته سبحانه.

الأقوال في سماع كلام الله

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "واختلفت الفرق هل يسمع كلام الله على الحقيقة؟

فقالت فرقة: لا يسمع كلامه على الحقيقة إنما يسمع حكايته والعبارة عنه، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم،

وقالت بقية الطوائف، بل يسمع كلامه حقيقة، ثم اختلفوا

فقالت فرقة: يسمعه كل أحد من الله، وهذا قول الاتحادية،

وقالت فرقة: بل لا يسمع إلا من غيره، وعندهم يسمع كلام الله منه، فهذا قول الجهمية والمعتزلة.

وقال أهل السنة والحديث يسمع كلامه سبحانه منه تارة بلا واسطة كما سمعه موسى وجبرائيل وغيره، وكما يكلم عباده يوم القيامة، ويكلم أهل الجنة، ويكلم الأنبياء في الموقف، ويسمع من المبلغ عنه كما سمع الأنبياء الوحي من جبرائيل تبليغا عنه، وكما سمع الصحابة القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله، فسمعوا كلام الله بواسطة المبلغ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالي.

فإذا قيل: المسموع مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل إن أردت المسموع عن الله فهو كلامه غير مخلوق،

وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل، فإن سألت عن الصوت الذي روي به كلام الله فهو مخلوق،

وإن سألت عن الكلام المؤدى بالصوت فهو غير مخلوق". (1)

---

(1) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٥٢٨.

ثامنًا: مسألة: هل اللفظ بالقرآن مخلوق أو لا؟

وهل يجوز أن يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق؟

واللفظ يأتي بمعنى: التلفظ، ويأتي بمعنى الملفوظ؛ هل هو الملفوظ الخارج، أو حركة اللسان التلفظ؟

فمعلوم أنه إن أريد الأول وهو التلفظ: فالتلفظ من أفعال العبد، وأفعال العباد مخلوقة.

وإن عُني باللفظ الملفوظ فالملفوظ هو القرآن.

لهذا صارت الكلمة محتملة، واستعمال المحتملات في العقيدة بدعة؛ فإنه لا يجوز أن تستعمل مثل هذه العبارة التي قد تحتمل شيئًا آخر؛ فيفهم الناس منها فهمًا غير سليم.

ولهذا كان **الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)** يقول: "مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع أيضًا"؛ لأنها تحتمل هذه وهذه، وقد سكت السلف عن الإطلاق؛ لأنَّ الألفاظ المحتملة فيما يتصل بذات الله جل وعلا أو صفاته أو أفعاله أو أمور العقيدة والغيبيات لا يجوز استعمالها، وينهى عنها.

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أئمة أهل السنة وأهل الحديث من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن أو صوته به أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن- غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك أبو بكر الخلال في (كتاب السنة)، ومن المشهور في (كتاب صريح السنة) لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه، لما ذكر الكلام في أبواب السنة قال: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفا إلا عمن في قوله الشفاء والغناء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: اللفظية جهمية، يقول الله: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ} [التوبة: الآية: 6] ، ممن يسمع؟! **قال ابن جرير–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ)**: وسمعت جماعة من أصحابنا -لا أحفظ أسماءهم- يحكون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع. قال ابن جرير: ولا قول في

ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سـواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع" (1)

ولهذا **قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**:

وَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ فَالْ *** إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ *** أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ". (2)

وقد رأي الإمام أحمد وبعض الأئمة أنه لا يُقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق؛ لأن الكلام هنا محتمل، فعندما يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق، فهل يقصد به القرآن الذي هو كلام الله تعالى، أو يقصد فعل المخلوق؟ فإن قال: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، فقد لا يقصد هنا كلام الله تعالى، وإنما يقصد كلامه هو، وهذا خطأ؛ لأن نطق الإنسان مخلوق، فالمسألة تكون محتملة، فمن هذا الباب باب منع الإمام أحمد والأئمة من أهل السنة أن يُقال: لفظي القرآن مخلوق أو غير مخلوق؛ لأن هذا اللفظ محتمل.

---

(1) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٢٢-٤٢٣.

(2) انظر: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لابن القيم.

قال أبو القاسم التيمي الأصبهاني–رحمه الله–(ت: ٥٣٥ هـ): "وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة: حسين الكرابيسي (ت: ٢٥٦ هـ). فبدعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار...." ثم سمّى طائفة كثيرة من علماء الأمصار، ثم قال: "فمذهبهم ومذهب أهل السنة جميعاً أن القرآن كلام الله آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في جميع أحواله، حيث قرئ وكتب وسمع". (1)

بينما ينص الإمام البخاري وبعض أهل السنة على أن اللفظ بالقرآن الذي هو نطق الإنسان مخلوق، فإذًا فَصَّلوا وبيَّنوا أنه إذا قصد النطق فهذا مخلوق، وإذا قصد الأصل الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى الملفوظ، فهذا غير مخلوق.

وحدثت في هذه المسألة فتنة للبخاري، أثارها عليه شيخه محمد بن يحيى الذهلي–رحمه الله–(ت: ٢٥٨ هـ)، ودافع عنه ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) في كتابه «الصواعق»، وقال: «إن البخاري في هذه المسألة أقعد وبيَّن ووضَّح وفصَّل في هذه المسألة، وتشنيع الذهلي عليه هذا من باب الغيرة والحسد الذي بين الشيخ وتلميذه؛ لأن البخاريَّ تفوق عليه.

---

(1) الحجة في بيان المحجة 1/ 370.

فالمسألة محل خلاف، مثل مسألة الاسم والمسمَّى؛ لأن المخرج فيهما واحد؛ لأن كِلا المسألتين تعودان إلى صفة الكلام، والكلام: صفة من صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، وبناء على ذلك ترتَّب خلاف في مسألة اللفظ وفي مسألة الاسم والمسمى؛ لأن أسماء الله تعالى من كلامه، والقرآن من كلامه عز وجل، فحصل خلاف في هذه المسألة بناءً على ذلك.

أصل النزاع في المسألة:

مسألة خلق القرآن حدثت في زمن محنة الجهمية والفتنة المشهورة فهي وليدة هذه الفتنة ومنها نشأ النزاع فيها هل الإيمان مخلوق أم لا؟

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟

"فالجواب أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة.

صارت طائفة يقولون: إن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة،

وليس مقصـــودهم مجرد كلامهم وحركاتهم، بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا.

وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

فرد الإمـام أحمـد على الطـائفتين وقـال: من قـال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصـــار مقتضـــى قولهم إن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-: ((**الإيمان بضـع وسبعون شعبة أعلاها: قول لا إله إلا الله**)). [1] أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟

ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضـــى كلامـه أن الله لم يتكلم بالقرآن الـذي أنزلـه. وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله". [2]

---

1 رواه البخاري (9)، ومسلم (35).

2 مجموع الفتاوى 7/ 655

وقال رحمه الله: "وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و(إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق. أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب.

والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن

تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**} [البقرة الآية: 176]، ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا". [1]

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع. فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة.

قال ابن حمدان–رحمه الله–(ت: ٦٩٥ هـ) في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره. ونقل الإمام **الحافظ ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ)** في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ)، ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد–رضي الله عنه–(ت: ٢٤١ هـ)، أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع.

---

[1] مجموع الفتاوى 7/ 664

قال الحافظ عبد الغني–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ): "وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله–عز وجل– ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. انتهى بحروفه، والله–تعالى–الموفق". [1]

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لسنا نشك أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله عز وجل غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل ولم يزل به متكلما". [(2)]

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من زعم أن أسماء الله مخلوقة فهو كافر". [(3)]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وأما مسألة تكلم العباد بالقرآن فقد اشتبهت على كثير من الناس،

---

1 لوامع الأنوار البهية 1/ 446

(3) نقله عنه الأشعري في كتاب الإبانة عن أصول الديانة (ص88)

(4) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (214/2).

فقالت طائفة: إن الله يخلق كلامه عند تلاوة كل تال، فيجري كلامه المخلوق على لسان التالي، وفعل التالي هو حركة اللسان فقط وهي القراءة: فالقراءة صنع العبد عندهم، والمقروء صنع الله وخلقه، فالمسموع عندهم مخلوق بين صنعين: صنع الرب وصنع العبد، وهذا قول أبي هذيل والإسكافي وأصحابه.

وقالت فرقة أخرى: إن العبد هو المحدث لأفعاله وتلاوته، والله تعالى خلقه في مكان واحد لا ينتقل عنه ولا يفارقه إلى غيره، فهذا المسموع هو صنع التالي ألفاظه وتلاوته، وهذا قول أكثر البغداديين من المعتزلة، وقول جعفر بن حرب.

وقالت فرقة: إن القرآن لم يخلقه الله تعالى في الحقيقة ولا هو فعله، فإنه عرض وهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، قالوا فهو فعل المحل الذي قام به، وهذا قول معمر وأصحابه من المعتزلة.

وقالت فرقة: إن الله سبحانه خلق كلامه في اللوح المحفوظ ثم مكن جبرائيل أن يأخذه منه نقلا ويعلمه رسوله صلى الله عليه وسلم، فجبرائيل إذا نطق به كان نطقه بمنزلة من يقرأ كتاب غيره، لكن الحروف والأصوات في الحقيقة لجبرائيل لم تقم بذات الرب حروف القرآن ولا ألفاظه، ولا سمعه جبرائيل من الله تعالى، وإنما نزل به من المحل الذي خلق فيه، وهذا قول كثير من الكلابية، فعندهم أن المسموع قول الرسول الملكي حقيقة سمعه منه الرسول البشري فأداه كما سمعه،

فالرسول الملكي ناقل لما في اللوح المحفوظ غير سامع له من الله، والرسول البشري ناقل له عن جبرائيل قوله وألفاظه.

ومن هؤلاء من يقول: بل الله تعالى ألهم جبرائيل معانيه، فعبر عنها جبرائيل بعبارته، فهذه الألفاظ كلام جبرائيل في الحقيقة لا كلام الله.

ومنهم من يقول: جبرائيل علم رسول الله نص معانيه وألقاها في روعه، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشأ ألفاظها وعبر بها من عنده دلالة على ذلك المعنى الذي ألقاه إليه الملك، فالقرآن العربي على قولهم قول محمد-صلى الله عليه وسلم-أو قول جبرائيل-عليه السلام-، وهذا قول من لا نسميهم لشهرتهم، وإن حرفوا العبارة وزينوا له الألفاظ، فهو قولهم الذي يناظرون عليه ويكفرون من خالفهم فيه يقولون فيه: قال أهل الحق كذا، وقالت سائر فرق أهل الزيغ بخلافه.

وقالت فرقة أخرى: بل لسان التالي مظهر للكلام القديم، فيسمع منه عند التلاوة كما سمع موسى كلام الله من الشجرة، فلسان التالي كالشجرة محل ومظهر للكلام، فإذا قال التالي **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الفاتحة: الآية: ٢] كان المسموع كله حروفه وأصواته غير كلام الله القائم به من غير حلول في

القارئ ولا اتحاد به، كما أن الله سبحانه لم يحل في الشجرة ولا اتحد بها، وسمع موسى كلامه منها.

واختلفت هذه الفرقة في الصوت الذي يسمع من القارئ على قولين:

أحدهما: إنه عين صوت الله بالقرآن ظهر عند تلاوة التالي، فكانت التلاوة مظهرة له.

وقالت فرقة أخرى منهم: ما لا بد منه من الصوت في الأداء ولا يتأدى الكلام بدونه، فهو الصوت القديم، وما زاد عليه من قوة الاعتماد والرفع فمحدث.

قالوا: وقد اقترن القديم بالمحدث على وجه معسر التمييز بينهما جدا، فلما ورد عليهم أن الحس شاهد بأن هذا الصوت موجود بعد أن كان معدوما ومعدوما بعد وجوده وهذا مستحيل على القديم، أجابوا بأن الذي وجد بعد عدمه ثم عدم بعد وجوده هو ظهور الصوت القديم لا نفسه، فالمحدث وقع على الإدراك لا على المدرك، كما إذا سمع كلامه سبحانه منه بعد أن لم يسمع، ثم عدم السمع فالحدوث واقع على السمع لا على المسموع، وهذا قول جماعة ممن ينسب إلى الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).

وأصحابه المتقدمون بريئون من هذا المذهب المخالف للحس والعقل والفطرة، ونصوص أحمد إنما تدل على خلافه، فقد نص في رواية جماعة من أصحابه

على أن الصوت صوت العبد، فقال في قول النبي-صلى الله عليه وسلم- ((**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**)). [1]، قال يجهر به ويحسنه بصوته ما استطاع، وقد نص على ذلك الأئمة كالبخاري وغيره.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((**الماهر بالقرآن مع الكرام البررة**)). [2]، ((**وزينوا القرآن بأصواتكم**)). [3] ثم احتج بحديث **أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ((**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**)). [4] ، فأضاف الصوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم ساق حديث **البراء-رضي الله عنه-(ت: ٧٢ هـ)**، ((**أن النبي**

---

1 أخرجه البخاري (7527).

2 أخرجه البخاري (4937) بلفظ مقارب، ومسلم (798) باختلاف يسير.

3 رواه الإمام أحمد ٤/ ٨٣، وأبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢)، والنسائي ٢/ ١٧٩، وصححه ابن حبان ٣/ ٢٥ (٧٤٩)، والحاكم ١/ ٥٧١. وعلقه البخاري قبل حديث (٧٥٤٤) كلهم من حديث البراء بن عازب وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (١٣٢٥) وقال: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبد الرحمن بن عوسجة وهو ثقة.

4 أخرجه البخاري (7554)، ومسلم (792).

صلى الله عليه وسلم قرأ في العشاء بالتين والزيتون، ما سمعت صوتا أحسن منه)). [1]، فأضاف الصوت إليه ثم ذكر حديث **ابن عباس–رضي الله عنهما– (ت: ٦٨ هـ)**، **((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متواريا بمكة وكان يرفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن جاء به، فأنزل الله تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}** [الإسراء: الآية: ١١٠]))**.** [2] ثم قال: باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز تراقيهم، وذكر في الباب حديث **أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–(ت: ٧٤ هـ)** **((يخرج أناس من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم))**. [3]، ومعلوم أن المراد التلاوة والأداء وما قام بهم من الأصوات، وأنها لم تجاوز حناجرهم، وكان البخاري قد امتحن بهذه الفرقة، فتجرد للرد عليهم وبالغ في ذلك في كتاب (خلق أفعال العباد) فإنه بناه على ذلك وأن أصوات العباد من أفعالهم أو متولدة عن أفعالهم فهي من أفعالهم، فالصوت صوت العبد حقيقة، والكلام

1 أخرجه البخاري (7546)، ومسلم (464).
2 أخرجه البخاري (4722)، ومسلم (446) باختلاف يسير.
3 أخرجه البخاري (7562).

كلام الله حقيقة، أداه العبد بصوته كما يؤدي كلام الرسول وغيره بصوته، فالعبد مخلوق وصفاته مخلوقة وأفعاله مخلوقة وصوته وتلاوته مخلوقة، والمتلو المؤدى بالصوت غير مخلوق.

واحتج البخاري في الصحيح في (خلق أفعال العباد) على ذلك بنصوص التبليغ، كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}** [المائدة: الآية: ٦٧] وقوله: **{إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}** [الشورى: الآية: ٤٨] وقوله: **{لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي}** [الأعراف: الآية: ٧٩] وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصلين ضل فيهما أهل الزيغ:

أحدهما: أن الرسول ليس له من الكلام إلا مجرد تبليغه، فلو كان هو قد أنشأ ألفاظه لم يكن مبلغا، بل منشئا مبتدئا، ولا تعقل الأمم كلها من التبليغ سوى تأدية كلام الغير بألفاظه ومعانيه ولهذا يضاف الكلام إلى المبلغ عنه لا إلى المبلغ.

وأيضا فالتبليغ والبلاغ هو الإيصال، وهو معدى من بلغ إذا وصل، والإيصال حقيقة أن يورد إلى الموصل إليه ما حمله إياه غيره، فله مجرد إيصاله.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ وهو مأمور به مقدور له، وتبليغه هو تلاوته بصوت نفسه، فلو كان الصوت والتلاوة وصوت المتكلم به أزليا وتلاوته لم يكن فعلا مأمورا به مضافا إلى المأمور، وبالجملة فالتبليغ هو صوت المبلغ القائم به.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): باب ما جاء في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}** [المائدة: الآية: ٦٧]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ((بلغوا عني ولو آية وليبلغ الشاهد الغائب وأن الوحي قد انقطع)). [1]، فتأمل مقصوده بقوله: وإن الوحي قد انقطع فلو كانت أصواتنا بالقرآن هي نفس الصوت القديم الذي تكلم الله تعالى به لم يكن الوحي قد انقطع، بل هو متصل ما دامت أصوات العباد مسموعة بالتلاوة، فالقائلون إن هذا الصوت القديم ظهر عند تلاوة التالي، وهو الصوت الذي أوحى الله به الوحي إلى رسوله، وهو غير منقطع لزمه لزوما بينا أن الوحي متصل غير منقطع.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): في كتاب (خلق أفعال العباد) ويذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يكون الرجل

1 خلق أفعال العباد ص: ٨٨.

خفت الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله سبحانه ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله تعالى.

قال أبو عبد الله: وفي الدليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا نادى جبرائيل الملائكة لم يصعقوا، ثم ساق في الباب أحاديث تكلم الله بالصوت محتجا بها. [1]

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) [2]. فقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه، ولا يشك في قراءة الكفار أهل الكتاب أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام العليم المنان ليس بخلق، فمن حلف بأصوات قيصر أو بنداء المشركين الذين يقرون بالله لم تكن عليه يمين دون الحلف بالله لقول النبي-صلى الله عليه وسلم- ((لا تحلفوا بغير الله)). [3]. وليس للعبد أن يحلف بالخواتيم والدراهم البيض وألواح الصبيان التي يكتبونها ثم يمحونها المرة بعد المرة، وإن حلف فلا

1 خلق أفعال العباد ص: ٩٨.
2 خلق أفعال العباد ص: ٩٨.
3 خلق أفعال العباد ص: ٩٨.

يمين عليه لقوله تعالى: **{فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [البقرة: الآية: ٢٢]. [1]

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): وقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((بينا أنا في الجنة سمعت صوت رجل بالقرآن)) [2]. فبين أن الصوت غير القرآن.

قلت: ونظيره إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن.

قال أبو عبد الله: ويقال له صفة الله وكلامه، وعلمه وأسمائه وعزه وقدرته بائنة من الله أم لا، وقولك وكلامك بائن من الله أم لا.

قال أبو عبد الله: قال الله تعالى: **{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ}** [النجم: الآيات: ٣٩-٤٠]، وقال تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ}** [نوح: الآية: ١] والإنذار من نوح وهو نذير مبين يأمرهم بطاعة الله، وأما الغفران فإنه من الله يقول **{يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ}** [نوح: الآية: ٤] ، ثم قال: **{رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا**

---

1 خلق أفعال العباد ص: ١٠٢.

2 خلق أفعال العباد ص: ١٠٩.

وَنَهَارًا} [نوح: الأية: ٥] فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح، وقال ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم كانوا يقرءون القرآن فيجهرون به ((**خلطتم علي القرآن يقول علت أصواتكم صوتي**)) [1]، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفع بعضهم على بعض صوته، ولم ينه عن القرآن ولا عن كلام الله.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): واعتل بعضهم فقال حتى يسمع كلام الله، قيل له إنما قال حتى يسمع كلام الله لا كلامك ونغمتك وصوتك، إن الله فضل موسى بكلامه، ولو كان يسمع الخلق كلهم كلام الله كما سمع موسى لم يكن لموسى عليك فضل، ومعنى هذا أن هذا الصوت المسموع من القارئ لو كان هو الصوت الذي سمعه موسى لكان كل من سمع القرآن بمنزلة موسى في ذلك". (2)

---

1 أخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام " (٢٥٤)، وفي خلق أفعال العباد ص: ١١١.

(2) مختصر الصواعق المرسلة ٥٠٣-٥٠٨.

[رؤية الله في الآخرة]

المسألة الأولى: رؤية الله يقظة.

المسألة الثانية: رؤية الله-عز وجل-في المنام.

المسألة الثالثة: رؤية النبي-صلى الله عليه وسلم-ليلة المعراج.

المسألة الرابعة: رؤية الله عز وجل في الآخرة.

المسألة الخامسة: الفرق المخالفة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة

[١٤]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن الله-عز وجل-يُرى في الآخره، ينظر إليه المؤمنون عيانًا جِهارًا، ويسمعون كلامَه".**

الشرح

تمهيد.

مسألة رؤية الله يُلحقها العلماء بباب الصِّفات، مع أن البحث في رؤية العبد لربه وليس العكس، ولكنهم يُلحقونها بباب الصفات.

ويجدر التنبيه على أمور مهمة تتعلق بمسألة الرؤية، فمسألة رؤية الله عز وجل مُتشعبة؛ إذ تشتمل على المسائل الآتية:

- المسألة الأولى: ما يتعلق برؤيته سبحانه وتعالى في الدنيا عيانًا.
- المسألة الثانية: ورؤيته جل وعلا منامًا.
- المسألة الثالثة: ورؤية النبي ﷺ لربّه ليلة المعراج.
- المسألة الرابعة: ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة.
- المسألة الخامسة: وكذلك رؤية المنافقين والكافرين له جل جلاله يوم القيامة.

المسألة الألى: رؤية الله في الدنيا يقظة.

رؤية الله في الدنيا يقظة غير واقعة شرعًا، وغير مُمكنة، وقد اتفقت الأمةُ على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا بعينه، ولم ينازعوا في ذلك إلا ما شَذَّ من بعض غُلاة الصُّوفية؛ فقد زعموا أنه يجوز رؤية الله في الدنيا، وأنه يَزورهم ويَزورونه في الحضرة الإلهية ويَرَوْنه (1)، وهؤلاء لا عبرة بخلافهم؛ إذ كله كذب ودجل.

ومَن ادَّعى رؤية الله في الدنيا بعيني رأسه فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة، وهو ضالٌّ.

---

(1) المِلل والنِّحَل للشَّهرستاني (1/ 105).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)، في ردِّه على مَن زعم رؤية الله في الدنيا يقظة: "مَن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضالٌّ، مُخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل مِن موسى، فإن هؤلاء يُستتابون، فإن تابوا وإلا قُتلوا". (1)

وقد بَيَّن–رحمه الله–علة عدم إمكان رؤية الله في الدنيا بالعين، حيث قال: "وإنَّما لم نَره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرَّائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قُوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل خَرَّ موسى صعقًا، قال: سبحانك! تُبت إليك، وأنا أول المؤمنين بأنَّه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولهذا كان البشر يَعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلَّا مَن أيده الله، كما أيَّد نبينا صلى الله عليه وسلم". (2)

والأدلة التي استند عليها أهل السنة في إجماعهم على عدم وقوع رؤية الله في الدنيا يقظة–كثيرة؛ منها:

---

(1) مجموع الفتاوى (7/ 104).

(2) «منهاج السنة النبوية» (2/ 332).

قول النبي–صلى الله عليه وسلم–كما في «صحيح مسلم»: ((**تَعَلَّمُوا أنَّه لن يرى أحدٌ مِنكم ربه–عز وجل–حتى يَموت**)). (1)، فهو صريح في عدم وقوع الرؤية البصرية لأحد من الناس لله جل وعلا في هذه الدار الدنيا حتى ولو كان نبيًّا؛ لأن الله–جل وعلا–قد مَنع موسى–عليه السلام–مِن أن يَرَاه، وهو أحد أُولي العزم من الرسل، فكيف بمن دونه مِن سائر المؤمنين؟! فإن الله–جل وعلا–لما قال له موسى: **{رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}** [الأعراف: الآية: 143] قال: **{لَنْ تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: 143] فمنعه من أن يراه، وفي قوله: **{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}** [الأعراف: الآية: 143]، أي: لما تجلى الله للجبل تدكدك ولم يَثبت، فكيف يَثبت البشر الضعيف؟!

المسألة الثانية: رؤية الله–عز وجل–في المنام.

ذهب جمهور العلماء إلى جواز رؤية الله في المنام، وأنها قد تقع صحيحة، بل ذكر القاضي عياض–رحمه الله–اتفاق العلماء على هذه المسألة؛ فقال: "ولم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله في المنام". (2)

وقال الإمام البَغوي–رحمه الله–(ت: ٥١٠ هـ): "رؤية الله في المنام جائزة؛ قال معاذ–

---

(1) أخرجه مسلم (2931) من حديث عبد الله بن عمر–رضي الله عنه–.

(2) إكمال المعْلِم بفوائد مُسلم (7/ 220).

رضي الله عنه-(ت: ١٨ هـ)، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إني نَعست فرأيت ربّي**)) (1)، وتكون رؤيته-جَلَّت قُدرته-ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع، فإن رآه فوعد له جنة، أو مغفرة، أو نجاة من النار، فقوله حق، ووعده صدق، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته، وإن رآه معرضًا عنه فهو تحذير من الذنوب؛ لقوله سبحانه وتعالى: **{أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ}** [آل عمران: الآية: 77]، وإن أعطاه شيئًا من متاع الدنيا فأخذه، فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يَعظم بها أجرُه، لا يَزال يضطرب فيها حتى يُؤديه إلى الرحمة، وحسن العاقبة". (2)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ومن رأى الله-عز وجل-في المنام فإنَّه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرَّائي؛ إن كان صالحًا رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة...". (3)

وقال في موضع آخر: "وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (٢١٦٢٨)، والترمذي في العلل الكبير (٤٣٥)، والحاكم في المستدرك (١٨٦٩)، والطبراني في الكبير (١٦١٠٣).

(2) شرح السنة (12/ 227، 228).

(3) مجموع الفتاوى (5/ 251).

ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يُشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق...". (1)

وقال الإمام ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ) عند تفسير قوله تعالى: **{مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ}** [ص: الآية: 69]: فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: ((... **فإذا أنا بربي–عز وجل–في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب**)). **أعادها ثلاثًا، ((فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفتُ...))**، فهو حديث المنام المشهور، ومَن جعله يقظة فقد غَلط، وهو في السُّنن من طرق". (2)

المسألة الثالثة: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج.

بعد اتفاق أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا يقظة فقد اختلفوا في رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج.

---

(1) مجموع الفتاوى (3/ 390).

(2) تفسير ابن كثير (7/ 81).

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "**حكى عثمان بن سعيد الدارمي–رحمه الله–(ت: ٢٨٠ هـ)** في كتاب (الرؤية) له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وشيخنا–أي: ابن تيمية–يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه–ﷺ صلى الله عليه وسلم –رآه عز وجل، ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس–رضي الله عنهما–، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر–رضي الله عنه– عن النبي–صلى الله عليه وسلم–في الحديث الآخر: ((**حجابُه النُّورُ**)). (1)، فهذا النور هو–والله أعلم–النور المذكور في حديث أبي ذر–رضي الله عنه–: ((**رأيتُ نُورًا**))". (2) (3)

وهو ما رجَّحه–أيضًا–شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»، حيث قال–رحمه الله–: "ولم يتنازعوا إلا في النبي–صلى الله عليه وسلم–خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنَّه لم يَره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دَلَّت الآثار الصحيحة الثابتة النبي–صلى الله عليه وسلم–والصحابة وأئمة

---

(1) أخرجه مسلم (179) من حديث أبي موسى–رضي الله عنه–.

(2) أخرجه مسلم (178) من حديث أبي ذر–رضي الله عنه–.

(3) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (1/ 3).

المسلمين، ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمدًا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إمَّا إطلاق الرؤية، وإمَّا تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: ((**أتاني البارحةَ رَبِّي في أحسن صورة**)). (1) الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسرًا". (2)

فحملوا الآثار المطلقة الواردة في الرؤية؛ كأثر ابن عباس: ((رأى محمدٌ ربَّه)) على الرؤية القلبية، وحملوا الآثار النافية للرؤية؛ كأثر عائشة-رضي الله عنها-على الرؤية البصرية؛ لأنه-من خلال التَّتبع-لم يَرِد عن أحد منهم أنه قال: رآه بعينه، وعليه فلا تعارض بين هذه النصوص.

المسألة الرابعة: رؤية الله-عز وجل-في الآخرة.

ورؤية الله تعالى هي أعظم النعيم وأعلاه، وغايته ومنتهاه، وهو لكل مؤمن اصطفاه، فهي أجل مسائل الدين وأشرفه.

قال ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-(ت:٧٩٢ هـ): "هذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحرمها الذين

---

(1) أخرجه الترمذي (3157)، وأحمد (3304) وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (59).

(2) مجموع الفتاوى (1/ 169).

هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون". (1)

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بأن أهلَ الإيمان يرون ربهم يومَ القيامة كما وردت الأدلة بذلك

أولًا: الأدلة من القرآن:

● قوله تعالى: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}** [يونس: الآية: 26]، فقد فسرت الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم.

قال أبو بكر الصديق–رضي الله عنه–(ت: ١٣ هـ): "النظر إلى وجه الله". (2).

وقال قتادة–رحمه الله–(١١٨ هـ): "الحسني الجنة، والزيادة فيما بلغنا النظر إلى وجه

---

(1) شرح الطحاوية للقاضي ابن أبي العز (١/ ٢٠٨).

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٦ و١٦١) ونسبه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٠٦) إلى ابن أبي شيبة، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبي الشيخ، والدارقطني، وابن منده في الرد على الجهمية، واللالكائي والآجري، والبيهقي.

الله". (1)

وقال عامر بن سعد–رحمه الله–٩٦ هـ): "الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن". (2)

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى–رحمه الله–(ت: ٨٣ هـ): "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه! قال: فيتجلى لهم. قال: فيصغر عندهم كل شيء أعطوه. قال: ثم قال: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}** [يونس: الآية: 26]، قال: {**الْحُسْنَى**} الجنة، والزيادة النظر إلى وجه ربهم، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد ذلك". (3)

قال البغوي–رحمه الله–(ت: ٥١٦ هـ): "للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسني، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصديق–رضي الله عنه–(ت: ١٣ هـ)، وحذيفة–رضي الله عنه–(ت: ٣٦ هـ)، وأبو موسى––رضي الله عنه–(ت: ٤٢ هـ)، وعبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت:

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٧٤ رقم ١١٥٥).

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٧).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٩).

٣٤ هـ)، وهو قول الحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، وعكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ) وعطاء-رحمه الله-(ت: ١١٤ هـ)، ومقاتل-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، والضحاك-رحمه الله-(ت: ٦٤ هـ)، والسدي-رحمه الله-(ت: ١٢٨ هـ)". (1)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسني وهي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصحيح في الباب". (2)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "وقد ورد هذا عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في راوية، وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية، وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصحيح في الباب.

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. وفي رواية ثم تلا {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى**

---

(1) انظر: تفسير البغوي (٤/ ١٣٠).

(2) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٨٣٠) باختصار.

وَزِيَادَةٌ} [يونس: الآية: 26])) (1)" (2)

● قوله تعالى: ولدينا مزيد **{لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** [ق: الآية: 35] فقد فسر المزيد في هذه الآية بأنه النظر إلى الله تعالى كالآية السابقة،

قال أنس–رضي الله عنه–(ت: ٩٣ هـ)، في قول الله تعالى : **{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** قال: "يتجلى لهم كل جمعة". (3)

---

(1) رواه مسلم (181).

(2) تفسير القرطبي (8/ 330).

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم: ٩٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٩٨)، والبزار في مسنده (رقم: ٧٥٢٨)، وقال: "وعثمان صالح وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أنس بهذا اللفظ إلا عثمان بن عمير أبو اليقظان". وبنحوه رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥١٩ رقم: ٨١٣). قال ابن تيمية: "إسناده صحيح" مجموع الفتاوى (٦/ ٤١٥).

وقال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ): "يقول: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جل ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه وقيل: إن ذلك المزيد: النظر إلى الله جل ثناؤه". (1)

قال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "إن المزيد الذي يتفضل الله به على عباده فوق ما يشاءون هو ظهوره تعالى لهم". (2) وبهذا فسر الآية ابن جرير الطبري والقرطبي وغيرهما ودلالتها عن الرؤية كالآية السابقة.

● قوله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآيات: 22–23]، ووجه الاستدلال بالآية على الجواز ما نقل أن **{نَاظِرَةٌ}** أي رائية رؤية بصرية يوم القيامة كما قال أهل السنة والجماعة.

عن عكرمة–رحمه الله–(ت: ١٠٥ هـ) قال: "تنظر إلى ربها نظرًا". (3)

---

(1) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٥٤).

(2) تفسير ابن كثير (6/ 408).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

وقال عكرمة وإسماعيل بن أبي خالد وأشياخ من أهل الكوفة: "تنظر إلى ربها نظرًا". (1)

وعن الحسن–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ) قال: "تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق". (2)

قال الواحدي–(ت: ٤٦٨ هـ): "قال ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، في رواية عطاء–رحمه الله–(ت: ١١٤ هـ): "يريد إلى الله ناظرة ،"وقال في رواية الكلبي: "تنظر إلى الله يومئذ، لا تحجب عنه ،"وقال مقاتل: "تنظر إلى ربها معاينة ". (3)

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

(3) انظر: التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

قال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ): "الصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ ".

(1)

وقال الزجاج–رحمه الله–(ت: ٣٤٠ هـ): "نضرت بنعيم الجنة والنظر إلى ربها ".

(2)

وقال السمعاني–رحمه الله–(ت: ٤٢٦ هـ): "قوله: **{نَاظِرَةٌ}** بالضاد أي: مسرورة طلقة هشة بشة، والنضرة: هي النعمة والبهجة في اللغة. وقوله: **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** هو

---

(1) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠٩) بتصرف.

(2) انظر: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٢٥٣).

النظر إلى الله تعالى بالأعين، وهو ثابت للمؤمنين في الجنة بوعد الله تعالى وبخبر الرسول ". (1)

- **قال أبو الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ)**: "قال الله عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [القيامة: الآية: 22]، يعني: (مشرقة) إِلَى **{رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآية: 23] يعنى: رائية، ولا يجوز أن يكون بمعنى نظر التفكر والاعتبار لأن الآخرة ليست بدار الاعتبار، ولا يجوز أن يكون عني نظر الانتظار لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه". (2)
- قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥].

---

(1) انظر: تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٦/ ١٠٦).

(2) الإبانة عن أصول الديانة (ص: 12).

قال الحسن–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): "في قوله: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥]، قال: يكشف الحجاب، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كل يوم غدوة وعشية". (1)

وعن أشهب بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ٢٠٤ هـ)، صاحب مالك قال: قال رجل لمالك: يا أبا عبد الله هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ قال: "لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب، فقال: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥]". (2)

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٥١).

(2) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٦٨ رقم: ٨٠٨).

وقال الإمام الشافعي–رحمه الله–(ت: ٢٠٤ هـ) في قول الله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥]، قال: "فلا حجبهم في السخط: كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا". (1)

وقال الربيع بن سليمان–رحمه الله–(ت: ٢٧٠ هـ): "كنت ذات يوم عند الشافعي–رحمه الله–(ت: ٢٠٤ هـ)، وجاءه كتاب من الصعيد –وهو اسم موضع بمصر–يسألونه عن قول الله جل ذكره: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥] الآية. فكتب فيه: لما حجب الله قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا. قال الربيع: قلت له: أو تدين بهذا يا سيدي؟ فقال: والله لو لم يوقن محمد ابن إدريس أنه يرى ربه في الميعاد لما عبده في الدنيا". (2)

وقال الزجاج–رحمه الله–(ت: ٣٤٠ هـ): "وفي هذه الآية دليل على أن الله يرى في الآخرة، لولا ذلك لما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن الله–تعالى–وقال تعالى في المؤمنين: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا

---

(1) انظر: أحكام القرآن للشافعي، جمع الإمام البيهقي (١/ ٤٠).

(2) انظر مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤١٩).

نَاظِرَةٌ} [القيامة: الآيات: ٢٢ - ٢٣] فأعلم الله-تعالى-أن المؤمنين ينظرون إلى الله، وأن الكفار يحجبون عنه". (1)

أما الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر لقيا الله تعالى في الآخرة مثل:

قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ}** [البقرة: الآية: ٢٢٣].

وقوله تعالى: **{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ}** [البقرة: الآية: ٢٤٩].

وقوله تعالى: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** [التوبة: الآية: ٧٧].

وقوله تعالى: **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا}** [الأحزاب: الآية: ٤٤].

وقوله تعالى: **{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** [الكهف: الآية: ١١٠].

---

(1) انظر: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٢٩٩).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متي نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}** [التوبة: الآية: ٧٧] فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة، بل والكفار أيضا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة". (1)

قال أبو العباس أحمد بن يحيى المشهور بثعلب–رحمه الله–(ت: ٢٩١ هـ): في قوله تعالى: **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ}**. [الأحزاب: الآية: ٤٤]. "أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرا بالأبصار". (2).

ثانيًا: الأدلة من السنة:

١–**حديث عمار بن ياسر–رضي الله عنهما–(ت: ٣٧ هـ)**، حين سمع النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء: ((**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت**

---

(1) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (١/ ٦٠٨).

(2) انظر: الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ٦٢).

الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)). (1)

٢ - **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٩ هـ)**، أن أناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((**هل تضارون في القمر ليلة البدر؟**)). قالوا: لا. قال: ((**فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**)). قالوا: لا. قال: ((**فإنكم ترون**

---

(1) أخرجه النسائي (رقم: ١٣٠٥)، وابن حبان (رقم: ١٩٧١)، والطبراني في كتاب الدعاء (رقم: ٦٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٢٥)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٨٨)، وتمام الرازي في فوائده (٢/ ١٤٧ رقم: ١٣٨٧)، والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٥٨)، والحاكم في المستدرك (رقم: ١٩٢٣) وصححه، ووافقه الذهبي، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٤٠ رقم: ٨٤٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (رقم: ٢٢٧).

ربكم يوم القيامة كذلك. . .)). (1)

٣ - **عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري–رضي الله عنه–(ت: ٤٤ هـ)**: أن رسول الله ﷺ قال: ((**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر، على وجهه في جنة عدن**)). (2)

٤ - **عن أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–(ت: ٧٤ هـ)**، قال: قلنا يا رسول الله: هل نرى ربنا–عز وجل–؟ قال: ((**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة في غير سحاب؟**)). قال: قلنا: لا، قال: ((**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر في غير سحاب؟**)). قال: قلنا: لا، قال: ((**فإنكم لا تضارون في رؤيته لك يوم القيامة إلا كما لا تضارون في رؤيتهما**)). (3)

---

(1) أخرجه البخاري (رقم: ٦٥٧٣)، ومسلم (رقم: ٢٩٩) وغيرهما.

(2) أخرجه البخاري (رقم: ٤٨٧٨) ومسلم (رقم: ١٨٠) وغيرهما.

(3) أخرجه البخاري (رقم: ٧٤٣٩) والإمام أحمد في مسنده (رقم: ١١١٢٠) وابن ماجه (رقم: ١٧٩) وابن حبان (رقم: ٧٣٧٧) وابن أبي عاصم في كتاب السنة (رقم: ٤٥٢) وابن منده في كتاب الإيمان

٥-**وعن جرير بن عبد الله-رضي الله عنه-(ت: ٥٤ هـ)**، قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم سترون ربكم عيانا)) (1).

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وأما الأحاديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها عنه أبو بكر الصديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد الله البجلي، وصهيب بن سنان الرومي، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم الطائي، وأنس بن مالك الأنصاري، وبريدة بن الخصيب الأسلمي، وأبو رزين العقيلي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أمامة الباهلي، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعمارة بن رويبة، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص وحديثه موقوف، وأبي بن كعب، وكعب بن عجرة، وفضالة بن عبيد وحديثه موقوف، ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير مسمى. فهناك سياق أحاديثهم من الصحاح والمسانيد والسنن وتلقها بالقبول والتسليم، وانشراح الصدر لا بالتحريف والتبديل وضيق الطعن ولا تكذب بها فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين وكان عنه يوم

(رقم: ٨١٧) والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٠) وابن النحاس في كتاب رؤية الله (رقم: ٥).

(1) رواه البخاري (7435).

القيامة من المحجوبين". (1) ثم ذكر بعد ذلك سياق الأحاديث بكاملها.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "تواترت الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد والأجزاء عن نحو من عشرين صحابيا كراماء فضلاء عن النبي ﷺ، أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ولا يكاد ينازع من له إنصاف في تواتر أحاديث رؤية الله يوم القيامة". (2)

وقد نظم ذلك بعض العلماء (3) فقال:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتا واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذى بعض

---

(1) حادي الأرواح (ص: 231).

(2) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤/ ١٥٠).

(3) نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني (ص: ١٨).

ثالثًا: دليل الإجماع.

أجمع سلف الأمة وأئمتها من الصحابة-رضي الله عنهم-، ومن بعدهم على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، رؤية حقيقة بالأبصار عيانا، كما ورد في الكتاب والسنة.

وحكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة رحمه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "رؤية المؤمنين ربهم لك يوم القيامة، وهو ديننا الذي ندين الله به، وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة، فهو: أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ". (1)

وقال أبو الحسن الأشعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله-عزوجل-يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى في قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣] وقد بين معنى ذلك النبي ﷺ ودفع كل إشكال فيه بقوله للمؤمنين: "ترون ربكم عيانا". (2)

وقال ابن أبي زمنين المالكي-رحمه الله-(ت: ٣٩٩ هـ): "قول أهل السنة: إن المؤمنين

---

(1) انظر: صريح السنة للطبري (ص: ٢٠).

(2) انظر: رسالة إلى أهل الثغر للأشعري (ص: ١٣٤).

يرون ربهم في الآخرة وأنه يحتجب عن الكفار والمشركين فلا يرونه". (1)

وقال ابنُ القيّم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "دلَّ الكتابُ والسنَّةُ المتواتِرَةُ وَإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةُ أهلِ الإسلامِ والحديثِ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرى يومَ القيامَةِ بِالأبصارِ عِيَانًا، كَمَا يُرى القَمَرُ ليلةَ البدرِ صَحْوًا، وَكَمَا تُرى الشَّمسُ في الظَّهيرة، فَإن كَانَ مَا أَخبَرَ به اللهُ وَرَسُوله عنه من ذلك حَقِيقَةً–وإنَّ له والله حقَّ الحقيقة–فَلَا يُمكِنُ أن يَروهُ إِلَّا مِن فَوقِهم؛ لاستِحَالَةِ أَن يَروهُ أسفل منهم، أو مِن خلفهم، أَو أمامهم، وَنَحو ذَلِكَ...، فلَا يَجتَمِعُ فِي قَلبِ العبد بعد الاطلاع عَلَى هَذِهِ الأَحَادِيث وَفَهِمَ مَعنَاهَا إنكارُها والشهادةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ أَبَدًا". (2)

رابعًا: دليل العقل.

العقل لا يمنع رؤية الله تعالى، لأن كل موجود صح وجوده وثبت كانت رؤيته ممكنة، وما كانت رؤيته ممتنعة أو متعذرة فهو المعدوم، وكذلك إذا كانت الرؤية إنها تثبت للشيء لكماله، فالله تعالى أولى بالكمال فتكون الرؤية في حقه تعالى أولى، ورؤيته تعالى في الدنيا عيانا ممتنعة

---

(1) انظر: أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ١٢٠).

(2) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: 342).

لضعف الإنسان وعجزه، أما في الآخرة فهي ثابتة متحققة.

قال النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلا وأجمعوا أيضا على وقوعها في الآخرة وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابية عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة" (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "معلوم أن الرؤية تعلق بالموجود دون المعدوم، ومعلوم أنها أمر وجودي محض لا يسيطر فيها أمر علمي وإذا كانت أمرا وجوديا محضا، ولا تتعلق إلا بالموجود فالمصحح لها الفارق بين ما يمكن رؤيته وما لا يمكن رؤيته: إما أن يكون وجودا محضا، أو متضمنا أمرا عدميا. والثاني باطل لأن العدم لا يكون له تأثير في الوجود المحض فلا يكون سببا له، ولا يكون أيضا شرطا أو جزءا من السبب إلا أن يتضمن وجودا فيكون ذلك الوجود هو المؤثر في الوجود ويكون ذلك العدم دليلا عليه ومستلزما له ونحو ذلك، وهذا من الأمور البينة عند التأمل. وإذا كان المقتضى جواز الرؤية، والمصحح للرؤية، والفارق بينما تجوز رؤيته وبينما لا تجوز: إما أن يكون وجودا محضا فلا حاجة بنا إلى

---

(1) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٣/ ١٥).

تعيينه، سواء قيل هو مطلق الوجود أو القيام بالنفس، أو بالعين بشرط المقابلة والمحاذاة، أو غير ذلك مما يقال إنه مع وجوده تصح الرؤية ومع عدمه تمتنع، لكن المقصود أنه أمور وجودية، وإذا كان كذلك فقد علم أن الله تعالى هو أحق بالوجود، وكماله من كل موجود، إذ وجوده هو الوجود الواجب، ووجود كل ما سواه هو من وجوده، وله الكمال التام في جميع الأمور الوجودية المحضة فإنها هي الصفات التي بها يكون كمال الوجود، وحينئذ فيكون الله –وله المثل الأعلى– أحق بأن تجوز رؤيته لكان وجوده، ولكن لم نره في الدنيا لعجزنا عن ذلك وضعفنا كما لا نستطيع التحديق في شعاع الشمس". (1)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجودا كان أحق بأن يرى، فالباري سبحانه أحق بأن يرى من كل ما سواه؛ لأن وجوده أكمل من وجود كل ما سواه، يوضحه: أن تعذر الرؤية: إما خفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب سبحانه أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة الباصرة في غاية القوة لأنها دائمة فقويت على رؤيته تعالى، وإذا جاز أن يرى سبحانه فالرؤية المعقولة عند جميع بني آدم عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم أن يكون المرئي مقابلا للرائي مواجهة له مباينا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينته للمرئي

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٠ – ٤٣٢) باختصار.

لزم ضرورة أن يكون مرئيا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم لا من تحتهم". (1)

ومسألة رؤية الله عز وجل في الآخرة على أقسام:

القسم الأول: رؤية المؤمنين لربِّهم–جل وعلا:–

فالمؤمنون يرونَهُ سبحانه وتعالى يومَ القيامةِ؛ فَمَنِ لَمْ يُؤمن بِأَنَّهُ–سبحانه–يُرَى يومَ القيامةِ فَقَد رَدَّ أَدِلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيهِ سَلفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتها، وَلَم يُؤمن بِاللهِ، وَمَلائكتِهِ، وكتبِهِ، وَرسلِهِ.

فالله سبحانه وتعالى سيخص المؤمنين بمزيد من الإنعام يوم القيامة، وهو رؤيته جل وعلا، فقد **روى أبو هريرة رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله: ((**هَل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟**)). قالوا: لا يا رسول الله. قال: ((**هل تُضارون في الشَّمس ليس دونها سحاب؟**)). قالوا: لا. قال: ((**فإنَّكم ترونه**

(1) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٣٣٢).

كذلك...))، الحديث. (1)

وسيخصهم في الجنة بأعظم نعمة أنعم عليهم بها؛ ألا وهي تشريفهم وإكرامهم بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، كما قال تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآيات:22، 23].

وقال تعالى عن الكافرين: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: 15].

قال الإمامُ الشافعيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٠٤ هـ): "فَدَلَّ هذا على أنَّ المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى".

وقال جل شأنه: {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: الآية: 35].

فالمزيد هنا هو: النَّظر إلى وجه الله عز وجل، كما فسَّره بذلك علي (ت: ٤٠ هـ)، وأنس بن مالك (ت: مابين ٩٠ و٩٣ هـ)، –رضي الله عنهما–.

وقال سبحانه: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ}** [يونس: الآية: 26].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما فَسَّرها بذلك رسول الله

---

(1) أخرجه البخاري (6088) ومسلم (267).

ﷺ بقوله: ((**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ! فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا اعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِن النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وهي الزيادة، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}**)). (1)

قال الإمام ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "وأمَّا السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه. آمين". (2)

القسم الثاني: رؤية الكفار والمنافقين لربِّهم جل وعلا.

أَمَّا الكفارُ والمُنَافِقِينَ، فَقَد **ذكر ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** أنَّ الناسَ قد تَنَازَعَوا في ذلك على ثَلَاثَةِ أَقوالٍ؛ فقال: "فَأَمَّا مَسْأَلَةُ رُؤْيَةِ الكُفَّارِ فَأَوَّلُ مَا انْتَشَرَ الكَلَامُ فِيهَا، وَتَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا–فِيمَا بَلَغَنَا–بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ مِن الهِجْرَةِ، وَأَمْسَكَ عَن الكَلَامِ فِي هَذَا قَوْمٌ مِن العُلَمَاءِ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا آخَرُونَ؛ فَاخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، مَعَ أَنِّي مَا عَلِمْت أَنَّ أُولَئِكَ

---

(1) أخرجه مسلم (266) من حديث صُهَيْبٍ–رضي الله عنه–.

(2) تفسير ابن كثير (3/ 309).

المخْتَلِفِينَ فِيهَا تَلَاعَنُوا وَلَا تَهَاجَرُوا فِيهَا؛ إِذْ فِي الفِرَقِ الثَّلَاثَةِ قَوْمٌ فِيهِمْ فَضْلٌ، وَهُمْ أَصْحَابُ سُنَّةٍ".

ثم قال رحمه الله: "وَالأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ فِي (رُؤْيَةِ الكُفَّارِ):

أَحَدُهَا: أَنَّ الكُفَّارَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ بِحَالٍ؛ لَا المظْهِرُ لِلكُفْرِ، وَلَا المسِرُّ لَه، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ المتَأَخِّرِينَ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ عُمُومُ كَلَامِ المتَقَدِّمِينَ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَرَاهُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمُنَافِقِيهَا، وَغَبَرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَذَلِكَ فِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَن المنَافِقِينَ، فَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ خُزَيْمَةَ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ القَاضِي أَبُو يَعْلَى نَحْوَهُ فِي حَدِيثِ إِتْيَانِهِ-عز وجل-لَهُمْ فِي المَوْقِفِ؛ الحَدِيث المشْهُور.

الثَّالِثُ: أَنَّ الكُفَّارَ يَرَوْنَهُ رُؤْيَةَ تَعْرِيفٍ وَتَعْذِيبٍ؛ كَاللِّصِّ إِذَا رَأَى السُّلطَانَ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ؛ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُمْ، وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَوْلِ غَيْرِهِمْ؛ وَهُمْ فِي الأُصُولِ مُنْتَسِبُونَ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِلَى سَهْل بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتري". (1)

وممَّن رَجَّحَ رؤيَةَ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ للهِ فِي عَرَصاتِ القيامةِ **ابنُ القيّم-رحمه الله-(ت:**

---

(1) مجموع الفتاوى (6/ 486).

٧٥١ هـ) فِي «حادي الأرواح». (1)

أما أهل الكفر فكما قالَ الله سبحانه وتعالى عنهم: **{كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُون}** [المطفِّفين: الآية: 15]، فيُحجبون عن رؤية الله عز وجل، ولا شك أن أعظم عطاءٍ يُعطاه المؤمن؛ النظرُ إلى وجهه الكريم.

ولذلك أحد الصحابة لما سمعَ ذلك قال: "لن نعدِم من ربٍ يضحكُ خيرا". (2) فالله سبحانه وتعالى سيتجلَّى لعباده المؤمنين وسيرونه، وهذه الرؤية منها ما يكون في عرصاتِ يوم القيامة، ومنها ما يكون بعد دخولهم الجنة.

فمن عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة أن رؤية الله عز وجل ثابتة بنصوصِ القرآن والسنَّة، فنؤمنُ بها ونصدِّقُ بها كما أخبرت بذلك النصوص.

---

(1) حادي الأرواح (ص: 262).

(2) انظر سنن ابن ماجه برقم (181)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمَدَنِيِّينَ (16187)، ذكره الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة (٦/ 732)، وضعفه الأرنؤوط كما في المسند.

المسألة الخامسة: الفرق المخالفة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة. (1)

أولًا: أقوال المخالفين.

خالف في ذلك فرقتان من فرق الضلال، وقد تفرقوا إلى ثلاث فرق، وهي كما يلي:

الفرقة الأولى: المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والزيدية والمرجئة، ذهبوا إلى نفي رؤية الله تعالى في الآخرة، وحرفوها إلى معنى العلم به ومعرفته تعالى.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية". (2)

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "الرؤية بالأبصار على الله تستحيل، والرؤية بالمعرفة والعلم تجوز عليه". (3)

وعندهم أن من زعم أن الله يرى بالأبصار فهو مشبه لله بخلقه، والمشبه عندهم كافر بالله

---

(1) المصدر: مقدمة تحقيق كتاب صفات رب العالمين لابن المحب الصامت (١/ ١٩٩-٢٥٣).

(2) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٣٢).

(3) انظر: المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٣٣٧).

تعالى. (1)

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "أعلم أن من خالفنا في هذه المسألة لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يحقق الرؤية فيقول: إن الله يرى بلا مقابل لنا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل، أو لا يحقق فيقول: إنه تعالى يري بلا كيف، فمن ذهب إلى المذهب الأول فإنه يكون كافرا؛ لأنه جاهل بالله تعالى، والجهل كفر، والدليل على ذلك إجماع الأمة، وإجماع الأمة حجة. ومن قال: إنه تعالى يري بلا كيف فلا يكفر؛ لأن التكفير إنما يعرف شرعًا، ولا دلالة من جهة الشرع يدل على ذلك". (2)

الفرقة الثانية: وهم جمهور الأشاعرة المتأخرون، فقد ذهبوا إلى القول بأن الله يرى بلا جهة، فأثبتوا رؤية الله في الآخرة لورود النصوص والإجماع على ذلك، لكنهم جعلوا ذلك إلى غير جهة. (3)

الفرقة الثالثة: وذهب بعض الأشاعرة إلى القول بأن المقصود بالرؤية هو: "نوع إدراك

---

(1) انظر: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (ص: ٦٨).

(2) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٧٦ – ٢٧٧).

(3) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني (ص: ١٧٧ و١٧٨).

هو كمال ومزيد كشف بالإضافة إلى التخيل". (1)

فجعلوا حقيقة الرؤية كشف وزيادة علم بالله تعالى.

ثانيًا: شبه المخالفين والرد عليها.

أولًا: الأدلة الشرعية التي استدل بها المعتزلة ومن وافقهم على نفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

استدل المعطلة على مذهبهم بعدة أدلة من القرآن الكريم وهي:

١ - قوله تعالى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣].

وجه الدلالة: أن الإدراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية، وثبت أنه تعالى نفي عن نفسه إدراك البصر، ونجد في ذلك تمدحا راجعا إلى ذاته، وما كان من نفيه تمدحا راجعا إلى ذاته كان إثباته نقصا، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال. (2)

---

(1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي (ص: ٤٥).

(2) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٣٣).

وقالوا أيضا: أنه نفى أن يدرك بالأبصار، وقد علمنا أن الإدراك إذا قرن بالبصر أفاد ما تفيده رؤية البصر، وإذا كان إذا أطلق فقد يستعمل بمعنى اللحوق، فيقال: أدرك الغلام إذا بلغ، وأدركت الثمرة إذا نضجت، وأدرك فلان فلانة إذا لحقه، وقال سبحانه: **{حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ}** [يونس: الآية: ٩٠] يعني: لحقه الغرق، وقال سبحانه: **{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}** [الشعراء: الآية: ٦١] يعني: لملحوقون، وقد يقال عند الإطلاق: أدركت الحرارة والبرودة وأدركت الصوت، وكل ذلك إنما يصح إذا لم يقرن بالبصر، ومتي قرن به زال الاحتمال عنه، فاختص بفائدة واحدة وهي الرؤية بالبصر، فإذا صح ذلك فيجب أن يكون: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]، في باب الدلالة على أنه لا يرى، بمنزلة قوله لو قال: "لا تراه الأبصار"، فثبت أنه نفى عن نفسه إدراك البصر فيتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات، يبين ما ذكرناه: أنه لا فرق بين قولهم: أدركت ببصري هذا الشخص، وبين قولهم: رأيت ببصري هذا الشخص، أو أبصرت ببصري هذا الشخص، حتى لو قال: أدركت ببصري وما رأيت، أو رأيت وما أدركت لعد متناقضة، ومن علامات اتفاق اللفظين في الفائدة أن يثبتا في الاستعمال معا ويزولا معا، حتى لو أثبت بأحدهما ونفى بالآخر لتناقض الكلام. (1)

---

(1) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤/ ١٤٤) وشرح الأصول الخمسة له أيضا (ص: ٢٣٤).

قالوا: ومما يؤيد العموم **أن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**، لما أنكرت قول ابن عباس في أن محمدا–صلى الله عليه وسلم–رأى ربه ليلة المعراج تمسكت في نصرة ما ذهبت إليه بهذه الآية، ولو لم تكن هذه الآية مفيدة للعموم بالنسبة إلى كل الأشخاص وكل الأحوال لما تم ذلك الاستدلال، ولا شك أنها من أكثر الناس علما بلغة العرب، فثبت أن هذه الآية دالة على النفي بالنسبة إلى كل الأشخاص وذلك يفيد المطلوب.

وأيضا: إن الباري تعالى تمدح بكونه لا يرى، حيث إن قوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]، وقعت في أثناء المدائح فإن ما قبلها مشتمل على المدح والثناء، وقوله بعدها: **{وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]، أيضا مدح وثناء، فيجب أن يكون قوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]، مدحا وثناء، وذلك يوجب الركاكة، وهي غير لائقة بكلام الله تعالى وتقدس، وحينئذ نقول: إن كل ما كان عدمه مدحا ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصا في حق الله تعالى، والنقص على الله تعالى محال،لقوله: **{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ}** [البقرة: الآية: ٢٥٥] وقوله: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: الآية: ١١] وقوله **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}** [الإخلاص: الآية: ٣] إلى غير ذلك، فوجب أن يقال: كونه تعالى مرئيا محال. (1)

---

(1) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤/ ١٥٠)، وشرح الأصول الخمسة

٢ - قوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣].

قالوا: دلت هذه الآية على عدم رؤية الله تعالى على التأبيد في الدنيا والآخرة، وأنه مما يمتنع على الله-عز وجل-، وذلك لما يلي:

الوجه الأول: قال تعالى: **{لَن تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، وكلمة "لن" تفيد النفي على التأبيد، قال الزمخشري: "إنها لتأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن "لا" تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غدا، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدا، والمعنى أن فعله ينافي حالي، كقوله تعالى: **{لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}** [الحج: الآية: ٧٣] فقوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: ١٠٣] نفي للرؤية فيها يستقبل، و **{لَن تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، تأكيد وبيان؛ لأن النفي مناف لصفاته.

فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله **{وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، بما قبله؟

له أيضا (ص: ٢٣٥ - ٢٣٧)، وتفسير الرازي (١٣/ ٩٩).

قلت: اتصل به على معنى: "أن النظر إلى محال فلا تطلبه، ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله، دكا بسبب طلبك الرؤية؛ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره "كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: **{وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا}** [مريم: الآيات ٩٠-٩١]". (1)

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "ولن موضوعة للتأبيد، فقد نفى أن يكون مرئيا البتة، وهذا يدل على استحالة الرؤية عليه، فإن قالوا: أليس أنه تعالى قال حاكيا عن اليهود: **{وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}** [البقرة: الآية: ٩٥] أي: لا يتمنون الموت، ثم قال حاكيا عنهم: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}** [الزخرف: الآية: ٧٧]: فكيف يقال إن لن موضوعة للتأبيد؟

---

(1) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٤).

قلنا: إن "لن" موضوعة للتأبيد، ثم ليس يجب أن لا يصح استعماله إلا حقيقة، بل لا يمتنع أن يستعمل مجازا، وصار الحال فيها كالحال في قولهم: أسد وخنزير وحمار، فكما أن موضعها وحقيقتها لحيوانات مخصوصة ثم تستعمل في غيرها على سبيل المجاز والتوسع، واستعمالهم في غيرها لا يقدح في حقيقتها كذلك ههنا". (1)

الوجه الثاني: قوله تعالى: **{وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] ووجه الدلالة: أنه علق الرؤية حال تحركه وتدكدكه لا قبل ذلك.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "علق الرؤية باستقرار الجبل فلا يخلو: إما أن يكون علقها باستقراره بعد تحركه وتدكدكه، أو علقها به حال تحركه، لا يجوز أن تكون الرؤية علقها باستقرار الجبل؛ لأن الجبل قد استقر ولم ير موسى ربه، فيجب أن يكون قد علق ذلك باستقرار الجبل بحال تحركه، دالا بذلك على أن الرؤية مستحيلة عليه، كاستحالة استقرار

(1) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٦٤ - ٢٦٥).

الجبل حال تحركه، ويكون هذا بمنزلة قوله تعالى: **{وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** [الأعراف: الآية: ٤٠]". (1)

الوجه الثالث: قوله تعالى: **{وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] فلو كانت الرؤية جائزة ممكنة لم يخر موسى صعقا عند طلبه لها.

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "وخر موسى صعقا من هول ما رأى، ومعناه: خر مغشيا عليه غشية كالموت، وروي أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة". (2)

الوجه الرابع: قوله تعالى عن موسى: **{فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] قالوا: فهذا تنزيه لله تعالى عما لا يجوز عليه وهو الرؤية، فقوله: **{سُبْحَانَكَ}** الكلمة للتنزيه، فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عما تقدم ذكره، والذي تقدم ذكره هو رؤية الله تعالى. فكان قوله: **{سُبْحَانَكَ}** تنزيها له عن الرؤية، فثبت بهذا أن نفي الرؤية تنزيه لله

---

(1) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٦٥).

(2) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٤).

تعالى، وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات وذلك على الله محال فثبت أن الرؤية على الله ممتنعة. (1)

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "فلما أفاق من صعقته قال: **{سُبْحَانَكَ}** أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها". (2)

الوجه الخامس: قوله تعالى: عن موسى-عليه السلام-: **{تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] قالوا: ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه، ولولا أنه ذنب ينافي صحة الإسلام لما قال: **{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]. (3)

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "تبت إليك من طلب الرؤية **{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، بأنك لست بمرئي ولا تدرك بشيء من الحواس، فإن قيل: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة -وإن كان

---

(1) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٥٧).

(2) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٥).

(3) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٥٧).

لغرض صحيح- على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى". (1)

٣ - أن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه، وذلك في آيات، وهي:

١ - قوله تعالى: **{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ}** [النساء: الآية: ١٥٣] فسمي ذلك ظلما وعاقبهم في الحال، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة، فإن قلت: أليس إنه-عز وجل-قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية؟ قلت: الظاهر يقتضي كون كل واحد منها ممتنعة ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولا به في الرؤية.

٢ - وقوله تعالى: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [البقرة: الآية: ٥٥] فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}**، كقول الأمم لأنبيائهم: "لن نؤمن إلا بإحياء ميت" في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة.

٣ - وقوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ**

---

(1) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٥ - ١٥٦) بتصرف يسير.

رَبَّنَا ۖ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان: الآية: ٢١] فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتوا لأن من سأل الله تعالى نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتيا وجرى ذلك مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت، فلو أن الرؤية كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا ومنكرا، وذلك ممنوع. (1)

٤ – قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}** [الشورى: الآية: ٥١]. ووجه الدلالة: أن الله–عز وجل–حصر تكليمه للبشرة في الوحي إلى الرسل، وتكليمه لهم من وراء حجاب، وإرساله إياهم إلى الأمم ليكلمهم على ألسنتهم، وإذا لم يره من يكلمه في وقت الوحي لم يره في غيره إجماعا، وإذا لم يره هو أصلا لم يره غيره أيضا، إذ لا قائل بالفرق". (2)

---

(1) انظر: تفسير الرازي (٣/ ٥٢٠) باختصار وتصرف، وشرح مواقف الإيجي لعلي الجرجاني (٨/ ١٥٨) ضبطه وصححه: محمود الدمياطي.

(2) انظر: شرح مواقف الإيجي لعلي الجرجاني (٨/ ١٥٩).

ثانيًا: الرد على شبه المعطلة في استدلالهم بالأدلة الشرعية لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

[الرد على حجتهم الأولى]

أن الآية الكريمة حجة عليهم، ولا حجة لهم فيها بأي حال من الأحوال، وذلك للأوجه التالية.

الوجه الأول: أن استدلالهم ذلك كذب على اللغة، ودعوى مجردة عن الدليل؛ لأن الله تعالى إنما نفي الإدراك، والإدراك في اللغة معن زائد على النظر والرؤية، وهو معنى الإحاطة ليس هذا المعنى في النظر والرؤية، فالإدراك منفي عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة، برهان ذلك قول الله-عز وجل-: **{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}** [الشعراء: الآية: ٦١] وأخبر تعالى أنه رأى بعضهم بعضا فصحت منهم الرؤية لبني إسرائيل، ونفى الله الإدراك بقول موسى-عليه السلام-لهم: **{قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** [الشعراء: الآية: ٦٢] فأخبر تعالى أنه رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل ولم يدركوهم، ولا شك في أن ما نفاه الله تعالى غير الذي أثبته، فالإدراك غير الرؤية، والحجة لقولنا هو قول الله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآيات: ٢٢ - ٢٣].

(1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الآية حجة عليهم لا لهم؛ لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة، والأول باطل لأنه ليس كل من رأى شيئا يقال إنه أدركه، كما لا يقال أحاط به، كما سئل ابن عباس–رضي الله عنهما–عن ذلك فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أكلها ترى؟ قال لا".

ومن رأى جوانب الجيش، أو الجبل، أو البستان، أو المدينة لا يقال إنه أدركها وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك وإنما ذكرنا هذا بيانا لسند المنع، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية، وأن كل من رأى شيئا يقال في لغتهم أنه أدركه، وهذا لا سبيل إليه، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص أو اشتراك لفظي؟! فقد تقع رؤية بلا إدراك، وقد يقع إدراك بلا رؤية، فإن الإدراك يستعمل في: إدراك العلم وإدراك القدرة، فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يشاهد: كالأعمى الذي طلب رجلا هاربا منه فأدركه ولم يره، وقد قال تعالى: **{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** [الشعراء: الآيات: ٦١ – ٦٢] فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا

---

(1) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣/ ٢–٣)، بتصرف.

إدراك، والإدراك هنا هو: إدراك القدرة، أي ملحوقون محاط بنا، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفي إحاطة البصر أيضا.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه-عز وجل-، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدح إن لم يتضمن أمرا ثبوتيا، ولأن المعدوم أيضا لا يرى، والمعدوم لا يمدح فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه، وهذا أصل مستمر وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتا لا مدح فيه ولا كمال". (1)

وقال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فلم ينف موسى-عليه السلام- الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: **{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}** إنا لمرئيون؛ فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله: **{كَلَّا}** وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: **{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ}** [طه: الآية: ٧٧]. فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما لا يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمته الصحابة والأئمة من بعدهم من الآية. قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] لا تحيط به الأبصار. وقال قتادة: "هو أعظم من أن تدركه الأبصار". وقال ابن عطية: "ينظرون إلى الله

---

(1) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣١٧ - ٣٢٠) باختصار.

ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم". (1)

الوجه الثاني: أن الآية رد عليكم، فهي حجة لأثبات الرؤية لا نفيها، وذلك لأمرين:

الأول: أن معنى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: ١٠٣] كما جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف: أن الإدراك المنفي هنا هو الإحاطة. والمعنى: لا تحيط به الأبصار. (2).

والإدراك قد يطلق على الإحاطة كثيرا، كقوله: **{أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ}** [يونس: الآية: ٩٠]، أي: أحاط به من جميع جهاته. **{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}** [الشعراء: الآية: ٦١] أي: محاط بنا. وعلى هذا فمعنى: **{لَّا تُدْرِكُهُ}** أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه في الجملة، فالإدراك المنفي هو الإحاطة. والإحاطة لا يستلزم نفيها نفي مطلق الرؤية الثابت في الأحاديث المتواترة والآيات القرآنية.

الثاني: أن معنى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** أي: لا تدركه في دار الدنيا، بدليل قوله: في الآخرة: **{وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة}** [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣]. فلما قيد نظرها إلى ربها بقوله: **{يومئذ}** أي: يوم القيامة، عرفنا أن ذلك النظر مقيد بالقيامة، وأن: **{لَّا تُدْرِكُهُ**

---

(1) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص: ٦٢٠).

(2) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٤٥٩).

الْأَبْصَارُ} أي: في دار الدنيا. ولو سلمنا من أن الإدراك: الرؤية، وأن الآية عامة: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** فعمومها تخصصه آيات أخر بيوم القيامة: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآيات: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا بمحجوبين عن ربهم، وقد تقرر في الأصول أن المفهوم يخصص العام، سواء كان مفهوم موافقة، أو مفهوم مخالفة. (1)

الوجه الثالث: قد يقال أيضا: إن المراد نفي الرؤية وقد عدم إذن الله تعالى للأبصار بالإدراك، والدليل على صحة إرادة هذا القيد أن إرادة الإبصار فعل من أفعال العبيد وكسب من كسبهم، وقد ثبت بغير ما دليل أن العباد لا يقدرون على شيء من المقدورات إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وتمكينه، فلا تدركه الأبصار إلا بإذنه وهو المطلوب. ويؤيد هذا البيان ويشيد أركانه أن: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] وقع بعد قوله سبحانه: **{وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** [الأنعام: الآية: ١٠٢] ووجه التأييد: أن الله تعالى أخبر بأنه على كل شيء وكيل أي متول لأموره، ومعلوم أن الأبصار من الأشياء وأن إدراكها من أمورها، فهو-عز وجل-متوليها ومتصرف فيها على حسب مشيئته، فيفيض عليها الإدراك ويأذن لها إذا شاء كيف شاء وعلى الحد الذي شاء، ويقبض عنها الإدراك قبضا كليا أو جزئيا في أي وقت شاء كيف شاء، ولا يخفى على هذا أنه غاية التمدح بالعزة والقهر والغلبة؛ فإن من هو على كل

---

(1) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ٥٣ - ٥٤) بتصرف.

شيء وكيل إذا لم تدركه الأبصار إلا بإذنه مع كونه يدرك الأبصار -ولا تخفى عليه خافية- كان ذلك غاية في عزته وقهره وكونه غالبا على أمره. (1)

الوجه الرابع: أن: "تدركه الأبصار" موجبة كلية؛ لأن موضعها جمع محلي كلية باللام الاستغراقية، وقد دخل عليها النفي فرفعها ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية، وبالجملة فيحتمل قوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] إسناد النفي إلى الكل، بأن يلاحظ أو لا دخول النفي، ثم ورود العموم عليه فيكون سالبة جزئية، ومع احتمال المعنى الثاني فلم يبق فيه حجة لكم علينا؛ لأن أبصار الكفار لا تدركه إجماعا، هذا ما نقوله لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية وقلنا: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] سالبة مهملة في قوة الجزئية فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض، فالآية حجة لنا لا علينا". (2)

الوجه الخامس: أن قوله تعالى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] الآية، وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام، فإنها لا تعم في الأزمان؛ لأنها سالبة مطلقة لا دائمة،

---

(1) انظر: روح المعاني للألوسي (٤/ ٢٣٢).

(2) انظر: شرح مواقف الإيجي للجرجاني (٨/ ١٥٦ - ١٥٧)، "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" لأبي الحسن الأشعري (ص: ٦٥).

ونحن نقول بموجبه حيث لا يرى في الدنيا (1)، وبهذا علمنا أن الوقت الذي قال إنه: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] فيه غير الوقت الذي أخبرنا أنها تنظر إليه فيه. (2)

الوجه السادس: ويقال لهم: إذا كان قول الله سبحانه: في: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] في العموم كقوله: **{وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر فخبرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤية ولا لمسا ولا ذوقا ولا على وجه من الوجوه؟ فإن قالوا: نعم، فيقال لهم: أخبرونا عن قوله تعالى: **{وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}** أتزعمون أنه يدركها لمسا وذوقا بأن يلمسها؟ فمن قولهم: لا. فيقال لهم: فقد انتقض قولكم: إن قوله: **{وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}** في العموم كقوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}**. (3)

الوجه السابع: أما قولهم: "إن الله تمدح بأن لا يرى"، فقول باطل؛ لأن العدم المحض الذي لا يتضمن إثباتا لا مدح فيه ولا كمال.

---

(1) انظر: "شرح المواقف" (٨/ ١٤٠).

(2) انظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري (ص: ٦٥).

(3) انظر: الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص: ٥٩ - ٦٠).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قوله: {لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: الآية: ١٠٣]، إنما نفي الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء. ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما، فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحة وصفة كان، وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها. (1)

فتبين بهذا أن قول المعطلة النفاة دعو مجردة عن الدليل، فثبوت المدح في سياق الكلام ليس لهم فيه حجة على امتناع الرؤية، بل الحجة عليهم في إثبات صحة الرؤية؛ لأنه يمتنع حصول التمدح بنفي الرؤية، لمشاركة المعدوم في ذلك، وإنما يحصل التمدح بحيث تصح رؤيته، ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته.

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها؛ فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون

---

(1) انظر: التدمرية لابن تيمية (ص: ٥٩).

بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب-عز وجل- بالعدم إذا تضمن أمرا وجوديا: كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيئة وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتظمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، وفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرا ثبوتيا فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فلو كان المراد بقوله **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال؛ لمشاركة المعدوم له في ذلك فان العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب ﷻ يتعالى إن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله: **{وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ}** [يونس: الآية: ٦١] أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: **{وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ}** [ق: الآية: ٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف: الآية: ٤٩] أنه كامل العدل، وفي قوله: **{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}** [البقرة: الآية: ٢٥٥] أنه كامل القيومية، فقوله: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر

زائد على الرؤية". (1)

[الرد على حجتهم الثانية]

الرد على الوجه الأول: أن الآية الكريمة حجة عليهم وأنها تدل على إمكان رؤية الله تعالى، وليس فيها ما يزعمونه من استحالة رؤية الله تعالى وامتناعها، وقولهم ذلك باطل لغة وشرعا، بدليل ما يلي:

أن قولهم: "إن لن موضوعة للتأبيد" باطل، ومخالف للغة العرب وما دلت عليه من المعاني. قال أبو القاسم السهيلي:"إن العرب إنما تنفي بـ "لن" ما كان ممكنا عند الخطاب مظنونا أنه سيكون، فتقول له: "لن

يكون" لما يمكن أن يكون؛ لأن "لن" فيها معنى "أن"، وإذا كان الأمر عندهم على الشك لا على الظن كأنه يقول: أيكون أم لا يكون؟ -قلت: في النفي لا يكون- وهذا كله مقو لتركيبها من "لا" و"أن". (2)

---

(1) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (٢٩٣ - ٢٩٤).

(2) انظر: نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي (ص ١٠٣) وأبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي لمحمد إبراهيم البنا (ص: ٣٦١).

وبهذا يتبين أن من زعم أن "لن" تفيد النفي على التأبيد المطلق فقوله باطل مردود.

قال جمال الدين بن مالك–رحمه الله–(ت: ٦٢٧ هـ):

"ومن رأى النفي بلن مؤبدا ... فقوله أردد وخلافه اعضدا". (1)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وقد أكذبهم الله في قولهم بتأبيد النفي بـ "لن" صريحا بقوله: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}** [الزخرف: الآية: ٧٧] فهذا تمن للموت، فلو اقتضت "لن" دوام النفي تناقض الكلام؛ كيف وهي مقرونة بالتأبيد بقوله: **{وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}** [البقرة: الآية: ٩٥] ولكن ذلك لا ينافي تمنيه في النار؛ لأن التأبيد قد يراد به:التأبيد المقيد والتأبيد المطلق، فالمقيد كالتأبيد بمدة الحياة، كقولك: "والله لا أكلمه أبدا"، والمطلق كقولك: "والله لا أكفر بربي أبدا"، وإذا كان كذلك فالآية إنما اقتضت نفي تمني الموت أبد الحياة الدنيا، ولم يتعرض للآخرة أصلا؛ وذلك لأنهم لحبهم الحياة وكراهتهم للجزاء لا يتمنون الموت وهذا منتف في الآخرة". (2)

الرد على الوجه الثاني: أنه علقه على استقرار الجبل من حيث هو من غير قيد بحال

---

(1) انظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

(2) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٦٨).

السكون أو الحركة، وإلا لزم الإضمار في الكلام، وأنه -أي استقرار الجبل- من حيث هو ممكن قطعا؛ إذ لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته، وأيضا فاستقرار الجبل عند حركته أي في زمانها ليس بمحال؛ إذ في ذلك الوقت قد يحصل الاستقرار بدل الحركة ولا محذور فيه، إنما المحال هو الاستقرار مع الحركة في كونهما مجتمعين لا وقوع شيء منهما في وقت آخر بدل صاحبه. (1)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فأخبر سبحانه أنه تجلى للجبل وأنه لما تجلى له جعله دكا فتجليه له: إما أن يكون مجرد خلق الرؤية فيه كما يقولون إن ذلك هو تجليه لسائر من يراه، أو يكون تجليه هو رفع الحجاب حتى ظهر للجبل؟ فإن كان التجلي هو خلق الرؤية كان قد أخبر أن الجبل أطاق رؤيته وأن الجبل رأى الله، وإذا كان كذلك لم يجب أن يصير دكا إذا ورد عليه ما يعجز عن مقاومته فإذا كان التجلي ليس هو إلا أن جعل رائيا فمعلوم أنه يكون قادرا على ما جعل فاعلا له فلا يكون دكا ولو كان كذلك لكان العبارة المناسبة أن يقال: فلما رأى الجبل ربه جعله دكا فلما دل القرآن مع ما ورد به الحديث في تفسير هذه الآية أن التجلي هو ظهوره وأنه مع ذلك قد لا يطيق المتجلي له رؤيته لعجزه وأن التجلي ليس هو خلق الرؤية فيه علم أنه قد يتجلى لمن يراه ولمن لا يراه وأن التجلي ليس هو خلق الرؤية فيه عند الاحتجاب فعلم أن هناك حجابا خارجا عن الإنسان وأن التجلي يكون برفع كل

---

(1) انظر: شرح مواقف الإيجي للجرجاني (٨/ ١٢١).

الحجاب". (1)

الرد على الوجه الثالث: أنه ليس فيها دلالة على المنع، بل إن دلالتها على الجواز أقرب؛ فإن الصعق لم يحدث لموسى-عليه السلام-إلا عندما رأى الجبل يتدكدك لما تجلى له الرب-عز وجل-ظهورا، أو على القول أن موسى رأى الله -على ضعفه- فصعق، وهذا يدل على الجواز وإنما كان الصعق نتيجة عدم تحمل موسى رؤية الله تعالى في هذه الدار الفانية.

أما ما ذكره الزمخشري من الأثر المروي عن ابن عباس في "مرور الملائكة على موسى وهو صعق" فباطل؛ لإنه من رواية الواقدي" (2)، والواقدي متروك لا يحتج به.

وقد احتج برواية باطلة، وترك الأحاديث الكثيرة الصحيحة المتواترة، والتي تثبت رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهرا على المعتقد الفاسد. والوجه التورك بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة-عليهم السلام-من إهانة موسى

---

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٨/ ١٣١-١٣٢).

(2) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي (٤/ ٢٧٩).

كليم الله بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب". (1)

على أن هناك رواية أخرى لذلك الأثر، وهي أقل ضعفًا منها من طريق: أبي سعد سعيد بن المرزبان، عن عكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ)، **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** قال: **{وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] فمرت به الملائكة وقد صعق، فقالت: يا ابن النساء الحيض لقد سألت ربك أمرا عظيما. فلما أفاق قال: سبحانك لا إله إلا أنت، تبت إليك، وأنا أول المؤمنين، قال: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد من خلقك، يعني في الدنيا". (2)

وهي كما ترى لا تنفي الرؤية مطلقا، إنما تمنع منها في الدنيا فقط، وتبين أن المراد بالإيمان به تعالى أي: أنه لا يراه أحد من خلقه في الدنيا.

الرد على الوجه الرابع: أن التسبيح كما أنه تنزيه لله تعالى عن النقائص، فهو كذلك

---

(1) انظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد الإسكندري المالكي (٢/ ١١٥) من هامش الكشاف.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣٣)، وفيه أبو سعد سعيد بن المرزبان البقال التابعي المقرئ تلميذ ابن عباس، وقد ضعف، وبعضهم يوثقه، على خلاف بينهم فيه، انظر: الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (٤/ ٤٣٢ - ٤٣٦).

تعظيم وإجلال لله تعالى. والمراد هو تنزيه الله تعالى وتعظيمه وإجلاله عن أن يرى في الدنيا أو أن يتحمل رؤيته مخلوق في هذه الدنيا، بل ثبتت الرؤية لله تعالى في الدار الآخرة عن الله وعن رسوله ﷺ.

والرؤية ليست كما تزعمون من النقائص، فإنها في المخلوق كمال وكل كمال اتصف به المخلوق لا نقص فيه بحال فالله أحق وأولى أن يتصف به، لا سيما وقد أثبتها الله لنفسه، وخص بها أهل جنته، وأثبتها له رسوله ﷺ، بل وسألها موسى-عليه السلام-في الدنيا، ولم يعاتبه الله على ذلك، فكيف يقال بعد ذلك: أنها من النقائص وجميع الأدلة من الكتاب والسنة خلاف ذلك؟

وقد سبق أن بينا أن الذي تمتنع رؤيته بإطلاق هو المعدوم، وأن ذلك لا مدح فيه البتة بأي وجه من الوجوه، وهذا هو الذي يتنزه الله تعالى عنه.

الرد على الوجه الخامس: أن قولكم ذلك لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان. وليست توبة موسى-عليه السلام-بعدما أفاق لذنب قاله أو فعله، وإنما لأنه علم أن رؤية الله في الدنيا غير ممكنة لأحد من البشر، بدليل اندكاك الجبل حينما تجلى الله تعالى له.

قال مجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ): "سبحانك تبت إليك"، أن أسألك الرؤية".

(1)

وأيضا لم يعاتبه الله تعالى على سؤاله الرؤية، ولم ينهه عن ذلك كما نهى نوحا-عليه السلام-في سؤاله منه تعالى أن ينجي ولده الذي أغرق لأنه من أهله، حينما قال الله تعالى له: **{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** [هود: الآية: ٤٦]. ولذلك سارع نوح-عليه السلام-للاستعاذة بالله من سؤاله ذلك، وبادر بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة منه تعالى، كما قال الله تعالى عنه: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}** [هود: الآية: ٤٧].

قال الباقلاني-رحمه الله-(٤٠٣ هـ): "لم يقل جل اسمه أنه تاب من مسألته إياه الرؤية، فيمكن أن يكون ذكر ذنوبا له قد قدم التوبة منها، فجدد التوبة عند ذكرها لهول ما رأى، كما يسارع الناس إلى التوبة ويجددونها عند مشاهدة الأهوال والآيات، ويحتمل أن يكون المعنى في قوله: **{تُبْتُ إِلَيْكَ}** [الأعراف: ١٤٣] من ترك استئذاني لك في هذه المسألة العظيمة، ومثلها ما لا يكون معه تكليف لمعرفتك والعلم بك.

ويحتمل أن يكون أراد بقوله: **{تُبْتُ إِلَيْكَ}** أي: تبت إليك أن أسألك الرؤية لهول ما

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣٤).

أصابني، لا لأنها مستحيلة عليك، ولا لأني عاص في سؤالي، كما يقول القائل: تبت من كلام فلان ومعاملته، ومن ركوب البحر، ومن الحج ماشيا، إذا ناله في ذلك تعب ونصب وشدة، وإن كان ذلك مباحا حسنا جائزا، والتوبة هي الرجوع عن الشيء، ومن ذلك سمي الإقلاع عن الذنوب والعود إلى طاعة الله تعالى توبة منها، ومعنى المراد بقوله: **{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}** [التوبة: الآية: ١١٨] أي: رجع بهم إلى التفضل والامتنان ليرجعوا عما كانوا عليه، فقوله: **{تُبْتُ إِلَيْكَ}** أي: رجعت عن سؤالي إياك الرؤية، وهذا هو أصل التوبة، وليس الرجوع عن الشيء يقتضي كونه عصيانا فبطل تعلقهم بالآية". (1)

وقال الواحدي–رحمه الله–(ت: ٤٦٨ هـ): "تبت إليك من مسألتي الرؤية، وذلك أنه سألها من غير استئذان من الله، فلذلك تاب". (2).

وقال الزجاج–رحمه الله–(ت: ٤٠ هـ): "وقوله: **{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف:

---

(1) انظر: التمهيد للباقلاني (ص ٢٧٠ – ٢٧١) عني بتصحيحه: ريتشرد مكارثي اليسوعي. المكتبة الشرقية بيروت. ١٩٥٧ م.

(2) انظر: تفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٨٠).

الآية: ١٤٣]. أي: أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا". (1)

وقال ابن أبي زمنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ): "يعني: المصدقين بأنك لا ترى في الدنيا". (2)

وقال السمعاني–رحمه الله–(ت: ٤٢٦ هـ): " **{تُبْتُ إِلَيْكَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، يعني: من سؤال الرؤية قبل الإذن {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}، يعني: أنا أول المؤمنين بأن من يراك متجليا في الدنيا لا يستقر مكانه، وقيل معناه: أنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا". (3)

وقال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية". (4)

فإذا كان الجبل العظيم الراسي القوي لم يصمد لرؤية الله تعالى، بل تفتت وتدكدك حتى

---

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٤).

(2) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ١٤١).

(3) انظر: تفسير السمعاني (٢/ ٢١٣).

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٢٧٩).

استوى بالأرض، فلا يمكن لبشر بعد ذلك أن يرى الله تعالى في الدنيا عيانا.

بل الملك المخلوق لا أحد يستطع رؤيته في الدنيا على خلقته التي خلقه الله عليها إلا من ثبته الله تعالى من الأنبياء والمرسلين، أما سائر البشر فلا يستطيعون ذلك.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): " قوله تعالى: **{فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]، قيل: أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، فهذا للعجز الموجود في المخلوق، لا لامتناع في ذات المرئي، بل كان المانع من ذاته، لم يكن إلا لنقص وجوده حتى ينتهي الأمر إلى المعدوم الذي لا يتصور أن يرى خارج الرائي، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله، كما أيد نبينا ﷺ قال تعالى: **{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [الأنعام: الآيات: ٨ – ٩] قال غير واحد من السلف: هم لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كان يشتبه عليهم هل هو ملك أو بشر، فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم، فأرسلنا إليهم بشرا من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه، وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة". (1)

---

(1) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣٣٣).

وقد رد **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)** عليهم في استدلالهم بهذه الآية ردا مفصلا، فقال–رحمه الله–: "وقد أخبر الله–عز وجل–عن أعلم الخلق به في زمانه وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سأل ربه تعالى النظر إليه فقال له ربه–عز وجل–: **{لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]. وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أن لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال.

الوجه الثاني: أن الله–عز وجل–لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالا لأنكره عليه.

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: **{لَن تَرَانِي}** ولم يقل: إني لا أرى، ولا: إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه–عز وجل–مرئ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: **{وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] فأعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن الله-عز وجل-قادر على أن يجعل الجبل مستقرا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته.

الوجه السادس: قوله تعالى: **{فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}** [الأعراف: الآية: ١٤٣]. وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته-عز وجل-؛ فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ وأعلم سبحانه موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه سبحانه قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، وأما قوله تعالى: **{لَن تَرَانِي}** فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي ولو قيدت بالتأبيد، فكيف إذا أطلقت؟! قال تعالى: **{وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}** [البقرة: الآية: ٩٥] مع قوله تعالى: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}** [الزخرف: الآية: ٧٧]". (1)

---

(1) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (ص: ٢٨٥ - ٢٨٧) باختصار.

[الرد على الحجة الثالثة]

أما الآية الأولى والثانية: فإن الاستعظام إنما كان لطلبهم الرؤية استخفافا وعنادا وتعنتا وإنكارا لنبوة موسى-عليه السلام-، وليس طلبا للعلم ولا الازدياد منه. قال أبو الحسن الأشعري: "إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله-عز وجل-على طريق الإنكار لنبوة موسى ﷺ، وترك الإيمان به حتى يروا الله، لأنهم قالوا: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [البقرة: الآية: ٥٥]، فلما سألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموسى ﷺ حتى يريهم الله نفسه، استعظم سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه، كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتابا من السماء من غير أن يكون ذلك مستحيلا، ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله حتى ينزل عليهم من السماء كتابا". (1)

وقال الباقلاني-رحمه الله-(ت: ٤٠٣ هـ): "لم ينكر الله تعالى مسألة خلاف بني إسرائيل أن ينزل عليهم كتابا من السماء، ومسألة أسلافهم أن يروا الله جهرة لاستحالة ذلك؛ وإنما أنكره لأنهم سألوا ذلك على طريق العناد لموسى ومحمد صلى الله عليهما، والشك في نبوتهما، والتقدم بين أيديهما، والامتناع من فعل ما أوجب عليهم من الإيمان بالله-عز وجل-

(1) انظر: الإبانة عن أصول الديانة للأشعري (ص: ٤٨).

، حتى يفعل ما يؤثرونه ويقتاتونه". (1)

ومما يبين ذلك ويوضحه أن الله أكرم بني إسرائيل بكثير من الإكرام ونجاهم من كثير من الهلاك، وأنزل عليهم كثيرا من الآيات، ومع ذلك لم يؤمنوا بذلك كله وطلبوا من موسى أن يروا الله جهرة في الدنيا –مع علمهم بامتناع ذلك– عنادا واستخفافا.

قال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ): "فأعلم ربنا–عز وجل–الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا –في تكذيبهم محمدا ﷺ وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره– كأسلافهم وآبائهم الذين قص الله علينا قصصهم". (2)

أما الآية الثالثة: فيقال: أنهم سبق وأن طلبوا إنزال الملائكة ورؤية الله تعالى، كما في قوله تعالى: **{أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا}** [الإسراء: الآية: ٩٢] وهم طلبوا قبل ذلك وبعده كثيرا من الآيات تعنتا، وعنادا، واستكبارا، واستخفافا.

قال الزجاج–رحمه الله–(ت: ٣٤٠ هـ): "فأعلم الله–عز وجل–أن الذين لا يوقنون بالبعث، ولا يرجون الثواب على الأعمال عند لقاء الله طلبوا من الآيات ما لم يأت أمة من

---

(1) انظر: التمهيد للباقلاني (ص: ٢٧٣).

(2) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (٢/ ٣٠٥).

الأمم، فأعلم الله–عز وجل–أنهم قد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا". (1)

فتبين بهذا أنهم لم يطلبوا ذلك طلب علم لينتفعوا به ويزدادوا منه، وإنما كان ذلك سؤال تحد واستكبار وعتو؛ لأنهم طلبوا ذلك في الدنيا.

قال الواحدي–رحمه الله–(ت: ٤٦٨ هـ): "وإنما وصفوا بالعتو عند طلب الرؤية؛ لأنهم طلبوها في الدنيا عنادا للحق وإباء على الله ورسوله في طاعتهما". (2).

ومما يوضحه: "أن أصحاب موسي سألوا موسى رؤية الله في الدنيا إلحافا فقالوا: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [البقرة: الآية: ٥٥]، لم يقولوا: حتى نرى الله في الآخرة، ولكن في الدنيا، وقد سبق من الله القول بأنه: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣] أبصار أهل الدنيا فأخذتهم الصاعقة بظلمهم وسؤالهم ما حظره على أهل الدنيا، ولو قد سألوه رؤيته في الآخرة كما سأل أصحاب محمد ﷺ محمدا ﷺ لم تصبهم تلك الصاعقة ولم يقل لهم إلا ما قال محمد ﷺ لأصحابه إذ سألوه: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: ((**نعم لا تضارون في رؤيته**)) فلم يعبهم الله تعالى ولا رسوله بسؤالهم عن ذلك، بل حسنه لهم وبشرهم

---

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٦٣).

(2) انظر: الوسيط للواحدي (٣/ ٣٣٨).

بشرى جميلة". (1)

[الرد على حجتهم الرابعة]

أن دلالة الآية على إثبات الرؤية أدل منها على امتناعها، وذلك لما يلي:

١ – أنه أثبت التكليم من وراء حجاب، ولا يكون حجاب إلا لرؤية. (2).

٢ – أن التكليم من وراء حجاب نوع غير الوحي، ويقتضي وأن المكلم بذلك محجوب أن يرى الله؛ لأن التكليم المسموع قد يكون مع رؤية المستمع للمتكلم، وقد يكون مع كونه محجوبا عنه، بخلاف الوحي، فإنه يقع في قلبه. (3)

٣ – أن الحجاب عن الرؤية المذكور في الآية الكريمة إنما هو في الدنيا، فلا يمكن لمخلوق أن يرى الله تعالى، أما الآخرة، فالله تعالى يرفع الحجاب عمن شاء من خلقه فيرونه عيانا كما روى عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس

---

(1) انظر: نقض الدارمي على بشر المريسي (١/ ٣٦٧).

(2) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٥٤).

(3) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٠/ ٢١٣).

بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه". (1)

ثالثًا: الأدلة العقلية التي استدل بها المعطلة لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

استدل المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم على مذهبهم بأدلة عقلية، وهي شبهات إبليسية، جعلوها حجة في معارضتهم للآيات الكريمة والأحاديث الثابتة الصحيحة، وهي كما يلي:

أولا: دليل الموانع: وهو زعمهم أن الله-عز وجل-لا يرى لاستحالة رؤيته، وليس لامتناعها، ففرق بين النوعين. **قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ)**: "ما لا يرى ينقسم إلى: ما لا يرى لمنع، وإلى ما لا يرى لاستحالة الرؤية عليه، والقديم تعالى إنما يرى لاستحالة الرؤية عليه لا لمنع". (2)

وقال أيضا: "والموانع المعقولة من الرؤية ستة: الحجاب، والرقة، واللطافة، والبعد المفرط، وكون المرئي في غير جهة محاذاة الرائي، وكون محله ينقض هذه الأوصاف، وشيء منها لا يجوز

---

(1) انظر: أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٩ و٧٥١٢ و٧٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (رقم ١٠١٦) وغيرهما.

(2) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٣).

على الله تعالى بحال من الأحوال. (1)

وهذه الشروط الستة الأخيرة لا يمكن اعتبارها إلا في رؤية الأجسام، والله تعالى ليس بجسم، فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته، فعلى هذا ولو صحت رؤيته لوجب أن لا يصير في حصول رؤيته إلا أمران: سلامة الحاسة، وكونه بحيث يصح أن يرى، وهذان الأمران حاصلان الآن، فثبت أنه لو صحت رؤيته لوجب أن نراه الآن، ولما لم يكن الأمر كذلك وجب أن يقال: إنما لا نراه الآن لأنه لا تصح رؤيته. (2)

والموانع على ضربين: أحدهما ما يمنع بنفسه، والثاني: يمنع بشرط.

أما المانع بنفسه فهو: كالحجاب، وكون المرئي في غير جهة محاذاة الرائي.

وأما المانع بشرط فهو على قسمين:

الأول: ما يمنع لأمر يرجع إلى الرائي.

والثاني: ما يمنع لأمر يرجع إلى المرئي.

---

(1) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٧-٢٥٨) والأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧).

وما يرجع إلى الرائي: فهو كالرقة واللطافة، فإنه إنما يمنع لأمر يرجع إلى الرائي وهو ضعف الشعاع. وأما ما يرجع إلى المرئي: فنحو البعد المفرط، فإنه إنما لا يرى لبعده، حتى لو قرب لرئي. (1)

ثانيا: دليل المقابلة: وهو أن الرؤية تقتضي مقابلة المرئي للرائي، وإذا كان كذلك فتكون الرؤية ممتنعة في حق الله-عز وجل-، قال عبد الجبار المعتزلي: "إن الواحد منا راء بحاسة، والرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل، وقد ثبت أن الله تعالى لا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقال ولا في حكم المقابل، وهذه الدلالة مبنية على أصول:

أحدها: أن الواحد منا راء بالحاسة.

والثاني: أن الرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل.

والثالث: أن القديم تعالى لا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقابل ولا في حكم المقابل.

أما الأول: فالذي يدل عليه أن أحدنا متى كان له حاسة صحيحة والموانع مرتفعة والمدرك

---

(1) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٩-٢٦٠).

موجود: يجب أن يرى، ومتى لم يكن كذلك استحالة أن يرى، فيجب أن يكون لصحة الحاسة في ذلك تأثير؛ لأن بهذه الطريقة يعلم تأثير المؤثرات من الأسباب والعلل والشروط.

وأما الثاني: فالشيء المرئي إذا كان كذلك وجب أن يرى، وإذا لم يكن كذلك لم ير، فيجب أن تكون المقابلة أو ما في حكمها شرطا في الرؤية؛ لأنه بهذه الطريقة يعلم تأثير الشروط.

وأما الثالث: فلأن المقابلة والحلول إنما تصح على الأجسام والأعراض والله تعالى ليس بجسم ولا عرض فلا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقابل ولا في حكم المقابل". (1)

ثالثا: دليل الانطباع: وهو: أن كل ما يكون مرئيا فلا بد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، والله تعالى يتنزه عن الصورة والمثال، فوجب أن تمتنع رؤيته. (2)

رابعا: أن كل ما كان مرئيا فلا بد له من لون وشكل، ودليله الاستقراء والله تعالى منزه عن ذلك فوجب ألا يرى. (3)

---

(1) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص ٢٤٨ - ٢٤٩) والأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٨).

(3) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٨) والتمهيد للباقلاني (ص ٢٧٨).

رابعًا: الرد على شبه المعطلة في استدلالهم بالأدلة العقلية لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

[الرد على الدليل الأول وهو دليل الموانع]

١ - **قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ)**: لا نسلم أن عند حصول الشرائط الثمانية يجب حصول الإبصار، ويدل على أنه غير واجب عقلا وجهان:

أولا: أنا نرى الجسم الكبير من البعد صغيرا وإن رأينا جميع أجزائه، وجب أن لا نراه صغيرا، بل كبيرا، وإن لم نر شيئا من أجزائه وجب ألا نراه البتة. وإن رأينا بعض أجزائه دون البعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى "القرب والبعد واللطافة والكثافة وعدم الحجاب وسلامة الحاسة وصحة الرؤية" متساوية لزم أن لا يكون الإدراك مع حصول هذه الشروط متساويا.

ولا يقال: إنا إذا أبصرنا شيئا اتصل بطرفيه من العين خطان شعاعيان كساقي المثلث، وصار عرض المرئي كمالخط الثالث، فحصل هناك مثلث، ثم يخرج من نقطة الناظر خط آخر إلى وسط المرئي قائم عليه، يقسم ذلك المثلث الأول إلى مثلثين، وكل واحد منهما مثلث قائم الزاوية، وهذا يصلح أن يكون وترا لكل واحد من الزاويتين الحادتين الواقعتين على طرفي المثلث الأول الكبير، والخطان الطرفيان كل واحد منهما وتر للزاويتين القائمتين، ولا شك أن وتر القائمة أعظم من وتر الحادة، فالخطان الطرفيان كل واحد منهما أطول من الخط الوسطي، وإذا كان ذلك كذلك لم تكن أجزاء المرئي بالنسبة إلى الرائي متساوية في القرب والبعد، لأنا

نقول: لنفرض أن هذا التفاوت واقع بمقدار شبر، فلو كان المانع من الرؤية هذا القدر من التفاوت في البعد لكنا إذا جعلنا المرئي أبعد مما كان قبل ذلك بمقدار شبر وجب أن لا نراه البتة، لكنا نراه، فعلمنا أنه ليس السبب في عدم رؤية بعض الأجزاء ذلك القدر من التفاوت في البعد". (1)

فإن قيل: لا يلزم من رؤيتنا جميع أجزائه أن نراه كبيرا، وإنما يلزم ذلك أن لو كانت رؤيته صغيرا وكبيرا بحسب رؤية الأجزاء وعدمها وهو ممنوع.

قلنا: وضعفه ظاهر بناء على تركب الأجزاء التي لا تتجزأ، إذ على هذا التقدير إن رأى الأجزاء كلها وجب أن يرى الجسم كما هو في الواقع سواء كان قريبا أو بعيدا، وذلك لأن الرؤية لكل منها أو بعضها أصغر مما هو عليه توجب الانقسام فيما لا يتجزأ لثبوت ما هو أصغر منه، ورؤية كل من الأجزاء أكبر مما هو عليه بمثل أو بأزيد منه توجب ألا يرى إلا ضعفا أو أكبر من ذلك، وهو باطل قطعا، ورؤيته أكبر بأقل من مثل توجب الانقسام، ورؤية بعضها على ما هو عليه بعضها أكبر بمثل توجب ترجيحا بلا مرجح، فوجب أن يرى الكل على حاله، فلا تفاوت حينئذ بالصغر والكبر، فتعين أن يكون التفاوت بحسب رؤية بعض دون بعض".

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠١ - ٣٠٢).

(1)

ثانيا: إذا نظرنا إلى مجموع كف من التراب، رأيناه وذلك الكيف من التراب عبارة عن مجموع تلك الذوات وتلك الأجزاء الصغيرة، فإما أن يكون إدراك كل واحد من تلك الذوات مشروطا بإدراك الآخر فيلزم الدور؟ وإما أن لا يكون إدراك شيء منها مشروطا بإدراك الآخر وحينئذ يكون إدراك كل واحد من تلك الذوات حالتي الاجتماع والانفراد على السوية؟ مع أنا نراها حال الاجتماع ولا نراها حال الانفراد، وحينئذ لا يكون الإدراك واجب الحصول عند حصول تلك الشرائط، وإما أن يكون إدراك البعض مشروطا بإدراك الباقي ولا ينعكس، وهذا محال، ومع أنه محال فالمقصود حاصل.

أما أنه محال: فلأن الأجزاء متساوية فيكون هذا مفتقرا إلى ذلك، مع أن ذلك غني عن هذا، وهذا ترجيح من غير مرجح وهو محال، وأما أن المقصود حاصل، فلأن إدراك أحد تلك الأجزاء إذا كان غنيا عن إدراك الآخر كان حاله عند الاجتماع وعند الانفراد في صحة الإدراك على السوية، وحينئذ يعود المحذور، فهذان برهانان قويان في بيان أنه عند حصول هذه الشرائط فالإدراك غير واجب الحصول.

وقولهم: لو لم يجب الإدراك لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وبوقات ونحن لا نراها ولا

---

(1) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٢-١٥٣) باختصار.

نسمعها. (1)

قلنا: هذا معارض بجملة العاديات، فإن الأمور العادية تجوز نفائضها مع جزمنا بعدم وقوعها، ولا سفسطة هاهنا، فكذا الحال في الجبال الشاهقة التي لا نراها، فإنا نجوز وجودها وتجزم بعدمها؛ وذلك لأن الجواز لا يستلزم الوقوع ولا ينافي الجزم بعدمه، فمجرد تجويزها لا يكون سفسطة.

ثم نقول: إن كان مأخذ الجزم بعدم الجبل المذكور ما ذكرتم من وجوب الرؤية عند اجتماع شرائطها لوجب أن لا نجزم به إلا بعد العلم بهذا، واللازم باطل؛ لأنه لا يجزم به من لا يخطر بباله هذه المسألة؛ ولأنه ينجر إلى أن يكون ذلك الجزم نظريا مع اتفاق الكل على كونه ضروريا. (2)

سلمنا أنه عند حضور هذه الشرائط في الشاهد يكون الإدراك واجب الحصول، فلم قلتم: أن في حق الله تعالى يجب أن يكون كذلك؟ وتحقيقه هو: أن ذات الله تعالى مخالفة بالحقيقة والماهية لهذه الحوادث، والمختلفان في الماهية لا يجب استواؤهما في اللوازم، فلم يلزم من كون الإدراك واجبا في الشاهد عند حضور هذه الشرائط كونه واجبا في الغائب عند

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(2) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٢-١٥٣).

حضورها، ومما يدل عليه: أن الإدراك في الشاهد مشروط بشرائط ثمانية، وفي الغائب نقطع بأنه لا يمكن اعتباره، فكذلك لا يمتنع أن يكون الإدراك في الشاهد واجب الحصول، وفي الغائب لا يكون واجبا". (1)

٢ – أن قولكم: إثبات الرؤية يستلزم إثبات الجسمية، وهذا منتف عن الله تعالى، غير صحيح، فلا يلزم من إثبات الرؤية إثبات الجسمية، ثم إن لفظ الجسم لم يرد في الشرع لا نفيا ولا إثباتا.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "نفاة الرؤية –من الجهمية والمعتزلة وغيرهم– إذا قالوا: إثباتها يستلزم أن يكون الله جسما، وذلك منتف، وادعوا أن العقل دل على المقدمتين، احتيج حينئذ إلى بيان بطلان المقدمتين، أو إحداهما، فإما أن يبطل نفس التلازم، أو نفي اللازم، أو المقدمتان جميعا.

وهنا افترقت طرق مثبتة الرؤية: فطائفة نازعت في الأولى، كالأشعري وأمثاله –وهو الذي حكاه الأشعري عن أهل الحديث وأصحاب السنة– وقالوا: لا نسلم أن كل مرئي يجب أن يكون جسما.

فقالت النفاة: لأن كل مرئي في جهة، وما كان في جهة فهو جسم. فافترقت نفاة الجسم

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

على قولين: طائفة قالت: لا نسلم أن كل مرئي يكون في جهة، وطائفة قالت: لا نسلم أن كل ما كان في جهة فهو جسم. فادعت نفاة الرؤية أن العلم الضروري حاصل بالمقدمتين، وأن المنازع فيهما مكابر.

وهذا هو البحث المشهور بين المعتزلة والأشعرية، فلهذا صار الحذاق من متأخري الأشعرية على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة، فإذا أطلقوها موافقة لأهل السنة فسروها بما تفسرها به المعتزلة، وقالوا: النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظي.

وطائفة نازعت في المقدمة الثانية –وهي انتفاء اللازم– وهي كالهشامية والكرامية وغيرهم، فأخذت المعتزلة وموافقوهم يشنعون على هؤلاء، وهؤلاء وإن كان في قولهم بدعة وخطأ، ففي قول المعتزلة من البدعة والخطأ أكثر مما في قولهم.

ومن أراد أن يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلا يلتزم لفظا بدعيا، ولا يخالف دليلا عقليا ولا شرعيا، فإنه يسلك طريق أهل السنة والحديث والأئمة الذين لا يوافقون على إطلاق الإثبات ولا النفي، بل يقولون: ما تعنون بقولكم: إن كل مرئي جسم؟

فإن فسروا ذلك: بأن كل مرئي يجب أن يكون قد ركبه مركب، أو أن يكون كان متفرقا فاجتمع، أو أنه يمكن تفريقه، ونحو ذلك، منعوا هم المقدمة الأولى، وقالوا: هذه السموات مرئية مشهودة، ونحن لا نعلم أنها كانت متفرقة مجتمعة، وإذا جاز أن يرى ما يقبل التفريق فيما لا يقبله أولى بإمكان رؤيته، فالله تعالى أحق بأن تمكن رؤيته من السموات ومن كل قائم بنفسه،

فإن المقتضي للرؤية لا يجوز أن يكون أمرا عدميا، بل لا يكون إلا وجوديا، وكلما كان الوجود أكمل كانت الرؤية أجوز.

وإن قالوا: "مرادنا بالجسم المركب أنه مركب من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة"، نازعوهم في هذا، وقالوا: دعوى كون السموات مركبة من جواهر منفردة، أو من مادة وصورة دعوى ممنوعة أو باطلة، وبينوا فساد قول من يدعي هذا، وقول من يثبت الجوهر الفرد أو يثبت المادة والصورة، وقالوا: إن الله خلق هذا الجسم المشهود هكذا، وإن ركبه ركبه من أجسام أخرى، وهو سبحانه يخلق الجسم من الجسم، كما يخلق الإنسان من الماء المهين، وقد رب العظام في مواضعها من بدن ابن آدم، وركب الكواكب في السماء، فهذا معروف.

وأما أن يقال: "إنه خلق أجزاء لطيفة لا تقبل الانقسام ثم ركب منها العالم"، فهذا لا يعلم بعقل ولا سمع، بل هو باطل؛ لأن كل جزء لا بد أن يتميز منه جانب عن جانب، والأجزاء المتصاغرة كأجزاء الماء تستحيل عند تصغرها، كما يستحيل الماء إلى الهواء، مع أن المستحيل يتميز بعضه عن بعض.

والأدلة العقلية بينت جواز الرؤية وإمكانها، وليست العمدة على دليل الأشعري ومن وافقه في الاستدلال؛ لأن المصحح للرؤية مطلق الوجود.

وإن قالوا: "مرادنا أن المرئي لا بد أن يكون معاينا تجاه الرائي، وما كان كذلك فهو جسم"، ونحو هذا الكلام، قالوا لهم: الصادق المصدوق ﷺ قال: "إنكم سترون ربكم كما

ترون الشمس والقمر"، وقال: "هل تضامون في رؤية الشمس صحوة ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فهل تضامون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر".

وهذا تشبيه للرؤية، لا للمرئي بالمرئي، وفي لفظ في الصحيح: "إنكم ترون ربكم عيانا" فإذن قد أخبرنا أنا نراه عيانا.

وقد أخبرنا أيضا أنه قد: "استوى على العرش" فهذه النصوص يصدق بعضها بعضا، والعقل أيضا يوافقها، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته فوق سماواته، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ولا محايث له محال في بديهة العقل، فإذا كانت الرؤية مستلزمة لهذه المعاني فهذا حق، وإذا سميتم أنتم هذا قولا بالجهة وقولا بالتجسيم لم يكن هذا القول نافية لما علم بالشرع والعقل، إذ كان معنى هذا القول -والحال هذه- ليس منتفيا لا بشرع ولا عقل". (1)

[الرد على الدليل الثاني وهو دليل المقابلة]

قال الرازي: الجواب عنها من وجهين:

الأول: أن ذكر الدلائل لا بد أن يكون مسبوقا بتعيين محل النزاع، فنقول: محل النزاع: أن الموجود المنزه عن المكان والجهة هل تجوز رؤيته أم لا؟ فإن ادعيتم أن العلم بامتناع رؤيته

---

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٠ - ٢٣٥) بتصرف يسير.

ضروري (1) فذلك باطل من وجوه:

الأول: أن البديهي متفق عليه بين العقلاء، وهذا غير متفق عليه فلا يكون بديهيا.

الثاني: أنا إذا عرضنا على عقولنا رؤية هذا الموجود، بالتفسير الذي لخصناه، وعرضنا على عقولنا: أن الواحد نصف الإثنين لم نجد القضية الأولى في قوة هذه الثانية.

الثالث: أن حكم الوهم والخيال في معرفة الله تعالى: إما أن يكون مقبولا أو لا يكون مقبولا، فإن كان مقبولا لا يمتنع إثبات ذات منزهة عن الكمية والكيفية والجهة، والمعتزلي يسلم أن ذلك باطل، وإن لم يكن مقبولا لم يكن حكم الوهم بأن ما كان منزها عن الجهة، كان غير مرئي واجب القبول؛ لأن الوهم والخيال لما صار كل واحد منها مردود الحكم في بعض الأحكام لم يبق الاعتماد عليها في شيء من المواضع.

وبالجملة: فإن كان حكم الوهم حقا كان الحق مع المجسم، وإن كان مردودا كان الحق معنا، أما المعتزلي: فإنه يرد حكمه في إثبات الجسم والجهة، ويقبل حكمه في مسألة الرؤية، فكان كلامه متناقضا.

فثبت بما ذكرنا: أن من نفى الرؤية بالوجه الذي ذكرناه لا بد وأن يعول في نفيها على

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

الدليل لا على ادعاء الضرورة. (1)

وإن ادعيتم أن هذا العلم استدلالي فلا بد فيه من الدليل، وقولكم: "إن كل مرئي لا بد وأن يكون مقابلا" يقرب من أنه إعادة للدعوى؛ لأن المقابل هو الذي يكون مختصا بجهة قدام الرائي، فكأنكم قلتم: "الدليل على أن ما لا يكون في الجهة لا يكون مرئية هو أن كل ما كان مرئية يكون في الجهة". والمنطقيون يسمون هذه القضية الثانية عكس نقيض القضية الأولى، وفي الحقيقة لا فرق بين القضيتين في الظهور والخفاء، فلم يجز جعل أحدهما حجة في صحة الأخرى، بل يقرب هذا من أن يكون إعادة المطلوب بعبارة أخرى.

والوجه الثاني في الجواب: ثبت أن المقابلة شرط للرؤية في الشاهد، فلم قلتم: إنه في الغائب كذلك؟ وتقريره: ما ذكرناه في الجواب عن الشبهة الأولى (2)، هو أن ذات الله تعالى مخالفة بالحقيقة والماهية لهذه الحوادث، والمختلفان في الماهية لا يجب استواؤهما في اللوازم، فلم يلزم من كون الإدراك واجبا في الشاهد عند حضور هذه الشرائط كونه واجبا في الغالب عند حضورها، ومما يدل عليه: أن الإدراك في الشاهد مشروط بشرائط ثمانية هي: سلامة الحاسة، وكون الشيء بحيث أن يكون جائز الرؤية، وأن لا يكون في غاية البعد، وأن لا يكون في غاية

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٦٧ - ٢٦٨).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

القرب، وأن يكون مقابلا للرائي أو في حكم المقابل، وأن لا يكون في غاية اللطافة، وأن لا يكون بين الرائي والمرئي حجاب، وأن لا يكون في غاية الصغر، فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته. (1)

وفي الغالب نقطع بأنه لا يمكن اعتباره، فكذلك لا يمتنع أن يكون الإدراك في الشاهد واجب الحصول، وفي الغائب لا يكون واجبا. (2)

وتمام الكشف والتحقيق: أنا ذكرنا في المقدمات: أن المراد من الرؤية أن يحصل لنا انكشاف بالنسبة إلى ذاته المخصوصة، وهو يجري مجرى الانكشاف الحاصل عند إبصار الألوان والأضواء، وإذا كان الأمر كذلك فإذا الانكشاف يجب أن يكون على وفق المكشوف، فإن كان المكشوف مخصوصا بالجهة والحيز: وجب أن يكون الانكشاف كذلك، وإن كان المكشوف منزها عن الجهة: وجب أن يكون انكشافه منزها عن الحيز والجهة". (3).

وهذا الجواب السابق مع ما فيه من حق إلا أنه اشتمل على باطل وهو: أن الجواب عن

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(3) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣ - ٣٠٤)، وشرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٥).

دليل المعتزلة بتسليم نفي الجهة والمقابلة عن الله تعالى باطل؛ لأن إثبات رؤية حقيقية بالأبصار عيانا من غير مقابلة أو جهة مكابرة عقلية، لأن الجهة من لوازم الرؤية وإثبات الملزوم ونفي اللازم مغالطة ظاهرة.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "يقال: هذا المنكر للرؤية المستدل على نفيها بانتفاء لازمها وهو الجهة: قولك ليس في جهة، وكل ما ليس في جهة لا يرى، فهو لا يرى، وهكذا جميع نفاة الحق ينفونه لانتفاء لازمه في ظنهم، فيقولون لو رئي للزم كذا، واللازم منتف فينتفي الملزوم.

والجواب العام لمثل هذه الحجج الفاسدة: بمنع إحدى المقدمتين: إما معينة وإما غير معينة، فإنه لا بد أن تكون إحداهما باطلة أو كلتاهما باطلة، وكثيرا ما يكون اللفظ فيها مجملا يصح باعتبار ويفسد باعتبار، وقد جعلوا الدليل هو ذلك اللفظ المجمل، ويسميه المنطقيون الحد الأوسط، فيصح في مقدمة بمعنى، ويصح في الأخرى بمعنى آخر، ولكن اللفظ مجمل، فيظن الظان لما في اللفظ من الإجمال وفي المعنى من الاشتباه أن المعنى المذكور في هذه المقدمة هو المعنى المذكور في المقدمة الأخرى، ولا يكون الأمر كذلك.

مثال ذلك في مسألة الرؤية أن يقال له: أتريد بالجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا؟

فإذا أردت به أمرا وجوديا كان التقدير: كل ما ليس في شيء موجود لا يرى. وهذه المقدمة ممنوعة ولا دليل على إثباتها، بل هي باطلة فإن سطح العالم يمكن أن يرى وليس العالم

في عالم آخر.

وإن أردت بالجهة أمرا عدميا كمانت المقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس بجهة بهذا التفسير.

وهذا مما خاطبت به غير واحد من الشيعة والمعتزلة فنفعه الله به، وانكشف بسبب هذا التفصيل ما وقع في هذا المقام من الاشتباه والتعطيل وكانوا يعتقدون أن ما معهم من العقليات النافية للرؤية قطعية لا يقبل في نقيضها نص الرسل، فلما تبين لهم أنها شبهات مبنية على ألفاظ مجملة ومعان مشتبهة، تبين أن الذي ثبت عن الرسول هو الحق المقبول". (1)

وقال أيضا: "يقال لهم: ما تعنون بأن هذا إثبات للجهة والجهة ممتنعة؟ أتعنون بالجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا؟

فإن أردتم أمرا وجوديا. وقد علم أنه ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والله فوق سماواته بائن من مخلوقاته، لم يكن. والحالة هذه في جهة موجودة، فقولكم: إن المرئي لا بد أن يكون في جهة موجودة قول باطل، فإن سطح العالم مرئي، وليس هو في عالم آخر.

وإن فسرتم الجهة بأمر عدمي كما تقولون: إن الجسم في حيز، ولا حيز تقدير مكان،

---

(1) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

وتجعلون ما وراء العالم حيزا.

فيقال لكم: الجهة. والحيز. إذا كان أمرا عدميا فهو لا شيء، وما كان في جهة عدمية أو حيز عدمي، فليس هو في شيء، ولا فرق بين قول القائل: هذا ليس في شيء وبين قوله: هو في العدم أو أمر عدمي فإذا كان الخالق تعالى مباينا للمخلوقات عاليا عليها، وما ثم موجود إلا الخالق أو المخلوق، لم يكن معه غيره من الموجودات، فضلا عن أن يكون هو سبحانه في شيء موجود يحصره أو يحيط به.

فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل، ويراعون أيضا الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، ومن تكلم بما فيه معني باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه، ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حق وباطلا نسبوه إلى البدعة أيضا، وقالوا: إنما قابل بدعة ببدعة، وردة باطلا بباطل". (1)

[الرد على الدليل الثاني والثالث]

---

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤) ومنهاج السنة النبوية له أيضا (٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

أن نمنع كون الرؤية بالانطباع إما مطلقا أو في الغائب لاختلاف الرؤيتين. (1).

ونقول أيضا: أن الرؤية عبارة عن الانكشاف التام، فإن كان الشيء له صورة كان انكشافه بانكشاف صورته ولونه، وإن كان منزها عن الصورة واللون كان انكشافه كذلك أيضا؛ لأن شرط الانكشاف أن يحصل على وفق ماهية المكشوف. (2)

والحكم بأن المرئي لابد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، وأنه لا بد وأن يكون ذا لون وشكل مبني على أن هذه الأشياء المشاهدة المحسوسة لا ترى إلا كذلك، ثم قالوا: "لو صح أن يرى الله فلا يرى إلا كذلك" وهو ممنوع في حقه تعالى، والحق أنه تحكم محض وقياس للخالق على المخلوق، وهو باطل قطعا؛ لأنه قياس مع الفارق، فالله تعالى ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه، فلا يصح قياسه عليه. قال تعالى: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص: الآيات: ١-٤]، وقال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: الآية: ١١]. (3)

---

(1) انظر: شرح للمواقف للجرجاني (٨/ ١٥٥).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين الرازي (١/ ٣٠٤).

(3) انظر: رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها لأحمد بن ناصر آل حمد (ص: ٧٢).

خامسًا: الأدلة العقلية للأشاعرة القائلين بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

استدل الأشاعرة على جواز رؤية الله تعالى بأدلة عقلية، وهي:

١ – دليل الوجود: وهو أن كل موجود مرئي سواء أمكن مشاهدته أم لم يمكن.

قال الجويني: "الدليل على جواز الرؤية عقلا أن الرب–عز وجل–موجود، وكل موجود مرئي" (1) ويدخل في ذلك جميع الموجودات كالأصوات، والروائح، والملموسات، والطعوم. (2)

٢ – معنى الرؤية ومفهوما والمراد بها. وجميع ذلك هو حقيقة الرؤية.

قال الغزالي–رحمه الله–(ت: ٥٠٥ هـ): "لا حقيقة لها إلا أنها نوع إدراك هو كمال ومزيد كشف بالاضافة إلى التخيل، إلا أن هذا الكمال في الكشف غير مبذول في هذا العالم، والنفس في شغل البدن وكدورة صفائه، فهو محجوب عنه. وكما لا يبعد أن يكون الجفن أو الستر أو سواد ما في العين سببا بحكم اطراد العادة الامتناع الإبصار للمتخيلات فلا يبعد أن

---

(1) انظر: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة للجويني (ص: ١١٥).

(2) انظر: شرح المواقف للجرجاني (ص: ١٣٩).

تكون كدورة النفس وتراكم حجب الأشغال بحكم اطراد العادة مانعا من إبصار المعلومات. فإذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، وزكيت القلوب بالشراب الطهور، وصفيت بأنوع التصفية والتنقية، لم يمتنع أن تشتغل بسببها لمزيد استكمال واستيضاح في ذات الله سبحانه أو في سائر المعلومات، يكون ارتفاع درجته عن العلم المعهود كارتفاع درجة الإبصار عن التخيل، يعبر عن ذلك بلقاء الله تعالى ومشاهدته، أو رؤيته، أو إبصاره، أو ما شئت من العبارات. فلا مشاحة فيها وبعد إيضاح المعاني. وإذا كان ذلك ممكنا بأن خلقت هذه الحالة في العين، كان اسم الرؤية بحكم وضع اللغة عليه أصدق وخلقه في العين غير مستحيل. كما أن خلقها في القلب غير مستحيل فإذا فهم المراد بها أطلقه أهل الحق من الرؤية، علم أن العقل لا يحيله، بل يوجبه، وأن الشرع قد شهد له فلا يبقى للمنازعة وجه إلا على سبيل العناد أو المشاحنة في إطلاق عبارة الرؤية أو القصور عن درك هذه المعاني الدقيقة التي ذكرناها". (1).

٣ – أن كل مرئي فهو في جهة، وهذا إنما هو حكم الشاهد لا حكم الغائب، وهذا الموضع ليس من المواضع التي يجب فيها نقل حكم الشاهد إلى الغائب، وإنه جائز أن يرى الإنسان ما ليس في جهة، إذا كان جائزا أن يرى الإنسان بالقوة المبصرة نفسها دون عين.

---

(1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٤٥-٤٦) باختصار.

(1)

٤ – أنه يمكن رؤية ما ليس في جهة، ومن أنكر ذلك فلا يقدر على انكار رؤية الإنسان نفسه في المرآة، ومعلوم أنه ليس في مقابلة نفسه. (2)

٥ – أن رؤية غير الأجسام ممكنة وذلك لما يلي:

الأول: أن الشيء لا يخلو أن يرى من جهة ما هو ملون، أو من جهة أنه جسم، أو من جهة أنه لون، أو من جهة أنه موجود، وربما من جهات أخر غير هذه الموجودة، وباطل أن يرى من قبل أنه جسم؛ إذ لو كان ذلك كذلك لما رئي ما هو غير جسم، وباطل أن يرى من قبل أنه ملون؛ إذ لو كان كذلك لمارئي اللون، وباطل أن يرى لمكان أنه لون؛ إذ لو كان ذلك كذلك لمارئي الجسم، وإذا بطلت جميع هذه الأقسام التي تتوهم في هذا الباب فلم يبق أن يرى الشيء إلا من قبل أنه موجود.

الثاني: أن الحواس إنما تدرك ذوات الأشياء وما تنفصل به الموجودات بعضها من بعض، وهي أحوال ليست بذوات، فالحواس لا تدركها وإنما تدرك الذات، والذات هي نفس الوجود

---

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٩).

(2) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٤٣).

المشترك لجميع الموجودات، فإذا: الحواس إنما تدرك الشيء من حيث هو موجود. (1)

سادسًا: الرد على أدلة الأشاعرة العقلية القائلين: بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

[الرد على الدليل العقلي الأول]

أن قولهم: "أن كل موجود يري" غير صحيح، حيث جعلوا ذلك عاما لكل موجود كالأصوات والروائح والطعوم وغيرها، وهذه مكابرة للعقل، ومناقضة للواقع.

فإن المعاني ونحوها لا يمكن رؤيتها، ومن زعم ذلك فقد قال بالمحال، والتخبط في المقال، وقد اعترف كبار الأشاعرة المخالفين للأشعري نفسه بعدم صحة هذا الدليل، وعدم سلامته من الاعتراضات والإشكالات.

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "اعلم أن جمهور الأصحاب عولوا في إثبات أنه تعالى يصح أن يرى على دليل الوجود، وأما نحن فعاجزون عن تمشيه، ونحن نذكر ذلك الدليل، ثم نوجه عليه ما عندنا من الاعتراضات". (2)

---

(1) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧-١٨٩) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٤٢ و٤٤٥) ودرء تعارض العقل والنقل له (٦/ ٢٣٠ - ٢٣٣).

(2) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٦٨).

وقد اعترف الرازي بعد إيراده للاستشكالات والاعتراضات على دليل الوجود بعجزه عن الجواب عنها فقال: "فهذا ما عندي من الأسئلة في هذا الدليل، وأنا غير قادر على الأجوبة عنها. . . اعلم أن الدليل العقلي المعول عليه في هذه المسألة هذا الذي أوردناه وأوردنا عليه هذه الاسئلة واعترفنا بالعجز عن الجواب عنها". (1)

وقال أيضا: "ثبت أن صحة الرؤية حكم مشترك فيه بين الجواهر والأعراض والحكم المشترك فيه لا بد له من علة مشتركة فيها والمشترك بين الجوهر والعرض إما الحدوث أو الوجود والحدوث لا يصلح للعلية لأن الحدوث عبارة عن وجود بعد عدم والقيد العلمي لا يصلح للعلية فوجب أن تكون العلة هي الوجود والله تعالى موجود فوجب القول بصحة رؤيته، وهذا عندي ضعيف". (2)

ولذلك توقف الرازي في القول بالدليل العقلي لعدم صحته عنده وعدم سلامته من الاعتراضات والإشكالات.

قال في كتابه المطالب العالية: "الدلائل التي تمسك بها نفاة الرؤية في غاية الضعف والسقوط، وأما مثبتوا الرؤية فقد عولوا على أن قالوا: "الله تعالى موجود، وكل موجود فإنه تصح

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٧٧).

(2) انظر: معالم أصول الدين للرازي (ص: ٢٦٨).

رؤيته" ودليلهم في الإثبات: أن كل موجود تصح رؤيته، قد ذكرناه في أحكام الموجودات، وأوردنا عليه اعتراضات قوية لا يمكن دفعها البتة، وإذا عرفت ضعف دلائل الفريقين فنقول: بقي هذا البحث في محل التوقف". (1)

وقال الشهرستاني–رحمه الله–(ت: ٥٤٨ هـ): "وأما جواز الرؤية فالمسلك العقلي ما ذكرناه وقد وردت عليه تلك الإشكالات ولم تسكن النفس في جوابها كل السكون ولا تحركت الأفكار العقلية الى التفصي عنها كل الحركة". (2)

وقال الآمدي–رحمه الله–(ت: ٦٣١ هـ): "والواجب البداية بتقديم النظر في طرف الجواز العقلي أولا ثم في وقوعه شرعا ثانيا، وقد سلك المتكلمون في ذلك ومن أهل الحق مسالك لا تقوى: المسلك الأول: وهو ما اشتهر من قولهم: الرؤية تتعلق بالموجودات المختلفة كالجواهر والأعراض. . . " ثم قال عن هذا الدليل: "ومن نظر بعين التحقيق علم أن المتعلق به منحرف عن سواء الطريق". (3)

---

(1) انظر: المطالب العالية للرازي (٢/ ٨٧).

(2) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص: ٣٢٩) وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٦٢).

(3) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٢-١٤٣).

وقال أيضا: "ولما تخيل بعض الأصحاب زيغ هذه الطريقة عن الصواب انتهج منهجا آخر فقال: إن الجواهر والأعراض متعلق الرؤية، ولا محالة أن بينهما اتفاقا وافتراقا. . . وهذا الإسهاب أيضا مما لا يشفي غليلا". (1)

وقال أيضا: "لو سلم أن ما وقع به الافتراق لا يصلح أن يكون مصححا فإن المصحح لا بد وأن يكون أمرا مشتركا فلا بد من بيان أنه لا مشترك إلا "الوجود" والا فمع جواز القول باشتراكها في معنى آخر غير الوجود فيجوز أن يكون هو المصحح أو داخلا في المصحح، وعند ذلك فلا يلزم جواز تعلق الرؤية بواجب الوجود؛ لجواز أن يكون المصحح غير شامل له كما في الوجود، وذلك لا دليل عليه غير البحث والسبر وهو ما لا يرقى إلى ذروة اليقين بل لعله مما يقصر عن إفادة الظن والتخمين. . . ثم إنه لو قدر أنه لا مشترك إلا الوجود فلا بد من بيان أن وجود واجب الوجود مجانس للوجود الذي هو متعلق الرؤية شاهدا حتى يلزم تعلق الرؤية به وذلك مما يعز ويشق جدا". (2)

وقال في ختام إيراده للاستشكالات والاعتراضات: "وعلى الجملة فلسنا نعتمد في هذه المسألة على غير المسلك العقلي الذي أوضحناه؛ إذ ما سواه لا يخرج عن الظواهر السمعية

---

(1) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٤-١٤٥).

(2) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٧).

والاستبصارات العقلية، وهي مما يتقاصر عن إفادة القطع واليقين، فلا يذكر إلا على سبيل التقريب واستدراج قانع بها إلى الإعتقاد الحقيقي، إذ رب شخص يكون انقياده إلى ظواهر الكتاب والسنة واتفاق الأمة اتم من انقياده إلى المسالك العقلية والطرق اليقينية خشونة معركها وقصوره عن مدركها". (1)

[الرد على الدليل العقلي الثاني]

١ – أن قولهم: "بأن الرؤية هي زيادة علم وكشف". هو نفس قول المعتزلة المنكرين للرؤية، فلا فرق بينهم في ذلك.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أئمة أصحاب الأشعري المتأخرين لما تأملوا ذلك عادوا في الرؤية إلى قول المعتزلة أو قريب منه وفسروها بزيادة العلم كما يفسرها بذلك الجهمية والمعتزلة وغيرهم وهذا في الحقيقة تعطيل للرؤية الثابتة بالنصوص والإجماع والمعلوم جوازها بدلائل المعقول، بل المعلوم بدلائل العقول امتناع وجود موجود قائم بنفسه لا يمكن تعلقها به". (2)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "نفاة الرؤية من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة

---

(1) انظر: نفس المصدر (ص: ١٥٤).

(2) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٤ – ٤٣٥) باختصار..

يتأولون النصوص فيها تارة برؤية أفعال الله، وتارة برؤية القلب الذي هو زيادة العلم". (1)

وقد اعترف بهذا كبار حذاق المتكلمين الأشعرية، وأن قولهم هو نفس قول المعتزلة.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن؛ فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة". (2)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فلهذا صار الحذاق من متأخري الأشعرية على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة، فإذا أطلقوها موافقة لأهل السنة فسروها بما تفسرها به المعتزلة، وقالوا: النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظي". (3)

٢ – أن تحريفكم لمعنى الرؤية بالكشف وزيادة العلم قول مبتدع لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها، وهو خلاف ما نقل عن الصادق المصدوق–صلى الله عليه وسلم–حينما أخبرنا

---

(1) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٥/ ٧٣).

(2) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٥).

(3) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٠).

عن رؤية الله تعالى فقال: "إنكم سترون ربكم عيانا". (1)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما دعواه ودعوى غيره من الجهمية من المعتزلة ونحوهم أن الرؤية التي أخبر بها الرسول مزيد علم فمن سمع النصوص علم بالاضطرار أن الرسول إنما أخبر برؤية المعاينة، وأيضا فإن أدلة المعقول الصريحة تجوز هذه الرؤية". (2)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أما إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة فهو قول سلف الأمة وأئمتها، وجماهير المسلمين من أهل المذاهب الأربعة وغيرها، وقد تواترت فيه الأحاديث عن النبي ﷺ عند علماء الحديث، وجمهور القائلين بالرؤية يقولون: يرى عيانا مواجهة، كما هو المعروف بالعقل". (3)

[الرد على الدليل العقلي الثالث]

١ – نقول لهم: تفريقكم في نقل حكم الشاهد إلى الغائب بين الرؤية وبين غيرها من الصفات تفريق بين متماثلين، فكما نقلتم حكم الشاهد إلى الغائب في صفة الحياة والعلم،

---

(1) أخرجه البخاري (رقم: ٧٤٣٥).

(2) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٥٢).

(3) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٣٤١).

فكذلك يلزمكم في الرؤية.

وهؤلاء اختلط عليهم إدراك العقل مع إدراك البصر، فإن العقل هو الذي يدرك ما ليس في جهة –أعني في مكان– وأما إدراك البصر فظاهر من أمره أن من شرطه أن يكون المرئي منه في جهة –أعني في مكان– ولا في كل جهة فقط بل في جهة ما مخصوصة، ولذلك ليس تتأتى الرؤية بأي وضع اتفق أن يكون البصر من المرئي، بل بأوضاع محدودة وشروط محدودة أيضا، وهي ثلاثة أشياء: "حضور الضوء، والجسم الشفاف المتوسط بين البصر والمبصر، وكون المبصر ذا ألوان ضرورة"، والرد هذه الأمور المعروفة بنفسها في الأبصار هو رد للأوائل المعلومة بالطبع للجميع، وإبطال لجميع علوم المناظر والهندسة، وقد قال القوم –أعني الأشعرية–: "إن أحد المواضع التي يجب أن ينقل فيها حكم الشاهد إلى الغائب هو الشرط، مثل: حكمنا أن كل عالم حي؛ لكون الحياة تظهر من الشاهد شرطا في وجود العالم"،وإن كان كذلك قلنا لهم: وكذلك يظهر في الشاهد أن هذه الأشياء هي شروط في الرؤية فألحقوا الغائب منها بالشاهد على أصلكم. (1)

٢ – أن قولكم: "جائز أن يرى الإنسان ما ليس في جهة" هذا إنما يكون متصورا في

---

(1) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٦) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٩ – ٤٤٠) والدرء له أيضا (٦/ ٢٢٩).

العقول، أما في الخارج فلا يوجد مرئي إلا وهو في جهة.

٣ – يقال لهم: قولكم: "ما ليس في جهة" هذا اللفظ قول مبتدع لم يرد به الشرع إثباتا ولا نفيا، ثم ماذا تقصدون به؟ إن قصدتم أنه لا داخل العالم ولا خارجه فقد قلتم الباطل والمحال، وإن قصدتم أنه ليس فوق العرش إله فقد جحدتم رب العالمين، وإن قصدتم أنه بذاته في كل مكان فقد قلتم قولا أعظم من قول النصاري في عيسى–عليه السلام–، وإن قصدتم أنه تعالى لا تحيط به المخلوقات، بل هو بائن عن المخلوقات، فقد أصابتم المعنى وأخطأتم في استعمال اللفظ.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "من قال: إن الله ليس في جهة، قيل له: ما تريد بذلك؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السماوات رب يعبد، ولا على العرش إله، ومحمد لم يعرج به إلى الله تعالى، والأيدي لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء، ولا تتوجه القلوب إليه، فهذا فرعوني معطل جاحد لرب العالمين.

وإن كان معتقدا أنه مقر به، فهو جاهل متناقض في كلامه. ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد كابن عربي، وقالوا: إن الله بذاته في كل مكان، وأن وجود المخلوقات هو وجود الخالق.

وإن قال: مرادي بقولي: "ليس في جهة" أنه لا تحيط به المخلوقات، بل هو بائن عن المخلوقات، فقد أصاب في هذا المعنى.

وكذلك من قال: إن الله متحيز، أو قال: ليس بمتحيز، إن أراد بقوله: "متحيز" أن

المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ. وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات لا تحويه فقد أصاب. وإن أراد: ليس ببائن عنها، بل هو لا داخل فيها ولا خارج عنها فقد أخطأ.

والناس في ذلك ثلاثة أصناف: أهل الحلول والاتحاد، وأهل النفي والجحود، وأهل الإيمان، والتوحيد، والسنة.

فأهل الحلول يقولون: إنه بذاته في كل مكان، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة، فيقولون: وجود المخلوقات وجود الخالق، كما هو مذهب **ابن عربي (ت: ٦٣٨ هـ)** صاحب "الفصوص" **وابن سبعين (ت: ٦٦٩ هـ)** ونحوهما.

وأما أهل النفي والجحود فيقولون: لا هو داخل العالم ولا خارج عنه، ولا مباين له ولا حال فيه، ولا فوق العالم ولا فيه، ولا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء، ولا يتقرب إليه شيء، ولا يدنو منه شيء، ولا يتجلى الشيء ولا يراه أحد، ونحو ذلك.

وهذا قول متكلمة الجهمية، كما أن الأول قول عباد الجهمية. فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئا، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء، وكلاهما مرجعهم إلى التعطيل والجحود الذي هو قول فرعون". (1)

٤ – أن استلزام الرؤية لأن يكون الله بجهة من الرائي ثابت لا محذور فيه، فقد دل العقل

---

(1) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٢٠٣-٢٠٤).

الصريح والنقل الصحيح والقياس الصحيح وهو قياس التنبية وقياس الأولى على إثبات ذلك.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الوجه الثالث: أن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله بجهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة وفيه مع إخباره أنهم يرونه إخبارهم أنه يرونه في جهة منهم من وجوه:

أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة منهم، فأما رؤية ما ليس في الجهة فهذا لم يكونوا يتصورونه ولا يعرفونه فضلا عن أن يكون اللفظ يدل عليه.

ولست تجد أحدا من الناس يتصور وجود موجود في غير جهة، فضلا عن أن يتصور أنه يرى، فضلا عن أن يكون اسم الرؤية المشهورة في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة.

الثاني: أنه شبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيها للمرئي بالمرئي، ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر وجب أن يرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك، فإنه لو لم يكن كذلك لأخبرهم برؤية مطلقة نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة، أما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحوة ورؤية البدر صحوة ويقول: "إنكم ترون ربكم كذلك" فهذا لا يمكن أن يتأول على الرؤية التي يزعمونها، فإن هذا اللفظ لا يحتملها لا حقيقة ولا مجازا.

الثالث: أنه شبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي، ومن يقول: "إنه يرى في غير جهة" يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد

حجاب منفصل عنهم، إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم، ولما يكون في جهة، وهم يقولون: "الحجاب عدم خلق الإدراك في العين"، والنبي ﷺ مثل رؤيته برؤية هذين النورين العظيمين إذا لم يكن دونها حجاب.

الرابع: أنه أخبر أنهم: **"لا يضارون في رؤيته"** وفي حديث آخر: **"لا يضامون"** ونفي الضير والضيم إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي، ومعلوم أنا يسمونه رؤية وهو "رؤية ما ليس بجهة" من الرائي لا فوقه ولا في شيء من جهاته لا يتصور فيها ضير ولا ضيم حتى ينفي ذلك، بخلاف رؤية ما يواجه الرائي ويكون فوقه، فإنه قد يلحقه فيه ضيم وضير إما بالازدحام عليه أو كلال البصر لخفائه: كالهلال، وإما لجلائه: كالشمس والقمر.

الوجه الرابع: أن كون الله يرى بجهة من الرائي ثبت بإجماع السلف والأئمة". (1).

[الرد على الدليل العقلي الرابع]

أن قولهم ذلك مغالطة للواقع، فالمرآة في جهة الناظر إليها، وهو إنما ينظر إلى صورته فيها. فإن الذي يبصر هو خيال ذاته فقط، والخيال منه هو في جهة إذا كان الخيال في المرآة، والمرآة في جهة. (2)

---

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٣٢ - ٤٤٩) باختصار وتصرف.

(2) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٤١) والدرء له

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "قال العقلاء هذا تلبيس فإنه إنما يرى خيال صورته وهو عرض منطبع في الجسم الصقيل وهو في جهة منه ولا يرى حقيقة صورته القائمة به". (1).

[الرد على الدليل العقلي الخامس]

قولكم: أن رؤية غير الأجسام ممكنة، قول باطل مخالف للعقل الصريح والواقع، ومكابرة للمعقول والمحسوس.

فأما الوجه الأول في استدلالكم: فالمغالطة في هذا القول بينة؛ فإن المرئي منه ما هو مرئي بذاته ومنه ما هو مرئي من قبل المرئي بذاته، وهذه هي حال اللون والجسم، فإن اللون مرئي بذاته، والجسم مرئي من قبل اللون، ولذلك ما لم يكن له لون لم يبصر، ولو كان الشيء إنما يرى من حيث هو موجود فقط لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس، فكان يكون البصر والسمع وسائر الحواس الخمس حاسة واحدة، وهذا كله خلاف ما يعقل، وقد اضطر المتكلمون لمكان هذه المسألة وما أشبهها أن يسلموا أن الألوان ممكنة أن تسمع، والأصوات ممكنة أن ترى، وهذا كله خروج عن الطبع وعما يمكن أن يعقله الإنسان، فإنه من

أيضا (٦/ ٢٣٠).

(1) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٣٣٣).

الظاهر أن حاسة البصر غير حاسة السمع، وأن محسوس هذه غير محسوس تلك، وأن آلة هذه غير آلة تلك، وأنه ليس يمكن أن ينقلب البصر سمعا، كما ليس يمكن أن يعود اللون صوتا، وعلى هذا فتكون الأشياء كلها شيئا واحدا حتى المتضادات، وهذا شيء فيها أحسب يسلمه المتكلمون من أهل ملتنا، أو يلزمهم تسليمه -يعني هؤلاء الأشعرية- وهو رأي سوفسطائي لأقوام قدماء مشهورين بالسفسطة.

وأما الوجه الثاني في استدلالكم: ففي غاية الفساد، ومن أبين ما يظهر به فساد هذا القول أنه لو كان البصر إنما يدرك الأشياء لوجودها لما أمكنه أن يفرق بين الأبيض والأسود؛ لأن الأشياء لا تفترق بالشيء الذي تشترك فيه، ولكان بالجملة لا يمكن في الحواس: لا في البصر أن يدرك فصول الألوان، ولا في السمع أن يدرك فصول الأصوات، ولا في الطعم أن يدرك فصول المطعومات، وللزم أن تكون مدارك المحسوسات بالحس واحدا، فلا يكون فرق بين مدرك السمع وبين مدرك البصر، وهذا كله في غاية الخروج عما يعقله الإنسان، والسبب في مثل هذه الحيرة الواقعة في الشريعة حتى ألجأت القائمين بنصرتها في زعمهم إلى مثل هذه الأقاويل الهجينة التي هي ضحكة عند من عني بتمييز أصناف الأقاويل أدنى عناية، هو التصريح في الشرع بما لم يأذن الله ورسوله به، فإذا متى أخذ الشرع في أوصاف الله تعالى على ظاهره لم تعرض فيه هذه الشبهة ولا غيرها لأنه إذا قيل إنه نور وإن له حجابا من نور كما جاء في القرآن والسنن الثابتة ثم قيل إن المؤمنين يرونه في الدار الآخرة كما ترى الشمس لم يعرض في هذا شك ولا شبهة في حق الجمهور ولا في حق العلماء وذلك أنه قد تبرهن عند العلماء أن

تلك الحال مزيد علم لكن متى صرح به للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها أو كفروا المصرح لهم بها، فمن خرج عن منهاج الشريعة في هذه الأشياء فقد ضل عن سواء السبيل". (1)

سابعًا: الأدلة الشرعية للأشاعرة القائلين: بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

استدل الأشاعرة بالأدلة الواردة في القرآن والسنة على صحة رؤية الله تعالى في الآخرة، وإمكان وقوعها. ومع قولهم بصحة ذلك إلا أنهم قد حكموا بأن دلالتها على الرؤية ظنية وليست قطعية.

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "المسألة العاشرة: قيل: الدلائل النقلية لا تفيد اليقين؛ لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإضرار، وعدم النقل، وعدم التقديم والتأخير، وعدم التخصيص، وعدم النسخ، وعدم المعارض العقلي، وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم، والموقوف على المظنون مظنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية، وأن العقلية قطعية، والظن لا يعارض القطع". (2)

---

(1) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧-١٩٠) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٦/ ٢٣٠-٢٣٦).

(2) انظر: معالم أصول الدين للرازي (ص: ٢٥).

وقد ذهب جمهورهم ومتأخروهم لذلك إلى عدم إثبات رؤية حقيقة بالأبصار، وإنما يحرفونها ويؤولونها إما مجازا، أو زيادة علم وكشف، ويجعلونها في غير جهة.

ومن الأدلة التي استدلوا بها القرآن الكريم:

١ - قوله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣].

قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ): "والنظر إلى الشيء يوجب رؤيته، فجاز أن يكون المراد من النظر هو الرؤية على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب، وأيضا حكى الله تعالى عن الخليل-عليه السلام-أنه قال: **{إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** [الصافات: الآيات: ٩٩] وليس المراد منه القرب بالجهة، فكذا ههنا". (1).

وقال الغزالي-رحمه الله-(ت: ٥٠٥ هـ): "وإن حصل له العلوم اليقينية إما على سبيل الحدس وإما على سبيل الفكر، ونزه أخلاقه وحسنها وعمل بموجب الشرع فله الدرجة العليا في السعادة، وله الوصول بلا انفصال وهو النظر الى الجمال الحق والجلال المحض، والكمال الصرف، كما قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: الآيات: ٢٢-

---

(1) انظر: تأسيس التقديس للرازي (ص: ٢٠٩).

٢٣]، فحق العاقل أن يسعى لطلب تلك السعادة ويحترز عن مضادها وعوائقها". (1).

وقال الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ): "أمثال هذه الظواهر لا تفيد إلا ظنونا ضعيفة جدا، وحينئذ لا تصلح هذه الظواهر للتعديل عليها في المسائل العلمية التي يطلب فيها اليقين". (2).

٢ – قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: الآية: ١٥].

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "يجوز أن يكون المراد من الحجاب عدم الرؤية؛ وذلك لأن الحجاب يقتضي المنع من الرؤية، فكان إطلاق لفظ الحجاب على المنع من الرؤية: مجازة، من باب إطلاق السبب على المسبب". (3)

وقال الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ): "ذكر ذلك تحقيرًا لشأنهم فلزم منه كون المؤمنين مبرئين عنه، فوجب أن لا يكونوا محجوبين عنه، بل رائين له، وهذا المسلك أيضا من الظواهر المفيدة

---

(1) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي (ص: ١٤٥).

(2) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٠).

(3) انظر: نفس المصدر (ص: ٢١٠).

للظن". (1)

٣ - قوله تعالى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣].

قال الغزالي-رحمه الله-(ت: ٥٠٥ هـ): "أي في الدنيا فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة في ذلك التلوث فمنها ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصارت كالمرآة التي قد فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ولا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يستعد بصفائه ونقائه من الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن يتجلى فيه الحق-جل جلاله-، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله، وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، فإذا الرؤية حق بشرط أن لا تفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب العالمين علوا كبيرا، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تصور وتخيل وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الانكشاف والوضوح وتنقلب

(1) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٠).

مشاهدة، فلا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، فإذا لم يكن في المعرفة إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة؛ لأنها هي بعينها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا؛ لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والبذور زرعا ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل فكذلك من لا يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة". (1)

ومن الأدلة التي استدلوا بها من السنة النبوية:

حديث **عمار بن ياسر–رضي الله عنهما–(ت: ٣٧ هـ)**، حين سمع النبي–صلى الله عليه وسلم–يدعو بهذا الدعاء: ((**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء**

(1) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي (ص ١٥٧ – ١٥٩) باختصار.

مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)). (1)

قال الغزالي–رحمه الله–(ت: ٥٠٥ هـ): "لذة النظر إلى وجه الله الكريم، هذه المعرفة وإن عظمت لذتها، فلا نسبة لها إلى لذة النظر إلى وجه الله الكريم في الدار الآخرة، وذلك لا يتصور في الدنيا لسر. لا يمكن الآن كشفه، ولا ينبغي أن تفهم من النظر ما يفهمه العوام والمتكلمون، فيحتاج في تقديره إلى جهة ومقابلة، فلذلك من نظر من أقعده القصور في بحبوحة عالم الشهادة حتى لم يجاوز المحسوسات التي هي مدركات البهائم، لكن ينبغي أن تفهم أن الحضرة الربوبية تنطبع صورتها وترتيبها العجيب على ما هو عليه من البهاء والعظمة والجلال والمجد في قلب العارف، كما تنطبع مثلا صورة العالم المحسوس في حواسك، فكأنك تنظر إليه وإن غمت عينيك، فإن فتحت العين، وجدت الصورة المبصرة مثل الصورة المتخيلة قبل فتح العين لا تخالفها في شيء، إلا أن الإبصار في غاية الوضوح بالنسبة إلى التخيل، وكذلك ينبغي أن تعلم أن في إدراك ما لا يدخل في الخيال والحس أيضا في درجتين متفاوتين في الوضوح غاية

---

(1) أخرجه النسائي (رقم: ١٣٠٥) وابن حبان (رقم: ١٩٧١) والطبراني في كتاب الدعاء (رقم: ٦٢٤) وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٢٥) وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٩) والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٨٨) وتمام الرازي في فوائده (٢/ ١٤٧ رقم ١٣٨٧) والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٥٨) والحاكم في المستدرك (رقم: ١٩٢٣) وصححه، ووافقه الذهبي، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥٤٠ رقم: ٨٤٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (رقم: ٢٢٧).

التفاوت، ونسبة الثانية إلى الأولى كنسبة الإبصار إلى التخيل، فتكون الثانية غاية الكشف، فيسمى لذلك مشاهدة ورؤية.

والرؤية لم تسم رؤية لأنها في العين؛ إذ لو خلقت في الجبهة لكانت رؤية، بل لأنها غاية الكشف، فكما أن تغميض الأجفان حجاب عن غاية الكشف في المبصر، فكدورة الشهوات وشواغل هذا القالب المظلم حجاب عن غاية المشاهدة؛ ولذلك قال الله تعالى: **{لَن تَرَانِي}** [الأعراف: الآية: ١٤٣] وقال تعالى: **{لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}** [الأنعام: الآية: ١٠٣]، فإذا ارتفع هذا الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة، ويكون مشاهدة كل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله سبحانه في النظر على لذة غيرهم، ويتجلى الله تعالى لأبي بكر-رضي الله عنه-(ت: ١٣ هـ) خاصة، ويتجلى للناس عامة، وكذلك لا يراه إلا العارفون؛ لأن المعرفة بذر النظر، بل هي التي تنقلب مشاهدة كما ينقلب التخيل إبصارا، فلذلك لا يقتضي مقابلة ولا جهة". (1)

ثامنًا: الرد على الأشاعرة في تحريفهم للأدلة النقلية.

لقد خالف جمهور الأشاعرة مخالفة صريحة ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من إثبات رؤية الله في الدار الآخرة رؤية حقيقة بالأبصار عيانا، وتناقضوا حينما أثبتوا رؤية في غير جهة،

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للغزالي (ص: ٢٥٤-٢٥٥).

وحقيقة قولهم هو موافقة المعطلة في إنكار الرؤية، والرد عليهم كما يلي:

١ – تفسيرهم لتلك الآيات الكريم، والأحاديث الصحيحة، إنما هو تحريف للكلم عن مواضعه، فلم يقل تلك التحريفات لا رسول الله ﷺ ولا أصحابه–رضي الله عنهم–ولا التابعون لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام من الأئمة الأربعة ونحوهم.

٢ – أنهم في تحريفهم لأدلة الرؤية عن معانيها الحقيقة الثابتة قد خالفوا إمامهم **الإمام أبا الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ)** المنتسبين إليه، وخالفوا كبار أتباعه المتقدمين، وهذا حال جمهور الأشاعرة الذين ينتسبون للإمام الأشعري، فقد خالفوه في كثير مما تبرأ منه من أقوال الجهمية والمعتزلة، ومنها مسألة الرؤية.

قال أبو الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "الباب الأول: الكلام في إثبات رؤية الله سبحانه بالأبصار في الآخرة، قال الله عز وجل: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ}** [القيامة: الآية: 22]، يعني: (مشرقة) **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآية: 23]، يعنى: رائية؛ لأن النظر إذا ذكر مع ذكر "الوجه" فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان نظر القلب فقالوا: "أنظر في هذا الأمر بقلبك"، لم يكن معناه نظر العينين، وكذلك إذا ذكر النظر مع "الوجه" لم يكن معناه نظر الانتظار الذي يكون للقلب، وأيضا فإن نظر الانتظار لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة في "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت" من العيش السليم والنعيم المقيم.

وإذا كان هذا هكذا لم يجز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أتوا به مع خطوره ببالهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز أن يكون الله-عز وجل-أراد نظر التعطف؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم، وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو: أن معنى قوله: **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة: الآية: 23]، أنها رائية ترى ربها-عز وجل-، والرؤية إذا أطلقت إطلاقا ومثلت برؤية العيان لم يكن معناها إلا رؤية العيان، إن المسلمين اتفقوا على أن الجنة فيها "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" من العيش السليم، والنعيم المقيم، وليس نعيم في الجنة أفضل من رؤية الله تعالى بالأبصار.

وأكثر من عبد الله تعالى عبده للنظر إلى وجهه الكريم -أرانا الله إياه بفضله- فإذا لم يكن بعد رؤية الله-عز وجل-أفضل من رؤية نبيه ﷺ، وكانت رؤية نبي الله أفضل لذات الجنة كانت رؤية الله-عز وجل-أفضل من رؤية نبيه ﷺ، وإذا كان ذلك كذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصديقين النظر إلى وجهه الكريم؛ وذلك أن الرؤية لا تؤثر في المرئي؛ لأن رؤية الرائي تقوم به، فإذا كان هذا هكذا، وكانت الرؤية غير مؤثرة في المرئي لم توجب تشبيها ولا انقلابا عن حقيقة، ولم يستحل على الله-عز وجل-أن يري عباده المؤمنين نفسه في جنانه". (1)

---

(1) انظر: الإبانة عن أصول الديانة للأشعري (ص: ٣٥-٥٥) باختصار وتصرف.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا كله من كلام الأشعري مثل احتجاجه بما ذكره عن المسلمين جميعا من قولهم: إن الله احتجب بسمع سموات على أنه فوق العرش، وهو إنما احتجب عن أن يراه خلقه، لم يحتجب عن أن يراهم هو، فعلم أن هذا يحجب العباد عن رؤيته، وهذا يقتضي أنهم يرونه برفع هذه الحجب، وذلك يقتضي أنهم يرونه في الجهة، فإن من يثبت رؤيته في غير جهة من الرائي لا يقول بجواز الحجب المنفصلة أيضا كما تقدم، وكذلك احتجابه بقوله: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}** [الشورى: الآية: ٥١]، وأن الآية دلت على أن الله يحجب بعض المخلوقات دون بعض فعلم أنه لا يحتجب عن بعضهم واحتجاجه بذلك على أن الله فوق العرش يقتضي أن يحتجب عمن يراه ببعض مخلوقاته وهذا يستلزم أنه لا يرى إلا في جهة من الرائي وكذلك احتجاجه في مسألة العلم بأن الله نور وأن ذلك يقتضي أنه يرى ويقتضي أن رؤيته توجب علوه وكلام الأشعري في مسألة الرؤية والعلو يقتضي تلازمهما". (1)

٣ – أنهم يقصدون بقولهم: "في غير جهة" نفي علو الله تعالى عن خلقه، وفوقيته على عرشه واستوائه عليه.

---

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٦٢).

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "نقول: قوله: **{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** [الأعراف: الآية: ٥٤] آية محكمة دالة على أن قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: الآية: ٥٤] من المتشابهات التي يجب تأويلها، وهذه نكتة لطيفة، ونظير هذا أنه تعالى قال في أول سورة الأنعام: **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ}** [الأنعام: الآية: ٣] ثم قال بعده بقليل: **{قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ}** [الأنعام: الآية: ١٢] فدلت هذه الآية المتأخرة على أن كل ما في السموات فهو ملك الله، فلو كان الله في السموات لزم كونه ملكا لنفسه وذلك محال، فهكذا هاهنا، فثبت بمجموع هذه الدلائل العقلية والنقلية أنه لا يمكن حمل قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: الآية: ٥٤]، على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز، وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان: الأول: أن نقطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة، ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل، بل نفوض علمها إلى الله، وهو الذي قررناه في تفسير قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** [آل عمران: الآية: ٧] وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه". (1)

وجعل الرازي القول بنفي الجهة المتسلزمة للعلو والفوقية أمرا بدهيا اتفق عليه العقلاء

---

(1) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٦٩).

سوى من شذ عنهم، ولم يشذ عن جميع العقلاء إلا فريقان وهم الحنابلة والكرامية.

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "إن العلوم البديهية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها للجميع العظيم، فلو كان وقوع هذه المقدمة بديهيا لامتنع إطباق الجمع العظيم على إنكاره، ونرى جمهور الأذكيا من العقلاء متفقين على بطلان هذه المقدمة؛ فإن إثبات الجهة لله تعالى لم يقل به إلا الحنبلية والكرامية، وأما كل من سواهم فهم متفقون على أن ذاته–عز وجل–منزه عن الاختصاص بالحيز والجهة، فظهر أن هذه المقدمة ليس بديهية". (1)

وقد أخطأ الرازي في ذلك القول خطأ عظيما، وجهل ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من إثبات الرؤية في الآخرة إثباتا حقيقيا بالأبصار عيانا، وقد بين ابن تيمية خطأ الرازي في ذلك وانحرافه عن منهج الأنبياء والمرسلين، وتحريفه لكلام رب العالمين.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "بل خصومه في هذا الباب جميع الأنبياء والمرسلين وجميع الصحابة والتابعين، وجميع أئمة الدين من الأولين والآخرين، وجميع المؤمنين الباقين على الفطرة الصحيحة –دع ما قد تنازع فيه من ذلك– فإنهم لا يطلقون على الله هذا الإطلاق الذي ذكره، وإن كان فيهم وفي سائر الطوائف من نص بالصفات التي يطلق عليها هو وأمثاله أنها أجزاء وأبعاض، لكنهم لا يطلقون الألفاظ الموهمة المجملة إلا إذا نص الشرع،

---

(1) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ١٥٢).

فأما ما لم يرد به الشرع فلا يطلقونه إلا إذا تبين معناه الصحيح الموافق للشرع، ونفي المعنى الباطل وفي لفظ الأجزاء، والأبعاض إجمال وإيهام كما سنذكره إن شاء الله، وما علمت أحدا من الحنابلة من يطلقه من غير بيان، بل كتبهم مصرحة بنفي ذلك المعنى الباطل، ومنهم من لا يتكلم في ذلك بنفي ولا إثبات.

فلا ريب أن الكتب الموجودة بأيدي الناس، تشهد بأن جميع السلف من القرون الثلاثة كانوا على خلاف ما ذكره، وأن الأئمة المتبوعين عند الناس والمشايخ المقتدى بهم، كانوا على خلاف ما ذكره، وهذه أئمة المالكية، والشافعية، والحنفية، وأهل الحديث، والصوفية على ذلك، بل أئمة الصفاتية من الكلابية والكرامية والأشعرية على خلاف ما قاله، فهذه كتب ابن كلاب (كان باقيا قبل الأربعين ومائتين) إمام طائفته، ثم الحارث المحاسبي (ت: ٢٤٣ هـ) ونحوه، ثم أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤ هـ)، وأئمة أصحابه مثل أبي عبد الله بن مجاهد (ت: ٣٧٠ هـ)، وأبي الحسن الطبري (ت: ٣٦٠ هـ)، وأبي العباس القلانسي (ت: ٣٢٨ هـ)، وغيره -كما سيأتي إن شاء الله حكاية قوله وقول غيره- والقاضي أبي بكر بن الباقلاني (ت: ٣٣٨ هـ)، وأبي علي بن شاذان (٢٤٦ هـ)، وغيرهم، كلهم يقولون: بإثبات العلو لله على العرش واستوائه عليه دون ما سواه، ويضللون من يفسر ذلك بالاستيلاء والقهر ونحوه - كما قد حكينا بعض أقوالهم في جواب الاستفتاء، وفي جواب هذه المسائل الموردة عليه وذكرنا أن أبا الحسن الأشعري ذكر أن هذا قول جميع أهل السنة والحديث، وبه يقول الرازي وهو قد حكي أيضا في كتبه ذلك عن بعض أئمة أصحابه، وذكر للأشعري نفسه قولين

-وقد تكلمنا على ذلك- فكيف يزعم أن خصومه إنما هم الكرامية والحنابلة! بل لم يوافقه إلا فريق قليل من أهل القبلة". (1)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أكثر طوائف العقلاء يقولون بالعلو، وبامتناع وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه، وأما كلام من نقل مذهب السلف والأئمة فأكثر من أن يمكن سطره. . . **وعن جرير بن عبد الحميد الرازي-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)** أنه قال: "كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم، وإنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء إله".

وجميع الطوائف تنكر هذا، إلا من تلقى ذلك عن الجهمية، كالمعتزلة ونحوهم من الفلاسفة، فأما العامة من جميع الأمم فلا يستريب اثنان في أن فطرهم مقرة بأن الله فوق العالم، وأنهم إذا قيل لهم: "لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينزل منه شيء، ولا يقرب إليه شيء، ولا يقرب هو من شيء، ولا يحجب العباد عنه شيء، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا تتوجه القلوب إليه طالبة له في العلو" فإن فطرهم تنكر ذلك، وإذا أنكروا هذا في هذه القضية المعينة التي هي المطلوب، فإنكارهم لذلك في القضايا المطلقة العامة التي تتناول هذا وغيره أبلغ وأبلغ، وأما خواص الأمم فمن المعلوم أن قول النفاة لم ينقل عن نبي من الأنبياء،

---

(1) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٢٣١ - ٢٣٥).

بل جميع المنقول عن الأنبياء موافق لقول أهل الإثبات، وكذلك خيار هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينقل عنهم إلا ما يوافق قول أهل الإثبات، وأول من ظهر عنه قول النفاة هو الجعد بن درهم (ت: ١٢٤ هـ)، والجهم بن صفوان (ت: ١٢٨ هـ)، وكانا في أوائل المائة الثانية فقتلهما المسلمون، وأما سائر أئمة المسلمين، مثل: مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، والثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، والأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)، وأبي حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، والشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وغيرهم، فالكتب مملوءة بالنقل عنهم لما يوافق قول أهل الإثبات، وكذلك شيوخ أهل الدين، مثل: الفضيل بن عياض-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)، وبشر الحافي (ت: ٢٢٧ هـ)، وأحمد بن أبي الحواري (ت: ٢٣٠ هـ)، وسهل بن عبد الله التستري (ت: ٢٨٣ هـ)، وعمرو بن عثمان المكي (ت: ٢٩٧ هـ)، والحارث المحاسبي (ت: ٢٤٣ هـ)، ومحمد بن خفيف الشيرازي (ت: ٣٧١ هـ)، وغير هؤلاء.

وكتب أهل الآثار مملوءة بالنقل عن السلف والأئمة لما يوافق قول أهل الإثبات، ولم ينقل عن أحد منهم حرف واحد صحيح يوافق قول النفاة، فإذا كان سلف الأئمة وأئمتها وأفضل قرونها متفقين على قول أهل الإثبات، فكيف يقال: "ليس هذا إلا قول الكرامية والحنبلية"؟، ومن المعلوم أن ظهور قول أهل الإثبات قبل زمن أحمد بن حنبل كان أعظم من ظهوره في هذا الزمان، فكيف يضاف ذلك إلى أتباعه؟

وأيضا فعبد الله بن سعيد بن كلاب-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، والحارث المحاسبي-رحمه الله-(ت: ٢٤٣ هـ)، وأبو العباس القلانسي-رحمه الله-(ت: في العشر الثاني من القرن الرابع هـ)، وأبو الحسن بن مهدي الطبري-رحمه الله-(ت: نحو ٣٨٠ هـ)، وعامة قدماء الأشعرية يقولون: إن الله بذاته فوق العرش، ويردون على النفاة غاية الرد، وكلامهم في ذلك كثير مذكور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على بطلان ما يعارض به النفاة من الحجج العقلية، وأما النفي فلم يكن يعرف إلا عن الجهمية كالمعتزلة ونحوهم، ومن وافقهم من الفلاسفة، وإلا فالمنقول عن أكثر الفلاسفة هو قول أهل الإثبات، كما نقله ابن رشد الحفيد عنهم، وهو من أعظم الناس انتصارا لهم، وسلوكا لطريقتهم، لا سيما لأرسطو وأتباعه، كما أنه يميل إلى القول بقدم العالم أيضا.

الثاني: من أجوبة قوله: "لو كان بديهيا لامتنع اتفاق الجمع العظيم على إنكاره، وهم ما سوى الحنابلة والكرامية".

هو أن يقال: لم يطبق على ذلك إلا من أخذه بعضهم عن بعض، كما اخذ النصارى دينهم بعضهم عن بعض، وكذلك اليهود والرافضة وغيرهم.

فأما أهل الفطر التي لم تغير فلا ينكرون هذا العلم، وإذا كان كذلك فأهل المذاهب الموروثة لا يمتنع إطباقهم على جحد العلوم البديهية، فإنه ما من طائفة من طوائف الضلال -

وإن كثرت- إلا وهي مجتمعة على جحد بعض العلوم الضرورية.

الثالث: أن يقال: ما من طائفة من طوائف الكلام والفلسفة إلا وجمهور الناس يقولون: "إنهم جحدوا العلوم الضرورية". فالقائلون بأن الممكن قد يترجح أحد طرفيه بلا مرجح من القادر أو غيره، يقول جمهور العقلاء: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الأجسام لا تبقى والأعراض لا تبقى، يقول جمهور الناس: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الأصوات المتعاقبة تكون قديمة أزلية الأعيان باقية، وأن الأصوات المسموعة من الآدميين هي قديمة، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأن الكلام هو معنى واحد: هو الأمر بكل ما أمر به، والخبر عن كل ما أخبر به، وأنه وإن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة، يقول جمهور العقلاء: إنهم جحدوا العلم الضروري.

والقائلون بأن العالم هو العلم والمعلوم، والعاقل هو العقل والمعقول، والعاشق هو العشق والمعشوق، واللذة هي الملتذ، والعلم هو القدرة، والقدرة هي الإرادة، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الوجود الواجب وجود مطلق بشرط الإطلاق أو لا بشرط، يقول جمهور

العقلاء: إنهم خالفوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن النفس لا تدرك إلا الكليات دون الجزئيات، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأن كل موجود يجوز أن تتعلق به الإدراكات الخمسة، وأن الصوت يرى، والطعم يسمع، واللون يشم، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأنه يحدث إرادة لا في محل، أو يحدث فناء لا في محل، يقول جمهور العقلاء: أن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأن الإرادة تحدث في الإنسان من غير سبب يوجب حدوثها، مما يقول جمهور العقلاء: إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأنه حي عليم قدير، من غير حياة ولا علم ولا قدرة، مما يقول جمهور العقلاء: إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأن النبي-صلى الله عليه وسلم-نص على علي بالخلافة نصا جليا أشاعه بين المسلمين، فكتموه ولم يظهروه، يقول جمهور العقلاء: إن قولهم معلوم الفساد بالضرورة.

والقائلون بأن للأمة إماما معصوما عمره سنتان -أو ثلاث أو أربع- دخل السرداب من أكثر من أربعمائة سنة، أو أن عليا لم يمت، وأمثال ذلك، يقول جمهور الناس: إن قولهم معلوم

الفساد بالضرورة.

وكذلك قول القائلين بأن الأعراض لا تبقي زمانين، مما يقول جمهور العقلاء: إن فساده معلوم بالضرورة.

وكذلك من يقول: إن النبي-صلى الله عليه وسلم-كان يسمي المنافقين مؤمنين، ويجعل إيمانهم كإيمان المؤمنين غير المنافقين، وهم مع ذلك مخلدون في النار، مما يعلم جمهور العقلاء المسلمين فساده بالاضطرار من دين الإسلام.

وكذلك القائلون بأن القرآن العزيز زيد فيه زيادات، ونقص منه أشياء، مما يعلم بالضرورة امتناعه في العادة.

وقول النصارى: إن الكلمة اتحدت بالمسيح، وإنها ليس هي الآب الجامع للأقانيم، وهي مع ذلك الرب الذي يخلق ويرزق، وهي جوهر، والجوهر عندهم واحد ليس إلا الآب، مما يقول الناس: إنه معلوم الفساد بالضرورة. ومثل هذا إذا تتبعناه كثير.

فوجود الأقوال التي يقول جمهور الناس: إنها معلومة الفساد بالضرورة في قول طوائف كثيرة من الناس أكثر من أن تستوعب، فكيف يقال: "لا يجوز إطباق الجمع الكثير على إنكار ما علم بالبديهة"؟

الوجه الرابع: أن يقال: هذا معارض بها هو أبلغ منه، فإن الجموع الكثيرة يقولون: إنهم

يجدون في أنفسهم عند الضرورة معني يطلب العلو في توجه قلوبهم إلى الله ودعائه، وأنه يمتنع في عقولهم وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه، وأن هذا معلوم نهم بالضرورة، فإن امتنع اتفاق الجمع العظيم على مخالفة البديهة، فتجب الحجة المثبتة، فيبطل نقيضها، وإن لم تمتنع بطلت حجة النفاة، فيثبت بطلانها على التقديرين". (1)

٤ – أن الذي ورد عن سلف الأمة وأئمتها هو إثبات الجهة، وهي جهة العلو والفوقية لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهو عكس ما ادعوه من نفي الجهة، وعكس ما زعموه من النهي عن إطلاقها أو القول بها.

قال أبو عبد الله القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "كان السلف الأول–رضي الله عنهم–لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك–رحمه الله–: الاستواء معلوم –يعني في اللغة– والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سلمة–رضي الله عنها–. وهذا القدر كاف، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦/ ٢٥٠ و٥٦٥-٢٧٢) باختصار وتصرف.

في موضعه من كتب العلماء". (1)

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢١٩-٢٢٠) باختصار.

[العلو والاستواء]

المسألة الأولى: صفة العلو والأقوال فيها.

المسألة الثانية: صفة الاستواء والأقوال فيهاا.

المسألة الثالثة: تعريف العرش والأقوال فيه.

[١٥]- قال المصنف-رحمه الله-: "وأنه فوقَ العرشِ".

الشرح

وفيه مسائل

المسألة الأولى: صفة العلو والأقوال فيها.

أولًا: قول أهل السنة والجماعة ومن وافقهم.

يؤمن أهل السنة بعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وأنه بائن من خلقه وهم بائنون منه.

وقد وافقهم على قولهم في إثبات العلو عامة الصفاتية، كأبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) وأتباعه، وأبي العباس القلانسي القلانسي-رحمه الله-(ت: في العشر الثاني من القرن الرابع هـ)، (1) وأبي الحسن الأشعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ) والمتقدمين من أصحابه.

وهو قول الكرامية ومتقدمي الشيعة الإمامية. (2)

وقد استدل أهل السنة والجماعة على إثبات صفة العلو بالقرآن، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

أ-الأدلة من القرآن.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "قَدْ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ بِالْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالْفَوْقِيَّةِ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى قَالَ بَعْضُ كِبَارِ

(1) قال عنه ابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص: 298): (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي، من معاصري أبي الحسن الأشعري رحمه الله لا من تلاميذه، كما قال الأهوازي، وهو من جلة العلماء الكبار الأثبات، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات (أي موافق لاعتقاد الأشعري).).

(2) انظر مجموع الفتاوى (2/ 297)، ونقض تأسيس الجهمية (1/ 127، (2/ 14).

أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ: فِي الْقُرْآنِ أَلْفُ دَلِيلٍ أَوْ أَزْيَدُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَالٍ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ دَلِيلٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ". [1]

وقال رحمه الله: "دَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَأَنَّهُ نَفْسُهُ فَوْقَ الْعَرْشِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ؛ كَقَوْلِهِ: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}** [فاطر: الآية:10]، وَقَوْلِهِ: **{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}** [النساء: الآية:158]، وَقَوْلِهِ: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** [المعارج: الآية:4]، وَقَوْلِهِ: **{إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ}** [الأعراف: الآية: ٢٠٦]. وَقَدْ قِيلَ: إنَّ ذَلِكَ يَبْلُغُ ثَلَاثُمِائَةِ آيَةٍ وَهِيَ دَلَائِلُ جَلِيَّةٌ بَيِّنَةٌ مَفْهُومَةٌ: مِنْ الْقُرْآنِ مَعْقُولَةٌ: مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى". [2]

وقد تنوعت عبارات القرآن في إثبات صفة العلو.

فالقرآن الكريم من أوله إلى آخره مليء بما هو إما نص ظاهر في أن الله فوق كل شيء، وأنه عال على خلقه ومستو على عرشه، وقد تنوعت تلك الدلالات، فوردت بأصناف من العبارات، فقد أشار العلماء إلى ذلك التنوع في العبارة على إثبات هذه الصفة، ومن ذلك:

1-التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (من) المعينة لفوقية الذات نحو: **{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}** [النحل: الآية:50].

---

1 مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٦).

2 مجموع الفتاوى (5/ 224).

2-ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله: **{وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [الأنعام: الآية: 18].

3-التصريح بالعروج إليه، نحو **{تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** [المعارج: الآية:4].

4-التصريح بالصعود إليه، كقوله: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ اَلكَلِمُ الطّيّبُ}** [فاطر: الآية:10].

5-التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله: **{بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ}** [النساء: الآية:158]، وقوله: **{إِنِّي مُتَوفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}** [آل عمران: الآية:55].

6-التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً، وقدراً، وشرفاً، كقوله: **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** [البقرة: الآية: ٢٥٥]، **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [سبأ: ٢٣]، **{إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}** [الشورى: الآية: ٥١].

7-التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله: **{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [الزمر: الآية: 1]، **{تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [فصلت: الآية:42]، **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}** [النحل: الآية: 102]. وهذا يدل على شيئين:

الأول: على أنَّ القرآنَ ظَهَر منه لا من غيره، وأَنَّهُ الذي تكلم به، لا غيره.

الثاني: على عُلُوِّهِ على خَلْقِهِ، وأنَّ كلامَه نزل به الرُّوح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

8-التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: **{فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ}** [فصلت: الآية:38]، وقوله **{وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**

وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ} [الأنبياء: الآية:19]، ففرَّق بين من له عمومًا، ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصًا.

9-التَّصريح بأنه سبحانه في السَّماء، وهذا عند أَهْل السُّنَّة على أحد وجهين:

إما أن تكون «في» بمعنى «على».

وإما أن يراد بالسَّماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حملُ النَّصِّ على غيره.

10ـــ التَّصريح بالاستواء مقرونًا بأداة «على» مختصًّا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبًا في الأكثر لأداة «ثُمَّ» الدَّالَّة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السِّياق صريحٌ في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العُلُوِّ والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتَّة.

11-إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصُّعُودَ إلى السماء؛ لِيَطَّلِعَ إلى إله موسى، فيُكذبه فيما أخبر به من أنه فوق السماوات؛ فقال: **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}** [غافر: الآيات: ٣٦ -٣٧]، فكذَّب فرعونُ موسى في إخباره إياَّه بأن ربَّه فوق السماء. (1).

وفي قوله سبحانه وتعالى: **{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}** [النساء: الآية: ١٧٢]، فبيَّن أن الملائكة أقرب إليه من غيرهم من خلقه.

---

(1) انظر: إعلام الموقعين (2/ 314-317).

وكذلك قوله: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [الأعلى: الآية: 1]، وقوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: الآية: 54]، **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، إلى غير ذلك من ألفاظ متنوعة ومتعددة تدل دلالة واضحة على أن الله عال على خلقه مُستو على عرشه.

ب-الأدلة من السنة على إثبات صفة العلو.

السنة مليئة بالأحاديث الدالة على علو الله-سبحانه وتعالى-واستوائه على عرشه، وقد تكلم المصنف على إثبات ذلك في خلال الكثير من الأحاديث، كأحاديث المعراج، وأحاديث صعود الملائكة ونزولها من عند الله، وعروج الروح إليه، واستواء الخالق على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، ورؤيته في الآخرة، فالسُّنَّةُ قد دلَّت على عُلُوِّ الله بدلالاتها الثلاث: (**القولية، والفعلية، والتقريرية**).

أولاً: أما السُّنَّة القولية فمنها:

1 . حديث الخوارج: ((**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**)). متفق عليه1

2 . وعن **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها، حتى يرضى عنها**)). رواه مسلم2

3 . وعن **ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** حدثني رجال من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: ((**ما كنتم تقولون إذ رمي مثله؟**)). قالوا: كنا نقول: ولد الليلة عظيم، أو مات عظيم. فقال: ((**إنها لم ترم لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبحت حملة العرش، حتى يسبحوا أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيستخبر أهل السموات**

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي (5/ 326). وأخرجه مسلم في صحيحه (2 /742) كتاب الزكاة.

2 أخرجه مسلم في صحيحه (2/ 1436) كتاب النكاح.

بعضهم بعضاً، حتى يبلغ الخبر أهل الدنيا، فيخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وجهه، فهو الحق، ولكنهم يفرقون ويزيدون)). رواه مسلم1

4 ـ حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: ((ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض)). رواه أبو داود وغيره2

---

1 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان. انظر شرح النووي (14/ 225). والإمام أحمد في المسند (1/ 218). والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة سبأ. (5/ 362، برقم 2324). والدارمي في الرد على الجهمية (ص: 78). والطحاوي في المشكل (3/ 113). والبيهقي في الأسماء والصفات (1/ 512-513، ح 436). وأبو نعيم في الحلية (3/ 143).

2 أخرجه أحمد في مسنده (6/ 21). وأبو داود في سننه، كتاب الطب (4/ 218). والدارمي في الرد على الجهمية (ص: 18). والنسائي في عمل اليوم والليلة (1038). وابن حبان في الضعفاء (1/ 108). وابن عدي في الكامل (3/ 1054). والحاكم في المستدرك (1/ 343-344)، وصححه. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (3/ 389). وأبو يعلى في إبطال التأويلات (ق153/ب). والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 327، ح892). وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص: 48، برقم 18). وأخرجه قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (2/ 105، برقم 59)، و(2/ 111-112، برقم 65). وأورده الذهبي في العلو (ص: 27)، وقال: "وزيادة لين الحديث". ورد الذهبي تصحيح الحاكم له بقوله: "زيادة،

ثانياً: وأما أدلة السُّنَّة الفِعلية فمنها:

1-ما رواه مسلم من حديث جابر-رضي الله عنه-(ت: ما بين ٧٣ و٧٧ هـ) في حديث حَجَّةِ الوَدَاعِ، وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبَ النَّاسَ، فقال: ((**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**...))، إلى أن قال جابر-رضي الله عنه-: ((**فقال بإصبعه السَّبَّابَة يَرْفَعُهَا إلى السَّماء وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: اللهم اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**)). (1)

قال ابن القَيِّم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) مُعَلِّقًا على هذا الحديث: "ليشهد الجميعُ أن الرَّبَّ الذي أرسله ودعا إليه واستشهده هو الذي فوق سماواته على عرشه". (2)

2-ما في الصَّحيحين في رفعه صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء قائلًا: ((**اللهم اسقنا**)). (3). وهكذا رفعه يديه في الاستسقاء وغير ذلك.

قال البخاري وغيره منكر الحديث"، وذكر في ترجمته في الميزان (2/ 98) أنه انفرد بهذا الحديث فالإسناد ضعيف.

(1) أخرجه مسلم (1218).

(2) «إعلام الموقعين» (2/ 316).

(3) أخرجه البخاري (1013) ومسلم (895).

ثالثاً: ومن أدلة السُّنَّة التقريريَّة وأشهرها:

ما رواه معاوية بن الحَكَم السُّلَمِي-رضي الله عنه-، (ت: غير معروف)، قال: "كانت لي جاريةٌ تَرْعَى غَنَمًا قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانيَّة، فاطَّلَعْتُ ذات يومٍ فإذا بالذئب قد ذهب بشاةٍ مِن غَنَمِهَا، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسَفُ كما يَأْسَفُونَ لكني صَكَكْتُهَا، فأتيتُ رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ((**ائتني بها**))، فأتيتُه بها، فقال لها: ((**أين الله؟**)). [1]. قالت: في السماء، قال: ((**ومَن أنا؟**)). قالت: رسول الله،

---

[1] "من المعلوم أن مذهب عامة أهل السنة، وسلف الأمة، وأئمتها أنهم يرون إثبات السؤال عن الله تعالى (بأين)، ولا ينفون ذلك عنه مطلقاً، وذلك لثبوت النصوص الصريحة الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك سؤالاً وجواباً.

والسلف يقولون: إن من نفى السؤال بأين، لا بد له من دليل يستدل به على انتفاء ذلك، ولا دليل لهم، ذلك لأنها مسألة إثبات الشرع، فمن أنكرها فإنما ينكر المصطفى".

وقد خالف السلف في قولهم هذا الجهمية، والمعتزلة، ومتأخرو الأشاعرة، الذين يزعمون أنه لا يجوز السؤال عن الله تعالى بأين؛ لأن في ذلك سؤالاً عن المكان، وهم يزعمون أن الله ليس في مكان، لأن المكان لا يكون إلا للجسم، والله ليس بجسم، لأن الجسم لا يكون إلا محدثاً ممكناً ويظهر توضيح هذا الرأي في قول

ابن الأثير في النهاية (304/3) "ولا بد في قوله "أين كان ربنا؟ " من تقدير مضاف محذوف، كما حدث في قوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ} ونحوه فيكون التقدير: أين كان عرش ربنا؟ يدل عليه قوله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ} ".

فقول ابن الأثير "أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف" الذي دفعه إليه هو اعتقاده بأنه لا يجوز السؤال عن الله تعالى بأين، لأنه يترتب على ذلك إثبات الجهة والمكان لله تعالى، وهي منفية عنه كما هو مذهب الأشاعرة المتأخرين الذين يعد ابن الأثير واحدًا منهم. ومما يجدر ذكره أن ما هرب إليه ابن الأثير من تقدير المضاف لا ينجيه مما هرب منه، لأنه إذا أثبت الجهة لعرشه سبحانه وتعالى ثبتت له أيضًا لكونه مستويًا عليه". انظر الاستقامة لابن تيمية (1/ 126-127).

وقال الذهبي في العلو (ص: 26) بعد ذكر حديث الجارية: "وهكذا رأينا في كل من يُسأل أين الله، يبادر بفطرته ويقول في السماء. في الخبر مسألتان

إحداهما: شرعية قول المسلم (أين الله)؟

وثانيهما: قول المسؤول (في السماء) فمن أنكر هاتين المسألتين فإنما ينكر على المصطفى صلى الله عليه وسلم" ا. هـ."

وقال القاضي أبو يعلى الفراء في كتاب "إبطال التأويل": قال بعد أن ذكر حديث الجارية: "اعلم أن الكلام في هذا الخبر في فصلين: أحدهما: في جواز السؤال عنه سبحانه بأين هو؟، وجواز الإخبار عنه بأنه في السماء".

وذكر أشياء، إلى أن قال: "وقد أطلق أحمد بذلك فيما أخرجه في "الرد على الجهمية" فقال: فقد أخبرنا بأنه في السماء فقال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}، وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وقال {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} فقد أخبر الله عز وجل أنه في السماء وهو على عرشه".

وذكر كلاماً طويلاً ليس هذا موضعه" انظر إبطال التأويلات (1/ 233)".

قال: ((**أَعْتِقها؛ فإنَّها مؤمنة**)). هذا حديث صحيح؛ رواه مسلم[1]، وأبو داود[2]، والنسائي[3]، ومالك في الموطأ. [4]

وقد تقدم ذكر موقف المعطلة عموماً من نصوص السنة ورفضهم الاحتجاج بها بزعم أنها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا يحتج بها في باب الاعتقاد، مع وصفهم لها بأنها أحاديث التشبيه كقول الغزالي: "وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة". (5). وأحاديث التشبيه يقصد بها أحاديث الصفات، والحديث كلام المصطفى –صلى الله عليه وسلم– كيف

---

1 أخرجه في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (382/1).

2 سنن أبي داود (572/1) كتاب الصلاة، "باب 171 تشميت العاطس في الصلاة" رقم (930).

3 سنن النسائي (14/3-18).

4 كتاب العتق، باب ما يجوز من العتق في الرقاب الواجبة (ص: 552-553)، (ح: 1464). وأخرجه الإمام أحمد في المسند (5/ 447). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 215). وابن خزيمة في التوحيد (1/ 278-280، ح: 178). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (3/ 392). والذهبي في العلو (ص: 16)، وانظر مختصر العلو للذهبي (ص: 81).

(1) انظر كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، (ص: 116).

يُنبز بهذا الوصف الذي ينفر السامع؟ ثم كيف تحكم عليها هكذا أنها غير صحيحة؟ ولا يتوهم السامع أن معنى أكثرها غير صحيحة أنها ضعيفة أو موضوعة، بل يقصدون بها أنها أخبار آحاد وعنده أن أخبار الآحاد لا صحة لها.

فشتان بين من يعظم السنة ويوقرها يحتج بها ويصدرها ويستدل بها، وبين من لا يقيم لها وزناً أو اعتباراً، بل ويتهكم بنصوصها وينفر منها بألقاب وأسماء تجعل السامع ينفر منها، بل ويقدم عليها زبالة الأفكار وأقوال من لم يعرف الله عز وجل حق المعرفة.

ج-دليل الإجماع:

إجماع السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم منعقد على إثبات علو الله، واستوائه على عرشه، وقد نقل غير واحد من السلف هذا الإجماع عنهم، ومن ذلك ما رواه **البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)** بإسناد صحيح عن **الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)** أنه قال: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله-تعالى-ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته".[1]

وقال **أبو نصر السجزي-رحمه الله-(ت: ٤٤٤هـ)**: "فأئمتنا كسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، ومالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وسفيان ابن عيينة-رحمه الله-(ت:

[1] "الأسماء والصفات": (ص: 515).

١٩٨ هـ)، وحماد بن سلمة-رحمه الله-(ت: ١٦٧ هـ)، وحماد بن زيد-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، وفضيل بن عياض-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ): متفقون على أن الله-سبحانه-بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار فوق العرش".[1]

وقال أبو نعيم الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ) في عقيدته المشهورة: "وطريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرش والاستواء عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمواته من دون أرضه". [2]

وكلام السلف من الصحابة والتابعين، من تبعهم في إثبات العلو كثير جدًا ولا يتسع المقام ههنا لذكره، وقد نقل ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ) في كتاب "إثبات صفة العلو"، وكذلك نقل ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) في الفتوى الحموية وغيرها الكثير من تلك النصوص الواردة عنهم، وبين إجماعهم على إثبات ذلك، [3] وكذلك فعل تلميذه **ابن القيم-**

---

[1] "درء تعارض العقل والنقل": (6/ 250).

[2] "درء تعارض العقل والنقل": (6/ 250).

[3] انظر: "مجموع الفتاوى": (5/ 6).

رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية"، وكذلك **الذهبي–رحمه الله– (ت: ٧٤٨ هـ)** في كتابيه "العلو" و"العرش"،

د–الأدلة من العقل.

أما الأدلة العقلية فهي كثيرة وسأورد ههنا ثلاثة منها:

الدليل الأول: قول **الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)**: "إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله تعالى حين زعم أنه في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان

فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟

فسيقول: نعم.

فقل له: حين خلق الشيء هل خلقه في نفسه؟ أم خارجاً عن نفسه؟

فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال:

واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه، كفر حين زعم أنه خلق الجن والشياطين وإبليس في نفسه.

وإن قال: خلقهم خارجا عن نفسه ثم دخل فيهم، كان هذا أيضًا كفر حين زعم أنه في كل مكان وحش قذر رديء.

وإن قال: خلقهم خارجاً عن نفسه ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع". (1)

الدليل الثاني: قول **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**: "إن كل من أقر بوجود رب للعالم مدبر له، لزمه الإقرار بمباينته لخلقه وعلوه عليهم.

فمن أقر بالرب، فإما أن يقر بأن له ذاتاً وماهية مخصوصة أو لا؟

فإن لم يقر بذلك، لم يقر بالرب، فإن رباً لا ذات له ولا ماهية له هو والعدم سواء، وإن أقر بأن له ذاتاً مخصوصة وماهية، فإما أن يقر بتعينها أو يقول إنها غير معينة؟

فإن قيل إنها غير معينة كانت خيالاً في الذهن لا في الخارج، فإنه لا يوجد في الخارج إلا معيناً، لا سيما وتلك الذات أولى من تعيين كل معين فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها، وأن يوجد لها نظير، فتعيين ذاته سبحانه واجب.

وإذا أقر بأنها معينة لا كلية، والعالم مشهود معين لا كلي، لزم قطعاً مباينة أحد المتعينين للآخر، فإنه إذا لم يباينه لم يعقل تميزه عنه وتعينه.

فإن قيل: هو يتعين بكونه لا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه.

قيل: هذا –والله أعلم–حقيقة قولكم، وهو عين المحال، وهو تصريح منكم بأنه لا ذات له ولا ماهية تخصه، فإنه لو كان له ماهية يختص بها لكان تعينها لماهيته وذاته المخصوصة، وأنتم إنما

---

(1) الرد على الزنادقة والجهمية (ص95-96).

جعلتم تعيينه أمراً عدمياً محضـــاً ونفياً صـــرفاً وهو كونه لا داخل العالم ولا خارجا عنه، وهذا التعيين لا يقتضي وجوده مما به يصح على العدم المحض.

وأيضاً فالعدم المحض لا يعين المتعين، فإنه لا شيء وإنما يعينه ذاته المخصوصة وصفاته، فلزم قطعاً من إثبات ذاته تعيين تلك الذات، ومن تعيينها مباينتها للمخلوقات، ومن المباينة العلو عليها لما تقدم من تقريره". (1)

الدليل الثالث: أنه قد ثبت بصريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص، فإن الله يوصف بالكمال منهما دون النقص، فلما تقابل الموت والحياة، وصـــف بالحياة دون الموت، ولما تقابل العلم والجهل، وصـــف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز، وصـــف بالقدرة دون العجز، ولما تقابل المباينة للعالم والمداخلة له، وصـــف بالمباينة دون المداخلة، وإذا كان مع المباينة لا يخلو إما أن يكون عالياً على العالم أو مســـامتا له، وجب أن يوصف بالعلو دون المسامتة، فضلاً عن السفول.

والمنازع يسـلم أنه موصـوف بعلو المكانة وعلو القهر، وعلو القهر، وعلو المكانة معناه أنه أكمل من العالم، وعلو القهر مضـمونة أنه قادر على العالم، فإذا كان مباينا للعالم كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم، ولا محاذياً له ولا سافلا عنه.

---

(1) مختصر الصواعق (1/ 279-280).

ولما كان العلو صـــفة كمال، وكان ذلك من لوازم ذاته، فلا يكون مع وجود غيره إلا عالياً عليه، ولا يكون قط غير عالٍ عليه". (1)

وبهذه النماذج التي أوردناها عن الأدلة العقلية يتضـح لنا مدى دلالة المعقول الصـريح على إثبات علو الله ومباينته لخلقه وكذلك مدى مخالفة أقوال المعطلة والحلولية لصريح المعقول وصحيح المنقول.

هـ-أما دليل الفطرة:

فمن المعلوم أن الفطرة الســليمة قد جبلت على الاعتراف بعلو الله ســبحانه وتعالى، ويظهر هذا الأمر عندما يجد الإنســان نفســه مضــطراً إلى أن يقصــد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يســتطيع الإنســان دفعه عن نفســه فضــلاً عن أن يرد على قائله وينكر هذا الأمر عليه.

ومن أجل ذلك لم يجد الجويني -إمام الحرمين-جواباً حين ســـأله الهمداني محتجاً عليه بها، فقد ذكر محمد بن طاهر المقدســـي-رحمه الله-(ت: ٥٠٧ هـ) أن الشـــيخ أبا جعفر الهمداني-رحمه الله-(ت: ٥٣١ هـ) حضـــر مجلس الاســـتاذ أبا المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين-رحمه الله-(ت: ٤٧٨ هـ)، وهو يتكلم في نفي صـــفة العلو ويقول: "كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان"، فقال الشـيخ أبو جعفر: "يا أسـتاذ دعنا من ذكر العرش -

(1) درء تعارض العقل والنقل (7/ 5-6).

يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع-أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا أله، إلا وجد من قلبه ضـــرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنه ولا يســـره، فكيف تدفع هذه الضرورة على قلوبنا؟

قال: فطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني". (1)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمر مســـتقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضـــرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقراراً بذلك، وتصـــديقاً من غير أن يتواطؤوا على ذلك ويتشـــاعروا، وهم يخبرون عن أنفســـهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم.

وكذلك هم عندما يضـطرون إلى قصـد الله وإرادته، مثل قصـده عند الدعاء والمسـألة، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهاً إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلب عن قصد جهة من الجهات، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.

فهذا يتضـمن بيان اضـطرارهم إلى قصـده في العلو وتوجههم عند دعائه إلى العلو، كما يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك". (2)

---

(1) مجموع الفتاوى (4/ 44، 61)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: 325-326).

(2) انظر درء تعارض العقل والنقل (7/ 5) بتصرف.

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة العلو.

القول الأول: قول المعطلة من الفلاسفة (1)، والجهمية (2)، والمعتزلة (3)، ومتأخري الأشاعرة (4)، والقرامطة الباطنية (5).

وهؤلاء جميعًا ينفون علو الله وارتفاعه فوق خلقه، وكل ذلك تحت دعوى التوحيد والتنزيه ونفي التشـــبيه، فهم يزعمون أن إثبات العلو لله تعالى فيه إثبات للجهة، والمحايثة، والحد، والحركة، والانتقال، وهذه الأمور على زعمهم تستلزم، الجسمية، والأجسام، حادثة، والله منزه عن الحوادث فمن أجل ذلك نفوا العلو، وأولوا النصـــوص الثابتة فيه بأن المراد بها علو القهر والغلبة.

وقد انقسم الجهمية المعطلة النافون لعلو الله إلى فريقين في هذه المسألة:

---

(1) النجاة لابن سينا (ص37).

(2) مجموع الفتاوى (2/ 297-298)، (5/ 122).

(3) مجموع الفتاوى (2/ 297-298)، (5/ 122).

(4) تأويل مشكل الحديث لابن فورك (ص63)، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 29، 34).

(5) درء تعارض العقل والنقل (5/ 178)، والقرامطة من الباطنية وهم ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بقرمط لقرمطة في خطه أو خَطْوِه، انظر الفرق بين الفرق (ص: 281، 293)، المنتظم لابن الجوزي (5/ 110، 111).

الفريق الأول:

وهم الذين يقولون إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا هو مباين له ولا محايث له.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النظار والمتكلمون من هؤلاء المعطلة، (1) وهم بقولهم هذا قد نفوا الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود منهما، وذلك خشية منهم أن يشبهوا، فهم قالوا بهذه المقالة هرباً منهم -على حد زعمهم-من إثبات الجهة والمكان والحيز، لأن فيها كما يدعون تجسيماً وهو تشبيه، فقالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات فنحن نسد الباب بالكلية.

وقد استند أصحاب هذا القول في قولهم هذا على حجج زعموا أنها عقلية أسسوها وابتدعوها وجعلوها مقدمة كل نص، وليس لهؤلاء أي دليل من القرآن أو السنة على صحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص، كالخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة وغيرهم إلا

(1) الرسالة الأضحوية (نقلا عن مختصر الصواعق 1/ 237)، والاقتصاد في الاعتقاد (ص: 34)، تأويل مشكل الحديث (ص: 63-64)، مجموع الفتاوى (2/ 297-298، 5/ 122-124)، نقض التأسيس (1/ 6-7).

الجهمية، فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه في النفي". (1).

وسنأتي بعد ذكر القول الثاني إلى ذكر بعض تلك الحجج التي زعمها هؤلاء.

الفريق الثاني: وهم الذين يقولون بأن الله بذاته في كل مكان.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النجارية (2)، وكثير من الجهمية وبخاصة عبادهم وصوفيتهم وعوامهم وأهل المعرفة والتحقيق منهم. (3)

ويحتج هؤلاء ببعض الحجج العقلية المزعومة بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية الدالة على المعية والقرب.

---

(1) مجموع الفتاوى (122/5).

(2) هم أتباع حسين بن محمد بن عبد الله بن النجار، وقد كان أكثر معتزلة الري ومن حولها على مذهبه، وقد نقل الشهرستاني في الملل والنحل (1/ 113-114) عن الكعبي قوله: (إن النجار كان يقول: إن الباري بكل مكان وجودا لا معنى العلم والقدرة).

وانظر مقالات الإسلاميين (1/ 135-137، 283-285)، والفرق بين الفرق (ص: 126-127)، وأصول الدين للبغدادي (ص: 334)، والتبصير في الدين (ص: 101، 102، 103).

(3) انظر نقض التأسيس (1/ 7).

وقد يجمع كثير من هؤلاء المعطلة بين القولين، فهو في حالة نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول لا هو داخل العالم ولا خارجه.

وفي حالة تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان ولا يخلو منه شيء. (1)

شبهة المعطلة العقلية:

إن جل ما اعتمد عليه هؤلاء المعطلة من أدلة على نفي صفة العلو وغيرها من الصفات إنما هو عبارة عن حجج عقلية مزعومة ومبتدعة بناها هؤلاء المعطلة على أصول فلسفية كانوا قد تأثروا بها وليس لهؤلاء المعطلة في نفيهم هذا أساس من كتاب الله أو سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقد جعل هؤلاء المعطلة لتلك الحجج حكم الأمر المحكم الذي يجب اتباعه واعتقاد موجبه والتسليم به، وقد بلغ من تقديسهم لها أنهم جعلوها مقدمة على الكتاب والسنة فإذا ورد النص من الكتاب أو السنة عرضوه على تلك الأسس العقلية، فإن وافقها احتجوا به اعتضادا لا اعتمادا، وإن خالفها فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون نصوص القرآن ويطعنون في نصوص السنة، وكل ذلك تحت دعوى التنزيه والتوحيد ونفي التشبيه.

---

(1) انظر نقض التأسيس (1/ 7).

وقد أفرط هؤلاء المعطلة في هذا الجانب -أي جانب نفي التشـــبيه-فجعلوا من قوله تعالى **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى: الآية: 11] جنة يتترسون بها لنفي علو الله سبحانه فوق عرشه وتكليمه لرسله وإثبات صفات كماله، وغير ذلك مما أخبر الله به عن نفسه، أو أخبر به رسوله-صلى الله عليه وسلم-، حتى إنه قد آل ببعض هؤلاء المعطلة إلى نفي ذاته خشـية التشـبيه فقالوا: هو وجود محض لا ماهية له، ونفى آخرون وجوده بالكلية خشـية التشـبيه -على حد زعمهم-حيث قالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصـفات والكلام والعلو فنحن نسد الباب بالكلية. (1)

وسـوف نتعرض لبعض أسـس تلك الشـبه العقلية المزعومة التي جعلها هؤلاء المعطلة مسـتندا لهم في نفي صـفة العلو وغيرها من الصـفات، ونبين ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-مع بيان ما في تلك الأسس من تناقض وبخاصة من الناحية العقلية.

ونظراً لتعدد مذاهب المعطلة واختلاف بعضـها عن بعض في القول والرأي، فسـوف نعرض شبهة كل فرقة من الفرق السابقة الذكر على حدة فنبدأ أولاً بـ:

1. شبهة الفلاسفة (2):

---

(1) مختصر الصواعق (1/ 285).

(2) أقصد بهم الفلاسفة المنتسبين للمسلمين كابن سينا والفارابي.

الفلاسفة ينفون صفة العلو وباقي صفات الباري عز وجل -كما سبق وأن ذكرنا- تحت دعوى التوحيد والتنزيه عن مشابهة المخلوقين، فابن سينا (ت: ٤٢٧ هـ) يقول: "إن واجب الوجود بذاته واحد بسيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه فهو ليس بجسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة لصورة معقولة، ولا صورة معقولة في مادة معقولة، ولا له قسمة في الكلم ولا في المبادئ المقومة له، ولا في قول الشارح ولا غير ذلك مما ينافي وحدة واجب الوجود وبساطته المطلقة". (1)

والمتأمل لهذه العبارات التي أوردها ابن سينا يعرف أنها إنما هي مجرد اصطلاحات اصطلحها هو وأمثاله من الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة اليونان، فجعلوا من تلك العبارات المبتدعة ما أسموه بالتوحيد، وادعوا أن ما تضمنته هو التنزيه، مع أنها في الحقيقة متضمنة لنفي جميع الصفات بما فيها العلو والاستواء، فقوله: "إن واجب الوجود بذاته واحد بسيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه"، يعني به أنه ليس لله تعالى صفة ولا قدر، لأن ذلك على رأيه يستلزم التجسيم والتجزئة والتركيب فيلزم نفيه، لأنه يلزم من ذلك الحدوث والافتقار وذلك ينافي واجب الوجود.

فابن سينا وأمثاله من الفلاسفة يعتمدون في نفي الصفات على حجة التركيب والتي هي: "أنه لو كان له صفة لكان مركباً والمركب يفتقر إلى جزئيه وجزءاه غيره

(1) النجاة لابن سينا (ص: 37).

والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه"، وهم بهذا الكلام تجدهم قد نفوا صفات الباري جميعها.

ولو توقفنا عند العبارة السابقة وهي قوله: "أن واجب الوجود بذاته واحد بسيط ..."، من أجل بيان ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-وحتى مخالفتها للعقل الذي يقدمه هؤلاء على كل شيء.

لوجدنا هذه العبارة هي تفسير للواحد بما لا أصل له في الكتاب أو السنة، بل هو تفسير باطل شرعاً وعقلاً ولغة.

أما في اللغة:

فإن أهل اللغة مطبقون على أن هذا القول ليس هو معنى الواحد في اللغة، إذ القرآن ونحوه من الكلام العربي متطابق على ما هو معلوم بالاضطرار في لغة العرب وسائر اللغات أنهم يصفون كثيراً من المخلوقات بأنه واحد ويكون ذلك جسماً، إذ المخلوقات إما أجسام وإما أعراض عند من يجعلها غيرها أو زائدة عليها.

وإذا كان أهل اللغة متفقين على تسمية الجسم الواحد واحداً، امتنع أن يكون في اللغة معنى الواحد الذي لا ينقسم إذا أريد بذلك أنه ليس بجسم وأنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء، ولا يوجد في اللغة اسم الواحد الاعلى ذي صفة ومقدار لقوله تعالى **{الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}** [النساء: الآية: 1]، ومعلوم أن النفس الواحدة المراد بها هنا آدم عليه السلام، وحواء خلقت من ضلع آدم، فمن جسده

خلقت لا من روحه حتى لا يقول القائل: الوحدة هي باعتبار النفس الناطقة التي لا تركيب فيها، وإذا كانت حواء خلقت من جسد آدم، وجسد آدم جسم من الأجسام التي سماها الله نفساً واحدة علم أن الجسم قد يوصف بالوحدة، وأبلغ من ذلك ما ذكره الإمام أحمد وغيره من قوله تعالى: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** [المدثر: الآية: 11]، فإن الوحيد مبالغة في الواحد فإذا وصف البشر الواحد بأنه وحيد في صفة فإنه واحد من باب أولى، ومع هذا فهو جسم من الأجسام.

وأما في العقل:

فإن الواحد الذي وصفوه يقول لهم فيه أكثر العقلاء وأهل الفطر السليمة إنه أمر لا يعقل، ولا له وجود في الخارج، وإنما هو أمر مقدر في الذهن، فليس في الخارج شيء موجود لا يكون له صفات ولا قدر ولا يتميز من شيء عن شيء بحيث يمكن أن يرى ولا يدرك ولا يحاط به وإن سماه المسمى جسماً.

وأما في الشرع:

فنقول إن مقصود المسلمين أن الأسماء المذكورة في القرآن والسنة وكلام المؤمنين المتفق عليه بمدح أو ذم، تعرف مسميات تلك الأسماء حتى يعطوها حقها، ومن

المعلوم بالاضطرار أن اسم (الواحد) في كلام الله لم يقصد به سلب الصفات وسلب إدراكه بالحواس ولا نفي الحد والقدر ونحو ذلك من المعاني التي ابتدعها هؤلاء. (1).

وأما حجة التركيب التي اعتمد عليها هؤلاء الفلاسفة في نفي الصفات وهي قولهم: "إنه لو كان صفة لكان مركبا والمركب يفتقر إلى جزئية وجزءاه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه" فهي تتكون من ألفاظ مجملة بمعنى أن كل لفظة منها تحتمل عدة معان فلا بد من توضيح المراد من كل لفظ أولاً حتى يتكلم فيه.

فلفظ "المركب" مثلًا: قد يراد به ما ركبه غيره، أو ما كان مفترقًا فاجتمع، أو ما يقبل التفريق، والله منزه عن هذه المعاني باتفاق.

وأما الذات الموصوفة بصفاتها اللازمة لها فإذا سميتم هذا تركيباً كان ذلك اصطلاحًا لكم، وليس هو المفهوم من لفظ المركب ولن تستطيعوا أيها الفلاسفة إقامة الدليل على نفيه.

وأما قولهم: "لكان مركبًا" فإن أرادوا لكان غيره ركبه، أو لكان مجتمعًا بعد افتراقه، أو لكان قابلًا للتفريق. فاللازم باطل فإن الكلام إنما هو في الصفات اللازمة للموصوف الذي يمتنع وجوده بدونها.

وإن أراد بالمركب الموصوف أو ما يشبه ذلك فلِما قالوا إن ذلك يمتنع.

---

(1) انظر: نقض التأسيس (1/ 482، 484، 488).

وأما قولهم "والمركب مفتقر إلى غيره" فالجواب عنه: أما المركب بالتفسير الأول فهو مفتقر إلى ما يباينه وهذا ممتنع على الله تعالى.

وأما الموصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته الذي سميتموه أنتم مركباً فليس في اتصافه هذا ما يوجب كونه مفتقراً إلى مباين له.

وإن قالوا: هي غيره وهو لا يوجد إلا بها وهذا افتقار إليها، قيل لهم: إن أرادوا بقولهم هي غيره أنها مباينة له فذلك باطل.

وإن أرادوا أنها ليست إياه، قيل لهم: إذا لم تكن الصفة هي الموصوف فأي محذور في هذا.

وإذا قالوا: هو مفتقر إليها، قيل: أتريدون بالافتقار أنه مفتقر إلى فاعل يفعله أو محل يقبله، أم تريدون أنه مستلزم لها فلا يكون موجوداً إلا وهو متصف بها.

أما الثاني فأي محذور فيه، وأما الأول فباطل إذ الصفة اللازمة للموصوف لا يكون فاعلاً لها. (1)

أما قولهم: "أنه لو كان صفة لكان مركباً والمركب مفتقر إلى جزئية"، فهذا القول لا يتم إلا عند من يثبت الجوهر الفرد، أما نفاته فعندهم أن الجسم في نفسه واحد بسيط ليس مركباً من الجواهر المنفردة، وهذه المسألة خلافية قد توقف فيها أذكى المتأخرين

(1) انظر منهاج السنة (1/ 188-190)، بتصرف.

من الأشـــعرية وإمامهم أبو المعالي الجويني وكذلك أذكى متأخري المعتزلة أبو الحســـين البصري وكذلك الرازي فهي مقدمة ممنوعة لا تصلح دليلًا لوجود النزاع فيها حتى بين الفلاسفة أنفسهم. (1)

2. شبهة المعتزلة:

وأما شـــبهة المعتزلة التي اعتمدوا عليها في نفي صـــفات الباري-عز وجل-بما فيها صفة العلو فهي ما تسمى بطريقة الأعراض، ذلك أنهم يزعمون أن الصفات إنما هي أعراض، والأعراض لا تقوم إلا بجسم، والأجسام حادثة، والله منزه عن الحوادث، ومن أجل ذلك كان قول المعتزلة في الله: إنه قديم واحد ليس معه في القدم غيره، فلو قامت به الصفات لكان معه غيره. (2) ولكان جسمًا إذ أن ثبوت الصفات يقتضي كثرة وتعددًا في ذاته ويقتضي أنه جسم وذلك خلاف التوحيد.

فهم يزعمون أن توحيد الله وتنزيهه متوقف على أنه ليس بجسم، وكونه ليس بجسم موقوف على عدم قيام الأعراض والحوادث به التي هي الصفات والأفعال، ونفي ذلك

---

(1) نقض التأسيس (1/495-496).

(2) بالإضافة إلى زعم المعتزلة أن الصفات لا تقوم إلا بأجسام، فهم أيضًا يزعمون أن في إثبات الصفات قول بكثرة وتعدد ذات الله، لأنهم يقولون: "إن من أثبت لله صـــفة أزلية قديمة فقد أثبت إلهين"، كما اعتقدوا أن الصفات لو شاركته في القدم لشاركته في الألوهية.

انظر الملل للشهرستاني (1/ 44-46)، مقالات الإسلاميين (1/ 245)، منهاج السنة (2/ 169).

عندهم موقوف على ما يدل عليه حدوث الأجسام، والذي دلهم على حدوث الاجسام أنها لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث لا يسبقها، وما لا يسبق الحوادث فهو حادث.

ويزعمون أيضاً أن الأجسام لا تخلو من الأعراض، والأعراض لا تبقى زمانين فهي حادثة، فإذا لم تخل الأجسام منها لزم حدوثها.

ويزعمون أيضاً أن الاجسام مركبة من الجواهر المفردة، والمركب مفتقر إلى جزئية وجزءاه غيره، وما افتقر إلى غيره لم يكن إلا حادثًا مخلوقًا، فالأجسام متماثلة فكل ما صح على بعضها صح على جميعها، وقد صح على بعضها التحليل والتركيب والاجتماع والافتراق فيجب أن يصح على جميعها. (1)

والمعتزلة يقولون إننا بهذا الطريق أثبتنا حدوث العالم ونفي كون الصانع جسمًا وإمكان المعاد.

الرد عليهم:

مما تقدم نعلم أن المعتزلة إنما بنوا دليلهم في نفي الصفات على أن القديم لا يكون محلا للصفات والحركات فلا يكون جسمًا ولا محيزًا لأن الصفات أعراض وهم

(1) انظر مختصر الصواعق (1/ 254).

يستدلون على حدوث الجسم بحدوث الأعراض والحركات، وأن الجسم لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فهم بهذا القول نفوا صفات الباري وجعلوا نفيها يتوقف عليه ثبوت الصانع وحدوث العالم، فإذا جاء في القرآن والسنة ما يدل على إثبات الصفات لم يمكن القول بموجبه.

والمتدبر لحجج المعتزلة يرى فيها الأمور التالية:

أولاً: أنهم يستدلون لأقوالهم بعبارات مبتدعة وفيها الكثير من الاشتباه والاجمال، وذلك كلفظ العرش والجسم والحيز والمركب وغير ذلك، فهم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ليخدعوا به جهال الناس بما يشبهون عليهم، وهذه الألفاظ المجملة تتضمن معاني باطلة ومعاني أخرى صحيحة فهم بهذا ينفون كلا المعنيين الحق والباطل.

وقد بين **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** ما في هذه الألفاظ من معانٍ، وما تدل عليه من عبارات (1)، وكيف استعملها هؤلاء المعطلة في نفي صفات الباري–عز وجل–حيث ادعوا أن هذه الأمور من مستلزمات الجسمية، والله منزه من ذلك، وقد بين **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** أن استعمال هذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا

(1) انظر شرح ابن تيمية لهذه العبارات في نقض التأسيس الجهمية (1/ 504، 511)، وفي مجموع الفتاوى (5/ 418-430).

لم يرد عن السلف ولا جاء به أثر صحيح ولم يستعملها الأقدمون بالمعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه هؤلاء، بل جميعهم معترفون بأن العلو صفة كمال كما أن السفل صفة نقص، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب لكمال ذاته المنزهة عن اعتبارات المحدثين ومماثلتهم.

ومعلوم أن القول بأن العلو يستلزم هذه المعاني المبهمة إنما هو مأخوذ من قياس الغائب على الشاهد، ومحاولة تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الصفات الإلهية، وهذا قياس خاطئ إذ ليس معنى كونه في السماء أن السماء تحويه وتحيط به وتحصره، أو هي محل وظرف له، بل هو سبحانه محيط بكل شيء وسع كرسيه السموات والأرض، وهو فوق كل شيء، وعالٍ على كل شيء. (1)

ثانيا: أن ما استدل به المعتزلة لا أصل له من الكتاب أو السنة، بل هو مأخوذ من كلام الفلاسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً ليس بعالم ولا قادر ولا حي. (2)

كما أن مذهب المعتزلة في الذات قريب من مذهب اليونان القائلين بأن ذات الله واحدة لا كثرة فيها بوجه من الوجوه. (3)

---

(1) انظر كتاب موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من قضية التأويل (ص: 381-385).

(2) مقالات الإسلاميين (2/ 177)، وموقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: 53).

(3) موقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: 53).

ثالثاً: أن أصـــل هذه القاعدة التي اعتمد عليها المعتزلة في نفي الصـــفات إنما هي مأخوذة من قولهم في دليل حدوث العالم (1) الذي أثبتوا فيه حدوث العالم بحدوث الأجسـام، وهذا الدليل قد بين الأشـعري في رسـالته إلى أهل الثغر: أنه دليل محرم في شـرائع الأنبياء، ولم يسـتدل به أحد من الرسـل ولا أتباعهم (2)، فهي بهذا طريق يحرم سلوكها لما فيها من الخطر والتطويل وما يلزم عليها من لوازم باطلة لأنها مستلزمة لنفي الصـانع بالكلية، وهي مسـتلزمة لنفي صـفاته ونفي أفعاله ونفي المبدأ والمعاد، فهذه الطريق لا تتم إلا بنفي سمع الرب وبصره وقدرته وحياته وإرادته وكلامه فضلًا عن نفي علوه على خلقه ونفي الصفات الخبرية من أولها إلى آخرها، فلو صحت هذه الطريقة لنفت الصانع وأفعاله وصفاته وكلامه وخلقه للعالم وتدبيره له، وما يثبته أصحاب هذه الطريقة من ذلك لا حقيقة له بل هو لفظ لا معنى له، وأن الله بذاته في كل مكان، وقال إخوانهم إنه ليس داخل العالم ولا خارج العالم، وقالوا بخلق القرآن إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة. (3)

3. شبه متأخري الأشاعرة:

---

(1) انظر الكلام على دليل حدوث العالم في مجموع الفتاوى (13/ 153).

(2) انظر كتاب رسالة إلى أهل الثغر (ص: 164-172) تحقيق عبد الله شاكر الجنيدي، رسالة ماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.

(3) مختصر الصواعق (1/ 256،257)، ودرء تعارض العقل والنقل (1/ 38-40).

وهم أيضًـا ينفون صـفة العلو لأنها من الصـفات الخبرية (1)، ومعلوم أن مذهب متأخري الأشاعرة في الصفات أنهم يثبتون سبع صفات فقط وهي ما يسمونها بصفات المعاني وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسـمع والبصـر والكلام، وهم يثبتون لهذه الصفات أربعة أحكام هي:

1ـ أن هذه الصفات ليست هي الذات، بل زائدة عليها فصانع العالم عندهم عالم بعلم وحي بحياة وقادر وهكذا.

2ـ أن هذه الصفات كلها قائمة بذات الله تعالى ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته لأن الدليل دل على أنه متصـف بها ولا معنى لاتصـافه بها إلا قيامها بذاته، حتى لو قلنا، إنه عالم كان هو بعينه مفهوم قولنا قام بذاته علم فلا تكون الصـفة لشـيء إلا إذا قامت به لا بغيره.

3ـ أن هذه الصفات كلها قديمة لأنها إن كانت حادثة كان القديم محلاً للحوادث وهذا محال، أو متصف بصفة لا تقوم به وذلك أظهر استحالة.

---

(1) الصفات الخبرية وتسمى الصفات السمعية وهي: ما كان الدليل عليها مجرد خبر الرسول دون استناد إلى نظر عقلي كالاستواء والنزول والمجيء وغير ذلك.

4. أن الأسماء المشتقة لله تعالى من هذه الصفات السبع صادقة عليه أزلًا وأبدًا فهو في القدم كان حيًا قادرًا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا. (1)

فهم على قولهم هذا لا يثبتون سوى هذه الصفات السبع فقط لأنها قديمة.

أما باقي الصفات التي يسمونها الصفات الخبرية فهم ينفونها جميعها، بدعوى تنزيه ذات الله عن الحوادث.

ومتأخرو الأشاعرة هؤلاء وإن كانوا يخالفون المعتزلة في جعلهم الصفة غير الذات كما في الحكم الأول فيثبتون الصفات القديمة من هذا الباب، إلا أنهم قد وافقوا المعتزلة في دليلهم المسمى بدليل نفي الحوادث فنفوا باقي الصفات الأخرى، ذلك لأن قولهم في الحكم الثالث من الأحكام الأربعة التي أوردناها إنها لو كانت حادثة لكان القديم محلا للحوادث، هو بعينه ما استدل به المعتزلة على نفي الصفات. (2)

ويقول متأخرو الأشاعرة في دليلهم العقلي على نفي العلو إن إثبات العلو يقتضي إثبات الجهة وإثبات الجهة، يقتضي كونه جسمًا، وكونه جسمًا يقتضي كونه مركبًا،

(1) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 84-101)، بتصرف.
(2) مختصر الصواعق (1/ 255).

والمركب مفتقر إلى جزئيه، والمفتقر إلى جزئيه لا يكون إلا حادثًا والله سبحانه منزه عن الحوادث. (1)

فعلى قولهم هذا يكونون هم والمعتزلة على دليل واحد، وقد سبق وأن ذكرنا الرد على المعتزلة فيكون الرد على هؤلاء من جنس الرد على أولئك، ويضاف إلى ذلك أن القول في الصفات التي نفاها هؤلاء هو كالقول في الصفات التي أثبتوها فإن كان هذا تجسيماً وقولا باطلاً فهذا كذلك.

وإن قالوا: إن إثباتها على الوجه الذي يليق بالرب.

قيل لهم: وكذلك هذا.

فإن قالوا: نحن نثبت تلك الصفات وننفي التجسيم.

قيل لهم: وهذا كذلك، فليس لكم أن تفرقوا بين المتماثلين. (2)

4. شبه النفاة السمعية في نفي صفة العلو:

لقد سبق وأن ذكرنا أن المعطلة قد انقسموا في هذه المسألة إلى فريقين:

فأما الفريق الأول: وهم القائلون بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته وهؤلاء كما سبق وأن ذكرنا ليس لهم دليل واحد من الكتاب أو السنة.

---

(1) نقض التأسيس (1/ 503).

(2) مجموع الفتاوى (13/ 165).

وأما الفريق الثاني: وهم القائلون بأن الله بذاته في كل مكان فقد احتجوا لقولهم هذا بنصـــوص "المعية" و"القرب" الواردة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ}** [المجادلة: الآية: 7]، وقوله تعالى: **{يَسْـتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْـتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ}** [النسـاء: الآية: 108]، وقوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّـمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ}** [الحديد: الآية: 4]، وقوله تعالى: **{إِذْ يَقُولُ لِصَـاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}** [التوبة: الآية: 40]، وقوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْـوِسُ بِهِ نَفْسُـهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: الآية: 16]، وقوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّـــمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ}** [الزخرف: الآية: 84]، وقوله تعالى: **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّـــمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}** [الأنعام: الآية: 3].

وقد زعم حلولية الجهمية أن المراد بهذه النصـــوص معية الذات وقرب الذات، فلذلك قالوا: إن الله بذاته في كل مكان.

الرد عليهم:

قد أبطل علماء السلف زعم هؤلاء الجهمية واستدلالهم بهذه الآيات ويبينوا أن كل نص يحتجون به هو في الحقيقة حجة عليهم، فنصوص المعية التي استدلوا بها لا تدل بأي حال من الأحوال على ما زعمه هؤلاء، وذلك لأن كلمة (مع) في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطًا بالآخر، وهي إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى.

ولفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع واقتضت في كل موضع أموراً لم تقتضيها في الموضع الآخر، وذلك بحسب اختلاف دلالتها في كل موضع وهي قد وردت في القرآن بمعنين هما:

المعنى الأول: المعية العامة

والمراد بها أن الله معنا بعلمه، فهو مطلع على خلقه شهيد عليهم، ومهيمن وعالم بهم، وهذه المعية هي المرادة بقوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [المجادلة: الآية: 7].

فالله سـبحانه وتعالى قد افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ولذلك أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم تفسير القرآن على أن تفسير الآية هو أنه معهم بعلمه، وقد نقل هذا الإجماع **ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** (1)، **وأبو عمرو الطلمنكي–رحمه الله–(ت: ٤٢٩ هـ)**، **وابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** (2)، **وابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**. (3)

قال أبو عمر بن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "إن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله". [4]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) بعد أن نقل كلام ابن عبد البر هذا وأقره–: "فهذا ما تلقاه الخلف عن السلف إذ لم ينقل عنهم غير ذلك، إذ هو الحق الظاهر الذي دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية". اهـ [5]

---

(1) التمهيد (7/ 138).

(2) مجموع الفتاوى (5/ 193)، و(5/ 519)، و(11/ 249-250).

(3) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 44).

4 كتاب "التمهيد" (٧/ 138).

5 "مجموع الفتاوى" (5/ 193).

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا: هو معهم بعلمه. وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، والضحاك–رحمه الله–(ت: ٦٤ هـ)، ومقاتل بن حيان–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ)، وسفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، وأحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، وغيرهم.

ثم ذكر الشيخ ما رواه ابن أبي حاتم–رحمه الله–(ت: ٣٢٧ هـ) في تفسيره عن ابن عباس–رضي الله عنهما–في قوله: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}**، قال: هو على العرش، وعلمه معهم. وروى–أيضا–عن سفيان الثوري أنه قال: علمه معهم. وروى–أيضا–عن الضحاك بن مزاحم في قوله: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم}** إلى قوله: **{أَيْنَ مَا كَانُوا}** قال: هو على العرش، وعلمه معهم.

وقال أبو عمرو الطلمنكي–رحمه الله–(ت: ٤٢٩ هـ): وأجمعوا–يعني أهل السنة والجماعة–على أن لله عرشًا، وعلى أنه مستو على عرشه، وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه قال: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا**

كُنْتُمْ} ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء". [1]

وعلى هذا فلا حجة للمخالفين في ظاهر هذه الآية.

وكذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [الحديد: الآية: 4].

فظاهر الآية دال على أن المراد بهذه المعية هو علم الله تبارك وتعالى واطلاعه على خلقه، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، فجمع تعالى في هذه الآية بين العلو والمعية، فليس بين الاثنين تناقض البتة، وهو كقوله-صلى الله عليه وسلم-في حديث الأوعال: ((**والله فوق العرش يعلم ما أنتم عليه**)).

المعنى الثاني: المعية الخاصة

---

1 انظر: "مجموع الفتاوى": (5/ 519).

وهي معية الاطلاع والنصرة والتأييد، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه مثل قوله تعالى: **{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}** [التوبة: الآية: ٤٠]، وقوله تعالى **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}** [النحل: الآية: 128].

فهذه المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

ولفظ المعية على كلا الاستعمالين ليس مقتضاه أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق، ولو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان لتناقض الخبر العام والخبر الخاص، ولكن المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك. (1)

وأما استدلالهم بقوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: الآية: 16]، فقد أجاب عنه **ابن تيمية– رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** بقوله: "إن هذه الآية لا تخلوا من أن يراد بها قربه سبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك

فإن أريد بها قرب الملائكة: فدليل ذلك من الآية قوله: **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}** [ق: الآيات: 16-17]، ففسر ذلك القرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان، فيكون الله سبحانه قد أخبر

(1) مجموع الفتاوى (11/ 250)، و(5/ 104).

بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان، **{وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}** وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكاتبين منه، **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** [الزخرف: الآية: 80].

أما إذا كان المراد بالقرب في الآية قربه سبحانه، فإن ظاهر السياق في الآية دل على أن المراد بقربه هنا قربه بعلمه، وذلك لورود لفظ العلم في سياق الآية **{وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}**". (1)

وأما استدلالهم بقوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ}** [الزخرف: الآية: ٨٤]، فمعنى الآية: أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض، **قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)**: "فوجب حمل هذه الآية على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير". (2)

وقال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "وقوله عز وجل: **{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ}** [الزخرف: الآية: ٨٤]، فمعناه: أنه جل ذكره إله من

---

(1) الفتاوى (6/ 19-20).

(2) التمهيد (7/ 134).

في السموات وإله من في الأرض، وهو الإله يعبد في السموات، وهو الإله يعبد في الأرض، هكذا فسره العلماء". (1)

وروى **الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ)** بسنده في تفسيره هذه الآية عن **قتادة–رحمه الله–(ت: ١١٨ هـ)**، قوله: "هو إله يعبد في السماء، وإله يعبد في الأرض". (2)

وأما استدلالهم بقوله تعالى: **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}** [الأنعام: الآية: ٣]، فقد فسرها أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السموات والأرض. (3)

وقال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "وعند أهل العلم من أهل الحق **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}** [الأنعام: الآية: ٣]، هو كما قال الحق **{يَعْلَمُ سِرَّكُمْ}** فما جاءت به السنن أن الله

(1) الشريعة (3/ 1104).
(2) الشريعة (3/ 1104-1105).
(3) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص: 92-93)، ومجموع الفتاوى (11/ 250).

عز وجل على عرشــه، وعلمه محيط بجميع خلقه، يعلم ما تســرون وما تعلنون، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون". (1)

القول الثاني:

وهو قول من يقول إن الله بذاته فوق العرش وهو بذاته في كل مكان.

---

(1) الشريعة (3/ 1104).

هذا قول جماعة من أهل الكلام والتصـــوف كأبي معاذ التومني (1)، وزهير الأثري (2)، وأصـــحابهما (3)، وهو موجود في كلام الســـالمية (4) كأبي طالب المكي (5) وأتباعه

(1) أبو معاذ التومني من أئمة المرجئة ورأس فرقة التومنية منها.
انظر ترجمته ومذهبه في مقالات الأشعري (1/ 204، 326)، (2/ 232)، والملل والنحل (1/ 128).
(2) زهير الأثري، لم أقف على ترجمته، وقد تكلم الأشعري عن آرائه بالتفصيل في المقالات (1/ 326).
(3) انظر نقض تأسيس الجهمية (1/ 6)، والفتاوى (2/ 299)، ومقالات الإسلاميين (1/ 326).
(4) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة (297هـ) وابنه أبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة (350 هـــ)، وقد تتلمذ أحمد بن محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري، ويجمع الســالمية بين كلام أهل الســنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشــبيه ونزعة صــوفية اتحادية، انظر شذرات الذهب (3/ 36)، وطبقات الصوفية (ص: 414-416)، والفرق بين الفرق (ص: 157-202).
(5) أبو طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، صـوفي نشـأ واشـتهر بمكة، وهو صـاحب كتاب "قوت القلوب" في التصـــوف وهو من أكبر رجال الســـالمية، قال عنه الخطيب البغدادي: (ذكر فيه أشياء مستشنعة في الصفات)، توفي سنة (386هـ).
انظر ترجمته في تاريخ بغداد (3/ 89)، وميزان الاعتدال (3/ 655)، ولسان الميزان (5/ 300).

كأبي الحكم برجان (1) وأمثاله ما يشير إلى نحو هذا، كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا (2) فهم يقولون بأن الله في كل مكان، وأنه مع ذلك مستو على عرشه وأنه يرى بالأبصار بلا كيف، وأنه موجود الذات بكل مكان، وأنه ليس بجسم ولا محدود ولا يجوز عليه الحلول ولا المماسة، ويزعمون أنه يجيء يوم القيامة كما قال تعالى **{وَجَاءَ رَبُّكَ}** [الفجر: الآية: 22]، وقولهم هذا يشبه قول بعض مثبتة الجسم الذين يقولون إنه لا نهاية له (3).

والفرق بين هذا القول وقول الجهمية: بأن الله في كل مكان هو أن هؤلاء يثبتون العلو ونوعا من الحلول، أما الجهمية فلا يثبتون العلو على مقصود هؤلاء من الاستواء على العرش والمباينة.

ويزعم أصحاب هذا القول إنهم بقولهم هذا قد اتبعوا النصوص كلها سواء كانت نصوص علو أو معية أو قرب.

الرد عليهم:

---

(1) أبو الحكم، عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، متصوف، توفي سنة (536 هـ) بمراكش.

انظر ترجمته في لسان الميزان (4/ 13-14)، فوات الوفيات (1/ 569)، الاعلام (4/ 129).

(2) مجموع الفتاوى (2/ 299).

(3) نقض تأسيس الجهمية (2/ 6).

إنهم بقولهم هذا جمعوا بين كلام أهل السـنة وكلام الجهمية، ولذلك كان قولهم ظاهر الخطأ وغاية في التناقض.

أما بيان خطئه فيكمن في أن كل من قال بأن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسـنة وإجماع سـلف الامة وأئمتها مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصـريح المعقول وللأدلة الكثيرة، فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تنص على علو الله بذاته فوق خلقه واستوائه على عرشه وبينونته من خلقه، كما أن السنة قد تحدثت عن هذا المعنى في كثير من الأحاديث، كقصة المعراج وصعود الملائكة ونزولها من عند الله وعروج الروح إليه واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، فكل هذه الأدلة تبين بطلان هذا القول ومخالفته.

وأما استدلال هؤلاء بنصوص المعية والقرب، فقد بينا خطأ هذا الاستدلال وبطلانه عند الرد على الأدلة السمعية لمذهب الجهمية، وقد بينا أنه ليس للمخالفين أي متمسك في جعلها لمعية الذات أو قرب الذات.

أما بيان تناقض هذا القول: فهو واضح من أقوالهم، فهم يجمعون بين أقوال متناقضة، فهم تارة يقولون إنه بذاته فوق العرش، وتارة يقولون إنه فوق العرش ونصـيب العرش فيه كنصيب قلب العارف -كما يذكر ذلك أبو طالب المكي وغيره-، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش كذلك فقد نقضوا قولهم بأنه بنفسه فوق العرش.

وإن قالوا بحلول ذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولا بالحلول الخاص، وهذا ما وقع فيه طائفة من الصوفية ومنهم صاحب منازل السائرين. (1)

(1) مجموع الفتاوى (5/ 122-131).

المسألة الثانية: صفة الاستواء والأقوال فيها

أولًا: مذهب السلف في صفة الاستواء

أ–معتقد السلف في صفة الاستواء.

والمقصود بالسلف هم الصحابة والتابعون ومن سار على نهجهم.

ولقد كان قولهم في الاستواء كقولهم في سائر صفات الله فهم وسط بين طائفتين هم المعطلة والمشبهة.

فهم لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، ولا ذاته بذوات خلقه كما يفعل المشبهة.

وكذلك لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله–صلى الله عليه وسلم–، فيعطلون أسماءه وصفاته، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة.

بل كان مذهبهم في سائر الصفات –بما في ذلك الاستواء–أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه محمد–صلى الله عليه وسلم–نفياً وإثباتاً.

وطريقتهم في الإثبات أنهم يثبتون ما أثبته الله من الصفات من غير تكييف لها، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

وطريقتهم في النفي أنهم ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه مع إثبات كمال ضد ذلك المنفي.

فطريقة السلف هي إثبات أسماء الله وصفاته مع نفي مماثلة المخلوقين، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: الآية: 11]، ففي قوله تعالى **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله **{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** رد للإلحاد والتعطيل. (1697)

(1697) انظر الرسالة التدمرية (ص: 4-7)، الفتوى الحموية الكبرى (ص: 16-17).

ولقد كانت هذه طريقة السلف في جميع الصفات دون تفريق بين صفة وصفة، وفي ذلك يقول **الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)**: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله– صلى الله عليه وسلم–لا نتجاوز القرآن والسنة". (1698)

وبناءً على هذه القاعدة كان مذهب السلف في صفة الاستواء أنهم يثبتون استواء الله على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته ويناسب كبريائه وهو بائن من خلقه وخلقه بائنون منه.

فأهل السنة والجماعة أثبتوا تلك الأسماء والصفات التي جاء ذكرها في كلام الله عز وجل وكلام رسوله–صلى الله عليه وسلم–، فإذا قال الله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، فإن هذا النص خبر، أخبر الله فيه أنه استوى على عرشه، فأهل السنة والجماعة يعتقدون: إن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، لا يماثله فيه أحدٌ من خلقه والله أعلم بكيفيته.

وذلك الإيمان يتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إثبات صفة الاستواء لله عز وجل.

الأمر الثاني: نفي مماثلة صفات الله عز وجل لصفات المخلوقين.

الأمر الثالث: عدم الخوض في كيفية صفات الله عز وجل.

فما أخبر الله به في هذه الآية يجب أن يُثبت لله تعالى، فإذا قال تعالى: **{الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}** [طه: الآية: ٥]، فإن هذا يوجب على المؤمن أن يصدق به، لأن نصوص القرآن والسنة تدور حول حالين:

إما إخبارٌ أو أمر، إما أن يُخبر الله تعالى بشيء، وإما أن يأمر بشيء، فقوله: **{الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}** [طه: الآية: ٥]، هذا إخبارٌ، والأمر مثل قوله تعالى: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [البقرة: الآية: ٤٣]، فهنا أمر من الله لعباده بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

فالخبر يجب على المؤمن تجاهه التصديق، فإذا أخبرك الله تعالى بأنه استوى على عرشه، فإن عليك أن تصدق بأن الله تعالى استوى على عرشه، وإذا جاءك الأمر مثل: وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، فيجب

(1698) مجموع الفتاوى (5/ 26).

عليك الامتثال والانقياد، فإن كان أمر إيجاب يجب عليك أن تقوم به، وإن كان أمر نهيٍ فيجب عليك أن تنتهي.

فالواجب على الموحد إذا أخبر الله تعالى باستوائه على عرشه أن يعتقد ثلاثة أمور:

أولاً: يجب عليه أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه استواءً حقيقة كما أخبر في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: أن يثبت لله استواءً يليق بجلاله وكماله تعالى؛ لِأن الله تعالى قد قال في آية أخرى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى: الآية: ١١]، فمعنى هذا أن الله في استوائه على عرشه لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه، نعني بذلك أن الله تعالى لا يحتاج إلى العرش ولا يفتقر إليه.

ثالثاً: يجب علينا ألا نخوض في كيفية استوائه، هذا أمرٌ لا ينبغي ولا يجوز للمسلم أن يخوض فيه.

فإذاً تُثبتُ ما أثبته الله لنفسه؛ لأن الله أخبر بذلك، ومع إثبات ذلك يجب أن تعتقد أن الله تعالى لا يماثله ولا يساويه في ذلك أحدٌ من خلقه، مع عدم الخوض في كيفية الاستواء.

فالمقصود والمراد من نفي المماثلة أن لله خصائص، أي أمورٌ يختص بها لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه، ثم بعد ذلك فالله تعالى ما أطلعك ولا أخبرك ولا تعبدك بمعرفة كيفية استوائه، وكلنا يعلم جواب **الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)** إذ سأله السائل: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، كيف استوى؟ فغضب الإمام مالك من سؤال السائل وقال: **"الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"**. (1699)

فإذاً الكيف مجهول، كيف استوى؟ كيف ينزل؟ كيف يداه؟ كيف قدماه؟ إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى لا نعلم كيفيتها وهذا سيأتي جوابه إن شاء الله تعالى.

والسلف يقولون إن معنى هذا الاستواء الوارد في الكتاب والسنة معلوم في اللغة العربية، كما **قال ربيعة بن عبد الرحمن–رحمه الله–(ت: ١٣٦ وقيل: ١٤٢ هـ)، والإمام مالك–رحمه الله–(ت:**

---

(1) انظر الموطأ للإمام مالك (١/ 253).

١٧٩ هـ): "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". فقولهم: (الاستواء معلوم): أي أن معنى الاستواء معلوم في اللغة وهو ههنا بمعنى العلو والارتفاع.

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم وأنزل به كلامه نوعان: مطلق، ومقيد.

فالمطلق مالم يوصل معناه بحرف مثل قوله تعالى: **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ}** [القصص: الآية: 14]، وهذا معناه: كمل وتم، ويقال: استوى النبات، واستوى الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد "بإلى" كقوله تعالى: **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ}** [فصلت: الآية: ١١]، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى المعدى بإلى في موضعين من كتابه، الأول في سورة البقرة في قوله: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ}** [البقرة: الآية: 29]، والثاني في سورة فصلت **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** [فصلت: الآية: 11]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: المقيد "بعلى" كقوله تعالى: **{لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ}** [الزخرف: الآية: 13]، وقوله: **{وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}** [هود: الآية: 44]، وقوله: **{فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ}** [الفتح: الآية: 29]، وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون "بواو مع" التي تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم. (1700)

ومما يؤكد أيضاً أن السلف يعلمون معنى الاستواء **قول ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)**: "والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه".

قال أبو عبيدة–رحمه الله–(ت: ٢٠٩ هـ) في قوله {استوى} قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه

(1700) انظر مختصر الصواعق المرسلة (2/ 126-127).

مزيد، والاستواء والاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله عز وجل فقال: **{لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}** [الزخرف: الآية: ١٣]، وقال: **{وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}** [هود: الآية: 44]، وقال: **{فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ}** [المؤمنون: الآية: 28].

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بضبضاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى لأن النجم لا يستولى.

وقد ذكر **النضر بن شميل–رحمه الله–(ت: ٢٠٣ هـ)**–وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة–قال: "حدثني **الخليل–رحمه الله–(ت: ١٧٤ هـ)**–وحسبك بالخليل–قال: أتيت **أبا ربيعة الأعرابي–رحمه الله–(ت: ١٧٠ هـ تقريبًا)** وكان من أعلم من رأيت فغذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا: استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال؟ فقال لنا أعرابي إلى جنبه: إنه أمركم أن ترتفعوا، **قال الخليل–رحمه الله–(ت: ١٧٤ هـ)**: هو من قول الله عز وجل **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** [فصلت: الآية: 11]، فصعدنا إليه". (1701)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن ظاهر الاستواء وحقيقته هو العلو والارتفاع كما نص عليه جميع أهل اللغة والتفسير المقبول". (1702)

ولما كان هذا هو معنى الاستواء في لغة العرب فقد تكلم السلف والمفسرون بهذا المعنى عند تفسير هذه الآية فقد روى عن **مجاهد–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ)** في تفسير قوله تعالى **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: الآية: ٥٤]، قال: علا على العرش. (1703)

(1701) التمهيد (7/ 131-132).

(1702) انظر: مختصر الصواعق (2/ 145).

(1703) انظر: فتح الباري (13/ 403).

وقد روى **ابن ابي حاتم–رحمه الله–(ت: ٣٢٧ هـ)** في تفسيره بسنده **عن أبي العالية–رحمه الله–(ت: ٩٠ أو٩٣ هـ)** في تفسير الآية السابقة الذكر قال: ارتفع. (1704)

وقد روى عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، والربيع بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٣٩ هـ) مثله (1705).

وقد روى **اللالكائي–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ) بسنده عن بشر بن عمر–رحمه الله–(ت: ٢٠٧ هـ)** قال: "سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: **{الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}** [طه: الآية: ٥]، قال: على العرش استوى: ارتفع". (1706)

وفي هذا التفسير لمعنى الاستواء من قبل السلف رد على من زعم أن مذهب السلف هو التقيد باللفظ مع تفويض المعنى المراد وأنهم كانوا لا يفسرون الاستواء ولا يتكلمون فيه، فمن خلال ما تقدم من الأقوال التي نقلت عن السلف يتضح كذب هؤلاء وزيف ادعائهم.

ومما ينبغي معرفته أن السلف مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستو على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاستواء إلى الله عز وجل لأن أمره هو مما استأثر الله بعلمه وفي ذلك يقول القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته كما قال الإمام مالك: "الاستواء معلوم –يعني في اللغة–والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة". (1707)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن العقل قد يئس من تعرف كنه صفات الله وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف (بلا كيف) أي بلا كيف يعقله البشر، فإنه من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها،

(1704) مجموع الفتاوى (5/ 519).

(1706) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (3/ 397).

(1707) تفسير القرطبي.

ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف كيفيتها مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعجزنا من معرفة كيفية الخالق وصـــفاته أعظم وأعظم". (1708)

واستواءه-سبحانه وتعالى-على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام إنما هذا الاستواء هو-علو خاص-، ذلك لأن من المعلوم أن كل مستو على شيء هو عال عليه، وليس كل عال على شيء مستويا عليه، ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه، ولكن كل ما قيل فيه: إنه استوى على غيره، فإنه عال عليه.

والذي أخبر الله أنه كان بعد خلق السـموات والأرض "الاستواء" لا مطلق العلو، مع أنه يجوز أنه كان مستويا على العرش قبل خلق السموات والأرض لما كان عرشه على الماء، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا عليه ولم يكن مستويا عليه، وبعد الانتهاء من خلق هذا العالم استوى على العرش.

فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سـبحانه وتعالى بمشـيئته وقدرته، ولهذا قال فيها **{ثُمَّ اسْـتَوَى}** ومن أجل ذلك كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر، وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع". [1709]

فالاستواء صفة ثابتة في القرآن والسنة وقد أجمع سلف الأمة على إثباتها.

ب-: الأدلة من القرآن على إثبات صفة الاستواء.

جاء ذكر الاستواء في سبع آيات، وهذه الآيات السبع التي جاء فيه ذكر الاستواء على العرش قد جاءت مصحوبة بما يبهر العقول من صفات الله وجلاله وكماله، [1710]

(1708) مدارج السالكين (3/ 359).

1709 انظر: "الفتاوى": (5/ 521-523) بتصرف.

1710 "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: 15).

وسنذكر تلك الآيات وما اقترن بها.

ا-الموضع الأول: فأول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف: قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأمره أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: الآية: ٥٤].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال[1711]

2-والموضع الثاني: في سورة يونس قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}** [يونس: الآيات: ٣-٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الكمال والجلال.

3-الموضع الثالث: في سورة الرعد في قوله جل وعلا: **{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِماءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [الرعد: الآيات: ٢-٤].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

[1711] "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: 15).

4-الموضع الرابع: في سوره طه قال تعالى: **{طه * ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّماوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ ما فِي السَّماوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنَى}** [طه: الآيات: ١-٨].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

5-الموضع الخامس: في سورة الفرقان في قوله تعالى: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً * الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}** [الفرقان: الآيات: ٥٨-٥٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الكمال والجلال.

وقال **محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ)**: "إنه ينبغي للمؤولين أن يتأملوا هذه الآية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}** [الفرقان: الآية: ٥٨]، ويتأملوا معها قوله تعالى: **{وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}** [فاطر: الآية: 14]، فإن قوله في الفرقان: **{فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}** بعد قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}** يدل دلالة واضحة أن الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه، ولا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها ويفهم منه أن الذي ينفي عنه صفة الاستواء ليس بخبير، نعم هو والله ليس بخبير". 1712

6- الموضع السادس: في سورة السجدة في قوله تعالى: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِما تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ**

1712 "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: 26).

نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ} [السجدة، الآيات: 3-9].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

7-الموضع السابع: في سورة الحديد في قوله تعالى: **{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْهَا وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [الحديد، الآيتان: 3-4].

فالله سبحانه وتعالى مع استوائه على عرشه لا يخفى عنه شيء من أمور مخلوقاته، فهو يعلم جميع ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وجميع ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، فسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل لا في السماء ولا في الأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم.

فالشاهد من ذكر آيات الاستواء على العرش وذكر ما اقترن بها من صفات العظمة والجلال بيان أن هذه الصفة التي ظن الجاهلون أنها صفة نقص، ويتهجمون على رب السموات والأرض بأنه وصف نفسه بصفة نقص، ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله-جل وعلا-تمدح بها، وجعلها من صفات الجلال والكمال مقرونة بما يبهر العقول من صفات الجلال والكمال، وهذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله جل وعلا بالتأويل. 1713

ج-الأدلة من السنة على إثبات صفة الاستواء.

كما أن السنة مليئة بالأحاديث الثابتة الصحيحة الدالة على استواء الله على عرشه.

1713 "كتاب منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: 17).

عن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((**إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه، إن رحمتي سبقت غضبي**)). متفق عليه. 1714

وعن أبي رزين العقيلي–رضي الله عنه– قال: "قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء والأرض؟" قال: ((**كان في عما1715 ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق العرش، ثم استوى عليه**)). وفي لفظ آخر: ((**ثم كان على العرش فارتفع على عرشه**)). 1716

1714 أخرجه البخاري (ح: 7404). وانظر (ح: 3194، 7453، 7553، 7554). وأخرجه مسلم في صحيحه، التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (95/8).

1715 العما: السحاب الأبيض، كذا فسره الأصمعي. انظر كتاب العظمة لأبي الشيخ (1/ 365-366)، والعرش لابن أبي شيبة(رقم: 8)، والحد للدشتي (ق15/ب).

1716 أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة هود (5/ 288، رقم: 3109). والإمام أحمد في مسنده (4/ 11-12). وابن أبي شيبة في العرش (ح: 7). وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (1/ 64). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 271). وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ 12)، وفي تاريخه (1/ 19). والحكيم الترمذي في الرد على المعطلة (ق106/ أ). وأبو الشيخ في كتاب العظمة (1/ 363-364، ح83). وابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية، (3/ 168، ح125). وابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: 89)، (ح: 31). والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 235-236، ح: 801 و303/2، ح: 864). قال الترمذي: حديث حسن. وقال الذهبي في العلو (ص19) إسناده حسن. وقال في كتاب العرش حديث رقم (15) "وهذا حديث حسن رواه الترمذي وغيره"؛ وقال الألباني: "في تصحيحه نظر، فإن مداره على وكيع بن عدس ويقال حدس، وهو مجهول، لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، ولا وثقه غير ابن حبان".

التعليق: اختلف في لفظة "عما" من حيث الشكل ومن حيث المعنى المراد بها.

فالأصمعي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، والأزهري وغيرهم يرون أن لفظة "عما" هي من حيث الشكل بالمد، وليست بالقصر، وأن معناها المراد في الحديث السحاب الأبيض، لأنه هذا هو معنى الكلمة في كلام العرب المنقول عنهم. ومما يشهد لذلك قول الحارث بن حلزة اليشكري:

وكأن المنون تردي بنا.... أعصم ينجاب عنه العما

ومعنى البيت: أن الشاعر يقول هو في ارتفاعه، قد بلغ السحاب ينشق عنه، ويقول نحن في عزنا مثل الأعصم، فالمنون إذا أرادتنا فكأنما تريد أعصم (أي الجبل الشاهق).

وقال الأزهري: "ولا يدرى كيف ذلك العما بصفة تحصره ولا نعت يحده، ويقوي هذا القول قول الله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} الآية 210 من سورة البقرة، فالغمام معروف في كلام العرب، إلا أنا لا ندري كيف الغمام الذي يأتي الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة في ظلل منه، فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته، وكذلك سائر صفات الله عز وجل". تهذيب اللغة (3/ 246).

وهذا القول ليس فيه دليل، على قول الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم، وأن مادة السموات والأرض ليست مبتدعة، وذلك أن الله سبحانه أخبرنا في كتابه بابتداء الخلق الذي يعيده، وأخبر بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام في غير موضع، وجاءت بذلك الأحاديث الكثيرة، وأخبر أيضاً أنه يغير هذه المخلوقات.

ويرى يزيد بن هارون، وأقره على ذلك الترمذي أن لفظة "عما" هي من حيث الشكل بالمد، ولكن معناها في هذه الحديث هو: "أي ليس مع الله شيء" وعلى هذا يكون معنى الحديث أن الله كان ولم يكن شيء معه، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في حديث عمران بن حصين من قوله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء معه".

وهناك رأي ثالث في المسألة، يخالف القولين الأولين من حيث الشكل والمعنى: فمن حيث اللفظ يرى أنه بالقصر، وليس بالمد.

وعن جبير بن مطعم–رضي الله عنه–(ت: ٥٩ هـ)، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال للأعرابي في حديث الاستسقاء: ((**ويحك أتدري ما الله؟ إن شأنه أعظم من أن يستشفع به على أحد، إنه لفوق عرشه على سمواته**)).

رواه أبو داود، وغيره، في الرد على الجهمية. [1717] بإسناد حسن عنده من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

وعن العباس بن عبد المطلب–رحمه الله–(ت: ٣٢ هـ) قال: كنا بالبطحاء فمرت سحابة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟**))، قالوا: لا، قال: ((**إما واحدة، وإما اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة**))، ثم عد سبع سموات، ثم قال: ((**فوق السابعة بحر بين أسفله، وأعلاه كما بين السماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال [1718] بين أظلافهم، وركبهم كما بين سماء، إلى سماء ثم على ظهورهم العرش، ثم الله فوق ذلك، وهو يعلم ما أنتم عليه**)). رواه أبو داود بإسناد حسن وفوق الحسن. [1719]

وعلى هذا يكون المعنى: أنه كان حيث لا تدركه عقول بني آدم، ولا يبلغ كنهه وصف، وذلك لأن كل أمر لا يدركه القلوب بالعقول فهو عمى.

انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (2/ 8-9)، تهذيب اللغة (3/ 246)، نقص تأسيس الجهمية (1/ 591).

1717 سنن أبي داود (5/ 94-96، ح: 4726).

1718 الأوعال جمع وعل بكسر العين، وهو تيس الجبل. النهاية (5/ 207).

1719 أخرجه الإمام أحمد في المسند (1/ 207). وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (5/ 93، برقم 4723). وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (1/ 69). وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الحاقة (5/ 424-425، برقم: 3320). والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: 448). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 253). وابن خزيمة في كتاب التوحيد (1/ 234-235، ح: 144). والآجري في الشريعة

وعن زينب بنت جحش–رضي الله عنها–(ت: ٢٠ أو ٢١ هـ) أنها كانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: "زوجنيك الرحمن من فوق عرشه". [1720]

وفي لفظ للبخاري كانت تقول: "إن الله أنكحني من فوق سبع سموات". [1721]

(3/ 1089-1090، ح: 665). وابن منده في التوحيد (1/ 117). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (390/3). والذهبي في العلو (ص: 49). ومدار الحديث من جميع طرقه على "عبد الله بن عميرة" وعبد الله فيه جهالة، ولذلك قال الألباني في تخريج السنة (1/ 254): "إسناده ضعيف، وعبد الله بن عميرة، قال الذهبي: فيه جهالة، وقال البخاري: لا نعلم له سماعاً من الأحنف بن قيس". انتهى كلامه. ولكن الجوزقاني صرح في الأباطيل (1/ 79) بصحة الحديث. وكذلك ابن تيمية في الفتاوى (3/ 192) حيث قال: "إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي–صلى الله عليه وسلم–، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدماً على نفي غيره وعدم معرفته". انتهى كلامه. وكذلك مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه. انظر تهذيب السنن (7/ 92-93).

1720 رواه الطبري بلفظ مقارب في التفسير (22/ 14). وأخرجه الحاكم في المستدرك (4/ 25). وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص:61، برقم: 31). وابن كثير في تفسيره (3/ 492). والذهبي في العلو(ص: 40) و(ص: 20)، وفي كتاب العرش برقم: (26). وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (1/ 125). وابن حجر في الفتح (13/ 412) وقال: "وفي مرسل الشعبي قالت زينب... فذكره، ثم قال: أخرجه الطبري وأبو القاسم الطحاوي في كتاب الحجة والتبيان له". وقال الذهبي: "وهذا مرسل" أي أنه منقطع بين الشعبي وزينب.

1721 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (22) {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ} (ح: 7421، ص: 1555) ولفظه "إن الله أنكحني في السماء".

د-دليل الإجماع على إثبات صفة الاستواء.

إجماع السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم منعقد على إثبات علو الله، واستوائه على عرشه وقد نقل غير واحد من السلف هذا الإجماع عنهم، ومن ذلك ما رواه **البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، بإسناد صحيح عن الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)** أنه قال: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله-تعالى-ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته". [1722]

وقال أبو نصر السجزي-رحمه الله-(ت: ٤٤٤ هـ): " فأئمتنا كسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، ومالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وسفيان ابن عيينة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، وحماد بن سلمة-رحمه الله-(ت: ١٦٧ هـ)، وحماد بن زيد-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، وفضيل بن عياض-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ): متفقون على أن الله-سبحانه-بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار فوق العرش". [1723]

وقال أبو نعيم الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ) في عقيدته المشهورة: "وطريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرش والاستواء عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمواته من دون أرضه". [1724]

1722 الأسماء والصفات": (ص: 515).

1723 درء تعارض العقل والنقل": (6/ 250).

1724 درء تعارض العقل والنقل": (6/ 250).

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة الاستواء.

أ–الفريق الأول: نفاة الاستواء.

سبق أن ذكرنا أن المعطلة من الفلاسفة، والجهمية، والأشاعرة، والماتريدية، على الرغم من أن لكل واحد منهم منهجًا مستقلًا في مسألة الصفات إلا أنهم يتفقون جميعًا على إنكار الصفات الاختبارية بما فيها صفة الاستواء، ويذهبون إلى تأويل الآيات القرآنية الواردة في إثباتها إلى ما أدت إليه عقولهم من المعاني الفاسدة التي يزعمون أن في ذلك تنزيهاً لله عن مشابهة المخلوقين.

وإن سبب ذلك التأويل الباطل هو اعتقاد هؤلاء المعطلة أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها النصوص، وذلك بسبب الشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الفلاسفة، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر –وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى–بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسميها هؤلاء المعطلة طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف. وبهذا يتبين لنا أن هذا الباطل الذي ذهب إليه هؤلاء المعطلة إنما هو مركب من فساد العقل والكفر بالسمع، وذلك لأنهم إنما اعتمدوا في نفي تلك الصفات على شبه عقلية ظنوها بينات وهي في الحقيقة شبهات.

وبناء على المسلك الثاني الذي سلكه هؤلاء المعطلة من تأويل تلك النصوص، فقد تعددت أقوالهم واختلفت في المعنى الذي يجب أن يؤول إليه لفظ الاستواء الوارد في الآيات إلى عدة أقوال منها:

القول الأول:

من هؤلاء المعطلة من يؤول معنى الاستواء في قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، على الاستيلاء والقهر والغلبة.

وهذا القول يذهب إليه كثير من الجهمية (1725)، والمعتزلة (1726)، والحرورية (1727)، وكثير من متأخري الأشاعرة (1728)، كسيف الدين الآمدي (ت: ٦٣١ هـ) (1729)، والغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) (1730)، والبغدادي (ت: ٤٢٩ هـ) (1731)، وغيرهم.

وقد استدل هؤلاء المعطلة على صحة زعمهم هذا بأن هذا التأويل الذي هو تأويل الاستواء بالاستيلاء هو أمر مشهور في لغة العرب من ذلك:

قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق

وقال الآخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا على عرش الملوك بغير زور

وقال الآخر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر كاسر

وقد ذكر **أبو عمر بن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** أن بعضهم قد احتج بما رواه عبد الله بن داود الواسطي عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس–رضي الله عنهما–، في تفسير قوله تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، قال: "استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان". (1732)

(1725) انظر مجموع الفتاوى (5/ 96)، ومختصر الصواعق (2/ 144).

(1726) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار (1/ 73، 351).

(1727) انظر مجموع الفتاوى (5/ 66)، ومختصر الصواعق (2/ 144).

(1728) انظر تحفة المريد على شرح جوهرة التوحيد (ص: 54).

(1729) انظر غاية المرام (ص: 141).

(1730) انظر الاقتصاد في الاعتقاد (ص: 104).

(1731) شرح الأصول الخمسة (ص: 226).

(1732) التمهيد (7/ 132).

ومن هؤلاء المعطلة من يبقي كلمة العرش الواردة في الآية على معناها الحقيقي الثابت، ويقول إنما خصص العرش بالذكر من بين جميع المخلوقات لكونه أعظم المخلوقات وأرفعها وأوسطها فخصص بالذكر تنبيهاً على ما دونه.

ومنهم من يؤول العرش الوارد في الآية بمعنى الملك (1733)، ويزعم أن معنى الآية استولى واستعلى على الملك، ويقول أصحاب هذا القول إن الله قد عبر بالعرش كناية على الملك، لأنه يخاطب الناس على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم، واستقر في قلوبهم، ذلك أن العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، فجعل العرش كناية عن نفس الملك، ويستدل هؤلاء بأن هذا الأمر مشهور في اللغة، وكذلك بقوله تعالى في سورة يونس: **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}** [يونس: الآية: ٣]، فقالوا: إن قوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله: {اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} (1734).

الرد عليهم:

لقد أجمع السلف على أن هذا التأويل الذي ذهب إليه هؤلاء الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، ومتأخرو الأشاعرة، هو تأويل باطل ترده نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة، وهو قول لا أصل له في لغة العرب، بل هو تفسير لكلام الله بالرأي المجرد، لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون قول السلف.

ولبيان فساد هذا القول على وجه التفصيل نقول:

وقد أجاب ابن عبد البر على استدلالهم هذا بقوله: "إن هذا الحديث منكر على ابن عباس-رضي الله عنهما-، ونقلته مجهولون وضعفاء، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان، وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الأحاد العدول، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا". اهـ.

(1733) انظر شرح الأصول الخمسة (ص: 226)، تفسير الرازي (14/ 15)، وأصول الدين للبغدادي (ص: 112).

(1734) تفسير الرازي (14/ 115).

أولاً: أنه من المعلوم أن لفظ الاستواء قد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وهذه المواضع جميعها قد اطرد فيها لفظ الاستواء دون الاستيلاء، وكذلك الأمر بالنسبة لما ورد في السنة، فلو كان معناه استولى -كما يزعم هؤلاء-لكان استعماله في أكثر موارده كذلك، فإذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حمل على معنى استولى لأنه المألوف المعهود.

أما أن يُأتى إلى لفظ قد اطرد استعماله في جميع موارده على معنى واحد فيدعى صرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله فيه، فهذا أمر في غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من قصد البيان، هذا لو لم يكن في السياق ما يأبى حمله على غير معناه الذي اطرد استعماله فيه، فكيف وفي السياق ما يأبى ذلك. (1735)

ثانياً: ومما يرد هذا التأويل الباطل أن كلمة استوى قد جاءت بعد "ثم" التي حقها الترتيب والمهلة، فلو كان المعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض، فإن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض بخمسين الف عام كما ثبت في صحيح مسلم عنه-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**)). (1736)

وقال تعالى {وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء}.

وفي صحيح البخاري **عن عمران بن حصين-رضي الله عنه-(ت: ٥٢ هـ)** عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**)). (1737)

(1735) انظر مختصر الصواعق المرسلة (2/ 128-129).

(1736) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (8/ 51).

(1737) أخرجه البخاري في صحيحة، كتاب التوحيد، {وكان عرشه على الماء} (ح: 7418).

فالآيات والحديثان يدلان دلالة واضحة على أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مستولٍ على العرش إلى أن خلق السموات والأرض. (1738)

ثالثاً: أن الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك عام في المخلوقات كالربوبية.، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية إليه لا تنفي نسبتها إلى غيره كما في قوله تعالى **{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [المؤمنون: الآية: ٨٦]، فلو كان استوى بمعنى استولى كما هو عام في المخلوقات كلها لجاز مع إضافته للعرش أن يقال: استوى على السماء وعلى الهواء وعلى البحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها إذ هو مستو على العرش، فلما اتفق المسلمون على أن يقال: استوى على العرش، ولا يقال استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال: استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش وليس عاما كعموم الأشياء (1739).

رابعاً: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر عاد معنى الآيات كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض ثم غلب على العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه! أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراد بقوله: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]: أي اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه. (1740)

خامساً: أن ما يستند إليه هؤلاء المعطلة في زعمهم هذا من قولهم إن تفسير استوى باستولى أمر مشهور في اللغة، هو قول باطل مردود لأنه لم يثبت عند أحد من أهل اللغة أن لفظة استوى يصح استعمالها بمعنى استولى، بل إن هذا القول منكر عند اللغويين.

(1738) مجموع الفتاوى (5/ 145).

(1739) مجموع الفتاوى (5/ 144).

(1740) مختصر الصواعق (2/ 140-141).

فهذا **ابن الأعرابي–رحمه الله–(ت: ٢٣١ هـ)** أحد علماء اللغة أتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله عز وجل **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]؟ فقال: (هو كما أخبر عز وجل)، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه، إنما معناه استولى، قال: (اسكت ما أنت وهذا، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاداً فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقة ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

(1741)

"وقد سئل **الخليل بن أحمد–رحمه الله–(ت: ١٧٤ هـ)**: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟

فقال: "هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها". والخليل إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا نعرف في اللغة هو قول باطل". (1742).

وكذلك فإنه قد روي عن جماعة من أهل اللغة قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

وقد روي عن أبي العباس ثعلب–رحمه الله–(ت: ٢٩١ هـ) أنه قال: "استوى: أقبل عليه وإن لم يكن معوجاً، **{ثم استوى إلى السماء}** [البقرة 29]، و**{استوى على العرش}**: علا، واستوى الوجه: اتصل، واستوى القمر: امتلأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هذا الذي نعرفه من كلام العرب". (1743)

فبما تقدم من أقوال علماء اللغة يتضح لنا فساد زعم هؤلاء المعطلة وكذب ادعائهم بأن هذا القول مشهور في اللغة.

(1741) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (2/ 399).
(1742) مجموع الفتاوى (5/ 144، 149)
(1743) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (2/ 399-400).

وأما ما استدل به هؤلاء من أبيات، كقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ولادم مهراق

وقول آخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا على عرش الملوك بغير زور

فهذان البيتان لم يثبت نقل صحيح على أنهما شعر عربي وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروهما.

قال ابن فارس–رحمه الله–٣٩٥ هـ): "هذان البيتان لا يعرف قائلهما". (1744)

فهما على هذا بيتان مصنوعان، ومعلوم أنه لو احتج بحديث رسول الله–صلى الله عليه وسلم– لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده وقد طعن فيه أئمة اللغة.

قال أبو عمر بن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "وأما ادعائهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى: استولى، فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه أحد ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى إتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عز وجل أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطبتها، مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه، قال أبو عبيدة في قوله تعالى: **{استوى}** قال: وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى: أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد". (1745)

(1744) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١٢٨).

(1745) التمهيد (7/ 131).

وأما ما استدل به المعطلة من قول ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ) فقد بين ابن عبد البر أنه مكذوب على ابن عباس ورواته مجهولون وضعفاء كما تقدم ذكره.

القول الثاني:

أن معنى استوى: أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه كقوله تعالى **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** [فصلت: الآية: 11]، أي عمد إلى خلق السماء.

وهذا هو قول بعض الجهمية (1746)، وإليه ذهب **الفراء (ت: ٢٠٧ هـ)، والأشعري (ت: ٣٢٤ هـ)، وابن الضرير (ت: ٢٠٩ هـ)، واختاره الثعلبي (ت: ٤٢٧ هـ)** (1747).

الرد عليهم:

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا الوجه من أضعف الوجوه، فإنه قد أخبر أن العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض.

وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن **عمران–رضي الله عنهما–(ت: ٥٢ هـ)** عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال: ((**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء** ...))، فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له؟!

هذا لو كان يعرف في اللغة أن استوى على كذا، بمعنى أنه عمد إلى فعله، فكيف إذا كان لا يعرف قط في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ولا في نظم ولا في نثر.

ومن قال استوى بمعنى عمد ذكره في قوله **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}** [فصلت: الآية: ١١] لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا وقصدت إلى كذا، ولا يقال عمدت على كذا

(1746) مختصر الصواعق (2/ 126).

(1747) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (2/ 8-9).

ولا قصـدت عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضـاً ولا هو قول أحد من مفسـري السلف، بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك". (1748)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن قولهم هذا يتضـمن أن يكون خلقه بعد خلق السـموات والأرض، وهذ بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دل عليه القرآن والسـنة، وإن ادعى بعض الجهمية المتأخرين أنه خلق بعد خلق السـموات والأرض وادعى الإجماع على ذلك، وليس العجيب من جهله، بل من إقدامه على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم". (1749)

القول الثالث:

أن استوى بمعنى علا في هذه الآية، ولكن ليس المراد علو المسافة والمكان، وإنما المراد علو المكانة والقهر، وقد ذهب إلى هذا القول جماعة من الأشـاعرة منهم **أبو بكر بن فورك (ت: ٤٠٦ هـ)** (1750)، وهم بهذا القول جعلوا الاستواء صفة ذات وليست صفة فعل.

الرد عليهم:

أن الآيات والأحاديث قد أثبتت اسـتواء الله على العرش حقيقة، ولو كان معنى الاسـتواء ههنا المراد به علو المكانة فإن الله لم يزل متعالياً على الأشـياء قبل خلق العرش، فلما أضـاف الاسـتواء على العرش فيجب على ذلك أن يكون لهذا التخصيص فائدة. (1751)

القول الرابع:

وهو قول من يثبت الاستواء على أنه صفة للعرش وليس صفة لله تعالى.

(1748) مجموع الفتاوى (5/ 520-521).

(1749) مختصر الصواعق المرسلة (2/ 143).

(1750) كتاب مشكل الحديث لابن فورك (ص: 193)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص: 518).

(1751) المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي بعلى (ص: 54).

وأصحاب هذا القول يقولون: أن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قرباً فيصير مستوياً عليه من غير أن يقوم به -أي بالله-فعل اختياري.

وهذا القول هو ما يقول به **ابن كلاب (ت: بعد ٢٤٠ هـ)**، **والأشعري (ت: ٣٢٤ هـ)** (1752)، وأئمة أصحابه المتقدمين **كالباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ)** وغيره، وهو أيضاً قول **القلانسي (ت: ٥٥٥ هـ)**، ومن وافق هؤلاء من أتباع الأئمة وغيرهم من أصحاب الإمام أحمد **كالقاضي أبي يعلى (ت: ٤٥٨ هـ) وابن الزاغوني (٥٢٧ هـ) وابن عقيل (ت: ٥١٣ هـ)** في كثير من أقواله (1753).

والسبب الذي جعل هؤلاء القوم يمنعون جعل الاستواء صفة لله تعالى هو قولهم بنفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه وتعالى ولذلك يجعلون أفعاله اللازمة لذاته -كالنزول والاستواء-كأفعاله المتعدية -كالخلق والإحسان-، وقولهم في نفي الأفعال الاختيارية راجع إلى قولهم في صفات الله.

وهم يقولون: "إن الله هو الموصوف بالصفات، لكن ليست الصفات أعراضاً، إذ هي قديمة أزلية". (1754)

وحجتهم في منع قيام الحوادث بذات الله تعالى أنهم يقولون: "إن كل ما صح قيامه بالباري تعالى فإما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فإن كان صفة كمال استحال أن يكون حادثاً، وإلا كانت ذاته قبل اتصافه بتلك الصفة خالية من صفة الكمال، والخالي من الكمال الذي هو ممكن الاتصاف به ناقص، والنقص على الله محال بإجماع الأمة.

(1752) هذا القول لأبي الحسن الأشعري قاله عندما كان على قول ابن كلاب من نفي الأفعال الاختيارية عن الله تعالى.

(1753) مجموع الفتاوى (5/ 466،437،386)، (16/ 393).

الأسماء والصفات (ص: 517).

اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 64،65).

(1754) مجموع الفتاوى (6/ 36).

وإن لم يكن صفة كمال استحال اتصاف الباري بها لأن إجماع الأمة على أن صفات الباري بأسرها صفات كمال، فإثبات صفة لا من صفات الكمال خرق للإجماع وهو أمر غير جائز". (1755)

الرد عليهم:

لقد اعتمد أصحاب هذا القول في منعهم كون الاستواء صفة لله تعالى على حجة منع قيام الحوادث بذاته تعالى، وهي حجة واهية وقد رد عليها ابن تيمية بقوله: "إن المقدمة التي اعتمد عليها هؤلاء وهي قولهم: إن الخالي من الكمال الذي يمكن الاتصاف به ناقص. فيقال لهم: معلوم أن الحوادث المتعاقبة لا يمكن الاتصاف بها في الأزل، كما لا يمكن وجودها في الأزل، وعلى هذا فالخلو عنه في الأزل لا يكون خلواً عما يمكن الاتصاف به في الأزل.

ثم إنه لم يثبت امتناع ما ذكر من النقص بدليل عقلي ولا بنص من كتاب ولا سنة، بل بما ادعوه من إجماع، وإذاً فمعلوم أن المنازعين في اتصافه بذلك هم من أهل الإجماع فكيف يحتج بالإجماع في مسألة النزاع.

وقولهم بإجماع الأمة على أن صفاته صفات كمال، فإن قصد بذلك صفاته اللازمة لم يكن في هذا حجة لهم، وإن قصد بذلك ما يحدث بمشيئته وقدرته لم يكن هذا إجماعاً فإن أهل الكلام يقولون إن صفة الفعل ليست صفة كمال ولا نقص والله موصوف بها بعد أن لم يكن موصوفاً.

ثم إن هذ الإجماع الذي ادعوه حجة عليهم فإنا إذا عرضنا على العقول موجودين: أحدهما يمكنه أن يتكلم ويفعل بمشيئته كلاماً وفعلاً، والآخر لا يمكنه ذلك، بل لا يكون كلامه إلا غير مقدور ولا مراد أو يكون بائناً عنه، لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل من الثاني.

وكذلك إذا عرضنا على العقول موجودين من المخلوقين أو مطلقاً أحدهما يقدر على الذهاب والمجيء والتصرف بنفسه والآخر لا يمكنه ذلك لكانت العقول تقصي بأن الأول أكمل

(1755) انظر كتاب ابن تيمية السلفي (ص: 130).

فنفس ما به يعلم أن اتصافه بالحياة والقدرة صفات كمال، به يعلم أن اتصافه بالأفعال والأقوال الاختيارية التي تقوم به والتي يفعل بها المفعولات المباينة له صفات كمال". (1756)

وكذلك مما يرد به على هذا القول ما قاله ابن القيم: (إنه لو كان الاستواء عائداً على العرش لكانت القراءة برفع العرش، ولم تكن بخفضه، فلما كانت بخفض العرش دل على أن الاستواء عائد إلى الله تعالى". (1757)

ب–الفريق الثاني: القول بالتفويض.

ويذهب أصحاب هذا القول إلى إثبات لفظ الاستواء فقط مع التوقف في المعنى المراد، فهم يقولون: إن الاستواء ثابت في القرآن حيث إنه قد ورد في سبع آيات، وكذلك قد وردت به الأخبار الصحيحة وقبوله من جهة التوقف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز وهو استواء لا نعلمه. (1758)

وقد ذهب إلى هذا القول **البيهقي–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ)** في كتابه الاعتقاد. (1759) وهو أحد قولي **الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ)**. (1760)

وهؤلاء في الحقيقة ينفون صفة الاستواء، ولكن يتوقفون في المعنى الذي على زعمهم يجب تأويل اللفظ إليه.

(1756) الموافقة بين صريح العقل وصحيح النقل (2/ 73-175)، ط: دار الكتب.
(1757) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 64-65).
(1758) الاعتقاد للبيهقي (ص: 115).
(1759) المصدر السابق.
(1760) تلخيص المحصل (ص: 114).

وقد زعم كثير من الأشاعرة أن القول بالتفويض هو قول السلف. (1761)

ويستدلون على نسبة هذا القول إلى السلف بعبارات نقلت عن السلف ظنوا أنها ترمي إلى القول بالتفويض كقول الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ): "كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا".

وقول ربيعة بن عبد الرحمن-رحمه الله-(ت: ١٣٦ هـ)، **والإمام مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)**: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب".

والقول بالتفويض هو مقصود هؤلاء القوم في قولهم: (إن طريقة السلف أسلم)، حيث إنهم ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}** [البقرة: الآية: 78].

الرد عليهم:

معلوم أن نسبة هذا القول إلى السلف إنما هي محض كذب وافتراء ومن نسب هذا القول إلى السلف فإنما هو جاهل بطريقة السلف الذين لم يقولوا بهذا القول، ولم يرد عن واحد منهم أنه فوض معنى الاستواء، بل أن الوارد عنهم جميعاً أنهم يفسرون الاستواء بالمعنى المراد وهو العلو والارتفاع على العرش ويؤمنون بأن الله مستو على العرش حقيقة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف، أما في كثير من الصفات فقطعاً مثل أن الله فوق العرش فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما قصدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك". (1762)

(1761) الاعتقاد للبيهقي (ص: 117)، الإتقان في علوم القرآن (2/ 6)، مناهل العرفان (2/ 183-183)، تحفة المريد (ص: 91-92)، شرح الخريدة البهية (ص: 75)، الأسماء والصفات (ص: 517).

(1762) الفتوى الحموية (ص: 64).

وقال في موضع آخر: "وقد فسر الإمام أحمد النصوص التي نسميها متشابهات فبين معانيها آية آية، وحديثاً حديثاً ولم يتوقف فيها هو والأئمة قبله مما يدل على أن التوقف عن بيان معاني آيات الصفات وصرف الألفاظ عن ظواهرها لم يكن مذهباً لأهل السنة وهم أعرف بمذهب السلف، وإنما مذهب السلف إجراء معاني آيات الصفات على ظاهرها بإثبات الصفات له حقيقة وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني لا تحرف ولا يلحد فيها". (1763)

ويقول ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنة والكيفية". (1764)

وأما بالنسبة إلى ما استدل به أصحاب هذا القول على أن القول بالتفويض هو مذهب السلف وذكرهم **لقول الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)**: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، فليس المراد ههنا تفويض معنى الاستواء ولا نفي حقيقة الصفة، ولو كان المراد الإيمان بمجرد اللفظ من غير فهم على ما يليق بالله لما قال (الكيف مجهول)، لأنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى. (1765)

والاستواء على هذا المعنى لا يكون معلومًا، بل هو مجهول بمنزلة حروف المعجم، لكن الأمر على عكس ذلك، فنفي علم الكيفية لأنه أثبت الصفة وأراد بقوله الاستواء معلوم معناه في اللغة التي نزل بها القرآن فعلى هذا يكون معلوماً في القرآن.

ومعلوم أن ادعاء هؤلاء أن مذهب السلف إنما هو القول بالتفويض سببه اعتقاد هؤلاء أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر –كان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى–فبقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى وبين صرف اللفظ إلى

(1763) مجموع الفتاوى (17/ 414).
(1764) مختصر الصواعق (1/ 15).
(1765) الفتوى الحموية (ص: 25).

معان بنوع من التكلف، وهذا التردد هو الذي وقع فيه من قال بالتفويض من هؤلاء كالبيهقي والرازي، فهم لم يلتزموا بهذا القول مطلقاً، بل غالباً ما يخالفونه كما فعل الرازي في تأسيسه حيث جنح إلى التأويل وترك القول بالتفويض.

ج-الفريق الثالث: قول المشبهة.

والمقصود بهم الهشامية (1766) من الروافض، والكرامية (1767)، وغيرهم.

وهؤلاء يثبتون استواء الله وارتفاعه فوق عرشه، إلا أنهم تعمقوا في الكلام على كيفية ذلك الاستواء.

فالهشامية مثلاً يقولون إن الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء في العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه. (1768)

وأما الكرامية فقد تعددت أقوالهم في كيفية استوائه:

فمنهم من يقول: إنه على بعض أجزاء العرش.

ومنهم من يقول: إن العرش مكان له وأن العرش امتلأ به.

ومنهم من يقول: إنه لو خلق بإزاء العرش عروشاً موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكاناً له لأنه أكبر منها كلها.

ومنهم من يقول: أن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولا بالجواهر لاتصلت به. (1769)

(1766) هم أصحاب هشام بن عبد الحكم الرافضي من الإمامية، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقي أحيانًا، من الإمامية المشبهة. انظر المقالات (1/ 31-34)، الملل والنحل (1/ 144-147).

(1767) هم أصحاب محمد بن كرام وهم طوائف يبلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة وأصولها ستة هي: العابدية، والنونية، والزرينية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية. انظر الملل والنحل (1/ 144-147).

(1768) الملل والنحل (2/ 22).

(1769) الملل والنحل (1/ 144-147).

وقول هؤلاء المشبهة إنما هو نتيجة لازمة لأقوالهم في صفات الله وكلامهم في ذاته.

فالهشـــامية يقولون: "إن الله جســـم ذو أبعاض له قدر من الأقدار، ولكن لا يشـــبه شـــيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء".

ونقل عنهم أنهم قالوا إنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وأن له مكاناً مخصوصاً ووجهة مخصوصة وأنه يتحرك وحركته فعله، وليست من مكان إلى مكان وهو متناه بالذات غير متناه بالقدرة، وأنه مماس لعرشه ولا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه". (1770)

وأما الكرامية **فيقول ابن كرام (ت: ٢٥٥ هـ)**: "إن معبوده مستقر على العرش استقراراً وأنه بجهة فوقَ ذاتاً وأنه أُحدي الذات أُحدي الجوهر وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا".

ولهم في معنى العظم خلاف فقال بعضـــهم: "إنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته وهو فوقه كله على الوجه الذي هو فوق جزء منه.

وقال بعضـــهم: أنه يلاقى مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقى جميع أجزاء العرش وهو العلي العظيم.

وقالت المهاجرية منهم: إنه لا يزيد على عرشه في جهة المماسة ولا يفضل منه شيء على العرش، وهذا يقتضي أن يكون عرضه كعرض العرش.

وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق وأنه محاذ للعرش". (1771)

الرد عليهم:

هذا القول للمشبهة يتضمن حقًا وباطلًا.

فالحق فيه هو: اعترافهم بعلو الله واستوائه على عرشه وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون عنه.

وأما الباطل فهو: كلامهم في ذات الله والتعرض لكيفية استوائه، وهو كلام باطل وفاسد ليس لهم به دليل من القرآن أو السنة، بل هو قول على الله بغير علم فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على كيفية ذاته

(1770) الملل والنحل (2/ 22).

(1771) انظر كتاب التجسيم عند المسلمين (ص: 205).

فأنّى لنا أن نعلم كيفية صفاته، وأمر الكيفية هو مما استئثر الله بعلمه قال تعالى **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** [البقرة: الآية: 255].

ومما يدلنا على فساد هذا القول وعدم وجود دليل لأصحابه على ما يقولون هو اختلاف أرائهم وأقوالهم عند الحديث عن ذات الله وكيفية استواءه، فمن خلال عرض أقوالهم يتضح اختلافهم وتناقضهم، وما ذاك إلا أنهم يفترون على الله الكذب قال تعالى **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}** [النساء: الآية: 82].

والسؤال الذي ينبغي أن يوجه إلى هؤلاء المشبهة في هذا المقام هو: أين الدليل من الكتاب أو السنة على ما تزعمون؟

والجواب معروف وهو أنه لا دليل لهم على ذلك لا من القرآن ولا من السنة.

ومما ينبغي معرفته أن الكلام على كيفية ذات الله أو كيفية استوائه أو غيرها من الصفات هو أمر غير جائز عند السلف ويحرم الخوض فيه، بل يبدعون السائل عن ذلك ولذلك بدع الإمام مالك السائل الذي سأله عن كيفية استواء الباري عز وجل، حيث قال له: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وما أراك إلا رجل سوء، وأمر بإخراجه"، وما قاله الإمام مالك هو الذي جاءت به النصوص وهو الذي سار عليه السلف جميعاً.

المسألة الثالثة: التعريف بالعرش والأقوال فيه.

أولًا: التعريف بالعرش.

المعنى اللغوي لكلمة العرش، **قال ابن فارس–رحمه الله–(ت:٣٩٥ هـ)** ""عرش" العين، والراء، والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، ثم يستعار في غير ذلك). (1772).

(1772) معجم مقاييس اللغة (4/ 264).

والعرش في كلام العرب يطلق على عدة معاني:

1-سرير الملك:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "العرش: السرير للملك". (1773).

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "والعرش في كلام العرب: سرير الملك، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ، سماه الله جل وعز عرشاً فقال {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: الآية 23]". (1774)

2-سقف البيت:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ)، والجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "عرش البيت: سقفه". (1775)

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "والعرش من البيت سقفه ومنه الحديث ((**أو كالقنديل المعلق بالعرش**)) يعني: السقف، وفي حديث آخر: ((**كنت أسمع قراءة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-على عرشي**)). (1776) أي: سقف بيتي، وبه فسر قوله تعالى **{وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا}** [البقرة: الآية: 259]، أي: صارت على سقوفها كما قال عز من قائل: **{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}** [الحجر: الآية: 74]، أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدمت سقوفها فصارت في قرارها وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد وهي المنقلعة من أصولها". (1777)

(1773) كتاب العين (1/ 291).

(1774) تهذيب اللغة (1/ 413).

(1775) كتاب العين (1/ 291)، الصحاح (ص: 722).

(1776) أخرجه النسائي (1013) باختلاف يسير، وابن ماجه (1349)، وأحمد (26905) واللفظ لهما.

(1777) تاج العروس (4/ 321).

3-ركن الشيء:

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "والعرش ركن الشيء، قاله الزجاج والكسائي، وبه فسر قوله تعالى {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا}، أي وخرت على أركانها". (1778)

4-الملك:

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "قال: والعرش الملك، يقال: ثل عرشه، أي زال ملكه وعزه.

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل". (1779)

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "قال **ابن الأعرابي-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ)**: العرش الملك، بضم الميم، وهو كناية...". (1780)

5-قوام أمر الرجل:

قال ابن فارس-رحمه الله-(ت:٣٩٥ هـ): "استعيرت كلمة عرش هنا، فقيل لأمر الرجل وقوامه: عرش، وإذا زال عنه ذلك، قيل: ثل عرشه.

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل".

(1778) تاج العروس (4/ 321).

(1779) تهذيب اللغة (1/ 414).

(1780) تاج العروس (4/ 321).

.(1781)

وقال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "قولهم: ثل عرشه أي: عدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وهي أمره، وقيل: ذهب عزه، ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه رُئي في المنام، فقيل له: ما فعل بك ربك؟ قال: لولا أن تداركني لثل عرشي". (1782)

6-عرش السماك:

قال ابن فارس–رحمه الله–(ت:٣٩٥ هـ): "ويقال: أن عرش السماك، أربعة كواكب، أسفل من العواء على صورة النعش، ويقال: هي عجز الأسد، قال ابن أحمر:

باتت عليه ليلة عرشية شربت وبات إلى نقا متهدم.". (1783)

7-عرش البئر:

وقال الأزهري–رحمه الله–(ت: ٣٧٠ هـ): "وقال أبو عبيد: قال أبو زيد: بئر معروشة، وهي التي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ثم يطوى سائرها بالخشب وحده، فذلك الخشب هو العرش، يقال منه: عرشت البئر، أعرشها، فإذا كانت كلها بالحجارة فهي مطوية وليست بمعروشة.

وقال غيره: المثاب: مقام الساقي فوق العروش، ومنه قول الشاعر:

وما لم ثابات العروش بقية إذا استل من تحت العروش الدعائم

وقال ابن الأعرابي–رحمه الله–(ت: ٢٣١ هـ): العرش بناء فوق البئر يقوم عليه الساقي، وأنشد

(1781) معجم مقاييس اللغة (4/ 264) -بتصرف-.

(1782) تاج العروس (4/ 321).

(1783) معجم مقاييس اللغة (4/ 267)

-أكل يوم عرشها مقيل-". (1784)

8-عرش القدم:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "العرش في القدم، ما بين الحمار والأصابع من ظهر القدم، والحمار: المرتفع من ظهر القدم، وجمعه: عرشه وأعراش". (1785)

وقال ابن الأعرابي-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ): (ظهر القدم: العرش، وباطنه: الأخمص". (1786)

قلت: ومن المعلوم أن معرفة كل معنى من تلك المعاني إنما يتحدد بحسب ما أضيف إلى الكلمة، والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني السابقة، هو سرير الملك، ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قد جاءت معينة لهذا المعنى وحده دون غيره من المعاني، وهذا ما سيأتي بيانه.

أما زعم الجهمية بأن معنى العرش في قوله تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، يحتمل عدة معاني، فلا يعرف أي هذه المعاني هو المراد؟

فقد أجاب عنه **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)** بقوله: "هذا تلبيس منك على الجهال، وكذب ظاهر، فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معانٍ، فاللام للعهد وقد صار بها العرش معيناً، وهو عرش الرب تعالى الذي هو سرير ملكه، التي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا من نابذ الرسل...". (1787)

(1784) تهذيب اللغة (1/ 416).

(1785) كتاب العين (1/ 293).

(1786) لسان العرب (4/ 2882).

(1787) مختصر الصواعق المرسلة (1/ 17-18).

ثانيًا: تعريف العرش شرعًا:

وأما تعريف العرش شرعًا فقد اختلف فيه إلى مذاهب

أولاً: مذهب السلف:

قال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ) عند قوله تعالى: **{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ}** [الزمر: الآية: 75] (يعني بالعرش: السرير)، ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: "محدقين حول العرش قال: العرش: السرير". (1788)

قال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ) في موضع آخر **{ذُو الْعَرْشِ}** [غافر 15] يقول: "ذو السرير المحيط بما دونه". (1789)

وقال البيهقي–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة، وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه". (1790)

وقال أيضاً: (العرش هو السرير المشهور فيما بين العقلاء). (1791)

وقال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات". (1792)

(1788) تفسير الطبري (24/ 37-38).

(1789) تفسير الطبري (24/ 49).

(1790) الأسماء والصفات (2/ 272).

(1791) الاعتقاد (ص: 112).

(1792) البداية (1/ 12).

وقال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ)، –بعد أن ذكر سرر أهل الجنة–: "فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته، وقوائمه وماهيته وحملته، والكروبيين الحافين من حوله، وحسنه ورونقه وقيمته، فقد ورد أنه من ياقوتة حمراء". (1793)

قلت: وهذا الذي ذكره الطبري والبيهقي وابن كثير والذهبي في تعريف العرش، هو الذي جاءت به الآيات والأحاديث والآثار، وهو ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها في عرش الله، فهم يعتقدون أن عرش الرحمن هو:

❁ سرير:

قال ابن قتيبة–رحمه الله–٢٧٦ هـ): "وطلبوا للعرش معنى غير السرير، والعلماء في اللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير، وما عرش من السقوف وأشباهها، قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق النـ ... ـاس وسوى فوق السماء سريرا

شرجعاً لا يناله بصر العيـ ... ـن ترى دونه الملائك صورا". (1794)

قال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل: الآية: 23]. وليس هو فلكًا ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم...". (1795)

❁ وأنه ذو قوائم:

قال شارح الطحاوية (ت: ٧٩٢ هـ): "قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال–

(1793) العلو (ص: 57).

(1794) الاختلاف في اللفظ (ص: 240).

(1795) البداية (1/ 11-12).

صلى الله عليه وسلم-: ((**فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور**)). (1796) (1797).

❁ وأنه مخلوق:

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "قوله: **{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [التوبة: الآية: 129]، إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق... وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق". (1798).

❁ وأن الله سبحانه قد أمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه:

قال تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}** [غافر: الآية: 7]، وقال تعالى: **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** [الحاقة: الآية: 17].

وعن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-(ت: مابين ٧٣ و٧٧ هـ) عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**)). (1799)

❁ وهو أعلى المخلوقات، وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة:

(1796) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي. انظر فتح الباري (5/ 70). ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل (4/ 101-102).

(1797) شرح العقيدة الطحاوية (ص: 310-311).

(1798) فتح الباري (13/ 405).

(1799) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (5/ 96، ح: 4727).
أورده ابن كثير في تفسير (4/ 414) وعزاه لابن أبي حاتم وقال: (إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات).

وقال ابن أبي زمنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ) في كتابه "أصول السنة": "ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق...". (1800)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): (واما العرش فإنه مقبب، لما روي في السنن لأبي داود عن جبير بن مطعم قال: ((أتى رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أعرابي فقال: يا رسول جهدت الأنفس، وجاع العيال –وذكر الحديث إلى أن قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: إن الله على عرشه وإن عرشه على سمواته وأرضه كهكذا)). (1801) وقال بأصابعه مثل القبة... وفي علوه قوله–صلى الله عليه وسلم–: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلاها وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)).

(1800) أصول السنة (ص: 88).

(1801) الحديث أخرجه كذلك الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: 447). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 252). وابن خزيمة في التوحيد (1/ 239-240، ح: 147). والطبراني في المعجم الكبير (2/ 132، برقم 1547). وأبو الشيخ في العظمة (2/ 554-556، ح: 198). والدارقطني في الصفات (ص: 51، ح: 38). وابن منده في التوحيد (1/ 188، برقم: 643). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (3/ 394). والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 317-318، ح: 883).

وقد تكلم بعض الأئمة على هذا الحديث: فقال الذهبي في العلو (ص: 39): "هذا الحديث غريب جداً فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أم لا؟ وأما الله فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره" انتهى كلامه. واستغربه الحافظ ابن كثير في تفسير آية الكرسي من تفسيره (1/ 310). ثم إن في إسناده اختلافاً.

هذا وقد تكلم ابن القيم في تهذيب السنن (7/ 95-117) بكلام طويل نصر فيه تصحيح الحديث، ورد المطاعن التي طعن بها هذا الحديث، وبخاصة عن ابن إسحاق.

والصواب أن هذا الحديث بهذا الإسناد ضعيف، ولا سيما أن جبير بن محمد قال فيه الحافظ ابن حجر: "مقبول" يعني إذا توبع ولم يتابع هنا.

التعليق: منهج السلف في إيراد مثل هذه الأحاديث التي في إسنادها مقال إنما هو من باب التأكيد لا من باب التأييد، وهذا الحديث إنما ساقه الكثير من السلف لما فيه من تواتر علو الله تعالى فوق عرشه مما يوافق آيات القرآن والأحاديث الصحيحة".

(1802)

فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلى المخلوقات، وسقفها، وأنه مقبب...". (1803)

وفي حديث **أبي ذر–رضي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)** المشهور قال: قلت يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: ((آية الكرسي، ثم قال: يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)). (1804)

وهذا القول للسلف في عرش الله هو ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة، وقد كان سلف الأمة وأئمتها دائماً يصرحون بذلك في كتبهم عند الحديث عن هذه المسألة.

وقد وافقهم في هذا القول في عرش الله الكلابية، والكرامية، ومتقدمو الأشاعرة، وبعض الجهمية، والمعتزلة. (1805)

(1802) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء}. انظر فتح الباري (13/ 404).

(1803) الفتاوى (5/ 151).

(1804) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (58).

وابن حبان في صحيحه (1/ 76-79).

وأبو الشيخ في العظمة (2/ 648-649، ح: 259).

وأبو نعيم في الحلية (1/ 166).

والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 300-301، ح: 862).

وللحديث أيضاً طرق أخرى ذكرها الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (109)، وقال: "وجملة القول إن الحديث بهذه الطرق صحيح"، وصححه أيضاً في تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية (ص: 312)، وتخريجه لأحاديث كتاب "ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان" للألوسي (ص: 140).

وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري (13/ 411) عن ابن حبان تصحيح الحديث وقال: "وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره بسند صحيح عنه".

(1805) شرح أصول الخمسة (ص: 226)، أصول الدين للبغدادي (ص: 112)، الفرق بين الفرق (ص: 215-216)،

ثانياً: أقوال المخالفين

القول الأول:

ما زعمه طائفة من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية (1806)، وعامة متأخري الأشاعرة (1807)، من أن معنى العرش في قوله تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، هو الملك.

قال الدارمي–رحمه الله–(ت: ٢٨٠ هـ) في كتابه "الرد على الجهمية": (باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة. فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون به، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان **{الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ}** [المائدة: الآية: 41]، وكالذين **{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** [البقرة: الآية: 14]، أتقرون أن لله عرشاً معلوماً، موصوفاً فوق السماء السابعة، تحمله الملائكة، والله فوقه كما وصف نفسه، بائن من خلقه! فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب وخلط ولم يصرح.

قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن سمى ذلك كله عرشاً له، واستوى على جميع ذلك كله". (1808).

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)، –في سياق كلامه على حملة العرش–: "ثم إن قوله تعالى **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}** [غافر: الآية: 7]، وقوله **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** [الحاقة: الآية: 17]، يوجب أن لله عرشاً يحمل، يوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك، كما

شرح جوهرة التوحيد (ص: 181)، نقض التأسيس (1/ 396، 2/ 14-15).

(1806) هم أتباع أبو منصور، محمد بن محمد الماتريدي، السمرقندي.

انظر قولهم في هذه المسألة في "تأويلات أهل السنة" للماتريدي (1/ 85).

(1807) التبصير في الدين للإسفراييني (158).

(1808) الرد على الجهمية (ص: 12-13).

تقوله طائفة من الجهمية". (1809)

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "إنه لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالو: استوى فلان على العرش يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضاً في شهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه، وإن كان أشرح، وأبسط، وأدل، على صورة الأمر". (1810)

وقال البغدادي، (ت: ٤٢٩ هـ): "والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على معنى الملك، كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره، وهذا التأويل مأخوذ من قول العرب: ثُلَّ عرش فلان، إذا ذهب ملكه، قال متمم بن نويرة في هذا المعنى:

عروشٌ تفانوا بعد عز وأمة هووا بعد ما نالوا السلامة والبقا

وأراد بالعروش، ملوكاً انقرضوا.

وقال سعيد بن زائدة الخزاعي في النعمان بن المنذر:

قد نال عرشاً لم ينله حائل جن ولا إنس ولا ديار

وأراد بالعرش، الملك والسلطان.

وقال النابغة:

بعد ابن جفنة وابن هاتك عرشه والحارثين يؤمنون فلاحا

وأراد بهاتك عرش ابن جفنة سالب ملكه، فصح بهذا تأويل العرش على الملك في آية الاستواء على

(1809) نقض تأسيس الجهمية (٣/ ٢٧٨).

(1810) الكشاف (2/ 530).

ما بيناه". (1811)

الرد عليهم:

ما ذهب إليه هؤلاء المخالفون من تفسير معنى العرش الوارد في الآيات بمعنى الملك، إنما هو تأويل باطلٌ، وصرف للفظ عن معناه إلى معنى آخر لا يحتمله.

والمتأمل لهذا القول يرى ما فيه من التلبيس والمخالفة.

فقد سبق أن ذكرنا في المبحث اللغوي لكلمة (عرش)، أن لهذه الكلمة عدة معاني في اللغة العربية، ومن المعلوم أن معرفة المعنى المراد من تلك المعاني لهذه الكلمة أو غيرها، إنما يتحدد بحسب سياق الكلمة وبحسب ما أضيفت إليه، وليس في سياق الآيات ما يثبت صحة ما ذهبوا إليه، كما أن ما استدل به هؤلاء المخالفون من الأبيات الشعرية ليس إلا دليلا على أن الملك هو من المعاني اللغوية لكلمة (عرش)، وهذا أمر لا خلاف فيه، وهذا الاستدلال يماثل ما لو استدللنا على أن من معاني كلمة العرش: السقف، بقوله تعالى {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا} [البقرة: الآية: 259]، فليس في هذه الأبيات أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد على أن الملك هو المعنى المراد في الآيات الواردة في العرش، بل إن المتأمل للآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة يرى أنها تدل دلالة واضحة وصريحة على أن المراد بالعرش هو ذلك المخلوق العظيم الذي خلقه الله تعالى فوق العالم كله، ثم استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وكذلك ترد على هؤلاء المخالفين زعمهم الباطل الذي هو في الحقيقة تحريف لكلام الله.

فيا ترى ماذا يصنع ذلك المخالف الذي يزعم أن العرش إنما هو كناية عن الملك والسلطان بقوله تعالى: **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}** [هود: الآية: 7]، هل يزعم أن الملك كان على الماء؟

وكذلك ماذا يصنع بقوله تعالى: **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** [الحاقة: الآية: 17]، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟

(1811) أصول الدين (ص: 112). وانظر أيضاً التفسير الكبير للرازي (14/ 115)، وروح المعاني (11/ 65).

وقوله-صلى الله عليه وسلم-: ((**فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش**". (1812) أيقول آخذ بقائمة من قوائم الملك؟ وكذا قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((**اهتز عرش الرحمن**)). (1813)، أيقول: اهتز ملكه وسلطانه؟

القول الثاني:

زعم طائفة من الفلاسفة أن العرش فلك مستدير من جميع الجوانب محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدود الجهات، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، أو الأثير، أو الفلك الأعلى. (1814)

وفي ذلك يقول **ابن سينا (ت: ٤٢٧ هـ)** في رسالته " إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم": "ومن السهل عليك أن تفهم كيف أن العرش بنص القرآن يحمله ثمانية، فهذه الثمانية هي: الثمانية أفلاك التي تحت هذا الفلك المحيط". (1815)

الرد عليهم:

إن المتأمل لكلام هؤلاء الفلاسفة كابن سينا وأمثاله يرى مدى انحرافهم، حتى أنهم وصلوا إلى درجة اعتقادهم أنه لا موجود إلا ما علموه.

(1812) تقدم تخريجه في (ص: 7).

(1813) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (2/ 371).

وأحمد في المسند (3/ 316)، وفي فضائل الصحابة (2/ 818).

والبخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه، مثله. فتح الباري (7/ 122-123).

ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة (7/ 150).

وابن ماجة في سننه، المقدمة (1/ 56).

(1814) البداية (1/ 11)، الرسالة العرشية (ص: 2)، مفردات (ص: 329)، روح المعاني (24/ 45).

(1815) نقلاً عن كتاب "ابن سينا بين الدين والفلسفة" (ص: 137-139).

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار، صاروا حائرين ومتأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه وعلى ما تعلموه، وإن كان هذا التأويل لا دليل لهم عليه سوى ظنهم الفاسد بأنه لا موجود إلا ما عرفوه، فقالوا العرش هو: الفلك التاسع، والكرسي هو: الفلك الثامن، فنفوا ما ليس لهم به علم (1816) فانطبق عليهم قوله تعالى: **{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}** [يونس: الآية: 39].

وقد ثبت أنه ليس لهؤلاء دليل يتمسكون به لا من الشرع ولا من العقل، وأن الذي دفعهم إلى هذا القول هو أنهم نظروا في علم الهيئة وعلوم الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع وهو الأطلس محيط بها ومستدير كاستدارتها وهو الذي يحركها الحركة الشوقية، وأن لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ذكر عرش الله، وذكر السموات السبع، فقالوا بطريق الظن أن العرش هو الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق. (1817)

وهم معترفون بأنه لم يقم لديهم دليل عقلي على صحة قولهم هذا، وفي ذلك **يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "إن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، ومالم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلي يكسف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أن الأفلاك مختلفة حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك التدوير وغيره، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم... وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء

(1816) الفتاوى (17/ 335-336).

(1817) الرسالة العرشية (ص: 2-3).

أخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب وقولاً بلا علم". (1818)

ومع عدم وجود الدليل العقلي عند هؤلاء على صحة زعمهم فكذلك الأدلة الشرعية ترد زعمهم هذا وتبطله.

وقد ذكر ابن تيمية في معرض رده على هؤلاء الفلاسفة المتكلمين في رسالته العرشية أن الآيات والأحاديث قد دلت على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات وأن الله قد اختصه وميزه بأمور كثيرة منها، أن له حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن الله قد أخبر بوجوده قبل خلق السموات والأرض وقبل وجود الأفلاك وأن الله سبحانه تمدح نفسه بأنه ذو العرش، ووصف العرش بأنه مجيد، وعظيم، وكريم، فكل هذه الميزات والخصائص تبطل قول المنازع لأنه يقول بأن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، ذلك لأنه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكان إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر؛. (1819)

كما أن مما يدل على فساد قولهم ما ثبت في الشرع من أن للعرش قوائم وأنه يهتز، ومعلوم أن الأفلاك مستديرة وليس لها قوائم، كما أنها متحركة دائماً بحركة متشابهة لا تتغير، كما ثبت أيضاً أن العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك لا ثقيل ولا خفيف. (1820)

فعلم مما تقدم انتفاء الدليل العقلي عند هؤلاء كما علم مخالفتهم للأدلة الشرعية وإبطالها لأقوالهم، ويضاف إلى هذا مخالفتهم للغة العرب، فالعرب لا تفهم من كلمة العرش هذا المعنى ولا هو مستعمل في لغتها، والقرآن إنما نزل بما يفهمون.

وبعد هذا كله لا تبقى أدنى شبهة في فساد هذا القول وبطلانه والله أعلم.

(1818) الرسالة العرشية (ص: 2).

(1819) المصدر السابق (ص: 3-7).

(1820) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص: 363).

ثالثًا: الأدلة إثبات العرش

أ–الأدلة القرآنية على إثبات العرش.

لقد جاء ذكر عرش الرحمن في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً:

1–قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: الآية: 54]

2–وقال تعالى: **{فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [التوبة: الآية: 129].

3–وقال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}** [يونس: الآية: 3].

4–وقال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** [هود: الآية: 7].

5–وقال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ}** [الرعد: الآية: 2].

6–وقال تعالى: **{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا}** [الإسراء: الآية: 42].

7–وقال تعالى: **{الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5].

8-وقال تعالى: **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [الأنبياء: الآية: 22].

9-وقال تعالى: **{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [المؤمنون: الآية: 86].

10-وقال تعالى: **{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}** [المؤمنون: الآية: 116].

11-وقال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}** [الفرقان: الآية: 59].

12-وقال تعالى: **{اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [النمل: الآية: 26].

13-وقال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}** [السجدة: الآية: 4].

14-وقال تعالى: **{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الزمر: الآية: 75].

15-وقال تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}** [غافر: الآية: 7].

16-وقال تعالى: **{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}** [غافر: الآية: 16].

17-وقال تعالى: **{سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [الزخرف: الآية: 82].

18-وقال تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ**

مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: الآية: 4].

19-وقال تعالى: **{وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}** [الحاقة: الآية: 17].

20-وقال تعالى: **{ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}** [التكوير: الآية: 20].

21-وقال تعالى: **{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}** [البروج: الآية: 15].

ب-الأدلة من السنة على إثبات العرش

أورد **الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)**، في كتابه "العرش" جملة طيبة من الأحاديث والآثار الواردة في العرش وصفته، وفي هذا المبحث لن نذكر تلك الأحاديث والآثار التي أوردها لأنها ستأتي، وإنما سنورد ههنا بعض الأحاديث الصحيحة في العرش وصفته والتي لم يذكرها الذهبي في كتابه، وهذه الأحاديث كثيراً ما يوردها السلف في كتبهم ويستدلون بها لما فيها من الصحة والقوة ولما فيها من الصفات الدالة على عرش الخالق سبحانه وتعالى.

1-فقد جاء في الصحيحين **عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)** قال: **((بينا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ فقال: سمعته بالسوق يحلف والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث على محمد-صلى الله عليه وسلم-، فأخذتني غضبة فضربت وجهه، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان صعق أم حوسب بصعقته الأولى))**.[1821]

[1821] أخرجه البخاري في صحيحه (5/ 70 مع الفتح) كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين

والشاهد لنا من هذا الحديث قوله: ((فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش))، حيث إن للعرش قوائم، ولم يرد في الشرع تحديد عدد لها، وهذا الحديث هو من أقوى الأدلة على أن العرش ليس المراد به الملك أو الفلك التاسع.

2-وفي صحيح مسلم عن **عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)** قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: ((**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**)). (1822)

وفي الحديث دلالة واضحة على أن العرش كان مخلوقاً على الماء قبل خلق السموات.

3-وفي الصحيحين **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** قال: كان النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول عن الكرب: ((**لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**)). (1823)

4-وعن **ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، عن جويرية-رضي الله عنها-(ت: ٥٠ هـ)** أن النبي-صلى الله عليه وسلم-خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: ((**ما زلت على الحال التي فارقتك عليها**))، قالت: نعم، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**)). (1824)

المسلم واليهودي.

ومسلم في صحيحه (4/ 101-102) كتاب الفضائل.

(1822) أخرجه مسلم في القدر (8/ 51).

(1823) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، واللفظ له. فتح الباري (13/ 405)، ومسلم في الذكر والدعاء (8/ 85).

(1824) أخرجه مسلم في الذكر (8/ 83) واللفظ له، وأخرجه أبو داود في تخريج أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصى (2/

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان". (1825)

5–وعن **جابر بن عبد الله–رضي الله عنه–(ت: مابين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**)). (1826)

6–**وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٩ هـ)**، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة**)). (1827)

7–**وعن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**، قالت: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((**الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله**)). (1828)

8–**وعن أبي ذر–رضي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)**، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–لأبي ذر حين غربت الشمس: ((**أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن**

---

171)، وأخرجه الترمذي في الدعوات، وقال: (حديث حسن صحيح). (5/ 556).

(1825) الرسالة العرشية (ص: 8).

(1826) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (5/ 96، ح: 4727)، أورده ابن كثير في تفسير (4/ 414) وعزاه لابن أبي حاتم وقال: (إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات).

(1827) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. فتح الباري (13/ 404).

(1828) أخرجه مسلم في البر والصلة (8/ 7).

لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئتي فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: الآية: ٣٨])).(1829)

9-وفي الصحيحين **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٩ هـ)** قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي))**. (1830)

10-**وعن معاذ بن جبل-رضي الله عنه-(ت: ١٧ أو ١٨ هـ)**، قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: **((المتحابون في الله يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله))**. (1831)

رابعًا: صفة العرش وخصائصه

أولاً: خلق العرش وهيئته

إن أول صفة نذكرها لعرش البارئ سبحانه وتعالى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، ذلك لأن كل ما على الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى وأوجده، قال الله تعالى: **{ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [الأنعام: الآية: 102]، فكل شيء في هذا الكون مخلوق والعرش من ضمن هذا الكون فهو مخلوق أيضاً.

(1829) أخرجه البخاري في المغازي، باب صفة الشمس والقمر. فتح الباري (6/ 297).

(1830) أخرجه البخاري في بدء خلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وهو يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}. فتح الباري (6/ 287).

وأخرجه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله أنها سبقت غضبه. (8/ 95).

(1831) أخرجه أحمد في المسند (5/ 229، 236، 237).

وابن حبان (2510).

والحاكم (4/ 169-170).

وابن المبارك في الزهد (ص: 715) من طريقين صحيحين عنه.

وسلف الأمة وأئمتها يقولون إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى: **{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [التوبة: الآية: 129]، فالعرش موصوف بأنه مربوب وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله.

وقد دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}** [هود: الآية: 7]، فالآية تدل على أن العرش كان موجوداً على الماء قبل خلق السموات والأرض ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث **عمران بن حصين–رضي الله عنه–(ت: ٥٢ هـ)**، الذي جاء فيه أن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: ((**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**))[1832].

وأما مسألة خلق العرش فقد جاء ذكرها في حديث **أبي رزين العقيلي–رضي الله عنه–** قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: ((**كان في عما ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**))[1833].

(1832) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. فتح الباري (6/ 286، رقم: 3190).

(1833) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة هود (5/ 288، رقم: 3109). والإمام أحمد في مسنده (4/ 11–12). وابن أبي شيبة في العرش (ح: 7). وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (64/1). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 271). وابن جرير الطبري في تفسيره (12/ 4) وفي تاريخه (1/ 19). والحكيم الترمذي في الرد على المعطلة (ق: 106/ أ). وأبو الشيخ في كتاب العظمة (1/ 363–364، ح: 83). وابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية، 3/ 168، ح: 125). وابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: 89، ح: 31). والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 235–236، ح: 801 و303/2، ح: 864). قال الترمذي: حديث حسن. وقال الذهبي في العلو (ص: 19) إسناده حسن. وقال الألباني: "في تصحيحه نظر، فإن مداره على وكيع بن عدس ويقال حدس، وهو مجهول، لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، ولا وثقه غير ابن حبان".

هذه الأدلة التي استدل بها السلف على إثبات خلق العرش، فيها أبلغ الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، أو أنه لم يزل مع الله تعالى.

ولقد خالف السلف في قولهم هذا بعض أهل الكلام الذين زعموا أن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش، وهم بزعمهم هذا الذي لا دليل لهم عليه إنما يحاولون به إخراج الاستواء عن حقيقته في قوله تعالى **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: الآية: 54]، ليكون معنى الاستواء في الآية على زعمهم بمعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه، ذلك لأنهم لو سلموا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض لقيل لهم إنكم تزعمون أن (استوى) بمعنى استولى، فلماذا تأخر الاستيلاء إلى ما بعد خلق السموات مع أنه كان موجوداً قبل ذلك، فهم فراراً من هذا الأمر ادعوا أن العرش مخلوق بعد السموات والأرض.

وقد رد **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)** على زعمهم هذا بقوله: (إن هذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلاً، وهو مناقض لما دل عليه القرآن والسنة وإجماع المسلمين أظهر مناقضة، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء، وهذه واو الحال، أي خلقها في هذه الحال، فدل على سبق العرش والماء للسموات والأراضين وفي الصحيح عنه–صلى الله عليه وسلم–: ((**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**)). (1834)". (1835)

وكذلك فيما ذكرناه من أدلة على سبق خلق العرش للسموات والأرض فيه رد على زعم هؤلاء ومدى مخالفة قولهم للكتاب والسنة.

وبعد أن علمنا أسبقية خلق العرش على خلق السموات والأرض وإجماع سلف الأمة على ذلك، نود أن نتطرق في هذا البحث أيضاً إلى ترتيب خلق العرش مع غيره من المخلوقات من حيث الأولوية في

(1834) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)..

(1835) مختصر الصواعق (2/ 131).

الخلق.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على عدة أقوال:

القول الأول:

إن القلم أول المخلوقات، وأنه أسبق في الخلق من العرش، وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري (1836) وابن الجوزي (1837) وهو ما يفهم في الظاهر من قول من صنف في الأوائل كابن أبي عروبة الحراني، وأبو القاسم الطبراني. (1838).

والدليل على هذا القول حديث **عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ)**، قال: سمعت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–يقول: ((**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة...**)). الحديث (1839)

قال ابن جرير–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ) عند تخريج هذا القول: "وقول رسول الله–صلى الله عليه وسلم–الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولاً بحقيقته وصحته من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه خلق القلم، بل عم بقوله–صلى الله عليه وسلم–: ((**إن أول شيء خلقه الله القلم**))، كل شيء وأن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشاً ولا ماء ولا شيئاً غير ذلك". (1840)

(1836) تاريخ الطبري (1/ 36).

(1837) البداية والنهاية (1/ 8).

(1838) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد (١/ ٣٧٥).

(1839) أخرجه أحمد في مسنده (5/ 317).

وأبو داود في سننه (5/ 76، رقم: 4700).

والترمذي في سننه (5/ 424، رقم: 3319).

(1840) تاريخ الطبري (1/ 35،36).

القول الثاني:

إن الماء أول المخلوقات، وأنه مخلوق قبل العرش.

وهذا القول ذكره **ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ)** [1841]، وذكره أيضاً **ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)** [1842]، واستدل له بما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً ((**أن الماء خلق قبل العرش**)).

وقال **ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)**: "وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة ((**أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء**))."

القول الثالث:

أن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه النور والظلمة.

وهذا القول **ذكره ابن جرير–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ)، وعزاه إلى ابن إسحاق–رحمه الله–(ت: ١٥١ هـ)**. [1843]

القول الرابع:

أن العرش هو أول المخلوقات.

وهذا القول هو اختيار **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** **[1844]**، **وابن القيم–رحمه الله–**

[1841] البداية والنهاية (1/ 9).

[1842] فتح الباري (6/ 289).

[1843] تاريخ الطبري (1/ 33).

[1844] مجموع الفتاوى (18/ 213).

(ت: ٧٥١ هـ) [1845]**، وابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ)** [1846]**، وشارح العقيدة الطحاوية–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ)** [1847]**، ونسبه ابن كثير وابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ) –نقلاً عن أبي العلاء الهمداني–رحمه الله–(ت: ٥٦٩ هـ)**–إلى الجمهور، ومال إليه ابن حجر أيضاً. [1848]

واستدلوا على قولهم هذا بما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن **عبد الله ابن عمرو بن العاص–رضي الله عنهما–(ت: ٦٥ هـ)** مرفوعاً قال: **((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء))**. [1849]

ففي هذا الحديث تصريح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش وحديث عبادة صريح بأن التقدير وقع عند أول خلق القلم، فدل ذلك على أن العرش سابق على القلم.

ومما يؤيد هذا القول أيضاً حديث **عمران بن حصين–رضي الله عنه–(ت: ٥٢ هـ)**: **((كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض))**. [1850]

فالحديث يدل على أن العرش كان موجوداً قبل كتابة المقادير.

[1845] اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 253-254).
وانظر مختصر الصواعق المرسلة (2/ 323).

[1846] البداية والنهاية (1/ 9).

[1847] شرح العقيدة الطحاوية (ص: 295).

[1848] فتح الباري (6/ 289).

[1849] أخرجه مسلم في القدر (8/ 51).

[1850] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. فتح الباري (6/ 286، رقم: 3190).

وهذا هو الراجح من الأقوال.

وأما القول الثاني (أن الماء أول المخلوقات) واستدلال ابن حجر بحديث أبي رزين (أن الماء خلق قبل العرش) فغير صحيح، لأنه لم يرد في حديث أبي رزين هذا اللفظ، وإنما ورد فيه (ثم خلق عرشه على الماء) وليس في هذا ما يدل على أولية الماء.

وأما ما رواه **السدي–رحمه الله–(ت: ١٢٨ هـ)** فهو أيضاً لا يصلح للاحتجاج لكونه أثرًا ولم يثبت عن النبي–صلى الله عليه وسلم–ما يدل على ذلك

وأما القول الثالث: وهو قول **ابن إسحاق–رحمه الله–(ت: ١٥١ هـ)**، فهو أيضًا غير صحيح، ولعله أخذه من الإسرائيليات كما أخذ غيره من الأمور، وقد قال **ابن جرير–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ)** في هذا القول: "وأما ابن إسحاق فإنه لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحد، وذلك من الأمور التي لا يدرك علمها إلا بخبر من الله–عز وجل–أو من خبر رسول الله–صلى الله عليه وسلم–". (1851)

أما القول الأول فقد أجاب الجمهور على استدلالهم بحديث **عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ)** بقولهم لا يخلو قوله ((**أول ما خلق الله القلم... الخ**)) من أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة –وهو الصحيح–كان معناه أنه عند أول خلقه قال له ((**اكتب**)) كما في اللفظ، ((**أول ما خلق الله القلم قال له اكتب**)) بنصب ((**أول**)) و((**القلم**)) فعلى هذا تكون الأولية راجعة إلى الكتابة لا إلى الخلق.

وإن كانت جملتين وهو مروي برفع ((**أول**)) و((**القلم**)) فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق بهذا الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم. (1852)

(1851) تاريخ الطبري (1/ 33).

(1852) شرح العقيدة الطحاوية (ص: 295–296). اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 253–254).

أما هيئة العرش: فقد دلت الأحاديث على أنه مقبب الشكل وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة وهذا ما يدل عليه حديث الأعرابي الذي جاء فيه أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا**)) وأشار بأصابعه مثل القبة، ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في الحديث الآخر ((**إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلاها وفوقه عرش الرحمن**))، فالحديث يبين أن الفردوس أوسط الجنة وأعلاها كما جاء في الحديث الآخر: ((**مائة درجة وما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض**)) فكون العرش سقفاً للفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير.

والعرش له قوائم كما جاء في الحديث الصحيح ((**لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش**)) الحديث.

وفي إثبات كون العرش مقبباً وأن له قوائم تحمله، رد على من زعم من الفلاسفة أن العرش فلك من الأفلاك أو أنه الفلك التاسع، وقد تقدم الرد على زعم هؤلاء، وكذلك فيه رد على من زعم أن العرش بمعنى الملك لأنه لا يعقل أن يكون ماسكاً بقائمة من قوائم الملك، وقد ذكر ابن كثير والذهبي أن العرش من ياقوتة حمراء. [1853] وقد استدلوا لهذا القول بما رواه **إسماعيل بن أبي خالد–رحمه الله–(ت: ١٤٦ هـ)** قال: سمعت **سعداً الطائي–رحمه الله–(ت: بين 121 هـ إلى 130 هـ)** يقول: "العرش ياقوتة حمراء". [1854]

ثانياً: مكان العرش.

إن الآيات والأحاديث التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن تبارك وتعالى لتدل دلالة واضحة على أن لعرش الرحمن مكاناً قبل وجود السموات والأرض وبعد خلقهما، فأما مكانه قبل خلق السموات والأرض فالآيات والأحاديث تبين لنا أن مكانه على الماء، فالله سبحانه يقول في كتابه الكريم **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ**

[1853] تفسير ابن كثير (4/ 74). العلو للذهبي (ص: 57)

[1854] انظر العلو للذهبي (ص: 57).

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: الآية: ٧].

قال **الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ)** في تفسير هذه الآية: "وقوله **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}** [هود: الآية: ٧]، يقول وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن، وعن **أبي نجيح–رحمه الله–(ت: 131هـ، أو 132هـ)، عن مجاهد–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ)** في قول الله **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}** [هود: الآية: ٧]، قبل أن يخلق شيئًا". (1855)

وأما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة منها حديث **عمران بن حصين–رضي الله عنه–(ت: ٥٢ هـ)** الذي جاء فيه: **((كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض))**.

وكذلك ما جاء في حديث **عبد الله بن عمرو بن العاص–رضي الله عنهما–(ت: ٦٥ هـ)**: **((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء))**.

وكذلك حديث **أبي رزين العقيلي–رضي الله عنه–**، قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: **((كان في عما ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء))**.

فكل من الآية والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن مكان العرش منذ خلقه على الماء، وليس مراد بالماء هنا ماء البحر لأن ماء البحر إنما وجد بعد خلق السموات والأرض، وإنما الماء المذكور هنا ماء آخر تحت العرش على ما شاء الله تعالى. (1856)

وقد سئل **حبر الأمة عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** عن قوله تعالى **{وكان**

(1855) تفسير الطبري (12/ 4).

(1856) فتح الباري (13/ 411).

عرشه على الماء} [هود: الآية: ٧]، على أي شيء كان الماء؟ قال: "كان على متن الريح". (1857)

وعن **سليمان التيمي–رحمه الله–(ت: ١٤٣ هـ)** أنه قال: "ولو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم، قال أبو عبد الله: وذلك لقوله تعالى **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** [البقرة: الآية: 255]". (1858).

هذا مكان العرش قبل خلق هذا الكون الذي هو عبارة عن السموات والأرض، أما مكانه بعد خلق السموات والأرض فالحديث عنه من جانبين:

الجانب الأول: مكانه بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات.

والجانب الثاني: مكانه بالنسبة إلى السموات والأرض بعد خلقهما.

أما مكان العرش بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات فهو أقربها إليه سبحانه، وذلك لأن الله سبحانه قد أخبر أنه مستو على عرشه في أكثر في موضع في القرآن الكريم، قال تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، ففي إثبات الاستواء على العرش دليل على قربه إليه لأنه سبحانه مستو على أعلى مخلوقاته وأقربها إليه، وهذه ميزة امتاز بها العرش على ما سواه، ومما يؤيد كون العرش أقرب

(1857) أخرجه ابن جرير في تفسيره (15/ 249).
والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: 445).
وابن أبي عاصم في السنة (1/ 258).
والحاكم في المستدرك (2/ 341).
والبيهقي في الأسماء والصفات (2/ 237، رقم: 802).
كلهم بإسنادهم عن سفيان عن الأعمش بنحوه.
قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي. وإسناده جيد موقوف.
(1858) خلق أفعال العباد (127).

المخلوقات إلى الله ما جاء في حديث **ابن عباس رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال**)). (1859)

فالحديث يدل على أن حملة العرش هم أول من يتلقى أمر الله، ثم يبلغونه للذين يلونهم من أهل السموات، فكونهم أقرب الخلق إلى الله دليل على أن العرش أقرب منهم إليه سبحانه لأنهم إنما يحملونه.

أما مكان العرش بالنسبة للسموات والأرض بعد خلقهما، وهل مازال على الماء؟

فالجواب ما يلي: إن العرش ما يزال على الماء المذكور في الآية والأحاديث بدليل ما جاء في أحاديث الأوعال، لقوله–صلى الله عليه وسلم–: ((**ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه أسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش**)).

فالحديث يشير كما أسلفنا إلى وجود ذلك الماء الذي تحت العرش، وإلى أنه ما زال موجوداً إلى ما

(1859) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، (14/ 225).
والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة سبأ، (5/ 362 رقم: 2324).
والإمام أحمد في مسنده (1/ 218).
والدارمي في الرد على الجهمية (ص: 78).
وابن منده في التوحيد (ق: 16/ب).
والبيهقي في الأسماء والصفات (1/ 512-513، رقم436).
والطحاوي في المشكل (3/ 113).
وأبو نعيم في الحلية (3/ 143).
كلهم بإسنادهم عن الزهري عن علي بن الحسين به، وبألفاظ متقاربة.
وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح).

بعد خلق السموات والأرض.

أما مكان العرش بالنسبة إلى السموات والأرض فهو أعلى منها وفوقها، وهو كالقبة عليها كما جاء في الحديث: ((**إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" وأشار بأصابعه مثل القبة**))، وكذلك ما جاء في حديث **العباس بن عبد المطلب–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)** الذي يسمى بحديث الأوعال، فكلا الحديثين يدلان على أن العرش فوق السموات والأرض وأعلى منهما وهو كالسقف عليهما، بل هو سقف للجنة كما في حديث: ((**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن**)). (1860)

فمكان العرش فوق السموات والأرض وفوق الجنة وهو أعلى المخلوقات وأرفعها، وجميع المخلوقات دونه في العلو والارتفاع. والله أعلم.

ثالثاً: خصائص العرش.

خص الخالق سبحانه وتعالى عرشه الكريم بخصائص عديدة ميزته على كثير من المخلوقات الأخرى، وذلك لما للعرش من المكانة الرفيعة عند البارئ عز وجل، وقد ذكر عرش الرحمن في واحد وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، ومجيء ذكر العرش بهذا العدد يدل على ما له من مكانة ومنزلة عالية عند الخالق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى قد مدح نفسه في أكثر من موضع من كتابه الكريم بأنه صاحب العرش العظيم والكريم والمجيد، قال تعالى **{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالى **{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}** [المؤمنون: الآية: ١١٦]، وقال تعالى **{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}** [البروج: الآية: ١٥].

فالله سبحانه يصف لنا في هذه الآيات وغيرها العرش بأنه عظيم، وكريم، ومجيد، فهو عظيم لكونه

(1860) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. فتح الباري (13/ 404).

أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها، وذلك لما خص الله به هذا العرش من الاستواء عليه، ومجيد وكريم لما له من منزلة تميز بها عما سواه من المخلوقات، فهو إنما اتصف بهذه الصفات لجلالته وعظيم قدره، كما أن في قوله تعالى **{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ}** [غافر: الآية: ١٥]، إخبار منه تعالى عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع خلقه، ومما يدل أيضاً على عظمة هذا العرش اقترانه باسم (الرحمن) كثيراً في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: الآية: 5]، وقوله تعالى **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۛ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}** [الفرقان: الآية: ٥٩]، ففي هذا الاقتران بين اسم الرحمن والعرش حكمة وهي إخباره عز وجل بأنه قد استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، ذلك لأن العرش محيط بالمخلوقات وقد وسعها، والرحمة بالخلق واسعة لهم(1861)، كما قال تعالى **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأعراف: الآية: 156].

وسنذكر بعض الخصائص التي اختص بها العرش وكرم بها، والتي جعلته يوصف بهذا الوصف في القرآن الكريم ويجعل له تلك المنزلة الرفيعة.

أولاً: الاستواء عليه:

يعتبر استواء الله سبحانه وتعالى على العرش أعظم الخصائص التي اختص بها العرش، بل إن ما سواها من الخصائص الأخرى التي تميز بها العرش إنما جعلت له لأجل استواء الله عز وجل عليه، وذلك أن الله تعالى لما اختصه بهذا الأمر جعل له من الخصائص والصفات كارتفاعه وعظم خلقه وكبره وثقل وزنه لكي يتناسب مع ما ميز وشرف به من الاستواء عليه.

ومسألة الاستواء على العرش ثابتة في الكتاب والسنة، فقد جاء ذكر الاستواء في القرآن الكريم في سبعة مواضع، ومجيء ذكر الاستواء في القرآن بهذا العدد إنما هو ليؤكد عظم هذا الأمر وأهميته، وأما السنة فهي مليئة بالأحاديث والأثار التي تثبت الاستواء وتؤكده.

وإن مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم رضوان الله عليهم أجمعين

(1861) مدارج السالكين (1/ 33-34)

أنهم يقولون إن الله استوى على عرشه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، فهو سبحانه مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، واستواؤه حقيقة لا مجاز كما يزعم الجهمية وأتباعهم الذين ينكرون العرش وأن يكون الله فوقه، وأما كيفية ذلك الاستواء فهي مجهولة لدينا والسؤال عن كيفية ذلك الاستواء بدعة، لأن الله سبحانه لم يطلعنا على كيفية ذاته فكيف يكون لنا أن نعرف كيفية استوائه، وهو سبحانه وتعالى يقول **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** [البقرة: الآية: ٢٥٥].

ثانياً: العرش أعلى المخلوقات أرفعها وسقفها.

إن مما اختص به الخالق سبحانه وتعالى العرش مع استوائه عليه كونه أعلى المخلوقات وأرفعها وأقربها إلى الله تعالى، فقد ثبت أن العرش أعلى من السموات والأرض والجنة وأنه كالسقف عليها، والأدلة على هذا الأمر كثيرة وقد سبق أن أوردنا جزءاً منها خلال حديثنا عن مكان العرش.

والقول بأن العرش أعلى المخلوقات هو قول السلف الذي قالوا به وذهبوا إليه، وقال **ابن أبي زمنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ)** في كتابه " أصول السنة ": "ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء". (1862)

وكون العرش أعلى المخلوقات يدل على أنه أقرب إلى الله تعالى وهذه ميزة أخرى تضاف إلى الخصائص التي انفرد بها العرش، ويدل على هذا الأمر ما جاء في حديث الأوعال: ((**ثم فوق ظهورهم العرش بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء والله تعالى فوق ذلك**)). (1863).

(1862) أصول السنة (ص: 88).

(1863) أخرجه الإمام أحمد في المسند (1/ 207). وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (5/ 93، برقم 4723). وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (1/ 69). وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الحاقة (5/ 424-425، برقم: 3320). والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: 448). وابن أبي عاصم في السنة (1/ 253). وابن خزيمة في كتاب التوحيد (1/ 234-235، ح: 144).

وكذلك ما جاء عن **ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ): ((بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه))**.[1864]

ثالثاً: العرش أكبر المخلوقات وأعظمها وأثقلها.

إن عرش الرحمن تبارك وتعالى يعتبر أكبر مخلوقات الله وأوسعها وأعظمها على الإطلاق، فقد خص الله عز وجل العرش بهذه الميزة العظيمة وشرفه بها مع غيرها من الميزات لكي يتناسب مع ذلك الشرف العظيم ألا وهو استواء البارئ عز وجل عليه.

وعظم العرش وسعة خلقه قد دل عليهما القرآن والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل

والآجري في الشريعة (3/ 1089-1090، ح: 665). وابن منده في التوحيد (1/ 117). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (3 /390). والذهبي في العلو (ص: 49). ومدار الحديث من جميع طرقه على "عبد الله بن عميرة" وعبد الله فيه جهالة، ولذلك قال الألباني في تخريج السنة (1/ 254): "إسناده ضعيف، وعبد الله بن عميرة، قال الذهبي: فيه جهالة، وقال البخاري: لا نعلم له سماعاً من الأحنف بن قيس". انتهى كلامه. ولكن الجوزقاني صرح في الأباطيل (1/ 79) بصحة الحديث. وكذلك ابن تيمية في الفتاوى (3/ 192) حيث قال: "إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدماً على نفي غيره وعدم معرفته". انتهى كلامه. وكذلك مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه. انظر تهذيب السنن (7/ 92-93).

[1864] أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص: 26، 27).
واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (3/ 396).
وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص:100) وقال: (رواه سنيد بن داود بإسناد صحيح).

{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: الآية: ١٢٩]، فالله سبحانه وصف العرش في هذه الآية وغيرها بكونه عظيماً في خلقه وسعته، قال **ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ)** في تفسير هذه الآية: "أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى". (1865)

ومما يشهد لعظم العرش وسعة خلقه الأحاديث والآثار التي تتحدث عن كبر حجمه وسعته، فقد جاء في الحديث أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**إن عرشه على سمواته وأرضه هكذا**)) وأشار بأصابعه مثل القبة، فالنبي–صلى الله عليه وسلم–يشبه العرش أنه كالقبة على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما وكالسقف عليهما، وفي هذا بيان واضح على عظم العرش وكبر مساحته، وفي حديث أخر يبين لنا مدى عظم العرش وكبر مساحته، فليس العرش أكبر من السموات والأرض فقط، بل هو من الكبر وسعة الحجم بحيث لا تعدل السموات والأرض على سعة حجمهما بجانبه شيئاً يذكر، فعن **أبي ذر–رضي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)** أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((**يا أبا ذر ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة**))، وفي رواية ((ما السموات السبع والأراضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة)).

فالحديث كما أسلفنا دليل واضح على سعة العرش وعظم خلقه، وأما مقدار ذلك الحجم وتلك السعة فلا يعلمها إلا الله تعالى.

قال **عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)**: "الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى". (1866)

(1865) تفسير ابن كثير (2/ 404).

(1866) أخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: 71، 73، 74).
وعبد الله بن أحمد في السنة (ص: 70، 142)

والعرش يمتاز مع كبر حجمه وسعته، بكونه أثقل المخلوقات وزنته أثقل الأوزان، فقد جاء في الحديث أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال **لجويرية-رضي الله عنها-(ت: ٥٦ هـ)**: ((**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**)).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان". (1867)

رابعاً: العرش ليس داخلا فيما يقبض ويطوى.

لقد خص الله سبحانه وتعالى العرش بخصائص منها ما انفرد بها العرش عن غيره من المخلوقات، ومنها ما اشترك بها العرش مع بعض المخلوقات الأخرى، ولقد سبق الحديث عن بعض الخصائص التي انفرد بها العرش، وأود هاهنا أن أبين بعض ما اشترك به العرش مع غيره من المخلوقات من الخصائص.

وابن جرير في التفسير (3/ 10).

والطبراني في المعجم الكبير (12/ 39، برقم: 12404).

والدارقطني في الصفات (ص: 30).

والحاكم في المستدرك (2/ 283).

والخطيب البغدادي في تاريخه (9/ 251-252) من أوجه.

والهروي في الأربعين (ص: 125).

كلهم من طريق سفيان الثوري عن عمار الذهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً.

قال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي.

وذكره الذهبي في العلو (ص61) وقال: (رواته ثقات).

وقال الألباني: "هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات، وتابعه يوسف بن أبي إسحاق عن عمار الذهني" انظر مختصر العلو (ص: 102).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (6/ 323): (رجاله رجال الصحيح).

(1867) الرسالة العرشية (ص: 8).

فقد سبق أن علمنا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض فهو بهذا ليس داخلا فيما خلق في الأيام الستة، ومعلوم أن الله سبحانه قد أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-أنه يقبض يوم القيامة السموات والأرض ويطويها ويبدلها، قال تعالى **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}** [الزمر: الآية: 67]، وقال تعالى: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}** [إبراهيم: الآية: 48]، وقال تعالى: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}** [الأنبياء: الآية: 104]، وقال تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}** [الانشقاق 1-2]، وقال تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ}** [الانفطار: الآية: 1]، وفي الصحيحين **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض**)). (1868)

وفي صحيح مسلم عن **عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-(ت: ٧٣ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((**يطوي الله السموات والأرض ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون**)). (1869)

فالآيات والأحاديث السابقة تدل على أن السموات والأرض وما فيهما تقبض وتطوى وتبدل.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى كالجنة والنار والعرش. (1870)

فعلى هذا يكون العرش ليس داخلا فيما يقبض ويطوى ويبدل، والأدلة على بقاء العرش كثيرة في

(1868) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، انظر فتح الباري (13/ 367).
ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (8/ 126).
(1869) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة (8/ 126).
(1870) الفتاوى (18/ 307).

الكتاب والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول مخبرا عن بقاء عرشه يوم القيامة:

قال تعالى: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: الآيات: 14-17]، وكذلك ما جاء في سورة الزمر من إخباره تعالى بقبضه للأرض وطيه للسموات بيمينه وذكر نفخ الصور وصعق من في السموات والأرض إلا ما شاء الله، ثم ذكر النفخة الثانية التي يقومون بها، وأن الأرض تشرق بنور ربها وأن الكتاب يوضع، ويجاء بالنبيين والشهداء، وأنه توفى كل نفس ما عملت، وذكر سوق الكفار إلى النار وسوق المؤمنين إلى الجنة إلى أن قال تعالى: **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الزمر: الآيات: 74-75].

فالآيات فيها إخبار عن الموقف يوم القيامة وفيها شاهد على أن العرش باق حتى بعد انتهاء الحساب.

يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما العرش فلم يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة ولا يشقه ويفطره، بل الأحاديث المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن قال–صلى الله عليه وسلم–: ((**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن**))." [1871]

[1871] نقض التأسيس (1/ 155).

[الإيمان بالقدر خيره وشره]

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر.

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر.

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر.

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر.

المسألة السابعة: ورود لفظ الخير والشر في نصوص الشرع

المسألة الثامنة: معنى عبارة "خيره وشره".

المسألة التاسعة: معنى قول المصنف "لا يكون إلَّا ما أراد الله –عز وجل–وقضاه وقدره".

المسألة العاشرة: حكم إضافة الشر إلى الله–عز وجل–.

[١٦]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن القدرَ خيره وشرّه مِن الله-عز وجل-، لا يكون إلَّا ما أراد الله -عز وجل-وقضاه وقدره".**

الشرح

وفي هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر:

القدر في اللغة:

القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، ومنه ذكر (ليلة القدر) وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضى. وأصل (قدر): يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. [1872]

قال اللحياني-رحمه الله-(ت: ٢٢٠ هـ): "إن القدر بفتح الدال هو: الاسم، والقدر بسكون الدال هو: المصدر". [1873]

ويطلق القدر على معان؛ منها:

١-معنى الحكم والقضاء.

[1872]() ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (5/ 62)، النهاية لابن الأثير (4/ 22)، مختار الصحاح للرازي (ص248)، تاج العروس للزبيدي (13/ 370)..

[1873]() ينظر: لسان العرب لابن منظور (5/ 3545).

ومن ذلك حديث الاستخارة، وفيه: ((**فاقدره لي ويسره لي**)). [1874].[1875]

٢-معنى الطاقة. ومن ذلك قوله تعالى: **{وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ} [البقرة: الآية: 236]**، بفتح الدال، وقرئ بإسكانها. [1876].

٣- معنى التضييق.

ومنه قوله تعالى: **{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر: الآية:16]** [1877].

4- معنى التقدير.

ومنه الحديث: ((**فإن غم عليكم فاقدروا له**)). [1878]

أي: قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يومًا، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أو ثلاثون. [1879].

ويقال: قدره: إذا قاسه، وقدرت الشيء، أي: هيأت. والقدرة تأتي بمعنى اليسار، والغنى، والقوة. [1880]

[1874]() أخرجه البخاري (1162) مطولا من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-.

[1875]() ينظر: النهاية لابن الأثير (4/ 22)، مرقاة المفاتيح للقاري (3/ 986).

[1876]() ينظر: تفسير ابن جرير (4/ 294)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (2/ 228).

[1877]() ينظر: تفسير ابن جرير (24/ 376).

[1878]() رواه البخاري (1900)، ومسلم (1080) مطولا من حديث عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-.

[1879]() ينظر: النهاية لابن الأثير (4/ 23).

[1880]() ينظر: الصحاح للجوهري (2/ 786)، مقاييس اللغة لابن فارس (5/ 63)، لسان العرب لابن منظور (5/ 3545) تاج العروس للزبيدي (13/ 370).

تلك من أهم معاني (القدر) لغة. وهناك معان أخرى تعرضت لها كتب اللغة. [1881].

والقدر في الاصطلاح:

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): القدر: "وهو عند أهل السنة والجماعة: قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه وكتابته، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته"[1882]

والقَدَرُ في الاصطلاحِ: هو تقديرُ اللهِ تعالى الأشياءَ منذُ القِدَمِ، وعِلْمُه سُبحانَه أنها ستقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، وكتابتُه سُبحانَه لذلك، ومشيئتُه له، ووقوعُها على حَسَبِ ما قدَّرها، وخَلْقُه لها". [1883]

قال السفاريني–رحمه الله–(ت: ١١٨٨ هـ): "هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه– عز وجل– قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها". [1884]

[1881]() يُنظر: الصحاح للجوهري (786/2)، أساس البلاغة للزمخشري (2/ 56)، لسان العرب لابن منظور (5/ 3545) تاج العروس للزبيدي (13/ 370).

[1882]() انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ١١٤).

[1883]() يُنظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: 105)، شفاء العليل لابن القيم (ص: 83)، فتح الباري لابن حجر (1/ 118)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (1/ 348)..

[1884]() عقيدة السفاريني (1/ 348).

وقال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): في تعريفه: "المراد أنّ الله– تعالى– علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته". (1885)

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر:

نصوص القرآن والسنة متواترة في وجوب الإيمان بالقدر، وصريحة في أن كل شيء خلقه الله بقدر.

فأما أدلة القرآن، فمنها ما يلي:

لم يرد في القران التنصيص على وجوب الإيمان بالقدر، وإنما وردت أدلة مجملة تدل على تقدير الله للأشياء. (1886)

- **قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: الآية: ٦٢].**
- **قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: الآية: 49].**
- **وقال تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: الآية: 38].**
- **وقال تعالى: {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال: الآية: 42].**
- **وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: الآية: 2].**

[1885]() فتح الباري (1/ 118).

[1886]() القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، (ص: ٨٦).

– وقال تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: الآيات: 1–3].

– وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق: الآيات: ١ – ٢].

وسيأتي ذكر مزيد من الأدلة من القرآن عند بيان مراتب القدر.

وأما أدلة السنة، فمنها ما يلي:

وقد ورد التنصيص على الإيمان بالقدر في السنة ومن ذلك

– **عن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–(ت: ٢٣ هـ)** في سؤال جبريل عليه السلام الرسول–صلى الله عليه وسلم–عن الإيمان قال: ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره**)). قال (أي: جبريل عليه السلام): صدقت". [1887].

– **عن جابر–رضي الله عنهما–(ت: مابين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»)). [1888]

[1887]() أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة (1/ 36 رقم 8).

[1888]() رواه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، (ص: ٦/ ٣٥٦)–شرح تحفة الأحوذي)، رقم (٢٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم: (١٧٤٣)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٤٣٩).

- **وعن طاووس بن كيسان–رحمه الله–(ت: ١٠٦ هـ)** أنه قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((**كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس**)). [1889]

– وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ) قال: "جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله–صلى الله عليه وسلم–في القدر، فنزلت: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: الآيات: 48: 49]. [1890].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بالقدر)) [1891].

أقوال السلف

إجمع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من أصول الإيمان الستة، التي لا يتم إسلام العبد ولا إيمانه إلا بها

[1889]() أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (4/ 2045) رقم: (2655).

[1890]() أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (4/ 2046 رقم: (2656).

[1891]() رواه الإمام أحمد، انظر الجامع الصحيح في القدر، تأليف مقبل الو ادعي، (ص: ١٤)، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: (٦٧٥)،

ومن الآثار في هذا الباب ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه أن سلمان الفارسي–رضي الله عنه–سئل عن الإيمان بالقدر فقال: "إذا علم الرجل من قبل نفسه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن يصيبه، فذلك الإيمان بالقدر". (1892)

عن علي بن أبي طالب–رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ)، قال: "إذا قضي الأمر من السماء عمله أهل الأرض، وإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه". (1893).

عن يحيى بن يعمر–رحمه الله–(ت: ٨٩ هـ)؛ قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني. فانطلقت أنا **وحميد بن عبد الرحمن الحميري (ت: ١٠٠ هـ)**. حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب–رضي الله عنهما–(ت: ٧٤ هـ) داخلا المسجد. فاكتنفته أنا وصاحبي. أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم. وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر. وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني (1894). والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر". (1895)

1892() مصنف عبد الرزاق (١١/ ١١٨)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٣٠٥).

1893() أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٦)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٢٩٩).

1894() قال الخطابي: في تبرى ابن عمر منهم دليل على أن الخلاف إذا وقع في أصـول الدين وتعلق بالمعتقدات يوجب البراءة، بخلاف ما تعلق بأصول الأحكام وفروعها". معالم السنن (٧/ ٦٥).

1895() (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في الأمر بالإيمان بالقدر (١/ ٨).

عن الحسن البصري (ت: 110 هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها، إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم"[1896].

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: 110 هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده". [1897]

عن مجاهد بن جبر–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد". [1898]

قال الأوزاعي (ت: 157 هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون". [1899].

قال الإمام سفيان الثوري (ت: 161 هـ): "من كفر بالقدر فقد كفر بما أنزل على محمد–صلى الله عليه وسلم–، فإن الله تعالى قدّر كل شيء في الأزل". [1900]

قال الإمام ابن المبارك (ت: 181 هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من أصول الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا به". [1901]

[1896]() "كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: 29).
[1897]() (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (1080).
[1898]() (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).
[1899]() "البداية والنهاية" لابن كثير (10/ 205).
[1900]() "الجامع" لمصنف عبد الرزاق (11/ 44).
[1901]() "الزهد" لابن المبارك (ص: 194).

وقال الإمام ابن المبارك (ت: 181 هـ): "الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يكون العبد مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". (1902)

قال الإمام أبو حنيفة في "الفقه الأكبر" (ت: ١٥٠ هـ): "والقدر خيره وشره من الله تعالى، نؤمن به ونعلم أن الله لم يكلفنا إلا ما نطيق، وأنه تعالى لم يجبر العباد على المعاصي، وأنه تعالى هو الخالق للأفعال".

قال الإمام مالك بن أنس (ت: 179 هـ): "الإيمان بالقدر واجب، من أنكر القدر فقد كفر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو من الله تعالى". (1903)

قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "لا يتم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر، ومن أنكر القدر فقد أبطل علم الله السابق، ونسب الله إلى الجهل". (1904)

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: 241 هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها". (1905)

قال الإمام البخاري (ت: 256 هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أصول الإيمان". (1906)

قال الإمام مسلم (ت: 261 هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان". (1907)

1902() "سير أعلام النبلاء" (402/8).
1903() "التمهيد" لابن عبد البر (7/ 143).
1904() "الرسالة" (ص: 351).
1905() "أصول السنة" (ص: 28).
1906() "صحيح البخاري" (6614).
1907() "صحيح مسلم" (93).

قال الإمام ابن ماجه (ت: 273 هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم". (1908)

قال الإمام ابن جرير الطبري (توفي 310 هـ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من أركان الإيمان التي لا يتم إلا بها". (1909)

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر وثمراته:

مما يدل على أهمية الإيمان:

أولًا: الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.

قال الإمام الأوزاعي (ت: 157 هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون". (1910)

قال الإمام مالك بن أنس (ت: 179 هـ): "الإيمان بالقدر من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن كل شيء بقدر الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن". (1911)

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: 241 هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها". (1912)

1908() "سنن ابن ماجه" (77).

1909() تفسير الطبري (1/ 147).

1910() "البداية والنهاية" (10/ 205).

1911() "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (2/ 1290).

1912() "مسند أحمد" (6/ 233).

قال الإمام ابن أبي عاصم (ت: 287 هـ): "الإيمان بالقدر هو من **أصول الإيمان**، ولا يصح الإيمان إلا به، وقد أمرنا الله بالإيمان به في قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (سورة القمر: 49)". [1913]

قال الإمام الدارمي (توفي 255 هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره هو من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". [1914]

ثانيًا: الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان

وهو الركن السادس من أركان الإيمان

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي (ت: 198 هـ): "الإيمان بالقدر من **أركان الإيمان**، ولا يتم الإيمان إلا به، ومن أنكره فقد كفر بما أنزل على محمد-صلى الله عليه وسلم-". [1915]

قال الإمام علي بن المديني (ت: 234 هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من **أركان الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". [1916]

قال الإمام ابن جرير الطبري (ت: 310 هـ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من **أركان الإيمان** التي لا يتم إلا بها". [1917]

[1913] () "السنة" لابن أبي عاصم (1/ 159).
[1914] () "الرد على الجهمية" للدارمي (ص: 154).
[1915] () "الإبانة الكبرى" لابن بطة (2/ 172).
[1916] () "سير أعلام النبلاء" (11/ 168).
[1917] () تفسير الطبري (1/ 147).

قال ابن أبي حاتم–رحمه الله–(ت: ٣٢٧ هـ): "وقد أجمع العلماء على أن الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من **أركان الإيمان**، وأن الله تعالى قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ". [1918]

ثالثًا: الإيمان القدر نظام التوحيد.

جاء في السنة الصحيحة عن النبي–صلى الله عليه وسلم–الربط بين القدر والتوحيد عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: مابين ٥٧ و٥٩ هـ)، قالت فقدت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهما منصوبتان وهو يقول: ((**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**)). [1919]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره فإن الذي يستعاذ منه من الشر وأسبابه هو واقع بقضاء الرب تعالى وقدره وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن". [1920]

[1918]() "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي (4/ 711).

[1919]() رواه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة (486) ونظر صحيح مسلم بشرح نووي ٢/ ٢١٢.

[1920]() شفاء العليل (ص: ٤٥٠)، وانظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٥٤).

عن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ) أنه قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقضاً لتوحيده". (1921)

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده" [1922].

عن مجاهد بن جبر–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد"[1923].

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن أهل البدع من القدرية الجهمية والمجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشكرونه، كما أنهم لا يعبدونه، وأما أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشكره، وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا منعم، بل ولا إله يستحق أن يعبد ويحب، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة، وإنما هو يفعل بمحض مشيئة ترجح الشيء على مثله

1921 أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٢٢)، والفريابي في القدر تحت رقم (205)، واللالكائي في السنة (٤/ ٦٢٣-٦٧٠)، والآجري في الشريعة (ص: ٢١٥)، وابن بطة في: الإبانة تحت رقم: (1618-1619)، ونسبه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط. المجمع الزوائد (٧/ ١٩٧). ويتقوى بتعدد الطرق إلى الحسن لغيره.

وقد روي عن ابن عباس–رضي الله عنه–، مرفوعًا، وفيه ضعف. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة تحت رقم (4072).

وذكره ابن الجوزي عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، مرفوعا في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (1/ 149)، تحت رقم (234)، وقال: "لا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–"اهـ

[1922]() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (1080).
[1923]() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).

لا لمرجح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم، أو يريد فسادهم وهلاكهم وإضرارهم، يقولون: هذا كله عندهم سواء"[1924].

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) عند تفسير قوله تعالى: **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف: الآيات: ٢٩–٣٠]**.

"هذه الآية تضمنت قواعد الدين علمًا وعملًا واعتقادًا.

فقوله: **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ}** أمر سبحانه فيها بالقسط هو الذي هو حقيقة شرعه ودينه، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة، وهو الاقتصاد في السنة.

وقوله **{وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}**، يتضمن الأمر بالإقبال على الله وإقامة عبوديته في ثبوته، ويتضمن الإخلاص له وهو عبوديته وحده لا شريك له فهذا ما فيها من العمل.

ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد فقال: **{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}**.

ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد فقال فريقا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة. **{فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ}**، فتضمنت الآية الإيمان بالقدر والشرع والمبدأ، والمعاد، والأمر بالعدل، والإخلاص.

[1924]() جامع الرسائل (المجموعة الأولى) (١/ ١٠٣).

ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه قد أطاع الشيطان دون ربه وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى فقال: **{إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}**. والله أعلم". [1925]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "النبي–صلى الله عليه وسلم–أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة

١–الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد.

٢–والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع.

فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر

فأبى المنحرفون إلا

- القدح بإنكاره في أصل التوحيد
- أو القدح بإثباته في أصل الشرع

ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه وهو القدر والشرع والخلق والأمر

[1925]() شفاء العليل (١/ ٢٩٢) بتصرف يسير.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والنبي-صلى الله عليه وسلم-شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة وقد تقدم قوله: ((**أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**)). وإن العاجز من لم يتسع للأمرين"[1926].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد قال ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد". [1927]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إن الإيمان بالقدر أصل الإيمان بالأمر وهو نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه إيمانه" [1928].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "والذي دل عليه قول ابن مسعود وهو قول الصحابة كلهم وأئمة السنة من التابعين ومن بعدهم هو إثبات القدر الذي هو نظام التوحيد؛ إثبات فعل العبد الأختياري، الذي هو نظام الأمر والنهي، وهو متعلق المدح والذم والثواب والعقاب والله أعلم". [1929]

[1926]() شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢٦).

[1927]() شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: 65).

[1928]() روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: 61).

[1929] حاشيته على تهذيب السنن (6/ 105).

رابعًا: الإيمان بالقدر فيه تحقيق للشهادتين.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إذا ثبت هذا – يعني تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله– فمعلوم أنه يجب الإيمان بخلق الله وأمره، وبقضائه وشرعه"[1930].

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): القدر قدرة الله، واستحسن ابن عقيل–رحمه الله–(ت: ٥١٣ هـ) هذا الكلام جدا، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء؛ فإن إنكار القدر: إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها". [1931]

فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد وخلاص من الشرك؛ لأن ارتباطه مباشرة بالإيمان بالله تعالى، فقد جاء في صفاته سبحانه صفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق، وعلى هذه الأسس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

كما عد العلماء الإيمان بالقضاء والقدر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله، فالراضي بالقضاء والقدر راض بالله، والساخط من القدر ساخط على الله، وهذه النكتة في عطف الفعل "تؤمن" لما عد النبي – صلى الله عليه وسلم –أركان الإيمان فقال: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). في حديث جبريل المشهور". [1932]

خامسًا: الإيمان بالقدر يعصم العبد من أمور كثيرة.

[1930]() التدمرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص: ١٣٠).

[1931]() شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (ص: ٢٨).

[1932]() منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة (ص: ٦٤٨).

"فاعتصام المؤمن بعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر يعصمه من أمور كثيرة، على رأسها أمران:

أحدهما: عصمته في باب توحيد الربوبية الذي هو أساس وعمدة توحيد الألوهية.

والثاني: عصمته في مسيرته في الحياة، بألا يقع عنده تعارض بين القضاء والقدر والأمر والشرع". [1933]

الإيمان بالقدر أساس لعمارة الدنيا.

قال الإمام الحسن البصري (توفي 110 هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها، إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم" [1934]

من ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كليهما بقضاء الله وقدره.

عن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن الضعيف، واحرص على ما ينفعك واستعن بالله عز وجل ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل))**. [1935]

[1933]() تيسير لمعة الاعتقاد لعبد الرحمن بن صالح المحمود. (ص: 199).

[1934]() "كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: 29).

[1935]() صحيح مسلم (2664).

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين–رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ): "الإيمان بالقدر يوجب صدق الاعتماد على الله عز وجل لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله". (1936)

ثانيًا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشا، وأروح نفسا، وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

قَالَ ابنُ عَونٍ–رحمه الله–(ت: ١٥١ هـ): "ارْضَ بِقَضَاءِ اللهِ مِن عُسْرٍ وَيُسْرٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ لِهَمِّكَ، وَأَبلَغُ فِيمَا تَطلُبُ مِن أَمرِ آخِرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ العَبدَ لَن يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا، حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِندَ الفَقرِ وَالبَلَاءِ، كَرِضَاهُ عِندَ الغِنَى وَالرَّخَاءِ؛ كَيفَ تَستَقضِي اللهَ فِي أَمرِكَ، ثُمَّ تَسخَطُ إِنْ رَأَيتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟! وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِن ذَلِكَ، لَو وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ، وَتَرضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالغَيبِ؟! إِذَا كُنتَ كَذَلِكَ، مَا أَنْصَفْتَ مِن نَفسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا. **قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ)**: وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ". (1937)

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين–رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ): "والإيمان بالقدر يوجب الطمأنينة يوجب للقلب الطمأنينة إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك اطمئن أنت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة". (1938)

[1936]() القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

[1937]() "تيسير العزيز الحميد" (ص: 522-523).

[1938]() القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح؛ فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب". [1939]

رابعًا: انشراح الصدر، وسعادة القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال، قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وَمَا لِيَ سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر، قَالَ تَعَالَى: **{قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون} [التوبة: الآية: 51]**.

خامسًا: ذهاب الهم والحزن، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بكتابة المقادير قبل إيجادها، فإذا وُجِدت تبين مدى الإيمان بذلك، فَقَوِيُّ الإيمان لا يفرح بما أُوتي، ولا يحزن على ما فات، وعكسه بعكسه بهذا المعنى، وردت الآية الكريمة: **{لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: الآية: 23]**.

قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ): "الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن". [1940]

سادسًا: غنى النفس، روى الترمذي في سننه مِن حَدِيثِ **أَبِي هُرَيرَةَ–رضي اللهُ عنه–(ت: ٥٧ هـ)**: أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ: **((وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ))**. [1941]

سابعًا: النجاة من النار، روى أبو داود في سننه مِن حَدِيثِ **أُبَيّ بنِ كَعْبٍ–رضي اللهُ عنه–(ت: ١٩ أو ٢٠ هـ)**: رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: **"لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ**

[1939] () «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٢٥٦-٢٦٠) بتصرف.

[1940] () مجموع الرسائل (3/ 144).

[1941] () "سنن الترمذي" (برقم: 2305)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (برقم: 930).

اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ".[1942]

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

عن عمرو بن شعيب–رحمه الله–(ت: ١١٨ هـ) عن أبيه–رحمه الله–(ت: ٨١ أو ٨٠ هـ) عن جده–رضي الله عنه–(ت: ٦٥ هـ) قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: "وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ((**ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكما**))، وقال: "فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده". [1943]

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر ويذمون من خاض فيه، بل حذروا من ذلك، فهذا الصحابي الجليل **عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** يقول: "باب شرك فتح على أهل الصلاة: التكذيب بالقدر فلا تجادلوهم فيجري شركهم على أبديكم". [1944] ويقول أيضًا رضي الله عنه: "ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإسلام"[1945]

[1942]() "سنن أبي داود" (برقم: 4699)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (3/ 890) (برقم: 3932).

1943 أخرجه أحمد (2/ ١٧٨)، وقال أحمد شاكر، أسناده صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (10/ 153)، حديث رقم (6668)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه: المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (1/ 14): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

1944 أخرجه الآجري في الشريعة (ص: 215)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة: (4/ 630).

1945 أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (4/ ٦٣٢).

فالسلف رحمهم الله تعالى كرهوا الكلام في القدر والخوض فيه، لكن لما خاضت المبتدعة في هذا الأمر وحادوا عن الصواب رأي السلف الصالح أنه يجب عليهم أن يبينوا للناس الحق والصواب فيما ضل فيه هؤلاء، ذلك لأنه لم يظهر القول في القدر إلا بعد مضي نصف القرن الأول تقريبا، حيث إن معبدًا الجهني[1946] هو أول من أثار القول في هذا الأمر.

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحي بن يعمر، أنه قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن خطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عند الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم[1947] وذكر من شأنهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [1948]

وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على نهج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كما ذكر الإمام البربهاري هنا.

1946 معبد بن عبد الله الجهني نزيل البصرة، كان داعية إلى الضلال وهو أول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقًا في الحديث وكان رأسًا في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسا، وقد قتله عبد الملك سنة ٨٠هـ. الجرح والتعديل (٢٨٠/8)، وميزان الاعتدال (141/4)، وتهذيب التهذيب (10/ 225).

1947 ويتقفرون العلم: أي يطلبونه ويتتبعونه. النهاية لابن الأثير (4/ 90).

1948 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (1/ 36).

ولا شك أن الخوض في أمور العقيدة بالعقل استقلالاً دون الرجوع إلى النصوص والتحاكم إليها والاستضاءة بالنصوص هذه مهلكة للإنسان، وكل من خاض من هؤلاء في هذا الأمر دون معرفة بالنص فإنه هالك، ولذلك وقع ما وقع من الفرق، ووقع ما وقع من قول القدرية وقول الجبرية ونحوهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء تركوا النصوص تمامًا وخاضوا في الأمر من جهة عقولهم.

فوقع التحسين والتقبيح العقلي، ووقع الطعن في أفعال الله عز وجل وفي علم الله عز وجل كل ذلك من طريق هؤلاء.

وأما أصل القدر؟ فكما **قاله الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ)**: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: الآية: 23]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين" [1949]

وعلم القدر **قال عنه علي رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ)**: "القدر سر الله فلا تكشفه". [1950]

قال جعفر بن محمد–رحمه الله–(ت: ١٤٨ هـ): "الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد نظرا ازداد حيرة". [1951]

1949 شرح العقيدة الطحاوية (ص: 276).
1950 شرح العقيدة الطحاوية (ص: 277).
1951 انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (2/ 196).

وسماه الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ) بالعلم المفقود، لأن الله طواه عن الخلق، [1952] ونحن نؤمن بأن له تعالى في خلقه حكمًا عظيمة، وإذا كان هناك من الحكم ما هون خاف فلا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته تبارك وتعالى. [1953]

قال الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "القدر سر الله في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة إلى الخذلان، وسُلَّمٌ إلى الحرمان، والحذر كل الحذر من النظر في القدر والتفكر فيه والوسوسة به". [1954]

قال البربهاري–رحمه الله–(ت: ٣٢٩ هـ): "الكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة، منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأن القدر سر الله، ونهى الرب تبارك وتعالى الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخصومة في القدر، وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك بالتسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة الأشياء، وتسكت عما سوى ذلك"[1955].

قال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر؛ لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا

1952 شرح العقيدة الطحاوية (ص: 292).
1953 شرح العقيدة الطحاوية (ص: 292).
1954 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (4/ 709).
1955 شرح السنة (ص: 80).

به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق"[1956].

قال ابن بطة–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "وأما الوجه الآخر من علم القدر الذي لا يحل النظر فيه ولا الفكر به، وحرام على الخلق القول فيه: كيف؟ ولم؟ وما السبب؟ مما هو سر الله المخزون وعلمه المكتوم الذي لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، وحجب العقول عن تخيل كنه علمه، والناظر فيه كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد فيه نظرا ازداد فيه تحيرا، ومن العلم بكيفيتها بعدا– فهو التفكر في الرب عز وجل كيف فعل كذا وكذا، ثم يقيس فعل الله عز وجل بفعل عباده، فما رآه من فعل العباد جورا يظن أن ما كان من فعل مثله جور، فينفي ذلك الفعل عن الله، فيصير بين أمرين؛ إما أن يعترف لله عز وجل بقضائه وقدره، ويرى أنه جور من فعله، وإما أن يرى أنه ممن ينزه الله عن الجور، فينفي عنه قضاءه وقدره، فيجعل مع الله آلهة كثيرة يحولون بين الله وبين مشيئته، فبالفكر في هذا وشبهه والتفكر فيه والبحث والتنقير عنه هلكت القدرية حتى صاروا زنادقة وملحدة ومجوسا؛ حيث قاسوا فعل الرب بأفعال العباد وشبهوا الله بخلقه ولم يعوا عنه ما خاطبهم به؛ حيث يقول: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: الآية: 23] .فمما لا يحل لأحد أن يتفكر فيه ولا يسأل عنه، ولا يقول فيه: لم لا ينبغي لأحد أن يتفكر لم خلق الله إبليس وهو قد علم قبل أن يخلقه أنه سيعصيه، وأن سيكون عدوا له ولأوليائه؟ ولو كان هذا من فعل المخلوقين إذا علم أحدهم أنه إذا اشترى عبدا يكون عدوا له ولأوليائه، ومضادا له في محابه، وعاصيا له في أمره، ولو فعل ذلك لقال أولياؤه وأحباؤه: إن هذا خطأ وضعف رأي وفساد نظام الحكمة، فمن تفكر في نفسه وظن أن الله لم يصب في فعله حيث خلق إبليس؛ فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يعلم قبل أن يخلق إبليس أنه يخلق إبليس عدوا له ولأوليائه، فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يخلق إبليس أصلا، فقد كفر.

1956 الشريعة (2/ 702).

وهذا قول الزنادقة الملحدة، فالذي يلزم المسلمين من هذا أن يعلموا أن الله خلق إبليس وقد علم منه جميع أفعاله؛ ولذلك خلقه، ويعلموا أن فعل الله ذلك عدل صواب، وفي جميع أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون". [1957]

قال أبو المظفر السمعاني–رحمه الله–(ت: ٤٨٩ هـ): "قد ذكرنا أن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من قبل الكتاب والسنة، دون محض القياس، ومجرد المعقول، فمن عدل عن التوقيف في هذا الباب، ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا وصل إلى ما يطمئن به القلب؛ وذلك لأن القدر سر من سر الله وعلم من علمه ضربت دونه الأستار، وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب. حجبه عن عقول البشر ومعارفهم؛ لما علم من الحكمة، وسبيلنا أن ننتهي إلى ما حد لنا فيه، وألا نتجاوز إلى ما وراءه، فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور.

وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده، فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا؛ لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم. قال الله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: الآية: ٥٦]** ... فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم في عواقب أمورهم لافتتنوا، وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر في العاقبة، فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط. وفي ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء؛ فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف والرجاء، والطمع والوجل؛ ليبلو سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة". [1958]

1957 الإبانة الكبرى (3/ 248).

1958 الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (2/ 30).

قال البغوي–رحمه الله–(ت: ٥١٠ هـ): "القدر سر من أسرار الله لم يطلع عليه ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلا". [1959]

قال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي–رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ): القدر سر الله فلا تكشفه". [1960]

قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ): "قد ورد النهي عن الخوض في القدر، ...، والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه:

منها: ضرب كتاب الله بعضه ببعض، فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى. ويقع التجادل في ذلك... وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نهي عن ذلك. [1961]

ومنها: الخوض في القدر إثباتا ونفيا بالأقيسة العقلية: كقول القدرية: لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالما. وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، ونحو ذلك.

1959 شرح السنة (1/ 144).

1960 شرح الطحاوية (1/ 320).

1961 أخرجه من طرق: أبو داود (4603)، وأحمد (9479) بلفظ: "المراء في القرآن كفر" صححه ابن حبان في صحيحه (1464)، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك (2/ 243)، والنووي في التبيان (206).

ومنها: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف؛ فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك". [1962]

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر له أربعة أركان، ويسميها بعض العلماء أيضًا: (مراتب القدر)، وهذه الأركان الأربعة هي:

الركن الأول: العلم:

الركن الأول- أو المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر- هو العلم، فيجب الإيمان بأن الله يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فالله يعلم القدر قبل وقوعه،

والأدلة على علم الله تعالى بالمقادير كثيرة، منها:

قال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}. [الطلاق: الآية:12]**

فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيءٍ علما، ولذلك لما ذكر الله تعالى الخلق استدل به على العلم والقدرة **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: الآية:12]**، ثم قال بعدها: **{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}**.

فتأمل السياق في الحديث عن الخلق، الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن هذا حديث عن الخلق، لكنه دلالة على أمرين هم؟ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فالخلق دليل على

1962 بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: 41-46).

القدر، فكيف يخلق من لا يقدر، فهل الذي لا يقدر يستطيع أن يخلق؟ فبما أنه هو الخالق فهو قادر، وكيف يخلق ما لا يعلم؟ فبالتالي استشهد بخلقه على قدرته وعلى علمه، لذلك قال: **{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}**.

فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل خلقها، وهو سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون، بل ما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله سبحانه وتعالى عندما ذكر أصحاب النار قال عنهم: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: الآية: ٢٨]، فلو أُخرج أهل النار من النار وعادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم.

فإذاً يعلم مالم يكن لو كان كيف يكون، فعلمه سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء،

- قال تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر: الآية: 22]**.

- وقال تعالى: **{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: الآية: 12]**.

- وقال تعالى: **{عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ} [سبأ: الآية: 3]**.

- وقال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: الآية: 125]**.

- وقال تعالى: **{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [النجم: الآية: 32]**.

وقال الله تعالى-مقررًا علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون-: **{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: الآية: 28]**، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: **{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: الآية: 23]**.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن: علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغارًا عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم، وبيانه فيما يلي:

- **عن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)**، قال: " سئل النبي–صلى الله عليه وسلم–عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين " (**1963**).

- **وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، قالت: توفي صبيٌّ، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: " **أَوَلَا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهذه أهلًا ولهذه أهلًا؟**"(**1964**).

وفي رواية عند مسلم– أيضًا– **عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)** قالت: "دُعي رسول الله–صلى الله عليه وسلم–إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: «**أَوَغَير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**". (**1965**)

وكان أول من أنكره القدرية فأنكروا علم الله السابق، فزعم القدرية الأوائل أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، فهذا أول حال القدرية، ثم إن القدرية بعد ذلك تراجعوا عن إنكار العلم السابق وأثبتوا العلم السابق، ولكن أنكروا قدرة الله في فعل العبد، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها.

[1963]() أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عاملين (8/ 122) رقم: (6597).

[1964]() أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2050/4) رقم: (2662).

[1965]() أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2050/4) رقم: (2662).

الركن الثاني: الكتابة

الركن الثاني- أو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر- هو الكتابة، فيجب الإيمان بأن الله تعالى كتب كل المقادير في اللوح المحفوظ وسطر فيها كل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور.

- قال تعالى: **{بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [البروج: الآيات: 21، 22]**،

وقال تعالى: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: الآية: 70]**،

وقال تعالى: **{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} [يس: الآية: 12]**،

وقال تعالى: **{وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} [الطور: الآيات: 1- 3]**،

وقال تعالى: **{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: الآية: 4]**،

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((**إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**)). [1966].

[1966]() أخرجه مسلم كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى برقم: (2653).

قال عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ) لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، يقول: ((**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**))، يا بني إني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((**من مات على غير هذا فليس مني**)). [1967]

وعن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، قال: "كنت خلف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوما، فقال: ((**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**)). [1968]

أنواع التقدير:

ذكر ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) أقسام التقدير الخمسة، وأوضحها بأدلتها، وهي باختصار:

التقدير الأول: تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض، وهو التقدير العام الشامل لكل شيء في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذكر بعض الأدلة عليه.

[1967]() أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٤٥).

[1968]() أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

التقدير الثاني: تقدير الرب- تبارك وتعالى- شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول، فعن عمران بن حصين قال: "قيل: يا رسول الله، علم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال ((نعم)). قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: ((كل ميسر لما خلق له)). [1969].

التقدير الثالث: المتعلق بالجنين وهو في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله؛ فعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق: ((**إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)). [1970]

التقدير الرابع: التقدير في ليلة القدر؛ قال الله تعالى: {حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الدخان: الآيات: ١ - ٥].

قال أبو عبد الرحمن السلمي-رحمه الله-(ت: ٧٤ هـ): "يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر"، وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرا، فهي ليلة الحكم والتقدير.

[1969]() أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) واللفظ له.

[1970]() أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

التقدير الخامس: التقدير اليومي؛ قال تعالى: **{يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: الآية: ٢٩]**.

قال مجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، والكلبي-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، وعبيد بن عمير-رحمه الله-(ت: ٧٣ هـ)، وأبو ميسرة-رحمه الله-(ت: ٦٣ هـ)، وعطاء-رحمه الله-(ت: ١١٤ هـ)، ومقاتل-رحمه الله-(١٥٠ هـ): "من شأنه: أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنبا، ويضع أقواما، ويرفع آخرين. دخل كلام بعضهم في بعض ... ".

إلى أن **قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)**: "فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه، وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل على علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه". **(1971)**

الركن الثالث: المشيئة:

[1971]() شفاء العليل (ص: ٣١-٤٩).

الركن الثالث- أو المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر- المشيئة، أي: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهذا الركن المقررة له كثيرة، منها:

- قال تعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللهُ} [التكوير: الآية: 29]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللهُ} [الأنعام: الآية: 111]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) [الأنعام: الآية: 112]**.

- وقال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: الآية: 36]**.

- وقال تعالى: **{مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: الآية: 39]**.

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه.

- قال تعالى: **{ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) [البقرة: الآية: 253]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة: الآية: 48]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [الأنعام: الآية: 35]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) [الأنعام: الآية: 107]**.

- وقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ} [يونس: الآية: 99]**.

وجاء في حديث **حذيفة بن أسيد–رضي الله عنه–(ت: ٤٢ هـ)** في شأن الجنين: ((**فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك**)). [1972].

وعن أبي موسى الأشعري–رضي الله عنه–(ت: ٤٤ هـ)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء**)). [1973].

قال ابن القيم –رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة المشيئة:

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والبيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به.

والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد حتى وإن كان مخالفا لأمره الشرعي، فهو سبحانه وتعالى أراد أن يمتحن عباده، فجعل لهم إرادة وقدرة؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملا؛ فمن آمن واستقام فاز، ومن كفر وعاند فقد خسر خسرانا مبينا؛ فتجزى كل نفس بما عملت، فالعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: **{لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ**

[1972]() أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

[1973]() أخرجه البخاري (١٤٣٢).

إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: الآيات: ٢٨، ٢٩]، وقد يريد العبد الشر، ولكن الله لا يمكنه منه؛ فكل شيء داخل تحت إرادته ومشيئته، ولا يخرج العباد أبدا في كل أمورهم عن تلك الإرادة والمشيئة؛ قال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: الآية: ٢٥٣]**، وقال سبحانه: **{ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: الآية: ٤٠]**، وقال جل وعلا: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[الأنعام: ١١٢]**".[1974]

أنواع الإرادة: لله- جل وعلا- إرادتان: كونية قدرية، ودينية شرعية.

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وها هنا أمر يجب التنبيه عليه، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن الله- سبحانه- له الخلق والأمر، وأمره- سبحانه- نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي.

فمشيئته- سبحانه- متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته- سبحانه- شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا فهو محبوب للرب، واقع بمشيئته؛ كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به

[1974]() انظر: شفاء العليل (ص: ٩٣) بتصرف واختصار.

مشيئته، ولم تتعلق به محبته، ولا رضاه ولا أمره الديني، و ما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة.

وإذا عرفت هذا فقوله تعالى: **{وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: الآية: ٧]**، وقوله: **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: الآية: ٢٠٥]**، وقوله: **{وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: الآية: ١٨٥]**، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا: الأمر؛ فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصى ويخالف بخلاف الأول".

إلى أن قال رحمه الله: "فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء أو أن يشاء شيئا فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيء فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لوجد". **(1975)**.

الركن الرابع: الخلق

الركن الرابع- أو المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر- الخلق، أي: خلق الله تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وقد قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوَّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق.

1975() شفاء العليل (ص: ١٠٥-١٠٦).

ومن أدلة القرآن الكريم:

الله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه...

1-قال تعالى في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كسر أصنامهم ثم جاء إليه قومه يناقشونه مسرعين فقال لهم كما حكى الله عنه: **{أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: الآيات: 95-96]**، أي خلقكم وعملكم فتكون (ما) مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيدكم وهو الأصنام[1976] وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: "وكلا القولين متلازم، والأول أظهر" [1977] وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد **عن حذيفة-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)** قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**))[1978]، وتلا بعضهم عند ذلك **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: الآية: 96]**، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة فالله تعالى خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك الآية والحديث.

2-وقد وردت آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على أن كل شيء مما في هذا الكون مخلوق لله سبحانه وتعالى, وقد وردت هذه الآيات بلفظ العموم فقال تعالى: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: الآية: 16]**، وفي آية أخرى: **{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [غافر: الآية: 62]**، وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه، سبحانه وتعالى فنفى ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر وتدل على وحدانية الله

1976 انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (7/ 70).

1977 تفسير ابن كثير (7/ 22).

1978 رواه البخاري في خلق أفعال العباد (102). وصـــححه ابن حجر في فتح الباري (13/ 507)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1636) وقال: على شرط مسلم.

تعالى وانفراده بالخلق والرزق: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: الآية: ١٦]**، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله تعالى وكماله ودلائل وحدانيته: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: الآية:62]**، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة حيث جعل لعبادة الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء.

3-وقال تعالى ممتناً على الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر الفاسق. **{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}. [الحجرات: الآية: 7]**، والشاهد قوله: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ}.. {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ}**...، فهو سبحانه هو الذي جعل الإيمان محبوباً أو أحب الأشياء إليكم، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروها عندكم، وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى. [1979]

وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن الله تعالى هو المضل، والهادي, والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم، وأنه المضحك, والمبكي، والمميت, والمحيي, وكل ذلك دليل على مرتبة الخلق، وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لآية الحجرات السابقة، حديثاً يدل على هذه المرتبة عن ابن رفاعة الزرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**استووا حتى أثني على ربي، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا**

1979 انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (9/ 74)، وانظر: تفسير ابن السعدي (7/ 131)، وانظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: 57).

مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسالك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسالك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق)).[1980] فترى في هذا الحديث بأن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق.

الأدلة من السنة:

1-**عن زيد بن أرقم-رضي الله عنه-(ت: ٦٨ هـ)** قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول: ((**اللهم أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها...**)). الحديث[1981] والشاهد قوله: ((**اللهم آت نفسي تقواها وزكها...**))، فالفاعل هو الله تعالى، فهو الذي يطلب منه ذلك ولفظ ((**خير**)) ليس للتفضيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال

1980 رواه أحمد (3/ 424) (15531)، والبزار (9/ 175)، والبخاري في الأدب المفرد (538). وقال: [فيه] عبد الواحد بن أيمن مشـــهور ليس به بأس في الحديث، روى عنه أهل العلم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (6/ 124): رجاله رجال الصـحيح، وصـححه ابن حجر في نتائج الأفكار (2/ 163) والألباني في صـحيح الأدب المفرد (538).

1981 رواه مسلم (2722).

بعد ذلك: ((**أنت وليها ومولاها**)). [1982] فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر، قال تعالى: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: الآية: 8]**.

قال سعيد بن جبير–رحمه الله–(ت: ٩٥ هـ) في تفسير هذه الآية: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: الآية: 8]**، أي: فالخلق والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه.

وقال ابن زيد–(ت: ١٨٢ هـ)، في معنى الآية: "جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى". [1983]

2- وعن **وراد مولى المغيرة بن شعبة (ت: غير معروف سنة وفاتة)** قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي–صلى الله عليه وسلم–يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي–صلى الله عليه وسلم–يقول: خلف الصلاة: ((**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**)). [1984] والشاهد قوله: ((**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**))، فالمعطي والمانع هو الله تعالى فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى وقوله: ((**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**))، أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح.

3-وقد قال–صلى الله عليه وسلم–**لأبي موسى الأشعري–رضي الله عنه–(ت: ٤٤ هـ)**: ((**يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**)). فقلت بلى يا رسول الله، قال: ((**قل: لا حول ولا قوة**

1982 انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (17/ 41).
1983 الكشف والبيان للثعلبي (10/ 213)، وزاد المسير (9/ 140)، و تفسير البغوي (8/ 438).
1984 رواه البخاري (844)، ومسلم (593).

إلا بالله)). [1985]، والشاهد قوله: ((**لا حول ولا قوة إلا بالله**))، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة, ولا استطاعة, ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى[1986] وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: ((**لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته**))[1987]، وحكي هذا **عن ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)**، وكله متقارب، والكنز هنا: معناه ثواب مدخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس [1988].

فهذه مراتب القدر وأركانه الأربعة التي يجب على العبد أن يؤمن بها حتى يكون مؤمنًا بالقدر.

وقد يقسم بعض العلماء مراتب القدر إلى درجتين:

فقد قسم **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين" – بين فيه مراتب القدر الأربع التي هي:(العلم والكتابة والمشيئة والخلق).

1985 رواه البخاري (4025) بلفظ: ((ألا أدلك على كلمة)) بدلاً من ((ألا أدلك على كنز))، ومسلم (2704).

1986 انظر: تهذيب اللغة للأزهري (5/ 243)، لسان العرب (11/ 184) مادة: (حول).

1987 رواه البزار (5/ 374)، والبيهقي في (1/ 446) (664)، والديلمي (5/ 375) (8478). بلفظ: ((إلا بعون الله)) بدلاً من ((إلا بمعونته)). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (10/ 102): رواه البزار بإسنادين أحدهما: منقطع وفيه عبد الله بن خراش، والغالب عليه الضعف، والآخر: متصل حسن، وقال الحسيني في البيان والتعريف (2/ 289): سنده لا بأس به.

1988 شرح صحيح مسلم للنووي (17/ 26-27)، وانظر: عمدة القاري للعيني (23/ 154).

فذكر هنا مراتب القدر، وجمع هنا بين مرتبتين؛ مرتبة العلم ومرتبة الكتابة؛ باعتبار أنهما متلازمتان، كما أنه بالدرجة الثانية جمع بين الخلق والمشيئة، فالقسمة إما ثنائية وإما رباعية، فإذا قلت: رباعية، فتقول: (العلم، الكتابة، الخلق، المشيئة).

وإذا قلت ثنائية، فتقول: (العلم، الكتابة)، أي: علم سبحانه وتعالى ذلك وكتبه، ثم خلقه وشاءه.

فقال: «الإيمان بالقدر على درجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بالعلم والكتابة»؛ فالله- تعالى علم الأشياء قبل كونها، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما أخبر- مثلا- عن شأن أهل النار فقال: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: الآية: ٢٨]؛ فلو ردوا إلى الدنيا فسيكون منهم عودة إلى ما نهاهم الله عنه، وهذا لا يكون، ولكنه لو كان فسيكون بهذه الحال، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها، وهو عليم بها أثناء كونها، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف يكون، فسبحان من وسع علمه كل شيء!

فهو عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا؛ ونحن نؤمن أن الله متصف بجميع الصفات أزلا وأبدا.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس قد تنازعوا في القدر، وخاضوا فيه بغير علم، وهذا باب عظمت فيه الفتنة، وكثر فيه النزاع، وما يصيب الإنسان من الحيرة والضلال، إلا من جهة الجهل بالقدر". [1989].

قال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع". [1990]

وقد حدثت بدعة "القدرية" في آخر عصر الصحابة [1991]. وكان القدر قد حدث أهله قبل أهل النفي للصفات، فمقالة القدر ظهرت في خلافة عبد الله الزبير–رضي الله عنه–(٦٤–٧٣هـ) بعد موت معاوية. [1992]

ولهذا تكلم فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع. [1993] – رضي الله عنهم–.

[1989] () مجموع الفتاوى، (8/ 262).

[1990] () شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٤٠).

[1991] () منهاج السنة (٣٠٨/١).

[1992] () الحسنة والسيئة (ص: ١٠٣).

[1993] () منهاج السنة (ص: ١٠٣).

وابن عباس–رضي الله عنهما–مات (٦٨هـ) قبل ابن الزبير وابن عمر مات عقب موته (٧٤هـ). وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين، فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز، والشام، والعراق، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة، وأقله كان بالحجاز. [1994]

وأول من عرف بنفي القدر، رجل مجوسي يقال سيسويه من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهني. [1995]

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فأما القدر فأول من تكلم به معبد الجهني رجل من أهل البصرة، كان عنده حظ من العلم يقال له معبد بن خالد، ويقال معبد ابن عبد الله بن عويم، مات بعد الهزيمة وكان يومئذ مع ابن الأشعث، وأصابته جراحة، وهو أول من تكلم بالقدر، وهو الذي تبرأ منه عبد الله بن عمر بن الخطاب. [1996] مات قبل التسعين [1997] قتله الحجاج بن يوسف وقيل صلبه عبد الملك بن مروان سنة ثمانين". [1998]

وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني [1999]

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فتكلم عليه عمرو بن عبيد، وجادل به غيلان بن مسلم الدمشقي (ت: ١٠٦ هـ) وغيلان هو ابن أبي غيلان أبو مروان من موالي عثمان، وكان عنده حظ من

[1994]() الحسنة السيئة (ص: ١٠٣).
[1995]() تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).
[1996]() ذم الكلام (ص: ٣٠٣).
[1997]() سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).
[1998]() تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).
[1999]() سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

العلم، تكلم به أيام عبد الملك بن مروان-رحمه الله-(ت: ٨٦ هـ)، واستتابه عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-(ت: ١٠١ هـ)، ثم ظهر منه تكذيب التوبة [2000] زمن يزيد بن عبد الملك-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ)، ثم لما ولى هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦هـ)، أرسل إلى غيلان وأحضر له الأوزاعي لمناظرته، ثم قتله [2001] فصلب على باب الشام بأخزى حالة لقيها بشر". [2002]

"وأما عمرو بن عبيد فهو عمرو بن كيسان أبو عثمان مولى بني تميم البصري، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة في طريق مكة فإنه أول من بسط أساسه فأصبح رأسه، ونظم له كلامًا ونصبه إمامًا، ودعا إليه ودل عليه، فصار مذهبًا يسلك، وهو إمام الكلام وداعية الزندقة الأولى رأس المعتزلة، سموا به لاعتزاله حلقة الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، وهو الذي لعنه إمام أهل الأثر مالك بن أنس الأصبحي-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وإمام أهل الرأي النعمان بن ثابت الكوفي أبو حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، وحذر منه إمام أهل الشرق عبد الله بن المبارك الحنظلي-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، فسلط الله عليه وعلى من استتبع واخترع، سيفاً من سيوف الإسلام وهو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني-رحمه الله-(ت: ١٣١ هـ)، فهتك استاره، وأظهر عواره، ورسمه باللعنة وألحق به بلاء تلك الفتنة". [2003]

فقد تلقَّف المعتزلة مقالة القدرية حتى بعد ذلك أصبح إذا قيل: القدرية، فإن الذي يعنى بذلك هم المعتزلة في ذلك الحين.

[2000]() ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

[2001]() الشريعة للآجري (ص: ٢٢٨)، التنبيه والرد للملطي (ص: ١٦٨).

[2002]() ذم الكلام ص: ٣٠٣).

[2003]() ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

ونفاة القدر أرادوا منازعة الله في الربوبية فضاهوا بذلك المجوسية الأولى وهم الزنادقة. [2004]

وأصل بدعة القدرية كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أن ذلك ممتنع؛ وكانوا قد آمنوا بدين الله وآمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يفسد.

فلما بلغ قولهم بإنكار القدر الصحابة أنكروه إنكاراً عظيماً وتبرؤا منهم. ثم كثر الخوض في القدر فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم، وصار النزاع في الإرادة وخلق أفعال العباد فصاروا في ذلك حزبين.

١- "النفاة": يقولون لا إرادة إلا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد إلا ما أمر به، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد.

٢- "المجبرة" كالجهم بن صفوان (ت: ١٢٨ هـ) وأمثاله، قابلوا الفريق الأول فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة، بل الله هو الفاعل القادر فقط. [2005]

أولًا: الموقف من مرتبة العلم والكتابة.

والقدرية [2006] ينقسمون إلى قسمين:

[2004]() ذم الكلام (ص: ٣٠٥).

[2005]() مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦،٣٧).

[2006]() سموا بالقدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضًا، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٧٩)، و (٢/ ٧٩٧)، معجم ألفاظ العقيدة (ص: ٣١٦).

القدرية الأولى

وهؤلاء هم الغلاة الذين أنكروا القدر وأنكروا علم الله السابق بالأمور، "فيقولون إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، ولا تعلقت بها مشيئة الله، فلما شنع عليهم المسلمون، وكفروهم بذلك: تحولوا عن قولهم الأول فأثبتوا العلم، وأنكروا القدر.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا التقدير– أي: تقدير العلم والكتابة– قد كان ينكره غلاة القدرية قديما، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها". [2007].

فغلاة القدرية يقولون والعياذ بالله–: إن الله لا يعلم أن العبد سيعمل هذا العمل إلا عند وقوعه. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء أزلا

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، وغيره، يقولون: "ناظروا القدرية بالعلم فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا". [2008]

قال حافظ حكمي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٧ هـ): "ثم منهم من نفى علم الله تعالى كأوليهم، ففيهم من نفى علمه بالكليات والجزئيات ومنهم من أثبت العلم بالكليات دون الجزئيات". [2009]

قال النووي –رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله– تبارك وتعالى– قدر الأشياء في القدم، وعلم– سبحانه– أنها ستقع في أوقات معلومة عنده –سبحانه وتعالى–، وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها –سبحانه وتعالى–، وأنكرت القدرية

[2007]() شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢١٩).

[2008]() الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ٢٠)، مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٠).

[2009]() معارج القبول (٣/ ٩٤٥).

هذا، وزعمت أنه –سبحانه وتعالى– لم يقدرها، ولم يتقدم علمه –سبحانه وتعالى– بها، وأنها مستأنفة العلم، أي: إنما يعلمها– سبحانه– بعد وقوعها، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة علوًا كبيرًا.

وسميت هذه الفرقة قدرية؛ لإنكارهم القدر؛ قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، لكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره". (2010)

والنصوص في العلم والكتابة– بحمد الله تعالى– كثيرة وواضحة في الدلالة على هاتين المرتبتين: العلم والكتابة، كما تقدم ذكرهما.

ثانيًا: الموقف من مرتبة الخلق والمشيئة.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما الدرجة الثانية فهي مشيئته النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه– سبحانه– على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات؛ فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه

2010() شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤).

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي –صلى الله عليه وسلم– مجوس هذه الأمة، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها". (2011)

فالقدرية الثانية:

زعموا "أن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات، وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل: هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها، استقلالاً بدون مشيئة الله". (2012)

"فهؤلاء يقولون أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، وهذا هو مذهب المعتزلة ومن وافقهم، فهم ينكرون مرتبتي المشيئة والخلق، فينفونها عن الله تعالى، ويثبتونها للإنسان". (2013)

وافترقت القدريَّة إلى عشرين فرقة، وهذه أسماؤها: الواصلية، والعمرية، والهذلية، والنظامية، والمردارية، والمعمرية، والثمامية، والجاحظية، والخياطية، والشحامية، وأصحاب صالح قبة، والمريسية، والكعبية، والجبائية، والبهشيمية المنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائي". (2014)

وابن تيمية–رحمه الله–يشير هنا إلى كل من القدرية والجبرية

2011() شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢٢٠-٢٢١).

2012() الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ١٧).

2013() القضاء والقدر لعبد الرحمن المحمود (ص: ٣٠٥).

2014() الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي (ص: 44).

وقد ضَـــلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلى يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر على أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشـــة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَـــح **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: هذا في «مَجموع الفَتاوى» قول أهل الســـنة فقال: "وهم في باب خَلقِ الله وأمرِه وســـطٌ بين المكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشِـــيئته الشـــاملة وخَلقِه لكل شـــيء، وبين المفســـدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِـيئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِـيرون بمَنزِلة المشـركين الذين قالوا: {لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} [الأنعام: الآية: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّـنَّة بأنَّ الله على كل شـيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبهم، وأنه ما شـاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شـيء من الأعيان والصِّفات والحَرَكات. ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مَجْبورًا؛ إذ المجْبور مَن أُكْرِه على خلاف اختِياره، والله عز وجل جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شـيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صـفاته ولا في أفعاله". (2015)

وقال عبد الرحمن بن ناصر بن سِعْدي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٦ هـ): "وهدَى الله أهلَ السُّنَّة والجَمَاعَة للتوسُّط بين طائفتين منحرفتينِ هم القدرية والجبرية، فآمَنوا بقضاء الله وقدَره وشُمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي مِن جُملتِها أفعالُ المكلَّفين وغيرهم، وآمَنوا بأنه ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعَل للعِباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالُهم وأفعالهم على حسب اختِيارهم وإرادتهم، فآمَنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشيئة، وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهم، وعَلِموا أن الأمرينِ لا يَتنافيانِ". (2016).

(2015) مَجموع الفَتاوى (3/ 373-374).

(2016) التنبيهات اللطيفة (ص: 61، 62).

وبهذا يتبين أن الملازمة الفاسدة إنما هي في أذهان وعقيدة القدرية إذ لا تنافي بين مشيئة الله ومشيئة العبد في معتقد أهل السنة والجماعة.

المسألة السابعة: ورود لفظ الخير والشر في نصوص الشرع.

هذا اللفظ ورد في قوله-صلى الله عليه وسلم-عندما سأله جبريل-عليه السلام-عن الإيمان: ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**)). [2017]

والحديثُ دَلَّ دلالةً ظاهرةً على مذهبِ أهلِ السنَّةِ في إثباتِ القَدَرِ ووجوبِ الإيمانِ بجميعِ المقادير: خيرِها وشـــرِّها، حُلْوِها ومُرِّها، نَفْعِها وضـــرِّها، قليلِها وكثيرِها، وأنه واقعٌ مِن الله-تعالى-على العباد في الوقت الذي أراد أَنْ يَقَعَ، لا يَتقدَّمُ الوقتَ ولا يَتأخَّرُ على ما سَبَقَ بذلك في علمِ الله، تجري الواقعاتُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وتحت تصـرُّفه وإرادته؛ فما شـاءَ كان وما لم يَشَـأْ لم يكن، وما أصـابَ العبدَ لم يكن لِيُخْطِئَه وما أَخطأَهُ لم يكن لِيُصيبَه، وما تَقَدَّمَ لم يكن لِيتأخَّرَ وما تَأخَّرَ لم يكن لِيَتَقدَّمَ؛ فلا مانِعَ لِمَا أعطى ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، ولا يكون في مُلْكِه إلَّا ما يُريدُ، وهو ـ سبحانه ـ غيرُ ظلَّامٍ للعبيد.

وجاء في لفظ: ((**أن تؤمن بالقدر خيره وشـــره، حلوه ومره**)). بزيادة حلوه ومره، قد جاءت في عدة أحاديث:

فمنها حديث عمر الطويل في قصـة جبريل، وأصـل الحديث في الصـحيح، ولكن هذه الزيادة عند ابن حبان. [2018]

2017 رواه مسلم (8).

2018 رواه ابن حبان في صـحيحه، (١/ ٣٩٠)، مِن حديثِ عبد الله بنِ عمر عن أبيه-رضـي الله عنهما.-وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: (168)-صحيح.

وحديث ابن عمر عند ابن أبي شيبة [2019] والبيهقي والطبراني، والسنة لابن أبي عاصم.[2020] وكذلك في حديث جبريل الطويل، وحديث عبد الله بن عمرو عند الطبراني في الأوسط[2021]، وحديث عدي بن حاتم عند ابن ماجه[2022]، وحديث أنس عند ابن النجار[2023].

المسألة الثامنة: معنى عبارة "خيره وشره".

وقال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "إنها من باب التقرير بالإبدال، يعني أنها وردت لتأكيد المعنى". [2024]

ويمكن أن يقال: إن لفظ خيره وشره أعم من حلوه ومره، فهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وذلك لأن الخير قد يكون مراً، والشر قد يكون حلواً، قال تعالى : {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة: الآية: 216].

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "الفرق بين كون القدر خيرا شرا وكونه حلوا ومرا قيل الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوئها فهو حلو ومر في مبدأه وأوله، وخير وشر في منتهاه وعاقبته، وقد أجرى الله سبحانه سنته وعادته أن حلاوة الأسباب في

2019 الإيمان لابن أبي شيبة: (119)، وقال الألباني صحيح ورجاله ثقات لكنه في صحيح مسلم من طرق أخرى.

2020 تخريج كتاب السنة (172) وقال الألباني: إسناده ضعيف.

2021 المعجم الأوسط للطبراني (3/ 112)، وقال لم يرو هذا الحديث عن مقاتل إلا عمر تفرد به محمد بن يعلى، وأورده ابن الوزير اليماني في العواصم والقواصم: (6/ 290)، وقال: رجاله موثقون.

2022 أخرجه ابن ماجة (87) والطبراني (17/ 81) (182)، انظر: مجمع الزوائد: (9/ 406)، والحديث فيه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك، وقال الألباني ضعيف جدًا (ضعيف ابن ماجة: 17) وقال أيضًا في تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم: (135) إسناده ضعيف جدًا.

2023 أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء: (8/ 287)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (23/ 208)، وأبو طاهر السلفي في الطيوريات (297).

2024 فتح الباري: (1/ 118).

العاجل تعقب المرارة في الآجل، ومرارتها تعقب الحلاوة فحلو الدنيا مر الآخرة ومر الدنيا حلو الآخرة، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل اللذات تثمر الآلام والآلام تثمر اللذات، والقضاء والقدر منتظم لذلك انتظاما لا يخرج عنه شيء البتة.

والشر مرجعه إلى الآلام وأسبابها، والخير مرجعه إلى اللذات وأسبابها، والخير المطلوب هو اللذات الدائمة، والشر المرهوب هو الآلام الدائمة، فأسباب هذه الشرور وإن اشتملت على لذة ما وأسباب تلك الخيرات وإن اشتملت على ألم ما، فألم تعقبه اللذة الدائمة أولى بالإيثار والتحمل من لذة يعقبها الألم الدائم، فلذة ساعة في جنب ألم طويل كلا لذة وألم ساعة في جنب لذة طويلة كلا ألم[2025]".**المسألة الثالثة: مسألة نسبة الشر إلى الله–عز وجل–.**

ويجدرُ التنبيهُ والإشارةُ إلى أنَّ وَصْفَ القَدَرِ بالشرِّ واقعٌ في مفعولات الله –تعالى–ومقدوراتِه المنْفَصِلةِ عنه التي لا يَتَّصِـفُ بها، دون أفعاله القائمةِ به؛ فأفعالُ الله –تعالى–كُلُّها خيرٌ وحكمةٌ؛ ولهذا قال صـلَّى الله عليه وسلَّم :((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)). [2026]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "معنى قول السلف من أصول الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره...أن القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيئته وذلك خير محض وكمال من كل وجه فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرًا بالنسبة إلى محل وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه، بل هذا هو الغالب.

2025 شفاء العليل لابن القيم (2/ 733).

2026 جزءٌ مِن حديثٍ رواهُ مسلمٌ في "صلاة المسافرين وقَصْرِها" (٦/ ٥٧-٦٠) (بابُ صلاةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ودعائِه في الليل، مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ–رضي الله عنه–.

وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة...

فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل خير وحكمة ومصلحة...

في امتناع إطلاق القول نفيا وإثباتا أن الرب تعالى مريد للشر وفاعل له هذا موضع خلاف اختلف فيه مثبتو القدر ونفاته:

فقال النفاة: لا يجوز أن يقال إن الله سبحانه مريد للشر أو فاعل له قالوا لا يريد الشر وفاعله شرير هذا هو المعروف لغة وعقلا وشرعا كما أن الظالم فاعل الظلم والفاجر فاعل الفجور ومريده والرب يتعالى ويتنزه عن ثبوت معاني أسماء السوء له فإن أسمائه كلها حسنى وأفعاله كلها خير فيستحيل أن يريد الشر فالشر ليس بإرادته ولا بفعله قالوا وقد قام الدليل على أن فعله سبحانه غير مفعوله والشر ليس بفعل له فلا يكون مفعولا له.

وقابلهم الجبرية فقالوا: بل الرب سبحانه يريد الشر ويفعله قالوا لأن الشر موجود فلا بد له من خالق ولا خالق إلا الله وهو سبحانه إنما يخلق بإرادته فكل مخلوق فهو مراد له وهو فعله ووافقوا إخوانهم على أن الفعل عين المفعول والخلق نفس المخلوق ثم قالوا والشر مخلوق له ومفعول فهو فعله وخلقه وواقع بإرادته قالوا وإنما لم يطلق القول إنه يريد الشر ويفعل الشر أدبا لفظيا فقط كما لا يطلق القول بأنه رب الكلاب والخنازير ويطلق القول بأنه رب كل شيء وخالقه قالوا وأما قولكم إن الشرير مريد الشر وفاعله فجوابه من وجهين:

أحدهما: إنما يمنع ذلك بأن الشرير من قام به الشر وفعل الشر لم يقم بذات الرب فإن أفعاله لا تقوم به إذ هي نفس مفعولاته وإنما هي قائمة بالخلق وكذلك اشتقت لهم منها الأسماء كالفاجر والفاسق والمصلي والحاج والصائم ونحوها.

الجواب الثاني: أن أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء قالوا والرب تعالى أعظم من أن يكون في ملكه مالا يريده ولا يخلقه فإنه الغالب غير المغلوب.

وتحقيق القول في ذلك: أنه يمتنع اطلاق إرادة الشر عليه وفعله نفيا وإثباتا في إطلاق لفظ الإرادة والفعل من إبهام المعنى الباطل ونفي المعنى الصحيح فإن الإرادة تطلق بمعنى المشيئة وبمعنى المحبة والرضا فالأول كقوله إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ وقوله :وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ وقوله : {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} [الإسراءك الآية: ١٦]، والثاني: كقوله: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: الآية: ٢٧]، وقوله:{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: الآية: ١٨٥]، فالإرادة بالمعنى الأول تستلزم وقوع المراد ولا تستلزم محبته والرضا به وبالمعنى الثاني لا تستلزم وقوع المراد وتستلزم محبته فإنها لا تنقسم بل كل ما أراده من أفعاله فهو محبوب مرضي له ففرق بين إرادة أفعاله وإرادة مفعولاته فإن أفعاله خير كلها وعدل ومصلحة وحكمة لا شر فيها بوجه من الوجوه وأما مفعولاته فهي مورد الانقسام وهذا إنما يتحقق على قول أهل السنة أن الفعل غير المفعول والخلق غير المخلوق كما هو الموافق للعقول والفطر واللغة ودلالة القرآن والحديث وإجماع أهل السنة كما حكاه البغوي في شرح السنة عنهم وعلى هذا فهاهنا إرادتان ومرادان إرادة أن يفعل ومرادها فعله القائم به وإرادة أن يفعل عبده ومرادها مفعوله المنفصل عنه وليسا بمتلازمين فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه كما أراد من إبليس أن يسجد لآدم ولم يرد من نفسه أن يعينه على السجود ويوفقه له ويثبت قلبه عليه ويصرفه إليه ولو أراد ذلك منه لسجد له لا محالة وقوله فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إخباره عن إرادته لفعله لا لأفعال عبيده وهذا الفعل والإرادة لا ينقسم إلى خير وشر كما تقدم وعلى هذا فإذا قيل هو مريد للشر أوهم أنه محب له راض به وإذا قيل أنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كونه وكلاهما باطل ولذلك إذا قيل أن الشر فعله أو أنه يفعل الشر أوهم أن الشر فعله القائم به وهذا محال وإذا قيل لم يفعله أو ليس بفعل له أوهم أنه لم يخلقه ولم يكونه وهذا محال فأنظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبين بالاستفصال والتفصيل وأن الصواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى لا وصفا ولا فعلا ولا يتسمى باسمه بوجه من الوجوه وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم كقوله تعالى {قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق: الآيات: 1-2] فما هاهنا موصولة أو مصدرية والمصدر بمعنى المفعول أي من شر الذي خلقه أو من شر مخلوقه وقد يحذف فاعله كقوله حكاية عن مؤمني الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: الآية: 10]، وقد يسند إلى محله القائم به كقول إبراهيم الخليل {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: الآيات: 78-80]، وقول الخضر {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: الآية: 79}، وقال في بلوغ الغلامين {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [الكهف: الآية: 82] وقد جمع الأنواع الثلاثة في الفاتحة في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: الآيات: 6-7]، والله تعالى إنما نسب إلى نفسه الخير دون الشر فقال تعالى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: الآية: 26]، وأخطأ من قال المعنى بيدك الخير والشر لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله تعالى نوعان فضل وعدل كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع**)). [2027] فالفضل لإحدى اليدين والعدل للأخرى وكلاهما خير لا شر فيه بوجه.

الثالث: أن قول النبي صلى الله عليه وسلم :((**لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك**)). [2028] كالتفسير للآية ففرق بين الخير والشر وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وقطع إضافة الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء. [2029]

2027 رواه البخاري (7411)، ومسلم (193).

2028 رواه مسلم (771).

2029 المصدر: شفاء العليل لابن القيم (2/ 733).

المسألة التاسعة: معنى قول المصنف "لا يكون إلَّا ما أراد الله –عز وجل–وقضاه وقدره".

وفيه أمور:

الأمر الأولى: الفرق بين القضاء والقدر.

تعددت الأقوال في الفرق بين القضاء والقدر:

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن القضاء والقدر مترادفان.

وهذا موافق لقول بعض أئمة اللغة الذين فسروا القدر بالقضاء.

قال الفيروزآبادي–رحمه الله–(ت: ٨١٧ هـ): "القدر: "القضاء والحكم". [2030]

القول الثاني: وذهب آخرون من العلماء إلى التفريق بينهما.

ولكن اختلفوا في أيهما أعم وأسبق

فمنهم من ذهب إلى أن القضاء سابق على القدر.

فقال:

القضاء: هو ما علمه الله وحكم به في الأزل.

والقدر: هو وجود المخلوقات موافقة لهذا العلم والحكم.

قال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "قال العلماء:

القضاء: هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل.

والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله". [2031]

وقال في موضع آخر: "

القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل.

2030 القاموس المحيط (ص: 591).

2031 فتح الباري (11/ 477)

والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل". [2032]

وقال الجرجاني–رحمه الله–(ت: ٨١٦ هـ): "

القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد، مطابقا للقضاء.

والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال.

والفرق بين القدر والقضاء: هو أن

القضاء: وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة.

والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها". [2033]

ومن العلماء فريق آخر عكس هذا القول، فجعلوا القدر سابقًا على القضاء:

فالقدر: هو الحكم السابق الأزلي.

والقضاء: هو الخلق.

قال الراغب الأصفهاني–رحمه الله–(ت: ٥٠٢ هـ): "والقضاء من الله تعالى أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير، **فالقدر** هو التقدير، **والقضاء** هو الفصل والقطع.

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المِعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، ويشهد لذلك قوله تعالى: **{وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}** [مريم: الآية: ٢١]، وقوله: **{كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}** [مريم: الآية: ٧١]، وقوله: **{وَقُضِيَ الأَمْرُ}** [هود: الآية: ٤٤]. أي فصل، تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه ". [2034]

القول الثالث: ومن العلماء من اختار أنهما بمعنى واحد إذا افترقا، فإذا اجتمعا في عبارة واحدة: صار لكل واحد منهما معنى.

2032 فتح الباري (11/ 149).

2033 التعريفات (ص: 174).

2034 المفردات (ص: 675).

قال ابن عثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "

القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** [القمر: الآية: 49]، وقال تعالى: **{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}** [المرسلات: الآية: 23].

وأما القضاء؛ فهو في اللغة: الحكم.

ولهذا نقول: إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرقا؛ على حد قول العلماء: هما كلمتان: إن اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

فإذا قيل: هذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعًا؛ فلكل واحد منهما معنى.

فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا.

فإن قال قائل: متى قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى: **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان: الآية: 2]؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

إما أن نقول: إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رؤوس الآيات.

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [طه: الآية: 70]؛ لتتناسب رؤوس الآيات.

وهذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

أو نقول: إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على قدر معين؛ كقوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}** [الأعلى: الآية: 2]؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية.

وهذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}**؛ فلا إشكال". [2035]

والخلاصة: أن الخطب في هذه المسألة يسير جدا، وليس وراءها كبير فائدة، ولا تتعلق بعمل ولا اعتقاد، وغاية ما فيها اختلاف في التعريف، ولا دليل من الكتاب والسنة يفصل فيها، والمهم هو الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان، والتصديق به.

قال الخطابي رحمه الله بعد أن ذكر أن القدر هو التقدير السابق وأن القضاء هو الخلق، قال: "جماع القول في هذا الباب -أي القضاء والقدر-أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه". [2036] انتهى.

وقال الشيخ عبد الرحمن المحمود: "لا فائدة من هذا الخلاف؛ لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر... فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل عليه الآخر". [2037].

وعلى المسلم أن يتيقن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فالآجال والأعمار والذوات والأشخاص والصفات والحركة والسكون والأفعال وكل شيء قد قضاه الله وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ، قال تعالى: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [الأنعام: الآية:59].

فلا بد للمسلم أن يؤمن بقضاء الله وقدره في كل شيء، وأن الله قد علم الأشياء قبل كونها، وكتبها في اللوح المحفوظ، وأراد كل شيء في هذا الوجود قضاءً وقدراً، وخلق كل شيء في هذا الوجود.

الأمر الثاني: أن القدر حجة في المصائب لا في المعائب.

والناس في الشرع والقدر على " أربعة أنواع "

2035 شرح العقيدة الواسطية (2/ 189).

2036 معالم السنن (2/ 323)

2037 القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة (ص: 44).

الصنف الأول: فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره يستند إليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن إليه في المصائب كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

الصنف الثاني: وبإزاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}** [غافر: الآية: ٥٥]، وقال تعالى: **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}** [الحديد: الآيات: ٢٢ – ٢٣]، وقال تعالى **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [التغبن: الآية: ١١]، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: الآية: ١٣٥]. وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام أنه لما فعل ما فعل قال {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: الآية: ٢٣]، وعن إبليس أنه قال {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: الآية: ٣٩]، فمن تاب أشبه أباه آدم ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس.

والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى. ((**أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا علي قبل أن أخلق {وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ} [طه: الآية: ١٢١]، قال: بكذا وكذا سنة قال فحج آدم موسى**)).

وهذا الحديث في الصحيحين من حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** وقد روي بإسناد جيد من حديث **عمر–رضي الله عنه–(ت: ٢٣ هـ)**. فآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة لم يكن لومه له لأجل حق الله في الذنب. فإن آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى **{فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}** [البقرة: الآية: ٣٧]، وقال تعالى **{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ}** [طه: الآية: ١٢٢]، وموسى–ومن هو دون موسى–عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة فإن هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم وحجة لفرعون عدو موسى وحجة لكل كافر وفاجر وبطل أمر الله ونهيه؛ بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه. وقد قال تعالى: **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}** [التغابن: الآية: ١١].

وقال **أنس–رضي الله عنه–(ت: ٩٣ هـ)**: ((**خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي: أف قط ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته؟ وكان بعض أهله إذا عاتبني على شيء يقول دعوه فلو قضي شيء لكان**)). [2038]

وفي الصحيحين **عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**، قالت ((**ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا نيل منه شيء**

2038 أخرجه البخاري (6038)، ومسلم (2309).

قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله)).
2039

وقد قال صلى الله عليه وسلم ((**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**)). **2040**

ففي أمر الله ونهيه يسارع إلى الطاعة ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله ولا تأخذه في الله لومة لائم وإذا آذاه مؤذ أو قصر مقصر في حقه عفا عنه ولم يؤاخذه نظرا إلى القدر.

فهذا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير فعل آدمي كالمصائب السماوية أو بفعل لا سبيل فيه إلى العقوبة كفعل آدم عليه السلام فإنه لا سبيل إلى لومه شرعا-لأجل التوبة-ولا قدرا؛ لأجل القضاء والقدر. وأما إذا ظلم رجل رجلا فله أن يستوفي مظلمته على وجه العدل وإن عفا عنه كان أفضل له كما قال تعالى **{وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}** [المائدة: الآية: ٤٥].

وأما "الصنف الثالث": فهم الذين لا ينظرون إلى القدر لا في المعائب ولا في المصائب التي هي من أفعال العباد بل يضيفون ذلك كله إلى العبد وإذا أساءوا استغفروا وهذا حسن؛ لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذي مضى به عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه فلو قضي شيء لكان لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها وقد قال تعالى **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران: الآية: ١٦٥]، وقال تعالى **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}** [الشورى: الآية: ٣٠]، وقال

2039 أخرجه البخاري (3560)، ومسلم (2327).
2040 أخرجه البخاري (3475).

تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: الآية: ٤٨]. ومن هذا قوله تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: الآية: ٧٨]، {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [النساء: الآية: ٧٩]. فإن هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتي القدر ونفاته: هؤلاء يقولون الأفعال كلها من الله لقوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ} [النساء: الآية: ٧٨]. وهؤلاء يقولون: الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [النساء: الآية: ٧٩]. وقد يجيبهم الأولون بقراءة مكذوبة {فَمِن نَّفْسِكَ} بالفتح على معنى الاستفهام وربما قدر بعضهم تقديرا: أي أفمن نفسك؟ وربما قدر بعضهم القول في قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ} فيقولون: تقدير الآية {فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: الآية: ٧٨]، يقولون فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ويجعلون ما هو من قول الله–قول الصدق–من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم ويضمرون في القرآن ما لا دليل على ثبوته، بل سياق الكلام ينفيه؛ فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي تنصره.

وأما القرآن فالمراد منه هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب؛ ليس المراد الطاعات والمعاصي وهذا كقوله تعالى: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران: الآية: ١٢٠]، وكقوله: {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة: الآية: ٥٠]، {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا} [التوبة: الآية: ٥١]، الآية.

ومنه قوله تعالى **{وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الأعراف: الآية: ١٦٨]، كما قال تعالى: **{وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** [الأنبياء: الآية: ٣٥]، أي بالنعم والمصائب. وهذا بخلاف قوله **{مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [الأنعام: الآية: ١٦٠]، وأمثال ذلك فإن المراد بها الطاعة والمعصية وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشكال؛ بل هو مبين. وذلك أنه إذا قال: **{مَّا أَصَابَكَ}** [النساء: الآية: ٧٩]، وما {مسك} ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك كما قال: **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}** [النساء: الآية: ٧٩]. وكما قال تعالى **{إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ}** [التوبة: الآية: ٥٠]، وقال تعالى **{وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}** [النساء: الآية: ٧٨].

وإذا قال **{مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ}** [الأنعام: الآية: ١٦٠]، كانت من فعله لأنه هو الجائي بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به. وسياق الآية يبين ذلك فإنه ذكر هذا في سياق الحض على الجهاد وذم المتخلفين عنه فقال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا}** [النساء: الآية: ٧١] وقال تعالى: **{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا}** [النساء: الآية: ٧٢]، وقال تعالى: **{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}** [النساء: الآية: ٧٣]. فأمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه وتارة من فضل الله فيه كما أصابهم يوم أحد مصيبة فقال: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ**

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: الآية: ١٦٥]. وأصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}** [آل عمران: الآية: ١٢٣].ثم إنه سبحانه قال: **{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}** [النساء: الآية: ٧٤] ،**{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ}** [النساء: الآية: ٧٥]، -إلى قوله- **{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ}** [النساء: الآية: ٧٩]، فهذا من كلام الكفار والمنافقين إذا أصابهم نصر وغيره من النعم قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا: هذا من عند محمد بسبب الدين الذي جاء به، فإن الكفار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان.

وقد ذكر نظير ذلك في قصة موسى وفرعون قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}** [الأعراف الآية: ١٣٠]، **{فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ}** [الأعراف الآية: ١٣٠]. ونظيره قوله تعالى في سورة يس **{قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}** [يس الآية: ١٦]، **{وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** [يس الآية: ١٧] **{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [يس الآية: ١٨]، فأخبر الله تعالى أن الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فإذا أصابهم بلاء جعلوه بسبب أهل الإيمان وما أصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى **{فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}** [النساء الآية: ٧٨]، والله تعالى نزل أحسن الحديث فلو فهموا القرآن لعلموا أن الله أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر أمر بالخير ونهى عن الشر فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر

بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}** [النساء الآية: ٧٩]، أي ما أصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة أنعم بها عليك وإن كانت بسبب أعمالك الصالحة فهو الذي هداك وأعانك ويسرك لليسرى ومن عليك بالإيمان وزينه في قلبك وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان. وفي آخر الحديث الصحيح الإلهي حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى ((**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**)). [2041] وفي الحديث الصحيح ((**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة**)). [2042] ثم قال تعالى **{وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ}** [النساء الآية: ٧٩]، من ذل وخوف وهزيمة كما أصابهم يوم أحد **{فَمِن نَّفْسِكَ}** أي بذنوبك وخطاياك وإن كان ذلك مكتوبا مقدرا عليك فإن القدر ليس حجة لأحد لا على الله ولا على خلقه، ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ولم يقاتل مشرك ولم يقم حد ولم يكف أحد عن ظلم أحد؛ وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول.

فالقدر يؤمن به ولا يحتج به،

فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس.

ومن احتج به ضارع المشركين.

2041 أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
2042 أخرجه البخاري (6306).

ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيها بإبليس.

فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه وأنه قال **{بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}** [الحجر: الآية: ٣٩]". [2043]

المسألة العاشرة: حكم إضافة الشر إلى الله–عز وجل–.

القول الأول: قول أهل السنة.

ويجدرُ التنبيهُ والإشارةُ إلى أنَّ وَصْفَ القَدَرِ بالشرِّ واقعٌ في مفعولات الله –تعالى–ومقدوراتِه المنْفَصِلةِ عنه التي لا يَتَّصِـفُ بها، دون أفعاله القائمةِ به؛ فأفعالُ الله –تعالى–كُلُّها خيرٌ وحكمةٌ؛ ولهذا قال صـلَّى الله عليه وسلَّم :((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))[2044]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "معنى قول السلف من أصول الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره...أن القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيئته وذلك خير محض وكمال من كل وجه فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرا بالنسبة إلى محل وخيرا بالنسبة إلى محل آخر وقد يكون خيرا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه، بل هذا هو الغالب.

وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة...

2043 مجموع الفتاوى ٨/ ١٠٨ – ١١٥.

2044 جزءٌ مِن حديثٍ رواهُ مسلمٌ في "صلاة المسافرين وقَصْرِها"٦ /٥٧ ـ ٦٠ (بابُ صلاةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ودعائِه في الليل، مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل خير وحكمة ومصلحة...

القول الثاني: أقوال المخالفين.

في امتناع إطلاق القول نفيا وإثباتا أن الرب تعالى مريد للشر وفاعل له هذا موضع خلاف اختلف فيه مثبتو القدر ونفاته:

فقال النفاة: لا يجوز أن يقال إن الله سبحانه مريد للشر أو فاعل له قالوا لا يريد الشر وفاعله شرير هذا هو المعروف لغة وعقلا وشرعا كما أن الظالم فاعل الظلم والفاجر فاعل الفجور ومريده والرب يتعالى ويتنزه عن ثبوت معاني أسماء السوء له فإن أسمائه كلها حسنى وأفعاله كلها خير فيستحيل أن يريد الشر فالشر ليس بإرادته ولا بفعله قالوا وقد قام الدليل على أن فعله سبحانه غير مفعوله والشر ليس بفعل له فلا يكون مفعولا له.

وقابلهم الجبرية فقالوا: بل الرب سبحانه يريد الشر ويفعله قالوا لأن الشر موجود فلا بد له من خالق ولا خالق إلا الله وهو سبحانه إنما يخلق بإرادته فكل مخلوق فهو مراد له وهو فعله ووافقوا إخوانهم على أن الفعل عين المفعول والخلق نفس المخلوق ثم قالوا والشر مخلوق له ومفعول فهو فعله وخلقه وواقع بإرادته قالوا وإنما لم يطلق القول إنه يريد الشر ويفعل الشر أدبا لفظيا فقط كما لا يطلق القول بأنه رب الكلاب والخنازير ويطلق القول بأنه رب كل شيء وخالقه قالوا وأما قولكم إن الشرير مريد الشر وفاعله فجوابه من وجهين:

أحدهما: إنما يمنع ذلك بأن الشرير من قام به الشر وفعل الشر لم يقم بذات الرب فإن أفعاله لا تقوم به إذ هي نفس مفعولاته وإنما هي قائمة بالخلق وكذلك اشتقت لهم منها الأسماء كالفاجر والفاسق والمصلي والحاج والصائم ونحوها.

الجواب الثاني: أن أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء قالوا والرب تعالى أعظم من أن يكون في ملكه مالا يريده ولا يخلقه فإنه الغالب غير المغلوب.

وتحقيق القول في ذلك: أنه يمتنع اطلاق إرادة الشر عليه وفعله نفيا وإثباتا في إطلاق لفظ الإرادة والفعل من إبهام المعنى الباطل ونفي المعنى الصحيح فإن الإرادة تطلق بمعنى المشيئة وبمعنى المحبة والرضا فالأول كقوله إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ وقوله :وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ وقوله : {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} [الإسراءك الآية: ١٦]، والثاني: كقوله: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: الآية: ٢٧]، وقوله:{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: الآية: ١٨٥]، فالإرادة بالمعنى الأول تستلزم وقوع المراد ولا تستلزم محبته والرضا به وبالمعنى الثاني لا تستلزم وقوع المراد وتستلزم محبته فإنها لا تنقسم بل كل ما أراده من أفعاله فهو محبوب مرضي له ففرق بين إرادة أفعاله وإرادة مفعولاته فإن أفعاله خير كلها وعدل ومصلحة وحكمة لا شر فيها بوجه من الوجوه وأما مفعولاته فهي مورد الانقسام وهذا إنما يتحقق على قول أهل السنة أن الفعل غير المفعول والخلق غير المخلوق كما هو الموافق للعقول والفطر واللغة ودلالة القرآن والحديث وإجماع أهل السنة كما حكاه البغوي في شرح السنة عنهم وعلى هذا فهاهنا إرادتان ومرادان إرادة أن يفعل ومرادها فعله القائم به وإرادة أن يفعل عبده ومرادها مفعوله المنفصل عنه وليسا بمتلازمين فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه كما أراد من إبليس أن يسجد لآدم ولم يرد من نفسه أن يعينه على السجود ويوفقه له ويثبت قلبه عليه ويصرفه إليه ولو أراد ذلك منه لسجد له لا محالة وقوله فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إخباره عن إرادته لفعله لا لأفعال عبيده وهذا الفعل والإرادة لا ينقسم إلى خير وشر كما تقدم وعلى هذا فإذا قيل هو مريد للشر أوهم أنه محب له راض به وإذا قيل أنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كونه وكلاهما باطل ولذلك إذا قيل أن الشر فعله أو أنه يفعل الشر أوهم أن الشر فعله القائم به وهذا محال وإذا قيل لم يفعله أو ليس بفعل له أوهم أنه لم يخلقه ولم يكونه وهذا محال فأنظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبين بالاستفصال والتفصيل وأن الصواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى لا وصفا ولا فعلا ولا يتسمى باسمه بوجه من الوجوه وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم كقوله تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق: الآيات: 1-2] فما هاهنا موصولة أو مصدرية والمصدر بمعنى المفعول أي من شر الذي خلقه أو من شر مخلوقه وقد يحذف فاعله كقوله حكاية عن مؤمني الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: الآية: 10]، وقد يسند إلى محله القائم به كقول

إبراهيم الخليل {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: الآيات: 78-80]، وقول الخضر {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: الآية: 79}، وقال في بلوغ الغلامين {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [الكهف: الآية: 82] وقد جمع الأنواع الثلاثة في الفاتحة في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: الآيات: 6-7]، والله تعالى إنما نسب إلى نفسه الخير دون الشر فقال تعالى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: الآية: 26]، وأخطأ من قال المعنى بيدك الخير والشر لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله تعالى نوعان فضل وعدل كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع**)). [2045] فالفضل لإحدى اليدين والعدل للأخرى وكلاهما خير لا شر فيه بوجه.

الثالث: أن قول النبي صلى الله عليه وسلم :((**لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك**)). [2046] كالتفسير للآية ففرق بين الخير والشر وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وقطع إضافة الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء.[2047]

2045 رواه البخاري (7411)، ومسلم (193).

2046 رواه مسلم (771).

2047 المصدر: شفاء العليل لابن القيم (2/ 733).

[أفضل الأمة بعد نبيها]

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله–عز وجل–.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة.

المسألة الثالثة: عدالة الصحابة.

المسألة الرابعة: الأدلة على عدالة الصحابة.

المسألة الخامسة: وجوب اتباع سبيلهم.

المسألة السادسة: وجوب محبتهم.

المسألة السابعة: القول بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم.

المسألة الثامنة: الإمساك عما شجر بينهم.

[١٧]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن خير الناس بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب-رضوان الله عليهم-أجمعين، وأتولاهم، وأستغفر لهم، ولأهل الجمل، وصِفين، القاتِلين والمقتولين، وجميع أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-أجمعين-رضي الله عنهم-".**

الشرح

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله-عز وجل-.

المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله-عز وجل-وما كان بيد الله-عز وجل-فهو ملكه، والله سبحانه وتعالى قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [القصص: الآية: ٦٨]، فالله اختار أن يفضل فلان على فلان من الناس وهذه المفاضلة قد تكون في المال، وقد تكون في العلم، وقد تكون في النسب، وقد تكون في أمورٍ متعددة فهذا فضل الله سبحانه وتعالى، وفضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى.

والله سبحانه وتعالى قال: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [النساء: الآية: 32].

وقال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [النحل: الآية: 71].

وكتب عمر-رضي الله عنه-رسالة إلى أبي موسى الأشعري، يقول له فيها: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلًا، فيبتلي من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبي حاتم. [2048]

فقد يُفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين الذكر والأنثى، قد يفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين الإخوة، وقد يفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين بني الجنس الواحد، كل ذلك تحت قدرته، وتحت إرادته-سبحانه وتعالى-حتى في الأولاد، {لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: الآيتان: 49-50]، فقد يكون الإنسان عقيمًا، وقد يكون ذا أولاد من الذكور أو الإناث أو من الذكور والإناث.

فالإنسان في هذا الكون يسير على قدر الله-سبحانه وتعالى-، والله-سبحانه وتعالى-هو المتصرف والمدبر لأمر هذا الكون كله، وكله ابتلاء، فالنعمة ابتلاء وضدها ابتلاء، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: الآية: 2]، كل أمرٍ نحن فيه هو ابتلاء.

ليرى الله عز وجل منك ما أنت صانع وما أنت فاعل، فإذاً هذه المفاضلة موجودة، ولا شك أن أهل الإيمان أفضل من الكفار، وأكبر نعمة منها الله عز وجل على الإنسان أن هداه لهذا الدين، والله سبحانه وتعالى سماه نعمة، {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: الآية: 3]، فسماها نعمة ولا شك أنها أعظم النعم على العبد أن هداه الله-عز وجل-لنعمة الإسلام.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة.

والصحابة هم في الفضل متفاوتون؛ فمن أنفق قبل الفتح (صُلح الحديبية) لا يستوي مع مَن أنفق بعده، وكذلك المهاجرون مُقَدَّمون على الأنصار، ويأتون في الفضل على مراتب؛ فأهل بدر، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم من جاء بعدُ.

2048 الدر المنثور: (5/ 106) وعزاه لابن أبي حاتم.

وقد جاء في فضل أهل بدر؛ قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((**لعلَّ اللهَ اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة-أو-فقد غفرتُ لكم**)). (2049)، وقال الله-جل وعلا-عن أهل بيعة الرضوان: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: الآية: 18]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

أولاً: هذه المسائل المتعلقة بالمفاضلة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يذكرها العلماء دائماً توطئة لمسائل الخلافة والإمامة.

فمسألة تفضيل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على باقي الصحابة، ويدخل فيها مسألة تفضيل عثمان على علي.

وأهل السنة يعتقدون بأن خير هذه الأمة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر وعمر وعثمان، ثم علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك يأتي بقية العشرة، ثم يأتي بعد هذا أهل بدر، ثم يأتي بعد ذلك أهل بيعة شجرة الرضوان، ثم بعد ذلك يأتي أهل الفتح فتح مكة ثم بعد ذلك يتوالى الفضل بحسب أقدمية ذلك الذي أسلم من الصحابة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ-رضي الله عنه-وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-، كما دلَّت عليه الآثارُ". [2050]

(2049) أخرجه البخاري (3983) ومسلم (2494) من حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-.

2050 مجموع الفتاوى (2/ 91).

وقد أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وإن كان بعض السلف قد اختلفوا في التفضيل بين عثمان وعلي-فإنهم لم يختلفوا في الترتيب في البيعة للخلافة، وكل مَن خالف الترتيب في الخلافة فإنه من أهل البدع.

وترتيب أهل السنة: "أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-".

وإن كان ثَمَّ خلاف في التفضيل بين عثمان وعليٍّ، ولكنه لا يترتب عليه أي أثر في الانتساب لأهل السنة؛ "فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة على تقديم عُثْمَان ثم عليٍّ".

كانتْ هذه المِسْأَلَةُ (مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِهِ».

فلهم مِن الفضل ومِن المكانة ما هو مُجمع عليه بين أهل السُّنَّة.

ثانيًا: ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم. [2051]

أجمع الصحابة-رضوان الله عليهم-على تفضيل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة ثم تفضيل عمر بعده على عثمان ثم عثمان بعد عمر على من بعده-رضوان الله عليهم-، وكانوا يتحدثون بذلك في زمن النبي-صلى الله عليه وسلم-وهو يسمعهم فلا ينكره، ثم أجمعوا على تقديم علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة.

2051 المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة: (ص: 252-264).

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر على عثمان ثم عثمان على علي-رضي الله عنهم أجمعين-، وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

ولقد اتفق-الناس-الصحابة وغيرهم-بعد مقتل عمر-رضي الله عنه-على تفضيل عثمان، حكى هذا الاتفاق صاحب رسول الله-صلى عليه وسلم-، عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود-رضي الله عنهما-، أما عبد الرحمن فقد قال في قصة بيعة عثمان-رضي الله عنه-لما اختاره للخلافة بعد عمر: "أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان". [2052] وكان قد قال-رضي الله عنه-قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي-رضي الله عنهما-حين التشاور: "أفتجعلونه-(يعني أمر الاختيار)-إلي والله على أن لا آلو عن أفضلكم". [2053] وقال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-لما استخلف عثمان:

[2052] أخرجه البخاري انظره مع الفتح (13/ 194)، وقد كان عبد الرحمن-رضي الله عنه-قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث (ص: 155): "حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحدًا".

[2053] أخرجه البخاري انظره مع الفتح (7/ 61).

" أمرنا خير من بقي ولم نأل". [2054] وقال-رضي الله عنه-: "إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خيرنا ذي فوق فبايعنا أمير المؤمنين عثمان". [2055]

وقال الإمام أحمد: "لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف إن عثمان أفضل من علي". [2056]

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ما كان من خلاف يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي أيهما أفضل؟ بعد أن أجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر عليهما في الفضل بلا خلاف.

وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

قال الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان". قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، -بعد ذكره قول الشافعي هذا بسنده-: "وروينا عن جماعة من التابعين وأتباعهم نحو هذا". [2057]

[2054] أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (1/ 461)، قال المحقق: "إسناده صحيح"، وابن سعد في الطبقات (3/ 63)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ 760)، والخلال في السنة (ص: 38)، وقال الهيثمي في المجمع (9/ 88): "رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح"، وأخرجه اللالكائي في الشرح (7/ 1342).

[2055] أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (1/ 296، 463)، قال المحقق في (ص: 296): "رجال الإسناد ثقات، وقال في (ص: 467): "إسناده حسن"، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (3/ 63)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (2/ 761)، وأخرجه اللالكائي في الشرح. (7/ 1342).

[2056] السنة للخلال (ص: 392).

2057 الاعتقاد (ص: 369).

وقال يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "من أدركت من أصحاب النبي والتابعين لم يختلفوا في أبي بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف في علي وعثمان[2058] والخلاف الذي وقع في ذلك خلاف يسير، وما وقع إلا في المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر في الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي في الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي إلى تقديم عثمان.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي–رضي الله عنهما–بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا، قال: "لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة–مسألة عثمان وعلي–ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله". [2059]

قال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "الإجماع انعقد بأخره بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة". [2060]

2058 شرح أصول اعتقاد أهل السنة (7/ 1367).

2059 العقيدة الواسطية–ضمن المجموعة العلمية السعودية–(ص: 86).

2060 فتح الباري (7/ 34).

وروى ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ) بسنده أن مالكًا سُئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا. وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس". [2061]

ولقد روى الخلال–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ) بسنده عن أيوب السختياني–رحمه الله–(ت: ١٣١ هـ) أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان". [2062]

هذا، وقد ذكر **ابن حزم–رحمه الله–(ت: ٤٥٦ هـ)** [2063] عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم سمى بعضهم، أن منهم من قال: أفضل الناس بعد النبي–صلى الله عليه وسلم–جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة، وأن منهم من قال إن أفضل الناس بعد النبي–صلى الله عليه وسلم–عبد الله بن مسعود، وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض السلف من غير أن يذكر إسنادًا؛ لما رواه عنهم.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما ما يحكي عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة لا تقديمًا عامًا وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي". [2064]

ويشهد لما قاله ابن تيمية من كلام **ابن حزم–رحمه الله–(ت: ٤٥٦ هـ)** نفسه فقد حمل ما ورد عن أم سلمة–رضي الله عنها–في ذكرها زوجها قبل النبي–صلى الله عليه وسلم–على أنه مذهبها في التفضيل،

2061 الانتقاء (ص: 30، 39).

2062 السنة (ص: 403).

2063 انظر الفصل (4/ 111).

2064 منهاج السنة (٢/2 74).

قال: "وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين-رضي الله عنها-(ت: مابين ٥٧ إلى ٦٤ هـ)، أنها تذكرت الفضل ومن هو خير فقالت: ومن هو خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-[2065]، والمروي عن أم سلمة في ذلك ما جاء في سياق قصة زواجها بالنبي-صلى الله عليه وسلم-من قولها: "فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه"، قال: "ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجها منه-صلى الله عليه وسلم-حتى قولها: "فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله-صلى الله عليه وسلم-[2066] وحمل ما ورد في هذه الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد رسول الله-كما حمله ابن حزم-عجيب غاية العجب، ولقد وردت أحاديث في تفضيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في حديث: ((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)). [2067] ونحو ذلك من الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

وقد روى الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ) بسنده **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، أنه قال: "وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا ركب الكور رجل أفضل من جعفر". ثم **قال**

2065 الفصل (4/ 111).

2066 أخرجه أحمد في المسند (4/ 27، 28)، (6/ 313، 317، 321)، والحاكم (4/ 16)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر الفتح الرباني (21/ 67، 68)، وأصله في صحيح مسلم (2/ 633).

2067 أخرجه الترمذي (5/ 623)، وابن ماجه (1/ 255)، وأحمد في المسند (3/ 184، 281).

الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "هذا ثابت عن أبي هريرة، ولا ينبغي أن يزعم زاعم أن مذهبه: أن جعفرًا أفضل من أبي بكر وعمر، فإن هذا الإطلاق ليس هو على عمومه، بل يخرج منه الأنبياء والمرسلون، فالظاهر أن أبا هريرة لم يقصد أن يدخل أبي بكر ولا عمر–رضي الله عنهم–". [2068]

ومن قبيل ما ذكره **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) ما حكاه الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ)** عن بعض المتأخرين إذ قال: "وللمتأخرين في هذا مذاهب، منهم من قال بتقديم أبي بكر من جهة الصحابة وبتقديم علي من جهة القرابة".

قال: وكان بعض مشايخنا يقول: أبو بكر خير وعلي أفضل قال: وباب الخيرية غير باب الفضيلة، قال: وهذا كما تقول: إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومي والحبشي، وقد يكون العبد الحبشي خيرًا من هاشمي في معنى الطاعة لله والمنفعة للناس، فباب الخيرية متعد وباب الفضيلة لازم[2069] وهذا الذي حكاه الخطابي هو في معنى ما تقرر من أنه قد تكون في المفضول فضيلة لا توجد في الفاضل من غير أن ينال ذلك من تفضيل الفاضل على المفضول، والله أعلم.

وكان **ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** قال: "اختلف السلف أيضا في تفضيل علي وأبي بكر". [2070]

2068 السير (14/ 506).

2069 معالم السنن–بهامش المختصر– (7/ 18، 19).

2070 الاستيعاب –بهامش الإصابة– (3/ 52).

قال الزركشي–رحمه الله–(ت: ٧٩٤ هـ): "قد غلط في ذلك ووهم"[2071] كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف على أن عليا أفضل الناس بعد عثمان". [2072]

وحاصل ما كان عليه أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي قبل انعقاد إجماعهم على تفضيل عثمان ثلاثة مذاهب:

الأول: تفضيل عثمان ثم علي–وكان مذهب الجمهور.

الثاني: تفضيل علي ثم عثمان–وكان قد ظهر في أهل الكوفة.

الثالث: التوقف عن المفاضلة بينهما، وكان قد ظهر في أهل المدينة.

فالمذهب الأول: هو الذي كان عليه عامة أهل السنة كما قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ) [2073] والخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ) [2074]، وابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)[2075] وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء بحديث ابن عمر المتقدم، وهم لا يقدمون على علي أحدًا بعد الثلاثة، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، وصرح رحمه الله بأن

2071 الإجابة (ص: 54).

2072 انظر الاستيعاب (3/ 52).

2073 الاستيعاب (3/ 54).

2074 معالم السنن –بهامش المختصر– (7/ 18).

2075 فتح الباري (7/ 11).

التوقف عند عثمان إنما هو عمل بحديث ابن عمر فقال: نقول أبو بكر وعمر وعثمان ونسكت، على حديث ابن عمر". [2076]

وقال رحمه الله: "فإن قال قائل من بعد عثمان؟ قلت: علي". [2077]

وقال-رحمه الله-لمن سأله عمن قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، قال: "أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبو بكر وعمر وعثمان وأسكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولا يعجبني هذا القول".

قال ابن عمر-رضي الله عنه-(ت: ٧٣ هـ): "أبو بكر وعمر وعثمان، ونترك أصحاب رسول الله له لا نفضل بينهم". [2078]

وقال-رحمه الله-: "من وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة". [2079]

وهذا المسلك مروي عن جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)، وبشر بن الحارث-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)، ويزيد بن زريع-رحمه الله-(ت: ١٨٢ هـ)، ومحمد بن عبيد-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، وغيرهم[2080]، وسبق بيان أن

2076 السنة للخلال (ص: 397).

2077 السنة للخلال (ص: 4. 5).

2078 السنة للخلال (ص: 4-5).

2079 طبقات الحنابلة (1/ 313).

2080 انظر السنة للخلال (397، ٤٠٠، 402، 403، 410)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (7/ 1389، 1392، 1369).

ما ورد في حديث ابن عمر من السكوت عن علي متأول بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر.

وأما المذهب الثاني: وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبي بكر وعمر فهو كان مذهب عامة أهل الكوفة.

قال الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ): "ذهب أكثر أهل الكوفة إلى تقديمه–يعني عليا–على عثمان رضي الله عنهما قال: "وحدثني محمد بن هاشم حدثنا أبو يحيى بن أبي ميسرة عن عبد الصمد قال: قلت **لسفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)**: "ما قولك في التفضيل؟ فقال: أهل السنة من أهل الكوفة يقولون: أبو بكر وعمر وعلي وعثمان، وأهل السنة من أهل البصرة يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، قلت: فما تقول أنت؟ قال: أنا رجل كوفي.

قال الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ): "قلت: وقد ثبت عن سفيان أنه قال في آخر قوليه: "أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم". [2081]، وكما رجع سفيان الثوري رجع غيره من أهل الكوفة. كما قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إن سفيان الثوري وطائفة من الكوفة رجحوا علياً ثم عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره". [2082]

2081 معالم السنن–بهامش المختصر–(7/ 18).

2082 الفتاوى 4/ 426؛ وانظر منهاج السنة (2/ 73، 74).

وقال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "ذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، ويقال إنه رجع عنه، وقال به ابن خزيمة–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ)، وطائفة قبله وبعده[2083]

هذا وقد **روى الخلال–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ) بسنده عن يحيى بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)** أنه قال: "كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر ثم يقف". [2084]

وكان التوقف مذهب يحي بن سعيد–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "بلغني أن يحي كان يقف عند ذكر عمر" قال: "وكان يأخذه من سفيان"[2085] يعني الثوري، فلا أدري متى كان التوقف من سفيان؟ والله أعلم.

وأما المذهب الثالث: وهو التوقف عن المفاضلة بينهم، فهو رواية عن مالك، ففي المدونة **قال ابن القاسم–رحمه الله–(ت: ١٩١ هـ)**: "وسألت مالكًا عن خير الناس بعد نبيهم–صلوات الله وسلامه عليه–، فقال: أبو بكر ثم قال: أو في ذلك شك؟ قال ابن القاسم: فقلت لمالك: فعلي وعثمان أيهما أفضل فقال: ما أدركت أحدا ممن أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه–يعني عليا وعثمان–ويرى الكف عنهما". [2086]

2083 فتح الباري (7/ 16) وانظر الباعث الحثيث (ص: 156).

2084 السنة (٣/ 37)، وقال المحقق: "إسناده صحيح".

2085 رواه الخلال بسنده في السنة (ص: 372)، وقال المحقق وإسناده صحيح).

2086 المدونة (6/ 451).

وروى ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ) بسنده أن مالكًا سئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا. وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس". [2087]

وروى اللالكائي–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ) بسنده أن مالكًا سئل عن علي وعثمان فقال: "ما أدركت أحدًا ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما، يريد التفضيل بينهما، فقيل له: فأبو بكر وعمر فقال: ليس في أبي بكر وعمر شك، يريد أنهما أفضل من غيرهما". [2088]

وقد ذكر ابن تيمية أن مالكًا رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان ثم علي فقال: "أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما وهي إحدى الروايتين عن مالك". [2089]

وقال في موضع آخر: "وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة". [2090]

وقد اعتمد **ابن رشد–رحمه الله–(ت: ٥٩٥ هـ)** في كلام له تقديم عثمان ثم علي في مذهب مالك وقال: "وقيل: إنه الذي رجع إليه مالك بعد أن وقف في عثمان وعلي، فلم يفضل أحدهما على صاحبه

2087 الانتقاء (30، 39).

2088 شرح أصول الاعتقاد (7/ 368).

2089 منهاج السنة (2/ 73).

2090 الفتاوى (4/ 426).

على ظاهر ما وقع في كتاب الديات من المدونة" قال ابن رشد-رحمه الله-(ت: ٥٩٥ هـ): "على أنه كلام محتمل للتأويل". [2091]

وذكر السيوطي-رحمه الله-(ت: ٩١١ هـ) أنه قد حكى القاضي عياض-رحمه الله-(ت: ٥٤٤ هـ)، عن الإمام مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان، قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "وهو الأصح إن شاء الله". [2092]

ولعل من وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجع إلى تفضيل عثمان على علي كما رجع مالك موافقة له في الرجوع بعد موافقته في التوقف، ولقد روى الخلال بسنده **عن أيوب السختياني-رحمه الله-(ت: ١٣١ هـ)** أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد-رحمه الله-(ت: ١٠٧ هـ) وسليمان-رحمه الله-(ت: ١٠٧ هـ) وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان". [2093]

وتوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة يحيى بن سعيد القطان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، من أهل البصرة وقد استغرب عبد الرحمن بن مهدي-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، ذلك فقال ليحيى: "بمن تقتدي في هذا وأهل البصرة ليس هذا قولهم؟!". [2094]

2091 الجامع من المقدمات (174) وانظر حاشية المحقق رقم: (3).

2092 تدريب الراوي (2/ 223)، وانظر لوامع الأنوار (2/ 356).

2093 السنة (ص: 403).

2094 السنة للخلال (ص: 372، 373).

وذكر ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ) أن يحيى القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، تبع مالكا في التوقف[2095]، ولكن قد سبق قبل قليل قول الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) أن يحيى أخذ التوقف عن سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، ويحيى قد حكى هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيى بن معين قال: "قال يحيى بن سعيد: كان رأي سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ): أبو بكر وعمر ثم يقف، قال يحيى بن معين–رحمه الله–(ت: ٢٣٣ هـ): "وهو رأي يحيى بن سعيد" [2096] كأنه يشير إلى أن ذلك منه موافقة سفيان فيما رواه عنه. والله أعلم.

والحاصل أن ما روي عن أئمة السلف من تقديم علي على عثمان أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي.

وهذا هو المذهب الحق الذي لا يجوز العدول عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما من حديث ابن عمر وإجماع الصحابة على تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم، ولذلك قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "كل من قدم عليًا ثم عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار". [2097] وكذلك قال حماد بن زيد–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ) [2098] وروي نحو

2095 فتح الباري (7/ 16).

2096 السنة (ص: 373).

2097 السنة للخلال ص 392.

2098 شرح أصول الاعتقاد 7/ 1370.

ذلك عن جماعة من الأئمة كسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، والدارقطني-رحمه الله-(ت: ٣٨٥ هـ) وغيرهم. [2099]

حتى إن الأئمة قد تكلموا في تبديع من يقدم علياً على عثمان على قولين. [2100]

وروي عن بعضهم أنه قال: من قدم عليًا على عثمان فعليه لعنة الله، وبعضهم قال: فهو أحمق. [2101]

المسألة الثالثة: عدالة الصحابة.

أولًا: معنى العدالة في اللغة:

قال الجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "العدل خلاف الجور، يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل، وبسط الوالي عدله ومعدلته، وفلان من أهل المعدلة، أي: من أهل العدل، ورجل عدل، أي: رضا ومقنع في الشهادة، وهو في الأصل مصدر، وقوم عدل وعدول أيضًا: وهو جمع عدل وقد عدل الرجل بالضم عدالة.. إلى أن قال: وتعديل الشيء: تقويمه، يقال: عدلته فاعتدل، أي: قومته فاستقام". [2102]

2099 انظر السنة للخلال 370، و392 والفتاوى 4/ 422، 426، 428.

2100 انظر السنة للخلال هي 380-832، والفتاوى 4/ 426.

2101 انظر شرح أصول الاعتقاد 7/ 1370.

2102 الصحاح للجوهري (ص: ١٧٦٠-١٧٦١)، مختار الصحاح (ص: ٤١٥-٤١٦).

وجاء في القاموس: "العدل ضد الجور، وما قام في النفوس أنه مستقيم كالعدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة".[2103]

"فمن هذه التعاريف اللغوية تبين أن معنى العدالة في اللغة الاستقامة، وأن العدل هو الذي لم تظهر منه ريبة وهو الذي يرضى الناس عنه، ويقبلون شهادته ويقنعون بها".[2104]

ثانيًا: العدالة شرعًا:

عرفها **ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ)**، بقوله: "المراد بالعدل من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى: اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة"[2105].

المسألة الرابعة: الأدلة على عدالة الصحابة وفضلهم ومكانتهم.

لقد تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعديل الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، مما لا يبقى معها شك لمرتاب في تحقيق عدالتهم، فكل حديث له سند متصل بين من رواه وبين المصطفى-صلى الله عليه وسلم-لم يلزم العمل به إلا بعد أن تثبت عدالة رجاله ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل

2103 القاموس (٤/ ١٣).

2104 عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، لناصر بن علي (٢/ ٧٩٦).

2105 نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص: ٢٩).

الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم بنص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ذلك:

أ-الأدلة من القرآن

١- قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة: الآية: ١٤٣].

ووجه الاستدلال بهذه الآية على عدالة الصحابة-رضي الله عنهم-أن وسطا بمعنى "عدولا خيارا".[2106]، ولأنهم المخاطبون بهذه الآية مباشرة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن اللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد به الخصوص، وقيل: "إنه وارد في الصحابة دون غيرهم".[2107]

٢-قال تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: الآية: ١١٠].

قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٧٩٠ هـ): "سنة الصحابة-رضي الله عنهم-سنة يعمل عليها ويرجع إليها، ومن الدليل على ذلك أمور:

2106 انظر جامع البيان (٢/ ٧)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٣٥).

2107 انظر الكفاية للخطيب البغدادي (ص: ٦٤).

أحدها: ثناء الله عليهم من غير مثنوية ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها كقوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: الآية: ١١٠]، وقوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة: الآية: ١٤٣]، ففي الآية الأولى: إثبات الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقضي باستقامتهم في كل حال، وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة.

وفي الثانية: إثبات العدالة مطلقًا، وذلك يدل على ما دلت عليه الأولى. ولا يقال إن هذا عام في الأمة، فلا يختص بالصحابة دون من بعدهم لأنا نقول:

أولا: ليس كذلك بناء على أنهم المخاطبون على الخصوص ولا يدخل معهم من بعدهم إلا بقياس وبدليل آخر.

ثانيا: على تسليم التعميم أنهم أول داخل في شمول الخطاب، فإنهم أول من تلقى ذلك من الرسول عليه الصلاة والسلام وهم المباشرون للوحي.

ثالثا: أنهم أولى بالدخول من غيرهم، إذ الأوصاف التي وصفوا بها لم يتصف بها على الكمال إلا هم فمطابقة الوصف للاتصاف شاهد على أنهم أحق من غيرهم بالمدح، وأيضا: فإن من بعد الصحابة من أهل السنة عدلوا الصحابة على الإطلاق والعموم فأخذوا عنهم رواية ودراية من غير استثناء ولا محاشاة، بخلاف غيرهم فلم يعتبروا منهم إلا من صحت إمامته وثبتت عدالته وذلك مصدق لكونهم أحق بذلك المدح من غيرهم، فيصح أن يطلق على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط، أي: عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر وعملهم مقتدى به".[2108]

2108 الموافقات (٤/ ٤٠-٤١).

٣-قال تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** [الأنفال: الآية: 74].

ففي هذه الآية وصف الله تعالى عموم المهاجرين والأنصار بالإيمان الحق ومن شهد الله له بهذه الشهادة فقد بلغ أعلى مرتبة العدالة.

٤- قال تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [التوبة: الآية: ١٠٠].

ولا خلاف بين أهل العلم في أن الآية تتحدث عن الصحابة، إلا أن الخلاف في من هم هؤلاء الصحابة، فقد **قال ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**: "إنهم هم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدرا، **وعن الشعبي-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)**: "هم الذين بايعوا بيعة الرضوان". (2109)

وقال أبو موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٢ هـ)، وسعيد بن المسيب-رحمه الله-(ت: ٩٤ هـ)، ومحمد بن سيرين-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ) والحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، وقتادة-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ)، "هم الذين صلوا إلى القبلتين مع الرسول-صلى الله عليه وسلم-". (2110)

(2109) التفسير الكبير، الرازي، (١٦/ ١٣٤).

(2110) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٧٠).

وذكر الله تعالى رضاه عنهم في قوله: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}** "ولما وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التعظيم" (2111)، "ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم". (2112).

وقال ابن خويز منداد–رحمه الله–(ت: ٣٩٠ هـ): "تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة في علم، أو دين، أو شجاعة، أو غير ذلك". (2113)، فرضي الله –سبحانه وتعالى– عن هؤلاء فيه بيان لفضلهم وتميزهم عن غيرهم.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فرَضِيَ عن السابقين عن غير اشتراط إحسان، ولم يرضَ عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان". (2114)

قال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "ووجه دلالة هذه الآية على عدالتهم رضي الله عنهم أن الله تعالى أخبر فيها برضاه عنهم ولا يثبت الله رضاه إلا لمن كان أهلا للرضا، ولا توجد الأهلية لذلك إلا لمن كان من أهل الاستقامة في أموره كلها عدلا في دينه.

ومن أثنى الله تعالى عليه بهذا الثناء كيف لا يكون عدلا وإذا كان التعديل يثبت بقول اثنين من الناس فكيف لا تثبت عدالة صفوة الخلق وخيارهم بهذا الثناء الصادر من رب العالمين.

(2111) التفسير الكبير، الرازي، (١٦/ ١٣٥).

(2112) تفسير ابن كثير، ٧/ ٢٧٠.

(2113) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الجزء الثاني، المجلد الرابع، (ص: ٤١٣).

(2114) "الصارم المسلول" (ص: 572).

فقد أخبر الله-تعالى-في هذه الآية أنه رضي عن هؤلاء رضًا مطلقًا، ورَضي عمن بعدهم رضًا مقيدًا، وهو شرط اتباعهم بإحسان؛ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل مَن أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض-أو سَبَّ-بَعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخَيرهم وأفضلهم-أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم-أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم؛ عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون مَن قدم الله ذكرهم ورفع شأنهم.

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المفلحون وعباده المؤمنون". (2115).

قال محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "ولا يخفى أنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو دليل قرآني صريح في أن من يسبهم ويبغضهم، أنه ضال مخالف لله جل وعلا، حيث أبغض من رضي الله عنه؛ ولا شك أن بغض من رضي الله عنه مضادة له جل وعلا، وتمرد وطغيان". (2116)

(2115) تفسير ابن كثير» (4/ 203).

(2116) أضواء البيان (٢/ ٥٥٨).

٥- قال تعالى: **{لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: الآية: ١٨].

وهذه الآية فيها دلالة واضحة على تعديل الصحابة الذين كانوا مع النبي-صلى الله عليه وسلم-يوم الحديبية، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة ووجه دلالة الآية على تعدليهم-رضي الله عنهم- أن-الباري جل وعلا-أخبر برضاه عنهم، وشهد لهم بالإيمان وزكاهم بما استقر في قلوبهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ولا تصدر تلك التزكية العظيمة من ـ الرب-جل وعلا-ـ إلا لمن بلغ الذروة في تحقيق الاستقامة على وفق ما أمر الله به والصحابة-رضي الله عنهم-كانوا في مقدمة من استقاموا في جميع الأحوال.

فالآية فيها بيان أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله: **{لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}** وأما طاعة الرسول-صلى الله عليه وسلم-فبقوله: **{إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ}** بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى: **{لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}** لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة، كما قال عز وجل ـ **{وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}** [المجادلة: الآية: ٢٢].

٦- قال تعالى: **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [الفتح: الآية: ٢٩].

قال ابن الجوزي–رحمه الله–(ت: ٥٩٧ هـ): "وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور".[2117]

قال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ)، عند تفسيره لهذه الآية: "فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة، وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر، فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث وهذا مردود فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى: {مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد"[2118].

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): " ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبو ملك ودنيا.

2117 زاد المسير: (1/ 204).

2118 الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٩٩).

ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعدلهم وعلمهم ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها و {من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا} [الكهف: ١٧]".[2119]

٧-قال تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}** [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢].

فالصحابة-رضي الله عنهم-هم السابقون من أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-إلى كل خير، وإلى تحصيل كل قربة فيها رضى الرب-جل وعلا-، ولا يصدر ذلك إلا ممن تحقق بوصف العدالة.

قال أبو محمد بن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ) بعد أن ذكر أفضلية جماعات الصحابة حسب سبقهم إلى الإسلام وحسب المشاهد، قال: "فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار-رضي الله عنهم-إلى تمام بيعة الرضوان فإنا نقطع على غيب قلوبهم وأنهم كلهم مؤمنون صالحون، ماتوا على الإيمان والهدى والبر كلهم من أهل الجنة لا يلج أحد منهم النار البتة لقول الله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}** [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢] وقوله تعالى: **{لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}** [الفتح: الآية: ١٨]، إلى أن قال: . فمن أخبر الله عنهم بذلك فلا يحل لأحد أن يتوقف في أمرهم ولا الشك فيهم البتة".[2120]

2119 زاد المعاد (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

2120 ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة (ص: ٢٦٥-٢٦٦).

٨- قال تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}** [الحشر: الآيات: ٨-10].

فالصادقون هم المهاجرون، والمفلحون هم الأنصار، بهذا فسر **أبو بكر الصديق (ت: ١٣ هـ)** هاتين الكلمتين من الآيتين حيث قال في خطبته يوم السقيفة مخاطبا الأنصار: "إن الله سمانا "الصادقين" وسماكم "المفلحين"، وقد أمركم أن تكونوا حيثما كنا، فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** [التوبة: الآية: ١١٩]".[2121]

ولذلك أهل السنة-والحمد لله-قلوبهم سليمة دائمًا من الغل أو الحقد والحسد تجاه الصَّحب والآل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد زَكَّى المهاجرين والأنصار ومَن جاءوا بعدهم مُستغفرين لهم.

٩-وقال تعالى: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** [النساء: 115].

2121 العواصم من القواصم (ص: ٤٤-٤٥).

والمراد بـ{المؤمنين} في الآية: أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله-جل وعلا-: **{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ}**.

١٠-وقال تعالى: **{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [الحديد: الآية: ١٠].

وقال أبو محمد بن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): "وكلهم عدول فاضل من أهل الجنة قال الله تعالى **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا}** [الفتح: الآية: ٢٩]. وقال تعالى: **{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** وقال تعالى: **{إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**

هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: الآيات: ١٠١-١٠٣]، قال أبو محمد: هذه مواعيد الله تعالى ووعد الله مضمون تمامه وكلهم ممن مات مؤمنا قد آمن وعمل الصالحات". [2122].

١١- قال تعالى: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ} [النمل: الآية: 59]**.

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، وسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ): "هم أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-اصطفاهم الله لنبيه-رضي الله عنهم-" [2123].

قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) في الذين اصطفاهم: "هم الذين اجتباهم لنبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-فجعلهم أصحابه ووزراءه" [2124]

قال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "يقول سفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، والسدي-رحمه الله-(ت: ١٢٧ هـ) في هذه الآية: "هم أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-". [2125]

قال ابن عاشور-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "فلما أمر الله تعالى في هذه الآية رسوله أن يقول: **{وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ}** فقد عين له هذه الجملة ليقولها يسأل من الله أن يكرم عباده الذين اصطفى

2122 الإحكام في أصول الأحكام (٥/ ٩٠-٩١).

2123 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الجزء الثالث، المجلد السابع، (ص: ١٤٧).

2124 جامع البيان، الطبري، (٨/ ٧٠٢).

2125 تفسير ابن كثير: (3/ 503).

بالثناء عليهم في الملأ الأعلى وحسن الذكر؛ إذ قصارى ما يستطيعه الحاضر من جزاء الغائب على حسن صنيعه أن يبتهل إلى الله أن ينفعه بالكرامة".[2126]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وحقيقة الاصطفاء: "افتعال من التصفية، فيكون قد صفاهم من الأكدار، ولا ينقض هذا بما إذا اختلفوا؛ لأن الحق لم يعدهم بألا يختلفوا، وهذا لا يخرجهم من حقيقة الاصطفاء".[2127]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إنه لا ريب أنهم أفضل المصطفين من هذه الأمة".[2128]

وهذا أمر لا غرابة فيه بأن يصطفي الله–عز وجل–أفضل الأصحاب لأفضل الأنبياء وخاتمهم.

١٢–قال تعالى: **{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}** [الأحزاب: الآية: ٢٣].

تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآية وفيمن نزلت، إلا أنها اتفقت على أن المقصود بها هو أحد الصحابة أو جميعهم، فلم تخرج من دائرة الصحابة وفضلهم، ففي البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ)، **عن**

2126 التحرير والتنوير، ابن عاشور، المجلد الثامن، الجزء العشرون، (ص: ٨).

2127 إعلام الموقعين، ابن القيم، (٥/ ٥٦٨).

2128 منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، (١/ ٣٦٦)..

أنس بن مالك–رضي الله عنه–(ت: ٩٣ هـ) قال: "نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر (ت: ٣ هـ)".[2129] وفي رواية: "وفي أشباهه".[2130]

وعند مسلم: "وفي أصحابه".[2131]

وفي حديث عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)، قالت في قوله تعالى: **{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}** الآية: منهم طلحة بن عبيد الله–رضي الله عنه–(ت: ٣٦ هـ)، ثبت مع رسول الله–صلى الله عليه وسلم–حتى أصيبت يده، فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((**أوجب طلحة الجنة**)).[2132]

قال الشوكاني–رحمه الله–(ت: ١٢٥٠ هـ): "إن معنى الآية: أن من المؤمنين رجالا أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك يوم، أحد كحمزة (ت: ٣ هـ)، ومصعب بن عمير (ت: ٣ هـ)، وأنس بن النضر (ت: ٣ هـ)، **{وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}** قضاء نحبه حتى يحضر أجله، كعثمان بن عفان(ت: ٣٥ هـ)، وطلحة (ت: ٣٦ هـ)، والزبير (ت: ٣٦ هـ)، وأمثالهم، فإنهم مستمرون على ما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله–صلى الله عليه وسلم–والقتال لعدوه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم

2129 صحيح البخاري، (٤٧٨٣).

2130 صحيح البخاري، (٢٨٠٥).

2131 صحيح مسلم، (٤٩١٨).

2132 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٧/ ٣٤٤).

وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة، وجملة {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} معطوفة على صدقوا، أي: ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه".[2133]

ب-الأدلة من السنة.

ولقد تواترت الأحاديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-فيما يدل على فضل الصحابة-رضوان الله عليهم-ووجوب تعظيمهم وإكرامهم وكونهم خير قرون هذه الأمة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-. ولقد عقد البخاري (ت: ٢٥٦ هـ)، ومسلم (ت: ٢٦١ هـ). في صحيحيهما وكذا أهل السنن وغيرهم، كل منهم كتابا لفضائل الصحابة أوردوا فيه الكثير من الأحاديث الواردة في فضل الصحابة-رضوان الله عليهم-.

وأما دلالة السنة على تعديلهم وفضلهم-رضي الله عنهم-:

فقد وصفهم النبي-صلى الله عليه وسلم-في أحاديث يطول تعدادها وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم بتعدليهم، ومن تلك الأحاديث:

١ـ **عن عمران بن حصين-رضي الله عنهما-(ت: ٥٢ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: ((**خير أُمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو**

2133 فتح القدير، الشوكاني، (٣/ ٤٢١-٤٢٢).

ثلاثًا . ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن)). (2134)

٢- **وعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: ((**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**))[2135].

٣- **عن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٢ هـ)**، قال: صلينا المغرب مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: ((**ما زلتم ههنا**))، قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: ((**أحسنتم أو أصبتم**))، قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه، فقال: ((**النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**))[2136].

(2134) أخرجه البخاري (2535).

2135 صحيح البخاري ٢/٢٨٨، وانظر صحيح مسلم ٤/١٩٦٣.

2136 صحيح مسلم ٤/١٩٦١، ومسند أحمد (١٩٥٦٦).

٤-**وعن البراء-رضي الله عنه-(ت: ٧٢ هـ)**، قال: سمعت النبي-صلّى الله عليه وسلّم-أو قال: قال صلّى الله عليه وسلّم: ((**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله**)). (2137)

٥-وفي الصحيحين "أنه كان بين عبد الرحمن بن عوف (ت: ٣٢ هـ)، وبين خالد بن الوليد (ت: ٢١ هـ)، كلام، فقال رسول الله: ((**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**)). (2138)

قال ذلك لخالد بالنسبة إلى السابقين الأولين، فالصحابة هم خير هذه الأمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

٦-**عن عبد الله بن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-(ت: ٣٢ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((**إذا ذُكِرَ أَصْحابي فأَمْسِكُوا**)). (2139)

٧-وقد ثبت في "صحيح مسلم" عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**)). (2140)

(2137) أخرجه البخاري (3783)، ومسلم (75).

(2138) أخرجه البخاري (3673)، ومسلم (2540).

(2139) المعجم الكبير للطبراني (١٤٢٧)، أخرجه قوام السنة في الترغيب والترهيب (629) باختلاف يسير، وقال عنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (صحيح) انظر حديث رقم: (545). في صحيح الجامع.

(2140) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦).

٨- **عن أبي بكرة-رضي الله عنه-(ت: ٥١ هـ)**، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((..**ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب**)). الحديث.[2141]

وجه دلالة الحديث على عدالتهم رضي الله عنهم أن هذا القول صدر من النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم جمع من الصحابة في حجة الوداع وهذا من أعظم الأدلة على ثبوت عدالتهم حيث طلب منهم أن يبلغوا ما سمعوه منه من لم يحضر ذلك الجمع دون أن يستثني منهم أحدا.

قال ابن حبان-رحمه الله-(ت: ٣٥٤ هـ): "وفي قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((**ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب**))، أعظم دليل على أن الصحابة كلهم عدول ليس فيهم مجروح ولا ضعيف إذ لو كان فيهم أحد غير عدل لاستثنى في قوله صلى الله عليه وسلم وقال: ألا ليبلغ فلان منكم الغائب فلما أجملهم في الذكر بالأمر بالتبليغ من بعدهم دل ذلك على أنهم كلهم عدول وكفى بمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا".[2142]

٩-**عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((**يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيَقولونَ: فِيكُمْ مَن صاحَبَ رَسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتِي علَى النَّاسِ**

2141 صحيح البخاري (٣١/١)، صحيح مسلم (١٣٠٦/٣).

2142 الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (١/ ٩١).

زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ)). (2143).

هذه الأحاديث فيها دلالة واضحة على أن الصحابة عدول على الإطلاق حيث شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية المطلقة كما أخبر بأنهم أمان للأمة من ظهور البدع والحوادث في الدين ولا يخبر صلى الله عليه وسلم بهذا إلا لمن كانوا عدولا مستقيمين على الصراط المستقيم.[2144]

ج-أقوال السلف ومن تبعهم في عدالة الصحابة وفضلهم.

فمن أصول أهل السُّنَّة والجماعة: سلامةَ قلوبهم تجاه أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-،

قال حبر الأمة وترجمان القرآن **عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**: "إن الله-جل ثناؤه وتقدست أسماؤه-خص نبيه محمدا-صلى الله عليه وسلم-بصحابة آثروه على الأنفس والأموال، وبذلوا النفوس دونه في كل حال، ووصفهم الله في كتابه فقال: **{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [الفتح: الآية: ٢٩]. قاموا بمعالم الدين وناصحوا الاجتهاد للمسلمين حتى تهذبت طرقه وقويت أسبابه وظهرت آلاء الله، واستقر دينه ووضحت أعلامه، وأذل بهم الشرك، وأزال رؤوسه ومحا دعائمه، وصارت كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى

(2143) أخرجه البخاري (3649).

2144 المصدر: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، لناصر بن علي (٨٠٠-٨٠٨).

فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزكية، والأرواح الطاهرة العالية فقد كانوا في الحياة لله أولياء، وكانوا بعد الموت أحياء، وكانوا لعباد الله نصحاء، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها". (2145)

قال عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ): "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد–صلى الله عليه وسلم–خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ". (2146)

وذلك لأنهم حَمَلة ميراث النبوة، فهم علماء هذه الأمة وخيرها وأبرُّها، كما قال عنهم **ابن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)**: "مَن كان منكم مستنًّا، فليستنَّ بمَن قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا يُؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد، أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه، وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكوا بهديهم؛ فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم". (2147)

وقد عَلَّق **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** على هذا الأثر؛ فقال: "وقول عبد الله بن مسعود: "كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا": كلامٌ جامع، بيَّن فيه حُسن قَصدهم، ونيَّاتهم بر القلوب، وبيَّن فيه كمال المعرفة، ودقتها بعمق العلم، وبيَّن فيه تيسير ذلك عليهم، وامتناعهم من القول

(2145) مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣/ ٧٥).

(2146) رواه أحمد في المسند (1/ 379)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢)، وقال المحققون: إسناده حسن.

(2147) أخرجه ابن عبد البرَّ في جامع بيان العلم وفضله (2/ 947)، والبغوي في شرح السنة (1/ 214)، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

بلا علم بقلة التكلف... وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس، الذين هداهم الله لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فليسوا مِن المغضوب عليهم الذين يتبعون أهواءهم، ولا من الضالين الجاهلين... بل لهم كمال العلم، وكمال القصد؛ إذ لو لم يكن كذلك للزم أن لا تكون هذه الأمةُ خيرَ الأمم، وأن لا يكونوا خيرَ الأمة، وكلاهما خلاف الكتاب والسُّنَّة.

وأيضًا فالاعتبار العقليُّ يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ مَن تأمَّل أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-، وتأمل أحوال اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين-تبيَّن له مِن فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم في العلم النافع والعمل الصالح ما يضيق هذا الموضع عن بسطه.

عن الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، قال: "إن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا أكياسًا، عملوا صالحًا، وأكلوا طيبًا، وقدموا فضلًا، ولم ينافسوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم ينافسوهم في عزها، ولم يجزعوا لذلها، أخذوا صفوها، وتركوا كدرها، والله ما تعاظم في أنفسهم حسنة عملوا، ولا تصغر في أنفسهم سيئة". (2148)

قال قتادة بن دعامة السدوسي-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ): "ولكن أحق من صدقتم أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الذين اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه". (2149).

عن أبي صخر حميد بن زياد-رحمه الله-(ت: ١٨٩ هـ)، قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي-رحمه الله-(ت: ١٠٨ هـ): أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أريد الفتن؟ فقال إن الله

(2148) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٧١) رقم (١٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٧٤) رقم (١٠٦٣٣).

(2149) أحمد المسند (١٠/ ٤٣٦)، رقم: (١٢٣١٦) وإسناده صحيح.

قد غفر لجميع أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم قلت: له وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال ألا تقرأ **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [التوبة: الآية:100] أوجب لجميع أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطا لم يشترطه فيهم قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان يقول: يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم في غير ذلك قال أبو صخر: لكأني لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب". (2150)

نقل الإمام **أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ)**: مذهب **الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميري الأنصاري-رحمه الله-(ت: ١٨٢ هـ)، ومحمد بن الحسن الشيباني-رحمه الله-(ت: ١٨٩ هـ)** ما كانوا يعتقدونه من أصول الدين، ويدينون به لرب العالمين ومن ضمن ذلك ما كانوا يعتقدونه في الصحابة عموما فقال: في عقيدته المشهورة: "ونحب أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان". (2151)

وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "وقد أثنى الله . تبارك وتعالى . على أصحاب-رسول الله صلى الله عليه وسلم-في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله-

---

(2150) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/ ٢٧٢)، وعزاه لأبي الشيخ وابن عساكر.

(2151) العقيدة الطحاوية مع شرحها (ص: ٥٢٨).

صلى الله عليه وسلم–من الفضل ما ليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين أدوا إلينا سنن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–عاما وخاصا وعزما وإرشادا، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله–صلى الله عليه وسلم–فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله" [2152].

قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "ومن أوكد آلات السنن المعينة عليها، والمؤدية إلى حفظها، معرفة الذين نقلوها عن نبيهم–صلى الله عليه وآله وسلم–إلى الناس كافة، وحفظوها عليه، وبلغوها عنه، وهم صحابته الحواريون الذين وعوها وأدوها ناصحين محسنين، حتى كمل بما نقلوه الدين، وثبتت بهم حجة الله تعالى على المسلمين، فهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس، ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عز وجل عليهم وثناء رسوله عليه السلام، ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه. قال الله تعالى ذكره : **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ}** [الفتح: الآية: ٢٩]. فهذه صفة من بادر إلى تصديقه والإيمان به، وآزره ونصره، ولصق به وصحبه". (2153)

2152 مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢- ٤٤٣)، أعلام الموقعين (١/ ٨٠).

(2153) الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ١-٢).

يقول الخطيب البغدادي–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "على أنه لو لم يرد من الله–عز وجل–ورسوله فيهم شيء، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطعَ على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الآبدين، هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتد بقوله من الفقهاء". (2154)

وقال الإمام ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "أمته خير الأمم، وأصحابه خير أصحاب الأنبياء". (2155)

قال ابنُ الصَّلاحِ–رحمه الله–(ت: ٦٤٣ هـ): "للصَّحابةِ بأسْرِهم خَصيصةٌ، وهي أنَّه لا يُسألُ عن عدالةِ أحَدٍ منهم، بل ذلك أمرٌ مَفروغٌ منه؛ لكونِهم على الإطلاقِ مُعَدَّلين بنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وإجماعِ من يُعتَدُّ به في الإجماعِ من الأُمَّةِ... ثم إنَّ الأُمَّةَ مجمِعةٌ على تعديلِ جميعِ الصَّحابةِ، ومن لابَسَ الفِتَنَ منهم فكذلك بإجماعِ العُلَماءِ الذين يُعتَدُّ بهم في الإجماعِ؛ إحسانًا للظَّنِّ بهم، نظرًا إلى ما تمهَّد لهم من المآثِرِ، وكأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أتاح الإجماعَ على ذلك؛ لكونِهم نَقَلةَ الشَّريعةِ، واللهُ أعلَمُ". (2156)

(2154) "الكفاية" (49).

(2155) لمعة الاعتقاد: مع شرحها الإرشاد (ص: ٣٠٦).

(2156) يُنظر: ((مقدمة ابن الصلاح)) (ص: 397).

وقال الإمام النَّووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "وكُلُّهم عُدولٌ رَضِيَ اللهُ عنهم، ومتأوِّلون في حُروبِهم وغَيرِها، ولم يُخرِجْ شَيءٌ من ذلك أحدًا منهم عن العدالةِ ... ولهذا اتَّفَق أهلُ الحَقِّ ومن يُعتَدُّ به في الإجماعِ على قَبولِ شَهاداتِهم ورواياتِهم، وكَمالِ عَدالتِهم رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعين". (2157)

وقال الإمام النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "قال القاضي، ويؤيد هذا ما قدمناه في أول باب فضائل الصحابة عن الجمهور من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم. وسبب تفضيل نفقتهم: أنها كانت وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته عليه الصلاة والسلام وحمايته وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم، وسائر طاعتهم، هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء". (2158).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، ولهذا لا تجد أحدًا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه وعلى أمثاله، وتجد مَن ينازع في ذلك كالرافضة من أجهل الناس. ولهذا لا يُوجد في أئمة الفقه الذين يُرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيدة المنصورة جيش رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهدوا عدوَّه مَن هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سِيرة محمودة مَن هو رافضي...". (2159)

(2157) يُنظر: شرح مسلم (15/ 149).

(2158) شرح مسلم للنووي: (١٦/ ٣٢٧)، فتح الباري لابن حجر: (٧/ ٤٢).

(2159) منهاج السنة النبوية (2/ 79-81).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى". (2160)

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قال غير واحد من الأئمة: إن كل من صحب النبي–صلى الله عليه وسلم–أفضل ممن لم يصحبه مطلقا، وعينوا ذلك في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبد العزيز أعدل من سيرة معاوية، قالوا: لكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعلمه، واحتجوا بما في الصحيحين من أنه قال: ((**لا تسبوا أصحابي**..)). (2161) قالوا: فإذا كان جبل أحد ذهبا لا يبلغ نصف مد أحدهم، كان في هذا من التفاضل ما يبين أنه لم يبلغ أحد مثل منازلهم التي أدركوها بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم". (2162)

قال الإمام ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، كما وصفهم الله بذلك في قوله: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** [الحشر: الآية: ١٠]، وأمر النبي–صلى الله عليه وسلم–بحسن القول فيهم، فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خالف أمر النبي–صلى الله عليه وسلم–". (2163).

(2160) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦).

(2161) أخرجه البخاري (2540).

(2162) مجموع الفتاوى: (٤/ ٥٢٧).

(2163) "إعلام الموقعين"، (2/ 161).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلا وميراثا؛ فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة، وتعظيم المرسل والقيام بحقه، والصبر على أوامره والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك، وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم". (2164)

وقال ابنُ كثيرٍ–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "الصَّحابةُ كُلُّهم عدولٌ عند أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ لِما أثنى اللهُ عليهم في كِتابه العزيزِ، وبما نطَقَت به السُّنَّةُ النبويَّةُ في المدحِ لهم في جميعِ أخلاقِهم وأفعالِهم، وما بَذَلوه من الأموالِ والأرواحِ بين يَدَيْ رَسولِ اللهِ–صلى الله عليه وسلم–؛ رغبةً فيما عند الله من الثَّوابِ الجزيلِ، والجزاءِ الجميلِ". (2165)

فمن واجب الأمة نحو أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–محبتهم والترضي عنهم والدعاء لهم كما أمرنا الله تعالى بقوله: **{والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالأيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم}** [الحشر: الآية: ١٠].

فهم قوم اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه–صلى الله عليه وسلم–وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إليه وسماع حديثه من فمه الشريف ونصرته والذب عنه والجهاد معه في سبيل الله ونشر دين الإسلام.

وبعد وفاته كانوا هم الواسطة بين الرسول–صلى الله عليه وسلم–وبين الأمة، فقد بلغوا عن رسول الله ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها ونشروا هذا الدين في شتى بقاع الأرض: وجاهدوا

(2164) طريق الهجرتين، (ص: 171).

(2165) يُنظر: اختصار علوم الحديث (ص: 181).

في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وذبوا عن هذا الدين بسنانهم ولسانهم فكان لهم بذلك الأجر العظيم والمنزلة العالية عند ربهم وعند نبيهم وعند المسلمين الموحدين جميعا.

وكيف لا يكونون كذلك وهم خير قرون هذه الأمة بشهادة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

المسألة الخامسة: وجوب اتباع سبيلهم.

قوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [التوبة:100].

قال الإمام ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.....

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المفلحون وعباده المؤمنون". (2166).

قال تعالى: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** [النساء: 115].

(2166) تفسير ابن كثير (4/ 203).

والمراد بـ{المؤمنين} في الآية: أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله جل وعلا: **{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ}**.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد شهد الله لأصحاب نبيه الله ومن تبعهم بإحسان بالإيمان فعلم قطعا أنهم المراد بالآية الكريمة" [2167]

وعن العرباض بن سارية-رضي الله عنه-(ت: ٧٥ هـ)، قال: "وعظنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: **((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة))**. [2168]

2167 الانتصار لأهل الأثر (ص: ٣).

2168 أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٣، ١٥) ح: (٤٦٠٧)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم: باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) ح: (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة في سننه، في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦). وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في الشريعة (ص: ٤٦، ٤٧)، والدارمي في سننه، باب اتباع السنة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع، انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) ح: (١٦٥).

قال تعالى: **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [سبأ: الآية: ٦].

عن قتادة–رحمه الله–(ت: ١١٨ هـ) **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ}** قال: "أصحاب محمد". [2169]

قال عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ): "لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–، وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم، فذلك حين هلكوا". [2170]

كتب عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ) إلى عامل له فقال: "أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله–صلى الله عليه وسلم–، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السُنَّة فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن الناس لم يحدثوا بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة فيها، فإن السُنَّة إنما سنَّها من علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم السابقون، عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل فيه لو كان أحرى، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما أحدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، لقد

2169 تفسير الطبري (تفسير سورة سبأ الآية: ٦).

2170 أخرجه ابن عبد المبارك في الزهد (1/ 281) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1/ 617) والطبراني في المعجم الكبير (9/ 114).

تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محصر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمع عنهم آخرون فغلوا، إنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم". [2171]

قال شقيق البلخي–رحمه الله–(ت: ١٩٤ هـ): قيل لابن المبارك–رحمه الله–(ت: ١٨١ هـ): إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: "أجلس مع الصحابة والتابعين أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس". [2172]

قال الإمام أحمد: ثنا عبيد الله بن محمد (هو العيشي حافظ) قال: سمعت شيخًا يذكر عن محمد بن سيرين وسئل مرة عن فتيا فأحسن الإجابة فيها، فقال له رجل: والله يا أبا بكر، لأحسنت الفتيا فيها أو قال: القول فيها قال: وعرّض، كأنه يقول: ما كانت الصحابة لتحسن أكثر من هذا؛ فقال محمد بن سيرين– يعني منكرا–لو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا". [2173]

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "أصول السُنَّة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، والاقتداء وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين". [2174]

2171 البدع لابن وضاح، (ص: ٣٠، ٣١)، الحلية لأبي نعيم (٥/ ٣٩)، الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

2172 سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٠)، وتاريخ الإسلام (١٢/ ٢٣٥).

2173 الحلية (٢/ ١٥٧) من طريق كتاب الزهد لأحمد.

2174 شرح أصول اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة للالكائي (١/ ١٥٦)، طبقات الحنابلة (١/ ٣١١).

قال ابن قتيبة–رحمه الله–(ت: ٢٧٦ هـ): "وكان أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–هم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم". [2175]

وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني–رحمه الله–(ت: ٣٨٦ هـ)، في رسالته: "واللجأ إلى كتاب الله عزوجل وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة". [2176]

قال الإمام أبو القاسم اللالكائي (ت: ٤١٨ هـ): "أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله–صلى الله عليه وسلم–وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون". [2177]

قال ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "ومتى اختلف الصحابة على قولين، لم يجز إحداث قول ثالث لأنه يفضي إلى تخطئتهم، وخروج الحق عن قول جميعهم ولا يجوز ذلك". [2178]

2175 تأويل مشكل القرآن (ص: ١٤٨).

2176 رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ص: ١٦٩).

2177 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٧).

2178 المغني (٨/ ١٠٧).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة رضي الله عنهم منشأ كل علم وصلاح وهدى ورحمة في الإسلام". [2179]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله–صلى الله وعليه وسلم–، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله–صلى الله وعليه وسلم–وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل". (2180)

2179 منهاج السنة (٦/ ٣٦٨).

(2180) منهاج السنة (5/ 261-263).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليل جدا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة؛ فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم. وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر". [2181]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بيّنا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق". [2182]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: **{فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}** [النساء: الآية: 59].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين". [2183]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "العالمون بالله وكتابه ودينه، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم

2181 مجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٣٢).

2182 اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧).

2183 مجموع الفتاوى (٢٤/ ٩٥).

نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فأخرجهم من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الظلم إلى العدل، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه ... ". [2184]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "كل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع قال بعض الصحابة اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة". [2185]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم وبينهم في الفضل". [2186]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "فلا أحسن مما قضى به الصحابة–رضي الله عنهم–". [2187]

2184 الفوائد (ص: 108. 109).

2185 مدارج السالكين (٢/ ١٠٧).

2186 التفسير القيم (ص: ٣٤٣).

2187 الطرق الحكمية (١/ ٣٢٦).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): عن الصحابة: "فإنهم أفقه الأمة وأعلمهم بمقاصد الشرع وحكمه". [2188]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "أفهام الصحابة رضي الله عنهم فوق أفهام الجميع، وعلمهم بمقاصد نبيهم وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم" إلى أن قال: "ولم يرتضوا لأنفسهم عبارات المتأخرين واصطلاحاتهم وتكلفاتهم فهم كانوا أعمق الأمة علما وأقلهم تكلفا والمتأخرون عكسهم في الأمرين". [2189]

وسنة الصحابة وهي ما جاء عنهم من قول أو فعل أو تقرير إذا كان مما لا يقال من قبل الرأى، ومما لا مجال للاجتهاد فيه، فله حكم المرفوع المسند تحسينا للظن بهم، وجزم بذلك الرازى في المحصول، وغير واحد من أئمة الأصول والحديث. [2190]

وإذا كانت سنتهم في غير ذلك، فقد اختلف العلماء في ذلك. والراجح من هذا الخلاف [2191] أن سنتهم كسنة الرسول يعمل بها، ويرجع إليها، وانتصر لهذا الرأى غير واحد من أئمة الأصول، منهم **الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ)** فبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على عدالتهم قال: "فيصح أن يطلق

2188 الطرق الحكمية (٢/ ٥٣١).

2189 الطرق الحكمية (١/ ٣٢٤).

2190 انظر: المحصول (٢/ ٢٢١)، والإحكام للآمدى (٢/ ٨٧)، وأعلام الموقعين (٤/ ١٢٣)، وفتح المغيث للسخاوى (١/ ١٤٤)، وتدريب الراوى (١/ ١٩٠، ١٩١)، وتوضيح الأفكار (١/ ٢٨٠).

2191 انظر: الأدلة المختلف فيها وأثرها فى الفقه الإسلامى للدكتور عبد الحميد أبو المكارم (ص: ٣٠٣)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى، (١/ ٤٣٧).

على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط أى عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر، وعملهم مقتدى به.

... ثم استدل الشاطبي لما رجح بأدلة منها:

١- ما جاء فى الحديث من الأمر باتباعهم، وأن سنتهم فى طلب الاتباع كسنة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**)). (٢)

٢- أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقاويل، فقد جعل طائفة قول أبى بكر وعمر حجة ودليلا، وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا، وبعضهم يعد قول الصحابى على الإطلاق حجة ودليلا، ولكل قول من هذه الأقوال متعلق من السنة وهذه الآراء-وإن ترجح عند العلماء خلافها-ففيها تقوية تضاف إلى أمر كلى هو المعتمد فى المسألة، وذلك أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم، يهابون مخالفة الصحابة، ويتكثرون بموافقتهم، وأكثر ما تجد هذا المعنى فى علوم الخلاف الدائرة بين الأئمة المعتبرين، فتجدهم إذا عينوا مذاهبهم قووها بذكر من ذهب إليها من الصحابة، وما ذاك إلا لما اعتقدوا فى أنفسهم وفى مخالفيهم من تعظيمهم، وقوة مآخذهم دون غيرهم، وكبر شأنهم فى الشريعة، وأنهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم فضلا عن النظر معهم فيما نظروا فيه.

... ويؤيد هذا ما جاء عن السلف الصالح، من تزكيتهم والحث على متابعتهم.

فعن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "من كان مستنا فليستن بأصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها

حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". [2192]

قال الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ): "ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين واتبعوا أهواءهم بغير علم، فضلّوا عن سواء السبيل". [2193]

وقال عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ): "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا.

... وفى رواية بعد قوله –وقوة على دين الله – ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى خالفها، من اهتدى بها مهتد ... الحديث". [2194]

2192 أخرجه البغوى في شرح السنة كتاب الإيمان، باب رد البدع والأهواء (١/٢١٤)، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٧)، وذكره ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين (٤/ ١٣٩).

2193 الاعتصام (٢/ ٩٦).

2194 ابن عبد الحكم سيرة عمر (ص: ٤٠)، وابن بطة في الإبانة (١/٣٥٢)، ورقم: (٢٣٠-٢٣١)، والآجري في الشريعة (١/ ١٧٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧٦). كلهم عن مالك بن أنس وأعل بالانقطاع ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (ص: ١٧٣)، واللالكائي (١/ ١٠٦)، من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي عن سعيد بن أبي مريم عن رشدين بن سعد قال: حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن عمر بن عبد العزيز به، ورشدين

فقال مالك فأعجبني عزم عمر على ذلك". [2195]

والآثار في هذا المعنى يكثر إيرادها، وقد استوعب كثيرا منها الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه "أعلام الموقعين عن رب العالمين". [2196]

ويقول الإمام الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ)، في موضع آخر من كتابه مبينا أن بيان الصحابي حجة، قال: "وأما بيان الصحابة، فإن أجمعوا على ما بينوه، فلا إشكال في صحته أيضا، كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبين لقوله تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا}** [المائدة: الآية: ٦]، وهذا الإجماع حجة موجبة للعلم، ولا يعتد بخلاف من خالفهم، كما حكاه **السرخسي–رحمه الله–(ت: ٤٨٣ هـ)** [2197]**، عن أبي حازم القاضي–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)**.

وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل. ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان، من وجهين:

ضعيف. انظر التقريب (٢٠٩)، وقد صحح هذا الأثر محقق كتاب الشريعة للآجري فقال: والأثر يصح بهذين الطريقين ويقوى بهما. انظر الشريعة (١/ ١٧٤). وقد أخرجه أيضا قوام السنة في الحجة في بيان المحجة (١/ ١٠٩-١١٠) وابن كثير في البداية والنهاية (٥ /٢٤٢) وعزاه محقق كتاب المعرفة والتاريخ إلى الجزء المفقود منه.

2195 الموافقات (٤/٤٥٢-٤٥٥)، وانظر: الاعتصام (٢/ ٥١٩).

2196 أعلام الموقعين (٤/١١٨-١٥٦)، وانظر: الرسالة للشافعي (ص: ٥٩٦)، فقرات رقم: (١٦٨٢، ١٨٠٥ – ١٨١١).

2197 أصول السرخسي (١/ ٣١٧)، وانظر: علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي للشيخ أحمد إبراهيم (ص: ٢٤، ٢٥).

أحدهما: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

ثانيهما: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسالة اجتهادية". [2198]

المسألة السادسة: وجوب محبتهم.

الصحابة هم خير القرون، وصفوة هذه الأمة وأفضل هذه الأمة بعد نبيها-صلى الله عليه وسلم-، ويجب علينا أن نتولاهم ونحبهم ونترضى عنهم وننزلهم منازلهم، فإن محبتهم واجبة على كل مسلم، وحبهم دين وإيمان وقربى إلى الرحمن.

قال أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩٣ هـ): "ما فرحنا بشيء فرحنا بقوله-صلى الله عليه وسلم- : ((**المرء مع من أحب**)). قال: فأنا أحب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم". [2199]

2198 الموافقات (٣/ ٣٠٠، ٣٠١).

2199 أخرجه: البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

عن أيوب السختياني–رحمه الله–(ت: ١٣١ هـ)، أنه قال: "من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله، ومن أحب عليا فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فقد برئ من النفاق". (2200)

عن شقيق البلخي–رحمه الله–(ت: ١٩٤ هـ)، قال: "حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة". (2201)

وعن عبد العزيز بن جعفر اللؤلؤي قال: قلت **للحسن–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)**: "حب أبي بكر وعمر سنة". قال: "لا فريضة". (2202)

وعن طاووس–رحمه الله–(ت: ١٠٦ هـ)، قال: "حب أبي بكر ومعرفة فضلهما من السنة". (2203)

عن أبي زرعة الرازي–رحمه الله–(ت: ٢٨٩ هـ)، قال: سمعت قبيصة بن عقبة (ت: ٢١٥ هـ) يقول: "حب أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–كلهم سنة". (2204)

(2200) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١٣).

(2201) المناقب لابن الجوزي (ص: ٤٩)، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ١٢٣٨).

(2202): شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ١٢٣٩)، وابن الجوزي: مناقب (ص: ٣٩).

(2203) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ١٢٣٩)، والمناقب لابن الجوزي: (ص: ٣٩).

(2204) أصول الاعتقاد (٧/ ١٣١٣، ٢٣٢٧)

وعن مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): قال: "كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر–رضي الله عنهما– كما يعلمون السورة من القرآن". (2205)

قال الإمام الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ): "وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلا نَذْكُرُهُمْ إِلا بِخَيْرٍ. وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ". (2206)

وقال أبو عبد الله ابن بطة–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "ونحب جميع أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–على مراتبهم ومنازلهم أولًا فأولًا: من أهل بدر والحديبية وبيعة الرضوان وأحد فهؤلاء أهل الفضائل الشريفة والمنازل المنيفة الذين سبقت لهم السوابق رحمهم الله أجمعين". (2207)

قال ابن حزم–رحمه الله–(ت: ٤٥٦ هـ): "وكلهم عدل إمام فاضل رضي فرض علينا توقيرهم وتعظيمهم وأن نستغفر لهم ونحبهم وتمرة يتصدق بها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بما يملك وجلسة من الواحد منهم مع النبي–صلى الله عليه وسلم–أفضل من عبادة أحدنا دهره كله وسواء كان من ذكرنا على عهده عليه السلام صغيرا أو بالغًا". (2208)

(2205) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: (٤/ ١٢٤٠)، والمناقب لابن الجوزي: (ص: ٣٩).

(2206) شرح الطحاوية (ص: ٤٦٧).

(2207) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص: ٢٧١).

(2208) الإحكام في أصول الأحكام (٥/ ٨٩).

قال البيهقي–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): "ويدخل في جملة حب النبي–صلى الله عليه وسلم–حب أصحابه؟ لأن الله–عز وجل–أثنى عليهم ومدحهم فقال: **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا}** [الفتح: الآية: ٢٩].

وقال تعالى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: الآية: 18].

وقال تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [التوبة:100].

وقال تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** [الأنفال: الآية: 74].

فإذا أنزلوا هذه المنزلة استحقوا من جماعة المسلمين أن يحبوهم ويتقربوا إلى الله عز وجل بمحبتهم لأن الله تعالى إذا رضي عن أحد أحبه وواجب على العبد أن يحب من يحب مولاه". [2209]

2209 شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٢٨٧).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "واجب على كل مسلم جاء بعد الصحابة–رضي الله عنهم– من عباد الله المؤمنين أن يدعو لهم، ويستغفر لهم، ويترحم عليهم لما لهم من القدر العظيم، ولما حازوه من المناقب الحميدة، والسوابق القديمة، والمحاسن المشهورة، ولما لهم من الفضل الكبير على كل من أتى بعدهم".[2210]

قال السفاريني–رحمه الله–(ت: ١١٨٨ هـ): "فمن أراد السلامة لدينه وأن يسلم له إيمانه فليحبهم جميعًا، وأن يحتم ذلك على نفسه، وعلى كل أبناء جنسه لأن ذلك واجب على جميع الأمة واتفق على ذلك الأئمة، فلا يزوغ عن حبهم إلا هالك، ولا يزوغ عن وجوب ذلك إلا آفك".[2211]

المسألة السابعة: القول بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم.

إليك بعض النقولات من العلماء التي تؤكد أن عدالة الصحابة لا تعني عصمتهم:

قال ابن حزم–رحمه الله–(ت: ٤٥٦ هـ): "الصحابة كلهم عدول، ولكنهم غير معصومين من الخطأ، فقد يقع منهم ما يُخالف الصواب، ويجب التفريق بين العدالة والعصمة".[2212]

2210 طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٥٣٧).

2211 لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (٢/ ٣٥٤).

2212 الإحكام في أصول الأحكام، (1/ 89).

قال البيهقي–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): "الصحابة كلهم عدول، ولكنهم غير معصومين من الخطأ، فقد يقع منهم الخطأ والزلل، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم". 2213

قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم عدول في روايتهم، وما شجر بينهم مغفور لهم، لأنهم مجتهدون". (2214)

وقال الخطيب البغدادي–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "عدالة الصحابة ثابتة ومعلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن، فمن ذلك:

قوله تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [آل عمران: الآية: ١١٠]،

وقوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة: الآية: ١٤٣].

وهذا اللفظ وإن كان عاما فالمراد به الخاص وقيل: هو وارد في الصحابة دون غيرهم.

وقوله تعالى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: الآية: 18].

وقوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [التوبة:100].

2213 المدخل إلى السنن الكبرى، (1/ 187).

(2214) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (1/ 11).

وقوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}** [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأنفال: الآية: 64].

وقوله تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: الآيات: ٨- ٩].

في آيات يكثر إيرادها، ويطول تعدادها.

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة مثل ذلك، وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم....

وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له ...

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

وهذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء". 2215

قال القاضي عياض–رحمه الله–(ت: ٥٤٤ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم عدول، وما وقع منهم يُغفر لهم باجتهادهم وإخلاصهم". 2216

قال ابن عساكر–رحمه الله–(ت: ٥٧١ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكن عدالتهم ثابتة، وما وقع منهم يُغفر لهم باجتهادهم". 2217

قال الإمام النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "اتفق أهل السنة على أن الصحابة كلهم عدول، ولكن ليس معنى ذلك أنهم معصومون من الخطأ والذنوب، بل يُحتمل منهم الذنوب والخطايا، ولكنهم لا يتعمدون الكذب في الرواية". (2218)

قال الإمام النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): شرحًا للحديث: "وما شجر بينهم مغفور لهم، لأنهم عدول في نقل الدين، والاجتهاد مغفور خطؤه". 2219

2215 الكفاية في علم الرواية (ص: ٩٣-٩٦).

2216 الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (2/ 83).

2217 تاريخ دمشق، (2/ 324).

(2218) شرح النووي على صحيح مسلم، (15/ 149).

2219 الأربعين النووية، شرح الحديث رقم: (8).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الذنوب، بل يُغفر لهم ما اجتهدوا فيه وأخطأوا، فإن الله يغفر لهم باجتهادهم، وعدالتهم لا تعني العصمة". 2220

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، بل يُحتمل منهم ما يُحتمل من غيرهم من البشر، ولكن عدالتهم ثابتة بالإجماع". 2221

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ، ولكنهم عدول في روايتهم، وعدالتهم لا تعني العصمة من الزلل". 2222

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "كل من يُثبت للصحابة العصمة فقد غلط، فإنهم بشر يُصيبون ويُخطئون، وعدالتهم لا تعني العصمة من الذنوب". 2223

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الصحابة ليسوا بمعصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ والزلل، ولكنهم عدول في نقل الدين ورواية الحديث". 2224

2220 منهاج السنة النبوية، (4/ 548).

2221 مجموع الفتاوى، (28/ 311).

2222 ميزان الاعتدال، (1/ 4).

2223 تذكرة الحفاظ، (1/ 3).

2224 سير أعلام النبلاء، (1/ 12).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، بل لهم من الحسنات ما يُكفر سيئاتهم، وهم عدول فيما نقلوه، ولكن هذا لا يعني العصمة". 2225

قال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "الصحابة كلهم عدول، وليسوا بمعصومين من الخطأ والزلل، ولكن اجتهادهم مغفور لهم، وذنوبهم مغمورة في بحار حسناتهم". 2226

قال الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ): "ليس معنى عدالة الصحابة أنهم معصومون من الخطأ والذنوب، بل هم بشر، يُحتمل منهم ما يُحتمل من غيرهم، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم، وما شجر بينهم مغفور لهم". (2227)

قال ابن حجر العسقلاني–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "الصحابة كلهم عدول، وما شجر بينهم مغفور لهم، لأنهم مجتهدون، ولكن لا يعني ذلك أنهم معصومون من الخطأ، بل قد يقع منهم الخطأ والزلل". 2228

قال ابن حجر العسقلاني–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ والزلل، ولكنهم عدول في نقل الحديث وما وقع منهم يُغفر باجتهادهم". 2229

2225 إعلام الموقعين، (1/ 78).

2226 البداية والنهاية، (8/ 221).

(2227) الاعتصام، (2/ 189).

2228 الإصابة في تمييز الصحابة، (1/ 10).

2229 فتح الباري (7/ 82).

قال السيوطي–رحمه الله–(ت: ٩١١ هـ): "اتفق أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة، ولكن ذلك لا يعني العصمة من الخطأ والمعاصي، فإن العصمة خاصة بالأنبياء". [2230]

قال الشوكاني–رحمه الله–(ت: ١٢٥٠ هـ): "عدالة الصحابة ثابتة بالإجماع، ولكنها لا تعني العصمة من الخطأ، فقد يقع منهم الخطأ والزلل، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم". [2231]

هذه النقولات تؤكد أن عدالة الصحابة لا تعني العصمة، وأنهم قد يخطئون ويزلّون كغيرهم من البشر، ولكن يُغفر لهم ذلك بسبب اجتهادهم وعدالتهم في نقل الحديث والدين.

المسألة الثامنة: الإمساك عما شجر بينهم.

عن عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: "هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها". [2232]

قال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم". [2233]

2230 تدريب الراوي، (2/ 214).

2231 نيل الأوطار، (1/ 38).

2232 فتح المغيث للسخاوى (٣/ ٩٦).

2233 "تفسير القرطبي" (16/ 321).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الآثار المروية فيما وقع بين الصحابة–رضي الله عنهم–تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- منها ما هو كذب.

2- ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهته.

3- والصحيح منها هم فيه معذورون أما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون". [2234]

ولهم–رضي الله عنهم–من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم.

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "كما تقرر الكف عن كثير مما تشجر بينهم وقتالهم–رضي الله عنهم–أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب... فينبغي طيه وإخفاءه، بل إعدامه لتصفوا القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء". إلى أن قال: "فأما ما نقله أهل البدع في كتبهم من ذلك فلا نعرج عليه ولا كرامة فأكثره باطل وكذب وافتراء". [2235]

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم لا يكاد يشاهد فيه إلا غاليًا في الحب مفرطًا في البغض ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟! فنحمد الله على العافية الذين أوجدنا في زمان قد أنمحص فيه الحق وأتضح من الطرفين وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين وتبصرنا فعذرنا واستغفرنا وأحببنا باقتصاد وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة أو بخطأ إن شاء الله مغفور وقلنا كما علمنا الله ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا

2234 انظر الواسطية لابن تيمية (ص: ١٢٠).

2235 السير (10/ 92-٩٣).

وترضينا أيضا عمن اعتزل الفريقين كسعد بن أبي وقاص وابن عمر ومحمد بن مسلمة وسعيد بن زيد وخلق وتبرأنا من الخوارج الذين حاربوا علياً وكفروا الفريقين". [2236]

عن ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، قال: "لا تسبوا أصحاب محمد فإن الله أمر بالاستغفار لهم وهو يعلم أنهم سيقتتلون". [2237]

روى الخطابي من طريق حمزة بن الحارث الدهان قال: حدثنا عبد الله بن روح المدائني قال: حدثنا يحيى بن الصامت قال: حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأعمش عن أبي راشد قال: جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إن رسول إخوانك من أهل البصرة إليك فإنهم يقرءونك السلام ويسألونك عن أمر هذين الرجلين علي وعثمان وما قولك فيهما. فقال: هل غير. قال: لا. قال: جهزوا الرجل فلما فرغ من جهازه قال: أقرأ – عليهم السلام – وأخبرهم أن قولي فيهم: **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ}** [البقرة: الآية: ١٤١]. [2238]

عن شهاب بن خراش بن حوشب–رحمه الله–(ت: قبل: ١٨٠ هـ) ابن أخي العوام بن حوشب قال: "أدركت من أدركت من صدر هذه الأمة وهم يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–ما تأتلف عليه القلوب، ولا تذكروا الذي شجر بينهم فتحرشوا الناس عليهم". [2239]

2236 السير (3/ 128).

2237 فضائل الصحابة للإمام أحمد (1/ 69)، (2/ 1152). والإبانة لابن بطة (294). وانظر: الصارم المسلول (3/ 1071).

2238 كتاب العزلة (44).

2239 رواه ابن عدي في الكامل (4/ 34) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (22/ 215)، وله طريق آخر. فرواه الخلال في السنة (ص: 513) عن العوام بن حوشب قال: اذكروا محاسن أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–تأتلف عليه قلوبكم، ولا تذكروا غيره فتحرشوا الناس عليهم.

وقيل للإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية - رحمهما الله -؟ قال: ما أقول فيها إلا الحسنى-رحمهم الله-أجمعين". [2240]

وفي ترجمة الحسن بن إسماعيل الربعي: قال. قال لي أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، إمام أهل السنة والصابر تحت المحنة: - "أجمع تسعون رجلًا من التابعين وأئمة المسلمين، وأئمة السلف، وفقهاء الأمصار على: .... والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأفضل الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم-أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والترحم على جميع أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وأزواجه، وأصهاره-رضوان الله عليهم أجمعين-فهذه السنة الزموها، تلموا أخذها هدى، وتركها ضلالة". [2241]

عن أبي القاسم إسحاق بن إبراهيم بن آزر الفقيه (ت: ٢٧٥ هـ) حدثني أبي قال: حضرت أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية فأعرض عنه. فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه. فقال: أقرأ **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [البقرة: الآية: ١٤١]". [2242]

قال اللالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ): "أخبرنا محمد بن المظفر المقري قال: حدثنا الحسين بن محمد بن حبش المقري قال: حدثنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سألت أبي (ت: ٢٧٧ هـ)، وأبا زرعة-رحمه الله-(ت: ٢٦٤ هـ) عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك. فقالا: "أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً فكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته والقدر خيره وشره

2240 رواه الخلال في السنة (2/ 460)، وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (164). وسنده صحيح.

2241 طبقات الحنابلة (1/ 349).

2242 رواه الخطيب في تاريخ بغداد (6/ 44)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (59/ 141)، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (1/ 251).

من الله–عز وجل–وخير هذه الأمة بعد نبيها–عليه الصلاة والسلام–أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب–عليهم السلام–، وهم الخلفاء الراشدون المهديون وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وشهد لهم بالجنة على ما شهد به رسول الله وقوله الحق والترحم على جميع أصحاب محمد والكف عما شجر بينهم...". [2243]

وقال البربهاري–رحمه الله–(ت: ٣٢٩ هـ): "والكف عن حرب علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير–رحمهم الله–أجمعين ومن كان معهم ولا تخاصم فيهم وكل أمرهم إلى الله–تبارك وتعالى–". [2244]

قال ابن بطة–رحمه الله–(ت: ٣٨٧ هـ): "ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم ولا تنظر في كتاب صفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك ولا تروه عن أحد ولا تقرأه على غيرك ولا تسمعه ممن يرويه فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه منهم: حماد بن زيد ويونس بن عبيد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبدالله بن إدريس ومالك بن أنس وابن أبي ذئب وابن المنكدر وابن المبارك وشعيب بن حرب وأبو إسحاق الفزاري ويوسف بن أسباط وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وعبدالوهاب الوراق.كل هؤلاء قد رأوا: النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها. وقد روى عنهم فيمن فعل ذلك أشياء كثيرة بألفاظ مختلفة المعاني على كراهية ذلك والإنكار على من رواها واستمع إليها". [2245]

2243 أصول اعتقاد أهل السنة (ص: 321).

2244 شرح السنة (ص: 102).

2245 كتاب الإبانة (ص: 294).

قال الإمام الصابوني–رحمه الله–(ت: ٤٤٩ هـ): "ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبًا لهم ونقصًا فيهم". [2246]

يقول الإمام الآمدى–رحمه الله–(ت: ٦٣١ هـ): "فالواجب أن يحمل كل ما جرى بينهم من الفتن على أحسن حال، وإن كان ذلك إنما لما أدى إليه اجتهاد كل فريق من اعتقاده أن الواجب ما صار إليه، وأنه أوفق للدين وأصلح للمسلمين.

وإلا فجمهور الصحابة وسادتهم تأخروا عن تلك الفتن والخوض فيها كما **قال محمد بن سيرين–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)**: "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–عشرة آلاف فما حضر منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين". وإسناد هذه الرواية كما قال ابن تيمية أصح إسناد على وجه الأرض". [2247]

وعلى هذا فالذى خاض فى تلك الفتن من الصحابة إما أن يكون كل مجتهد مصيبًا، أو أن المصيب واحد، والآخر مخطئ في اجتهاده مأجور عليه.

وعلى كلا التقديرين، فالشهادة والرواية من الفريقين لا تكون مردودة، إما بتقدير الإصابة فظاهر، وإما بتقدير الخطأ مع الاجتهاد فبالإجماع". [2248]

2246 عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: 294).

2247 منهاج السنة (٣/ ١٨٦).

2248 الإحكام للآمدى (٢/ ٨٢) بتصرف وانظر: فواتح الرحموت (٢/ ١٥٥-١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٩)، وإرشاد الفحول (١/ ٢٧٥)، والباعث الحثيث (ص: ١٥٤)، وعقيدة أهل السنة فى الصحابة الكرام للدكتور ناصر

يقول الإمام الجويني–رحمه الله–(ت: ٤١٩ هـ): "أما التوقف في تعديل كل نفر من الذين لابسوا الفتن، وخاضوا المحن، ومتضمن هذا، الانكفاف عن الرواية عنهم، فهذا باطل من دين الأمة، وإجماع العلماء على تحسين الظن بهم، وردهم إلى ما تمهد لهم من المآثر بالسبيل السابقة، وهذا من نفائس الكلام". [2249]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ولهذا كان من مذاهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة، فإنه قد ثبتت فضائلهم، ووجبت موالاتهم ومحبتهم، وما وقع: منه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الإنسان، ومنه ما تاب صاحبه منه، ومنه ما يكون مغفورا، فالخوض فيما شجر يوقع في نفوس كثير من الناس بغضا وذما، ويكون هو في ذلك مخطئا، بل عاصيا، فيضر نفسه، ومن خاض معه في ذلك.. ولهذا كان الإمساك طريقة أفاضل السلف". [2250]

قال ابن حجر العسقلاني–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله – تعالى –عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يؤجر أجرين". [2251]

الشيخ مبحث "الحرب التى دارت بين على بن أبى طالب، وبعض الصحابة–رضى الله عنهم–وموقف أهل السنة منها" (٢/ ٧٠٠ – ٧٤٨)، وانظر: الرد القويم على المجرم الأثيم للشيخ التويجرى (ص: ١٨٢–١٨٤).

2249 البرهان فى أصول الفقه (١/ ٢٤١، ٢٤٢).

2250 منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٤٨–٤٤٩).

2251 الفتح (13/ 37).

[السمع والطاعة لأولي الأمر ما داموا يصلون]

المسألة **الأولى: وجوب السمع والطاعة .**

المسألة الثانية:السمع والطاعة تكون بالمعروف.

[١٨]- **قال المصنف-رحمه الله-: "والسَّمع والطاعة لأولي الأمر ما داموا يصلّون".**

الشرح

مسألة الإمامة الكبرى يذكرها علماء أهل السنة والجماعة في ضمن مسائل الاعتقاد وذلك تحت عنوان الخلافة والإمامة، ومعلوم أن الإمامة على نوعين: صغرى وكبرى، فالصغرى إمامة الصلاة، والعظمى أو الكبرى إمامة المسلمين.

فدونوا هذه القواعد في هذه المسائل في كتب عقائدهم لكي يعرف الإنسان ماذا يجب عليه تجاه ولي أمره، لما في ذلك من المصالح الكبرى والصغرى المتحققة من جراء ذلك

ومن المسائل تحت هذا الباب مسألة السمع والطاعة في المعروف.

فهذه من الأصول والقواعد المهمة، فالسمع والطاعة للأئمة تكون بالمعروف، ويمكن تناول هذه المسألة من جانبين:

المسألة الأولى: وجوب السمع والطاعة.

الجانب الأول: وجوب السمع والطاعة لولي الأمر.

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة للأئمة فيما يُحب الله ويرضى، فالسمع والطاعة إنما يكون في المعروف إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

فلابد من السمع والطاعة في المنشط وفي المكره، وفيما تُحب وفيما لا تُحب، بشرط أن يكون ذلك المأمور به ليس فيه معصيةٌ لله عز وجل، فلابد من السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين

ومن الأدلة على ذلك:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:59].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)[2252].

فمأمورٌ أن تسمع وتطيع حتى وإن كان ذلك الشخص على فجور، وكما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((أدوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم)) ([2253])، ومعلومٌ أن ولاية أمر المسلمين واستتبابها فيه من المصالح العظمى للدين والدنيا ما يعلمه كل عاقل، فمن أول المصالح استتباب الأمن، واستتباب الأمن معنى ذلك أن الشعائر ستُقام، ومعنى ذلك أن الأعراض والأموال والأنفس ستُحفظ، وإذا ضاع أمن الناس فإن الواحد منهم لن يستطيع حتى أن يقيم صلاة الجماعة، ولن يستطيع أن يأمن على نفسه ولا على ماله، ولا على عرضه.

فنعمة الأمن من أعظم النعم، ومن أسباب تحقيقها استقرار الحكم لولي الأمر، ونحن نرى بعض البلدان التي انعدم أمنها بسبب عدم استقرار الحكم فيها، أما البلد الذي استقر فيه الحكم لولي الأمر في ذلك البلد الغالب عليه الأمن والاستقرار.

فكل بلدٍ متى ما كان لها ولي أمر استقر حالها، واستتب أمنها.

وهذا بخلاف أهل البدع، فإنهم لا يسمعون ولا يطيعون لولاة الأمور، كالخوارج، فهم يرون أن ولي الأمر إذا عصى كفر ووجب قتله وخلعه وإزالته من الإمامة، وكذلك المعتزلة فإنهم يرون أنه إذا عصى ولي الأمر وفعل الكبيرة خرج من الإمامة فلا يطيعونه، بل إن من أصول الدين عندهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه الخروج على ولاة الأمور إذا جاروا وظلموا، والروافض كذلك يرون أنه ليس هناك طاعة إلا للإمام

[2252] أخرجه البخاري (2957) واللفظ له، ومسلم (1835).

[2253] انظر صحيح البخاري كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا)) برقم (7052)، ومسلم كتاب الإمارة، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، برقم (1843)، والترمذي (2190)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (3641).

المعصوم، وأما ولاة الأمور الموجودين في كل وقت فهم كفرة فسقة يجب قتلهم وخلعهم وإزالتهم من الإمامة، ولا طاعة إلا للإمام المعصوم، وهم الأئمة الاثنا عشر الذي نص عليهم بزعمهم.

المسألة الثانية: السمع والطاعة تكون بالمعروف.

الجانب الثاني: أن السمع والطاعة تكون بالمعروف.

ومن الأدلة على ذلك:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أَنَّهُ قَالَ: ((عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)). [2254]

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: "إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ". [2255].

وحديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَقُولُ: ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)). [2256] ولا يجوز الخروج على ولاة الأمور للمعاصي بل يجب الصبر وعدم الخروج.

وحديث: ((لا طاعة لمخلوق في معصية اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)) [2257].

[2254] رواه مسلم (3/ 1469) (1839)

[2255] رواه مسلم (1/ 448) (648)

[2256] رواه مسلم (3/ 1482) (1855)

[2257] أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩٥) مِنْ حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ–رضي الله عنه–. وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ: مسند أحمد (٢/ ٢٤٨)، والألبانيُّ في صحيح الجامع (٧٥٢٠).

قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ)). [2258]

أقوال العلماء[2259]:

قال أبو الحسنِ الأشعريُّ-رحمه الله-وهو يُعدِّدُ ما أَجْمَعَ عليه السلفُ مِنَ الأصول .: "وأجمعوا على السَّمْعِ والطَّاعةِ لأئمَّةِ المسلمين، وعلى أنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شيئًا مِنْ أمورهم عن رِضًى أو غَلَبةٍ وامتدَّتْ طاعتُه مِنْ بَرٍّ وفاجرٍ لا يَلْزَمُ الخروجُ عليهم بالسيف، جارَ أو عَدَلَ". [2260]

وقال ابنُ تيميَّة -رحمه الله-: "فأهلُ السنَّةِ لا يُطيعون وُلَاةَ الأمورِ مطلقًا، إنما يُطيعونهم في ضِمْنِ طاعةِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال تعالى: {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمرِ مِنكُم} [النساء: الآية: ٥٩]»[2261]، وقال ـ رحمه الله ـ أيضًا .: «ولهذا كان مذهبُ أهلِ الحديث: تَرْكَ الخروجِ بالقتال على الملوك البُغَاة، والصبرَ على ظُلْمِهم إلى أَنْ يَسْتريحَ بَرٌّ أو يُسْتراحَ مِنْ فاجرٍ»[2262].

[2258] أخرجه البخاريُّ في الأحكام بابُ السمعِ والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةً (٧١٤٥)، ومسلمٌ في الإمارة (١٨٤٠)، مِنْ حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ-رضي الله عنه-.

[2259] وللمَزيدِ يمكن مُراجَعةُ المصادِرِ التالية: مقالات الإسلاميّين (١/ ٣٤٨) والإبانة (ص: ٦١) كلاهما للأشعري، الشريعة للآجُرِّي (ص: ٣٨-٤١)، اعتقاد أئمَّة الحديث للإسماعيلي (ص: ٧٥-٧٦)، الشرح والإبانة لابن بطَّة (ص: ٢٧٦-٢٧٨)، الاعتقاد للبيهقي (ص: ٢٤٢-٢٤٦)، العقيدة الواسطية مع شرحها للهرَّاس (ص: ٢٥٧-٢٥٩)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزِّ (٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٤).

[2260] رسالةٌ إلى أهل الثغر للأشعري (ص: ٢٩٦).

[2261] منهاج السنَّة لابن تيمية (٢/ ٧٦).

[2262] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٤٤٤).

وقال النوويُّ –رحمه الله–: "لا تُنازِعوا وُلَاةَ الأمورِ في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلَّا أَنْ تَرَوْا منهم مُنْكَرًا مُحقَّقًا تعلمونه مِنْ قواعدِ الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأَنْكِروه عليهم وقولوا بالحقِّ حيث ما كنتم، وأمَّا الخروجُ عليهم وقتالُهم فحرامٌ بإجماعِ المسلمين وإِنْ كانوا فَسَقَةً ظالمين، وقد تَظاهَرَتِ الأحاديثُ بمَعْنَى ما ذَكَرْتُه، وأَجْمَعَ أهلُ السنَّة أنه لا يَنْعَزِلُ السلطانُ بالفسق". [2263]

فالسمع والطاعة تكون لولاة الأمور في طاعة الله، أما المعاصي فلا يطاع فيها، فإذا أمر الأمير شخصًا بشرب الخمر فلا يطيعه، أو أمره أن يقتل أحدًا بغير حق لا يطيعه، وإذا أمر الوالد ولده بالمعصية فلا يطيعه، وإذا أمر الزوج زوجته بالمعصية فلا تطيعه، وإذا أمر السيد عبده بالمعصية فلا يطيعه، لكن لا يتمرد عليه، فليس للرعية أن يتمردوا على الأمير أو ولي الأمر، بل لا يطيعونه في المعصية وما عدا ذلك فيطيعونه، في الأمور المباحة ويطيعونه في طاعة الله ورسوله.

[2263] شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩).

[الخروج على ولاة الأمر]

المسألة الأولى: حكم الخروج على الولاة بالسيف.

المسألة الثانية:النهي عن تتبع زلاتهم.

المسألة الثالثة: حكم من خرج على الإمام.

[١٩]- **قال المصنف-رحمه الله-: "والولاةُ لا يُخرَج عليهم بالسَّيفِ".**

الشرح

المسألة الأولى: حكم الخروج على الولاة بالسيف.

فتنة الخوارج من أعظم الفتن التي أصابت المسلمين، وأشغلتهم بل وتسببت في قتل اثنين من الخلفاء الراشدين، هما عثمان وعلي رضي الله عنهما.

فسفكت الدماء، واستحلت الأموال والأعراض وذلك بسبب فتنة هؤلاء، وهؤلاء ما قامت فتنتهم إلا على أمرين:

الأمر الأول: الخروج على ولي الأمر.

الأمر الثاني: الطعن في العلماء.

فخرجوا على ولي الأمر، وطعنوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم علماء الأمة، ولذلك هؤلاء الخوارج في صفاتهم المتقدمة هي عين صفاتهم هذا اليوم، وفي كل زمان، هذا ديدنهم ومعلوم أن استقامة أحوال الناس لا تكون إلا بطاعة لولي الأمر ولزوم العلماء، ولذلك لما ذكر العلماء قول الله-عز وجل-: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: الآية: 59]، فسروا ولاة الأمر بأنهم الولاة والعلماء.

ففتنة الخوارج دائماً في كل زمان تقوم على الخروج على ولي الأمر، وعلى انتقاص العلماء، وحفظ أحوال الناس لا يكون إلا بحفظ حقوق هذين الأمرين.

ولذلك لما سئل أبو حنيفة –رحمه الله تعالى–عن قومٍ خرجوا على ولي الأمر وخرجوا على خليفة المسلمين، وخرجوا بدعوى أنهم يريدون إصلاح الأمر وما حصل من الظلم والفساد من جهة ذلك الخليفة قال مجيباً عن حال هؤلاء أنهم يفسدون أكثر مما يصلحون، فعلينا أن نعرف نعمة الله علينا باستقرار أمرنا من خلال وجود ولياً لأمرنا، فعند أهل السنة قواعد وضوابط في التعامل مع الحكام تحكمها النصوص لا تحكمها الأهواء ولا تحكمها نزعات الناس ورغباتهم، إنما يحكمها شرعٌ بحمد الله تعالى أوجب عليك السمع والطاعة في السراء والضراء، وعلى المنشط والمكره، فيما تُحب وفيما لا تُحب، وليس لك أن تشق عصا الطاعة، وليس لك أن تبيت ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة لولي الأمر.

المسألة الثانية: النهي عن تتبع زلاتهم.

يجب على العقلاء من الناس أن لا يتتبعوا زلات الولاة، أو زلات العلماء، وعليهم أن يعرفوا أن حفظ حقوق هؤلاء فيه استقامة لأحوال الناس، واستقامة لمعايشهم ومصالحهم، وأن من يؤلب الناس على ولي الأمر ويتتبع تلك المسالك ونحو ذلك فإنما قصده القضاء على هذه المصالح، وهو بهذا الفعل مصادم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا به حيث قال: ((عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد)). ([2264])، وفي رواية: ((عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)). ([2265])، فأمرنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بأن نصبر على ولاة أمورنا مهما لقينا، وها هو يوصي الأنصار بأنهم عليهم أن يصبروا حتى يلقوه على الحوض، ((اصبروا حتى تلقوني على الحوض)). ([2266])

2264 انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، برقم (1838)، وأبو داود (1834)، والترمذي (1706)، وابن ماجه (2861)، والنسائي (4192)، والإمام أحمد في المسند مسند المدنيين (16646).

2265 انظر صحيح البخاري كِتَابُ الأَذَانِ، بَابُ إِمَامَةِ المَفْتُونِ وَالمُبْتَدِعِ، برقم (696)، وابن ماجه (2860)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (12752).

2266 انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، باب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (3163)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (1059)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (13347).

فأمر النبي-صلى الله عليه وسلم-بالصبر والطاعة ولزوم الأمر ولزوم الجماعة، ولزوم ولي الأمر، وهذا معروفٌ ومقررٌ عند أهل السنة، فبتالي نجد أي مجتمعٍ بحمد الله تعالى السنة فيه قائمة هذه الأمور مستقرة في بلدانهم وأوطانهم، ونرى بحمد الله تعالى الدروس والعبر من حولنا، فكم من بلادٍ لم تستقر بسبب الخروج على ولي أمرها، وحالها أسوأ من الحال الذي كانت عليه عندما كان فيها دولة وحكومة وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

وتذكر قول الإمام أبي حنيفة: أن هؤلاء الذين يؤلبون ويخرجون: "إنما يفسدون أكثر مما يصلحون". ([2267]) فقد تكون المصلحة محتملة، لكن الفساد واقعٌ لا محالة، فما قرره العلماء في هذا الجانب إنما هو من منطلق ما جاءت به النصوص الشرعية.

وما نسمعه في كثيرٍ من الأزمان وفي كثيرٍ من البلدان من خروجٍ على ولي الأمر فإنما هو مفسدة متحققة ومتعينة، وما يدعون إليه في كثيرٍ منه ليس بمتحقق ولا يتحقق ولا يمكن تحقيقه،

المسألة الثالثة: حكم من خرج على الإمام.

فمن خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين فهو خارجي يستحق ما جاء في الوعيد في شأن الخوارج، فأي إنسان خرج على ولي الأمر الذي ارتضاه الناس وبايعوه بأن يكون ولياً عليهم فهذا الذي خرج عليه يُلقب ويقال إنه من الخوارج.

والخوارج لهم أحكام عند أهل السنة، ومعلومٌ أن أوائلهم خرجوا على علي-رضي الله عنه-وانحازوا إلى حروراء، وقاتلوا جيش علي رضي الله عنه، ولما سئل عنهم علي-رضي الله عنه-أكفارٌ هم؟ قال: "من الكفر فروا" قال: ماذا تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: "إخواننا بغوا علينا". ([2268]) فعدوا من البغاة، وهم على بدعة، وعلى ضلالة، ولكن لم يُحكم بكفرهم.

2267 انظر الفقه الأكبر صفحة (108).

2268 انظر مصنف ابن أبي شيبة (37942).

وإذا كان لهم منعة وقوة وشوكة وانحياز في مكانٍ معين فهؤلاء لا يُقاتلون حتى يُقاتلوا فإذا قاتلوا فيُقاتلون، أما إذا كان منهم أُناس خرجوا على هيئة جماعات ونحو ذلك وكان شأنهم كقطاع الطرق فإنهم يُتتبعون ويُقضى عليهم وتستأصل شوكتهم ويُكف عن الناس شرهم.

ومعلوم أن هؤلاء تتطور عقائدهم حتى إنهم كفروا عامة المسلمين، واستباحوا دماء المسلمين، واستباحوا أعراضهم، ولا يتورعون عن دم مسلم، فإن أوائلهم بقروا بطن الجارية وأخرجوا منها جنينها وذبحوه، هذا الذي فعلوه في زمن علي رضي الله عنها، وهكذا من هم على طريقهم وعلى دربهم وعلى منهجهم، القتل عندهم مبرر بأي وسيلة ومع كائنٍ من كان، فهو مبرر ويعدونه من عقائدهم.

فلا يتورعون عن دم مسلم، مع أن دم المسلم عند الله سبحانه وتعالى أعظم من حرمة الكعبة، لكن هؤلاء بفكرهم المنحرف حكموا بكفر عامة المسلمين وكذلك انطلقوا يعيثون في الأرض فسادا، فمن خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين فهو عندنا خارجي قد شق عصا المسلمين وخالف الآثار وميتته ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان، والخروج عليه وإن جار.

حتى وإن جار السلطان ليس لك الخروج إلا أن يُرى كفرًا بواحا عندك من الله فيه سلطان، وحجة بينة واضحة لا تخفى، ويُجمع أئمة علماء المسلمين على ذلك، إما لشبهة أو لجور أو لظلم أو لوقوعٌ في ذنب فهذا يُعد من الخروج الذي لا يحل لإنسان أن يسلك سبيله، وليست السنة قتال السلطان، فهذا شأن أهل السنة، إنما هم عونٌ للسلطان على ما فيه طاعة لله عز وجل.

ويحل قتال الخوارج إذا عرضوا المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأهليهم فإذا هم أعرضوا وابتعدوا ولم يواجهوا ويحملوا السلاح فعند ذلك لا يُقاتلون، لكن إذا بدأوا في القتال يحل قتلهم.

فليس له إذا فارقوه أن يطلبهم، ليس للإمام أن يطلبهم ولا يُجهز على جريحهم، ولا يأخذ فيأهم ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم لأنهم بغاة حكمهم حكم البغاة، ليس حكمهم حكم الكفار، فهذا منهج أهل السنة فيهم، وبحمد الله تعالى من سار على السنة بحمد الله تعالى استقرت بلدانه واستقرت أوطانه، ومن خرج عن السنة نرى ما يكون من حالهم في بلدانهم، وما يكون من فتنهم وشرهم نسأل الله عز وجل العافية والسلامة.

[الخلافة في قريش]

القول الأول: اشتراط القرشية .

القول الثاني: القائلون بعدم اشتراط القرشية.

[٢٠]- قال المصنف-رحمه الله-: "والخلافةُ في قريشٍ".

الشرح

اشتراط القرشية في الخلافة هي مسألة خلافية بين العماء،

القول الأول: اشتراط القرشية.

فجمهور السلف يرون أن هذا شرط من شروط الإمامة -إذا أمكن-وذلك لورود النصوص عليه صريحة وانعقد إجماع الصحابة والتابعين عليه، وأطبق عليه جماهير علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من أهل البدع كالخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة.

فجماهير علماء المسلمين قاطبة ذهبوا إلى اشتراط هذا الشرط وحكي الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين، وبه قال الأئمة الأربعة[2269] :

- فقال الإمام أحمد في رواية الإصطخري: «الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة»[2270] .
- «وقد نص الشافعي رضي الله عنه على هذا في بعض كتبه[2271] .»
- وكذلك رواه زرقان عن أبي حنيفة»[2272] .
- وقال الإمام مالك: ولا يكون-أي الإمام-إلا قرشياً. وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي»[2273].

ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة[2274]

أدلة أهل السنة والجماعة على اشتراط القرشية

استدل المثبتون بعدة أدلة صريحة صحيحة من السنة والإجماع فمن السنة ما يلي:

(١) ما رواه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه تعالى عنه. حيث قال البخاري: «باب الأمراء من قريش، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: كان

2269 المصدر: الإمامة العظمى للدميجي: ص 265 . 295.

2270 طبقات الحنابلة 1/ 26، لابن أبي يعلى.

2271 الأم 1/ 143.

2272 أصول الدين ص 275.

2273 أحكام القرآن لابن العربي 4/ 1721.

2274 سيأتي ذكر أسمائهم وآرائهم قريبا.

محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية-وهم عنده في وفد من قريش-أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان[2275] فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله لا يقول: ((إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين))"[2276].

(٢) ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[2277]

2275 قول عبد الله بن عمرو بن العاص-الذي أنكره عليه معاوية في الحديث المذكور-إنه سيكون ملك من قحطان... الخ. إن أراد به القحطاني الذي صحت الرواية بملكه فلا وجه لإنكاره لثبوت أمره في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، أخرجه البخاري في الفتن باب في تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان (13/ 76 من الفتح) وذكره في المناقب في ذكر قحطان (6/ 545) وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. ح: ٢٩١٠ (4/ 2232) وهذا القحطاني لم يعرف اسمه عند الأكثرين وقيل اسمه جهجاه وقيل شعيب بن صالح، وقيل غير ذلك. والله أعلم. انظر فتح الباري 13/ 115، وأضواء البيان ١/ 55.

2276 رواه البخاري في كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش (13/ 114 من الفتح).

2277 رواه البخاري في ك: الأحكام باب الأمراء من قريش (13/ 114 من الفتح) ومسلم في كتاب الامارة باب الخلافة في قريش ح: ١٨٢٠ (3/ 1452).

قال الحافظ ابن حجر: «وليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش»[2278].

(٣) ومنها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم»[2279].

(4) وفي مسند الإمام أحمد أن أبا بكر وعمر لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الأنصار لاختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم أبو بكر ولم يترك شيئا أنزل في الأنصار وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنهم إلا ذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا سلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء» [2280]وقد مر معنا في الرواية الواردة في الصحيح والتي أثبتناها في مبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه عند ذكره لهذا الحديث بمعناه لا بلفظه حيث قال: ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش»[2281]

2278 فتح الباري 13/ 117.

2279 رواه البخاري كتاب المناقب باب 2/ 6/ 526.ومسلم في ك: الامارة ب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح: ١٨١٨ (3/ 1451) ورواه الإمام أحمد في مسنده 2/ 243.

2280 رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسن (1/ 5) وله شواهد تقويه انظر تخريجه في ص 145 من طرق الانعقاد من هذا البحث

2281 انظر ص 145.

(5) ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب البيت ونحن فيه فقال: «الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» [2282]وقال ابن حزم وهذه رواية «الأئمة من قريش» جاءت مجيء التواتر رواها أنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعاوية وروى جابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعبادة بن الصامت معناها[2283].

وقال الحافظ ابن حجر: «قد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابيا لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يرد إلا عن أبي بكر الصديق»[2284] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

ثانيا: الإجماع:

2282 رواه الإمام أحمد في مسنده 3/ 183، وقال الهيثمي رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٩٢/5 وروى ابن أبي عاصم في السنة الشطر الأول منه وصححه الألباني انظر 2/ 531 من كتاب السنة، وقال ابن حجر: وأخرجه الطبراني والطيالسي والبزار.

والمصنف في التاريخ -يعني البخاري-وأخرج النسائي وأبو يعلى نحوه وغيرهم. (13/ 114 من فتح الباري) وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: لا أعرفه إلا ان ابن أبي ذئب قد حدث عنه معمر غير حديث (المسند من مسائل الإمام أحمد. ورقة 8) وقد صحح أحمد شاكر هذا الإسناد في تخريجه للمسند: ح 7640 وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح: 2755 (2/ 406) وانظر زيادة تخريج في الروض النضير 5/ 18.

2283 الفصل في الملل والأهواء والنحل 4/ 98.

2284 فتح الباري 7/ 32.

أما الإجماع: فقد حكاه غير واحد من العلماء منهم: النووي حيث قال في شرحه لحديث: الناس تبع لقريش... الخ الحديث: «هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها الأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة [2285]

ومنهم القاضي عياض فقد نقل عنه النووي قوله: «اشتراط كونه-أي الإمام-قرشيا هو مذهب العلماء كافة، قال: وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد، قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار قال: ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش، ولا سخافة ضرار بن عمرو في قوله: إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر، وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين والله أعلم»[2286].

ومن حكى هذا الإجماع أيضا الماوردي [2287]والإيجي في المواقف[2288] وابن خلدون في المقدمة [2289]والغزالي في فضائح الباطنية [2290]وغيرهم.

2285 شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 200.

2286 شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 200.

2287 الأحكام السلطانية ص 6.

2288 ص 398

2289 ص 194.

2290 ص 180.

ومن المتأخرين الشيخ محمد رشيد رضا حيث قال: «أما الإجماع على اشتراط القرشية فقد ثبت بالنقل والفعل، رواه ثقات المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون...»[2291].

ولكن الحافظ ابن حجر يعترض على هذا الإجماع بقوله: «قلت: ويحتاج من نقل الإجماع إلى تأويل ما جاء عن عمر من ذلك، فقد أخرج أحمد عن عمر بسند رجاله ثقات أنه قال: «إن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل... الحديث». ومعاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش، فيحتمل أن يقال: لعل الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيا، أو تغير اجتهاد عمر في ذلك والله أعلم[2292].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "فاشتراط كونه قرشيًا هو الحق، ولكن النصوص الشرعية دلت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة مشروط بإقامتهم الدين، وإطاعتهم لله ورسوله، فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم"[2293].

وقد دل على ذلك قول أبي بكر: "وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله، واستقاموا على أمره"، وقوى هذا القول ابن حجر من ثلاثة أوجه، وبما أخرجه أحمد من حديث ذي مخبر

2291 الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا ص ١٩.

2292 فتح الباري 12/ 119 والواقع أنه لا يرجع إلى التأويل إلا إذا صـــح الخبر في مخالفة عمر للإجماع، ولكن هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وسيأتي الكلام عليه قريبا ص. ٢٧٧

2293 أضواء البيان 1/ 24.

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيره في قريش، وسيعود إليهم"، قال ابن حجر: "وسنده جيد، وهو شاهد قوي"[2294].

القول الثاني: القائلون بعدم اشتراط القرشية وأدلتهم:

أول من قال بعدم اشتراط القرشية الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه «إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما»[2295].

وزعم ضرار بن عمرو–من شيوخ المعتزلة–أيضا أن الإمامة تصلح في غير قريش «حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي إذ هو أقل عددا وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة[2296].

قال الشهرستاني: والمعتزلة–أي جمهورهم–وإن جوزوا الإمامة في غير قرشي، إلا أنهم لا يجيزون تقديم النبطي على القرشي»[2297]، وزعم الكعبي أن القرشي أولى بها من الذي يصلح لها من غير قريش، فإن خافوا الفتنة جاز عقدها لغيره»[2298].

2294 فتح الباري 13/ 116.

2295 الملل والنحل 1/ 116.

2296 الملل والنحل للشهرستاني حـ1، ص 91.

2297 الملل والنحل 1/ 91.

2298 أصول الدين ص 275.

ومن الأشاعرة إمام الحرمين الجويني حيث مال إلى عدم اشتراطه، وزعم أنه من أخبار الآحاد، وهو على مذهبه الباطل-في عدم الاحتجاج بخبر الآحاد-لا يحتج به في مثل هذه المسائل حيث قال: «وهذا مسلك لا أوثره، فإن نقلة هذا الحديث معدودون لا يبلغون مبلغ عدد التواتر. والذي يوضح الحق في ذلك: أنا لا نجد في أنفسنا ثلج الصدور واليقين المثبوت بصدد هذا من فلق[2299] في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما لا نجد ذلك في سائر أخبار الآحاد، فإذا لا يقتضي هذا الحديث العلم باشتراط النسب في الإمامة[2300] وقال في كتابه «الإرشاد»: «وهذا مما يخالف فيه بعض الناس، وللاحتمال فيه عندي جال، والله أعلم بالصواب[2301]. وقد اختلف قول أبي بكر الباقلاني، فاشترط القرشية في كتابه الإنصاف» فقال: «ويجب أن يعلم أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط منها: أن يكون قرشية لقوله ع الأئمة من قريش»[2302] ولم يشترطها في كتابه «التمهيد» حيث قال: «إن ظاهر الخبر لا يقضي بكونه قرشيا، ولا العقل يوجبه»[2303].

2299 الفلق: بيان الحق بعد إشكاله.

2300 غياث الأمم للجويني ص 163.

2301 الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لابي المعالي الجويني. ص 427 ط. 1369هـ.ن: مكتبة الخانجي بمصر تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد.

2302 الإنصاف للباقلاني ص 69.

2303 نقلا عن الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف في تعليقه على الصواعق المحرقة للهيثمي ص٩. ولم أقف على هذا الكلام في كتاب التمهيد لأن النسخة الموجودة المتداولة الآن من تحقيق جماعة من المستشرقين، وقد حذفوا كتاب الإمامة كاملا، وقد نسب هذا الكلام إلى الباقلاني ابن خلدون أيضا. انظر المقدمة ص 194.

وإلى نفي اشتراط القرشية ذهب أكثر الكتاب المحدثين منهم: الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» وذهب إلى أن الأحاديث الواردة مجرد أخبار لا تفيد حكما[2304]، ومنهم العقاد[2305]، ومنهم د. علي حسني الخربوطلي في كتابه «الإسلام والخلافة»[2306] وتجرأ على رمي الأحاديث المذكورة بالوضع، ومنهم د. صلاح الدين دبوس في كتابه «الخليفة توليته وعزله» وذهب إلى أن هذه الأحاديث مجرد أخبار[2307](4)، ومنهم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله-وعفا عنه-واعتبرها من باب السياسة الشرعية المتغيرة بتغير العوامل[2308].

واستدل من ذهب إلى نفي اشتراط القرشية بما يلي:

(١) بقول الأنصار يوم السقيفة «منا أمير ومنكم أمير»[2309] قالوا: فلو لم يكن الأنصار يعرفون أنه يجوز أن يتولى الإمامة غير قرشي لما قالوا ذلك.

(٢) ومن أدلتهم أيضا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل

2304 1/ 90

2305 الديموقراطية في الإسلام ص 69 ط. رابعة ن: دار المعارف مصر.

2306 ص 42.

2307 ص ٢٧٠.

2308 نظام الإسلام في الحكم والدولة ص ٧١.

2309 سبق تخريجه في مبايعة أبي بكر ص 145 من فصل طرق الانعقاد.

عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[2310] فالحديث أوجب الطاعة الكل إمام وإن كان عبدا، فدل على عدم اشتراط القرشية.

(٣) واستدلوا أيضا بقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته... فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة؛ استخلفت معاذ بن جبل"[2311] والمعروف أن معاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش[2312]، فدل على الجواز. كما روى عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: «لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح»[2313] .

(4) فاستنتجوا من قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...» أن هذا تعليل لطاعة العرب لهم فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار...

(5) ومنهم من قال: إن هذه الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة إنها هي على سبيل الإخبار، وليس فيها أمر يجب امتثاله، ذهب إلى ذلك بعض الكتاب المتأخرين كالشيخ محمد أبي زهرة[2314] ود. صلاح الدين دبوس[2315] وغيرهم.

2310 سبق تخريجه عند الحديث على اشتراط الحرية من هذا الفصل ص 241.

2311 رواه أحمد في مسـنده (1/ 18) وقال عنه الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات (فتح الباري 13/ 119) لكن في إسناده انقطاع لأن شريح بن عبيد تابعي متأخر لم يدرك عمر، وكذلك راشد بن سعد الحمصي لم يدرك عمر، فالحديث ضعيف لانقطاعه انظر المسند تحقيق أحمد شاكر ح: ١٠٨ (1/ 201).

2312 انظر الإصابة لابن حجر 9/ 219.

2313 المسند (1/ 20) وصحح الأستاذ أحمد شاكر إسناده ح: ١٢٩ (1/ 112).

2314 تاريخ المذاهب الإسلامية (1/ 90).

2315 الخليفة توليته وعزله ص ٢٧٠.

(6) واستدلوا على ذلك أيضا بقوله تعالى: {إن أكرمكم عند أتقاكم} [الحجرات آية 13] . فجعل الأفضلية والإكرام بالتقوى لا بالمعايير الأخرى كالنسب ونحوه، بل وردت أحاديث تحذر من التفاخر بالأنساب والأحساب، وتنهى عن العصبية الجاهلية منها:

أ-قوله: «أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»[2316] .

ب-ومنها قوله: «إن الله أذهب عنكم عبية [2317]الجاهلية وفخرها بالآباء: الناس رجلان، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[2318].

مناقشة هذه الأدلة

2316 رواه البخاري في ك: مناقب الأنصار، ب: القمامة في الجاهلية (فتح الباري 156/1) ورواه مسلم واللفظ له في الجنائز ب: التشديد في النباحة ح/ 934، (2/ 644).

2317 عبية الجاهلية: بضم العين المهملة وكسر الموحدة المشددة وفتح المثناة التحتية المشددة: أي فخرها وتكبرها، قال الخطابي: العبية الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها، وأصله مهموز من العبء وهو الثقل وفيه لغة أخرى وهي العبية بالكسر انظر (غريب الحديث للخطابي 1/ 190 ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى 1402 هـ).

2318 رواه أبوداود في سننه ك: الأدب، ب: التفاخر بالأحساب (14/ 21 عون المعبود) وأخرج نحوه الترمذي في ك: المناقب، ب: فضل الشام واليمن (5 / 735) وقال: «حسن غريب». وسبق تخريجه ص ١١٨ من فصل مقاصد الإمامة.

(1) أما استدلالهم بقول الأنصار «منا أمير ومنكم أمير» فواضح البطلان، وذلك لرجوعهم رضي الله عنهم عن هذا القول في تلك اللحظة بعد أن سمعوا النص الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو بكر رضي الله تعالى عنه

في قوله: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، بر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء»[2319]. فيحتمل أنهم قالوا هذا القول قبل أن يعرفوا النص الذي يثبت الخلافة في قريش ولهذا رجعوا إلى رشدهم لما عرفوا الحقيقة.

(٢) أما استدلالهم بأحاديث الأمر بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، فقد سبق الجواب عليها مفصلا[2320]، وأن المراد إما إمامة المتغلب أو الإمارة الصغرى على بعض الولايات، أو لأجل المبالغة في الأمر بالطاعة وضربه مثلا.

(3) أما استدلالهم بقول عمر في إرادته استخلاف معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله تعالى عنه فهذا لم يتم، وإنما رشح عمر ستة قرشيين اختارهم وقال: «ليختاروا أحدهم»، وأيضا لو ثبت ذلك فإن النص مقدم على قول الصحابي وإن بلغ من الفضل ما بلغ، ولعله اجتهاد من عمر رضي الله تعالى عنه ثم تراجع عنه إلى النص، وقد أجاب الحافظ في الفتح[2321] على هذا الاعتراض باحتمالين هما:

أ-إما أن يكون الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيًا.

ب-وإما أن يكون قد تغير اجتهاد عمر في ذلك.

2319 رواه أحمد (1/ 5) وسبق تخريجه في طرق الانعقاد ص 146.

2320 انظر الجواب على هذا الحديث مفصلا ص ٢42 من هذا الفصل عند الحديث على اشتراط القرشية ففيه ما يغني عن الإعادة.

2321 فتح الباري 13/ 119.

قلت: وإما أن يريد من قوله ذلك الولاية الصغرى، أي على أحد الأقاليم، وهذا لا يشترط فيه النسب اتفاقا، هذا على افتراض صحة الحديث وإلا فقد سبق أن بينا ضعفه لانقطاع سنده فلا يصلح للاحتجاج به أما الحديث الثاني والذي فيه ذكر سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة فيحتمل إرادة التولية الصغرى أيضا، أو أنه يعتبر قرشيًا، لأن أبا حذيفة القرشي[2322] قد تبناه وهو مولى له، ومولى القوم منهم، وقد أرضعته زوجه–وهو كبير–بعد تحريم التبني فأصبح ابنا له، وقصة إرضاعه مشهورة، وهي في صحيح مسلم وغيره، قال ابن عبد البر: «وهو يعد في قريش لما ذكرنا»[2323] ويقصد قوله: «لأنه لما اعتقته مولاته زوج أبي حذيفة تولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة ولذلك عد في المهاجرين»[2324]، أما أبو عبيدة فقرشي باتفاق[2325] .

(4) أما استدلالهم بقول أبي بكر: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...»[2326] وقولهم بأن هذا تعليل لطاعة العرب لهم، فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار، هكذا عللوه، وهو تعليل بعيد، لأنه ظاهر في أحقية قريش بالخلافة فهو بحق دليل على اشتراط القرشية لا على نفيها، والنصوص التي ذكرت استدلال أبي بكر مبينة لهذا

2322 الإصابة ٨١ / ١١.

2323 الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر 4/ 101

2324 الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر 4/ 101

2325 الإصابة 5/ 285.

2326 أخرجه البيهقي وعند الطبراني مثله انظر فتح الباري 13/ 118، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ٢/ 637 وصححه الألباني انظر (إرواء الغليل ح: 519 (٢/ 295).

الظاهر، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بدليل تسليمهم بالطاعة لأبي بكر رضي الله عنه حينها بين لهم هذا الدليل... والله أعلم.

(5) وأما من قال بأنها على سبيل الإخبار وليس فيها أمر فمردود لأنها أمر في صيغة الخبر، وقد وردت بعض الأحاديث بالأمر الصريح كقوله صلى الله عليه وسلم: قدموا قريشا ولا تقدموها(هـ) فهذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بذلك.

كما أنه لو كان إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم لتحقق الخبر، وهو أنه لن يتولى الخلافة إلا قرشي، لأن خبر الصادق لابد أن يتحقق، لكن الواقع غير ذلك، فقد تولى الخلافة غيرهم، منهم من يدعي كذبًا أنه قرشي كالعبيدين الذي تسموا بالفاطميين[2327]، ومنهم من لم يدع ذلك كسلاطين الدولة العثمانية، قال ابن حزم: «هذان الخبران-يقصد حديث ابن عمر ومعاوية السابق ذكرهما-وإن كانا بلفظ الخبر فهما أمر صحيح مؤكد، إذ لو جاز أن يوجد الأمر في غير قريش لكان تكذيبا لخبر النبي صلى الله عليه وسلم وهذا كفر ممن أجازه»[2328] .

(6) وأما ما قالوه من أن الإسلام نهى عن العصبية، وأن تسود طائفة معينة على سائر المسلمين، وأنه جاء بالمساواة بين المسلمين جميعا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى... الخ» نقول: إن الإسلام باشتراطه أن يكون الإمام قرشيا لم يكن بذلك داعيا إلى العصبية القبلية التي نهى عنها في أكثر من موضع، فإن الإمام في نظر الإسلام ليس له أي مزية على سائر أفراد الأمة ولا لأسرته أدنى حق زائد على غيرهم، فالإمام وغيره من أفراد المسلمين سواء في نظر الإسلام، بل هو متحمل من التبعات والمسؤوليات ما يجعله من أشد الناس حملا وأثقلهم حسابا يوم القيامة.

2327 انظر لكشف كذبهم وتبين أصلهم تاريخ السيوطي ص 4.

2328 المحلى لابن حزم 10/ 503.

هذا وليس معنى أن الإسلام نهى عن العصبية أن الناس لا تفاضل بينهم، بل التفاضل بين الخلق في الدنيا من صميم الفطرة، ووردت أدلة شرعية على ذلك. فجمهور العلماء[2329] على أن جنس العرب خير من غيرهم، كما أن جنس قريش خير من غيرهم، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الناس أكرم؟ فقال أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: فيوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال أفعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». وفي رواية: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[2330].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذهبت طائفة إلى عدم التفضيل بين الأجناس، وهذا قول طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر ابن الطيب وغيره... وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية، وهو قول ضعيف من أقوال أهل البدع»[2331]. وقال: «لكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد، فإن في غير العرب خلق كثير خير من أكثر العرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار خير من أكثر قريش.... قال: «والمقصود أنه أرسل--إلى جميع الثقلين الإنس والجن فلم يخص العرب دون غيرهم من الأمم بأحكام شرعية، ولكن خص قريشا بأن الإمامة فيهم، وخص بني هاشم بتحريم الزكاة عليهم، وذلك لأن جنس قريش لما كانوا أفضل، وجب أن تكون الإمامة في أفضل الأجناس مع

2329 مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية 19/ 29.

2330 متفق عليه رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (6/ 387 من الفتح) ورواه مسلم في كتاب الفضائل ب: من فضائل يوسف عليه السلام حديث رقم ١٣٧٨ (4/ 1846).

2331 منهاج السنة ٢/ 260.

الإمكان، وليست الإمامة أمرا شاملا وانا يتولاها واحد من الناس»[2332]. وقال شيخ الإسلام: «وإذا فرضنا أثنين أحدهما أبوه نبي والآخر أبوه كافر وتساوياً في التقوى والطاعة من كل وجه كانت درجتهما في الجنة سواء، ولكن أحكام الدنيا بخلاف ذلك في الإمامة والزوجية والشرف وتحريم الصدقة ونحو ذلك...» قال: «والخير في الأشراف أكثر منه في الأطراف»[2333] .

أما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة، ومدح الله عز وجل للشخص المعين وكرامته عند الله وفضله فهذا لا يؤثر فيه النسب، وإنما المؤثر الوحيد هو التقوى والعمل الصالح، كما قال عز وجل «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2334] .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في فضل قريش على سائر القبائل[2335] منها قوله: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[2336]. فالحاصل أن هناك من ألغى فضيلة الأنساب مطلقا، وهناك من يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم منه في الإيمان والتقوى فضلا من هو مثله. قال ابن تيمية: «فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة وفضيلة الأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من

2332 مجموع الفتاوى 19/ 30 وانظر قريبا منه منهاج السنة ٢/ 260.

2333 المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص 350.

2334 سورة الحجرات الآية ١٣.

2335 من شاء الاستزادة فليرجع إلى كتاب السنة لابن أبي عاصم 2/ 632.

2336 رواه مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم وسبق تخريجه مس 268 من هذا الفصل.

جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، وأن كل من كان أتقى كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا، لأن الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة»[2337] فالمقصود أن اشتراط القرشية في الإمام ليس له علاقة بالعصبية القبلية التي نهى الإسلام عنها البتة. كما أن النسب في حد ذاته في أصل الشيعة لا قيمة له ذاتية، وإنما هي صفة كمال.

هذا وأهل السنة لم يقصروها على نوع بعينه من قريش وإنما كان من انتسب إلى قريش جازت له الإمامة إذا توفرت شروطها الأخرى، وهناك من المبتدعة من قصرها على فرع معين، فقصرها بعضهم على بني هاشم، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

١-الراوندية[2338]: وهؤلاء يرون أنها يجب أن تكون في العباس بن عبد المطلب وولده إلى أن ينتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور.

٢-الرافضة: وهؤلاء يرون أنها تكون في علي رضي الله عنه، ثم في ولده من بعده، ثم اختلفوا بعد ذلك إلى مذاهب شتى:

فزعمت الزيدية منهم أنها لا تكون إلا في ولد علي رضي الله عنه، ومن خرج من ولد الحسن أو الحسين شاهرًا سيفه وفيه علامات الإمامة فهو الإمام.

وزعمت الإمامية أنها في واحد مخصوص من أولاد علي رضي الله عنه وهو محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي ينتظرونه حيث قالوا: إن الإمامة في علي ثم الحسن ثم الحسين ثم تسلسلت في أبنائهم إلى محمد بن الحسن العسكري «المنتظر». وقال بعض الغلاة من الروافض: إن الإمامة في الأصل في علي وولده ثم أخرجوها إلى جماعة من غير

2337 منهاج السنة 2/ 216.

2338 هم أتباع أبي هريرة الراوندي من فرقة الكيسانية انظر المقالات 1/ 96 واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص 95 ط. جديدة ١٣٩٨ هـ ن. مكتبة الكليات الأزهرية.

قريش، إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليه، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من يزعمون أن الإمامة انتقلت إليه كالبيانية في دعواها انتقال روح الإله من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى بيان، وكدعوى من ادعى أن الروح انتقلت إلى الخطاب الأسدي، وكدعوى المنصورية نبوة أبي منصور العجلي وإمامته[2339]، وكدعوى الإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم من الطوائف الباطنية التي تظهر الرفض والتشيع والانتساب إلى آل البيت، وباطنهم الكفر المحض.

2339 انظر أصول الدين ص 275.

[الخمر]

المسألة الأولى: حكم الخمر والأدلة على تحريمه.

المسألة الثانية: الرد على من ترخص في شرب النبيذ.

[٢١]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وأن قليلَ ما أسكر كثيره خمرٌ".**

الشرح:

المسألة الأولى: حكم الخمر والأدلة على ذلك.

الخمر: ما خامر العقل؛ أي: غطاه، على سبيل اللذة والطرب.

وهو محرم بنص كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وإجماع المسلمين. قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة: الآيتان: ٩١ ،٩٠]، وقال-صلى الله عليه وسلم-: ((كُلَّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَا أَسْكَرَ الْفَرْقُ، فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ)). [2340]

وقال-صلى الله عليه وسلم-: ((كُلَّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلَّ خَمْرٍ حَرَامٌ)). [2341]

فالشريعة تصون العقول والأبدان، وتمنع ما يفسدها ويضرها، فلا يجوز تعاطي الخمر أيًّا كان مصدره؛ من العنب أو الزبيب أو التمر أو العسل أو الذرة أو غير ذلك. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ يِّه، عَلَى

2340 أخرجه أحمد (٢٤٩٩٢)، وأبو داود (٣٦٨٧)، والترمذي (١٨٦٦).

2341 أخرجه مسلم (٢٠٠٣).

مِنْبَرِ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–، يَقُولُ: ((أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ؛ مِنْ: العِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالعَسَلِ وَالحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ. وَالخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ)). [2342]

وقال–صلى الله عليه وسلم–: ((إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا)). 2343

المسألة الثانية: الرد على من ترخص في شرب النبيذ.

وأما ما ذكر عن بعض الفقهاء في الترخيص في شرب النبيذ فقد رد العلماء قول هذا الفريق، فعن سليمان التيمي قال: "لو أخذتَ برخصة كل عالِم اجتمع فيك الشرّ كله". 2344.

وقد ورد عن الأوزاعي أنه قال: "لا نأخذ من قول أهل العراق خصلتين، ولا من قول أهل مكة خصلتين، ولا من قول أهل المدينة خصلتين، ولا من قول أهل الشام خصلتين:

فأما أهل العراق فتأخير السحور وشرب النبيذ،

وأما أهل مكة فالمتعة والصرف،

وأما أهل المدينة فإتيان النساء في أدبارهن والسماع،

وأما أهل الشام فبيع العصير وأخذ الديون قال: وهذان الأمران قد ذهبا. أما بيع العصير فليس في الشام اليوم عالم يبيحه، وأما الديون فقد منعهموه السلطان"2345.

2342 أخرجه البخاري (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢).

2343 رواه البخاري (80)، ومسلم (2671).

2344 أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (2/ 927) وإسناده صحيح، وانظر المسودة (ص: 518-519).

2345 مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (1/ 41).

وقال ابن تيمية: "كَانَ الْأَوْزَاعِيّ يَقُول من أَخذ يَقُول أهل الْكُوفَة فِي النَّبِيذ وَبقول أهل مَكَّة فِي الْمُتْعَة وَالصرْف وَيَقُول أهل الْمَدِينَة فِي الْغناء أَو قَالَ الحشوش والغناء فقد جمع الشَّرّ كُله أَو كلَاما هَذَا مَعْنَاهُ. 2346"

وقال الأوزاعي: "من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام". 2347

وقوله أيضاً: "يُترك من قول أهل مكة المتعة والصرف، ومن قول أهل المدينة السماع وإتيان النساء في أدبارهن، ومن قول أهل الشام الجبر والطاعة، ومن قول أهل الكوفة النبيذ والسحور". 2348

وعن إسماعيل بن إسحاق القاضي قال: "دخلت على المعتضد فدفع إلي كتاباً نظرت فيه وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء وما احتجّ به كلٌ منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق، فقال: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب". 2349

وأما الجواب على من قال بأن هذه المسألة من مسائل الخلاف ومسائل الخلاف لا إنكار فيها.

فالجواب على ذلك:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "قولهم: ومسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل:

2346 الاستقامة (١/ ٣٧٤).

2347 أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/ 356)، وإسناده حسن.

2348 أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/ 356) وإسناده ضعيف، وله شواهد ومتابعات، انظر تلخيص الحبير (3/ 187).

2349 أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/ 356) وإسناده صحيح، وانظر سير أعلام النبلاء (13/ 465).

أما الأول فإن كان القول يخالف سنة أو إجماعًا قديمًا وجب إنكاره وفاقًا، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول: المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء، وأما العمل إذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب درجات الإنكار كما ذكرنا من حديث شارب النبيذ المختلف فيه وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف سنة وإن كان قد اتبع بعض العلماء،

وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد مالم يكن فيها دليل يوجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك الاجتهاد لتعارض الأدلة المقاربة أو لخفاء الأدلة فيها". [2350]

وقال ابن قيم الجوزية-رحمه الله تعالى-: "وهذا يرد قول من قال: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، وهذا خلاف إجماع الأئمة...-إلى أن قال-: وقولهم: (إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها). ليس بصحيح؛ فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل،

أما الأول: فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعًا وجب إنكاره اتفاقًا وإن لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء.

2350 بيان الدليل على بطلان التحليل (ص:210-211)، ونقله ابن مفلح في الآداب الشرعية (1/ 191).

وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم". [2351]

2351 إعلام الموقعين (5/ 242-243). وبنحو قولهما قال السمعاني في قواطع الأدلة (5/ 62)، والنووي في «شرح مسلم (2/ 23).

[المتعة حرام]

المسألة الأولى: المقصود بالمتعة هنا والأدلة على تحريمها.

المسألة الثانية: الرد على القائلين بجواز المتعة.

[٢٢]- **قال المصنف-رحمه الله-:** "والمتعةُ حرامٌ".

الشرح

المسألة الأولى: المقصود بالمتعة هنا والأدلة على تحريمها.

المتعة المقصـود بها هنا هي متعة النسـاء لأن لفظ المتعة يطلق كذلك على متعة الحج باعتبار أن الحج له ثلاث صيغ إما الإفراد، وإما القران، وإما التمتع.

والأصـل في الزواج الاسـتمرار والدوام، وقد جعل الله تعالى الزواج من آياته التي تدعو إلى التفكر والتأمل، وجعل تعالى بين الزوجين المودة والرحمة، وجعل الزوجة سـكناً للزوج، ورغَّب في إنجاب الذرية، وجعل للمرأة عدة وميراثاً، وكل ذلك منتفٍ في هذا النكاح المحرَّم.

والزواج المؤقت–وهو زواج المتعة– كان مباحًا في أول الإسلام ثم نُسخت الإباحة، وصار محرَّماً إلى يوم الدين.

فعن علي–رضي الله عنه–: "أن رسول الله–صلى الله وسلم–نهى عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر". وفي رواية: "نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية" [2352].

وعن الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فقال: "يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً" [2353].

المسألة الثانية: الرد على القائلين بجواز المتعة.

والمرأة المتمتع بها عند الرافضة –الشيعة وهم الذين يقولون بجوازه– ليست زوجة ولا أمَة، وقد قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) [المؤمنون: 5 – 7]

وقد استدل الرافضة لإباحة المتعة بما لا يصلح دليلاً ومنه:

أ. قول الله تعالى: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) [النساء: 24.]

فقالوا: إن في الآية دليلاً على إباحة المتعة، وقد جعلوا قوله تعالى أجورهن قرينة على أن المراد بقوله استمتعتم هو المتعة.

2352 رواه البخاري (3979)، ومسلم (1407).

2353 رواه مسلم (1406).

والرد على هذا: أن الله تعالى ذكر قبلها ما يحرم على الرجل نكاحه من النســـاء، ثم ذكر ما يحل له في هذه الآية، وأمر بإعطاء المرأة المزوَّجة مهرها.

وقد عبَّر عن لذة الزواج هنا بالاستمتاع، ومثله ما جاء في السنَّة من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المرأة كالضِّلَع إن أقمتَها كسرتَها،

وإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عوج"[2354]

وقد عبَّر عن المهر هنا بالأجر، وليس المراد به المال الذي يُدفع للمتمتَّع بها في عقد المتعة، وقد جاء في كتاب الله تعالى تســـمية المهر أجراً في موضـــع آخر وهو قوله:(يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن)، فتبيَّن أنه ليس في الآية دليل ولا قرينة على إباحة المتعة.

ولو قلنا تنزلاً بدلالة الآية على إباحة المتعة فإننا نقول إنها منسوخة بما ثبت في السنة الصحيحة من تحريم المتعة إلى يوم القيامة.

ب. ما روي عن بعض الصحابة من تجويزها وخاصة ابن عباس.

والرد: هذا من اتباع الرافضة لأهوائهم فإنهم يكفرون أصحاب النبي رضي الله عنهم ثم تراهم يستدلون بفعلهم هنا، وفي غيره من المواضع.

فأما من ثبت عنه القول بالجواز فهم ممن لم يبلغهم نص التحريم، وقد رد الصـــحابة رضـــي الله عنهم (ومنهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير) على ابن عباس في قوله بإباحة المتعة.

فعن علي أنه سمع ابن عباس يلِيّن في متعة النســـاء فقال: "مهلا يا ابن عباس فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية"[2355].

2354 رواه البخاري (4889) ومسلم (1468).

2355 رواه مسلم (1407).

فالمتعة حرام، بحيث إن الإنسان يستحل المرأة في مدة محدودة معلومة، من يوم أو يومين أو شهر أو شهرين يحدد بداية ونهاية لهذا الأمر.

قال ابن بطة: "ومن السنة أن يعلم أن المتعة حرام إلى يوم القيامة"[2356].

وقال قوام السنة الأصفهاني: "ومتعة النساء حرام إلى يوم القيامة"[2357].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالروايات المستفيضة المتواترة متواطئة على أنه حرم المتعة بعد إحلالها»[2358].

وجاء تقرير حرمة نكاح المتعة خلافًا للروافض الذين يزعمون أن متعة النساء خير العبادات وأفضل القربات، ويوردون في فضائلها أخبارا كثيرة موضوعة ومفتراة.[2359]

وقد حكي الإجماع على تحريم نكاح المتعة غير واحد من الأئمة، كما بينه الحافظ ابن حجر بقوله: "قال ابن المنذر: لا أعلم اليوم أحدا يجيزها إلا بعض الروافض، ولا معتمد لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله.

وقال عياض: ثم وقع الإجماع من جميع العلماء على تحريمها إلا الروافض.

وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح على قاعدتهم في الرجوع في المختلفات إلى علي وآل بيته؛ فقد صح عن علي أنها نسخت، ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة، فقال: هي الزنا بعينه.

وقال القرطبي: الروايات كلها متفقة على أن زمن إباحة المتعة لم يطل وأنه حرم، ثم أجمع السلف والخلف على تحريمها إلا من لا يلتفت إليه من الروافض"[2360].

2356 الإبانة الصغرى ص ٢٩٠.

2357 الحجة ٢/ ٣٨ = باختصار، وانظر: ٢/ ٢٩٩.

2358 منهاج السنة النبوية 4/ ١٩٠.

2359 مختصر التحفة الاثنى عشرية ص ٢٢٧.

2360 فتح الباري ٩/ ١٧٣.

ولا تتوقف مخازي الرافضة عند حد فهم يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ومن بعض صور حالهم:

قال ابن تيمية عن أولئك الروافض: "وهؤلاء يحرمون نكاح نسائهم-أي نساء أهل الكتاب-وأكل ذبائحهم، وهذا ليس من أقوال أحد من أئمة المسلمين المشهورين بالفتيا، ولا من أقوال أتباعهم، وهو خطا مخالف للكتاب والسنة والإجماع القديم" [2361].

وأباح جمهور السلف الصالح نكاح المحصنات من أهل الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) [المائدة: 5] وحرم الرافضة ما أحل الله فمنعوا نكاح الكتابيات.

ومع أن الرافضة حرموا نكاح الكتابيات، إلا أنهم غلب عليهم الإباحية والفجور، فقارنوا عارية الفرج والزنا باسم المتعة، وأباحوا وطء الناس النساء في أدبارهن كما هو مقرر في كتبهم.[2362]

وعندهم ما يسمى كذلك نكاح الاستبضاع: وهي أن يأذن الرجل لزوجه أن تُمكِّن من نفسها رجلاً معينًا، ويسمى كذلك إعارة الفرج: وهو مزيج من أنكحة الجاهلية وأنكحة مجوسية وبوذية، وهو نكاح ابتدعه الشيعة بغرض عفة المرأة في حال سفر زوجها، وهو أن الرجل إذا أراد السفر أودع زوجته عند أحد أقاربه أو أصدقائه تقيم معه يستمتع بها، ويحدد له الزوج حدود الاستمتاع، إما استمتاع كامل ومعاشرة كمعاشرة الأزواج، وإما استمتاع دون الفرج، ولا يحل له تعدى الحدود التي حددها الزوج، وإذا ما تعدى الصديق أو القريب تلك الحدود يكون خائنا للأمانة ويدخل في دائرة الحرام حيث المبرر لهذا النكاح أنه حصن للزوجة وضمان للرجل أن زوجته لم تخنه!!

2361 مجموع الفتاوى 35/ ٢١٣، وانظر: ٣٢/ ١٨١.

2362 انظر أصول الشيعة للقفاري ٣/ ١٢٣.

وهذا الحرام بعينه والعياذ بالله فأهل الســـنة–بحمد الله تعالى–من الله عز وجل عليهم بحفظ أعراضهم وبحفظ أنسابهم وهذا كله حرام.

وهذا أحد الأنكحة التي كانت موجودة قبل الإسلام، وجاء الإسلام فحرمها،

وقد ذكرت السيدة عائشة أمُّ المؤمنين–رضي الله عنها–أربعةً منها، فعن عروة بن الزبير أن عائشـة زوجَ النبي صـلى الله عليه وسـلم أخبرته «أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ :يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْـدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِـــلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْـتَبْضِـعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّـهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْـتَبْضِـعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَـابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَـعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَـعَ حَمْلَهَا، أَرْسَـلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْـتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَـــمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْـــتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَـعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ

بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ" 2363.

2363 أخرجه البخاري في كتاب النكاح من "صحيحه" حديث رقم (5127)

[الوصية بلزوم السنة والآثار]

المسألة الأولى: الوصية بلزوم السنة.

المسألة الثانية: الوصية بلزوم آثار الصحابة.

[٢٣]- قال المصنف-رحمه الله-: "وأوصي بتقوى الله-عز وجل-، ولزوم السُّنة والآثار عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وأصحابه".

الشرح:

المسألة الأولى: الوصية بلزوم السنة

أولًا: شرح قول المصنف: "ولزوم السُّنة والآثار عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-"

بعث الله تبارك وتعالى رسوله-صلى الله عليه وسلم-بالرسالة الجامعة الخاتمة ألا وهي رسالة الإسلام التي ارتضاها-عز وجل-لتكون دينًا ومنهاجًا، يسير عليه الجن والإنس في حياتهم الدنيا حتى يتم لهم صلاح معاشهم الذي هم فيه، ومعادهم الذي سيصيرون إليه.

ولقد شاء تبارك وتعالى أن يجعل لهذه الرسالة مصدرين للتلقي هما:

١- القرآن الكريم، ٢- السنة النبوية.

فالقرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأول في الإسلام وهو كلام الله المنزل على رسوله-صلى الله عليه وسلم-بواسطة جبريل-عليه السلام-.

والسنة هي المصدر الثاني لأنها مبينة لأحكامه موضحة لإبهامه ومخصصة لعمومه ومقيدة لإطلاقه وشارحة لأحكامه وأهدافه.

قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: الآية: ٤٤].

وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: الآية: ٦٤].

فالرسول-صلى الله عليه وسلم-كما خص بالوحي المتلو وهو القرآن الكريم كذلك خص بالوحي غير المتلو وهو السنة التي لا مندوحة عن اتباعها.

قال تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: الآيتان: ٣-٤]، وقال-صلى الله عليه وسلم-: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)). [2364] وبناء على ذلك فإن القرآن والسنة هما الأصلان العظيمان اللذان تستقي منهما الأمة المسلمة عقيدتها وشريعتها وكل ما فيه صلاح شؤونها في دنياها وآخرتها وهما المنهاج والنبراس الذي سار عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، في طاعتهم واتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لاعتقادهم أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قد جاء بهذين الأصلين وحيا من عند الله عز وجل، كما أنه أمر باتباعهما والأخذ بما فيهما اعتقادا وقولا وعملا. قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: الآية: ٧]، فهم من هذا المنطلق التزموا وتمسكوا بالقرآن والسنة وتلقوهما بالقبول والتسليم والإيمان والتعظيم فأحلوا حلالهما وحرموا حرامهما واتخذوا منهما

2364 أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٠) ح: (٤٦٠٤)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٤٣).

منهجا لجميع شؤونهم وأحوالهم يرجعون إليه امتثالا لنداء الله حيث قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: الآية: ٥٩].

قال ابن القيم: "إن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول-صلى الله عليه وسلم-هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته". [2365]

ومن هذين الأصلين - الكتاب والسنة - استقى السلف المسلك القويم والمنهج السليم الذي ساروا عليه في طاعتهم واتباعهم لرسولهم ونبيهم محمد-صلى الله عليه وسلم-وهذا المنهج يمكن تلخيصه في النقاط الرئيسية التالية:

أولًا: اتباع القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-وحيا بواسطة جبريل عليه السلام، والذي تولى الله-سبحانه وتعالى-حفظه بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: الآية: ٩].

2365 إعلام الموقعين (١/ ٤٩، ٥٥).

كما جعله نظاما ومنهجا يهتدي به عباده المؤمنون كما قال تعالى: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: الآية: ٢].

ولقد اعتنى السلف بكتاب الله عز وجل فحفظوه في صدورهم ومصاحفهم وصاروا يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، وينفذون أحكامه وشرائعه جيلا بعد جيل في جميع جوانب حياتهم الفردية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من الأمور الدنيوية والأخروية.

كما تفرغ عبر القرون ثلة من خيارهم لدراسته وتفسيره واستنباط أحكامه ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، والاعتبار بدعوته وقصصه، ووعظه وإرشاداته وأمثاله.

وهذا الموقف من السلف الصالح يمثل مظهرا من مظاهر التأسي والاقتداء بما كان عليه النبي-صلى الله عليه وسلم-، كما يعد تطبيقا عمليا لما أوصى به عليه الصلاة والسلام أمته حيث قال: ((إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضِلُّوا أبدًا ، كتابَ اللهِ ، و سُنَّةَ نبيِّه)).[2366]

ثانيا: اتباع سنته-صلى الله عليه وسلم-والعمل بها:

2366 أخرجه الحاكم (318)، والبيهقي في الاعتقاد (ص: 228) واللفظ لهما، والخطيب في ((المتفق والمفترق)) (808) بنحوه مطولًا.

فلقد أوجب الله على العباد طاعة رسوله–صلى الله عليه وسلم–واتباعه وقد تقدم إيراد الأدلة على ذلك.

2367

ولقد عمل السلف بما أوجبه الله تعالى فأخذوا بسنة نبيهم–صلى الله عليه وسلم–وعملوا بها أمرًا ونهيًا وخبرًا، فكانت أقواله وأفعاله وتقريراته هي المصدر الثاني بعد كتاب الله عز وجل الذي تستقي منه الأمة أحكامها وتشريعاتها في شتى شؤون حياتها. قال الإمام الثوري: "إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل". 2368

قال ابن تيمية: "فعلى العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء من ذلك، ويعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن، فإنه من يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ.". 2369

ويعتقد السلف أن للسنة استقلاليتها في تشريع الأحكام وهي كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، فالأحكام التي سكت القرآن عن بيان حكمها وورد في السنة بيانها، فإن السلف يعملون بهذه الأحكام ويأخذون بها، ولا يرون أن هناك تعارضا البتة بين الأصلين.

كما يعتقد السلف أن علاقة السنة بالمصدر الأول الذي هو القرآن تسير وفق الأوجه الثلاثة التالية:

2367 إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

2368 الجامع لأخلاق الراوي، (١/ ١٤٢) ، وذم الكلام وأهله، (١/ ١٨١)..

2369 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٢٧٠).

١- أن تكون السنة موافقة للقرآن من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها وذلك مثل الأحاديث التي تفيد وجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم من غير تعرض لشرائطها وأركانها.

٢- أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له، وذلك مثل الأحاديث التي فصلت أحكام وهيئات الصلاة والصيام والحج والبيوع والمعاملات التي وردت مجملة في القرآن، وهذا القسم هو أغلب ما في السنة وأكثرها ورودا.

٣- أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن على إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، كالأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة وغير ذلك.

فالسنة الصحيحة لا تخرج عن هذه الضوابط، كما أنها لا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائدا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديما لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله التي أمر الله بها على جهة الاستقلال فقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [التغابن: الآية: ١٢] وقال تعالى: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: الآية: ٨٠]، فهذه الطاعة المأمورون بها هي طاعة مختصة به-صلى الله عليه وسلم- ، ويجب علينا العمل بها.

فالسلف يؤمنون "بأن الله سبحانه نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه ودينه، ولا فرق يين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا كمخالفة هذا.

فعلى سبيل المثال فإن الله أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان، ثم جاء البيان عن رسوله صلى الله عليه وسلم بمقادير ذلك وصفاته وشروطه، فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل، وهكذا أمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، فإذا أمر الرسول بأمر، كان تفصيلا وبيانا للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما، والبيان من النبي صلى الله عليه وسلم على أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور في قوله {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [الأنعام: الآية: ٨٢] هو الشرك وأن الحساب اليسير هو العرض وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض الليل وسواد النهار.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر، والمتعة، وصيد المدينة، ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له، وعدم نهيهم عن التأسي به.

الثامن: بيان جواز الشيء بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده، أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله في بيانها كقوله تعالى: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ} [النساء: الآية: ٢٤]، فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل". [2370]

ومن هذا المفهوم والتصور الواضح لأهمية السنة ومكانتها ودورها في التشريع انطلقت أفعال السلف مترجمة لهذا التصور فكان من تلك الأفعال أن اعتنى السلف بالسنة فتضافرت جهود العلماء من لدن الصحابة

2370 إعلام الموقعين (٢/ ٣١٤، ٣١٥).

والتابعين على حفظ السنة والعناية بها وصيانتها فحظيت منذ ذلك الحين بسياج من الحماية منقطع النظير، وقد اتبع الصحابة في ذلك كل سبيل يحفظ للسنة نورها وصفاءها، وكان من ذلك التحري والتثبت في روايتها خشية الوقوع في الخطأ وخوفا من أن يتسرب إليها التصحيف والتحريف، بل إن بعضهم فضل الإقلال من الرواية.

قال ابن قتيبة: "كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية أو أتى بخبر الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلوا من الرواية يريد بذلك أن لا يتسمع الناس فيها ويدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي. وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله-صلى الله عليه وسلم- كأبي بكر والزبير، وأبي عبيدة، والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئا كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة". [2371]

ولقد تبعهم من بعدهم من التابعين ومن بعدهم على ذلك.

وكما احتاط السلف في التحديث احتاطوا وتثبتوا كذلك في قبول الأخبار عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال الذهبي: "كان أبو بكر-رضي الله عنه-أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال: لا أجد لك في كتاب الله شيئًا وما علمت أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ذكر لك شيئًا، ثم سأل الناس فقام المغيرة وقال: سمعت

2371 تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص: ٣٠).

رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يعطيها السدس.فقال: هل معك غيرك؟، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر-رضي الله عنه-".

واستشار عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-الناس في إملاص المرأة [2372]، فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبي-صلى الله عليه وسلم-قضى فيه بغرة عبد أو أمة.

فقال عمر: ائتني بمن يشهد معك. قال فشهد له محمد بن مسلمة.[2373]

وحدث لعمر مثل هذه الحادثة مع كثير من الصحابة منهم أبي بن كعب وأبو موسى وفي رواية: قال عمر لأبي موسى: "أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-".
2374

وعن علي-رضي الله عنه-، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-حديثا نفعني الله بما شاء منه وإذا حدثني عنه غيري استحلفته فإذا حلف لي صدقته ... ". [2375]

2372 هو أن تزلق الجنين قبل وقت الولادة. النهاية (٤/ ٣٥٦).

2373 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب دية الجنين (٥/ ١١١، ١١٢).

2374 أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٤).

2375 أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢) ، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في أن الصلاة كفارة (١/ ٤٤٦) ح (١٣٩٥).

وهذا التثبت من الصحابة-رضوان الله عليهم-كان الحامل لهم عليه هو ألا يسترسل الناس في رواية الحديث ويتساهلوا فيه من غير تحر وتثبت كاف فيقعوا في الكذب على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-من حيث شعروا أو لم يشعروا، ويدلك على ذلك قول عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعرى: "أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-".

وهذه الشواهد عن ثلاثة من الخلفاء الراشدين تترجم حرصهم وجهودهم في المحافظة على السنة بأن لا يشوبها ما ليس منها.

وقد تتابعت الجهود من الصحابة ومن جاء بعدهم على حفظ السنة وحمايتها إلى أن قعدت القواعد ووضعت الضوابط التي يعرف بها قوة الحديث أو وهنه وكان من تلك الضوابط علم إسناد الحديث فقد اعتني بهذا الجانب منذ وقت مبكر، واهتم به العلماء حتى جعلوه من الدين قال عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء" وقال: "بيننا وبين القوم قوائم" يعني الإسناد. [2376]

ولقد اشتغل علماء الحديث بنقد الرواة وبيان حالهم ومن تقبل روايته ومن لا تقبل من خلال دراسة الراوي سيرة وتاريخا ومعتقدا وسلوكا، ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم، وقد قيل ليحي بن سعيد القطان: " أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة؟، فقال: لأن يكون هؤلاء

2376 السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي (ص: ٩٢).

خصمي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: لم لم تذب الكذب عن حديثي". [2377]

وهذه لمحة وإشارة لما بذله السلف من جهود في حفظ السنة والذب عنها لتبقى منهلًا صافيًا تستقي منه الأمة أمور دينها ودنياها وآخرتها حتى يتحقق لها اتباع رسولها محمد-صلى الله عليه وسلم-الذي أمر الله بالاقتداء به والسير على نهجه والطاعة له في كل ماجاء به-صلى الله عليه وسلم-.

المسألة الثانية: الوصية بلزوم آثار الصحابة

شرح قول المصنف: "وأصحابه"

ورد الأمر باتباع الصحابة-رضوان الله عليهم-أجمعين، والأدلة على ذلك منها:

أ-الأدلة من القرآن:

١-قوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [التوبة: الآية: 100].

قال الإمام ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.....

2377 السنة ومكانتها (ص: ٩٣) .

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المفلحون وعباده المؤمنون". (2378).

٢-قال تعالى: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}** [النساء: الآية: 115].

والمراد بـ{المؤمنين} في الآية: أصحاب النبي ﷺ؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله جل وعلا: **{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ}**.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد شهد الله لأصحاب نبيه الله ومن تبعهم بإحسان بالإيمان فعلم قطعا أنهم المراد بالآية الكريمة" [2379]

٣-قال تعالى: **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [سبأ: الآية: ٦].

عن قتادة-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ) {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} قال: "أصحاب محمد". [2380]

(2378) تفسير ابن كثير (4/ 203).

2379 الانتصار لأهل الأثر (ص: ٣).

2380 تفسير الطبري (تفسير سورة سبأ الآية: ٦).

ب–الأدلة من السنة:

وعن العرباض بن سارية–رضي الله عنه–(ت: ٧٥ هـ)، قال: "وعظنا رسول الله–صلى الله عليه وسلم– موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: **((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة))**. [2381]

ج–أقوال السلف:

قال عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ): "لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–، وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم، فذلك حين هلكوا". [2382]

2381 أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٣، ١٥) ح: (٤٦٠٧)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم: باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) ح: (٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة في سننه، في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦). وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩) والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في الشريعة (٤٦، ٤٧)، والدارمي في سننه، باب اتباع السنة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع، انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) ح: (١٦٥).

2382 أخرجه ابن عبد المبارك في الزهد (1/ 281) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1/ 617) والطبراني في المعجم الكبير (9/ 114).

كتب عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ) إلى عامل له فقال: "أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السُنَّة فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن الناس لم يحدثوا بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة فيها، فإن السُنَّة إنما سنَّها من علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم السابقون، عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل فيه لو كان أحرى، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما أحدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، لقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محصر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمع عنهم آخرون فغلوا، إنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم". [2383]

قال شقيق البلخي–رحمه الله–(ت: ١٩٤ هـ): قيل لابن المبارك–رحمه الله–(ت: ١٨١ هـ): إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: "أجلس مع الصحابة والتابعين أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس". [2384]

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "أصول السُنَّة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، والاقتداء وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين". [2385]

2383 البدع لابن وضاح، (ص: ٣٠، ٣١)، الحلية لأبي نعيم (٥/ ٣٩)، الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

2384 سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٠)، وتاريخ الإسلام (١٢/ ٢٣٥).

2385 شرح أصول اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة للالكائي (١/ ١٥٦)، طبقات الحنابلة (١/ ٣١١).

قال ابن قتيبة–رحمه الله–(ت: ٢٧٦ هـ): "وكان أصحاب رسول الله الله هم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم". [2386]

وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني–رحمه الله–(ت: ٣٨٦ هـ)، في رسالته: "واللجأ إلى كتاب الله عزوجل وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة". [2387]

قال الإمام أبو القاسم اللالكائي (ت: ٤١٨ هـ): "أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون". [2388]

قال ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "ومتى اختلف الصحابة على قولين، لم يجز إحداث قول ثالث لأنه يفضي إلى تخطئتهم، وخروج الحق عن قول جميعهم ولا يجوز ذلك". [2389]

2386 تأويل مشكل القرآن (ص: ١٤٨).

2387 رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ص: ١٦٩).

2388 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٧).

2389 المغني (٨/ ١٠٧).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة رضي الله عنهم منشأ كل علم وصلاح وهدى ورحمة في الإسلام". [2390]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله–صلى الله وعليه وسلم–، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله–صلى الله وعليه وسلم–وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل". (2391)

2390 منهاج السنة (٦/ ٣٦٨).

([2391]) منهاج السنة (5/ 261-263).

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليل جدا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة؛ فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم. وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر". [2392]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بيّنا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق". [2393]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: **{فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}** [النساء: الآية: 59].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين". [2394]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "العالمون بالله وكتابه ودينه، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم

2392 مجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٣٢).

2393 اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧).

2394 مجموع الفتاوى، (٢٤/ ٩٥).

نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاء الرسول-صلى الله عليه وسلم-فأخرجهم من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الظلم إلى العدل، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه ... ". [2395]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "كل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع قال بعض الصحابة اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة". [2396]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم وبينهم في الفضل". [2397]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فلا أحسن مما قضى به الصحابة-رضي الله عنهم-". [2398]

2395 الفوائد (ص: 108. 109).

2396 مدارج السالكين (٢/ ١٠٧).

2397 التفسير القيم (ص: ٣٤٣).

2398 الطرق الحكمية (١/ ٣٢٦).

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): عن الصحابة: "فإنهم أفقه الأمة وأعلمهم بمقاصد الشرع وحكمه". [2399]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "أفهام الصحابة–رضي الله عنهم–فوق أفهام الجميع، وعلمهم بمقاصد نبيهم وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم" إلى أن قال: "ولم يرتضوا لأنفسهم عبارات المتأخرين واصطلاحاتهم وتكلفاتهم فهم كانوا أعمق الأمة علما وأقلهم تكلفا والمتأخرون عكسهم في الأمرين". [2400]

وسنة الصحابة وهي ما جاء عنهم من قول أو فعل أو تقرير إذا كان مما لا يقال من قبل الرأى، ومما لا مجال للاجتهاد فيه، فله حكم المرفوع المسند تحسينا للظن بهم، وجزم بذلك الرازى في المحصول، وغير واحد من أئمة الأصول والحديث. [2401]

وإذا كانت سنتهم في غير ذلك، فقد اختلف العلماء في ذلك. والراجح من هذا الخلاف [2402] أن سنتهم كسنة الرسول يعمل بها، ويرجع إليها، وانتصر لهذا الرأى غير واحد من أئمة الأصول، منهم **الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ)** فبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على عدالتهم قال: "فيصح أن يطلق

2399 الطرق الحكمية (٢/ ٥٣١).

2400 الطرق الحكمية (١/ ٣٢٤).

2401 انظر: المحصول (٢/٢٢١)، والإحكام للآمدى (٢/ ٨٧)، وأعلام الموقعين (٤/ ١٢٣)، وفتح المغيث للسخاوى (١/ ١٤٤)، وتدريب الراوى (١/١٩٠، ١٩١)، وتوضيح الأفكار (١/ ٢٨٠).

2402 انظر: الأدلة المختلف فيها وأثرها فى الفقه الإسلامى للدكتور عبد الحميد أبو المكارم (ص: ٣٠٣)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى، باب ما جاء فى قول الواحد من الصحابة (١/ ٤٣٧).

على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط أى عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر، وعملهم مقتدى به.

... ثم استدل الشاطبي لما رجح بأدلة منها:

١- ما جاء فى الحديث من الأمر باتباعهم، وأن سنتهم فى طلب الاتباع كسنة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**)). (٢)

٢- أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقاويل، فقد جعل طائفة قول أبى بكر وعمر حجة ودليلا، وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا، وبعضهم يعد قول الصحابى على الإطلاق حجة ودليلا، ولكل قول من هذه الأقوال متعلق من السنة وهذه الآراء - وإن ترجح عند العلماء خلافها - ففيها تقوية تضاف إلى أمر كلى هو المعتمد فى المسألة، وذلك أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم، يهابون مخالفة الصحابة، ويتكثرون بموافقتهم، وأكثر ما تجد هذا المعنى فى علوم الخلاف الدائرة بين الأئمة المعتبرين، فتجدهم إذا عينوا مذاهبهم قووها بذكر من ذهب إليها من الصحابة، وما ذاك إلا لما اعتقدوا فى أنفسهم وفى مخالفيهم من تعظيمهم، وقوة مآخذهم دون غيرهم، وكبر شأنهم فى الشريعة، وأنهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم فضلا عن النظر معهم فيما نظروا فيه.

... ويؤيد هذا ما جاء عن السلف الصالح، من تزكيتهم والحث على متابعتهم.

فعن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "من كان مستنا فليستن بأصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها

حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". [2403]

قال الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ): "ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين واتبعوا أهواءهم بغير علم، فضلّوا عن سواء السبيل". [2404]

وقال عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ): "سن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا.

... وفى رواية بعد قوله –وقوة على دين الله – ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى خالفها، من اهتدى بها مهتد ... الحديث". [2405]

2403 أخرجه البغوى في شرح السنة كتاب الإيمان، باب رد البدع والأهواء (١/ ٢١٤)، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٧)، وذكره ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين (٤/ ١٣٩).

2404 الاعتصام (٢/ ٩٦).

2405 ابن عبد الحكم سيرة عمر (ص: ٤٠)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٥٢)، ورقم: (٢٣٠-٢٣١)، والآجري في الشريعة (١/ ١٧٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧٦). كلهم عن مالك بن أنس وأعل بالانقطاع ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (ص: ١٧٣)، واللالكائي (١/ ١٠٦) من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي عن سعيد بن أبي مريم عن رشدين بن سعد قال: حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن عمر بن عبد العزيز به، ورشدين

فقال مالك فأعجبني عزم عمر على ذلك". [2406]

والآثار في هذا المعنى يكثر إيرادها، وقد استوعب كثيرا منها الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه "أعلام الموقعين عن رب العالمين". [2407]

ويقول الإمام الشاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ)، في موضع آخر من كتابه مبينًا أن بيان الصحابى حجة، قال: "وأما بيان الصحابة، فإن أجمعوا على ما بينوه، فلا إشكال فى صحته أيضا، كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبين لقوله تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا}** [المائدة: الآية: ٦]، وهذا الإجماع حجة موجبة للعلم، ولا يعتد بخلاف من خالفهم، كما حكاه **السرخسى–رحمه الله–(ت: ٤٨٣ هـ)** [2408]**، عن أبى حازم القاضي–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)**.

وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل. ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان، من وجهين:

ضعيف. انظر التقريب (٢٠٩)، وقد صحح هذا الأثر محقق كتاب الشريعة للآجري فقال: والأثر يصح بهذين الطريقين ويقوى بهما. انظر الشريعة (١/ ١٧٤)، وقد أخرجه أيضا قوام السنة في الحجة في بيان المحجة (١/ ١٠٩- ١١٠)، وابن كثير في البداية والنهاية (٥/٢٤٢)، وعزاه محقق كتاب المعرفة والتاريخ إلى الجزء المفقود منه.

2406 الموافقات (٤/ ٤٥٢-٤٥٥)، وانظر: الاعتصام (٢/ ٥١٩).

2407 أعلام الموقعين (٤/ ١١٨-١٥٦)، وانظر: الرسالة للشافعى (ص: ٥٩٦)، فقرات رقم: (١٦٨٢، ١٨٠٥، ١٨١١).

2408 أصول السرخسى (١/ ٣١٧)، وانظر: علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامى للشيخ أحمد إبراهيم (ص: ٢٤، ٢٥).

أحدهما: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

ثانيهما: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسالة اجتهادية". [2409]

احترام أهل السنة لعلم الحديث وتوقير أهله

ورد عن الشافعي-رحمه الله-قوله "كلما رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأنما رأيت رجلًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم"[2410].

وورد بلفظ: "إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم حيًا"[2411]

ومثل هذه العبارات تدل على معاني عظيمة من مدى احترام أهل السنة لعلم الحديث وتوقير أهله، وكيف لا وهم الذين حفظوا لنا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقلوه لنا جيلًا بعد جيل، وهم يقفون في

2409 الموافقات (٣/ ٣٠٠، ٣٠١).

2410 رواه أبو نعيم في الحلية 9/ 109، والبيهقي في مناقب الشافعي 1/ 437، والبيهقي في المدخل إلى السنن ص: 391 رقم: 689.

2411 أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث: ص54 رقم 85.

أول من حمل ميراث النبوة فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وأورثوا العلم، فمن أخذه؛ أخذ بحظ وافر))[2412].

وبالتالي عندما تسمعهم وهم يحدثون وينقلون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فكأنما تسمع لكلام الصحابة أو لكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فهم بحمد الله صيارفته الذين حفظوه من النسيان وحفظوه من الزيادة والنقصان بتمييزهم لصحيحه من سقيمه، وكذلك بإتقان طرقه ورواياته بشكل فريد لا يعهد في الأمم السابقة.

قال أبو حاتم بن حبان رضي الله عنه: "في هذا الحديث بيان واضح أن العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرناهم الذين يعلمون علم النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من سائر العلوم، ألا تراه يقول: ((العلماء ورثة الأنبياء)). والأنبياء لم يورثوا إلا العلم، وعلم نبينا صلى الله عليه وسلم، سنته، فمن تعرى عن معرفتها؛ لم يكن من ورثة الأنبياء"[2413].

قال ابن القيم –رحمه الله–: "قوله: ((إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وأورثوا العلم)). هذا من كمال الأنبياء، وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها، فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية. ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده؛ سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول: فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه؛ فهو يحصلها لولده، فقال :((نحن معاشر

2412 رواه أبو داود (3641)، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (196/5) (21763)، وابن حبان (289/1) (88). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح، وقال ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (247/25): له طرق كثيرة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (151/1) كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)).

2413 ((صحيح ابن حبان)) (289/1).

الأنبياء لا نورث ما تركنا هو صدقة))[2414] فلم تورث الأنبياء ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم. وأما قوله تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النمل: 16]. فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم؛ وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال؛ لم يكن سليمان مختصاً به. وأيضاً؛ فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان، وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة. وأيضاً؛ فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال.

قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النمل: 15-16].

وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان، وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [النمل: 16] وكذلك قول زكريا –عليه الصلاة والسلام :(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) [مريم: 5-6] .

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوا ماله، فيسأل العظيم ولداً يمنعهم ميراثه، ويكون أحق به منهم. وقد نزه الله أنبياءه ورسوله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته"[2415].

فهنيئًا لمن خدم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية ودراية، وذب عن سنته ودافع عنها وهذا شرف عظيم.

2414 رواه البخاري (4240)، ومسلم (1759) بدون: ((نحن معاشر الأنبياء)). من حديث عائشة رضي الله عنها.

2415 ((مفتاح دار السعادة)) (1/66-67).

[التحذير من الأهواء والبدع]

المسألة الأولى:التحذير من أهل البدع .

المسألة الثانية: هجر أهل البدع.

المسألة الثالثة: مجادلة ومناظرة أهل البدع.

قال المصنف–رحمه الله–: "وترك البدع والأهواء واجتنابها".

الشرح

المسألة الأولى: التحذير من أهل البدع.

الآثار الواردة في التحذير من مجالسة أهل البدع والأهواء كثيرة جدًا في كتب أهل السنة، من حيث الأصل، قال الإمام البغوي: "وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم، وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة، ومهاجرتهم"[2416].

قال الشاطبي: "فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر؛ لأن المشي إليه والتوقير له تعظيمٌ له لأجل بدعته؛ وقد علمنا أن الشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا كالضرب والقتل، فصار توقيره صدوداً عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالاً على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به، والعمل بما ينافيه"[2417].

والتحذير يشمل أمورًا منها:

1-مجالستهم.

2-مجادلتهم.

3-الاستماع إليهم.

4-مصاهرتهم[2418].

2416 "شرح السنة" (1/ 227).

2417 الاعتصام (1/ 85).

2418 عن ابن سيرين قال: "تزوج عمران بن حطان خارجية وقال سأردها قال فصرفته إلى مذهبها". سير أعلام النبلاء: (4/ 213).

5-مؤاخاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله"[2419]

وعَنْ هِشَامٍ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدٌ يَقُولَانِ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، وَلَا تُجَادِلُوهُمْ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ"[2420].

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: يَكُونُ مَجْلِسُكَ مَعَ الْمَسَاكِينِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْلِسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ"[2421].

وعن سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدَّتِي أَسْمَاءَ تُحَدِّثُ قَالَتْ: دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مِن أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فَقَالَا: يَا أَبَا بَكْرٍ نُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ قَالَ: لا، قَالَا: فَنَقْرَأُ عَلَيْكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ قَالَ: لَا، لِتَقُومَانِ عَنِّي، أَوْ لَأَقُومَنَّ"[2422].

وعن سَلَّامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ قَالَ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَسْأَلُكَ عَنْ كَلِمَةٍ، قَالَ أَيُّوبُ وَجَعَلَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ: وَلَا نِصْفَ كَلِمَةٍ، وَلَا نِصْفَ كَلِمَةٍ"[2423].

2419 مجموع الفتاوى (15/ 327).

2420 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (400).

2421 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (457).

2422 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (403).

2423 الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (407).

قَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: لَا تُمَكِّنُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مِنْ سَمْعِكَ فَيَصُبُّ، فِيهَا مَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ قَلْبِكَ"[2424].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: "من سمع مبتدعاً لم ينفعه الله بما سمع، ومن صافحه فقد نقض الإسلام عروةً عروةً" 2425.

قال الإمام مالك: "وكان يقال لا تُمكن زائغ القلب من أذنيك فإنك ما تدري ما يعلمك من ذلك"[2426].

المسألة الثانية: هجر أهل البدع.

"والهجر الشرعي نوعان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالنوع الأول: هو المذكور في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: 68]،.. فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم، وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم، وأمثال ذلك...

النوع الثاني: الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر"[2427].

والتحذير من المجالسة والاستماع لأهل البدع والأهواء فجاء لأسباب منها:

2424 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (441).

2425 الأمر بالاتباع، للسيوطي، (ص: 19).

2426 الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني (١/ ١١٩).

2427 مجموع الفتاوى (20/28).

أولًا: أن المجالسة قد تكون سببًا للدخول في بدع أهل الأهواء وضلالاتهم.

لأنه في مقابل كل بدعة تهدم سنة، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام أيضاً: "من أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشِّرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا، فإن البدع هي مبادئ الكفر ومظان الكفر، كما أن السنن المشروعة هي مظاهر الإيمان، ومقوية للإيمان، فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"[2428].

ثانيًا: وأنها سبب لدخول الشبه والشكوك.

فعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ"[2429].

وعَنْ عَمْرِو ابْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: "لَا تُجَالِسْ صَاحِبَ زَيْغٍ، فَيُزِيغَ قَلْبَكَ"[2430].

ثالثًا: أنها ممرضة للقلوب.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَا تُجَالِسْ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"2431.

وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"2432.

2428 مجموع الفتاوى (10/ 565).

2429 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (369).

2430 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (371).

2431 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (376).

2432 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (378).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث"[2433].

رابعًا: أن في ذلك مساواة بين الحق والباطل.

قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: إِنَّ رَجُلًا يَقُولُ: أَنَا أُجَالِسُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَأُجَالِسُ أَهْلَ الْبِدَعِ، فَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: "هَذَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ"[2434].

خامسًا: أن المجالسة تدل على المجانسة.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران: 118].

وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((المرء مع من أحب)). [2435]

وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((المرء على دين خليله)). [2436]

وعن يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانَ، يَقُولُ لَمَّا قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْبَصْرَةَ: جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرِ الرَّبِيعِ يَعْنِي ابْنَ صُبَيْحٍ، وَقَدْرَهُ عِنْدَ النَّاسِ، سَأَلَ: أَيُّ شَيْءٍ مَذْهَبُهُ؟ قَالُوا: مَا مَذْهَبُهُ إِلَّا السُّنَّةُ قَالَ: مَنْ بِطَانَتُهُ؟ قَالُوا: أَهْلُ الْقَدَرِ قَالَ: هُوَ قَدَرِيٌّ"[2437].

2433 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 281).

2434 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (435).

2435 أخرجه البخاري حديث (6168)، ومسلم حديث (2640).

2436 أخرجه الإمام أحمد حديث (8028)، وأبو داود حديث: (4833)، والترمذي حديث: (2378).

2437 "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (426).

وقال الْفُضَـيْلَ ابْنَ عِيَاضٍ: "الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَف، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ سُنَّةٍ يُمَالِي صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلَّا مِنَ النِّفَاقِ"[2438].

قال الخطابي-رحمه الله-في شرح سنن أبي داود عند شرحه لقوله-صلى الله عليه وسلم-: ((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي)). [2439] وإنما حذر من صـــحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته ومؤاكلته فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب يقول: لا تؤالف من ليس من أهل التقوى والورع ولا تتخذه جليساً تطاعمه وتنادمه". اهـ[2440]

وقال في شرح حديث ((الأرواح جنود مجندة))[2441]: يقول-صلى الله عليه وسلم-: "إن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف وتختلف على حسب ما جعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بدء الخلقة ولذلك ترى البَر الخير يحب شـــكله ويحن إلى قربه وينفر عن ضـــده، وكذلك الرَّهِق الفاجر يألف شِكله ويستحسن فعله وينحرف عن ضده". اهـ[2442]

2438 "الإبانة عن شـريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صـحبة قوم يمرضـون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (434).

2439 رواه الترمذي في كتاب الزهد من سـننه، باب ما جاء في صـحبة المؤمنين (4/ 600) (2395)، وقال: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه"، ورواه ابن حبان في صحيحه (2/ 314)، والإمام أحمد (3/ 38)، وأبو داود في ســننه (4/ 259)، والدارمي (2/ 140)، والحاكم وصــححه في المســتدرك (4/ 143)، والطبراني في الأوســط (3/ 277)، وأبو يعلى في مســنده (2/ 484)، والبيهقي في الشــعب (7/ 42)، والمزي في تهذيب الكمال (10/ 171)، وغيرهم.

2440 معالم السنن (4/ 115).

2441 صحيح البخاري: (3336)، صحيح مسلم: (2638).

2442 معالم السنن (4/ 115).

وهذا هو الأصل في التعامل مع أهل البدع ولكن الهجر له ضوابطه الشرعية المبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسها، واختلاف مبتدعها، واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضعف، والقلة والكثرة، فلا بد من مراعاة كل هذا.

فمن الأمور التي يجب مراعاتها في أمر الهجر:

الأمر الأول: مراعاة حال الهاجرين

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: "وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به-يعني الهجر-زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف... وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع -كما كثر القدَر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة- وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه"[2443]

الأمر الثاني: التفريق بين من يدعو لبدعته وبين من لا يدعو لبدعته.

فيستثنى في أمر المجالسة والاستماع عند بعض العلماء ما لو كان ذلك الشخص لديه بعض العلم الصحيح ولم يكن في ذات الوقت داعيًا لبدعته.

قال الذهبي: "وعن الحسن بن الربيع قال: كنا نسمع من عبد الوارث، فإذا أقيمت الصلاة ذهبنا، فلم نصل خلفه.

2443 مجموع الفتاوى (28/ 203).

قال: وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف رويت عن عبد الوارث، وتركت عمرو بن عبيد؟ قال: إن عمرًا كان داعيا. ومع هذا، فحديثه في الكتب الستة"[2444]

وأما إذا كان داعيا لبدعته فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "إنّ الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم"[2445]

الأمر الثالث: أن بعض أهل البدع قد يحمد من وجه ويذم من وجه.

فلكل أحد حسناته وسيئاته كما قرره شيخ الإسلام ابن تيميّة-رحمه الله-في قوله: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، سنة وبدعة، استحق من الموالاة بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بقدر ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا ومن هذا، كاللص الفقير نقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفي حاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنّة والجماعة"[2446].

وقال ابن تيمية-رحمه الله-: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم". [2447]

وقال شارح الطحاوية: "والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه مبغوضا من وجه، والحكم للغالب". [2448]

2444 سير أعلام النبلاء (8/ 301 -304).
2445 مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (28/ 205).
2446 مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (28/ 209).
2447 منهاج السنة النبوية (4/ 543).
2448 شرح العقيدة الطحاوية: (2/ 547).

الأمر الرابع: أن أنواع الهجر ثلاثة:

الأول: الهجر ديانة، أي: الهجر لحق الله تعالى، وهو من عمل أهل التقوى، في هجر السيئة، وهجر فاعلها، مبتدعًا أو عاصيًا.

وهذا النوع من الهجر على قسمين:

القسم الأول: هجر ترك: بمعنى هجر السيئات، وهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصلحة راجحة، قال الله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: الآية: 5]، وقال سبحانه: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: الآية: 10]، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: الآية: 68]، وقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء: الآية: 140]، وفي الحديث أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)). [2449]

القسم الثاني: هجر تعزير: وهذا من العقوبات الشرعية التبصيرية التي يوقعها المسلم على المبتدعة على وجه التأديب، في دائرة الضوابط الشرعية للهجر حتى يتوب المبتدع ويفيء.

وهذا النوع بقسميه من أصول الاعتقاد، والأمر فيه أمر إيجاب في أصل الشرع، ومباحثه في كتب السنن والتوحيد والاعتقاد وغيرها.

النوع الثاني: الهجر لاستصلاح أمر دنيوي، أي الهجر لحق العبد، وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة-رضي الله عنهم-بأسانيد في الصحيحين وغيرها، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال. وليس هو مجال حديثنا.

النوع الثالث: الهجر قضاء، وهو من العقوبات التعزيرية للمعتدين، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزير. [2450]

2449 أخرجه البخاري (10) واللفظ له، ومسلم (40) مختصرًا.

2450 من رسالة (هجر المبتدع)، بتصرف.

المسألة الثالثة: مجادلة ومناظرة أهل البدع.

وأما المجادلة والمناظرة لأهل البدع:

فإن الأصل كما تقدم عدم مجادلتهم ومناظرتهم لكن هذا الأصل له استثناء حيث ورد عن السلف أنهم ناظروا أهل البدع والأهواء، وفي شأن هذا الأمر يفصل الأمر لنا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: "ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المِصْلَحَةِ.

1-فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق.

وهذه الطريق تكون أصلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة.

وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة.

وبهذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم.

فلما ذكروا حججهم كقوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام 102]، وقوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء 2]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تجيء البقرة وآل عمران"، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم.

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضـــهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث-وكان من أحذقهم بالكلام-ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً.

فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصـــود المتكلم به، وليس له أصـــل في الكتاب والســـنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله.

وأخبره أني أقول: هو أحد، صمد، لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفواً أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، لا إجابة من دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها.

فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً.

2-وأما إذا كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره، أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة.

مثل من لا يلتزم الإســـلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشـــرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء.

فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

1-بألفاظهم.

2-وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم.

وحينئذ يقال لهم الكلام إما:

أ-أن يكون في الألفاظ.

ب-وإما أن يكون في المعاني.

جـ-وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقًا ومعشوقًا ونحو ذلك.

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً.

وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب.

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة.

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره.

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفته للعقل الصريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعاً. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك.

وأيضاً: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله.

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة. 2451

2451 انظر: درء تعارض العقل والنقل (1/ 228-233).

وقال ابن عثيمين: "المجادلة والمناظرة نوعان:

النوع الأول: مجادلة مماراة: يماري بذلك السفهاء، ويجاري العلماء، ويريد أن ينتصر قوله؛ فهذه مذمومة.

النوع الثاني: مجادلة لإثبات الحق وإن كان عليه؛ فهذه محمودة مأمور بها. [2452]

وقال الكرماني: "الجدال: هو الخصام، ومنه قبيح وحسن وأحسن؛ فما كان للفرائض فهو أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما كان لغير ذلك فهو قبيح". [2453]

فهذه الخصومات وهذا الجدل وهذا المِـــراء أمرٌ محدَث لا يُوجِد إلا الشك في القلوب ويبعِد عن الحق، ومهما حصل من نفع منه في بعض الأحيان، فهو يسير لكن شره وفير، وقد يقول هؤلاء: نحن نخاصم به أهل الباطل، الذي لا يؤمن بالقرآن والسـنَّة، وهذه حجة باطلة فهؤلاء لا الإسـلام نصـروا ولا الباطل كسـروا، فالقرآن، خاطب الكفار وخاطب المشـركين وخاطب أهل الكتاب، خاطبهم بقال الله وقال الرسـول، وفيه من الحجج والبراهين ما يكفي لبيان الحق ودفع الباطل، ففي القرآن والسـنَّة من الأدلة العقلية واليقينية ما يغني ويشفي ولسنا بحاجة إلى فلسفةٍ ولا إلى علم كلام.

2452 العلم (ص: 164).

2453 فتح الباري لابن حجر (11/ 314).

[الوصية بتقوى الله]

المسألة الأولى:تعريف التقوى.

المسألة الثانية: الأدلة من القرآن والسنةوكلام السلف على وجوب التقوي وأهميتها وثمراتها.

المسألة الثالثة: أقسام التقوى ومراتبها.

قال المصنف–رحمه الله–: "واتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون، فإنها وصية الأولين والآخرين، وأن من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، واتقوا الله ما استطعتم".

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف التقوى

التعريف اللغوي

نقل ابن منظور عن ابن الأعرابي أنه قال: "التقاة، والتقية، والتقوى، والاتقاء بمعنى واحد.

وبين ابن منظور أن معنى وقاه الله وقيا ووقاية: صانه، تقول: وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته من الأذى، وتوقى، واتقى بمعنى. والوقاء والوقاء والوقاية: كل ما وفيت به شيئًا، ووقاك الله شر فلان وقاية،أي: حفظك، وقال أبو بكر: رجل تقي، ويجمع أتقياء، معناه أنه موق نفسه من العذاب والمعاصي

بالعمل الصالح، وفي الحديث: ((كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم-)) أي "جعلناه وقاية لنا من العدو قدامنا، واستقبلنا العدو به، وقمنا خلفه، وقال أفنون التغلبي:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذ هو لم يجعل له الله واقيا". [2454]

التعريف الشرعي

وقال ابن القيم-رحمه الله-: "وأما التقوى : فحقيقتها العمل بطاعة الله ، إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به، إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه، إيماناً بالنهي، وخوفًا من وعيده ، كما قال طلق بن حبيب: "إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى" قالوا: وما التقوى؟ قال: " أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله , وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله " وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى". [2455]

قال ابن رجب-رحمه الله-: "وأصل التقوى (٤): أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه". [2456]

المسألة الثانية: الأدلة من القرآن والسنة وكلام السلف على وجوب التقوي وأهميتها وثمراتها.

أهمية التقوى وميزاتها :

2454 لسان العرب: (٣/ ٩٧١ – ٩٧٣).

2455 "الرسالة التبوكية" (1/ 13).

2456 جامع العلوم والحكم (ص: ٣٧٨).

1. أن كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) تسمى كلمة التقوى:

قال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [الفتح: الآية: 26].

2. أمر الله بها عباده عامة وأمر بها المؤمنين خاصة:

قال تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} [النحل: الآية: 2].

قال تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: الآية: 52].
قال تعالى: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} [الزمر: الآية: 16].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: الآية: 102].
قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} [النساء: الآية: 1)
قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء: الآية: 131].

3. وصية الأنبياء لقومهم:

قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء: الآية: 106].

قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ} (الشعراء: الآية:124].

قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء: الآية: 142].

قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء: الآية: 161].

قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء: الآية: 177].

قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [العنكبوت: الآية: 16].

4. طلب الله من الخلق عبادته لتحقيقها:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: الآية: 21].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: الآية: 183].

قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: الآية: 153].

5. مكانها القلب أهم عضو في جسم الإنسان والذي به الصلاح والفساد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: ((لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)) . رواه البخاري .

ثمرات التقوى:

1. محبة الله تعالى:

قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: الآية: 4].

قال تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: الآية: 7].

قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: الآية: 76].

2. رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: الآية: 156].

قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: الآية: 155].

3. سبب لعون الله ونصره وتأييده:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: الآية: 128].

قال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِن أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: الآية: 36].

4. حصن الخائف وأمانه من كل ما يخاف ويحذر ، من سوء ومكروه في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف: الآية: 35].

قال تعالى: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزمر: الآية: 61].

5. تبعث في القلب النور وتقوي بصيرته فيميز بين ما ينفعه وما يضره:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: الآية: 29].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحديد: الآية: 28].

6. تعطي العبد قوة لغلبة الشيطان:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [لأعراف: الآية: 201].

7. وسيلة لنيل الأجر العظيم:

قال تعالى: {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً} [الطلاق: الآية: 5].

قال تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: الآية: 179].

8. توسيع الرزق وفتح مزيد من الخيرات:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: الآية: 96].

قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: الآيتان:٢-3].

9. تفريج الكرب وتيسير الأمور:

قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)(الطلاق: من الآية2)

قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً)(الطلاق: من الآية4)

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) (الليل:7)

10. النصر على الأعداء ورد كيدهم والنجاة منن شرهم :

قال تعالى: (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (آل عمران:120)

قال تعالى: (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ) (آل عمران:125)

قال تعالى: (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (فصلت:18)

11. أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (لأعراف:128)

قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود:49)

قال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:83)

قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد: الآية: 35].

قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: الآية: 212].

12. المتقون ينتفعون بالموعظة ويؤثر فيهم الذكر وبتفكرون في الآيات ويهتدون بذلك:

قال تعالى: {وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [المائدة: الآية: 46].
قال تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: الآية: 66].
قال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: الآية: 138].

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [النور: الآية: 34].

قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة:2)

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ} [الأنبياء: الآية: 48].

قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [الحاقة: الآية: 48].

13. أنها صفة لأولياء الله وطريق لولاية الله:

قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [الأنفال: الآية: 34].

قال تعالى: {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: الآية: 19].

قال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (يونس: الآيات:٦٢-64].

14. أنها الميزان الذي يقرب العبد من ربه ويدنيه:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: الآية: 13].

15. أنها أفضل ما يتزود به العبد في طريقه إلى الله:

قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: الآية: 197].

عَنْ أَنَسٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم-،فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي ، قَالَ: ((زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى))،قَالَ :زِدْنِي ، قَالَ: ((وَغَفَرَ ذَنْبَكَ))، قَالَ : زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: ((وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ)). رواه الترمذي . وحسنه الألباني .

16. من أسباب قبول العمل:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (المائدة:27)

قال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} [الحج: الآية: 37].

17. أن القرآن بشرى للمتقين:

قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً} [مريم: الآية: 97].

18.كل علاقات الأخلاء تنتهي يوم القيامة إلا علاقات المتقين :

قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: الآية: 67].

19. المتقون هم الفائزون:

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: الآية: 52].

20. المتقون تنالهم رحمة الله:

قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: الآية: 156].

21. أنها صفة للأنبياء ومن صدقهم :

قال تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: الآية: 33].

22. سبب لنجاة العبد يوم القيامة:

قال تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً} [مريم: الآية: 72].

قال تعالى: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزمر: الآية: 61].

23. سبب لمغفرة الذنوب:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحديد: الآية: 28].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: الآية: 71].

24. الكرم إنما يكون بالتقوى:

عَنْ سَمُرَةَ عَنْ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–قَالَ: ((الْحَسَبُ الْمَالُ، وَالْكَرَمُ التَّقْوَى)) . رواه الترمذي وصححه الألباني.

25. المتقين يسهل لهم الله العلم:

قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: الآية: 282].

26. التقوى ثوابها الجنة:

قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

قال تعالى: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) (النحل: الآيتان: ٣٠-31].

قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الشعراء: الآية: 90].

قال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [القلم: الآية: 34].

قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} [قّ: الآية: 31].

قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: الآية: 15].

قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: الآية: 73].

الأدلة من السنة

التقوى: هي وصية الله لجميع خلقه، ووصية رسول الله-صلى الله عليه وسلم - لأمته، وكان-صلى الله عليه وسلم-إذا بعث أميرا على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا. [2457]

ولما خطب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم. [2458]

وعن أبي أمامة-رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يخطب في حجة الوداع فقال: ((اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم)). [2459]

2457 أخرجه: مسلم (١٧٣١).

2458 أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥١)، والترمذي (٦١٦)، وابن حبان (٤٥٦٣)، والطبراني في " الكبير " (٧٦١٧) و (٧٦٦٤)، وفي "مسند الشاميين"، له (٨٣٤) و (١٩٦٧)، والحاكم (١/ ٩ و ٣٨٩ و ٤٧٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٣٤٨) من طرق عن أبي أمامة، به.

2459 أخرجه: الترمذي (٨٦٧)، وصححه الألباني.

ولما وعظ الناس، وقالوا له: كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: ((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة)). [2460]

وفي حديث أبي ذر الطويل الذي خرجه ابن حبان وغيره: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: ((أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله)). [2461]

وخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: ((أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام))، [2462]

عن عدي-رضي الله عنه-، قال: قال-صلى الله عليه وسلم-: ((اتقوا النار ولو بشق تمرة)). [2463]

2460 أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢) و (٤٣) و (٤٤)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن حبان (٥)، والطبراني في "الكبير" (١٨/ (٦١٧) و (٦١٨) و (٦١٩) و (٦٢٠) وفي "مسند الشاميين"، له (٤٣٧) و (٤٣٨) و (٦٩٧) و (٧٨٦) و (١١٨٠) و (١٣٧٩)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧)، وأبو نعيم في "الحلية" (٥/ ٢٢٠) و (١٠/ ١١٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٥١٥) و (٧٥١٦). من طرق عن العرباض بن سارية، به، قال الترمذي: «حسن صحيح».

2461 أخرجه: ابن حبان (٣٦١)، والطبراني في "الكبير" (١٦٥١)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ١٦٦-١٦٨)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٧٤٠)، وإسناده ضعيف جدا؛ فإن إبراهيم بن هشام بن يحيى كذاب.

2462 أخرجه: أحمد (٣/ ٨٢). وأخرجه: عبد الله بن المبارك في " الزهد " (٨٤٠)، وأبو يعلى (١٠٠٠)، والطبراني في "الصغير" (٩٤٩)، والبيهقي في "الآداب" (١٠١٤) من طرق عن أبي سعيد الخدري، به، وهو حديث ضعيف.

2463 أخرجه البخاري برقم (1413)، ومسلم (1016).

عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-، قال: قال-صلى الله عليه وسلم-: ((اتقوا الدنيا واتقوا النساء)).[2464]

أقوال العلماء

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، وكان أبو بكر الصديق-رضي الله عنه-يقول في خطبته:أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله-عز وجل-أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: الآية: ٩٠]". [2465]

ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر، دعاه، فوصاه بوصية، وأول ما قال له: اتق الله يا عمر. [2466]

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله - عز وجل -، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل علي بن أبي طالب رجلًا على سرية، فقال له: أوصيك بتقوى الله الذي لابد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة. [2467]

2464 رواه مسلم (6948).

2465 أخرجه: ابن أبي شيبة (٣٤٤٣١)، والحاكم (٢/ ٣٨٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٣٥).

2466 أخرجه: ابن أبي شيبة (٨/ ١٤٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٣٦).

2467 أخرجه: ابن أبي شيبة (٣٤٤٩٩).

قال ابن مسعود-رضي الله عنه-في قوله تعالى : {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ} [آل عمران: الآية: 102].

قال: "أن يطاع فلا يعصي، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر". [2468]

وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات، ومعنى ذكره فلا ينسي ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها. [2469]

وقال طلق بن حبيب-رحمه الله-: "التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله". [2470]

قال الذهبي رحمه الله معلقا: "أبدع وأوجز فلا تقوى إلا بعمل... فمن داوم عى هذه الوصية فقد فاز". [2471]

وعن أبي الدرداء-رضي الله عنه-، قال: "تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الحرام [2472] فإن الله قد بين

2468 أخرجه: الطبراني (٨٥٠١) و (٨٥٠٢)، والحاكم (٢/ ٢٩٤)، ولم أقف فيه على المرفوع.

2469 جامع العلوم والحكم (ص: ٣٨١).

2470 كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك (ص: ٤٧٣)، فقرة (١٣٤٣)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٧)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم.

2471 سير أعلام النبلاء (٤/ 601).

2472 أخرجه: نعيم بن حماد في " زياداته على الزهد " لعبد الله بن المبارك (٧٩)، وابن أبي الدنيا كما في "الدر المنثور" (١/ ٥٨).

للعباد الذي يصيرهم إليه فقال : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزلزلة: الآيتان: ٧-٨]، فلا! تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله ولا شيئًا من الشر أن تتقيه". [2473]

وقال الثوري-رحمه الله-: "إنما سموا متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقي". [2474]

وقال ابن عباس-رضي الله عنهما-: "المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدي ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به". [2475]

وقال الحسن-رحمه الله-: "المتقون اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما اقترض الله عليهم". [2476]

وقال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: "ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير". [2477]

وقال موسى بن أعين-رحمه الله-: "المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين". [2478]

وقال ميمون بن مهران-رحمه الله-: "المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه". [2479]

2473 جامع العلوم والحكم (ص: ٣٨٠).
2474 أخرجه: ابن أبي الدنيا كما في " الدر المنثور " ١/ ٥٨.
2475 أخرجه: الطبري في "تفسيره" (١/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في " تفسيره" (١/ ٣٥).
2476 تفسير ابن كثير (١/ ٤٠).
2477 رواه البيهقي في "الزهد الكبير" (964).
2478 جامع العلوم والحكم (ص: ٣٨١).
2479 أخرجه: أبو نعيم كما في "الدر المنثور" (١/ ٥٧).

وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة-رضي الله عنه-وسئل عن التقوى فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال : ذاك التقوى. [2480]

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقي

واصنع كماش فوق أر ...ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى". [2481]

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتق ثم يتقي . قال عون بن عبد الله-رحمه الله-: "تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها إلى ما علمت منها". [2482]

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس-رحمهما الله-قال: كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يتقي.

ثم قال معروف الكرخي: إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة ولم تغض بصرك وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك. [2483]

2480 أخرجه: ابن أبي الدنيا في "كتاب التقوى" كما في "الدر المنثور" (١/ ٥٧).

2481 جامع العلوم والحكم (ص: ٣٨٢).

2482 أخرجه: ابن أبي شيبة (٣٤٩٥٩)، وابن أبي الدنيا كما في " الدر المنثور " ١/ ٥٨.

2483 جزء من حديث طويل. أخرجه: ابن سعد في "الطبقات" (٣/ ٢٣٥)، وابن أبي شيبة (٣٧١٩٨)، وأحمد (٣/ ٤٩٣) و (٤/ ٢٢٥)، وابن ماجه (٣٩٦٢)، والطبراني في "الكبير"

وقد قال النبي-صلى الله عليه وسلم-لمحمد بن مسلمة: ((إذا رأيت أمتي قد اختلفت، فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحدا)). [2484]

قال أبو عبد الله التونسي: "حقيقة التقوى عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات". [2485]

المسألة الثالثة: أقسام التقوى ومراتبها.

أ-أقسام التقوى:

التقوى تنقسم إلى: تقوى واجبة، وتقوى مستحبة.

فالتقوى الواجبة: هي فعل الواجبات، واجتناب المحرمات.

[التقوى المستحبة]: ثم يكون أداء النوافل، من الصيام، والقيام والذكر، من جملة التقوى المستحبة، والكمال المستحب في الدين، والإيمان، والتقوى؛ فإن كل ذلك مما يزيد وينقص، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة.

ب-مراتب التقوى.

قال ابن القيم-رحمه الله-: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حِمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات،

الثانية: حميتها عن المكروهات.

(١٩/ (٥١٣) و (٥١٧) و (٥١٨) و (٥٢٣) و (٥٢٤)، وفي "الأوسط"، له (١٣١١)، والحاكم (٣/ ١١٧)، والبيهقي في "الكبرى" (٨/ ١٩١)، وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد ابن جدعان، وجاء في بعض الطرق غير ذلك.

2484 رواه أحمد: (١٦٠٢٩).

2485 بصائر ذوي التمييز: (٥/ ٢٥٧).

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني

فالأولى تُعطى العبد حياته.

والثانية تفيدُهُ صحته وقوته.

والثالثة تكسبُهُ سروره وفرحهُ وبهجته". [2486]

2486 الفوائد لابن القيم: (ص: 31).

[حضور الجمعة والجماعة]

المسألة الأولى: الحث على صلاة الجمعة والجماعة..

المسألة الثانية: حكم تأخير الصلاة عن وقتها.

[٢٤]- قال المصنف-رحمه الله-: "وعليكم بالجمعة والجماعة".

الشرح

المسألة الأولى: الحث على صلاة الجمعة والجماعة.

الصلاة جماعة مع المسلمين في بيوت الله من أهم الفرائض، وهي من شعائر الإسلام، الواجب على كل مكلف أن يعتني بها، وأن يبادر ويسارع إلى إقامة الصلاة في الجماعة مع المسلمين، وأن يتباعد عن مشابهة أهل النفاق.

قال ابن مسعود-رضي الله عنه-: "من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها-يعني الصلاة في الجماعة-إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل-يعني من الصحابة-يؤتى به يهادى بين الرجلين-يعني المريض أو كبير السن-حتى يقام في الصف" من شدة حرصهم على أداء الصلاة مع الجماعة.

ويقول النبي ﷺ : ((من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر)) [2487] قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما هو العذر؟ قال: ((خوف أو مرض)).

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أعمى وقال يا رسول الله ليس لي قائد يلائمني إلى المسجد فهل لي من رخصة أن أصلي في بيتي؟ فقال له النبي ﷺ ((هل تسمع النداء إلى الصلاة؟)) فقال: نعم. قال: ((فأجب))[2488] رواه مسلم في صحيحه.

وفي رواية أخرى عند غير الإمام مسلم: ((لا أجد لك رخصة[2489])).

المسألة الثانية: حكم تأخير الصلاة عن وقتها.

وتأخير الصلاة عن وقتها على نوعين:

النوع الأول: تأخيرها لعذر شرعي.

النوع الثاني: تأخيرها لغير عذر شرعي.

أما النوع الأول: وهو تأخيرها عن وقتها لعذر شرعي فالفقهاء متَّفقون على أنَّ من أخَّر الصّلاة فخرج وقتها لعذرٍ لا إثم عليه، وذلك مثل: النِّسيان لقول النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((رُفِعَ عن أُمَّتِي الخطأ، والنِّسيان، وما اسْتُكرِهُوا عليْه))،[2490] أو النَّوم؛ لِما رُوِي أنَّ بعض الصّحابة-رضي الله عنهم-: "ذكروا تفريطَهم في النّومِ، فناموا حتّى طلعتِ الشّمسُ، فقال رسولُ اللهِ-صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-: ليس في النّومِ

2487 رواه ابن ماجه في (المساجد والجماعات) باب التغليظ في التخلف عن الجماعة برقم (793.(

2488 رواه مسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء برقم (653)، والنسائي في (الإمامة) باب المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن برقم (850).

2489 رواه أبو داود في (الصلاة) باب التشديد في ترك الجماعة برقم (552)، وابن ماجه في (المساجد والجماعات) باب التغليظ في التخلف عن الجماعة برقم (792).

2490 انظر المحلى لابن حزم، (5/ 193). صحيح.

تفريطٌ، إنَّما التفريطُ في اليقظةِ، فإذا نسيَ أحدُكم صلاةً أو نام عنها فلْيُصلِّها إذا ذكرَها، ولوقتِها من الغدِ". [2491]، فلا خِلاف على أنَّ تأخير الصّلاة عن وقتها لعُذرَي النّسيان أو النّوم لا إثم فيه.[2492]

وقد اختُلِف في تأخير الصّلاة عن وقتها للسّفر والمطر؛ أي تأخير الظُّهر لتُصلّى مع العصر، وتأخير المغرب لتُصلّى مع العشاء جمع تأخيرٍ في حال السَّفر والمطر، فهذان عُذران يُجيزان تأخير الصّلاة عن وقتها عند جمهور الفُقهاء.

فعن ابن عباس –رضي الله عنهما–عن النبي –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم– ((كان في السفر إذا زاغت الشمس في منزله جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب، فإذا لم تزغ له في منزله، سار حتّى إذا حانت العصر نزل فجمع بين الظهر والعصر، وإذا حانت له المغرب في منزله جمع بينها وبين العشاء، وإذا لم تحن في منزله ركب حتى إذا كانت العشاء نزل فجمع بينهما)). [2493]

قال الشوكاني بعد نقله الرواية عن مسند أحمد: ورواه الشافعي في مسنده بنحوه وقال فيه: "وإذا سار قبل أن تزول الشمس أخّر الظهر حتّى يجمع بينها وبين العصر في وقت العصر". [2494]

مسألة: تأخير الصَّلاة إلى آخر وقتها

تأخير الصَّلاة إلى آخر وقتها هو ألّا تُصلّى الصَّلاة في أوّل وقتها بل في آخره، قبل انقضاء وقت الصَّلاة بزمنٍ يسيرٍ، وتأخير الصَّلاة إلى آخر وقتها إن كان لعُذرٍ –مثل الأعذار التي سبق الحديث عنها– فلا حرَج ولا إثم في تأخيرها، أمَّا إن كان تأخيرها إلى آخر الوقت دون عُذرٍ فهو خِلاف الأولى؛ إذ إنَّ الأصل

2491 رواه الترمذي انظر صحيح الترمذي:(177) وقال الألباني صحيح؛ ورواه ابن ماجة، انظر: صحيح ابن ماجة، عن أبي قتادة، (578) وقال الألباني: صحيح.

2492 المصدر: الموسوعة الفقهية الكويتية (الطبعة الثانية)، الكويت: دار السلاسل، (7/ 186-187)، بتصرّف.

2493 مسند أحمد بن حنبل: (241/5)؛ سنن أبي داود: (18/2،)كتاب الصلاة، باب الجمع بين الصلاتين، الحديث (1220).

2494 نيل الأوطار: (213/3).

والأكمل والأفضل أداء الصّلاة على وقتها[2495]؛ لِما للمُسارعة في الخيرات وأداء العبادة من فضلٍ عند الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة، الآية: 148] وقوله تعالى: {وَسَارِعُوا

2495 الصلاة على وقتها في الحضر هو قول أهل السنة وخالف في ذلك كل من:

1- الشيعة الاثنا عشرية؛ فقد اتّفقت الإمامية على أنّه يجوز الجمع بين الصلاتين في الحضر اختيارًا وإن كان التفريق أفضل.

يقول الطوسي: يجوز الجمع بين الصلاتين، بين الظهر والعصر وبين المغرب وعشاء الآخرة، في السفر والحضر وعلى كلّ حال، ولا فرق بين أن يجمع بينهما في وقت الأولة منهما أو وقت الثانية، لأنّ الوقت مشترك بعد الزوال وبعد المغرب على ما بيّناه .(الخلاف: (588/1)، المسألة: (351).

فقالت الإمامية ـ إنّه إذا زالت الشمس دخل الوقتان ـ أي وقت الظهر والعصر ـ إلاّ أنّ صلاة الظهر يُؤتى بها قبل العصر، وعلى ذلك فالوقت بين الظهر والغروب وقت مشترك بين الصلاتين، غير انّه يختص مقدار أربع ركعات من الزوال بالظهر ومقدار أربع ركعات من الآخر للعصر وما بينهما وقت مشترك، فلو صلّى الظهر والعصر في أي جزء من بين الزوال والغروب فقد أتى بهما في وقتهما، وذلك لأنّ الوقت مشترك بينهما، غير انّه يختص بالظهر مقدار أربع ركعات من أوّل الوقت ولا يصحّ فيه العصر ويختص بالعصر بمقدار أربع ركعات من آخر الوقت ولا يصحّ إتيان الظهر فيه.

هذا هو واقع المذهب، ولأجل ذلك فالجامع بين الصلاتين في غير الوقت المختص به آت بالفريضة في وقتها فصلاته أداء لا قضاءً .ومع ذلك فلكلّ من الصلاتين–وراء وقت الأجزاء–وقت فضيلة.

فوقت فضيلة الظهر من الزوال إلى بلوغ ظل الشاخص الحادث بعد الانعدام أو بعد الانتهاء مثله، ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين عند المشهور.

وبذلك يعلم وقت المغرب والعشاء، فإذا غربت الشمس دخل الوقتان إلى نصف الليل، ويختص المغرب بأوّله بمقدار أدائه والعشاء ب آخره كذلك وما بينهما وقت مشترك، ومع ذلك انّ لكلّ من الصلاتين وقت فضيلة، فوقت فضيلة صلاة المغرب من المغرب إلى ذهاب الشفق وهي الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشفق إلى ثلث الليل . انظر العروة الوثقى: (171)، فصل في أوقات اليومية.

2- ما ذكر عن الظاهرية وبعض الفقهاء من جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء في الحضر من غير عذر من سفر أو مطر أو مرض.

إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: الآية: 133] ولِما كان عليه النَّبيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-وصحابته-رضي الله عنهم-من حرصٍ على أداء الصلّاة على وقتها.[2496]

وأما النوع الثاني: وهو تأخيرها عن وقتها لغير عذر شرعي.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: "تارك الصلاة عمدًا لا يشرع له قضاؤها، ولا تصحُّ منه، بل يكثر من التطوُّع، وكذا الصوم، وهو قول طائفة من السَّلف؛ كأبي عبد الرحمن صاحب الشافعي، وداود وأتباعه، وليس في الأدلة ما يُخالف هذا بل يوافقه". [2497]

قال ابن القيِّم-رحمه الله-في مقرِّرًا لهذه المسألة: "ما وقته أوسع من فعله كالصلاة فِعْلُه في وَقْته شرطٌ في كَوْنه عبادة مأمورًا بها، فإنَّه إنَّما أمر به على هذه الصِّفة، فلا تكون عبادة على غيرها... فما أَمَر الله به في الوقت، فتَرْكُه المأمورَ حتَّى فات وقته لم يُمكن فعله بعدَ الوقت شرعًا؛ ولهذا لا يُمكن فعل الجُمُعة بعد خروج وَقْتها، ولا الوقوف بعرفة بعد وقته... ولا مشروع إلاَّ ما شرعه الله ورسوله، وهو سبحانه ما شرع فِعْلَ الصلاة والصِّيام والحج إلاَّ في أوقات مُختصة به، فإذا فاتت تلك الأوقات لم تكن مشروعة، ولم يشرع الله سبحانه فعل الجمعة يوم السبت، ولا الوقوف بعرفة في اليوم العاشر، ولا الحج في غير أشهره.

قال ابن رشد: وأمّا الجمع في الحضر لغير عذر فإن مالكًا وأكثر الفقهاء لا يجيزونه، وأجاز ذلك جماعة من أهل الظاهر، وأشهب من أصحاب مالك.

وسبب اختلافهم، اختلافهم في مفهوم حديث ابن عباس، فمنهم من تأوّله على أنّه كان من سفر. ومنهم من أخذ بعمومه مطلقًا، وقد خرّج مسلم زيادة في حديثه وهو قوله: من غير خوف ولا سفر ولا مطر، وبهذا تمسّك أهل الظاهر.بداية المجتهد: (374/2)، الطبعة المحققّة.

قال النووي: فرع في مذاهبهم من الجمع بلا خوف ولا سفر، ولا مطر ولا مرض، مذهبنا (الشافعي) ومذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد والجمهور انّه لا يجوز، وحكى ابن المنذر عن طائفة جوازه بلا سبب، قال: وجوّزه ابن سيرين لحاجة أو ما لم يتّخذه عادة .المجموع:264/4.

2496 حكم تأخير الصلاة إلى آخر وقتها لخالد عبد المنعم الرفاعي.

2497 "الاختيارات" (ص: 34).

ومن أخَّر صلاة النهار، فصلاَّها بالليل أو صلاة الليل، فصلاَّها بالنَّهار، فهذا الذي فعله غير الذي أمر به وغير ما شرعه الله ورسوله، فلا يكون صحيحًا ولا مقبولاً...

والله سبحانه قد جعل لكلِّ صلاة وقتًا محدودَ الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها، ولا بعد خُرُوج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمرٌ غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطًا في صِحَّتها، لكان لا فرق في الصِّحة بين فعلها قبل الوقت وبعده؛ لأنَّ كلتا الصَّلاتين صلاَّها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرِّط بالتفويت، ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟!

وقد أمر الله سبحانه المسلمين حال مواجهة عدوِّهم أن يصلوا صلاةَ الخوف، فيقصروا من أركانها، ويفعلوا فيها الأفعالَ الكثيرة، ويستدبروا فيها القبلة، ويسلمون قبل الإمام، بل يصلُّون رجالاً وركبانًا، حتَّى لو لم يُمكنهم إلا الإيماء، أَتَوا بها على دوابِّهم إلى غير القبلة في وقتها، ولو قبلت منهم في غير وقتها وصحَّت، لجاز لهم تأخيرها إلى وقت الأمن وإمكان الإتيان بها، وهذا يدل على أنَّها بعد خروج وقتها لا تكون جائزة ولا مقبولة منهم مع العُذر الذي أصابهم في سبيله وجهاد أعدائه، فكيف تقبل من صحيحٍ مقيمٍ لا عذر له الْبَتَّةَ وهو يسمع داعيَ الله جهرة، فيدعها حتى يخرج وقتها، ثم يصليها في غير الوقت؟! وكذلك لم يفسح في تأخيرها عن وقتها للمريض، بل أمره أنْ يصلي على جنبه بغير قيام ولا ركوع ولا سجود إذا عَجَز عن ذلك، ولو كانت تقبل منه وتصح في غير وقتها، لجاز تأخيرها إلى زمن الصِّحَّة. فأخبرونا :أيُّ كتابٍ أو سنة أو أَثَرٍ عن صاحب نطق بأنَّ من أخر الصلاة وفوَّتَها عن وقتها الذي أمر الله بإيقاعها فيه عمدًا يقبلها الله منه بعد خروج وقتها، وتصح منه، وتبرأ ذمته منها، ويثاب عليها ثواب من أدَّى فريضته؟! هذا والله ما لا سبيلَ لكم إليه البتة، حتَّى تقوم الساعة ونحن نُوجِد لكم عن أصحاب رسول الله مثل ما قلناه وخلاف قولكم.

فصل في قول أبي بكر الصديق الذي لم يُعلَم أن أحدًا من الصحابة أنكره عليه؛ قال عبدالله بن المبارك: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن زيد: أن أبا بكر قال لعمر بن الخطاب: إنِّي موصيك بوصية إنْ حفظتها: إنَّ لله حقًّا بالنهار لا يقبله باللَّيل، وحقًّا بالليل لا يقبله بالنَّهار... فهذا أبو بكر قال: إنَّ الله لا يقبل عَمَل النهار بالليل، ولا عمل الليل بالنَّهار، ومن يُخالفنا بهذه المسألة يقولون بخلاف هذا صريحًا،

وأنَّه يقبل صلاةَ العشاءِ الآخرة وقت الهاجرة، ويقبل صلاةَ العصر نصف النَّهار... فهذا قول أبي بكر، وعمر، وابنه عبدالله، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وبديل العقيلي، ومحمد بن سيرين، ومطرف بن عبدالله، وعمر بن عبدالعزيز-رضي الله عنهم-؛ وغيره"[2498].

وقال ابن حزم: "من تعمَّد ترك الصَّلاة حتى خرج وقتها، فهذا لا يقدر على قضائها أبدًا، فليكثر من فعل الخير وصلاة التطوُّع؛ ليثقل ميزانه يوم القيامة، ولْيَتُب وليستغفر الله -عز وجل-."[2499]

وقال ابن رجب: "المعذور إنَّما أمره بالقضاء؛ لأنَّه جعل قضاءه كفَّارة له، والعامد ليس القضاء كفَّارة له؛ فإنه عاصٍ تلزمه التوبة من ذنبه بالاتِّفاق... والعامد لم يأتِ نصٌّ بأن القضاء كفَّارة له، بل ولا يدل عليه النظر؛ لأنَّه عاصٍ آثم يَحتاج إلى توبة، كقاتل العمد، وحالف اليمين الغموس... وقد نص الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: على أن المصلي لغير الوقت كالتارك للصلاة في استتابته وقتله، فكيف يؤمر بفعل صلاة حكمها حكم ترك الصلاة؟... ولا يُعرف عن أحد من الصَّحابة في وجوب القضاء على العامد شيء، بل ولم أجد صريحًا عن التابعين-أيضًا-فيه شيئًا، إلا عن النخعي، وقد وردت آثارٌ كثيرة عن السَّلف في تارك الصلاة عمدًا أنَّه لا تقبل منه صلاة، كما رُوي عن الصديق -رضي الله عنه-."[2500]

وقد جرى المؤلف على مذهب إمامه الشافعي-حمه الله-في وجوب قراءة الفاتحة على كل مصلٍّ؛ إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا، في كل صلاة؛ فرضًا كانت أو نفلًا، سريةً كانت أو جهرية، في كل ركعة من ركعات الصلاة. وهو الراجح من الأقوال؛ لعموم قول النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)). [2501] والخلاف في هذه المسألة مشهور مبسوط في كتب الفروع.

2498 كتاب الصَّلاة وحكم تاركها (ص: 73-80).

2499 المحلى (2/ 235).

2500 فتح الباري (5/ 133-139).

2501 أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

وأما ما يفعله بعض المتصوفة، كما يصفه ابن القيم بقوله: "فالعارفون المتَّبعون منهم إذا جاء الأمرُ والنهيُ بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب جَمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يُفَرِّقه عن الله لم يُلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

ومن ذلك قول قائلهم:

يُطالب بالأوراد مَن كان غافلًا فكيف بقلبٍ كل أوقاته وِرْدُ

ثم هؤلاء-أيضًا-قسمان:

منهم مَن يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم مَن يقوم بها، ويَترك السُّننَ والنوافلَ وتَعَلُّمَ العلم النافع لجمعيته". [2502]

فبعض الصوفية يزعمون أنهم في حالٍ من الترقي والتعبد حتى يصلوا إلى الكشف، وإذا وصلوا إلى مقام الكشف، فعند ذلك يسقطون عن أنفسهم جميع التكاليف.

فلا يرى الواحد منهم أنه مخاطب بأحكام العبودية، ويرى أنه قد وصل أي: قد انتهى، ورفعت عنه التكاليف.

وهذا يفعله بعض المتصوفة اليوم، وهذا معلوم عند من يقرأ كلام المتصوفة، ويعلم أن عندهم في التعبد درجات، حتى يصل الإنسان إلى مثل هذه الدرجة فإذا وصل إليها لا يخاطب بحلالٍ ولا بحرام.

فإذا سئل أحد هؤلاء: لماذا لا تصلي الجمعة مع الناس؟ ولماذا لا تشهد الجماعة مع الناس؟ قال: هذه صلاة الغافلين، أما أنا فمع الله دائمًا.

فيفتَرون على الله سبحانه وتعالى بمثل هذه المزاعم الكاذبة التي هي في حقيقتها افتراء وكذبٌ على دين الله سبحانه وتعالى، فأنبياء الله تعالى وخاتمهم محمد ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت له عندها عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غَفر

2502 «مدارج السالكين» لابن القيم (1/ 106-111).

الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟)) (2503).

فالنبي-صلى الله عليه وسلم-بلغ ما بلغ من الدرجة والمنزلة عند الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك كان أشد الأمة حرصًا على عبادة الله جل وعلا، ولم يزعم هذا الزعم الذي زعمه هؤلاء.

فالشاهد: أن المتصوفة عندهم كثير من الزَّلَّات والأخطاء التي في حقيقتها انحراف عن منهج النبوة، فهم قومٌ استدرجهم الشيطان وأوقعهم في هذه المزالق.

(1) أخرجه البخاري (1130)، ومسلم (2819).

[لزوم السنة، والإيمان، والتفقه في الدين]

المسألة الأولى: طريقَ السَّنة هو لزومُ طريقِ أصحابِ النبي–صلى الله عليه وسلم– .

المسألة الثانية: أقسام الناس من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم.

المسألة الثالثة: من السنة لزوم الجماعة.

[٢٥]- **قال المصنف-رحمه الله-: "ولزوم السُّنَّة، والإيمان، والتفقه في الدِّين".**

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: طريقَ السنَّة هو لزومُ طريقِ أصحابِ النبي-صلى الله عليه وسلم-.

فمَن أرادَ الاستقامةَ على شرع الله-عز وجل-وعلى دينِ الإسلام فعليه بالتمسكِ بسنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-وذلك إنما يكون بما كان عليه فهمُ السلفِ الصالح من الصحابةِ والتابعين وتابعي التابعين.

التمسك والالتزام بالحق لا لأنه قولُ هذا الشخص ولكن لأنه قولُ أولئك ولذلك عبد الله بن مسعود قال: "مَن كان منكم مستَّنّاً فليستنَّ بمَن قد مات فإن الحيَ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة"، أولئك أصحابُ محمد أبَرَّ

هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".

فهم أبَرّ هذه الأمة قلوباً، أعظمها إيمانًا وأصلحها قلوبًا، وأعمقها علمًا، فمَن أعلم من أصحابِ محمد-صلى الله عليه وسلم-بهذا الدين؟ فليس هناك أعلم منهم، "وأقلها تكلُّفًا" أي أبعدُ الناسِ عن البدع، فلم ينقل أن أحداً من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-ابتدعَ أو أحدَثَ بدعة، هذا ما لم يكن، فهذه دعوةُ أهل السنَّة؛ إلى تمسكٍ بآثارهم، هل تكلمَ به أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أو أحدٌ من العلماء؟ فإن وجدت فيه أثرًا عنهم فتمسك به ولا تُجاوزه لشيء ولا تختارَ عليه شيئًا فتسقطَ فيه.

فإذاً لزوم السنَّة هو سفينةُ النجاة كما قال السلف، فإذا أردت سفينة النجاة فاركبها،

والسنَّة هي ما كان عليها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعي التابعين.

من السنة لزوم الجماعة، لأن أهل البدع نوعان:

نوع يزعم أن له متمسك في النصوص.

ونوع لا يزعم بل هو لا يرضى بالنصوص.

فإذا جئت للخوارج أو جئت للتشيع أو جئت للقدرية أو جئت للمرجئة، كل واحد من هؤلاء يزعم أنه له متمسك بالنصوص لكن وفق فهمه وهواه، ووفق رأيه هو، فعلى هذا الأساس انطلق من هذا الفهم لما يراه من رأي في هذا الأمر.

المسألة الثانية: أقسام الناس من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم.

فالناسُ يمكنُ تقسيمهم من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم إلى ثلاثةِ أقسام:

- فهناك أهل الحق الذين تمسكوا بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.
- هناك طوائف مالوا إلى ما يسمونه-زوراً وبهتاناً-مناهج عقلية، وهي في الحقيقةِ أوهامٌ وخيالات.
- وهناك طوائف مالوا إلى مناهجَ باطنية اعتمدت على ما يسمَّى بتقديس الأشخاص.

فالصراعُ والاختلافُ قائمٌ كما مرَّ معنا في ذكرِ النصوص الواردة في هذا والافتراقُ لابد منه، فلابد أن يتبَّصَّر الإنسان في هذا الأمر وأن يعرفَ أين يضع قدمه في هذا الباب؛ أي في باب التأصيل لأنه من هذا المنطلق تتحدد معالمُ الاختلاف والافتراق الواقع في هذه الأمة.

وكان فهم أهل السنة في مقابل هؤلاء ففهمهم ينطلق من الجماعة، الذين هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك لما أخبر النبي-صلى الله عليه وسلم-بافتراق هذه الأمة وقال: ((افترقت اليهود، وافترقت النصارى، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فعندما سئل من؟ قال: الجماعة، وفي رواية أخرى قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)).[2504]

فإذًا هذا المحك والفارق بين صاحب السنة وبين أهل هذا النوع من أهل البدع، فالمتمسك عند السني في الفهم هو الفهم الذي كان عليه أولئك، فإذا كان الخلفاء الراشدون، والمبشرون بالجنة، والذين رضي الله تعالى عنهم لم يكن فهمه الفهم الصحيح فمن سيكون فهمه صحيحًا؟!

وهذه التزكية إنما هي من قبل الله، وقبل رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

المسألة الثالثة: من السنة لزوم الجماعة.

فالجماعة هم أصحاب النبي، ينطلق هذا الفهم للفظ "الجماعة" من نصوص الكتاب والسنة، فالله تعالى زكى الصحابة في كتابه فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ} [التوبة: الآية:100] انظر هذا القيد، وهذا الشرط {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: الآية: 100]. فالله تعالى في هذه الآية أخبر بأنه رضي رضاء مطلقًا بدون قيد عن هؤلاء السابقين من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-، ورضي عنا بقيد وهو إتباعهم، وكما قال في الآية الأخرى :{وَمَنْ

2504 انظر: مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم (12242)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح، كتاب السلسلة الصحيحة (1492).

يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: الآية: 115].

فإذا لم يكن أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-يصدق عليهم وصف الإيمان، فعلى من يصدق وصف الإيمان؟ فإذا لم يكن هؤلاء الذين قاموا بنصرة الإسلام، والقيام بشأنه ونشره شرقًا وغربًا هم أهل الإيمان، فمن يكون أهل الإيمان بعد ذلك؟!

ولذلك خير هذه الأمة بعد نبيها أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-فمن السنة لزوم الجماعة، فمن رغب عن الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكان ضالًا مضلًا "

قال ابن القيم: "قَالَ الشَّافِعِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ-فِي رِسَالَتِهِ الْبَغْدَادِيَّةِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ: وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَصْحَابِ "رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَسَبَقَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مِنْ الْفَضْلِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ، فَرَحِمَهُمْ اللَّهُ وَهَنَّأَهُمْ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِبُلُوغِ أَعْلَى مَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَدَّوْا إلَيْنَا سُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَشَاهَدُوهُ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَعَلِمُوا مَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَامًّا وَخَاصًّا وَعَزْمًا وَإِرْشَادًا، وَعَرَفُوا مِنْ سُنَّتِهِ مَا عَرَفْنَا وَجَهِلْنَا، وَهُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ وَعَقْلٍ وَأَمْرٍ اُسْتُدْرِكَ بِهِ عِلْمٌ وَاسْتُنْبِطَ بِهِ، وَآرَاؤُهُمْ لَنَا أَحْمَدُ، وَأَوْلَى بِنَا مِنْ رَأْيِنَا عِنْدَ أَنْفُسِنَا، وَمَنْ أَدْرَكْنَا مِمَّنْ يَرْضَى أَوْ حُكِيَ لَنَا عَنْهُ بِبَلَدِنَا صَارُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِيهِ سُنَّةً إلَى قَوْلِهِمْ إنْ اجْتَمَعُوا، أَوْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ إنْ تَفَرَّقُوا، وَهَكَذَا نَقُولُ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقَاوِيلِهِمْ، وَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ وَلَمْ يُخَالِفْهُ غَيْرُهُ أَخَذْنَا بِقَوْلِهِ "وَلَمَّا كَانَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ قَالَ فِي الْجَدِيدِ فِي كِتَابِ الْفَرَائِضِ فِي مِيرَاثِ الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ: وَهَذَا مَذْهَبٌ تَلَقَّيْنَاهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَعَنْهُ أَخَذْنَا أَكْثَرَ الْفَرَائِضِ وَقَالَ: وَالْقِيَاسُ عِنْدِي قَتْلُ الرَّاهِبِ لَوْلَا مَا جَاءَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فَتَرْكُ صَرِيحِ الْقِيَاسِ لِقَوْلِ الصِّدِّيقِ، وَقَالَ فِي رِوَايَةِ الرَّبِيعِ عَنْهُ: وَالْبِدْعَةُ مَا خَالَفَ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ أَثَرًا عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجَعَلَ مَا خَالَفَ قَوْلَ الصَّحَابِيِّ بِدْعَةً، وَسَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إشْبَاعُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ،

وَذِكْرُ نُصُوصِ الشَّافِعِيِّ عِنْدَ ذِكْرِ تَحْرِيمِ الْفَتْوَى بِخِلَافِ مَا أَفْتَى بِهِ الصَّحَابَةُ، وَوُجُوبُ اتِّبَاعِهِمْ فِي فَتَاوِيهِمْ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ جُمْلَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَأَنَّ الْأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ.

ولَيْسَ مِثْلَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ لَا يُسَاوِيهِمْ فِي رَأْيِهِمْ، وَكَيْفَ يُسَاوِيهِمْ وَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَرَى الرَّأْيَ فَيَنْزِلُ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؟ كَمَا رَأَى عُمَرُ فِي أُسَارَى بَدْرٍ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ تُحَجَّبَ نِسَاءُ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؛ وَقَالَ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لَمَّا اجْتَمَعْنَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ} [التحريم: الآية: 5] فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، «وَلَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: الآية: 84] ».

"وَقَدْ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لَمَّا حَكَّمَهُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي بَنِي قُرَيْظَةَ: إِنِّي أَرَى أَنْ تُقْتَلَ "مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذُرِّيَّاتُهُمْ، وَتُغْنَمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: لَقَدْ حَكَمْت فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ».

وَلَمَّا اخْتَلَفُوا إلَى ابْنِ مَسْعُودٍ شَهْرًا فِي الْمُفَوَّضَةِ قَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنْهُ، أَرَى أَنَّ لَهَا مَهْرَ نِسَائِهَا لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، فَقَامَ نَاسٌ مِنْ أَشْجَعَ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَضَى فِي امْرَأَةٍ مِنَّا يُقَالُ لَهَا بِرْوَعَ بِنْتُ وَاشِقٍ مِثْلَ مَا قَضَيْت بِهِ، فَمَا فَرِحَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُ بِذَلِكَ.

وَحَقِيقٌ بِمَنْ كَانَتْ آرَاؤُهُمْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَكُونَ رَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرًا مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الرَّأْيُ الصَّادِرُ مِنْ قُلُوبٍ مُمْتَلِئَةٍ نُورًا وَإِيمَانًا وَحِكْمَةً وَعِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَفَهْمًا عَنْ اللَّهِ "وَرَسُولِهِ وَنَصِيحَةً لِلْأُمَّةِ، وَقُلُوبُهُمْ

عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِمْ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَهُمْ يَنْقُلُونَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ غَضًّا طَرِيًّا لَمْ يَشُبْهُ إِشْكَالٌ، وَلَمْ يَشُبْهُ خِلَافٌ، وَلَمْ تُدَنِّسْهُ مُعَارَضَةٌ، فَقِيَاسُ رَأْيِ غَيْرِهِمْ بِآرَائِهِمْ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ"[2505]

قال ابن تيمية: كان الزُّهْرِيُّ يَقُولُ": كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ هُوَ النَّجَاةُ"**2506**

وَقَالَ مَالِكٌ "السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ"**2507** .

وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْمِنْهَاجَ: هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوَصِّلُ الْعِبَادَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّسُولُ: هُوَ الدَّلِيلُ الْهَادِي الْخِرِّيتُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: الآية: 45] .وَقَالَ تَعَالَى :{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: الآيتان: 52،53] وَقَالَ تَعَالَى : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: الآية: 153]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: ((هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ))، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((هَذِهِ سُبُلٌ-قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ-عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)). ثُمَّ قَرَأَ : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: الآية: 153] **2508**[2509]"

والجماعة هي من جمعت أربع خصال:

2505 إعلام الموقعين (1/ 64).

2506 مجموع الفتاوى (4/ 57).

2507 ذم الكلام للهروي (5/ 81) وانظر مجموع الفتاوى (4/ 57).

2508 أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (4142) (7/ 207) وقال الألباني صحيح انظر، السنة لابن أبي عاصم (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني) (1/ 13)

2509 مجموع الفتاوى٤ / ٥٦-٥٧

1-الإجماع.

2-عدم الفرقة.

3-المنهج المتبع.

4-القدوة.

والطائفة الناجية قد توفرت فيها هذه الأمور، فهي مجتمعة على الحق المدلول عليه بنصوص الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وهي غير متفرقة لاعتقادها لزوم الاجتماع على إمام، وهي ذات منهج واضح المعالم محدد الغاية، وقدوتهم هم أفضل وخيار هذه الأمة؛ وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان ممن رفع الله مقامهم وأعلى قدرهم، كما قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: الآية: 100].

وقال عنهم النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)). [2510]

وقال عنهم لما سئل من هي يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي)). [2511]

وكل هذا يؤول إلى قوله صلى الله عليه وسلم: ((من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي)). وفي رواية: ((هي الجماعة)). [2512]

2510 أخرجه البخاري (٦٦٩٥).

2511 أخرجه الترمذي (2641) واللفظ له، والطبراني (14/ 53) (14646)، والحاكم (444).

2512 أخرجه من طرقٍ: ابنُ ماجه (3993) واللَّفظُ له، وأحمد (12208) دونَ ذِكرِ الجماعةِ. صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (3993)، وصحَّحه بشواهده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (12208)، وصحَّح إسنادَه العراقي في ((الباعث على الخلاص)) (16)، وجوَّده وقوَّاه على شرط الصَّحيح: ابنُ كثير في ((نهاية البداية والنهاية)) (1/ 27).

وهذا الحال الذي كان عليه أهل البدع، فلو نظرت إلى بدعة الخوارج، فبدعة الخوارج قامت على أصلين خطيرين:

-أولهما: الطعن في أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي حاولوا إخراج أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-عن الإسلام.

-وثانيهما: الطعن في الحكام.

فبدعة الخوارج قامت على هذين الأصلين: الطعن في العلماء، والطعن في الحكام.

ولذلك أهل البدع الذين يسلكون مثل هذا المسلك دائمًا يتبعونهم في هذين الأصلين، وهو الطعن في العلماء، والطعن في ولاة الأمر. فإذا لم تكن أمة من الأمم تقوم في كل أمرها على هذين الأمرين فلا قيام لها، فالله تعالى قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء: الآية: 59]، وقال العلماء في أولي الأمر: أنهم العلماء والحكام[2513]، فقام هؤلاء في الطعن في هذا الأصل. فإن الذي يخلع عن الجماعة فإنما في الحقيقة يخلع ربقة الإسلام، يخلع شعار هذا الدين، وشعار هذا الإسلام. فالأساس الذي تبنى عليه الجماعة هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنهم ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» [2514]فأمرنا بلزومها والتمسك بها.

وحذرنا ((وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)). [2515] و(كل) من ألفاظ العموم، كل بدعة ضلالة، فهل تريد لزوم الحق أو لزوم الضلال، فماذا بعد الهدى إلا الضلال! فهذا عمر

2513 أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (1/ 257) وصححه الألباني في صفة الفتوى والمفتي والمستفتي (54)

2514 انظر: سنن أبي داود أول كتاب السنة، باب: في لزوم السُنة، رقم: (4607) وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، (610، 937).

2515 أخرجه أبو داود (4607) واللفظ له، وأحمد (17185).

كما جاء في الأثر عنه: "لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة".[2516] لأن الأمور قد بينت والنبي-صلى الله عليه وسلم-أوضح لنا الطريق، وأقام علينا الحجة، فلا حجة لمحتج، الحق بين واضح وما على الإنسان إلا أن يسلكه، وأن يسير عليه.

وأهل البدع قد يكون سبب بدعهم كثيرة، فهناك الجهل، وهناك اتباع الهوى، وهناك أسباب أخرى من أسباب البدع لكن لا عذر لأولئك لأن هذا الدين في غاية من الوضوح، وفي غاية من البيان، فلذلك السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، فإذا لزمت الجماعة فأنت على السنة.

ومصدر التلقي واضح وهو كتاب الله، وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يتأتى إلا وفق فهم السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين.

وإذا علمنا أن مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة إنما هو كتاب الله، وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-، وأن فهم ذلك إنما يكون على ضوء فهم أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-، والتابعين، وتابعي التابعين، فهذه هي أسس أهل السنة والجماعة كما هو معلوم.

وهذه الأسس إذا تأملت فيها وجدت أن موقف أهل السنة من العقل ليس موقف التهميش والإلغاء التام، وليس موقف التقديس ورفع العقل فوق مقامه، ومكانه، ومنزلته؛ فأهل السنة عُرف عنهم الوسطية، والله تعالى قد قال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: الآية: 143]. فمن

2516 أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٨٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى برقم: (١٦٢) كل بسنده إلى الأوزاعي أنه بلغه أن عمر بن الخطاب، قال: وذكر الحديث.

وهو ضعيف لم يثبت عن عمر-رضي الله عنه-؛ للإنقطاع بين عمر والأوزاعي.

وأخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة برقم: (٩٥) حدثنا أبو حفص الباهلي ثنا شريح بن النعمان ثنا المعافى ثنا الأوزاعي قال قال عمر بن عبد العزيز: "لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى" وإسناده صحيح. فالقول لعمر بن عبد العزيز وليس عن عمر بن الخطاب..

وسطية أهل السنة وسطيتهم في شأن العقل، فلا يمكن أن نقدم عقولنا وآراءنا على كلام الله ورسوله، وكذلك لا يمكن أن نلغي العقل تمامًا، فما هو موقف أهل السنة ابتداء من العقل؟

كما قلنا: أن الله تعالى ركب في هذا الإنسان قوتان:

-قوة الإرادة والعمل.

-وقوة الفكر والنظر.

فالله أودع فينا هاتان القوتان، والعقل الذي هو الفكر والنظر قوة أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، وهذه القوة شأنها كشأن أي قوة في البدن، فعلى سبيل المثال قوة النظر والرؤية، فالعين فيها قوة الإبصار، وهذا الدماغ فيه قوة الفكر والتفكير، فقوة الإبصار قوة في العين لكن كما نعلم أن هذه القوة تتعطل في حال غياب الضوء، فإذا كنت في مكان مظلم ومغلق لن تبصر بعينك شيئًا، لأن هذه القوة بحاجة إلى الضوء حتى تبصر الأشياء على حقيقتها، كذلك العقل قوة الفكر والنظر لكنه في قضايا الغيب وفي قضايا الشرع هو بحاجة إلى ضوء ونور، وهذا الضوء والنور هكذا سماه الله تعالى في كتابه في شأن وحيه عز وجل. والله عز وجل قد قال لنا: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52]، فعقولنا في جانب شرع الله-عز وجل-هي بحاجة إلى هذا النور، وإلى هذا الوحي لكي نستطيع من خلال هذا الوحي والنور أن نعرف ما يجب علينا في حق الله عز وجل، ما يجب علينا في حق ملائكته، في حق كتبه، في حق رسله، في حق اليوم الآخر، في حق القدر خيره وشره، وفي حق جميع الأمور التي أوجبها الله تعالى علينا وتعبدنا بها.

فهذا هو موقف أهل السنة؛ أن العقل قوة في التفكير والنظر لكنه في قضايا الشرع بحاجة إلى نور، هذا النور هو الوحي الذي أنزله الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه-صلى الله عليه وسلم-. فمن هنا على الإنسان أن يعلم أمور دينه من خلال وحي الله عز وجل، والله-عز وجل-قد أكمل جميع جوانب الدين وبالتالي فالدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعلمه عند الله وعند رسوله، فلا تتبع شيئاً بهواك".

بينما أمور الدنيا الأخرى يقول فيها النبي-صلى الله عليه وسلم-لأهل المدينة في شأن تأبير النخل: ((أنتم أعلم بأمور دنياكم))[2517] ، أما أمر الدين فيؤخذ من قبل النبي-صلى الله عليه وسلم-، فعلى هذا يقف أهل السنة هذا الموقف من العقل فلم يعطلوه، ولم يلغوه تمامًا، فهو قوة إدراك وفهم الأمور، لكن هذه القوة يجب أن نستنير بنور الوحي في بيان ما أوجبه الله تعالى، وما أخبر الله تعالى به.

فعند ذلك نسخر هذه القوة علمًا في تعلم كتاب الله وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-على وفق ما كان عليه سلف هذه الأمة، فهذه هي النظرة المعتدلة للعقل.

وإذا عرفنا ما عند الآخرين عرفنا نعمة الله علينا، فالذين خالفوا الحق في هذا على أحد جانبين:

-إما أناس رفعوا شأن العقل فوق كلام الله، وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وقدسوه، وأعطوه من المنزلة ما ليست له.

-وأما أناس ألغوا العقل تمامًا، وهمشوه، ونحوه تمامًا.

فالقسم الأول: قدس العقل ورفع من شأنه، ومن منزلته، بل إنه يقول: إن العقل يستحيل أن يرد، ويستحيل أن يكذب، فيقول قائلهم: "كل ما دل العقل فيه على أحد الجانبين." يقصد بأحد الجانبين إما الجواز وإما المنع، فليس للتّعارض فيه مجال، "إذ الأدلة العقلية يستحل نسخها وتكاذبها"، يعني لا يمكن أن يتطرَّق إليها الشكّ، فهي قطعيّة ولا تقبل النّسخ ولا تقبل ماذا؟ ولا تقبل التكذيب، يعني أيوجد تقديس أكثر من هذا؟!

"فإن ورد دليل سمعي على خلاف العقل، فإما ألا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح." فإما ألاَّ يكون متواترًا، ما النتيجة؟ ما مؤدّاها؟ ردّ أحاديث الآحاد كلّها، هذا موقفهم من سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه، فحتى وإن جاء في الصحيحين، ما دام خبر آحاد فإنه غير صحيح غير عنده، لأنه يقول: "فإما ألا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح."

[2517] انظر صحيح مسلم كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا، دُونَ مَا ذَكَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا، عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ، برقم: (2363)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (12544).

"إذ الأدلة العقلية يستحيل نسخها وتكاذبها[2518]"، "فإذا ورد دليل من السمع" الذي هو قال الله، وقال رسوله بخلاف العقل، "فإما أن لا يكون متواترًا" فهذا مردود يعني أخبار الآحاد.

وأعلم أن أخبار الآحاد في النصوص هي الأغلب والأكثر، فهذا عندهم يضرب به عرض الحائط. وإما أن يكون متواترًا فيقول: يجب أن يؤول، لأنه خالف العقل، والعقل آراء الرجال، فأعطي العقل عندهم هذه القدسية، وإذا سألت: عقل من نتبع؟ عقل هذا؟ أو ذاك؟ أو ذاك؟

فالناس لهم عقول مختلفة وآراء مختلفة، هذا مأخوذ عندهم من الأصل الفلسفي، وهذا الأصل الفلسفي هو الذي تصير عليه الحضارة المادية اليوم، فالحضارة المادية اليوم تقوم على أصل فلسفي منذ القدم، هذا الأصل الفلسفي يقوم على أمرين:

المبدأ الأول: أن مصدر العلوم هو الإنسان أي عقل الإنسان، وهذا المبدأ يهدم الوحي، فلا قيمة عندهم لوحي، يرون أن مصدر العلم أو العلوم هو عقل الإنسان.

والمبدأ الثاني: عندهم أن العلوم تنحصر في المحسوس المشاهد، فيبقى أي غيب لا قيمة له.

وعلى هذا قامت الفلسفة، وعلى هذا تسير الحضارة المادية اليوم، فهب تقوم على هذين المبدأين.

والمبدأ الأول هدم للوحي.

والمبدأ الثاني هدم للغيب وأعظم الغيب هو الله سبحانه وتعالى، فمعنى هذا لا إيمان بالله عز وجل، ولا جنة، ولا بنار، ولا... إلى آخره.

على هذين المبدأين تقوم الفلسفة، فمن قدس العقل انطلق من المنطلق الأول أن أصل العلم، ومصدر العلم، ومنبع العلم عنده هو عقل الإنسان، ويا ترى هذا الإنسان ما حجم عقله؟ والله لن يحيط علمًا بما وراء هذا الجدار، بل أقرب شيء إليه وهو بين جنبيه لما أخفى الله حقيقته عنه لم ولن يستطيع أن يصل إليه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء: الآية: 85] هذا اختبار بسيط {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: الآية: 85].

2518 انظر المستصفى للغزالي (ص: 252).

فهذا الذي يكابر، ويخادع، ويقول: مصدر العلم هو الإنسان، فهذه الروح بين جنبيه بيه ولا تستطيع أن ينكرها، ومع ذلك لا سبيل لك إلى معرفة حقيقتها وكنهها. فكيف سيحيط علمًا برب العالمين؟ وكيف سيحيط علمًا باليوم الآخر؟ وكيف يحيط علمًا بعذاب القبر وغير ذلك؟

فالمبدأ مرفوض لكن هؤلاء سار من سار على نهجهم من أهل الفلسفة، وأهل الكلام، وبنوا مقدمات عقلية، وأخضعوا الدين لها، فإذا جاء من كلام الله وكلام رسوله ما يخالف ما عندهم، طعنوا في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وألغوا قيمة الوحي، وجعلوه أمرًا مهمشًا. فهذا الذي يقول: "إذ الأدلة العقلية يستحيل نسخها وتكاذبها"، قدس آراء الرجال قدمها على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فهل هذا يقبله إنسان يؤمن بالله عز وجل ويؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم؟

ولذلك كتب هؤلاء–للأسف الشديد–إذا ما قرأتها في هذه الأبواب، لن تجد فيها قال الله، ولا قال رسوله، وإنما ستجد قال العقلاء، قال الفضلاء، قال الحكماء، ومن العقلاء؟ ومن الفضلاء؟ ومن الحكماء؟

أرسطو، وأفلاطون، وإرسطاليس وهلم جرا، أناس ما عرفوا الله ورسوله فكيف نبني ديننا عليهم! لكن هذه حقيقة ماثلة واقعة أن كتب أولئك الناس امتلأت بهذه الفلسفات، وخلت من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فقدموا آراء الرجال، وقدموا عقولهم على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

والقسم الثاني: ألغى العقل تمامًا، فمدح الجنون، والوله، ومدح أحوالاً هي أبعد ما تكون من العقل، وعندما ترى أحوال أولئك تقول: إن المجانين أخف حالاً من حال هؤلاء، فبعض من أهل التصوف وأمثالهم ألغوا العقل، ومن رأوه مجنونًا وسموه ووصفوه بالولاية، وأنه ولي من أولياء الله، وأنه في حال فقد الإنسان لعقله، وفي حال سكره وولهه ووجده ويسمون ذلك الوجد أو الذوق وهذه الأحوال أنها أعلى المقامات.

فأنت بين هؤلاء وبين هؤلاء، وبين منهج أهل الحق الذي بحمد الله تعالى جعل هذا العقل آلة للفهم، لم يهمشه، ولم يلغه، ولم يرفعه فوق قدره، وإنما ربطه بالوحي.

وبالتالي نجد أن أهل السنة بحمد الله تعالى كما قال عنهم بعضهم: أعرف الناس بالحق، ونجد أن صاحب السنة في خضوعه، وفي عبوديته، إنما هو عبد لله عز وجل، وليس عبدًا الرجال، ولا عبدًا لأهواء الرجال، فهو متحرر من هذه القيود الباطلة والفاسدة، ولم يرتبط إلا بعبودية الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

فإذًا نحن أمام دين جاء من عند الله عز وجل، ولم يوضع من عقول الرجال، وكما قال علي رضي الله عنه : "لو كان هذا الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه"[2519].

دين نتعبد الله عز وجل به، فأمرنا بأن نمسح على ظاهر الخف ولم يأمرنا بأن نمسح على أسفله. فعلى هذا نعلم مدى وسطية أهل السنة في هذا الباب.

وعلينا أن نأخذ دين الله عز وجل من كلام الله وكلام رسوله، ووفق فهم سلف هذه الأمة كما أمرنا الله عز وجل، وأمرنا نبيه صلى الله عليه وسلم أن تتبع سبيلهم، وأن نسير على نهجهم.

ولو قال قائل كلامًا يخالف كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فما علينا إلا أن تضرب به عرض الحائط، لأنه خالف قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وخالف ما كان عليه السلف الصالح.

فبهذا نرتبط فكرًا، وإرادة وشعورًا، فارتباطنا بالواحد الأحد حبًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلاً، وإخلاصًا، وإنابة، فلا نرتبط بشخص فلان من الناس، بل حتى إذا أحببنا فحبنا تبع لحب الله عز وجل، بل إذا أبغضنا يكون هذا البغض تبعًا لبغض الله عز وجل: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا هو، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى أو يقذف في النار)). [2520]

فارتباط المؤمن فكرًا وإرادة بالواحد الأحد سبحانه وتعالى، وبوحيه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. فإذا سار على هذا النهج تخلص من أوهام وقيود أهل الباطل، فأصبح بعد ذلك لا يخضع لبشر من البشر، وإنما خضوعه وعبوديته لله-عز وجل-وحده.

2519 انظر سنن أبي داود (162)، والدارمي (742)، والإمام أحمد في المسند مسند الخلفاء الراشدين (1264)، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (163): صحيح.

2520 أخرجه البخاري (16)، ومسلم (43)، والترمذي (2624)، وابن ماجه (4033)، والنسائي (4987)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (12002).

وهذا لا يجد متعته إلا صاحب السنة، أما أصحاب البدع فتجدهم إما قد تعلقت عقولهم بآراء الرجال، أو تعلقت مشاعرهم بأهواء الرجال، فانحرف أولئك عن هذا الطريق.

ولذلك تجد عند أهل الباطل أن عامتهم كقطيع الغنم في غاية الجهل بدين الله عز وجل، وهذا الجهل يجعلهم أتباعًا وأذلة عند شيوخهم وعند ساداتهم، فملكوهم عقولهم، بل وملكوهم أموالهم، بل وملكوهم أعراضهم، بل وملكوهم دينهم، فأصبحوا مسلوبين في كل هذه الأمور.

أما صاحب السنة فهو في عزة، فإنه إذا قيل له شيء أو أمر بشيء فإنه إذا كان ذلك الشيء موافقًا لكلام الله ورسوله فلأنه كلام الله ورسوله، وإن كان مخالفًا فهو مضروب به عرض الحائض كما قال الأئمة في ذلك، كما قال ذلك مالك، وكما قال ذلك الشافعي، وكما تواصت به علماء هذه الأمة. يقول الإمام مالك: "كلاً يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر"[2521]. على هذا تربي صاحب السنة ونشأ، وهذا الإمام ينشئ، ويربي ذلك الجيل على هذه النظرة، وعلى هذا تنشأ الأجيال جيلًا بعد جيل.

فالدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، ولم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، أي: كن من المتيقنين الجازمين أن هذا الدين إنما جاء من عند الله تعالى؛ لأنه أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نزل عليه القرآن وأوحى إليه السنة كذلك لأنها وحي، أي ليس على رأيي ولا على رأي فلان، وإنما هو دين، والدين من الوحي، وهو من قبل الله عز وجل ولم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، فعقول الرجال وآرائهم لم يجعلها الله هي الميزان الذي يرجع إليه، وإنما الميزان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن الحق لا يعرف بعقول الرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.

فاعرف الحق تعرف أهله، ولقد أمر الله تعالى المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، وهذا يوجب تقديم السمع، وهذا هو الواجب إذ لو ردوا إلى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم لم يزد هذا الرد إلا اختلافا واضطرابا، وشكا وارتيابا.

2521 انظر: موطأ مالك (١/ 251)، والمدخل لابن الحاج (١/ 175).

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وقد كان العلماء من الصـــحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء: الآية: 59] . وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين"[2522].

ويقول الإمام إسماعيل الأصبهاني رحمه الله: "فإنا وجدنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في أحكام الدين فلم يفترقوا، ولم يصـــيروا شـــيعا لأنهم لم يفارقوا الدين، ونظروا فيما أذن لهم، فاختلفت أقوالهم وآراؤهم في مســائل كثيرة... وكانوا مع هذا الاختلاف أهل مودة ونصـح، وبقيت بينهم أخوة الإســلام ولم ينقطع منهم نظام الألفة"[2523]

ولذلك قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: الآية: 213].

فأنزل الله الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ لا يمكن الحكم بين الناس في موارد النزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء، ولا ريب أن بعض الناس قد يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره، وإن لم يمكنه بيان ذلك لغيره، ولكن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط.

وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموفق للشرع.

وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

2522 ((الفتاوى)) (42/ 95).

2523 الحجة في بيان المحجة (ص: 241) باختصار.

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمجالات العقول بل بمجاراة العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته[2524].

ولا تتبع شيئًا بهواك"، لأن الهوى هو الذي أضل من أضل من الناس فبسبب اتباع الهوى، هوى في النفس، أو هوى في الرأي، انحرف من انحرف وضل من ضل في هذا الباب، قال تعالى: {وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [ص: الآية: 26] فعلم أن الهوى طريق مخالف لسبيل الله.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم خط خطًا، وخط من جانبه خطوط، وقال: «هذا صراط الله مستقيمًا"، ثم قال: «وهذه السبل، وعلى كل سبيل منها شيطان[2525]« ثم تلا قول الله عز وجل: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: الآية: 153] أمور نقرأها في كلام الله عز وجل، فبالله كيف نخالفه؟ وكيف نحيد عنها؟

فلا تتبع الهوى فتمرق من الدين فتخرج من الإسلام، فإنه لا حجة لك" نعم، والله لا عذر لنا، ولا حجة لنا والعلة في ذلك كما ذكر المصنف

"فقد بين رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لأمته السنة، وأوضحها لأصحابه وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، والسواد الأعظم: الحق وأهله"

نعم ليس الحق بكثرة الناس {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: الآية: 103]، فأهل الحق قد يكونون قلة لكن السواد الأعظم هم الحق وأهله.

2524 بتصرف موسع، انظر درء تعارض العقل والنقل (1/ 146).

2525 انظر سنن الدارمي (208)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (4142)، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (١/ 58): حسن.

[تلقين الميت الشهادتين]

المسألة الأولى: تلقين الميت المسلم.

المسألة الثانية: تلقين الكافر.

[٢٦]- **قال المصنف-رحمه الله-: "ومن حضرني منكم فليُلقني: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله".**

الشرح

المسألة الأولى: تلقين الميت المسلم.

المراد بتلقين الميت أن يكون عنده من يذكره النطق بـ (لا إله إلا الله)، كما لو كان يُعَلِّم صبيا ويلقنه، والمراد بالميت هنا : المحتضَر الذي نزل به الموت

وإنما استُحِب تلقين الميت كلمة الإخلاص في هذه الحال ، لأجل أن يختم له بها ، وتكون آخر ما نطق به من الكلام ، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم به ؛ فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)) [2526]

2526 أخرجه مسلم (916).

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)) [2527]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ : ((يَا خَالُ ، قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)). قَالَ: خَالٌ أَمْ عَمٌّ ؟! قَالَ : ((بَلْ خَالٌ)). قَالَ: وَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَهَا ؟! قَالَ: ((نَعَمْ)). [2528]

ولا ينبغي إيذاء المحتضر بالإكثار عليه في التلقين ، إذا قالها ولم يتكلم بعدها بشيء

قال النووي: "وَكَرِهُوا الإِكْثَار عَلَيْهِ وَالْمُوَالاة لِئَلا يَضْجَر بِضِيقِ حَاله وَشِدَّة كَرْبه، فَيَكْرَه ذَلِكَ بِقَلْبِهِ , وَيَتَكَلَّم بِمَا لا يَلِيق . قَالُوا: وَإِذَا قَالَهُ مَرَّة لا يُكَرِّر عَلَيْهِ إِلا أَنْ يَتَكَلَّم بَعْده بِكَلامٍ آخَر , فَيُعَاد التَّعْرِيض بِهِ لِيَكُونَ آخِر كَلَامه" انتهى .

ولَمَّا احْتُضِرَ عبد الله بْنُ المبَارَكِ رحمه الله، جَعَلَ رَجُلٌ يُلَقِّنُهُ، قُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . فَأَكْثَرَ عَلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ: لَسْتَ تُحْسِنُ! وَأَخَافُ أَنْ تُؤْذِيَ مُسْلِماً بَعْدِي، إِذَا لَقَّنْتَنِي ، فَقُلْتُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ثُمَّ لَمْ أُحْدِثْ كَلاَماً بَعْدَهَا ، فَدَعْنِي ، فَإِذَا أَحْدَثْتُ كَلاَماً ، فَلَقِّنِّي حَتَّى تَكُوْنَ آخِرَ كَلاَمِي". [2529]

المسألة الثانية: تلقين الكافر.

ويشرع هذا التلقين، ولو كان الميت كافرًا، لأنه لو قالها قبل النزع نفعه قوله ، ولو عذب ما عذب بذنوبه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ؛ فإنه من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوما من الدهر ، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه)). [2530]

2527 أخرجه أحمد (21529) وأبو داود (3116) وحسنه الألباني في "إرواء الغليل" (687) ..

2528 أخرجه أحمد (13414)، وقال الألباني في أحكام الجنائز: إسناده صحيح على شرط مسلم.

2529 "سير أعلام النبلاء" (8/ 418).

2530 رواه ابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (5150).

ومما يدل على أن الأمر بالتلقين يعم الكافر، فعل النبي-صلى الله عليه وسلم-مع عمه أبي طالب، ومع الغلام اليهودي الذي كان يخدمه.

فقد حضر النبي-صلى الله عليه وسلم-موت عمه أبي طالب، وقال له : ((أَيْ عَمِّ ، قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)) [2531]

وحضر النبي-صلى الله عليه وسلم-موت الغلام اليهودي الذي كان يخدمه، وقال له: ((أَسْلِمْ)) [2532]-

وفي رواية: ((قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)) [2533]

المسألة الثالثة: كيفية تلقين الميت.

فائدتان عن الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

أولًا: هل يكون التلقين بلفظ الأمر؛ بمعنى أن الملقن يأمر المحتضر، فيقول له : قل: لا إله إلا الله، أو يتلفظ بها أمامه بحيث يتذكرها إذا سمع من يقولها بجانبه؟

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

"ينبغي في هذا أن ينظر إلى حال المريض، فإن كان المريض قوياً يتحمل، أو كان كافرًا فإنه يؤمر ، فيقال : قل: لا إله إلا الله، اختم حياتك بلا إله إلا الله، وما أشبه ذلك.

وإن كان مسلماً ضعيفاً فإنه لا يؤمر ، وإنما يذكر الله عنده حتى يسمع فيتذكر ، وهذا التفصيل مأخوذ من الأثر ، والنظر .

أما الأثر فلأن النبي-صلى الله عليه وسلم-أمر عمه أبا طالب عند وفاته أن يقول: لا إله إلا الله، قال : ((يا عم قل : لا إله إلا الله)).

وأما النظر: فلأنه إن قالها فهو خير، وإن لم يقلها فهو كافر، فلو فرض أنه ضاق صدره بهذا الأمر ولم يقلها فهو باق على حاله لم يؤثر عليه شيئًا، وكذا إذا كان مسلمًا وهو ممن يتحمل فإن أمرناه بها لا يؤثر عليه،

2531 أخرجه البخاري (3884)، ومسلم (24).

2532 رواه البخاري (1356).

2533 أخرجه أحمد (12381).

وإن كان ضعيفًا فإن أمرناه بها ربما يحصل به رد فعل بحيث يضيق صدره، ويغضب فينكر وهو في حال فِراق الدنيا، فبعض الناس في حال الصحة إذا قلت له قل: لا إله إلا الله ، قال : لن أقول : لا إله إلا الله، فعند الغضب يغضب بعض الناس حتى ينسى، فيقول : لا أقول : لا إله إلا الله، فما بالك بهذه الحال؟

ثانيا: "تلقينه لا إله إلا الله" ولم نقل: محمد رسول الله؛ لأن هذا هو الذي ورد فيه الحديث: ((لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله))، وقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)). فكلمة التوحيد مفتاح الإسلام، وما يأتي بعدها فهو من مكملاتها وفروعها.

ولو جمع بين الشهادتين؛ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا يمنع هذا من أن يكون آخر كلامه من الدنيا "لا إله إلا الله"؛ لأن الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة تابع لما قبلها ومتممٌ له، ولهذا جعلها النبي-صلى الله عليه وسلم-مع الشهادة لله بالألوهية ركنًا واحدًا، فلا يعاد تلقينه، وظاهر الأدلة أنه لا يكفي قول المحتضَر: أشهد أن محمدًا رسول الله، بل لا بد أن يقول: لا إله إلا الله". [2534]

وقد يستدل على أمر المسلم بها إذا كان قوي الإيمان بحديث الأنصاري المتقدم وفيه أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بقول لا إله إلا الله ((يَا خَالُ، قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)).

وكذلك قول الطبيب لعمر بن الخطاب بعدما سقاه اللبن: "فَخَرَجَ اللَّبَنُ مِنْ الطَّعْنَةِ صَلْدًا أَبْيَضَ، فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اعْهَدْ! فَقَالَ عُمَرُ: صَدَقَنِي، وَلَوْ قُلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ كَذَّبْتُكَ، فَبَكَى عَلَيْهِ الْقَوْمُ حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: لا تَبْكُوا عَلَيْنَا، مَنْ كَانَ بَاكِيًا فَلْيَخْرُجْ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ)). [2535]". [2536]

2534 "الشرح الممتع" (5/ 177).

2535 رواه أحمد (296) . قال أحمد شاكر : إسناده صحيح.

2536 المصدر: موقع الإسلام سؤال وجواب.

[تعاهد الأظافر والشارب قبل الوفاة]

أولًا: قول الأحناف والمالكية.

ثانيًا: قول الشافعية.

ثالثًا: قول الحنابلة.

[٢٧]- **قال المصنف-رحمه الله-: "وتعاهدوا الأظفار والشارب قبل الوفاة إن شاء الله".**

الشرح

الأقوال في المسألة:

أولًا: قول الأحناف والمالكية.

قال أبو حنيفة [2537] ومالك [2538]: "لا يؤخذ من الميت شيء؛ لأنه قطع شيءٍ منه فلم يستحب كالختان".

ثانيًا: قول الشافعية.

قال النووي: "قال المصنف-رحمه الله-: "وفي تقليم أظفاره وحف شاربه وحلق عانته قولان:

أحدهما: يفعل ذلك لأنه تنظيف فشرع في حقه كازالة الوسخ.

والثاني: يكره وهو قول المزني لأنه قطع جزء منه فهو كالختان

قال الشافعي: "ولا يحلق شعر رأسه".

قال أبو إسحق: إن لم يكن له جمه حلق رأسه لأنه تنظيف فهو كتقليم الاظفار والمذهب الأول لأن حلق الرأس يراد للزينة لا للتنظيف)

(والقديم) لا تفعل وللأصحاب طريقان

2537 فتح القدير (1/ 451)، وحاشية ابن عابدين 2/210.

2538 الشرح الصغير (1/ 202)، وحاشية الدسوقي (1/ 422).

(أحدهما) أن القولين في الاستحباب والكراهة

(أحدهما) يستحب.

(والثاني) يكره وهذه طريقة المصنف هنا وشيخه القاضي أبي الطيب في تعليقه وصاحب الحاوي والغزالي في الوسيط والخلاصة وصاحب التهذيب والروياني في الحلية وآخرين من الأصحاب.

(قال) صاحب الحاوي القول الجديد أنه مستحب وتركه مكروه وقطع المصنف في التنبيه والجرجاني في التحرير باستحبابه

(والطريق الثاني) أن القولين في الكراهة وعدمها

(احدهما): يكره.

(والثاني) لا يكره ولا يستحب قطعا وبهذا الطريق قال الشيخ أبو حامد والمحاملي والبندنيجي وابن الصباغ والشاشي وآخرون وهو ظاهر نص الشافعي في الأم فإنه قال من الناس من كره أخذه ومنهم من رخص فيه.

(وأما) قول الرافعي لا خلاف أن هذه الأمور لا تستحب وإنما القولان في الكراهة (فمردود) بما قدمته من إثبات الخلاف في الاستحباب مع جزم من جزم وعجب قوله هذا مع شهرة هذه الكتب لا سيما الوسبط والمهذب والتنبيه.

وأما الاصح من القولين فصصح المحاملي أنه لا يكره وقطع به في كتابه المقنع وصحح غيره الكراهة وهو المختار ونقله البندنيجي عن نص الشافعي في عامة كتبه منها الأم ومختصر الجنائز والقديم وقد قال الشافعي في مختصر المزني من أصحابنا من رأى حلق الشعر وتقليم الأظفار ومنهم من لم يره قال الشافعي وتركه

أعجب إلي هذا نصه وهو صريح في ترجيح تركه ولم بصرح الشافعي في شئ من كتبه باستحبابه جزمًا إنما حكى اختلاف شيوخه في استحبابه وتركه واختار هو تركه فمذهبه تركه وما سواه ليس مذهبا له فيتعين ترجيح تركه ويؤيده أيضًا أن الشافعي قال في المختصر والأم ويتتبع الغاسل ما تحت أظافير الميت بعود حتى يخرج الوسخ.

قال القاضي أبو الطيب في تعليقه قال أصحابنا هذا تفريع من الشافعي على أنه يترك أظافيره، وأما إذا قلنا تزال فلا حاجة إلى العود فحصل أن المذهب أو الصواب ترك هذه الشعور والأظفار لأن أجزاء الميت محترمة فلا تنهتك بهذا ولم يصح عن النبي-صلى الله عليه وسلم-والصحابة-رضي الله عنهم-في هذا شئ فكره فعله وإذا جمع الطريقان حصل ثلاثة أقوال:

(المختار) يكره

(والثاني) لا يكره ولا يستحب.

(والثالث) يستحب وممن استحبه سعيد بن المسيب وابن جبير والحسن البصري وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وممن كرهه مالك وأبو حنيفة والثوري والمزني وابن المنذر والجمهور ونقله العبدري عن جمهور العلماء.

قال أصحابنا وإذا قلنا تزال هذه الشعور فللغاسل أن يأخذ شعر الابط والعانة بالمقص أو الموسى أو النورة فإن نوره غسل موضع النورة هذا هو المذهب والمنصوص في الأم وبه قطع الجمهور وفيه وجه أنه يتعين النورة في العانة لئلا ينظر إلى عورته وبهذا قطع البندنيجي والمحاملي في المجموع ووجه ثالث أنه يستحب النورة في العانة والابط جميعًا وبه حزم صاحب الحاوي والمذهب التخيير كما سبق، لكن لا يمس ولا ينظر من العورة إلا قدر الضرورة.

وأما الشارب فاتفق الأصحاب على أنه إذا قلنا يزال أزاله بالمقص كما يزيله في الحياة قال المحاملي وغيره يكره حف الشارب في حق الحي والميت جميعًا ولكن يقصه بحيث لا تنكشف شفته.

وأما قول المصنف حف شاربه فمراده قصه لا حقيقة الحف كما قاله أصحابنا.

وإذا قلنا يزيل هذه الشعور والأظفار استحب إزالتها قبل الغسل صرح به المحاملي وابن الصباغ وغيرهما قال ابن الصباغ في أول باب غسل الميت يفعلها قبل غسله.

قال وقد أخل المزني بالترتيب فذكره بعد الغسل وكان ينبغي أن يذكره قبله قلت وكذا عمل المصنف وجمهور الأصحاب ذكروه بعد الغسل وكأنهم تأسوا بالمزني-رحمه الله- ولا يلزم من هذا أنهم يخالفون في استحباب تقديمه وقد أشار المصنف إلى تقديمه بقوله قبل هذا ويتتبع ما تحت أظفاره إن لم يكن قلمها". [2539]

ثالثًا: قول الحنابلة

قال ابن قدامة-رحمه الله-: مسألة؛ قال: (وإن كان شاربه طويلا أخذ، وجعل معه) وجملته أن شارب الميت إن كان طويلا استحب قصه. وهذا قول الحسن، وبكر بن عبد الله، وسعيد بن جبير، وإسحاق. وقال أبو حنيفة، ومالك: لا يؤخذ من الميت شيء لأنه قطع شيء منه فلم يستحب، كالختان. واختلف أصحاب الشافعي كالقولين. ولنا، قول النبي-صلى الله عليه وسلم-: «اصنعوا بموتاكم كما تصنعون بعرائسكم». [2540]

2539 المجموع للنووي (٥/ ١٧٨-١٨٢)

2540 لم يقف عليه من قول أنس رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (2/ 106): "هذا الحديث ذكره الغزالي في الوسيط بلفظ: "افعلوا بموتاكم ما تفعلون بأحيائكم"، وتعقبه ابن الصلاح بقوله: بحثت عنه فلم

والعروس يحسن، ويزال عنه ما يستقبح من الشارب وغيره، ولأن تركه يقبح منظره، فشرعت إزالته، كفتح عينيه وفمه شرع ما يزيله، ولأنه فعل مسنون في الحياة لا مضرة فيه، فشرع بعد الموت، كالاغتسال. ويخرج على هذا الختان؛ لما فيه من المضرة. فإذا أخذ الشعر جعل معه في أكفانه؛ لأنه من الميت، فيستحب جعله في أكفانه كأعضائه؛ وكذلك كل ما أخذ من الميت من شعر أو ظفر أو غيرهما، فإنه يغسل ويجعل معه في أكفانه كذلك.

فصل: فأما الأظفار إذا طالت ففيها روايتان:

إحداهما، لا تقلم. قال أحمد: لا تقلم أظفاره، وينقى وسخها. وهو ظاهر كلام الخرقي؛ لقوله: والخلال يستعمل إن احتيج إليه. والخلال يزال به ما تحت الأظفار؛ لأن الظفر لا يظهر كظهور الشارب، فلا حاجة إلى قصه.

والثانية، يقص إذا كان فاحشا. نص عليه؛ لأنه من السنة، ولا مضرة فيه، فيشرع أخذه كالشارب. ويمكن أن تحمل الرواية الأولى على ما إذا لم تكن فاحشة". [2541]

أجده ثابتًا، وقال أبو شامة في كتاب السواك: هذا الحديث غير معروفٍ. وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (14/ 267): "لا أصل له".

2541 المغني لابن قدامة (٢/ ٤٠٣-٤٠٤).

[حضور الحائض عند الوفاة]

[٢٨]- **قال المصنف-رحمه الله-:** **"فإذا حضرت فإن كانت عندي حائض فلتقِم".**

الشرح:

عن الحسن أنه كان لا يرى بأسًا أن تحضر الحائض الميت. 2542

والكراهة قول الحنابلة. 2543

وقالت المالكية: يندب تجنب حائض وجنب وتمثال وآلة لهو. 2544

وقد نَصَّ فُقهاءُ الحنفيةِ على أنَّه ينبغي أن تخرُجَ النُّفساءُ والجُنُبُ وكذلك الحائضُ من عندِ الميتِ. 2545

[تطييب الميت عند فراشه]

[٢٩]- **قال المصنف-رحمه الله-:** **"وليُطَيِّبوا، وليُدخّنوا عند فراشي".**

الشرح

2542 المصنف لابن أبي شيبة (٤ / ٧٥).

2543 كشاف القناع (٢/ ٨٣).

2544 مصنف ابن أبي شبة (٤/ ٨٧)، وكفاية الطالب (١/ ٣١٣).

2545 الفتاوى الهندية (١/ ١٦٣)، الدر المختار (٢/ ٢٣٣).

عن جَابِرٍ–رضي الله عنه–، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((إِذَا أَجْمَرْتُمْ الْمَيِّتَ فَأَجْمِرُوهُ ثَلاثًا)). [2546]

وَالْمَعْنَى: بَخَّرْتُمْ الْمَيِّت ، والميت: يطلق على الذكر والأنثى.

والمراد: تبخير الكفن، وقد ذكر البيهقي في سننه [2547] أن هذا الحديث رُوِي بلفظ : ((جَمِّرُوا كَفَنَ الْمَيِّتِ ثَلاثًا)) . [2548]

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ–رضي الله عنهما–، أَنَّهَا قَالَتْ لأَهْلِهَا: (أَجْمِرُوا ثِيَابِي إِذَا مِتُّ، ثُمَّ حَنِّطُونِي). [2549]

قال أبو الوليد الباجي: "الْحَنُوطُ" ما يجعل في جسد الميت وكفنه من الطيب والمسك والعنبر والكافور وكل ما الغرض منه ريحه دون لونه؛ لأن المقصود منه ما ذكرنا من الرائحة دون التجمل باللون". [2550]

أما موضع الطيب على جسد الميت:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "الكافور يوضع على مواضع السجود". [2551]

وهي : الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان ، لأنه كان يسجد بهذه الأعضاء فخصت بزيادة الكرامة. [2552]

2546 رواه الإمام أحمد (14131) وقال النووي في "المجموع" (5/ 155) : إسناده صحيح . وصححه الألباني في صحيح الجامع (278).

2547 سنن البيهقي (3/ 568).

2548 "بدائع الصنائع" (1/ 307).

2549 رواه مالك في "الموطأ" (528) والبيهقي في "السنن الكبرى" (3/ 568).

2550 المنتقى شرح الموطأ (٢/ ١٠).

2551 رواه البيهقي في السنن (3/ 568).

2552 شرح فتح القدير (٢/ ١١٠).

وهذا الحكم-وهو استحباب تطيب الميت-لا يشمل المحرم بحج أو عمرة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في المحرم الذي مات بعرفة : ((وَلا تَمَسُّوهُ بِطِيبٍ)). [2553] ، وفي رواية لهما : ((وَلا تُقَرِّبُوهُ طِيبًا)).

قال النووي: "يستحب تبخير الكفن إلا في حق المحرم والمحرمة". [2554]

2553 رواه البخاري (1851) ومسلم (1206).

2554 "المجموع" (5/ 156).